أنشودة الشباب

تأليف: يانغ مو

ترجمة المحامي سهيل أيوب



دار دمشق

أنشودة الشباب

تأليف: يانغ مو

ترجمة المحامي سهيل أيوب

دار دمشق

المقدمة

النصف الاول من عام ۱۹۳۰ كان فترة حالكة بالنسبة الى الصين. وكانت البلاد تقاسي أزمة وطنية مفعمة باليأس . فقد راح الأمبرياليون اليابانيون ، بُعيد احتلالهم المقاطعات الشمالية الشرقية الاربع في الصين في الثامن عشر من أيلول ۱۹۳۱ ، يتوغلون أكثر فأكثر داخل الاراضي الصينية . وهاجموا، شيئاً بعد شيء ، شانغهاي وشاهار وسويوان، واحتلوا شرقي هوبيي ، وخططوا للاستيلاء على كامل المقاطعات الخمس في شمال الصين .. وهدّد الدمار البلاد ، فاتبعت حكومة الكيومنتانغ سياسة الاستسلام ووقعت عدداً من الاتفاقيات أعطت اليابان بموجبها عدداً من الامتيازات ؛ كما أرسلت قوات من مئات الوف الجنود ، وأحياناً الملايين ، ضد القواعد الثورية والجيش الاحمر التي أنشأها الحزب الشيوعي الصيني ، وشرعت تندد بالعدوان الياباني بكل عزم واصرار . ومن بَعْدُ أرسلت القوات لملاحقة الجيش الاحمر وايقاف مسيرته صوب الشمال لمقاومة اليابان ، وأسرت في الاقليم الابيض وقتلت أعداداً لاحصر لها من الشيوعيين والمناضلين الفتيان . عندها شنّ الشبان الذين يقدسون بلادهم ،بقيادة الحزب الشيوعي الصيني ، نضالاً عزوماً شاقاً. وفي شتاء عام ۱۹۳٥ ، حينما أقام اليابانيون حكومة ألعوبة في هوبيي وشاهار ، وغدا شمالي الصين بأسره مهدداً ، شنّ طلاب بيبينغ ، وهم يطلقون شعار « انهض ، ياشعب الصين ، لإنقاذ البلاد ! » ، حركة « التاسع من ديسمبر » التاريخية ، الاستهلالة المجيدة لمقاومة الشعب الصيني ضد العدوان الياباني .

هذه الاحداث هي خلفية قصة « انشودة الشباب » . ان أعدادا لاحصر لها من الشباب والشابات والفتيان الذين لايهابون الرشاشات والحراب ، السجن والعذاب أو حتى الاعدام ، شنئت نضالاً عنيدا ضد العدو . وعندما كان أحدهم يسقط فقد كان غيره يهب ويأخذ مكانه . بعضهم فارق الحياة والابتسامة على شفتيه ، واثقا أن للبلاد مستقبلا براقا ؛ وبعضهم الاخر انطلق قدما فوق آثار الخطوات المصبوغة بالدماء لأولئك الذين سقطوا ... وفي النهاية تحرّرت الصين في عام ١٩٤٩ ،وغدا الحلم الذي داعب آمال كثيرين من الذين ضحوا بحياتهم حقيقة ، وشرعت الصين تبني الاشتراكية بصورة تذهل الألباب . ونحن ، الذين قدّرَ لنا أن نظل على قيد الحياة ونرى زهور النصر الرائعة ، لانستطيع الا ان نتذكر أولئك الذين أراقوا دماءهم فنحضنهم بالذكرى . لذلك شرعت ،في عام ١٩٥٠ ، في كتابة هذه الرواية . فقد أهاجتني جميع الأمور التي وقعت عيناي عليها أو التقطتها أذناي عن بطولات الثوريين .

كنت في الفترة التي تدور فيها أحداث هذا الكتاب طالبة عاجزة عن اتمام دراستي أو العثور على عمل . وانا أعرف من تجربتي الخاصة كم كان قدر المثقفين في الصين قاسيا ، وأعرف أن المخرج الوحيد بالنسبة الى الشباب كان انتسابهم الى الحزب الشيوعي والمشاركة في الثورة . كان هذا كله يفعم ذهني عندما خلقت شخصية لين تاو ــ شينغ. وهذه الرواية عبارة عن احتجاج مثقفة شابة ضد المجتمع القديم .

النور أقوى من الظلمة ، والشهامة أقوى من الخسة ، واللاأنانية ينبغي أن تنتصر على الانانية ، ويجب ان تنتصر السعادة على الشقاء... ولابدّ أن نعيش رجالا حقيقيين . هذا ما حاولت أن أعبر عنه في كتابتي. فاذا أتاح هذا الكتاب للاصدقاء في الخارج أن يتفهموا بصورة أفضل لماذا نجحت الثورة الصينية ، وكيف ناضل الشعب الصيني بشجاعة، وخاصة الشبان ، فلسوف أشعر أني نلتُ مكافأتي .

يانغ مو

بكين ، أيار ١٩٦٣

القسم الاول

١

في بكور احد الصباحات كان قطار بيبينغ ـ شينيانغ السريع منطلقا فوق الأراضي الخضراء ـ المزرقة المترامية . وكانت حقول القمح الوفير، وجداول فضية اللون ، وبيوت طينية لونها بُنّي باهت ، واعمدة أسلاك البرق تومض امام أعين المسافرين المتخذين أماكنهم أمام نوافذ العربات. وكان المسافرون يستنشقون هواء الصباح النقي ملء رئاتهم ويمدون انظارهم الى الحقول . وعندما يتعبهم ذلك فهم يستديرون عن النوافذ، فيتثاءب بعضهم ويتلفت بعضهم الآخر في ارجاء القطار باحثين عن شيء جديد يستثير اهتمامهم . وكان انتباه عدد منهم منجذباً منذ زمن الى شيء من متاع غير عادي : حزمة صغيرة ملفوفة بغطاء احد الاسرّة ربط بها كمان ، ومزمار من الخيزران ، وآلة نفخ موسيقية وقد لفّ كل منها بقطعة من حرير أبيض ممتاز . وبالقرب من الحزمة قيثارة منطادية، وقيثارة قمرية ، وارغن صغير من قصب .. وقد خطر لبعض المسافرين ان هذه الاشياء تخص احد باعة الآلات الموسيقية . غير ان مالكها لم يكن تاجراً بل طالبة في الثامنة عشرة من عمرها ثبّتت عينيها على أشيائها سهلة الانكسار . كانت ترتدي ثوبا قصيرا من الموسلين الابيض ، وجوربا قطنيا ابيض ، وحذاء أبيض من قماش القنب ، وتحمل في يدها منديلا عادياً أبيض ـ وباختصار فقد كانت ترتدي البياض من فرعها حتى قدميها. ولما كانت تسافر وحيدة فقد جلست في تأدب في أحدى زوايا العربة تمدّ بصرها من خلال النافذة . كان وجهها شاحباً ، أما عيناها الواسعتان السوداوان فملتمعتين . وسرعان ما استرعت الفتاة الوحيدة الفاتنة ، المرتدية ثيابا بسيطة ، اهتمام زملائها المسافرين ، والرجال منهم بصورة

خاصة ، فأخذوا يتبادلون الملحوظات والتخمينات عنها . أما هي فبقيت غافلة عن ذلك كما لو كانت منفصلة تماما عما يحيط بها . ظلّت جالسة على ذلك المنوال زمناً طويلا ، ضائعة في لفائف أفكارها .

أثار منظرها غير المألوف ،وجمالهاالغريب،وحبها الواضح للموسيقى فضولاً بالغا ، وسرعان ما غدت الموضوع الرئيسي للحديث .

همس طالب يرتدي الثياب الغربية في أذن رفيقه : « أتظنّ أنّ الحب يلوّعها ؟» .

واعلن تاجر سمين ، وهو يقترب من الطالب خالعا على وجهه نظرة ماكرة : « تلك الكومة من الآلات يمكن ان تجمع من عشرة الى عشرين دولارا في أقل تقدير . ترى، ماهي حاجة سيدة شابة الى هذه الاشياء كلها ؟ اتظنها تغني في الشوارع لتكسب مايقوم بأودها ؟» .

فما أعطاه الطالب جوابا ، بل رماه بنظرة واستدار عنه . ثم انضمّ الى اصدقائه بعد أن شمل الفتاة المرتدية البياض بنظرة غرامية .

هبطت الفتاة على قدميها عندما وقف القطار في بيتايهو ، وحملت آلاتها التي بدا أنها المتاع الوحيد لديها . ورمقها المسافرون المتابعون للرحلة بعيون مشدوهة مفعمة عطفاً فيما هي تسير على رصيف المحطة .

كان هدوء شامل يخيم على المحطة الصغيرة . فقد انطفأت الضجة والحركة السريعتان اللتان تصاحبان وصول القطار عادة مثلمايتبخّر دخان القاطرة الابيض ، وعاد المكان ، مرة اخرى ، هادئا مهجورا .

وقفت الفتاة ومتاعها في يديها تتلفّت حواليها في جميع الاتجاهات، لكنه بدا أن أحداً لم يحضر لاستقبالها . ولمحت حمالاً فطلبت اليه أن يحمل لها أشياءها الى قرية يانغشوانغ .

ظلّت الكآبة مسيطرة عليها وهي تتبع الحمال في صمت وقد أحنت رأسها . واستدارا بعد قليل حول عطفة في التلال وهنالك ، تحت السماء الزرقاء الصافية وخلف اخضرار الحقول المشرق ، كان ثمة رقعة فسيحة من المحيط تترامى حتى الافق . وتوقفت الفتاة وحملقت في البحر ،وعيناها تتضوءان بالرعب والسرور .

بكت صائحة : « أوه ! هذه هي المرة الاولى التي المح البحر فيها . . يا لعظمته الرائعة ! » . وقفت وكأنها تسمّرت بالارض ، عاجزة عن النطق

امام مشهد الامواج اللطيفة المتدحرجة في هدوء ورقة عميقتين .

هتف الحمال الذي لم يكن يعرف شيئاً عن شعورها النفسي ،وكان قد وصل الى أسفل التلة : « هيا عجّلي ، يا آنسة ! أسرعي ! ماالذي يؤخرك ؟» .

بدت وكأنها لم تسمع ، فبقيت جامدة ، وعيناها تلاحقان شراعاً وحيداً ابيض في المدى البعيد .

نادى الحمّال مرة أخرى،وقد تبخّر صبره،بصوت أعلى نبرةبحيث استطاع اجتذاب انتباه الفتاة آخر الامر: «أنت،ياآنسة ! ماذا أصابك؟». فركضت هابطة المنحدر في طريقها اليه ، وهي تفرك عينيها وتبتسم له.

كان الحمال رجلا ثرثاراً في خريف العمر ، فالتفت اليها مستفسراً، وقد عجز عن كبح جماح فضوله : « فيم كنت تحدقين هنالك ؟ »

فاستدارت اليه ، وردت قائلة :« في البحر . انه جميل جميل . ما أسعدكم بالحياة ههنا ! انه فاتن جميل! »

فقال الحمال : « وما وجه الجمال فيه ؟ ان لم نستطع أن نصطاد شيئا من سمكه فبقينا جائعين ، فان منظره لايثيرنا في شيء على الأطلاق» .

واسترسل يقول مبتسما : « أخبريني ماذا تفعلين هنا . وفيمَ أنت وحيدة ؟ هل جئت في اجازة ؟» .

ردّت على ابتسامته في رقة ، وقالت بعد قصير وقت : « لا أستطيع أن امنح نفسي اجازة . ولكنني جئت أزور ابن عمي » .

اتّسعت عينا الحمال ، وقال : « ابن عمك ؟ هل يعمل في مكتب الشرطة ؟ »

هزت رأسها ، وأجابت : « كلا ! انه معلم في مدرسة يانفشوانغ الابتدائية » .

ــ أنت تمزحين . فأنا أعرف جميع المعلمين هنا . فمن تراه يكون؟

ــ انه شانغ وين ــ شينغ .

واستفسرت في خجل ، وقد سرى في أطرافها شيء من حيوية : «هل تعرفه ؟ هل هو في القرية ؟ لأتساءل لماذا لم يحضر لاستقبالي. . . »

بدا أن شفتي الرجل قد خَتمتا على غير انتظار . وتطلعت الفتاة في وجهه الاسود متسائلة ، ولكنه بدلاً من أن يجيب عن سؤالها خطا

عدة خطوات ، وبدّل الحديث ، واستوضح قائلا : « ما اسمك ؟ هل انت من بيبينــغ ؟ »

فأجابته في صراحة مطلقة: « اسمي لين تاو ـ شينغ . بلى . أنا من بيبينغ . لكن ، تراك لا تعرف ابن عمي ؟ » .

جنح الرجل الى الصمت من جديد . ومرت فترة من وقت ، فسعل وغمغم شيئا لم تفهم منه كلمة واحدة ، فتجاهلت الفتاة الامر كله ، وتابعا طريقهما الى مدرسة يانغشوانغ الابتدائية ، حيث قبض الحمـال أجرته ورجع ادراجه ، فشرعت الفتاة ترقى درجات السلّم الحجري في بـطء متجهة صوب البوابة .

كانت المدرسة قائمة في معبد « إله الحرب » الكبير في طرف القرية . فتركت تاو ـ شينغ متاعها عند البوابة ودلفت داخلة . بحثت في جميـع الصفوف في ردهات المعبد ، ولكنها لم تجـد أحداً . فخطـر لهـا أن الجميع انطلقوا الى الشاطىء ، فقفلت الى الباب تنتظر أوبتهم .

كان الغسق يتكاثف ، والدخان يتدفق من جميع مداخن القرية . وكانت زيزان الحصـاد تسقسق في حيوية من بين فروع الفيضة القائمة خارج المعبد . أرهفت تاو ـ شينغ أذنيها تتسمع أصواتها فيما هـي قابعة تنتظر وتمدّ بصرها في قلق بين حين وحين . لكنّ احدا لم يظهر على مسرح الرؤية ، ولم تستطع الابتعاد عن البوابة ، فقد كان عليهـا أن تراقب متاعها . وما أن خيّمت الظلمة حتى اقترب رجل شيخ يترنح على الدرب وهتف بها عندما وقع بصره عليها : « من تنتظرين ؟ »

هبطت تاو ـ شينغ درجات السلم الحجري في حماسة وحيّتـه سائلة : « هل يعمل السيد شانغ وين ـ شينغ معلما هنا ؟ »

كان وجهه احمر اللون . وجاءها صوته مضعضعاً من السكر : « أوه ، أنت تبحثين عن السيد شانغ ، أليس كذلك ؟ حسنا ؟ لقد رحل من هنا » .

أذهل جوابه تاو ـ شينغ ، فاستفهمت : « الى اين رحل ؟ قال في رسالته إليّ انه سينتظرني هنا خلال العطلة . وزوجته ؟ انها تعلّـم هنـا أيضا ... » .

ـ لا أستطيع ان اخبرك . انا واثق من ذلك .

واخذ الشيخ يصعد على السلم يتعتعه السكر ، وترنّح داخل البوابة ، وصفق الباب وراءه .

كانت تاو — شينغ قد كتبت الى ابن عمها تعلمه بموعد وصولها المرتقب ، فأغرقها اختفاؤه في مأزق . لم تعرف ماذا ينبغي عليها انتفعل . انتصبت وحيدة على السلّم ، ضائعة تائهة ، وراحت تحملق في انشداه في الاشجار السوداء التي تسقسق بين أغصانها زيزان الحصاد بأصواتها الحادة . كان البحر البعيد عن مسرح رؤيتها يوالي همهمته المطّردة وهو يتكسر على الصخور بصورة ملحاحة . قرعت البوابة عدة مرات ، فلم يعطها أحدٌ جواباً . لابدّ أن الرجل الشيخ قد لجأ الى النوم . فاعتُصر فؤادها ، وتفرغرت العبرات في عينيها . وبقيت واقفة هنالك ، وحيدة ، زمنا طويلا طويلا .

أطلَّ قمر برّاق ، وانسابت أشعته الفضية متخللة ذرى الاشجار المخرّمة مثل خيوط العنكبوت ، وراحت تربتّ بلطف على صفحة وجه الفتاة الوحيدة الجميل . واستندت الفتاة الى دعامة البوابة الحجرية ، وخفضت رأسها ، واطلقت لنشيجها الحزين العنان .

في أوقات الشدّة يطيب للمرء أن يستعيد ذكريات ماضيه ، وفيما تاو — شينغ تنتحب تذكرت ماضيها من خلال مجرى الاحداث التي جعلتها تغادر أهلها وأوصلتها الى هذه الفيضة المهجورة على شاطىء البحر حيث لاتعرف مخلوقا ، وأرغمت قلبها أن ينبض بمرارة الاسى .

* * *

٢

في قرية جبلية نائية في جيهول كانت تعيش أسرة مكونة من شخصين : العجوز لي وحفيدته هسيو ــ ني . وكان العجوز لي مريضاً يلازم « الكانغ » النهار بطوله ، بينا تخرج هسيو ــ ني لجمع الحطب او حراثة قطعة صغيرة من الارض تؤمن القوت لكليهما . كانت فتاة وسيمة الطلعة ، ثابتة الجنان ، بارعة في الحادية والعشرين من عمرها، جذبت اليها أنظار جميع شبان القرية . لم تكن متزوجة لأنها أرسلت وهي في الحادية عشرة من عمرها الى قرية بعيدة على وعد بالزواج ، وحينما بلغت الخامسة عشرة من عمرها توفي خطيبها فرجعت الى بيتها. وقد خلّفت تلك التجربة آثارها عليها ، فما عادت تستعجل الزواج طالما ان جدّها في حاجة الى عنايتها . كان الرجل الشيخ المريض والفتاة يعتمدان على بعضيهما ، وكان مغرما بها الى درجة كبيرة بحيث انه حينما ترسل له ابنته المتزوجة التي تعيش في قرية أخرى كعكاً مصنوعاً من طحين الأرز أو بيضا مملحا ، فقد كان يخبىء القسم الاكبر من تلك الهدية الثمينة لها . وكانت قطعة الارض التي تفلحها هسيو ــ ني تخصّ أحد الملاكين السادة ، ولم يكن يتبقى من غلالها بعد دفع ايجارها كل عام غير نزر يسير لايكاد يكفي لشراء الوقود لعدد محدود من الايام . ولما كانت تحب أن تقدم لجدّها الشيخ قصعة من ثريد الارز الحارّ ، فقد كانت تحمل فأسها بعد عودتها من العمل في الحقول وتنطلق الى التلال لاقتطاع الحطب . كما انها كانت تشتغل بالخياطة على ضوء القنديل في العشية . وكان أهل القرية يمتدحون هذه الفتاة اللطيفة البسيطة الدؤوب ، ويفكرون كيف ستكون زوجاً رائعة لأحد الشبان الفتيان! ولكنها لم تكد تبلغ الحادية والعشرين من العمر حتى اصابتها الكارثة . فقد جاء صاحب الارض لين بو ــ تانغ يجمع الايجار عن فترة الشتاء، ووقع بصره على جمال هسيو ــ ني ، فعزم على أن يتخذها محظية

له . كان قد جاوز الخمسين من العمر واتخذ لنفسه عددا من المحظيات ـ وبعضهن من دار للبغاء ـ عملت زوجته هسو فينغ ـ ينغ على طرد أكثرهن جمالا . واذ خلبت لبه هسيو ـ ني المعافاة الساذجة فقد عزم على امتلاكها بأي ثمن كان . وكان يصحبه عدد من الجنود ارسلهم برفقته تانغ يو ـ لين حاكم جيهول العسكري لقمع أية مقاومة قد يقوم بها المستأجرون خلال جمع الايجارات . ولم تكن هسيو ـ ني وجدها يملكان أية مقاومة في وجه مثل تلك القوة الوحشية ، ولذلك أرغمت على الذهاب الى منزل أحد مستأجري لين بو ـ تانغ في القرية حيث اعتبرت محظية لمالك الارض . بكت بمرارة وحاولت الانتحار ، لكن مقاومتها واحتجاجها كانا من دون طائل على الاطلاق ؛ فقد كانت للين بو ـ تانغ ، وهو يمسد شاربه مكشرا ، طريقة خاصة بمعاملتها .

بعيد شهرين حملت هسيو ـ ني ، فنقلها لين الى منزله في بيبينغ . وفي هاتيك الليلة ذاتها جر جدها الشيخ نفسه بمعونة عصاه الى نهر بايهو القريب من القرية ، والقى بنفسه في مياهه .

اما هسيو ـ ني فان اقامتها في منزل لين في بيبينغ بدلتها من فتاة ذكية متألقة الى مخلوق مخبل يمضي النهار بطوله دون أن يند من شفتيه حرف واحد ، ويتطلع على الدوام ، فيما خلا فترات الطعام او القيام بعمل ما ، في الجدار بعينين لاحياة فيهما . وحينما عرفت زوج لين أن هسيو ـ ني حامل كفت عن معاملتها بالسوء خلال الاشهر القليلة الأولى ، ذلك أن أحدا من اولادها لم يقدر له أن يحيا ، وهي تريد ولداً في أسرة لين .

بعد ولادة طفلتها استردت هسيو ـ ني شيئا من حيويتها ، فصرفت حبها كله على الطفلة الريانة الصغيرة . كانت ابتسامة عابرة على وجه الطفلة الصغيرة البريء تذيب عذاباتها الروحية بأسرها ، وتجعلها تنسى اذلالها فترة من الزمن ، وتمدها بشجاعة تعينها على الابقاء على حياتها . وفي ساعات الليل المتأخرة ، حينما ينطلق لين الى زيارة احدى محظياته الاخريات ، كان يطيب لهسيو ـ ني أن تنهض في هدوء لتبدل لطفلتها ثيابها الداخلية أو تهدهدها أو تقبل وجنتيها الفاتنتين . ثم تروح تهمهم وعاطفتها تغالبها : « اكبري ، يا ثروتي ، اكبري ! ثمة ما أعيش من

أجله طالما أنت على قيد الحياة » . وتنهمر العبرات التي سبق أن جفّت من زمن طويل على وجه الطفلة اللطيف من جديد. لسوف تغالب هسيو ــ ني مرارة الحياة في سبيل طفلتها .

وعندما بلغت الفتاة العام الاول من عمرها ، فقد كانت ثرثرتها المرحة واصابعها الصغيرة التي تداعب بها وجنة أمها تفجّر الاشراق والسعادة في وجه هسيو ــ ني . ولكنه حدث في ذات يوم أن ارسلت هسو فينغ ــ ينغ تستدعي هسيو ــ ني ، وأخذت منها طفلتها ، وقالت في شيء من الاحتداد : « هذه ابنة السيد لين ــ وسأعنى انا بها! اخرجي، ايتها المتسولة الوقحة ! » .

بوغتت هسيو ــ ني ، وبكت بمرارة ، وضربت رأسها بوحشية في الجدار . وناضلت عبثا لاستعادة طفلتها من بين ذراعي هسو فينغ ــ ينغ ، فقد كانت الطفلة تمدّ يديها الصغيرتين وتهتف منادية أمها . وبقي لين بو ــ تانغ على الحياد بعد ان كان قد تعب منها ، وهكذا قبض خدمه المتوحشون على هسيو ــ ني وحشروها في سيارة واقفة عند البوابة ، وذهبوا بها .

وأعطيت طفلة هسيو ــ ني اسم تاو ــ شينغ من قبل لين بو ــ تانغ . كان وزوجه مغرمين بها بادىء الامر ، ولكنها لم تكد تبلغ العام الثالث من عمرها وتلد هسو فينغ ــ ينغ ولدا ، حتى بدأت مصاعب الفتاة الصغيرة ، فصارت تضرب لأقل هفوة ، وتنام مع الخدم ، وتمنع من دخول غرف البيت الرئيسية من دون أن ينادى عليها . فأخذت تقضي اوقاتها وهي تلعب في الشوارع مع الاطفال المشردين الذين يجمعون النفايات من بين اكوام الاوساخ .

وذات يوم شتوي استدعت هسو فينغ ــ ينغ ، وكان مزاجها صافيا ، الابنة تاو ــ شينغ اليها وسرعان ما لحظت تململها وهي تغمغم مجيبة عن الاسئلة التي طرحتها عليها . فجذبت تاو ــ شينغ اليها والدهشة تفعمها ، وسألتها ما الامر .

اجابت تاو ــ شينغ : « ان جلدي يستحكني ... » . كان لها من العمر سبع سنوات . وكان أنفها يرسل سيلا من المخاط ، وكانت على أهبة الانفجار باكية .

اجتاحت هسو فينغ ــ ينغ موجة من الحنو ، فنزعت معطف الابنة

المهلهل ، وارتعبت عندما عثرت على جموع من القمل تزحف بين طياته. فتملكها السخط فألقت بالمعطف العاج بالحشرات في الفرن . ثم ترنّت النظر بثبات ، وقد اغبطها اظهار حنانها ، في وجه تاو ـ شينغ متشقق الجلد القرمزي من تأثير البرد ، واستدارت ناحية زوجها المتراخي على الاريكة يقرأ صحيفته ، وقالت : « يسحرني أن هذه العفريتة الصغيرة ليست قبيحة الطلعة بعد كل شيء . لو أرسلناها الى المدرسة فلسوف نجني منفعة طيبة لأستثماراتنا عندما تشبّ عن الطوق » .

فأومأ لين برأسه ، وهو يمسّد شاربه : « يا للفكرة الخلاقة ! انت دائما أبعد نظراً من أي انسان آخر ، ياعزيزتي. لم تعد ثمة حقيقة في المثل القديم القائل : « المرأة الجاهلة الغبية تكون زوجا فاضلة ». وعلى اية حال ، اتيحي لها انتدرس».

وهكذا أرسلت تاو ـ شينغ الى المدرسة حيث انهمكت في دراستها في حمية وأظهرت انها تلميذة متوقدة الذكاء . لم تكن تشبه التلامذة الآخرين في شيء ، وكانت مقلّة في حديثها بحيث يخال لمن لا يعرفها انها خرساء ، كما أنها لم تكن تبكي حينما يعمد أخوها غير الشقيق ،وكانت أمه تدلله كثيرا ، الى تعذيبها . كانت تأذن له احيانا أن يضربها ،ولكنفي احيان اخرى تفقد صبرها فتبادله الضرب ، رغم معرفتها أن نتيجة ذلك ستكون انتقاما قاسيا . نادرا ماكانت رابّتها تضربها ، فهي تفضل أن تلوي لها ذراعها ، أو تقرصها أو تعضها . وفي ذات ليلة كانت تاو ـ شينغ نائمة في جناح الخدم حينما كسر الصبي واحدة من مزهريات أمه الاثيرة وألقى اللوم على أخته غير الشقيقة . وتأكد لتاو ـ شينغ التي انتزعت من فراشها بوحشية ماكان ينتظرها فصرّتعلىأسنانها استعداداً لاحتمال المحنة التي ستقع على راسها .

ـ ايتها الكلبة الصغيرة الوقحة ! انت تزدادين جراة يوما بعد يوم. سوف أجعلك تدفعين ثمن تلك المزهرية . انظريني ان لم افعل ذلك!

قرصت ساقها ولويت ، وعضّت ذراعها،غير أن تاو ـ شينغ كانت قد ألفت أن تعامل معاملة أسوأ من معاملة الكلاب ، فلم تبكي أو تلتمس الصفح ، ولم تذرف عيناها الثابتتان دمعة واحدة . الانسان الوحيد بين سكان الدار الذي كان يبدي شيئاً من الاهتمام بها هي العمة وانغ،

وهي حاضنة عجوز كانت تبذل قصارى جهدها في سبيل الابنة من وراء ظهر هسو فينغ ـ ينغ . وطبيعي أن تغرم تاو ـ شينغ بالعمة وانغ، وتلجأ اليها عندما يعضها الجوع أو ينهشها البرد ، وكانت تلك الخادم العجوز العطوف الانسان الوحيد الذي رأى الابنة تذرف الدموع .

عندما انهت تاو ـ شينغ دراستها الابتدائية وقبلت في مدرسة ثانوية للبنات في « التلال الغربية » في ضواحي بيبينغ ، طرأ تحسن ملحوظ على تصرفات رابئتها . كانت تاو ـ شينغ قد غدت فتاة ممشوقة القد ، هيفاء القامة ، تسترعي الالتفات . وكان وجهها جميلا بيضوي الشكل ، وبشرتها شقراء سليمة من العيوب مثل يشم نصف شفاف ، وحاجباها الأسودان الطويلان يميلان في لطف ناحية صدغيها . أما مايجذب الانظار اليها قبل كل شيء فقد كان عيناها الحزينتان الرائعتان . كانت على الدوام ابنة هادئة تحب العزلة في أغلب الاوقات ولاتبالي بالعشرة . ولم تبالي هسو فينغ ـ ينغ بذلك ، لكنّ ماكان يفتنها هو ان الفتاة تزهر جمالا وتزداد حسنا . فعزمت على أن تتيح لها دراسة تعتبر اساسية بالنسبة الى سيدة فتية ذكية يراد لها أن تتزوج رجلا ثريا صاحب نفوذ .

في اليوم الذي انطلقت فيه تاو ـ شينغ الى المدرسة الداخلية ودّعها أبواها المغتبطان حتى البوابة حيث كانت تنتظرها عربة ريكشا . كان لين بو ـ تانغ يرتدي ثوبه الحريري الفضفاض ويمسّد شاربيه متأملا وهو واقف على السلّم الرخامي خارج البوابة . وابتسم في وجه تاو ـ شينغ التي جلست في عربة الريكشا ، وقال : « تهانيّ ، أيتها السيدة الفتية ! الذهاب الى المدرسة الثانوية يشبه الحصول على هسيو تساي(١) . ها ، ها ، ها !»

كان لين بو ـ تانغ الذي أفعمت فؤاده سرورا سمعة انه مثقف ومحب للعمل الانساني قد اجتاز الامتحان الحكومي الثاني في مقاطعة شينغ وصار « شوجين » ، وقبل أن يتمكن من الانطلاق الى العاصمة لتقديم الامتحان النهائي انفجرت حركة اصلاح عام ١٨٩٨ من قبل كانغ يو ـ يي وليانغ

---

(١) لقب كان يعطى لاولئك الذين اجتازوا المرحلة الاولى من الامتحانات الحكومية.

شي ــ شاو ، وتأسست الجامعة الامبراطورية ، وهي الجامعة التي سبقت تأسيس جامعة بكين . فانتقل لين ، وكان غيورا على مجاراة الزمن الى العاصمة مع زوجته وانتسب الى الجامعة الجديدة . ومن بعد قامت الجمهورية فأسلم شراعه للرياح المؤاتية وصار مدرسا تربويا لأن التدريس كان موضة تلك الفترة . واشترى ، متذرعاً برغبته في انشاء عدة مدارس ، وبسعر اسميّ ، مساحات كبيرة من الاراضي كان الامبراطور قد أقطعها لأمراء مانشو . ومن بعد أخذت بطاقات زيارة تحمل الألقاب المتكلفة التالية: « شوجين » ، طالب في الجامعة الامبراطورية ، مدير ميتم مينان ورئيس جامعة وو بين ، تنتشر بكثرة بين « صفوة » المجتمع . ولم يشر أحد من أولئك الذين يقدمون الاحترام لذلك البروفسور المبجل الموهوب المدعو لين بو ــ تانغ الى معاملته الوحشية لهسيو ــ ني التعيسة .

كان لين بو ــ تانغ متضلعا بالكتب الاربعة والآثار الكلاسيكية الخمسة ، كما أنه قرأ كتبا من تأليف الفيلسوفين الغربيين كانط ومونتسكيو ، لكنه لم يكن ثمة شيء بالنسبة اليه أكثر سمواً من عضوية أكاديمية هان لين . ولهذا السبب راح يقارن دخول ابنته الى المدرسة الثانوية بدرجة « هسيو تساي » .

لحقت بها رابّتها وهي تقدم نصائحها لها ولم تترك لتاو ــ شينغ فرصة للردّ على والدها . كانت حرارة أخريات الصيف تضايق وجهها الريّان ، فهي تروّحه بمروحة حريرية صغيرة حيث وقفت على درجات السلّم . وكانت تشعر ، هي الاخرى ، بفخار مؤكد وهي تمتدح ابنة زوجها: « كوني فتاة طيبة ، ياعزيزتي ، وادرسي بنشاط ! ستؤمن لك أمك نقودا تساعدك في انهاء الدراسة الثانوية والانتساب الى الجامعة . فاذا سافرت الى الخارج في منحة دراسية فلسوف تعودين الينا بشهادة أفضل من امرأة « شو وانغ يوان(١) » ــ ولن يكون لشهرتك وثروتك حدود ! » .

واستدارت ناحية زوجها وهي تشخر ، واستفسرت قائلة :« ماالذي يضحكك ، أيها الأحفور العجوز ؟ لقد عملت على تربيتها ! وحينما تبدأ باكتساب النقود وتجميع ثروة فلن تحصل على فلس واحد ! »

---

(١) الطالب الذي اجتاز بنجاح الامتحان الحكومي النهائي .

وبرطمت هسو فينغ ـ ينغ كما لو غضبت ، غير أن لين بو ـ تانغ أهنف ضاحكا واومأ برأسه في اغتباط : « حسنا ، يا عزيزتي ، سوف تكون جميعها لك ، كل فلس تجمعه ! وكذلك مايمكن أن يقبضه أحفادك. هل يلائمك ذلك ؟ »

نظرت تاو ـ شينغ ابنةالثانية عشرة في قرف الى ذينك اللذين تسميهما والديها ، وانطلقت بعربة الريكشا في صمت والعبرات في عينيها.

في المدرسة الثانوية شعرت أنها طير تحرّر من قفصه وراح يستنشق نسيم الحرية النقي . كانت تحب أن تنكبّ على دروسها ، وأن تقرأ مشغوفةً الاعمال الادبية التي ساعدتها في تطوير مخيلتها الخصبة أو أمدّتها برؤيا واضحة عن المستقبل الرائع . كانت تطفح بمثل عليا جريئة، وكلما تعمقت في دراساتها ازداد تفكيرها حيوية ونشاطا . ولكنها ظلت ظاهريا لا مبالية بالنسبة الى مايحيط بها ، خاصة وأنها قليلة الكلام كثيرة التفكير على وجه العموم . وكانت صديقتها المفضلة فتاة لطيفة عطوفاً تدعى شين وي ـ جو شاركتها متاعبها بأسرها واعتمدت كثيراً على وجدانها الصادق .

كانت سنة ١٩٣١ ، قبيل شهرين من تخرّج تاو ـ شينغ ، حينمارجعت بعيد ظهيرة أحد الايام من زيارة قامت بها لبيتها وجلست فترة طويلةفي غرفة الصف مضعضعة النفس بصورة غير مألوفة . وشرعت رفيقاتها يرمقنها بنظرات فضولية .

سألت احداهن : « فيم استدعتك أمك الى البيت ، يا تاو ـ شينغ؟ ماذا حدث فأزعجك ؟»

شدتها وي ـ جو من كمها وربّتت على شعرها ، وهي تقول في الحاح لطيف : « تاو ـ شينغ . خبريني ما القضية ؟ »

لكن رفيقتها ظلت جالسة هنالك مثل دعامة من خشب ، صامتة لايندّ عنها حرف واحد .

وقهقهت بعض الفتيات فاستفاقت تاو ـ شينغ جافلة ، وفركت عينيها ، واستعلمت وهي تبتسم ابتسامة مريرة : « ماذا يضحككنّ ؟ كفى مضايقة ! » وهبت على قدميها وبارحت الغرفة ..

وسرعان ما انطلقت وي ـجو معها بعيد ذلك في نزهة على ضفة النهر القريب من المدرسة . خرجت الفتاتان احداهما امام الآخرى تتمشيان على طول المجاز الضيق . مشتا زمنا طويلا ، ولم تلبث تاوـ شينغ ، وكانت تسير في المقدمة ، ان استدارت وحملقت بثبات في رفيقتها ..

كان وجهها أبيض بصورة غير مألوفة . قالت : « يجب أن أتوقف عن متابعة دراستي ، يا ويـجو ! »

فسألت ويـجو رقيقة القلب في نبرة فيها من الضيق والحزن أكثر مما كان في نبرة تاو ـ شينغ نفسها : « لماذا ؟ ألهذا السبب استدعتك أمك الى البيت ،ياتاو ـ شينغ ؟ ».

فما أعطتها الاخيرة جوابا ، فتابعا طريقهما صوب بعض الاشجار عند النهر حيث توقفتا مسندتين ظهريهما الى جذع شجرة صفصاف متهدلة الاغصان . كانت تاو ـ شينغ تحدّق ضائعة النهى في ذهب الجدول الوامض ، ولم تلبث ان قالت بعد زمن قصير وكأنها تخاطب نفسها: « لقد أفلست عائلتي . أقام والدي دعوى بخصوص بعض أملاكه ، ولكنه خسر الدعوى ودمَّر نفسه . فعمد الى بيع كامل الارض التي يملكها فيما وراء السور العظيم دون أن يخبر رابَّتي ، ورحل برفقة محظيته . وأنا هي الملك الوحيد الذي بقي لرابَّتي » .

ـ ماذا تقصدين ؟ كيف يمكن أن تسمي نفسك مُلكاً ؟ فأنت لست مجبولة من مال !

ـ رابَّتي تريد أن تجمع مالا بواسطتي . أرسلت تستدعيني لتقنعني بالزواج من شيخ ثري بحيث تتمكن من الاستمرار في العيش في بلهنية ورخاء . وقد رفضت ـ وتخاصمت معها !

أشرقت وي ـ جو بدموعها ، فتمسكت بيد رفيقتها ، وهي تقول: « ماذا ينبغي أن نفعل اذن ؟ » فربتت تاو ـ شينغ على يدها برفق ،وقالت تعزيها : « لاتقلقي ، يا وي ـ جو ! سوف لن استسلم . فاذا ازدادت الامور سوءاً فسأقتلنّ نفسي » .

أوقفت هسو فينغ ـ ينغ بعيد ذلك مخصصات تاو ـ شينغ مؤملة ارغامها على الخضوع لارادتها . غير أن الفتاة ظلت حازمة راسخة

العزيمة . وقد خطر لها أن تترك المدرسة وتعثر على عمل ، لكن الفصل الدراسي لم يكن قد انتهى بعد فالى أين تستطيع الذهاب؟ وجمعت لها بعض صديقاتها الودودات مبلغا من المال يساعدها على ابتياع قوت يومها بحيث أتاح لها أن تستمر في الدراسة طوال الشهرين الاخيرين من الفصل الدراسي .

وحينما بدأت العطلة لم يكن أمامها غير أن تهيىء نفسها للعودة الى البيت . ولم تفقد الامل على الرغم من أن فؤادها كان مثقلا بالهموم . كانت تتوق الى الانتساب للجامعة ، الا أنه ان لم ترق رابّتها فسوف لن تتمكن من متابعة دراستها . لكن ، هل يمكن أن تبدل المرأة القاسية رأيها ؟

كانت في مأزق .

كانت تاو ـ شينغ مغرمة بالموسيقى غرامها بالادب، وحينما استأجرت عربة ريكشا للعودة بها الى البيت حملت معها مجموعة من الادوات الموسيقية ـ أرغن صغير من القصب ، ومزمار من الخيزران ، وآلة نفخ، وقيثارة قمرية ، وكمان بوترين . وكانت آلة النفخ الشفوية العزيزة عليها ماركة الفراشة قابعة في جيبها . وأيان كانت تذهب فقد كانت تلك الآلات تذهب معها ، الامر الذي جعل صديقاتها يخلعن عليها اسمين ماجنين أحدهما لطيف هو « جنيّة المزمار » ، والآخر بغيض هو « مخزن الموسيقى » . وكانت تعزف على احدى هذه الآلات عندما تكون وحيدة ، ومن يشاهدها في ذلك الحين فقد كان يلمح قبسا من سعادة يشعّ من عينيها ، لكنه على الدوام قبس مفرق في الحزن . في تلك اللحظات كان حزنها يفسح مجالا لبراءة طفولية . كان هذا صحيحا قبل ستة شهور على الاقل . ولكنها حينما غدت أسيرة التبدل المفاجىء في حياتها لم تعد تشعر برغبة في العزف ، فأخذت بعض الصديقات يغظنها بقولهن : « هل أغلق مخزن موسيقاك ، يا جنية المزمار ؟ » .

فتردّ عليهن بابتسامة وانية ، وتبتعد دون أن تعطيهن جوابا .

راح قلبها يتثاقل ويتثاقل فيما كانت عربة الريكشا ترتجّ ببطء على طول الطريق الوعرة . كان مشهد وجودها الاخير مع رابّتها لايزال حياً في ذهنها . فقد اندفعت هسو فينغ ـ ينغ ناحيتها مثل ملاّك شرس يسلخ جلد مستأجر تعيس الحظ ، تشتمها ، وتوبخها على عقوقها ،وتهدد

بطردها فيما اذا أصرّت على عصيانها وعدم طاعتها . أرجفتها تلك الذكرى، فضمت أرغنها القصبي بشدة الى صدرها .

وصلت الى البيت فرأت رابتها تلعب « المهجونغ » مع بعض ضيوفها. وكانت دهشتها عظيمة للترحيب الودي الحارّ الذي لقيته منها .

تبسمت هسو فينغ ــ ينغ قائلة : « لقد رجعت اذن ، يابنيتي ! هل كانت رحلتك حارة ؟ ان لدينا عدداً من الضيوف اليوم هنا كما ترين ، وجميعهم يهنئونني على سجلك الدراسي الرائع !».

قالت تاو ــ شينغ في وليجة نفسها : « لربما لم تعد راغبة في ارغامي على الزواج بعد كل شيء. لربما ستدفع لي نفقات اتمام دراستي ».كانت مؤمنة على الدوام بالقول المأثور « العلم نور » ، ولاتتمنى أكثر من أن تتاح لها الفرصة لاتمام دراستها . فانحنت انحناءة خفيفة امام الضيوف ، وبدا لها أولئك المقامرون ومدمنو المخدرات الذين يلبون دعوة والديها الــى البيت ، على الرغم من كراهيتها لهم ، أقل اثارة للكراهية اليوم . فوقفت أمام مائدة المهجونغ وهي تبتسم في حياء وخجل .

قالت رابتها ، وهي تشير الى رجل شاحب يعاقر الخمرة بكثرة، يلبس ثيابا غربية الطراز يجلس في مقعد الشرف : « هذا هو المدير هُو ». وتابعت تقول في فخار ، وعيناها المنتفختان تبتسمان في خنوع : « وهذه هي ابنتي تاو ــ شينغ » . فانقبض فؤاد تاو ــ شينغ فجأة، وأهرعت الى احدى غرف الدار الداخلية عازفة عن سماع المزيد مــن أحــاديث الضيــوف .

ألفت تاو ــ شينغ الحياة في البيت ، وفي الوقت المناسب تقدمــت الى امتحان الدخول الى « الجامعة النظامية » . كانت أجوبتها جيدة، وكانت سعيدة جداً . غير أن تفكيرها في بلية الزواج والحياة في البيت كانت تصيبها بين وقت وآخر بالاكتئاب . وكانت قطع المهجونغ تقرقــع كل ليلة حتى ساعات النهار الاولى ، وكانت عاجزة عن صمّ أذنيهــا عن المعابثات الثملة والموسيقى الطنانة الرخيصة ، أو لعنات الرجــال الغاضبين الذين خسروا أموالهم على موائد القمار .

قالت في نفسها وهي تلمح كيف كانت هسو فينغ ــ ينغ التي شارفت على الخمسين من عمرها تتبرّج وتحاول اجتذاب أنظار الرجال:« ياللحضيض،

الذي وصلت اليه أمي من دون زوج أو مورد من المال » . ولم يكن لمرارة تاو ــ شينغ وقرفها حدود على الاطلاق .

بعيد أسبوعين أو أكثر طفت على رابتها موجة من الانشراح، فصحبتها الى السوق ، وابتاعت لها ثوبا من الموسلين الابيض وحذاء من قماش القنب الابيض . كانت راغبة في شراء مزيد من الثياب العصرية ، غير ان تاو ــ شينغ رفضت ، فقد كانت تفضل ثوبا عاديا أبيض اللون وحذاء أبيض وجوارب بيضاء للصيف ، حتى ولو جعلتها هذه الثياب أكثر شبها باحدى الممرضات . وعجزت رابتها عن اقناعها ، فاستسلمت لمشيئتها. وفي تلك الليلة طهت بعض الاطعمة الأثيرة لدى تاو ــ شينغ . وبعد العشاء امرت الفتاة وشقيقها الاصغر تاو ــ فينغ أن يجلسا الى جانبها للتحدث فيما يبهج القلب . وقطعت ثرثرة حديثهما على غير انتظار ، قائلة : « تاو ــ شينغ ، لقد هجرنا والدك النذل العجوز وتركنا من دون مال على الاطلاق . لقد ضاعت أرضنا بكاملها وبقينا نحن الثلاثة وحيدين . شقيقك لا يزال صغيرا ، وأنت لاتملكين موهبة خاصة ، فكيف نستمر في الحياة ؟» كانت الدموع في عينيها ، فأحنت تاو ــ شينغ رأسها في أسى . وفوجئت كثيرا حينما قالت هسو فينغ ــ ينغ في نبرة لطيفة : « كوني فتاة طيبة ولا يشغلنك الحب . اذا اتبعت نصيحتي فلسوف يكون لدينا جميعا مايكفي لنعيش ، ويكون في مقدورك متابعة دراستك » .

لم تفه تاو ــ شينغ بحرف ، فتابعت رابتها تقول بعدما عضت أظافرها مستغرقة في التفكير برهة من الزمن : « وبالمناسبة ، أخبريني صراحة عن نموذج الزوج الذي ترغبين فيه » .

مر وقت طويل لم تسمع فيه أي جواب .

ــ تكلمي ، فأنا انتظر جوابا .

ــ لم يخطر لي مثل هذا السؤال في بال ، يا أماه . أفلم تقولي انك ستسمحين لي بمتابعة دراستي؟ أرجوك الا تذكري شيئاً عن الزواج مرة أخرى .

فاحتجت هسو فينغ ــ ينغ ، وقد قطبت جبينها وهي تحاول كبح جماح عبراتها : « أنت غير عاقلة على الاطلاق . فلقد تزوجت أنا والدك ولي من العمر ست عشرة سنة. وفضلا عن ذلك ، فالزواج لايمكن ان

يعوق دراستك » . ونهضت عن السرير ، وضيّقت فرجة عينيها السمينتين، وأمسكت احدى يدي الفتاة وهي تقول ضاحكة : « ياعزيزتي ، ان لديّ انباء طيبة لك ! فالمدير هوْ الذي يتردد الى هنا غالبا يكنّ لك اعجابا ، وهو مفتون بموهبتك مثلما هو مفتون بنظراتك . انه لم يتزوج قط ولا يبرح في الثلاثين من العمر . وهو رجل تري وصاحب نفوذ ، ويمكن ان يكون زوجا رائعاً ! » .

حنت تاو ـ شنغ رأسها ولم تنطق بحرف ، فخطر لرابتها انها موافقة ولكنها تخجل من الكلام . وضحكت هسو فينغ ـ ينغ من أعماقها وقد طفت عليها غبطتها ، وأخذت تطنب في مديح حسنات ذلك الزواج: « اذا قبلت به ، ياحبيبتي ، فلن تكون هنالك نهاية لحظنا الطيب . فان المدير هو يملك منزلين على الطراز الغربي في نانكينغ وشانغهاي ، كما يملك رصيدا ضخما في بنك بيبينغ ، وآلاف « المو » من الارض في مقاطعته الخاصة . اثنا عشر ألف « مو » ـ ففكري في ذلك ! كما يملك في شانغهاي كثيرا من الاسهم تدرّ أرباحا هائلة . وهو صديق حميم لشيانغ كاي ـ شيك أيضا وموضع ثقته . وسرعان ما سيزداد شأنه في عالم الوظيفة ... »

لم تعد تاو ـ شينغ تطيق صبرا . فانفلتت متحررة من رابتها ، وانفجرت تبكي : « كفى ! يا أماه ! كفي عن تأمين زوج لي . لأفضل أن أموت عن أن أغدو ألعوبة بين يدي أي من أثرياء الحرب أو الموظفين الكبار . ولا فائدة من التفكير في أني سأتزوج واحدا منهم » .

وثبت رابتها على قدميها في غضب وعيناها تلمعان، ويداها البيضاوان النحيلتان تهتزان وترتعشان وكأنها تبحث عن شيء تضرب الفتاة به : « أيتها المخلوقة الوضيعة ! تحسبين نفسك امرأة رائعة ، ما ؟ أمك الوضيعة لا يمكن أن تنجب غير أطفال وضيعين . عاهرة مستعطية من أحد كهوف الجبل بيعت محظية أو مومساً ـ ماذا يمكن أن تنتظري من أي من أولادها ؟ انت لاتعرفين صالحك . يحسن بك أن تفعلي ما أقول لك ، والا عمدت الى بيعك لتسديد ثمن الارز الذي أكلتيه عندي ! »

وقفت تاو ـ شينغ ، وقد صعقها ذلك الانفجار ، وكأنها تسمرت في الارض . كانت تعرف أن أمها ماتت ، وأنها قاست ، هي نفسها ، من كونها ربيبة . غير أن الحقيقة المتعلقة بأمها بقيت سرا عليها .

« عاهرة مستعطية من أحد كهوف الجبل بيعت محظية أو مومسا ... » هذه الشتيمة التي انصبت فوق مصائبها كسرت قلبها. ففزعت الى غرفتها وجلست فيها تحملق في الفراغ ساعات طويلة .

مشت قبيل بزوغ الفجر على رؤوس أصابعها الى غرفة العمةوانغ، وأمسكتها من ذراعها النحيلة ..

ـ انبئيني ، ياعمتاه ، كيف كانت أمي ! كيف ... كيف ماتت ؟ وفيم منعتم الحقيقة عني ؟

لم تتلق جوابا عن سؤالها ، فليس ثمة غير الصمت في تلك الغرفة المظلمة التي فسد هواؤها .

ـ ارجوك أن تخبريني ، ياعمتاه ، أرجوك !.. فلقد كنت على الدوام أما ثانية لي . يجب أن تخبريني !

ولفت تاو ـ شينغ ذراعيها حول العمة وانغ ، واستسلمت للبكاء.

ـ ايتها الابنة المسكينة !

وترددت العمة وانغ كمن يحاول السيطرة على أحاسيسه ، ثم تابعت في صوت موهن : « أتذكرين يوم كنت لاتزالين طفلة بعد انني رويت لك قصة عن فتاة ذهبت تقتطع الاخشاب للمدفأة ؟ حسنا ، تلك الفتاة كانت أمك !»

في سنواتها الاولى غالبا ماكانت تاو ـ شينغ الوحيدة الشقية تلجأ الى العمة وانغ في عشايا الشتاء الطويلة لتروي لها احدى أقاصيصها الشيقة . وكانت احدى تلك الأقاصيص عن هسيو ـ ني . غير أن العمة وانغ لم تجرؤ ، بناء على تعليمات صارمة من سيدتها ، أن توضح أن الفتاة التي كانت تحتطب وأرغمت على أن تغدو محظية السيد هي والدة تاو ـ شينغ . أما الآن فلم يعد في مقدور العمة وانغ اللطيفة أن تحبس الحقيقة اكثر مما فعلت ، فمالت على تاو ـ شينغ تروي لها القصة بكاملها.

بناء على أوامر من لين بو ـ تانغ وزوجته تم ابعاد هسيو ـ ني عن طفلتها ، فأركبت في سيارة وبعث بها هدية الى واحد من أصدقاء لين يو ـ تانغ. واندفعت راكضة مثل مجنونة لتحضن ابنتها ، غير أن بوابة الدار

انصفقت في وجهها ، ولم تستطع الدخول . فراحت تهيم على وجهها ضائعة النهى ، شعثاء الشعر ، راغبة عن الطعام والشراب النهار بطوله ، تتراكض هنا وهنالك وهي تبكي في صوت يقطع نياط القلوب : « ردوا لي ابنتي! أعطونيها ! أفليست لكم قلوب ؟ أليس لكم أحاسيس ؟ أنت أسوأ من ذئبة — وتستأهلين أن يفرموك قطعا صغيرة ! ردوا لي ابنتي! أوه ، ردوها الي . . . »

كانت صيحاتها الموجعة وبكاؤها المفجع تجعلان الدموع تنهمر من عيون كثيرة .

وقد بادر لين بو — تا نغ ، بعد ان خشي على سمعته ، الى احتجازها ثم ابعادها بالقوة . وأرسلت هسيو — ني المسكينة فيما بعد ، وقد اهتبل عقلها ، الى بيتها الجبلي القديم قرب نهر بايهو . أعادت اليها انتعاشها النظرة الاولى التي ألقتها على مرابع طفولتها وتلك التلال والجداول العزيزة على قلبها ، فبدأت تتمتم ببعض كلمات واضحة وتبكي . قد لايتاح لها أن ترى طفلتها مرة اخرى ، ولكنها تشبثت بفكرة العيش من جديد مع جدها — الشيخ اللطيف الحنون الذي كان يتكل عليها مثلما تتكل عليه . وحينما بلغت البيت كانت أوعية المطبخ المعدنية والقدور الفخارية المألوفة لديها لاتبرح موجودة في أماكنها القديمة ، ولكنها عرفت أن جدها قد ذهب. عجزت عن البكاء مثلما عجزت عن النطق ، فعمدت في تلك الليلة ذاتها ، وقد تبخرت جميع طاقاتها ، الى القاء نفسها في النهر وهي في ريعان شبابها .

تهاوت تاو — شينغ على السرير الضيّق كمن أغمي عليها . ومرت فترة من وقت جاهدت بعدها لإنهاض نفسها ، ووضعت أصابعها المتجلدة على يدي العمة وانغ النحيلتين ، وهتفت في رقة : « أماه ! . . » واطلقت ماقيها سيل دموع لم تذرف مثله قبلا .

— لاتبكي ، يابنتي ! اذا سمعتك ربّتك فلن تنجو من المتاعب .

كانت العجوز التي تستحث تاو — شينغ على الكف عن البكاء تمسح أطراف عيونها .

هبت تاو ـ شينغ على قدميهـا فجأة ، وصاحت : « أنا لسـت أخافهم بعد الآن ! سأغادر هذا البيت » .

فسألت العمة وانغ ، وقد باغتها الامر ، وهي لاتبرح تمسح أطراف عيونها بذيل معطفها : « والى أين تذهبين ؟ »

قالت تاو ـ شينغ ، رغم أن ذلك لم يكن مقصدها: « الى المدرسة . سأبقى فيها أياما عديدة الى أن أعرف ما اذا كنت قبلت في « الجامعـة النظامية » .

ـ هل تعودين الى المدرسة ؟ عمل طيب . لكن ، اياك أن تتجـاوزي الحدّ . فالشجار البسيط بين الام والبنت لايعمّر طويلا . تذكري ، يافتاتي ، أنه « اذا اشتدت عليك الريح فينبغي أن تحني لها هامتك قليلا ! » .

بينا كانت العجوز تهمس بهذا المثل أشعلت عود ثقاب وشرعت تتحسس شيئا تحت فخذها . راقبتها تاو ـ شينغ في غبشة الفجر ، وأرادت أن تقول شيئا كان على طرف لسانها ، لكن العمة وانغ أخرجت لفافة صغيرة من الورق بين يديها . فكّت اللفافة في عنايـة ، وطلبت من تاو ـ شينغ أن تشعل ثقابا آخر أزاح العتمة عن حزمة من الاوراق النقدية مختلفة الالوان . أحصتها في عناية فائقة ثم وضعت تلك الذخيرة الثمينة في يدي تاو ـ شينغ ، وقالت في صوت مبحوح : « هذا مرتب شـهرين أعطتنيه عرابتك مؤخرا ـ مجموعه عشرة يوان . والآن ، كوني فتاة عاقلة وخذي هذا المبلغ وادفعي ما يترتب للمدرسة من اقساط . كوني صبوراً ، واذا احتجت شيئا فابلغيني . لقد قسى القدر عليكما ، أنت وأمك ! »

تناولت تاو ـ شينغ النقود ، وتغلبت على يأسها ، قائلة : « يحسن بي أن أرحل والناس نيام . أنا . . وداعا ، ياعمتاه ! » .

وسرعان ما تحولت ، في عيني خيالها ، الخادم العجوز مغضنـة الوجه الى شابة فاتنة مذهولة شعثاء الشعر تنهمر العبرات على وجنتيها وهي تعول في يأس : « ردّوا لي ابنتي ! أعطوني ابنتي ! . . » .

٣

لم ترجع تاو ــ شينغ الى المدرسة لان عودتها لم تكن تؤدي الى هدف مفيد . وأقسمت بينها وبين نفسها ألا تدوس مرة أخرى عتبة بيتها البغيض ، وانطلقت باحثة عن وانغ هسياو ــ ينغ صديقتها الطيبة التي عرفتها منذ أيام الدراسة الابتدائية . أمضت واياها ثلاثة أيام ، ثم ركبت القطار الى بيتايهو للبحث عن ابن عمها شانغوين ــ شينغ ، وهو شاب مخلص حصيف تكن له الاحترام منذ طفولتها . كانت زوجه أيضا احدى صديقاتها القديمات منذ ايام الدراسة ولذلك ففي مقدورها الاعتماد على مساعدتهما. قبيل نهاية الفصل الدراسي كتب لها ابن عمها يقول انه وزوجه سيبقيان في مدرستهما خلال العطلة . فأرسلت اليهما تاو ــ شينغ ، قبيل يومين من مغادرتها بيتايهو ، رسالة عاجلة تنبئهما فيها أنها ستقوم بزيارتهما ، وأعطتهما موعد وصول القطار الذي سيقلها من بيبينغ . وبدا الآونة انها قامت برحلتها الطويلة عبثا ــ فقد كانا رحلا ! فجلست الى جانب المعبد القديم المهجور الساكن ، وانخرطت تبكي .

كان القمر يسبح في هدوء صوب الجنوب ، ونسيم البحر النقي يبعثر شعرها ويساعدها في طرد حيرتها من رأسها الملتهب . كان الزمن قد قطع شوطا بعيد منتصف الليل ، وهو وقت ينبغي أن تكف فيه عن البكاء وان تبدأ العمل . رفعت عينيها الى الاشجار الصامتة والمعبد الساكن ببوابته المغلقة ، ثم نهضت على قدميها في تؤدة .

ــ لمَ لا ابحث عن مدير المدرسة وأستطلع الانباء منه ؟

حملت اليها هذه الفكرة أملا عذبا ، فعزمت على محاولة العثور على شيء تطعمه ، فقد كانت جائعة ظمأى . فتركت متاعها على السلّم ، ومشت بخطوات سريعة على طول الممشى في قلب الايكة .

اتخذت طريقها في صعوبة الى القرية ، ودخلت شارعا هادئا بدا لها مهجورا من الناس . وفيما هي تتساءل أين يمكن أن يكون مدير المدرسة

مقيما اقترب منها شكل تلفه الظلمة ، فركضت اليه وقد تنفست الصعداء .

ــ عفوك لحظة . هل يمكن ان ترشدني أين يقطن مدير المدرسة ؟

وتوقف الرجل وقد باغتته الدهشة .

ــ مدير المدرسة ؟ لقد جاوز الوقت منتصف الليل . من اين جئت؟

ــ جئت لزيارة ابن عمي شانغ ون ــ شينغ ، وهو معلم في مدرسة القرية . لكنه يظهر أنه رحل ، ولذلك فأنا أريد رؤية مدير المدرسة .

فتبسم الرجل الغريب ، وقال : « هكذا! الامر اذن ! حسنا ، أنا هو مدير المدرسة لحسن الحظ . هل اسألك ماهو اسمك ؟» .

كان المتحدث ، وهو رجل نَصَف نحيل قصير يلبس ثوباً طويلا ، يبدو أشبه مايكون بمعلم قروي نموذجي . اغتبطت تاو ــ شينغ كثيرا ، فعجلَت مستفسرة : « أفي مقدورك ، رجاء ، أن تخبرني الى أين رحل ابن عمي وزوجته ؟ قال لي العجوز في المعبد انهما رحلا » .

ــ السيد شانغ وزوجته ؟ آه ، أجل ..

وتوقف الرجل عن الكلام وابتسم كاشفا عن اسنان لا لون لها :

ــ من سوء الحظ أنهما استقالا منذ يومين لإشغال منصبين أفضل في مكان ما في الشمال الشرقي على ما فهمت ... حسنا ، فأنت لست أول من يزور أقرباءه فيجد أنهم رحلوا . يخال لي أنه ليس ثمة مكان تقيمين فيه حاليا ؟ لا يشغلنَّك ذلك ، ففي استطاعتك قضاء هذه الليلة في قريتنا . ويجب أن تأذني لي أن أتصرف كمضيف بدلا من السيد شانغ .

كانت تاو ــ شينغ في مأزق ، فهي لاتملك حتى أجرة العودة الى بيبينغ ، فاستشعرت حيرة في النطق . وكانت برودة هواء الليل وورطتها التعيسة قد مسحتا كل لون من وجهها ، فارتعشت ساقاها بحيث عجزتا عن حملها .

استشعر مدير المدرسة محنتها ، فقال يسألها مفترة شفتاه عن ابتسامة محببة : « ما هو اسمك ؟.. الآنسة لين ؟ حسنا ، يا آنسة لين ، لاتسرفي في اتباع قواعد السلوك . فقد اجتزت مسافة طويلة لزيارة أقربائك ، فاذا كنت في ورطة فأرجو ألا تكتمي ذلك عني . ابن عمك وأنا صديقان ، وسأبذل جهدي لمساعدتك . اسمي يو شينغ ــ تانغ ، وأنا مواطن في هذه القرية » .

لم يسبق لتاو ــ شينغ أن وقعت في مثل هذا المأزق من قبل قط، وان حسن ضيافة مدير المدرسة ترسل الدفء في فؤادها . قالت ، وقد استعادت رباطة جأشها نوعا ما : « جئت أزور ابن عمي بسبب ... اني أود العثور على عمل . فهل لديك وظيفة معلم في مدرستك ؟ »

شده ذلك السؤال المقتضب يو شينغ ـ تانغ وجعله يتأكد أنه أمام فتاة قليلة التجربة .

ــ هذا شيء ...

وتردد قليلا ، ثم ابتسم وطرف بعينيه ، وأكمل يقول :

ــ هذا شيء يمكن أن نتدبره ، بلى ، من دون ريب . ينبغي أن تقيمي في منزلي المتواضع في هذه الليلة ، وفي مقدورنا أن نتحدث في موضوع الوظيفة غدا . يمكن أن نتدبر أمرا ، أوه ، بلى ، يمكن أن نتدبر امرا .

شعرت تاو ـ شينغ بشيء من الانفراج ، على الرغم من أن أسلوب السيد يو في الحديث ، الميال الى التكلف والخشونة ، ذكّرها بحديث واحد من الملاك المحليين . لكنها لم تبالي بذلك . اذا كان في طوقها العثور على عمل ومكان تقيم فيه ، فان ذلك أكثر من أن يكفيها .

ــ شكرا لك ، يا سيد يو ! لا أريد أن ازعجك . سأقيم في المدرسة ان كان ذلك ممكنا .

فوافق قائلا : « حسنا ، حسنا ، حسنا ! » وعاد برفقتها الى المعبد.

دخل من باب جانبي ، وأهب البواب العجوز السكير من نومه ، وعثر لتاو ـ شينغ على غرفة في مهجع المعلمين . ثم سألها ، وهو يطرف بعينيه، عن أنباء الحوادث الأخيرة في بيبينغ ، كما طرح عددا آخر من الاسئلة تتعلق بعائلتها . لم تخبره تاو ـ شينغ شيئا عن قصة هروبها ، بل روت له أنها جاءت تسأل ابن عمها أن يعثر لها على عمل لانها لا تستطيع اكمال دراستها . وأعلنت أنها تحب أن تعلّم في مدرسة ابتدائية .

قال : « آه ، حسنا ، هذا أمر يمكن تدبيره ! » وتابع الكلام يؤكد لها ، وهو يبتسم : « بلى ، من دون ريب ، حالياً لا يوجد مكان شاغر عندي ، لكن لا ضرورة تدعو الى قلقك . سأسافر الى لينيو قريبا للاجتماع بالحاكم باو ، وأنا واثق من أنه عندما أعرض عليه الامر فلن تكون هنالك أية صعوبات . فأنا والحاكم على أتم وفاق من العلاقات . وهو يبدي اهتماما طيبا بالشبان ــ وطلب وظيفة تعليمية طلب سهل ، وأنا

واثق من أنه سيوافق على ذلك بمجرد أن اعرض الامر عليه » .

قالت تاو ـ شينغ في نفسها ان الحظ يقف الى جانبها بلقائها مثل هذا الصديق في وقت الشدة ، واغتبطت لفكرة حصولها على عمل .

استغرقت في النوم تلك الليلة في المعبد القديم غير المألوف . ورأت في أحلامها الامواج المتواثبة وأصداء الزيزان تتحول الى موسيقى جميلة .

في بكور الصباح التالي أهبتها من النوم أصداء البحر وهو يلاطم الصخور . كان خرير الامواج العظيمة القوي الايقاعي يجتذب الفتاة الشابة اليه بصورة لا مقاومة لها . فالتهمت في عجل الافطار الذي جاءها به حارس البوابة ، وهرولت أدراجها ناحية البحر .

ياللبحر ، البحر الغامض المهيب ! وقفت تاو ـ شينغ على الرمل الندي ، وفؤادها مفعم باهتياج مسرور ، وشرعت تحدق في المحيط . كانت السماء فوقها صافية الا من بعض الغيوم البيضاء تلوح في الافق ، والبحر أزرق صافيا مثل صفحة السماء ، يومض ببريق فضي موشى . وهنالك ، في البعيد ، على المياه اللينة الساكنة ، اسطول من قوارب الصيد بأشرعتها البيضاء . وعمل اتساع الطبيعة وجلالها على تخفيف التوتر الذي كانت تشكومنه . فرجّلت شعرهاالذي أثاره الريح ، وتناولت من جيبها مزمارها الصغير الثمين .

في الاعلى يَسْبَحُ مَوْج الغيمْ
والنجمة تبعث أضواء
والبحرُ تَصَاخب أنواء
والمدُ يهوّم يبغي النوم ..

سارت على طول الشاطىء تعزف ألحاناً حفظتها من أيام طفولتها .

كانت تتوقف بين حين وحين وتلتقط عن الرمال صدفة ملونةجميلة، مرة عن يسارها وأخرى عن يمينها ، أو تهوي على ركبتيها ، مغتبطة مثل طفلة صغيرة ، ثم تهب من جديد وتسقط صدفة جديدة في جيبها ، عامية عن ان حذاءها يقطر ماء ، وأن شعرها تكلل بالرمل .

كانت يانغشوانغ قرية مهجورة على شاطىء البحر ، ليس فيها من الحياة النباتية غير بعض الاعشاب المتفرقة المتناثرة بين كثبان الرمال . ولكنها لم تكد تخطو عددا من « اللي » على طول الشاطىء حتى رأت شيئا من التبدل . فان هنالك الآن مزارع خضراء ، وصفوفا من الاشجار المثقلة

بالتفاح والخوخ تغطي جوانب التلال والوديان . وكانت أجمات الميموزا تختلط بالورود العابقة الرقيقة . وبين تلك الاشجار الخضراء والبراعم الشهية ، مختبئة بينها ، كانت مجموعات من البيوت والاكواخ المبنية على الطراز الاجنبي . كانت سقوفها البراقة متعددة الألوان الناهضة بمضاء بين الاشجار القريبة من البحر تفتن عيني تاو-شينغ ، هي التي الفت الشوارع المغبرة في بيبينغ أو الجبال الوعرة والقرى الفقيرة قرب كوبيكو حيث اعتادت أن تذهب مع رابتها لجمع الايجار من المستأجرين . في ضوء الشمس البراق فوق هذا الشاطىء الساحر كانت الفيلات الفاخرة المترامية على مد النظر أجمل من جميع اللوحات التي مرت في فكرها .

وقفت فترة من الزمن فوق ذروة تلة صغيرة تطيل النظر في سكون . ولم يلبث فضول الصبا أن تحرك في مشاعرها ، فاندفعت راكضة صوب صفوف من اكشاك الاستحمام الحمراء الصغيرة انتشرت على حافة المياه .

ههنا ، في هذا المشهد الشبيه بأساطير الجنيات ، أقلقها صدى مزيج من أصوات بشرية ، وصيحات المستحمين وضحكاتهم من حيث يستريحون على الشاطىء الرملي الناعم . كان بعضهم يصيحون بأعلى أصواتهم ، وآخرون يتحدثون بحماسة ونبرة مزمجرة . وتبين لها فجأة انها شردت فوصلت الى مصح عصري على شاطىء البحر .

وقفت تحت احدى أشجار الصنوبر القديمة ، واخذت تراقب في فضول الناس البعيدين عنها . كانت هنالك جموع من الاجانب والشبان الاثرياء الصينيين في ثياب البحر من مختلف الاشكال والالوان ، بعضهم استلقى على الشاطىء تحت اشعة الشمس ، وآخرون نشروا أذرعهم مثل بجعات بيضاء يغطسون في المياه متضاحكين . وأغلب أولئك الذين فضلوا البقاء على الشاطىء من النساء الاجنبيات العجائز والقيّمات الصينيات الشابات اللواتي يتسكعن تحت مظلات كبيرة . وكان لبعض النساء كلاب صغيرة . وقد جلسن على ملاءات بيضاء نظيفة نشرت على الرمال ، ورحن يثرثرن وهن يمتعن أنفسهن بمرأى ما يحيط بهن . وملأت احدى النساء قدحا بالحليب وصبته في صحن أبيض وقدمته الى كلبها الصغير . كانت تاو-شينغ مستغرقة في مراقبة المشهد حينما تناهى الى سمعها صوت صيني ينطلق في غضب ، فالتفتت الى ناحية مصدر الصوت ، فلمحت صبية بكامل لبوسها يتألق قرطا أذنيها المصنوعان من اللؤلؤ تحت أشعة

الشمس . كانت تضرب الارض بقدمها ، وتنبر في صوت موبخ : « انتظروا الى أن أمسكها بيدي ! لقد ذهبت طوال هذا الوقت فيما أنا أنتظر المظلة. الشمس أشبه بالنار ! أيتها الغبية ، سوف تنالين عقابا صارما ! »

كان الوقت ظهرا ، وهو الوقت الذي تشتد فيه حرارة الشمس، وفتاة في ثوب قصير تركض على طول الشاطىء المحرق ناحية تلك المرأة سليطة اللسان . وكلما زادت من سرعة خطواتها كلما غرقت أكثر فأكثر في الرمال الملتهبة ، بينما سيدتها توالي ضرب الارض بقدميهافي غضب، وتطلق صيحات السباب . أخيرا وصلت الفتاة ، مبهورة الانفاس ، الى بغيتها ومدت الى سيدتها مظلة حريرية زهرية اللون ، فتلقت لقاء ذلك صفعة قوية على وجهها ...

وأجفلت تاو-شينغ فجأة ، فهي قد أضاعت الصباح بكامله .

انها لم تعد تحس بالجذل مثلها عندماخرجت . فالنزهة كانت تجربة جديدة ، وقد استمتعت بمشهد جميل أخاذ . فانقلبت على عقبيها ، مترنمة ، متوقفة بين حين وحين لالتقاط الورود البرية .

أجفلتها صيحات خشنة متوالية : « ارجعي ! » ، فرفعت رأسها ورأت بناية مثيرة للاعجاب محاطة بجدار ضخم شاهق . وكان حارس يحدق فيها ويشير الى لوحة خشبية كبيرة منصوبة قريبا .

توقفت تاو - شينغ وقد انفعلت غضبا ، ونظرت في فضول صوب الناحية التي أشار اليها الحارس ، فلمحت لافتة كتب عليها :

ممنوع اقتراب الصينيين والكلاب

لحظتها لمحت نجوما وشرائط يتلاعب بها النسيم على الساريةالقائمة أمام المنزل الكبير . رمت نظرة غاضبة على اللافتة ، والسارية ، والعلم الاميركي ، ثم تابعت سيرها مسرعة من دون أن تنطق بحرف واحد .

- أي صنف من العالم هو هذا ؟ والاسلوب الذي يسود الاجانب بواسطته على الصين ...

كان الغضب يهزها ، ففقدت كل رغبة في رؤية المزيد ، وقررت العودة مباشرة الى قرية يانغشوانغ .

كانت الصخور والرمال ترجّع وهج حرارة شمس منتصف النهار، وكانت تشعر بحرارة خانقة على الرغم من الانتعاش القليل الذي يتيحه

نسيم البحر . وفيما هي اتخذت مجلسها على احدى الصخور لتبسط الاصداف التي جمعتها وتمسح وجهها بمنديلها ، فقد بدأت تشعر بشيء من الانزعاج — فهي قد تصرفت ، بدلا من أن تذهب لرؤية السيد يو بخصوص عملها، مثل طفل لا يشعر بشيء من المسؤولية وانطلقت الى الشاطيء. ابدا من قبل لم تجد في التسكع لذة ، حتى وهي طفلة صغيرة ، ولكنها لم تكد تصل الى بيتايهو حتى سقطت فريسة لرقية البحر وسلطانه ، ونسيت كل شيء آخر . فرمت أبصارها حواليها وهي توبخ نفسها . وقفت على كثيب مهجور أعزل ، وهذه القرية الممتدة امامها في المنتأى تبدو كأنها ليست يانغشوانغ . كان الخروج من القرية سهلا ، لكن هل يتاح لها أن تعثر على طريق العودة اليها ؟ لقد أضاعت ، مثل جميع سكان المدن، سبيلها حينما صارت في العراء ، وليس هنالك الآن من يمكن أن يقودها .

عزت نفسها قائلة ، وهي تتبع الكثبان المتموجة : « لا أهمية للامر. سأواصل طريقي قدماً !» . لم تكن تشعر بالخوف لأنها اعتادت على البقاء وحيدة منذ طفولتها . مشت في رشاقة الى أن بدت لعينيها مجموعة من الخيام الرمادية . فركضت ناحيتها لكنها لم تعثر على أحد داخلها. كانت هنالك أمام الخيام بعض شباك الصيد وعدته . كما كان هنالك عدد من القوارب المعطوبة المقلوبة لتجفيفها . لا ريبة ان الخيام تخص بعض الصيادين . كانت تتلفت حواليها يائسة حينما تناهت اليها صيحة من وراء صخرة قريبة . أرهفت سمعها وقد انتفضت برهة ، ثم أسرعت ناحية الصوت .

كانت امرأة نحيلة قصيرة القامة تجاوزت مرحلة الشباب جالسة تحت صفصافة الى جانب صخرة كبيرة ترضع طفلا مريضا وترتق احدى الشباك . وبكى الطفل بعدما رضع طوال لحظات ، غير ان المرأة لم تكف عن عملها ، كما بدا أنها لم تنتبه الى تاو-شينغ عندما وقفت أمامها.

غمغمت في صوت خشن ، وهي تكشر في وجه الطفل .

— ايها البائس الصغير ، لسوف تكون السبب في موتي ! كف عن البكاء ! عندما لا أجد شيئا آكله فينبغي أن تجوع أنت أيضا . كن طيبا ، الآن ...

كف الطفل عن الرضاع وانخرط في بكاء مرير . لم يكن أكثر من جلد وعظم لان الام الناحلة الضعيفة لم يكن في صدرها شيء من الحليب .

وفقدت المرأة صبرها مع الطفل الباكي ، فألقت الشبكة التي ترتقهاجانبا .
– ايها البائس الصغير ! أتريد أن تكون السبب في وفاتي ؟ يحسن بك أن تموت مثلما مات والدك البائس المسكين ! آه ، ياللسموات ...
وضغطت وجهها على الطفل الصغير واهتزت ناشجة .
وقفت تاو–شينغ التي جاءت تستفسر عن الطريق وكأنها وتدت في الارض . كانت المرأة ترتدي خليطا من الثياب المهلهلة القذرة ظهر كتفاها وركبتاها الوسختان من خلالها .
– أستميحك عذرا . هل يمكن ان تخبريني ...
وترددت تاو–شينـغ قليـلا ثم قالت في لطف : « لا تبكي ! فأنت تسحقين الطفل ... »
اختلطت عليها الكلمات ، فأرادت أن ترفع الرأس المتلبد المدفون في الصدر الصغير . فقد كان الطفل بالغ الضعف بحيث كان يلهث بعد كل صرخة طوال لحظات دون أن يندّ عن فمه المفتوح أدنى صوت .
رفعت المرأة رأسها ، وتطلعت الى تاو – شينغ مشدوهة ، وتلعثمت تقول : « ماذا ... ماذا تريدين ؟ » . كانت في صوتها نبرة أهل شانتونغ ، وكان يبدو فيها الخوف .
قالت تاو–شينغ في اضطراب ، وقد نسيت أن تسأل عن الطريق : «أنت لست من هذه الأرجاء ، أليس كذلك ؟ ماذا حدث ؟ »
حملقت المرأة فيها في انشداه ، وهمت بالكلام ، ولكنها عدلت عن ذلك بعد تفكير قصير . ثم ما لبثت بعد لحظات أن روت قصتها في تردد :
– منزلنا في شانتونغ . ومرت بنا أوقات سيئة أرغمتني وزوجي على الهرب من المجاعة . قالوا لنـا ان في مقدورنا أن نجمع ثروة من جراء العمل لدى الاجانب ههنا ، وهكذا جاء ثلاثتنا . وفي أقل من فترة ثلاثة شهور كان ... كان يساعد في بناء بيت للاجانب ، عندما ... عندمـا سقط وقتل !
جلست لا حراك بها ، وعيناها الخابيتان ترنوان الى تاو–شينغ ، حزينتان من جراء جمودها أكثر منه من بكائها ونواحها .
– لا أستطيع العودةالى قريتي الآن ، ولذلك جعلت أستعطي وأصلح شباك الصيادين ...
وحين استشعرت أن الفتاة الواقفة أمامها لاتلقي بالاً الى أسمالها

المهترئة أو تحتقر فقرها ، فقد تنفست الصعداء وقالت في صوت واهن وهي تهز طفلتها :

ـ لا استطيع الاستمرار في الحياة على هذا الفرار ، يا آنسة . وطفلي لن يكتب له أن يغيش طويلا أيضا . انه مريض ، هذا المسكين الصغير ، ولا حليب في صدري . لو كنا نعلم كيف ستكون الامور هنا كنا اخترنا أن نموت في بيتنا .

غمغمت تاو-شينغ ، وفي ذاكرتها تخطر صورة جرو صغير يلعق الحليب من صحن : « ستكون الامور خيرا ، وسوف تعثرين على مخرج ». وغاص قلبها وهي ترى الام الهزيلة وطفلها الساغب الذي قد يموت بين لحظة وأخرى .

ـ يفضل ان نموت ونخلص من هذا البؤس ! وليمتع الاجانب والاثرياء أنفسهم ما طاب لهم ! أتقضين اجازة هنا ، يا آنسة ؟ أنظري هذه الاوقات الممتعة التي يقضونها على الشاطىء !

ـ كلا ، أنا لست واحدة منهم .

جرحتها كلمات المرأة ، فانطلقت مبتعدة ، وفكرها تعصره انطباعات متضاربة : الخيام الرثة ، والكثبان المتموجة ، وخرير البحر ، وخشخشة أشجار الحور ، الجرو والمظلات على الشاطىء ، الفيلات الصيفية الحلوة مثل قصور حكايا الجنيات ، واللافتة المكتوب عليها « ممنوع اقتراب الصينيين والكلاب » ...

٤

ــ لقد رجعت اذن ،، يا آنسة لين ؟ ان لقريتنا المتواضعة القائمــة على شاطىء البحر مناظر رائعة ، أليس كذلك ؟ ينبغي أن تمتعي نظرك بجميع المشاهد ههنــا .

عندما وصلت تاوـشينغ الى المعبد قابلها يو شينغـتانغ الذي خرج من غرفته لتحيتها . كان وجهه مشرقا ، وحاجباه اللذان لايكفان عــن التقطيب يضحكان .

استتلى يقول ، قبل أن تتاح لها فرصة الجواب : « لقد بكرت في الذهاب الى المدينة هذا الصباح لزيارة الحاكم باو . انه صديق قديم منذ أيام الدراسة ، شخصية رائعة وجديرة بالاحترام . ومن سوء الحظ انه كان قد ذهب الى عاصمة المقاطعة لحضور اجتماع ، ولذلك لم أستطع رؤيته . لكن ، لا أهمية لذلك ، اذا لم يكن لديك مانع من الانتظار عــدة ايام . ستسوى الامور بسهولة بعد عودته » .

تطلعت تاوـشينغ في صمت الى وجهه الطويل النحيل .

أسرع يوضح لها : « أرجوك الا تقلقي أو تعامليني معاملة الغرباء . انتظري هنا عدة أيام فحسب . قد لا يخطر لك ذلك في بال ، ولكنني انسان اجتماعي جدا » .

ــ أنا لا أريد ان أزعجك ، يا سيد يو . فاذا لم يكن ثمة مجال ههنا فلسوف أعود الى بيبينغ .

كان القلق قد طغى عليها ــ لقد رحل ابن عمها ، وليس من اليسير الحصول على عمل ، وهي لا تملك نقودا تكفي للعودة الى بيبينغ . وعلى

أية حال ، ماذا يمكنها أن تفعل هناك اذا رجعت ؟.. حدقت في الاصداف على الطاولة ، وغرقت في بحران أفكارها .

ـ مهما يكن من أمر فينبغي ألا تعامليني مثل رجل غريب ، يا آنسة لين . وعندما أزور بيبينغ فسوف أضعك في مثل هذا المأزق تماما .

كان يو شينغ ـ تانغ يتحدث في حماسة وحيوية، فاطمأنت تاو ـ شينغ وأومأت برأسها موافقة .

ـ شكرا لك ! آمل ان يرجع الحاكم باو في أسرع وقت .

ـ من دون ريب ، من دون ريب . سيعود في أسرع وقت . لن يطول غيابه كثيرا . حسنا الآن ! لقد قضيت فترة طويلة تتنزهين ولم تتناولي طعاما ، أليس كذلك ؟ انه جاهز في انتظارك .

وصاح بالبواب : « اسمع، أيها العجوز كاو ! أحضر عشاء الآنسة لين ! »

حينما احضر العجوز الطعام سار يو مبتعدا وقد أحنى ظهره مثل قوس . كان هنالك على المائدة المربعة كعك ساخن مصنوع من أرز فاخر وصحن من البيض المقلي ، ولكن الفتاة كانت متضايقة بحيث فقدت شهيتها .

قبل مغادرتها بيبينغ ، وأثناء اقامتها مع وانغ هسياو ـ ين ، طلبت الى بعض أساتذتها وصديقاتها المقربات أن يساعدنها في العثور على عمل، وها قد مر أسبوع كامل من دون أن تستلم أية رسالة ، كما لم يصلها أي خبر مؤكد عن الحاكم باو . وكانت قد بدأت تشك في أقوال يو شينغ ـ تانغ من أن كل شيء سيسير على خير ما يرام .

ـ أرجو ألا تقلقي ، يا آنسة لين ! لن تكون هنالك أية صعوبة على الاطلاق . لسوف يعود الحاكم في أقرب وقت ... اعذريني ان سألتك ـ وآمل الا تحسبيني فظا ـ لكن ، هل تراك متزوجة ، يا آنسة لين ؟ هل انت مخطوبة ؟... اعذريني ـ فهذا سؤال عرضي .

كان مدير المدرسة يزورها مرة أو مرتين في اليوم الواحد ، وفي كل مرة يتحدث في الموضوعات ذاتها بصورة تبعث على الضجر .

تفاقم ارتياب تاو ـ شينغ فتمنت لو تستطيع مغادرة المدرسة .

« فيم يحتفظ بي هنا ؟ يدعي أنه سيجد لي عملا ، لكن ، فيم تراه يظل ينتظر الحاكم باو ويريد أن يعرف ما اذا كنت متزوجة أو مخطوبة ؟ » .

وخيل اليها أنه ليس ثمة مكان في هذا العالم الفسيح تلجأ اليه . لم تكن

تستطيع أن تعمل شيئا غير التذرع بالصبر والبقاء في قريـة يانغشوانغ رغم ما في هذا البقاء من ضجر وعدم جدوى .

مرت عشرة ايام ولم يأت جواب عن رسائلها الى بيبينغ، الرسائل التي تسأل فيها عن عمل . وبدا أن الحاكم باو لن يعود في وقت قريب . وشحب وجه تاو-شينغ ، وتفاقم قلقها مع مرور كل يوم . فراحت تقضي أوقاتها كلها في الخليج تجنبا من حديث يو شينغ-تانغ المستمر ، الامر الذي زاد من غرامها بالبحر .

كانت تنطلق الى الشاطيء مباشرة بعيد فطور كل يوم ، فتجـد لروحها عزاء في الزرقة العميقة لليم الفسيح أو في شراع أبيض وحيـد يلوح عند الافق . انها لاتبرح تحس نحو البحر بعاطفة دافئة رغم أنهـا لم تعد تشعر بشيء من فتنة زيارتها الأولى له . كانت تجلس هناك النهار بطوله تمد اليه بصرها ، سواء أكان يتضوأ في رقة ونعومة كالحرير أو يصخب ويتماوج مثل حيوان وحشي ضار . كانت منجذبة الى البحر مثلما ينجذب الطفل الى أمه . وكانت في الاحايين تحني رأسها فوقه بعد أن تغرز فيه نظرة سوداوية كئيبة وتهمهم: « أماه ! » . وكانت صورة هسيو - ني ترتسم على الدوام أمام عينيها منذ أخبرتها العمة وانغ بمصير أمها التعيس .

أثارت الفتاة المرتدية ثيابا بيضاء القابعة طوال النهار على الصخور فضول الفلاحين والاولاد في الجوار .

ذات يوم اقتحم عليها أحدهم عزلتها . كان الوقت غسقا ، وكانت تطيل التفكير في دوامـة انحسار المد حينما أهبهـا صوت قريب من عنفوان أحلامهـا .

- ينبغي أن تعودي لتناول طعام العشاء . فالعجوز كاو ينتظرك .

التفتت تاو - شينغ فوقع بصرها على شاب أسمر نحيل وقف الى جانبها والبسمة تتخايل على شفتيه . كانت قد رأته مرة على الخليج ، ولكنها المرة الاولى التي يوجه الحديث اليها .

وحدقت اليـه .

قال من جديد في صوت لطيف حلو : « عودي لتنـاول العشاء ! لا تدمري صحتك بالتهرب من الطعام » .

كان شعره القصير مُسرَّحاً الى جانب واحد . وكان يرتدي بـزة



الطلاب الخاكية . وكانت عيناه براقتين تموجان ذكاء رغم ضيقهما . وما أثار تاو-شينغ انه لم يكن من القرويين . رمتـه بنظرة خاطفة ، وتمتمت بعض كلمات الشكر ، واستدارت عنه وانطلقت مبتعدة .

ما أكثر ما كانت تستشعر وجوده على الشاطىء بعد ذلك . كان يقترب منها احيانا كمن يرغب في محادثتها . ولربما كان أسلوبهـا في التنائي عن الناس يرغمه على الصمت ، فقد كانت كل محاولة للحديث معها تنتهي بأن يخطو مبتعدا عنها في هدوء .

وحين كانت تاو-شينغ تضجر من الجلوس على الصخور فهي تنطلق على طول الشاطىء احيانا . وقد ترددت مرارا عديدة على المكان الذي كان يؤمه الذين يقضون اجازاتهم ، واجتازت الفيلات الرائعة . وذات يوم ، فيما هي تقترب من الخيام الرمادية وشجـرة الصفصاف الكبيرة عند الصخرة ، تذكرت المرأة التي كانت تصلح الشباك هناك وتساءلت ماذا تراه حل بها وبابنها .

لم تكن المرأة هنالك ، بل كـان هنالـك صيادان يطهوان خارج خيمتهما . اتجهت اليهما وسألت أكبرهما عن أخبار المرأة وابنها .

تطلع اليها الصياد مشدوها وقال : « من ؟ ليس ثمة امرأة ههنا . أنا لا اعرف من تقصدين » .

فوصفت تاو-شينغ المرأة وابنها المريض .

أجاب الشيخ ، وهو يستدير عن النار ناحية تاو-شينغ : « أوه ، تلك المرأة ! لقد ذهبت . وثبت الى البحر ... أفضل شيء كـان في مقدورها أن تفعله بعد كل ما عانت منه ، تلك المخلوقـة المسكينة . ما أسوأ ما وقع للصبي أيضا ، وقد كان صبيا صغيرا . حدث ذلك منذ ايام قليلة . وثبت الى البحر وصغيرها بين ذراعيها ... وهكذا فقد انتهت الاسرة بكاملها » .

وراح صيادون آخـرون استثارهم الفضـول لمعـرفة ما يجـري يتجمهرون حول تاو-شينغ . بدا غريبا لهم ان تبدي طالبة اهتمامـا بامرأة فقيرة منكودة الحظ . وانسلت موجعة مرتبكة .

وفيما هي تسرع خطواتها على الشاطىء الناعم تراءت في مخيلتها صورة وجه المرأة النحيل الشاحب وعينيهـا الخاليتين من أي تعبير ، والطفل الساغب الناشج بين ذراعيها ، وأمها التي أفقدها الحزن صوابها

وهي تصرخ : « أعيدوا الي ابنتي ! » . راحت خطواتها تتجرجر على الارض ، وقلبها يتلوى ألما ، غير انها تابعت طريقها بتثاقل وضنى ، راغبة في الوصول الى البيت حيث تستطيع ان تضطجع وتنال قسطا من راحة .

وانفجرت عاصفة من ضحك مهين : « هاي ، قفي ، أيتها الحمامة الصغيرة البيضاء ! »

رفعت تاو-شينغ راسها وقد أدهشها أن تشاهد جماعة من الشبان اضطجعوا عراة تحت الشمس ، وقد تكدست الى جانبهم أحزمة نجاة جميلة ، واوعية سباحة عصرية ، ومظلات كبيرة تلفت النظر ، وزجاجات خمرة .

وفيما تاو-شينغ تستدير مجفلة للابتعاد عنهم ، جاءها صوت آخر مناديا : « يا ممرضة ! يا ممرضة جميلة في ثياب بيضاء ، تعالي الى هنا ! نحن متعبون وفي حاجة الى شيء من التدليك » .

كانت هذه الكلمات التي أعقبتها انفجارة جارفة من الضحك قد أشعرت تاو-شينغ انها موضع سخريتهم — فليس ثمة امرأة أخرى ترتدي ثيابا بيضاء على مرمى البصر . فشدت كتفيها ، ومشت ساخطة اليهم ، وتوقفت على بعد خطوات قليلة منهم ، وهي تعض على شفتيها في حين ارتسم العبوس على وجهها . كان صدى تحديها العنيد اشبه بعاصفة من المطر تنصب على زيزان الحصاد — فالتجمت ألسنة الشبان. أطالت فيهم التحديق برهة من زمن ، ثم استدارت على مهلة ودونما ارتباك ، وخطت مبتعدة .

لم تكد تسير خطوات قليلة حتى انفجرت عاصفة جشاء من الضحك وراءها .

— انها لاتخجل ، أليس كذلك ؟

— هل كان يبدو عليها شيء من الأمتعاض ؟

— لقد انقلبت حمامتنا الصغيرة البيضاء الى بومة وحشية !

تجاهلت تاو — شينغ هذه التعليقات . وأخرجت منديلها ومسحت العبرات التي تجمعت في مآقيها .

كانت الظلمة تتراكم فيما هي تقترب من القرية ، وكانت السماء ملبدة بالغيوم . غرقت على الشاطىء وقد هدّها الضنى ، وحملقت في

البحر من جديد . كانت هنالك عاصفة تتجمّع ، وموجات كبيرة غاضبة تلوح مُفرقة في السواد وهي تعصف وتضرب الشاطىء مثل عشرة آلاف حصان وثّاب . وعكست صفحة قلبها كآبة البحر العاصف . انحنت على الشاطىء الندي وراحت تخطّ في بطء هذه الكلمات على الرمال ، وهي تفكر في مهانتها الاخيرة :

البحرُ تَماوجَ في عينيّ
وثيابي تُنديها العبراتْ
وغداً لن يبقى شيءٌ حيّ
بل تفنى الشهرةُ والخيراتْ
وبجانب « فينهو » نهر المِيّ
طارت أوزاتٌ وحشياتْ

ـ انه شعر من تانغ ، أليس كذلك ؟

ان شخصا قد اقترب من ورائها في صمت وهدوء. فالتفتت فرأت الشاب الاسمر ينظر اليها بابتسامة تدل على الأعتبار والتقدير .

ـ أتحبين الشعر ؟ هل تقرضينه ؟ ان الشاطىء بأسره ههنا أشبه بقصيدة !

احمرّت وجنتا تاو ـ شينغ دون أن تعرف لماذا . نهضت مسرعة، ونفضت الرمال عن شعرها ، وأجابت في صوت خفيض : « كلا ، أنا لا أستطيع قرض الشعر » .

كانت قد بدأت تخطو مبتعدة حينما أوقفها الشاب محذرا:«لسوف تمطرنا السماء . يحسن أن تعودي . فيمَ تقضين أوقاتك كلها على الشاطىء ؟ »

ـ لا عليك ، شكرا لك !

لم تدرك ما قالت الا بصعوبة ، فاستدارت في برود ، وانطلقت راكضة .

كانت سحبٌ كبيرة سوداء تدّافع في السماء بتأثير الرياح الشرقية، والامواج المتلاطمة سوداء مثل القار ، وريح قاصفة تهدد بتهطال من المطر . وما يبعث على الغرابة حقا أن تاو ـ شينغ ما ان تهرّبت من الشاب حتى عمدت الى التباطؤ في سيرها . كان الشاطىء يبعد قرابة « لي » واحد عن المدرسة ، وكانت قد بلغت الطرف البعيد من الأيكة

حينما اكفهرت السماء تماما وأخذ المطر يسَّاقط مدرارا . فانثالت تركض ، وسرعان ما وصلت الى المعبد ، وسلكت من جراء عجلتها طريقا خاطئة في الظلمة ، فمرقت من المدخل الجانبي الى الساحة ، وهو المدخل المخصَّص لآدارة القرية . وما ان غدت داخلا حتى عزمت على انتظار أن يخفّ تهطال المطر العنيف . كانت الغرفة الشرقية مضاءة ، وتناهى اليها صدى قطع المهجونغ حيث وقفت عند الوصيد الخارجي لاهثة تمسّد شعرها اليقطر ماءً . وسمعت فجأة ضحكة خشنة وصوتا فظا يدفّ من قلب الغرفة قائلا : « حسنا ، أيها العجوز يو ، فيمَ حفاظك على الفتاة ههنا ؟ أفلست نخشى أن تغار السيدة يو اذا استمرت الحال على هذا المنوال ؟ »

ــ فتاة جميلة الطلعة ومتخرجة من مدرسة عليا ايضا . ان للعجوز يو عينا تحسن انتقاء الجمال من دون ريب .

وارتعشت تاو ــ شينغ من جراء ضحك الرجال الصاخب وقرقعة رقع المهجونغ المختلطة بهدير العاصفة . فالتصقت بالجدار ومدّت بصرها الى الغرفة . شاهدت يو شينغ ــ تانغ يطرف بعينيه كعادته وهو يلعب المهجونغ مع ثلاثة من علية أهل القرية . وأشار رجل سمين ذو وجه عريض وأذنين كبيرتين يضع فوق أنفه نظارة مؤطرة باصبعه ناحية يو وتلمّظ بشفتيه الغليظتين : « أيها العجوز يو ، هل تسمح لي بالحصول على الفتاة ؟ اذا فعلت ذلك فان دكاني الموجودة في المدينة ملك خالص لك . . لا يخطرنّ في بالك أني لا أريد الحصول على فتاة عصرية الثقافة بسبب من المحظيتين الأخريين في داري .

والتصقت تاو ــ شينغ بالجدار أكثر منها قبلا ، وهي تطحن أسنانها وتمسك أنفاسها مرهفة سمعها الى الحديث .

وراح يو شينغ ــ تانغ يتحدث حديثا نصفه هزل ونصفه الآخر جدّ : « آها ، أنتم تستملحون المداعبة ، يا أصدقائي . أؤكد لكم أنه ليس عندي أية اهداف شريرة ضد الفتاة على الاطلاق . نحن جميعا هنا كالاخوة ، ولذلك أستطيع أن أخبركم عن ثقة أن الحاكم باو كان قد طلب مني منذ فترة من الزمن أن أعثر له على طالبة جميلة . انه يرغب ، من دون ريب ، في شيء أفضل من زوجته الريفية التي تثير الاشمئزاز . وحينما جاءت هذه الفتاة لـكي تبحث عن ابن عمها في خضم

متاعبها ، فقد أشفقت عليها وطلبت اليها الاقامة هنا فترة من الوقت . . »

توقف الثلاثة الآخرون عن تحريك قطع المهجونغ كيما يصرفوا أسماعهم بصورة أفضل الى شرح يو شينغ – تانغ المتملّق .

– ومما يؤسى له أن الحاكم باو ذهب الى عاصمة المقاطعة لحضور مؤتمر ولم يرجع بعد . وكانت الفتاة تستحثني على ايجاد عمل لها . حسنا ، ما أسهل العثور على عمل لفتاة – اذا كانت مليحة الوجه !

وأهنف في ضحكة نصف مكبوتة ، واسترسل قائلا : « بلى ، ما أسهل العثور على عمل ! »

لطم الرجل السمين يو على ظهره ، واستطالت عيناه وهو يترجى مبتسما : « اذا لم يكن الحاكم راغبا فيها فينبغي عليك أن تتركني أحصل عليها ، أيها العجوز يو ! الحياة قصيرة لاريب ! ولسوف أعطين جميع ما أملك لقاء فرصة مثل هذه » .

تراجعت تاو – شينغ كيفما كان في ملء المطر المنهمر والليل الداكن الى غرفتها . وارتمت في العتمة الشاملة ، بثوبها الخفيف المندّى ، على سريرها ودفنت وجهها فيه ، عاجزة عن الاتيان بأية حركة . وبقيت مستلقية هنالك زمنا طويلا دون أن يصدر عنها أدنى صوت ، عاجزة عن التفكير في أي شيء .

في الخارج كان المطر هتونا ، والبحر الغاضب يزمجر ، وبدا الكون بأسره وكأنه ينقلب الى جنون وحشي . ورغم هذا كله لم تكن تاو – شينغ تسمع شيئا .

بدأت تستردّ تدريجيا سيطرتها على نفسها لتستعيد في ذهنها أحداث الاسبوعين المنصرمين . لماذا ترى عاملتها الحياة بمثل هذه القسوة ؟ لقد جنّدت كل شجاعتها للفرار من منزل يسوده الشرّ والفساد بحيث كادت تدمّر نفسها ، وما ذلك الا كيما تجد نفسها في مجتمع أكثر شرا وفسادا – يفتح شدقيه الملطخين بالدماء لابتلاعها . ليبدونّ أنه ليس ثمة سبيل أمام الشبان المثاليين الذين يرفضون التعرّض للشبهات . أفليس هنالك مكان في هذا العالم الفسيح لفتاة مثلها في الثامنة عشرة من عمرها ؟

أرغمت نفسها في أخريات تلك الليلة على اضاءة قنديلها، فلمحت ثلاث رسائل على المنضدة فتحتها بيدين راعشتين . كانت الرسالة الاولى من وانغ هسياو ــ ين تتضمن هذه السطور القليلة :

... لديّ أنبا سارة لك : فقد اجتزت امتحان الدخول الى الجامعة النظامية بنجاح مرموق . ولكن لديّ أنباء سيئة أيضا : فقد كانت رابّتك مدينة بمبلغ من المال للسيد هو ، وحينما اختفيت أنت انقلب شريرا ، الامر الذي أجبرها على الأختباء . ولهذا اعتقد أنه يحسن بك ألا تعودي الى هنا في هذه الفترة ...

وتمتمت تاو ــ شينغ في حنايا نفسها : « يحسن بك ألا تعودي » .

وكانت الرسالة الثانية من شين وي ــ جو التي بذلت جهدها عبثا في ايجاد عمل لصديقتها . كتبت تقول :

عزيزتي تاو ــ شينغ ،

مما لاريب فيه أنه ليس من اليسير العثور على عمل ! فقد ترددت على عدد من الاماكن أبحث عن عمل ، وشرحت أوضاعك الصعبة والعمل الذي تفضلين . لكن عددا من الاشخاص هزئوا بي ، حتى أن أبي وقف ضدي . . ماذا يمكننا أن نعمل ، ياعزيزتي؟ لماذا لاتعودين ؟ في مقدورنا أن نحاول من جديدعندماتكونين هنا . . »

ــ « في مقدورنا أن نحاول من جديد عندما تكونين هنا » . ابيض وجه تاو ــ شينغ في عتمة ضوء القنديل ، وعجزت عن وقف ارتعاشها . فالجوع والبرد وسلسلة الصدمات تسحقها سحقا . جلست يعصف بها الدوار ، عاجزة عن وضع الرسالتين من يديها ، خائفة من فتح الرسالة الثالثة . فالحياة هنا لم تخصّها الا بضربات وحشية . ومن المبالغ فيه أن تتوقع من الحياة أن تغدق عليها شيئا من السعادةاوالدفء . والرسالة الثالثة قد تحمل اليها مزيدا من الانباء الرهيبة .

كان المطر يتابع تهطاله في غزارة ، والبرق يشقّ ستار الظلمةيتبعه رعد قاصف لايكفّ عن الانفجار . كانت تاو ــ شينغ تشغل غرفة داخلية في الجناح ، وكان في الفرفة الخارجية نعش يخص أسرة ثرية تقيم في القرية . وانطفأ قنديلها قرابة منتصف الليل ، فارتعش الضوء ، وغرقت

الغرفة في ظلمة دامسة . وكان رأس تاو ـ شينغ ثقيلا ، وكانت مشوشة الذهن عاجزة عن التفكير في شيء . وأضاءت ومضة من البرق النعش الاسود اللماع فتوقف قلبها عن الخفقان ثم انثال يضرب في عنف .

ـ« أماه ! أنقذي ابنتك !.. »

وانهارت ، منتحبة ، الى جانب النعش واضطجعت هنالك طويلا دون أن يصدر عنها ادنى صوت .

حينما استردت وعيها جعلت فكرة رهيبة قلبها ينقبض ومن ثم يخفق بشدة ... وثبت واندفعت خارجة . واجتازت العاصفة والظلمة المخيمة راكضة من المعبد الى الشاطىء.

كانت الأمواج السوداء المتلاطمة مشهدا يبعث على الرعب ، ولكنه أقل رهبة من عالم الرجال الشرير . ركضت الى حافة الماء عازمة عـلى القاء نفسها في خضم الامواج المتواثبة المزمجرة .

٥

كان الليل عاتما ، والبحر يتكسر غاضبا على الصخور في زمجرة رهيبة موحشة . وفيما تاو ـ شينغ تهم بإلقاء نفسها بين طيات البحر تلقتها ذراعان دافئتان وهمس صوت خفيض في أذنيها قائلا : « لا تفعلي ذلك !. . يجب ألا تفعلي ذلك ! حاولي العثور على مخرج آخر!» .

كان منقذها الشاب يرتجف من البرد . وكان المطر المتدفق يندفع وكأنه يحاول القاءهما في المحيط . وكان الشاب يسندها بصعوبة فائقة.

كان ذلك كابوسا بالنسبة الى تاو ـ شينغ . فيمَ كانت تريد أن تقتل نفسها ؟ ومن انقذها ؟ كانت منهكة القوى مشوشة الفكر بحيث تعجز عن الاجابة عن هذين السؤالين ، فجرّت نفسها وتهاوت مرة أخرى على الرمال لاحراك بها .

ـ يحسن بك ان تعودي . فالسماء تصب المطر صبا ، والجو بارد ... تعالي .

وصل اليها صوته الغيور الفتيّ كما لو في حلم .

شعرت بعد دقائق معدودات بشيء من الارتياح ، فاستدارت تنظر الى الغريب ، فكشفت ومضة من البرق عن وجه اسمر نحيل وعينين براقتين قلقتين للشاب الذي ما أكثر ماكانت تلمحه على الشاطىء. كان قد تحدث اليها في بكور ذلك المساء حيث طرح عددا من الاسئلة عن الشعر .

ـ انه هو ...

ان تشجيعه المخلص الدافىء قد أذاب فكرة الموت من رأسها مثلما يذوب الثلج في الربيع . فجلست في بطء ، والمطر يتساقط عن شعرها

والبرد ينهشها حتى مخ عظامها . وهبَّت على قدميها وهي ترتجف رغما عنها ، وأسنانها تصطك .

قال الشاب : « البرد شديد عليك ههنا . إئذني لي أن أعود بك » .

لم تستطع أن تهمهم حرفا واحدا ردا على حديثه . فمشت الى جانبه صامتة ، في ملء البرد والمطر المتدفقين ، في طريقهما الى المدرسة .

دلفا الى الجناح الذي تقيم تاو ــ شينغ فيه . وتبيَّن لها أنه يعرف المعبد القديم من الطريقة التي ذهب يحضر بها قنديلا من غرفة أخرى . وضع القنديل في عناية على المنضدة ، وتردّد برهة ، ورنا اليها وهمس: « ينبغي أن تبدلي ثيابك . سأعود حالا » .

كانت تاو ــ شينغ قد غدت طيعة مثل طفلة صغيرة . وسرعان ما أبدلت ثيابها بأخرى جافة . ولم تكد ترتشف قليلا من الماء حتى رجع اليها . كان لايبرح يرتدي بزة الطالب التي تقطر ماء ، وكان وجهه متألقا حيث وقف عند الباب وأومأ لها باحترام وقدّم نفسه : « أنت لاتعرفيني . أما أنا فأعرف من تكونين منذ قدومك . أنت لين تاو ــ شينغ ، أليس كذلك ؟ أنا هو يو يونغ ــ تسي . ولدت في هذه القرية . ويو شينغ ــ تانغ ، مدير المدرسة الابتدائية ، ابن عمي . وأنا أدرس في جامعة بكين .. ليس لديك غير مهرب ضيق الآن ، يا لين ... » .

لم يكد يفرغ من هذه الكلمات التي ألقاها وكأنه يؤدي دورا في مسرحية حتى جلس على كرسي عريض الى جانب المنضدة .

جلست تاو ــ شينغ بدورها الى جانب المنضدة وقد خفضت رأسها مثل شخص استنفد جهوده بعد مرض خطير . وسرعان ما رفعت عينيها في خجل ، وهمست : « شكرا لك ! لو لم يكن كرمي لك .. ولكنه ليس هنالك ما أحيا من أجله .. » وخفضت رأسها وركنت الى صمت عميق .

خطا يونغ ــ تسي الى جانبها ، واستفسر بعد لحظات من الصمت: « أفلن تخبريني عن متاعبك ؟ لشدّ مايغبطني أن أقدّم يد العون ان كان يمكن أن أفيد في شيء » .

واستحال المطر رذاذاً . وألقى القنديل ضوءاً شاحباً في الهواء البارد النديّ . وأنهضت تاو ــ شينغ نفسها وهي تبتسم : « سأخبرك من دون ريب . في مقدوري ان أميِّز أنك تختلف تماما عن ابن عمك يو شينغ ــ تانغ » .

أن تلتقي بانسان ودود في زمن المحن والمخاطر ، وبخاصة انسان أنقذ حياتك ، أمر أشبه بعثورك على صديق قديم في بلد غريب . روت له الفتاة قصتها بصراحة مطلقة ، كاشفة عما في فؤادها دونما تحفظ ، ودون أن تحذف ماتناهى الى أذنيها من حديث يو شينغ ـ تانغ مع أصدقائه. وما أن بلغت نهاية قصتها حتى التهبت عيناها البجاوان الكئيبتان بوميض قاس براق : « أنا أكرههم ! أنا أكره العالم بأسره ـ هذا المجتمع ، ومنزلي، ونفسي ... أنا لا أريد أن أضيع عمري هباء ـ ولكنه ليس ثمة سبيل الى الخلاص » .

اومأ يونغ ـ تسي وتطلع في عينيها في ابتسامة متفهمة : « أرى ذلك! من قبل أن تخبريني كنت قد كونت فكرة جيدة عما قد تكون عليه متاعبك. ما أن وصلت الى قريتنا حتى تمكنت أن أرى من ملامحك وتصرفاتك ، من واقع قضائك نهارك بكامله على الشاطىء ، أن شيئا مأسويا أصابك . ولم تكن لدينا فرصة أن نحادث بعضنا بعضاً أيضاً » .

ونظر اليها في ارتياب ، وصمت .

ـ لست أعرف ما اذا كنت لحظت ذلك ، غير أنني كنت قلقا من أن يقع لك أي مكروه فرحت أتتبع خطواتك عن بعد في أغلب الاوقات . لم أكن أستطيع أن أريح أفكاري ، ولذلك جئت الى الغرفة المقابلة . وهذه العشية ، حينما شاهدتك تركضين خارجة من مكتب ادارة القرية يغمرك اليأس بملامحه ، فقد لحقت بك مرة اخرى .

وابتسم لها ، فومضت عيناه وهو يكف عن الكلام .

كان ذلك بمثابة وحي لتاو ـ شينغ . فقد كانت تشعر بغموض بشكل خيالي يرفرف حواليها منذ أن وطأت قدماها بيتايهو . وخاطبت نفسها وهي تسترق اليه نظرة وتحمار خجلا : « وهكذا فقد كان يراقبني طوال الوقت » .

ـ ليـن ...

وتردد ، متسائلا كيف يناديها ، ولكنه لم يجد شيئا أكثر ملاءمة من أن يناديها باسمها ..

ـ ماذا تخططين أن تفعلي ؟ ينبغي أن تعرفي كم أنا . متعاطف معك . .

ـ ينبغي علي أن أرحل بسبب من شرور يو شينغ ـ تانغ .

ـ واين تذهبين؟

فنظرت اليه مباشرة في عينيه القلقتين ، وأجابت في صراحة : «لست أدري ! قد أشرد من مكان الى مكان . فالعالم بأسره هو منزلي الآن » .

جلس يونغ ــ تسي على مقعد قبالتها، وهز رأسه بقوة: «لاتستطيعين أن تفعلي ذلك ! فالغربان سوداء في كل مكان من العالم . قد يكون هذا المكان قاتما حقيرا ، لكن الاماكن الاخرى ليست افضل منه . وفتاة شابة مثلك لاينبغي أن تلقي بنفسها في مثل هذه الاخطار ».

واستفسرت تاو ــ شينغ : « ماذا تظن أنه ينبغي علي أن أفعل اذن ؟ » .

ان هذا الشاب الذي دخل حياتها فجأة قد كسب احترامها وثقتها مثل بطل احدى الروايات الغرامية القديمة .

ــ لين .. لاتسرفي في اتباع قواعد السلوك الصارمة .نحن الآن مثل صديقين قديمين . لن يكون يو شينغ ــ تانغ مشكلة لأن والدي رجل صاحب نفوذ في هذه القرية ــ فقد رجع الى هنا متقاعدا بعدما خدم في الخارج حاكما لإحدى المقاطعات . وسوف يصغي شينغ ــ تانغ اليه. ووالدي يعرف الحاكم باو ايضا . أستطيع أن أحادث والدي وأحادث شينغ ــ تانغ بحيث لايثيران لك أية متاعب. اما فيما يتعلق بمخطط شينغ ــ تانغ فلا يقلقنك ذلك ، فهو لم يكن أكثر من حديث مسعور . ان رحيل ابن عمك قد ترك المدرسة من غير معلم . فلم لاتبقين هنا وتعلمين ؟ أفلا يكون ذلك أفضل ؟

أصغت تاو ــ شينغ في هدوء ، مخاطبة نفسها أن هذا الطالب الجامعي ليس لطيفاً ودوداً فحسب ، بل هو على شيء من البراعة أيضا. لكنها عبست وهزت رأسها .

صاحت في عناد طفولي : « أنا لا أريد أن أؤدي أي عمل مع انسان خسيس حقير مثل يو شينغ ــ تانغ . اني لأفضل أن أموت سغبا عن أن أحني رأسي خضوعا للحصول على خمسة « تو » من الارز »(١).

---

(١) خمسة «تو» من الارز ، وهي مايعادل بوشلا وربع البوشل ، كانت أجر الموظفين الصغار في الصين القديمة . والتعبير منسوب الى تاو يوان ــ فينغ أحد شعراء سلالة تسين الحاكمة (٣٦٥ــ٤٢٧) الذي آثر أن يعيش ببساطة على ماتنتجه مزرعته عن أن يستسلم للسلطات .

وتبسَّم يونغ ـ تسي في اقتناع : « لايمكنك أن تسمِّي هذا احناء للراس . فان شينغ ـ تانغ على شيء من الثقافة » .

فقاطعته تاو ـ شينغ قائلة : « أنا لن أبالي كثيرا بثقافته اذن ! مما يبعث على الاشمئزاز أن تبقى الى جانب مثل هذا الرجل » .

حملق يونغ ـ تسي مشدوها في الوجه الجميل الشاحب أمامه. يا للعزيمة التي تبديها هذه الفتاة النحيلة في ملاحقتها العنيدة الساذجة لمثلها العليا التي لايمكن تحقيقها ! أراد أن يقنعها بخطئها ، لكن نظرتها المصممة الحرون منعته عن ذلك . كانا يواجهان أحدهما الآخر في صمت.

كانت الديكة قد شرعت تصيح ، وسرعان ما سينبلج الفجر. وأراحت تاو ـ شينغ ، وفكرها يدور في دوامة من الاضطراب ونفسها راغبة عن الكلام اكثر مما فعلت ، اراحت رأسها المتعب على المنضدة ، بينا خطا يونغ ـ تسي صوب النافذة . كان المطر قد توقف ، والجوُّ يعد بيوم جميل . وقف الى جانبها في سكون مرة اخرى في ضوء الفجر الخافت طوال لحظات قصيرة ، ثم قال : « سأذهب الآن . يجب أن تنامي قليلا. اذا رأيت يو شينغ ـ تانغ فلا تظهري أنك تعرفين شيئا عن خطته مهما كانت الاحوال . ولاتذكري شيئا عما كنا نتحدث به الآن . فأنت لاتستطيعين الرحيل بعد . وسوف نبحث فيما يمكن أن نفعله فيما بعد. أعرف أنك تحبين البحر . فلنذهب الى الشاطىء بعد الظهر ونتحدث، هل نفعل ذلك؟ » .

نهضت تاو ـ شينغ ، وهي تومىء برأسها . وعندما استدار يونغ ـ تسي عند الباب لالقاء نظرة عليها التقت عيناهما فاحمرَّ خداها كثيرا.

حوالي العشية شرع البحر الضاحك يحضن الشاطىء في لطف، متكسرا الى زبد أبيض وهو يبلغ الشاطىء الرملي الناعم . وراحت طيور النورس تحلّق تحت بعض غيمات المساء وهي تطلق صيحات اتفاقية . وجلست تاو ـ شينغ ويونغ ـ تسي تحت الشمس الغاربة على جرف يواجه البحر . كانت تحملق حالمة في الامواج الذهبية المتلألئة ، فيما يونغ ـ تسي ينعم النظر في الافق الشاحب البعيد حيث تلتقي المياه بالغيوم . ومن وقت لآخر يدير رأسه يختلس نظرة اليها ، ولم يلبث ان قطع حبل الصمت ، فقال يخاطبها :

ـ لين . . . آمل أن تشعري انك قادرة على الوثوق بي. فعلى الرغم

من أننا التقينا مصادفة ، ففي مقدوري أن أرى أنك فتاة مرموقة لها هدف واضح في الحياة . ومن أعمق أعماق فؤادي ... أقول ان تعاطفي معك واحترامي لك يجعلاني أضع سعادتك موضع الاعتبار قبل أي شيء آخر ... ابقي ههنا فترة من الوقت ! ولن يجرؤن انسان على اهانتك أو ازعاجك ، وأقسم لك على ذلك بشرفي . لقد وافق يو شينغ – تانغ على قيامك بالتدريس هنا . وأنا واثق أنك ستكونين معلمة رائعة . ماذا تقولين ؟ »

رفعت تاو – شينغ رأسها ، ونظرت بعينين كئيبتين الى وجه يونغ – تسي الاسمر ، وقالت :

– شكرا لك .. لطالما كنت أفكر في كلمات غوركي : ان مهمتنا الاكثر عظمة وتألقا في الحياة هي أن تكون رجلا . وكيما ادعم الكرامة البشرية فأنا لست راغبة في تبديد حياتي سدىً .

ازداد صوتها قوة أثناء الحديث ، وتفاقمت حيويتها، فانشده يونغ – تسي من تصميم الفتاة الخجول المدّخر على ملاقاة الصعوبات والتغلب عليها .

– لو أنني كنت راغبة في ملذات الحياة ورفاهيتها لكنت غدوت منذ زمن بعيد محظية أحد الاثرياء وسيدة في المجتمع العصري . وكنت جنبت نفسي بذل جهود كبيرة في الدفاع عن نفسي قدر ما أستطيع . ان نوع الحياة الذي أدرت له ظهري لا يملك أية قيمة روحية بالنسبة اليَّ . انه موت حيّ !

حدّق فيها ، عاجزاً عن الكلام لفرط دهشته . واعتصم اثناهما بالصمت من جديد . ومرت فترة من زمن ، فطرق يونغ – تسي موضوعاً آخر . قال :« أنت تحبين الادب ، أليس كذلك ؟ لابدّ أنك قرأت كتبا كثيرة » .

– أنا أحب الكتب ، ولكنني لم أقرأ كثيرا .. وانا لم أسألك أيضا عما تدرس في جامعة بكين .

– أنا في قسم الادب الصيني . ويبدو أن لنا ذوقا واحدا .

واذ وجد يونغ – تسي موضوعا طيبا للكلام ، فقد شرع يحدثها طويلا عن الادب والفن . فحدثها عن رواية الحرب والسلم لتولستوي ، وعن البؤساء لهيغو ، وعن سيدة الكاميليا لدوماس الابن ، وعن شعر هايني

وبيرون ، ثم حدثها عن كتاب صينيين من أمثال هسوه ــ شين وتو فو ولو هسون . كانت قراءاته واسعة بشكل واضح ، وذاكرته جيدة .

أصغت تاو ــ شينغ بعينين متسعتين الى الكلمات الجميلة المثيرة التي تتساقط من بين شفتيه وهو يتحدث عن شخصيات وروايات رومانسية رفيعــة الشأن . وبدأت الفرحة تغمرها تدريجيا ، والبهجة تشعّ فــي وجهها . ورجع أخيرا بموضوع الحديث اليها ، فقال :

ــ لين ، ينبغي أن تعرفي مسرحية « بيت دمية » لإبسن . هل قرأت « الهروب » لفينغ يوان ــ شون؟(١) ان موضوعهما المشترك هو النضال ضد التقاليد البالية وفي سبيل تحرير المرأة واستقلاليتها . ولكنني أعتقد أنك أكثر شجاعة وتصميما من بطلتي الروايتين . أنت في الثامنة عشرة ، أليس كذلك ، يالين؟ وأنا واثق أنك ستنطلقين بعيداً ، فأنت رائعة . .

ان تيار كلماته المنتقاة قد فتن تاو ــ شينغ وأسرها .

نهض القمر الجديد فوق الافق ، وكان الشاطىء المهجور قد بقي مستكينا الى الصمت فيما عدا تحطم الامواج على الصخور . ومع ذلك بقي الشابان على شاطىء البحر يتابعان حديثهما . وطفق فؤاد تاو ــ شينغ يمتليء شيئا بعد شيء بآمال الشباب ، وسعادة المرء الذي عثر على رجاء جديد حينما بدا له أن كل شيء قد ضاع . كانت ممتنة حقا ليونغ ــ تسي لانقاذه حياتها وما أبداه نحوها من وداد ، وقد احترمته أيضا لأنه شاركها طموحاتها وترقبها لما ستأتيها به الحياة . وفي يوم قصير صار عليها ان تنظر اليه وكأنه بطل احلامها .

التقيا عند الشاطىء في عشية اليوم التالي .

حينما نهض القمر رآهما يتمشيان الى جانب البحر .

كانت ريح رخية تجمع كتل الغيوم السوداء وتدفعها ناحية الافق عندما كانت تاو ــ شينغ ويونغ ــ تسي جالسين على قنة صخرة مشرفة على البحر يأخذان قسطا من الراحة . ومرة أخرى تحدث يونغ ــ تسي عن الادب ، وهو يطيل التحديق في تاو ــ شينغ خلال ذلك بصورة جعلته يفقد سلسلة أفكاره في آخر المطاف . فخفضت تاو ــ شينغ التي كانــت

---

(١) كاتبة صينية مشهورة من أخريات العشرينات .

تلاحق كلماته رأسها في ارتباك عندما تأكد لديها انه توقف عن التحديق فيها.
وبدأ يونغ ـ تسي حديثا آخر لاخفاء ارتباكه ، فقال : « هل تذكرين أشعار هايني ، يالين ؟ لقد احببت هذا الشاعر الالماني العظيم منذ ايام دراستي الثانوية وحفظت عددا من قصائده عن ظهر قلب ـ وخاصة تلك التي تتحدث عن البحر ».
وسمعت تاو ـ شينغ صوتها المضطرب وكأنه يأتيها في الحلم :« هلا زلت تستطيع تلاوتها ؟ »
أومأ يونغ تسي برأسه ، وشرع يتلو في نبرة هامسة مفعمة بالحب:

غسقٌ مسودٌ يقتربْ
والمدُ يضاعفُ أمواهَهُ
وأنا عند الشطِّ المائجْ
قلبي مثل البحرِ الهائجْ
وترسَّلُ من صدري آهَهْ
والعالم من حولي طربْ
وأمامي صورتك الأجمَل
أتخايلها في كلِّ مكانْ
نادي .. نادي في أيِّ زمانْ
تجديني روحاً قد اقبلْ
في صوت الريح وفي البحرِ
فيما يتنهَّدهُ صدري
وتخطُ يداي بمزماري
في الرمل « أحبكِ » كالنار

. . . .

توقف يونغ ـ تسي فجأة . بدا انه كان يهرق قلبه أكثر منه يتلو قصيدة من الشعر . وأدارت تاو ـ شينغ رأسها في ارتباك من جراء نظراته المحرقة . وجعلتها موجة سرية من السعادة تنسى جميع مصاعبها ومرارة روحها في فتنة عالم خيالي لم تستطع ان تدرك كنهه تماما. وفيما هما يسيران متماهلين في طريق عودتهما الى القرية على طول الشاطىء المغمور بأشعة القمر ، قال يونغ ـ تسي في لطف : « لين ، ابقي في هذه القرية ! لاتهربي ! أنظري ما أروع هذه المنطقة عند البحر! »

فوعدت تاو ـ شينغ ، في براءة وصدق ، الا ترحل .

بعيد أيام معدودات بدأ فصل الخريف الدراسي في المدرسة الابتدائية ، وودّعت تاو ـ شينغ يونغ ـ تسي الى بيبينغ لمتابعةدراسته.

في صبيحة اليوم الذي سينطلق فيه انتظرا في محطة صغيرة مهجورة وصول القطار القادم من الشرق ، وفي خلال فترة الانتظار عزما على المسير على قطعة صغيرة من الارض القريبة من المحطة .

ورغم أنهما لم يغدوا صديقين الا منذ أيام معدودات ، ولم يتحدثا الا بصورة عامة على الشاطىء عن الفن والحياة والمجتمع ، فقد شعر كلاهما في هذه اللحظة من لحظات الوداع بنفور لأيوصف من الفراق .
وشعرت تاو ـ شينغ شيئا من الحزن والخوف مثل طفل يأخذونه من أمه . بفضل تأثير يونغ ـ تسي كفّ يو شينغ ـ تانغ عن خطتهالخسيسة، ولكنها كانت تخاف من أن تبقى وحيدة يائسة من جديد بعد رحيل صديقها الجديد .

توقفا عن السيربعد فترة قصيرة من الوقت .

ان رؤية عيني تاو ـ شينغ الحزينتين وشعرها الكثيف المعقوص الذي يشوّشه نسيم الخريف جعلا قلب يونغ ـ تسي يضرب ضربات سريعة . لقد وقع من اول نظرة في حب هذه الفتاة الجميلة ، لكن الحصافة والحذر حذراه من أن يفضح ذلك سريعا خشية من أن يدمر صداقتهما. فأمسك نفسه وكبح جماحها ولم يتحدث الا في موضوعات تبعث السرور في فؤاد تاو ـ شينغ . أما الآن فان معرفته بأحاسيسها تجاهه واخلاصها الكامل أغرياه بأن يصبّ أمامها جماع قلبه . ولكنه تردد ، وقد مرّ في فكره أن أي خطأ قد يدمّر فرصته في النجاح ، فرنا الى الوجه المكسو بالبياض الى جانبه ، فاحترق قلبه بالفكرة التالية : « ان هذه الفتاة البريئة جميلة جمال الميموزا ـ لو انها كانت لي فحسب ! »

وما أن التفتت تاو ـ شينغ ولمحت الحرارة الملتهبة في عينيه حتى جعلت موجة من الانفعال دمها يغلي ، فانحنت على الفور تلتقط زهرة برية . وحينما نظرت اليه من جديد كان الفتى يبتسم في هدوء كما لو أن الامور كانت طبيعية تماما . استدار صوب المحطة، وقال : « يحسن أن أعود ادراجي قبل ان يرحل القطار» .

فقذفت تاو ـ شينغ رأسها وهي تبتسم ابتسامة الاطفال : « كلا ، أنا لن أعود ادراجي قبل أن يرحل القطار ».

نصح لها يونغ ـ تسي في حماسة ، وهما ينتظران على رصيف المحطة : «أرجو ان تكوني صبورا مهما قال شينغ ـ تانغ . انه لن يزعجك بعد اليوم لأنه . . . » .

وابتسم لتاو ـ شينغ ، واستتلى : « لأنني أخبرته أننا غدونا صديقين حميمين ، أنت وانا . هذا صحيح ، أليس كذلك ؟ »

ـ سواء غدونا صديقين أم لا ، ففيم أخبرته ؟

ـ ذلك أفضل . لانه سيعنى بك نتيجة لذلك .

ـ لست طفلة . فأنا أكسب مايقيم أودي ، ولا أريده أن يعنى بي .

خشي يونغ ـ تسي من أن تكون غضبت ، فتطلع بِوَلَه في عينيها ، وقال في نعومة : « لا تكوني نافدة الصبر ، يالين ! فقد تعرضت في الايام القليلة المنصرمة لكثير من المصاعب .. في سبيل تسوية الامور بالنسبة اليك . . . بلى ، من أجلك ! حسنا ، دعينا نكفّ عن هذا الحديث . ففي مجتمعنا « ما أسهل أن تجد وظيفة اذا كان لك في البلاط أصدقاء» . اذا عرف شينغ ـ تانغ أننا غدونا صديقين فهذا يؤدي الى الخير . ولاينبغي أن تأخذي هذه الامور مأخذ الجد كثيرا » .

فأجابته تاو ـ شينغ ، وقد خفضت رأسها : « مهما يكن الامر ، فأنا أفضل أن أموت سغباً من أن أكتسب وده! »

كفّ يونغ ـ تسي عن الجدال ، وقال فيحنايا نفسه : « يالك من فتاة عنيدة ! » ولم يجرؤ على الاستمرار في طرق الموضوع ذاته .

دلف القطار الى المحطة ، وراقبته تاو ـ شينغ وهو يصعد اليه . رأت اليه من فوق رؤوس الحشد الصاخب يقف مكتئبا عند باب العربة . كان لايبرح يحدق فيها بثبات لكن في شيء من شرود الذهن فيما القطار يتحرك مبتعدا .

ظلت تاو ـ شينغ منتصبة على رصيف المحطة لاحراك بها بعد رحيل القطار وتفرّق جموع المودعين ، غارقة في بلبال أفكارها . فقد كان بالنسبة اليها فارساً طيب القلب وطالبا مثيراً للاعجاب !

* * *

٦

وهكذا بدأت تاو ـ شينغ عملها في مدرسة قرية يانغشوانغ الابتدائية . الآونة وقد بدأت تعتمد على نفسها أخيرا فقد شرع فكرها المتعب يجد راحة ، وسرعان ما استغرقت في تعليم تلاميذها . الامر الوحيد الذي كان يكدرها هو وجود يو شينغ ـ تانغ . ان رؤية وجهه الطويل الاصفر بابتسامته الزائفة وحاجبيه المرتعشين الشبيهين بأفعوين تملؤها اشمئزازا .

أنبأها تلاميذ المدرسة أن ابن عمها شانغ وين ـ شينغ فُصِلَ بسبب من عدم موافقته على تدخل المدير في شؤون المعلمين : كان يو ملاكاً كبيراً في القرية ، وعضوا بارزا في المجتمع المحلي ومقرّباً من حاكم الاقليم . وكانوا يطلقون عليه لقب « النمر المتبسم ». وكان لايبرح يبدي تأدباً ثابتاً تجاه تاو ـ شينغ . فما أن يلتقيها في أي مكان حتى يتدفق غبطة ويحييها مبتسما :

ـ أنت غارقة في تيار عملك ، أليس كذلك ، يا آنسة لين؟ان مدرستنا المتواضعة فقيرة بأدواتها المدرسية . وأخشى ألآ تكون مناسبة لك ، ألا تكون مناسبة !

فتومىءتاو ـ شينغ برأسها في برودة ، عاجزة عن ارغام نفسها على التحدث اليه .

ويظلّ وجه يو متغضنا على شكل ابتسامة ، ونظرته الساخرةوهو يهزّ برأسه ويتدفق حركة تذكّرها بنمر يبتسم .

التقته تاو ـ شينغ ذات يوم في قمة درجات سلّم المعبد . نظر اليها نظرة خبيثة واقترب بوجهه من وجهها ، اقترب به كثيرا بحيث كاد

أنفه أن يمسَّها ، ومن ثم نبر قائلا : « تهانيّ ، يا آنسة لين ! فقد توفيت زوجة يونغ ـ تسي منذ لحظات . الحظ يواكبك من دون ريب. الآونة تستطيعين أخذ الامور بكل يسر وسهولة ... » .

انقلبت تاو ـ شينغ بسرعة على عقبيها والسخط يعتمل في صدرها: « ماهذا ؟ انا لا أعرف عمّ تتحدث » .

ـ أوه ، لاشيء ، لاشيء . لقد توفيت زوجة يونغ ـ تسي منذ لحظات ، وهذا كل شيء . ان العربة المحطمة التي كانت تسدّ الطريق قد رحلت . لم تكد الزوجة المتوفاة تطلق آخر أنفاسها حتى تجيء الخاطبة الى الباب ساعية وراء خطبة جديدة . هذه هي العادة في اقليمنا المتواضع. لكن .. لا يشغلنَّك هذا الأمر على الاطلاق .

وانطلق في سبيله ، وهو يضحك بينه وبين نفسه .

اسرعت تاو ـ شينغ الى غرفتها غاضبة ، وجلست دون حراك زمنا طويلا وقد أراحت رأسها على المنضدة .

بعد يومين اثنين ، حينما انتهت الدروس في صفوف بعد الظهيرة، وجلس بعض المعلمين يتحدثون في غرفتهم ، دلف يو وهو يهمهم غضبان بينه وبين نفسه . كان يحمل رزمة من الرسائل في يده ، وما أن وقعت عيناه على تاو ـ شينغ تطالع احدى الصحف حتى انطلق اليها ، ونظّف حنجرته وقال : « يا آنسة لين ، اليك رسائلك ! لابدّ أن ينقل مكتب البريد سريعا الى مدرستنا . أنظري كمية الرسائل التي وصلتك ! » .

وقبل أن يتاح لتاو ـ شينغ أن تهبّ على قدميها لوّح يو بالرسائل فوق رأسه، واستدار الى زملائها ضاحكا : « يجب أن تفتتح الآنسة لين مكتبا للبريد خاصا بها . فرسائلها تجيء بالجملة . انها تستلم من الرسائل كمية لاتوزع على القرية بأسرها ».

وتبدلت ملامحه وهو يقول هذا الكلام ، وغمز بعينيه ، ورسم على وجهه ملامح مكتئبة ، ونشر الهواء برزمة الرسائل ، وهو يهمس قائلا : « يجب أن أحذرك ، يا آنسة لين ،من أن ثمة حديثا يتناولك في القرية منذ زمن . هل تفهمين ؟ على المعلمة ان تراعي الاخلاق العامة. والعلاقات بين الرجال والنساء ... »

اختطفت تاو ـ شينغ الرسائل من يده ، وقاطعته في غضب

قائلة : « سيد يو ! جئت الى هنا لأعلّم لا لأصغي الى عظاتك ! انا معلّمة وحرة في ان افعل ما اراه مناسبا ! »

وركضت الى غرفتها دون أن تتطلع وراءها ، وطوّحت نفسها على سريرها ودفنت وجهها فيــه .

حينما شرعت العتمة تنتشر ، استعادت رباطة جأشها فأشعلت القنديل لقراءة رسائلها . كانت هنالك دزينة منها أكثرها من يو يونغ — تسي . ان الطالب الجامعي على مايبدو غارق في الحب حتى أذنيه ، فهو يكتب لها كل يوم — وأحيانا ثلاث مرات في اليوم الواحد — رسائل تلتهب بحرارة الود والشوق . وكان ساعي البريد يوزع الرسائل كل يومين او ثلاثة ايام بحيث تتجمع هذه الرسائل وتصلها دفعة واحدة . واعطى ذلك ليو شينغ — تانغ سلاحا يستخدمه ضدها . وهو لم يعتزم تقديم تاو — شينغ الــى الحاكم باو فحسب ، بل كان يأمل أن يحصل على شيء من المنفعة لنفسه أيضا ، ولذلك فقد ساءه كثيرا ان يتدخل يونغ — تسي في خطته . فهو لم يكد يلتقط الخوخة حتى جاءت يد سريعة فاختطفتها منه . ولم يستطع الا أن يشعر بالانزعاج ، ولكنه لم يجرؤ على اغضاب والد الشاب أو الشاب نفسه ، لأن ابن عمه ، باعتباره طالبا جامعيا ، كان محترماً جداً في القرية وقد يغدو موظفا كبيرا في المستقبل . وهكذا نقل استياءه الى تاو — شينغ لان تلك الفتاة اليائسة الشريدة كانت في قبضة يده .

في الضوء العاتم الذي يلقيه قنديل البارافين قرات تاو — شينغ رسائل يونغ — تسي الملتهبة الحنون ، فغمر الابتسام صفحة وجهها . وامتلأ قلبها الفتي حبا وقد أثاره تدفاق عواطفه الحلوة المختلطة باعترافات مشبوبة لكن مكبوتة مقيدة . ونسيت تعبها فالتقطت ريشتها لتخطّ له جوابا مطولا . كان ثمة مقطع في تلك الرسالة يقرأ أقل شبها بانعكاسات فتاة شابة ساذجة منها بانعكاسات امرأة ناضجة قاست أكثر منها مرارات الحيــاة ومصائبها ..

لكم أتوق ، يا يونغ — تسي ، الى تحطيم هذا المجتمع الشرير البغيض ، ولكنني أشبه ما أكون بحشرة صغيرة وقعت في شــباك عنكبوت . وأنا أعجز عن التخلّص من جميع الاشياء المرعبة التــي تحيط بي مهما ناضلت وجاهدت .. لقد هربت من بيتي للفرار من سوء المعاملة ، غير أن المجتمع بأسره يعج بالفساد الذي كان يعجّ به

منزلي ، فضلا عن أنه بغيض بصورة تقزز النفس . وقد وجدت أن ابن عمك وأبي طيران من صنف واحد : حديثهما الوحيد عن الانسانية والعدالة والاخلاق ، بينا يموج قلباهما بالجشع والشبق ليس غير . وأشعر أنني أشبه ما أكون بحيوان من حيوانات النقل يتعثر وحيدا في صحراء غير مطروقة ... آه ، يايونغ-تسي، هل تراني ألمح احدى الواحات ؟ هل تراني أعثر على نبع منعش رطب طالما تقت اليه ؟

أريد أن أخبرك شيئا . أنت تتهمني بعدم الدفء ، بأنني كنت باردة جدا تجاهك . حسنا ، من الآن فصاعدا أعدك أن أحبك، أن أحبك كثيرا . أواه لو تدري مقدار الحمل الذي يئيد على قلبي هذا النهار ! فأنا لا أستطيع احتمال هذه المعاملة المهينة . أريد أن أهرب ... لكن ، الى أين أستطيع ان أذهب ؟.. أحبك من صميم قلبي !

كان الوقت قد تأخر ، وكانت منهكة تعبا بحيث تعجز عن ابقاء عينيها مفتوحتين . أنهت الرسالة ثم ألقت بنفسها ، من دون أن تقرأها، على سريرها بكامل ثيابها ، واستسلمت للنوم ورسالة حبيبها بين يديها.

كانت القرية ، والاحداث اليومية ، وحتى البحر المهيب الجميل قد بدأت تفقد تدريجيا ، بالنسبة الى ذهن تاو - شينغ الحزين ، كل بهائها ومعانيها . وبدأت رسائلها الى يونغ - تسي ووانغ هسيو - ين تمتلىء بالتشاؤم واليأس . فراحا يلحّان عليها ألا تفقد شجاعتها، بل أن تلقي على الحياة نظرة مفعمة بالسعادة . وكانت تجفل أحيانا عندما تجد نفسها عرضة لنوبات رهيبة من الوهن والانحطاط . لكن الحياة - كل ماقد شاهدته من الحياة - كانت مظلمة قاسية حتى أن أول انتفاضة حب لها مع يونغ - تسي لم تستطع أن تتغلب على كآبتها .

وقد حدث ذات يوم حَدَث أهب قريتها الصغيرة الغافية ، وأيقظ تاو - شينغ من لا مبالاتها وخيبة آمالها .

كان يوم الرابع والعشرين من ايلول ١٩٣١ يوماً مشهوداً لا تمحي ذكراه من صفحة الزمن . فهو اليوم الذي حمل فيه القطار القادم عبر ممرات شانهايكوان من وراء السور العظيم مجموعات كبيرة من اللاجئين الباكين اليائسين . وقد صحا الناس في قرية يانفشوانغ القريبة من

محطة بيتايهو من رضائهم الذاتي حينما تناهى اليهم أن البحرية اليابانية احتلت شينوا نفتاو على الشاطيء القريب . وطفى القلق على قرية يانغشوانغ . وراح الرجال والنساء والاطفال الهاربون من شينوانفتاو والارياف المجاورة يملأون شوارع القرية مفرقين الخوف والرعب في أفئدة السكان المحليين . وتوقفت الدراسة ، وانطلق المعلمون الذين يقطنون في القرى المجاورة الى بيوتهم ، وامتنع المقيمون في القرية عن الحضور الى المدرسة . وبقيت تاو - شينغ وحدها في المعبد المهجور .

كانت جالسة في عصر أحد الايام في غرفة المعلمين ، وشمس الخريف الغربية تشع بوهن على نبات القرع الذي يغطي التعريشة الممتدة على طول النوافذ الشرقية وتلقي ظلالا مضطربة على ورق النافذة الذاوي. كانت تحاول أن تقرأ قصة فيمنعها شرود ذهنها ، وتنطلق أفكارها الى الصخب والشقاء المترددين في الشوارع ، والى شينوانفتاو التي لاتبعد أكثر من عشرين «لي» والتي احتلها رجال البحرية اليابانية.

حمل بواب المدرسة صحيفته . كان يغمغم بينه وبين نفسه ، وما أن وقعت عيناه على تاو - شينغ حتى هتف صائحا : « يا آنسة لين ، انها النهاية ! لقد احتل اليابانيون مقاطعاتنا الشمالية الشرقية الثلاث !»

اختطفت تاو - شينغ الصحيفة منه وقد ألجم لسانها . كان ذلك صحيحا ! عناوين كبيرة غاضبة تعلن أن الجيش الياباني احتل شينوانغ ومدنا أخرى في الشمال الشرقي . ففرقت في كرسي بلا ظهر أو ذراعين وقد أطبقت على الصحيفة بيدها .

لم يكن هنالك أي صوت في المعبد أو غرفة المعلمين . ان العالم بأسره بدا وكأنه غلّف بسكينة رهيبة مفاجئة . وقطع حبل الصمت صوت يستفسر : « آنسة لين ، ماهي الاخبار ؟ ماهي التطورات الاخيرة ؟» .

رفعت تاو - شينغ رأسها جافلة . لقد ذهب البواب العجوز وانتصب امامها لي شيه - تينغ ، وهو معلّم في حدود الاربعين من عمره . لقد دخل في هدوء وألقى سؤاله لدى رؤيته تاو - شينغ جالسة هناك وكأن الذهول جمّدها ، حاملة الصحيفة في يدها .

نهضت وناولته الصحيفة . كانت عيناها ، الصافيتان عادة ، محمرتين غائمتين .

تناول لي الصحيفة ، وقرأ عدة سطور من المقالة الاولى ، وهـز رأسه ، وصعّد تنهيدة حرّى . .

ــ هذا فظيع ! كيف ، ان بلدنا على حافة هزيمة شاملة ! لقد أصابنا الدمار ! هذه هي نهاية الصين!

فقاطعته تاو ــ شينغ ، المحبة للصمت عادة ، نابرة في صوت دامع: « لاتقل هذا ، ياسيــد لي ! أنا لا أطيق الاصغاء اليك ! أنا لا أؤمن أن الصين يمكن أن يصيبها الدمار . « ان مصير بلد ما رهن بشعبه ». كيف يمكن أن نسمح بأن يصيبها الدمار ؟» .

وبينما تاو ــ شينغ مسترسلة في حديثها دفّت من الخارج أصداء أقدام ثقيلة ودلف الى الغرفة احد الشبان . توقف عند الباب ، وأومأ لها برأسه كيفما كان ، وابتسم ، وقال : « أنت على حق بكل ما في هــذه الكلمة من معنى . ان مصير بلد ما رهن بشــعبه بأسره . هــل أنــت معلمة هنا ؟ » .

اجابت تاو ــ شينغ ، وهي تنظر الى لي شيه ــ تينغ في انشداه، وكأنها تسأله ماذا يفعل هذا الشاب الذي لاأتعرفه في هذا المكان : « بلى انا معلمة » .

قال لي ، وهو يبتسم : « اسمحا لي ان أعرفكما ببعضيكما . هــذا أخو زوجتي لو شيا ــ شوان ، وهو طالب في جامعة بكين . لقد جــاء لرؤية أمه المريضة وشقيقته . وهو لم يفتر لحظة واحدة عن الحركة منذ وصوله ، طالباً اليّ أن أطلعه على كل شيء ههنا . وهذه الآنسة لــين تاو ــ شينغ احدى زميلاتي . ولقد درست في بيبينغ ايضا » .

فابتسم الشاب ، وقال : « عظيم ! لانجد غالبا طالبة من بيبينغ تعلّم في مدرسة قروية ... هلاّ جلستِ . ان الغزو الياباني يخلــق حالة على درجة من الخطورة . الا توافقينني على ذلك ؟ »

كانت للشاب شخصية أخاذة ، وقد انجذبت تاو ــ شينغ الى طريقته الحية في الحديث وأسلوبه المرح بحيث خرجت عن تحفظها واستوضحته قائلة : « من أين أنت ؟ انت تعرف أن اليابان احتلت المقاطعات الشمالية الشرقية الثلاث . هل تعتقد أن الصين ستحارب ؟»

تبسم الشاب قليلا ، وبدا انه لن يتعجّل الجواب . استراحــت

عيناه الذكيتان الصافيتان تتأملان الوجهين الواقفين أمامه ، وكأنه ينتظر فرصة ملائمة .

شرح لي شيه — تينغ لتاو — شينغ ، وهو يدخن لفافة وينتظر في هدوء جواب لو شيان — شوان : « تعرفين ، يا آنسة لين ، أن أخا زوجتي يبدي اهتماما عظيما بالسياسة ، وما أن يبدأ الحديث عن القضايا الصينية أو الاجنبية ، القديمة أو المعاصرة ، حتى نعجز عن كبح جماحه ... حسنا ، يا شيا — شوان ، انطلق في حديثك . انت ترى مقدار قلق الآنسة لين عن مصير بلدنا » .

فاستحثته بقولها : « أخبرنا ماذا يحدث ، ياسيد لو » .

رنا لو شيا — شوان الى الصحيفة الموضوعة على المنضدة قبل أن يرفع رأسه ، وقال على مهلة : « انا لا أعرف أكثر مما هو مكتوب في هذه الصحيفة . هنالك شيء واضح جلي . ان شيانغ كاي شيك « شجاع » بما فيه الكفاية حينما يواجه حرباً أهلية ، ولكنه جبان رعديد حينما ينبغي عليه أن يواجه عدواً حقيقياً . فقد أمر مئات ألوف قواتنا في الشمال الشرقي الا تقاوم الغزاة . وهكذا استطاعت اليابان ، دون أن تطلق رصاصة واحدة ، أن تحتل أكبر مستودعات السلاح في البلاد — وهي موجودة في شينيانغ — ومعملا للذخيرة ومطاراً تجثم فيه مئتا طائرة . ومنذ ذلك الحين شرع اليابانيون يهاجمون مدناً من أمثال بينكي ، ويينفكوو ، وشانفشوانغ . ويشاع أن كيرين سقطت في يد العدو ، وان شينوانفتاو قد سقطت أيضا .. غير ان أسلوب حكومة الكيومنتانغ في التعامل مع مثل هذا الخزي الرهيب لم يكن أكثر من ارسال برقية الى مندوبها في جنيف ، شيه شاو — شي ، تطلب فيها الى عصبة الامم أن تعمل على تحقيق العدالة » .

ورشق تاو — شينغ عندها فجأة بنظرة حادة ، واستفسر ملهوفا : « هل تعتقدين ان مثل هذا الامل الوحشي يمكن ان يؤدي الى أي شيء ؟ هل تستطيع الصين أن تهزم اليابان من دون نضال مسلَّح ؟ »

حملقت تاو — شينغ بثبات في وجه لو شيا — شوان . ان شيئاً من الدهشة ممزوجا بالسخط قد انتفض في جوانحها . أبداً من قبل لم تلتقي بطالب جامعي يشبه هذا الطالب . لقد كان من دون ريب يختلف عن يو يونغ — تسي الذي لم يتحدث الا عن أروع أشكال الفن أو الروايات

المثيرة للعواطف . ان لو شيا ـ شوان يملك تفهماً طيباً للاحداث الجارية ، وهذه هي المرة الاولى التي تسمع فيها تاو ـ شينغ مثل هذا التفسير الجريء للاوضاع .

اجابت بنبرة صريحة بعد برهة من التفكير : « لست أدري ! » واحمارّ خداها ارتباكا .

وابتسم لو شيا ـ شوان : « أن من يقلقه مصير بلدنا ينبغي أن يدري ، ألا تظنين ذلك ؟» .

وابتسمت تاو ـ شينغ ، وقالت : « حسنا ... » ولم تعرف كيف ترد على هذا الشاب الغريب .

لم يكن لي شيه ـ تينغ يحب أن يغضب أحداً ، فقال : « هيا بنا ، يا شيا ـ شوان . أفلم تقل انك راغب في معرفة الاحوال في شينوانفتاو؟ هيا بنا ، فلنذهب ! »

ادرك لي أن لو أربك تاو ـ شينغ بأسئلته منذ لقائهما الاول، فأراد أن يبتعد بأخي زوجته على الفور .

وفيما تاو ـ شينغ تودع الرجلين حتى البوابة ، قال لو شيا ـ شوان موجها حديثه الى المعلمين : « في هذه الساعة الفاصلة من مصير أمتنا لاينبغي أن يقف أحد منا على الحياد ويطوي ساعديه على صدره ويكتفي بالتفرّج !» .

فغمغم لي شيه ـ تينغ ، وهو يهزّ رأسه قليلا ويتنهد : « ماذا نستطيع أن نفعل ؟ اننا أفراد من الطبقة المثقفة شاحبة الوجوه التي لاتملك في أيديها سلاحا » .

ـ الوطنيّ ليس في حاجة الى أن يحمل على كتفه بندقية وان يقاتل في ميدان الوغى . في مقدوركم أن تثيروا الناس عن طريق الدعاوة . اذا شرعتم تلقنون تلامذتكم أن يحبوا بلدنا ويعتزوا به ، فان عملكم هذا يشبه حمل السلاح » .

لم يقل لي شيه ـ تينغ شيئا ، كما أن تاو ـ شينغ اعتصمت بالصمت ، وكان قلبها ينبئها أن هذا الكلام صحيح تماما . وشعرت بالاحترام لهذا الشاب الذي لم يكن يشبه الناس الآخرين على الاطلاق . لقد فتح بحديث مقتضب عينيها على أشياء كثيرة .

هدأت العاصفة بعد أيام معدودات وبدأت الدراسة في الصفوف فمرة

اخرى . فلم تعطي تاو ـ شينغ تلامذة صفها أيا من الدروس النظـامية خلال الحصة الاولى . كان حبها العميق للصين قد تغلّب على متاعبها الشخصية ، فراحت طوال فترة مديدة من الزمن تحدث تلامذتهاعن الانباء المريرة لحادثة الثاني عشر من ايلول(١) وجريمة غزو اليابان للصين . وأضافت الى ذلك ماسبق ان قاله لو شيا ـ شوان عن سياسة الكيومنتانغ في عدم المقاومة . كانت تتحدث بنبرة طبيعية وتتوقف بين حين وحين، غير أن تلاميذها كانوا قد انفعلوا عميقا بسبب من سخطها والعبرات التي ملأت عينيها . فالتمعت عيون الكثيرين منهم بالدموع ، بينا شرع عـدد كبير من الفتيات الاكبر سنا بالبكاء .

سأل احد التلاميذ بفظاظة : « آنسة لين ، لماذا لانقاتل اليابان ؟ »

ـ لأن الحكومة لاتحب بلدنا .

ـ ما الذي نحتاج اليه لمحاربة اليابان ، يا آنسة لين ؟

ـ نحتاج الى جيش ، وبنادق ، ومدافع كبيرة .

ـ أفلا تملك الصين بنادق ومدافع ؟

ـ أفلا تملك الصين طائرات ؟

ـ أليس لدى الصين جيش ؟

لم تستطع تاو ـ شينغ ان ترد على أسئلتهم الساذجة المربكة.

ـ كانت حكومة الكيومنتانغ تصرف جهودها الى اثارة حرب أهليـة لقتال الشعب الصيني . ولم تكن تجرؤ على مقاتلة اليابان . كانـت خائفـة . . .

ـ نحن لانخاف ! سوف نقاتل !

ـ سوف نقاتل ! أستطيع أن أطلق النار من بندقية !

ـ سوف نقاتل ! سوف نقاتل !

ترددت أصداء صراخ التلاميذ في غرفة الصف فأحس فؤاد تاو ـ شينغ المثقل بانتفاضة من الفرح . يالهم من تلاميذ رائعين أعزاء ! انهم جميعا يحبون بلدهم ويعرفون أن من واجبهم مقاومة اليابان والقتال !

---

(١) في الثامن عشر من ايلول ١٩٣١ هاجم اليابانيون شينوانغ . فأمر شيانغكاي شيك القوات الصينية بالانسحاب فورا ، بحيث تمكن اليابانيون بسرعة من احتلال المقاطعات الشمالية الشرقية الثلاث .

وما أكثر ماراحت بعد ذلك تروي للتلاميذ قصصا عن وطنيين من امثال وين تيين ـ هسيانغ ويوه في وشيه كي ـفا ، أو قصصا أجنبية من أمثال « الصيادان » و « الدرس الاخير » . وكان الصبيان والفتيات يتعشقون سماع هذه الاقاصيص ، وكانت هي تستمدّ راحة ورضاء من روايتها لهم . وقام رباط وثيق بين المعلمة والتلاميذ ، ولم يعد فؤادها فارغا على الاطلاق .

ولكن عاصفة أخرى انفجرت ذات يوم .

جاء يو شينغ ـ تانغ الى غرفة المعلمين . نظر حواليه وهو يطرف بعينيه على مألوف عادته ، وابتسامته الزائفة الماكرة تتلاعب على شفتيه ، وشمل المعلمين الاربعة الجالسين بنظره قبل أن يثبت عينيه على تاو ـ شينغ . استفسر كمن يهمّه الامر حقا ، متحدثا في لطف باديء الامر: « حسنا ، هل سمعتم جميعا ؟ في بيبينغ وتيينتسين ازدادت الاحوال حدة وتوترا . ومثيرو الشغب والطلاب يخلقون فوضى شاملة باقامة المظاهرات والاضرابات . ولقد ذهب بعضهم الى نانكينغ للتظاهر ... يا للخدعة القذرة ! وهم يعلنون أنهم يريدون مقاومة اليابان ، ولكن الحقيقة هي انهم يفعلون ذلك بتوجيه من الشيوعيين ! »

رفع احدى يديه على حين فجأة ، وشرع يحاصرهم بنبرة جدية : « أفلا ترون انهم يخلقون بلبلة عمياء ؟ هل يستطيعون انقاذ البلاد ومقاومة اليابان على هذا الشكل ؟ تذكروا أن الجنراليسمو شيانغ أصدر أوامره بعدم المقاومة لان لديه أسلوبا خاصا في تصريف هذا الموضوع بأسره ! والآن أريدكم أن تعرفوا أنه قد بلغ مسمعيّ أن هنالك دعاوة ضد اليابانيين تنتشر في مدرستنا ! »

وازدرد ريقه بصعوبة ، والتفت ناحية المعلمين الاربعة الجالسين هنالك ورمى كلاً منهم بنظرة ماكرة قبل أن يتوجه بنظره مباشرة الى تاو ـ شينغ : « بلى ، يا آنسة لين ، أنت في مقتبل الشباب بعد ، وينبغي ان تنتبهي جيدا الى خطواتك ! ماهذا الذي تروين لتلاميذك حول الصيادين ؟ اذا شرعت تعطين الغرباء انطباعا عن وجود حمر ينشرون دعاوة تحرّض على الفتنة في مدرستنا فقد تورطينني في الموضوع بحيث أخسر رأسي ! »

اعتصم المعلمون الآخرون بالصمت . ورفعت تاو - شينغ بصرها غاضبة الى يو ، وصاحت: « أنا لا أبالي البتة، ياسيد يو، بما يمكن أن يقع لرأسك . في وقت تنشب فيه محنة وطنية مثل محنتنا لم َ لا يستطيع كل صيني أن يكونَ حراً في أن يتحدث عن ضرورة مقاومة اليابان؟ هل المطالبة بمقاومة اليابان يجعلك أحمر ؟ هل هنالك قانون يمنع ذلك؟ » .

شحب لي شيه - تينغ ، بينا بقي المعلمان الآخران صامتين لاينبسان بحرف ، مشدوهين من سماع تاو - شينغ الرزينة الخجول ترد على مدير المدرسة بشجاعة .

أظلم وجه يو شينغ - تانغ النحيل ، بل أن عينيه كفتا عن الحركة . عجز عن الكلام طوال ثوان معدودات ، ثم استدار ومشى مبتعداً . وتوقف عند الباب ، واستدار ، وهز ردفيه الواسعين . طرف بعينيه وهو ينظر الى تاو - شينغ ، ثم شخر في صوت مرتجف: « لاتسأليني ! اذا كان هنالك شيء لاتعرفينه فأقترح عليك أن تذهبي وتسألي الجنراليسمو شيانغ ! » .

فأجابته تاو - شينغ وهو يخطو مبتعداً : « لاتقلق ! لقد ذهب طلاب جامعة بكين الى نانكينغ يسألونه نيابة عني » .

كانت الرسائل التي وصلت الى تاو - شينغ من يونغ - تسي قد اخبرتها أن رفاقه الطلاب يعارضون سياسة الحكومة في عدم المقاومة مثلما يعارضون اقتراح جعل شينشو منطقة محايدة . وقد ذهبت اعداد كبيرة منهم الى نانكينغ للقيام بمظاهرات . وقال يونغ - تسي انه انتوى الذهاب ايضا ، لكن هجمة مفاجئة من النزلة الوافدة حالت بينه وبين ذلك . وقد روى لها أيضا أن قائد المظاهرات المسؤول هو لو شيا - شوان أخو زوج لي شيه - تينغ .

- لو شيا - شوان ؟ . .

جلست وحيدة في غرفتها منفعلة غضبا بعد مناظرتها مع مدير المدرسة، وتذكرت لقاءها غير المتوقع مع لو ، فابتسمت وهي تفكر فيه يقود جماعة من الطلاب الى نانكينغ لتسوية الحساب مع الكيومنتانغ . تمتمت باسمة في شيء من العرفان بالجميل وكأن ذلك الشاب قد أعانها في التنفيس عن سخطها .

٧

في ليلة شتوية مظلمة شع قمر شاحب على قطار طويل منطلق بسرعة عبر الريف الفسيح . كان الوقت بعيد منتصف الليل، والغالبية العظمى من المسافرين المتراكمين في ضيق وانزعاج قد استسلموا للنوم على صوت قرقعة العجلات الرتيب . وكان بعضهم يتناقشون بحمية في اصوات منخفضة او يستندون الى جدران العربة الباردة يغنون في أصوات مكبوتة .

كان هذا الوصف ينطبق على العربتين الاولى والثانية . وكان القطار يحمل ركابا غير عاديين – طلبة من جامعات بكين في طريقهم الى نانكينغ للقيام بمظاهرات ضد حكومة الكيومنتانغ .

كان أكثر من مئتي طالب من جامعة بكين قد ازدحموا في عربة نقل البضائع في مؤخرة القطار لاغتنام شيء من النوم ، لكن ثلاثة من الفتيان التقوا في قمرة الحارس للحديث في ضوء عاتم ..

– حسنا ، يا شيا – شوان و تا – فانغ ، لقد حملنا الحزب مسؤولية كبيرة هذه المرة ! وحينما ترى حكومة نانكينغ أننا قطعنا آلاف « اللي » للاحتجاج ضد سياستها ، واننا لايمكن أن ننخدع بالحديث الطلي ، فلربما تلجأ الى استخدام العنف .

كان المتحدث يدعى لي مونغ – يو قائد هذه المجموعة المنطلقة جنوبا للقيام بالمظاهرات .

ردّ لو تا – فانغ ، وهو فتى قوي أحمر الوجنتين ، وهو يضرب بقبضته المحكمة بلطف على المنضدة الصغيرة : « لسنا بخائفين ! حتى

لو خسرنا عددا منا ــ على ماوقع في حادث الثامن عشر من آذار(١)ــ فان الدم الحار سيلهب الناس مثلما لايفعل أي شيء آخر . ان أولئك الذين لايبرحون يغطون في النوم سيستيقظون عندما تراق دماؤنا !» .

كان ثالث هذه الجماعة لو شيا ــ شوان الذي التقينا به في بيبينغ. انفتحت عيناه نصف المغلقتين تحدقان في لو تا ــ فانغ ، وهزّ رأسه ، وقال : « كلا ، يا تا ــ فانغ ، لا تك ساذجا الى هذه الدرجة . الحكماء يقدمون أقل تضحية ممكنة لاغتنام اكبر نصر ممكن . لقد انتصرنا على اتحاد الطلبة الرجعي في الثلاثين من تشرين الثاني ، وربحنا عددا كبيرا من الطلاب انضموا الى صفوفنا وجاؤوا للقيام بمظاهرات في نانكينغ . لكن ، كيف يمكن ان نفوز بنصر أكبر بعد أن نبلغ نانكينغ ؟ كيف سيحاول الرجعيون معاملتنا ؟ هذا شيء ينبغي أن نفكر فيه طويلا » .

واعتصم بالصمت وغرق في تفكير عميق .

في اليوم التالي لحادث الثامن عشر من ايلول قام الطلاب في شانغهاي وبيبينغ وتيينتسين وهانغشو وتايوان وسيان بحركة واسعة الانتشار لمقاومة العدوان الياباني وانقاذ البلاد . رفضوا حضور الدروس، وقدموا عرائض ، وقاموا بمظاهرات مطالبين بأن تصدر حكومة الكيومنتانغ أوامرها الى القوات العسكرية لمقاومة اليابان . غير أن حكومة نانكينغ ، عطفا على سياستها بعدم المقاومة ، صمّت أذنيها عن هذه المطالب . وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني ١٩٣١ أبرقت الى مندوبها في عصبة الامم شيه شاو ــ شي وأمرته ان يطلب الى العصبة ان تعمل على جعل شينشو « منطقة محايدة » تحت اشراف دولي ، وان يعد أن القوات الصينية ، مقابل ذلك ، ستنسحب الى داخل السور العظيم عند ممر شانهايكوان. هذه الخطة الخائنة في تسليم الشمال الشرقي الى الامبرياليين أثارت غضبة عارمة في طول البلاد وعرضها ، فأضرب عمال المصانع ، وتوقف الطلاب في المدارس والجامعات عن حضور دروسهم وخرجوا في جماعات كبيرة منطلقين الى نانكينغ لتقديم احتجاجاتهم . وكان طلاب جامعة

---

(١) في الثامن عشر من اذار ١٩٢٦ تظاهر عدة الاف من الطلاب والمدنيين في بكين ضد الامبريالية في تيين آن مين . فأطلقت قوات القائد العسكري توان شي ــ جوي النار فقتلت قرابة خمسين شخصا من المتظاهرين وجرحت كثيرين اخرين .

بكين بين الاوائل ممن نظموا جماعة من المتظاهرين ، وهؤلاء هم الآن في طريقهم الى نانكينغ .

كان القطار يتأرجح برشاقة ، وريح مريرة تعصف بالريف المنبسط تصب في العربة الخالية من وسائل التدفئة برداً لا يُطاق . سحب لي مينغ ـ يو الكبير القوي قبعته مستدقة الرأس الى الامام في حين جعل لو شيا ـ شوان يفرك يديه المخدرتين، أما لو تا ـ فانغ فخفض رأسه متأملا ما نطق به لو لثوه ، غافلا عن البرد . ولم يلبث أن رفع راسه كمن استيقظ فجأة من غفوة لذيذة .

قال : « أرسل الطلاب الآخرون عرائض ، أما نحن فسنقوم بمظاهرات . وهذا من دون ريب سيثير حنق حكامنا المتكبرين في نانكينغ .. أهذا ماتخشاه ؟ »

ورمى لو شيا ـ شوان بنظرة صارمة ، ، وهو يهزّ رأسه في استنكار .

ابتسم لو شيا ـ شوان ، وامسك بيد صديقه الكبيرة ، وقال : « كلا ، يا تا ـ فانغ ، يا لفكرتك هذه ! توقع ما هو أكثر سوءا لايعتبر جبنا . لاتنس أننا ماركسيون » .

وقال لي مينغ ـ يو : « حقا . ان شيا ـ شوان على حق في استخدام بصيرته . ينبغي الا نبخس أعداءنا قدرهم . دعونا نتحدث عن قضايا الممارسة . أعتقد أننا في حاجة الى مجموعة جديدة من العمل . أنت ذكي ، يا شيا ـ شوان ، وبديهتك سريعة . فكن مسؤولا عن التعامل مع الرجعيين هذه المرة . وتا ـ فانغ وأنا على شيء من الخشونة ونملك صوتين قويين . وسنتولى أمر المظاهرة ذاتها » .

قبل أن ينهي كلامه تناهت اليهم أصوات تدفّ من الخارج ، وانفتح الباب واندفع من خلاله عدد من الطلاب .

أعلن شاب أنيق ممتليء الجسم يخطو متأبطا حزمة من النشرات الحمراء والخضراء : « جئنا نقدم تقريرنا ! ان « الرسالة الى الشعب » والنشرات والأعلام وعصابات الاذرع قد انتهت كلها ! أثمة تعليمات أخرى ، أيها القادة المحترمون ؟ » .

لقد أثار هسو نينغ ، الطالب المفعم حيوية ، ضحكهم .

قال لو شيا ـ شوان ، وهو يمدّ يده بسرعة صوب الرزمة:

« لاريبة أنك منهك تعبا ، يا هسو نينغ . هل حصلت على مايكفي من الاوراق ؟» .

ورتب الاوراق بعناية على مضجع الحارس . جعل يرتّبها وعيناه تومضان ، ثم صافح هسو نينغ وطالبا آخر بحرارة متقدة ، وهو يقول: « هذه الاوراق سلاح فعّال هَيَّئْتُمَاهُ لمظاهراتنا . جزيل الشكر لكما!» .

واستدار يسأل فتاة صغيرة نحيلة ترتسم على سيماها ملامح البراعة : « هل كتبت الشعارات ، يا هسو هيو ؟»

ــ أجل ، كتبتها . أتقرأ ما اذا كانت حسنة ؟»

وقبل أن تتمكن من مدّ يدها بالورقة الى لو شيا ــ شوان اختطفها هسو نينغ منها ، قائلا : « أنت متعب جدا . دعني أقرؤها عليك » .

والتفت الى هسو هيو ، وقال مبتسما : « معروف عنك أنك واحدة من أفضل طلاب جامعة بكين ــ فكيف يمكن أن تخطئي في تدوين شعارات يكتبها مقامك النبيل ؟ هيا ، اسمحا لي أن أقرأها عليكما :« فليسقط خونة مقاطعاتنا الشمالية الشرقية الثلاث ! نعارض قيام منطقة محايدة تحت الاشراف الدولي ! فلتسقط سياسة اتفاقية الاستسلام ! فليسقط قمع الحكومة للحركة الشعبية المناهضة لليابانيين ! فلتتحد صفوفك، ايها الشعب المضطهد في جميع أنحاء البلاد ! فلتسقط الامبريالية اليابانية !...»

فيما كان هسو نينغ يقرأ هذه الشعارات راح صوته يزداد ارتفاعا وهو يهز قبضة يده أعلى فأعلى . ثم وثب فوق مقعد بدون ظهر ،ولوّح بقبضته ، وشرع يهتف صائحا .

قال لي مونغ ــ يو : « هدوءا ، يا هسو نينغ ! اسمح للآخرين أن ينالوا أوفر قسط من الراحة . فهم يحتاجون الى طاقة جهودهم في معركة نانكينغ » .

في تلك اللحظة دفّت أصداء صيحات من وراء الباب :« فليسقط الامبرياليون اليابانيون ! عاش تحرر الامة الصينية !» .

وامتلأت أصوات ملتهبة انفعالا بنقمة عارمة. كانت اصواتامتحررة من الكبح مفعمة بالحيوية أكثر منها عادة ، تجيء متأخرة متأخرة فيالليل البارد من قلب العربة الكئيبة المظلمة التي لانوافذ لها .

قبيل انبلاج الفجر كان الشبان الثلاثة في قمرة الحارس قد بدأوا

يتشاءبون ورؤوسهم تنحني على اكتافهم . فهؤلاء القادة المنتخبون حديثا في اتحاد الطلبة المعاد تنظيمه قد عملوا طوال ثلاثة ايام وليال دون أن يعرف النوم سبيله الى عيونهم خلال نضالهم الملتهب ضد اتحاد الطلبة الرجعي وسلطات الجامعة الذين كانوا يحاولون الحدّ من نشـــاطهم . كان الضنى قد هدّ قواهم تماما . وكان لو شيا ــ شوان ولو تا ــ فانغ قد استسلما لنوم عميق حينما أيقظهما لي مينغ ــ يو بهذه الكلمات : « هيا ! لقد خطرت لي فكــرة ! حينما نصل الى نانكينـــغ ، افتــرضا أننا أخبرنا مركز قيادة الحامية بخطتنا وطلبنا منه « حماية » خلال فترة مظاهراتنا ؟ »

نبر لو تا ــ فانغ في صوت متردد : « ماذا ؟ حماية ؟ أن نتظاهر ضد حكومة خائنة وان نطلب منها حماية ؟ يا لها من فكرة ! »

ابتسم لي مينغ ــ يو ، في هدوء مطلــق ، وأضـــاف في بــطء : « نستخدم أحيانا وسائل سلمية ، وأحيانا وسائل العنــف . هذاما يسمونه بالتكتيك » .

ــ تماما ! أنت على حق ! هذه فكرة جيدة . لقد جعلتنـــي أشغل تفكيـــري .

وتناول لو شيا ــ شوان حزمة من اعلام ورقية صغيرة عن الدكـــة ولوّح بها كمن يتفادى موجة النوم التي كانت تهاجمه .

حملق لو تا ــ فانغ فيهما بعينين مدورتين وكأنه يقول : « ماذا أصابكما ، أيها المحاربان القديمان ؟ »

وعثر على مكان يستسلم فيه للنوم . وتكوّم لو شيا ــ شوان على الدكة ونام على الفور . ولم يبق غير لي مينغ ــ يو الذي كان جالســـا على مقعد لا ظهر له الى جانب المنضدة الصغيرة . كانت أشياء كثيـــرة تشغله عن النوم . هبّ على قدميه بعد لحظات ، ورنا الى لو شيا ــ شوان المتكوّم على بعضه سعيا وراء الدفء وهو يغمغم في نومه ، فغطاه في لطف بمعطفه القطني المبطن ، ثم غادر القمرة .

اتخذ طريقه عبر رفاقه الطلاب الغارقين في لفائف النوم على اشكال متغايرة على الارض ، ومشى صوب الباب المغلق . كان رأسه يدوّم ، وكان يريد أن يحمل الصفاء الى ذهنه باستنشاق هبة من الهواء النقي . استند الى الباب ومدّ نظره من خلال شق عريض فرأى الريف المضبب

الفسيح الذي يجتازون اراضيه . سرعان ما ستشرق السماء لانالشرق يتضوأ مثل بطن احدى الأسماك . وفيما تلك الاراضي الممتدة متنوعة الاشكال تمرّ به لمحت عيناه بعض النجمات الثابتة تلتمع في الاعلى ويظهر ضوءها الباهت على صفحة الافق الرمادية فوق سلسلة الجبال العالية. استنشق الهواء البارد النقي المتسلل من الباب فتثاءب . وما أن سمع من بعيد صياح الديكة المتقطع ونباح الكلاب حتى خيِّل اليه أن شيئا مايثقل على قلبه. بدا له أن الريف المترامي أمام عينيه يتقهقر بسرعة، من دون أن يعاود الظهور ، فيما القطار يندفع قدماً . فحدّق في شَترهٍ في الجدول البرّاق وبعض الشجيرات وهي تومض فيما يجتازها القطار ، فامتلأت عينا هذا الشاب القوي الهادىء بالعبرات بصورة مفاجئة .

* * *

بارحت هذه الجماعة من طلاب جامعة بكين بيبينغ في الاول من كانون الاول وبلغت نانكينغ في الثالث منه . وأثار وصول المتظاهرين العاصمة دائبة الحركة المسالمة كما لو كان العدو يدقّ أبوابها . وعجت الشوارع والطرقات الرئيسيةبحراس من الجنودالمثقلين ببنادقمحشوة. وتوقف الطلاب القادمون من الشمال في مبنى الالعاب الرياضية التابع للجامعة المركزية ، وسرعان ما شرعت الدراجات النارية تؤز بصورة متواصلة خارج البوابة ، فيما راح رجال تابعون لمركز قيادةكيومنتانغ نانكينغ وجماعات مراسلي الصحف يتجمهرون هنا وهناك لتسقط « الأنباء » . وفي صباح اليوم الرابع صادر مركز قيادةالحاميةعدةآلاف من نسخ منشور الطلاب « رسالة الى الشعب » ، واوقفوا صاحبالمطبعة التي طبعته . وفي صبيحة اليوم الخامس ظهر لي مينغ – يو وفي يده انذار واحتشد عشرات ممثلي المتظاهرين وأصغوا اليه وهو يقرأمايلي:

ان من يسمون أنفسهم « جماعة متظاهري جامعة بكين »
هددوا بعد وصولهم الى العاصمة بالقيام بمظاهرات على الرغم من جميع النصائح المعطاة لهم . لقد ورطوا أنفسهم بنشاطات مخرّبة ونشروا اشاعات ماكرة . وقد نشروا البارحة اعلانات مشوهة تتهم

الحكومة أنها « تدوس الامة الصينية وتبيعها ». وقد خلص الاعلان الى دعاوة رجعية واضحة : « نحن لا نثق في هذه الحكومة، وسنعمل جاهدين على الاطاحة بها »، بالاضافة الى عبارات مثل « نحن نأمر الحكومة ... » . ان نبـرة هـذه الاقوال تماثل أقوال الحزب الشيوعي ...

قاطعه لي شيا – شوان ، وهو يأخذ في لطف من يدي مينغ – يو البيان الرسمي الصادر عن مقر قيادة الحامية : « كفى ! لاحاجة ان تقرأ مزيدا . ان مايتبع ذلك لن يكون أكثر من تهمة تقول ان مجموعة من قطاع الطرق يتآمرون ضد الحكومة ، والتهديد بأنه في سبيل البلاد والشعب يجب عليها أن تعمد الى اتخاذ خطوات تأديبية ضدنا . . حسننا ، فالحال خطيرة جدا ، وينبغي علينا أن نقرر ماذا سنفعل !» .

عقد الممثلون على الفور اجتماعا طارئا توصلوا بنتيجته الى أنه، على الرغم من تهديد السلطات ، لابدّ أن تسير المجموعة بكاملها في مظاهرة في الساعة الحادية عشرة من ذلك الصباح . ولسوف يرسلون لو شيا – شوان ، رئيس المجموعة المنتدب ، الى حاكم الحامية كوشينغ – لون كيما يشرح له خطتهم ويطلب منه الحماية .

حينما سمع لو شيا – شوان هذا الاقتراح لاذ بالصمت طوال فترة، وقد اغتمّت عيناه على حين فجأة . لم يكن يخاف شيئا عندما كان برفقة لي مينغ – يو والطلاب الآخرين . ولقد كان تواقاً حقاً الى سماع شعاراتهم المهتوفة تشق عنان السماوات فوق نانكينغ . وهذا هو الآن مرغم على الانفصال عن رفاقه والذهاب وحيدا لمقابلة كو شينغ – لون .

– ماذا يجول في خاطرك، أيها العجوز لو ؟

تفرّق الممثلون لحشد الطلاب للمظاهرة ، تاركين لي مينغ – يو ولو شيا – شوان وحدهما في الغرفة الصغيرة المتخذة مكتبا .

تبسم لو شيا – شوان في وهن ، ثم نهض وامسك بيدي لي مينغ – يو .

– أيها العجوز لي ، أنت على حق . سوف انطلق في مهمتي على الفور . ان كامل عبء مسؤولية قيادة المظاهرة سيلقى على كاهلكم .

صاح لي بعد تفكير قصير : « كلا ، رويدك برهة ! من غير المأمون أن تذهب وحدك . فاذا ما حدث شيء فلن يتاح لك أن تبعث الينا بأية كلمة . فليذهب هسو نينغ برفقتك . فهو صاحب فطنة ودهاء » .

أجاب لو شيا — شوان : « حسنا ! أتمنى لكم النجاح في هـــذه الاثناء ! »

أمسك بيدي صديقه مرة أخرى قبل الفراق وكأنه منطلق في رحلة طويلة قد لا يؤوب منها .

وانطلق لو شيا — شوان وهسو نينغ ، وقد وضعا على ذراعيهما شارة الجماعة ، في طريقهما الى مركز قيادة الحامية . أخرجا جـواب جماعتهم الخطي ، وطلبا رؤية حاكم الحامية .

انتظرا زمناً طويلا في غرفة الانتظار من دون أن يظهر حاكم الحامية . وجاء لرؤيتهما اخيرا رجل نَصَف أشقر يرتدي ثيابا على الطراز الغربي وحذاء جلديا . ابتسم ، وأشعل لفافة ، وحيا الشابين قبل أن يتخـــذ مجلسه على اريكة ويروح يتأملهما . سأل ، وهو يتحدث في بطء كثير: « أيمكنني أن أسأل ماذا جاء بكما الى هنا ؟ » .

— ارى أنك لست حاكم الحامية . اننا نود رؤية القائد كو .

نطق لو شيا — شوان بكل كلمة في عناية زائدة ، وقد بدت عليـه أمارات الهدوء والتهذيب الآن أكثر مما بدت عليه عند دخوله .

عبس القادم الجديد في استخفاف وقد شعر أنه يقف أمام خصم لايستهان به . نفخ دخان سيكارته ، وقال وهو يومىء برأسه : « انني رئيس أركان قائد الحامية ومخول بتمثيله تخويلا مطلقا . أرجو أن تخبراني ما الذي تريدان أن تخبراه به » .

— قررت جماعة متظاهرينا من طلبة جامعة بكين القيام بمسيـــرة في الساعة الحادية عشرة من هذا الصباح . وسننطلق عبر شــــارع شينفسيين ، وطريق شونغشان ، والقوس الوردي ، ثم نستدير عنـد المعبد الكونفوشي لاجتياز شارع شونغهوا فشارع شونفشينغ مجتازيـن وزارة العدل ، فوزارة الخارجية ، ومركز قيادة الكيومنتانغ المركزي . وقد جئنا نطلب من قائد حاميتكم ارسال مزيد من القوات ورجال الشرطة لحمايتنـــا .

ظل لو شيا — شوان محتفظا بعينيه الرزينتين منصبتين على رئيس الاركان ، فيما فمه يرسل الكلام تباعا من دون انقطاع .

اختفت الابتسامة فجأة عن وجه رئيس الاركان ، وقذف بعقـب سيكارته ؟ وسأل محتـــدا : « أرجو أن تخبراني كيف أن بقية المدارس

اكتفت بارسال عرائض الى العاصمة ، في حين ان جامعتكم وحدهـا تتحدث عن القيام بمظاهرات ؟ ماهي الغاية التي يخدمها هذا التظاهر؟ ومن أجل من أنتم تقومون بمظاهرة ؟

ردّ عليه لو شيا ـ شوان بحدة ، وهو يبتسم : « لقد انقضى زمن تقديم العرائض . فقد تراكمت آلاف وآلاف من العرائض فوق بعضها خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة ، ولكن جوابكم بقي واحدا وهو «لامقاومة». لهذا السبب جئنا الى هنا للقيام بمظاهرات . من أجل من نقوم بمظاهرة؟ اننا نفعل ذلك ضد الامبرياليين اليابانيين ، هؤلاء الذين يبيعون مصالح الامة الصينية » .

ـ وكيف تقترحون تنفيذ ذلك ؟

فأجاب لو شيا ـ شوان في وقار : « بالاسلوب الذي أوجزته الآن. لقد أرسلتم الينا رسالة رسمية تتهمنا بالتآمر ضد الحكومة وتهددنا باتخاذ خطوات تأديبية ضدنا . ولهذا جئنا الى هنا نخبر قائد الحامية أن مجيئنا الى نانكينغ لم يكن الا لأسباب وطنية ، وهو لايخالف القوانين على الاطلاق . ونرجو الا تضعوا أية صعوبات في طريقنا ».

وابتسم رئيس الأركان مرة اخرى ، وقال : « أنت مخطىء ! تدّعي أنكم وطنيون ، ولكن منشوراتكم وشعاراتكم رجعية مئة بالمئة . وضماناً لصيانة السلام وحفاظا على النظام في العاصمة فقد نلجأ ، من دون ريب ، الى استخدام القوة للحيلولة دون نشاطاتكم » .

هزّ هسو نينغ قبضته ، وهتف بصوت ساخط : « هذا لن يفيد شيئا ! اذا أصررتم على استخدام القوة فسوف لن نستسلم من دون ريب! واذا وقع شيء مؤسف ، فان الحكومة ستكون مسؤولة عنه !»

وفي حين اعتصم رئيس الاركان بالصمت ، وهو يجذب بقوة أنفاس سيكارة جديدة أشعلها ، فقد رمى لو شيا ـ شوان هسو نينغ بنظرة استحسان ، ثم رأى أن ساعته تشير الى ماقبل الحادية عشرة بقليل. فنهض ، وهو يقول : « لسوف تبدأ المظاهرة بعد لحظات . أرجو أن تنبىء قائدك حالا وان تطلب اليه اصدار اوامره الى رجال الجيش والشرطة بألا يضعوا أية عقبات في طريقنا ...»

وقبل أن ينهي كلامه دخل أحد الجنود الغرفة وناوله رقعة من الورق ، قائلا : « دوّن ههنا اسميكما من فضلك !»

ففعل لو شيا ـ شوان ذلك من دون تردد .

ما أن تمّ تدوين الاسمين حتى انسحب رئيس الاركان قائلا : « سوف انقل رسالتكما الى القائد كو » .

ابتسم الطالبان في وجه بعضيهما وقد تركا وحيدين في الغرفة الكبيرة المظلمة ، ومن ثم تنهدا .

امسك هسو نينغ بيد صديقه ، وعيناه الكبيرتان تومضان : « لقد بدأت المسيرة الآن ! »

فأومأ لو شيا ـ شوان برأسه : « بلى ، لاريب أنها بدأت ! » .

وتغرغرت عيناه بعبرات دافئة ، فأدار وجهه طوال برهة قبل أن يصافح يدي هسو نينغ مفترة شفتاه عن ابتسام .

رجع رئيس الاركان بعد نصف ساعة . كانت دماثته قد فارقته ، فما أن دلف الى الغرفة حتى نبح صائحا : « انكم تذهبون بعيدا ! عطفا على تقرير وصلنا الآن يبدو ان مسيرتكم قد بدأت ! طبيعي اننا سنرسل رجالا للحفاظ على النظام . أما أنتما فيجب أن تبقيا هنا » .

واستدار وخرج .

لم ينطق الشابان بحرف . كانا يريان بعيني خيالهما صفوف المتظاهرين المتواصلة تطلق شعاراتها ، أو ربما كانت تقاتل وتهرق الدماء . .

أمسك لو شيا ـ شوان بذراع هسو نينغ ، وهتف : « هيا بنا ! فلننطلق وننضم الى جماعتنا » .

وانطلقا . وحينما وصلا الى الباب أوقفهما رجل سمين أسمر اللون قائلا : « أين تذهبان ؟ لقد تأخرتما كثيرا . ارجعا الى الداخل ! سوف تعاملان معاملة خاصة ! » .

سأل الشاب ساخطا : « فيم تحتجزوننا ؟ »

ـ انهم يخلّون بالأمن خارجا . يحسن بكما أن تبقيا مستريحين هنا قليلا .

وابتعد الرجل السمين ضاحكا . وظهرت في الحال دزينة من الجنود ـ مدججين بالسلاح ـ واقتادت الطالبين .

حينما بلغوا الممر المؤدي الى السجن قام ثمانية من الجنود المسلحين بالبنادق بتفتيشهما من الرأس حتى القدمين ، حتى انهم أخذوا ربطة عنق هسو نينغ الانيقة .

اهنف لو شيا ـ شوان ضاحكا : « أترى الى المعاملة الخاصة التي يعاملوننا بها ! » .

كان هسو نينغ أقل هدوءاً ورباطة جأش . وكان وجهه متورداوهو يهمس : « ماذا سيفعلون بنا ؟ » .

هز لو شيا ـ شوان رأسه وربت بلطف على كتف الصبي .

ـ ما هي الحيل الشيطانية التي تهيئان لها الآن ؟ تحركا !

ونخس جندي لو شيا ـ شوان بعقب بندقيته ، ودفع الشابين امامه الى زنزانة مشبك بابها بالحديد .

انهما ، من دون ريب ، يتلقيان « معاملة خاصة » . كان هنالك شابان آخران لاغير في الزنزانة ، فصار المجموع أربعة . لم يكن الهواء سيئا ، وكان هنالك أسرّة عريضة ونوافذ مشبكة بالحديد .

حينما لمح الشابان الآخران القادمين الجديدين هرولا اليهما دون أن ينتظرا انسحاب الحراس ، وحياهما مستفسرين : « من أية كليةأنتما؟»

تبين أن الشابين من طلاب الجامعة المركزية في نانكينغ ، قادهما نشاطهما في الحركة الوطنية بعد حادث الثامن عشر من ايلول الى السجن في مركز قيادة الحامية حيث ظلا سجينين أكثر من شهرين كاملين .

وتجاذب الشبان الاربعة اطراف حديث ملتهب مثل أصدقاء قدامى جمع الدهر بينهم بعد فراق طويل،فانتعش هسونينغوكان اليأس قد بدأ يدبّ الى قلبه .

قال يخاطبهم في فخار : « اننا من جماعة متظاهري جامعة بكين . اضطررنا أننستلقي على خطي السكةالحديدية قبل أنيسمحوا لنا بركوب قطار نانكينغ للتظاهر ضد حكومة الخونة . أخشى أن تكون معركة متلاحمة ناشبة في هذه اللحظة بين أعضائنا والخونة ههنا » .

هتف الشابان الآخران في اهتياج وهما يسمعان ذلك ، ثم اضافا في صوت واحد : « ماذا يحدث في الخارج ؟ »

جلس لو شيا ـ شوان على أحد الأسرّة وشرح لهما كيف جاء طلاب جامعة بكين الى نانكينغ ، والتجارب التي مروا بها منذ وصولهم . وما ان انتهى كلامه حتى هبّ أحدهما يهزّ له يده بحرارة وهو يقول : « اسمي يانغ هسو . واسمه يو هونغ ـ تاو . والآن ائذنا لي أنأحدثكما

عن الاحوال هنا . أوه ، كلا ، يمكن ان أؤخر ذلك قليلا . الساعةالواحدة، واعتقد أنكما لم تأكلا شيئا. سأجيئكما بشيء من الطعام أولا ».

كان وانغ هسو يعرف كيف يتصرف في السجن ، وسرعان ما جاءه أحد المسجونين بشيء من الطعام . وفيما لوشيا ـ شوان و هسو نينغ يأكلان انطلق شيء داخل الزنزانة عبر النافذة . فالتفت لو شيا ـ شوان، الحذر دائما وأبدا ، فلمح أحد الحراس الحاملين حربة يركض ماراً بزنزانتهما . التقط وانغ هسو لفافة صغيرة من الورق ونشرها ، ثم نادى اليه الثلاثة الآخرين ، وقرأها معهم :

« ألقي القبض على عدد من طلاب جامعة بكين في شارعشينفسيين. وقد يكونون نقلوا الى ثكنات ضريح مينغ ».

كان لو شيا ـ شوان معتصما بالصمت ، لكن هسو نينغ ضرب بقبضته على السرير الخشبي وانفجر باكيا وهو يتهاوى ووجهه صوب الارض . وراقبهما يانغ هسو ويو هونغ ـ تاو في انبهار ، ولم يتفوها بحرف طوال فترة من الزمن .

سأل لو شيا ـ شوان على الفور في صوت مخفوض موجها حديثه الى يانغ هسو : « هل هذا المصدر موثوق ؟» .

وشحب وجهه حينما مدّ يانغ هسو بصره عبر النافذة وأومأ بالايجاب .

أغفى هسو نينغ طوال بعد الظهر في حين قبع صديقه على السرير وظهره الى الجدار ورأسه مخفوض غارقا في التفكير ، متسائلا ماذايمكن أن يقع لكامل المجموعة ، وماهي الخطوات الممكن اتخاذها . ماهوعدد الطلاب الذين ألقي القبض عليهم ؟ هل هنالك أية اصابات ؟ ماذا حدث للي مينغ ـ يو ولو تا ـ فانغ وقادة المجموعة الآخرين ؟ أيمكن للحركة التي قاسوا من أجلها صعوبات كثيرة أنتحطمها الحكومة الرجعية ؟ «لا، أبدا ! » وأغلق عينيه وهزّ رأسه . « الشعب الصيني لن يصبر على هذا بعد الآن . وهذا ينطبق بصورة خاصة على الشبان . اذا سقط بعضهم فسيحلّ آخرون محلهم ـ هذا مؤكد ...» ونسيفي غمرة تفكيرهبقضايا جماعته أنه ملقى ، هو نفسه ، خلف القضبان الى أن رنّ في الزنزانة المظلمة صوت غريب أيقظه من شروده .

ان شخصا في الزنزانة المجاورة يقرع على الجدار ويهمس فيخفوت: « أصغ ، أيها العجوز يانغ ، انهم يهتفون بالشعارات خارجا ! »

هبّ الشبان الاربعة على أقدامهم ، وأرهفوا آذانهم .

لم يستطيعوا أن يسمعوا بوضوح . ان مايبلغ اسماعهم ليس أكثر من صوت يشبه صدى تنهيدات الرياح في المنتأى البعيد .

استفسر يانغ هسو قائلا : « أيمكن أن يكون الجنود عائدين من أرض المظاهرة؟ » .

كانت معنويات هسو نينغ قد انفجرت في فرحة غامرة : « لربما كان متظاهرونا من جامعة بكين يسيرون صوب هذه الناحية !»

ـ أصغِ ، أيها العجوز يانغ !

ان شخصا في الزنزانة المجاورة يقرع على الجدار من جديد .

ـ فليسقط ...

ـ نعارض ...

بلى ، هنالك في البعيد ، يهتفون بالشعارات .

وسرعان ماغرق السجن بكامله في سكون يماثل سكون القبر . وشعر لو شيا ـ شوان بقلبه ينبض بمزيد من السرعة ... قال في وليجة نفسه : « انهم قادمونِ !.. قد يكونون طلابنا المتظاهرين !»

وضغط الشبان الأربعة وجناتهم على حديد النافذة . كان الغسق الرمادي الكئيب قد اكتسب ، على حين فجأة ، جمالا أخاذا .

ـ نعارض خيانة الحكومة في مقاطعاتنا الشمالية الشرقية الثلاث!

ـ فليسقط الجلاد كو شينغ ـ لون !

ـ أطلقوا سراح الموقوفين من طلاب جامعة بكين!

غدت الاصوات أكثر وضوحا الان . انها تسبح جريئة ناقمة ، عبر الجدران الحجرية ، وتبلغ أسماع الشبان الاربعة المساجين.

كشّر يو هونغ ـ تاو النحيل الصغير في وجه هسو نينغ : «لاريبة انهم بعض طلاب جامعتنا المركزية ! »

تباهى هسو نينغ ، وقد أثارته معنويات عالية مشابهة : « يجبأن يكون هنالك مزيد من طلاب جامعة بكين » .

ـ ان ناقوس موت الحكام يرنّ !

وتبادل لو شيا ـ شوان ويانغ هسو ، الاكبر والاكثر تجربة من

الاثنين الآخرين ، نظراتهما ، غير عارفين من منهما أطلق هذه الكلمات. أصحيح أن رفاقهما الشبان وصلوا الى هنا حقا ؟ انهما لا يكادان يصدقان ذلك .

بدا أن الحشد الذي يطلق الهتاف قد وصل الى بوابة مركز قيادة الحامية . وسبحت الى السجن أمواج من ضوضاء الاصوات ، والشعارات المهتوفة المفعمة غضبا ، وصيحات النقمة العارمة .

وانفجرت في السجن بلبلة مفاجئة. أمسك يانغ هسو بذراع هسو نينغ ، وقال : « أنظر ! لقد أنزل الحمقى اللافتة الموضوعة فوق السجن ! »

ومدّ الشبان الأربعة أنظارهم من خلال النافذة .

على الممر المرتفع أمامهم كان ضباط وجنود مسلحون يتحركون دون نظام ، وجندي يحمل لوحة خشبية عريضة يجتاز نافذتهم راكضا.

علّق لو شيا ـ شوان قائلا ، فيما انفجارة من صيحات مروّعة لفتت انتباههم :

ـ اهجموا ! اقتحموه !

ـ اقتحموه ! اقتحموه !

ـ أسرعوا الى نجدة طلاب جامعة بكين !

كانت الصيحات أشبه بمن يسمع صوت شخص عزيز وقريب كان مغتربا ، فدمعت عينا لو شيا ـ شوان وهسو نينغ . وضرب قلباهما بشدة ، فالتصقا بالقضبان يرهفان سمعيهما .

ـ فليسقط الامبرياليون اليابانيون !.. فلتسقط هذه الحكومة الخائنة ... أطلقوا سراح طلاب جامعة بكين !

وتوالت الشعارات في ازدياد تدريجي ، وغدا الضرب على البوابة الرئيسية ، والصيحات والهتافات ، أشد فأشد . وعلى حين فجأة سمعت جلبة كبيرة أغرقت الصخب والهتاف فيما كان الحشد يندفع عبر بوابة مركز القيادة الاولى .

انطفأت الانوار دون انذار ، فغرق المبنى بكامله ، بما فيه السجن، في ظلام دامس ورعب مثير .

خمدت الجلبة طوال برهة قصيرة ، الا أن قعقعة البنادق ظلت مسموعة ، فيما اصداء خطوات ثقيلة على الارض وأصداء جرّ اكياس

رملية قد فاقمت التوتر . كان الموت يرفرف مع الهواء ، والسجن بأسره يعبق برائحة البارود .

تبادل الشبان الاربعة النظر ، ومسحوا العرق عن جباههم بأيديهم الوسخة .

وانطلقت الصيحات في الخارج مرة أخرى .

ــ نطالب بجواب فوري !

ــ لماذا لم تطلقوا سراح الطلاب بعد ؟ لماذا لم يخرجوا ؟

ــ هذا لن يكون ! فلنشق طريقنا الى الداخل ! اهجموا !...

سمع المساجين بوضوح اصداء هجوم ثقيل آخر على البوابة مختلط بهدير الشعارات المهتوفة . وسمعوا من بعد صلصلة البنادق الرشاشة على السطح .

سيكون هنالك قتال ، قتال مباشر ، بين الطلاب ورجال السلطة .

قال يانغ هسو في لطف ، وهو يشد ردن لو شيا ــ شوان : « كن واثقا من أن الرجعيين سيستخدمون القوة حينما تلتهب الامور ! » .

فأطلق هسو نينغ صرخة فزع .

قال لو شيا ــ شوان : « بلى ، الوضع خطير » .

وابتعد عن النافذة وشرع يذرع ارض الزنزانة بخطواته . كان يبذل جهده للسيطرة على اهتياجه بحيث يتمكن من التفكير في هدوء في الخطر المحدق . وبدا له أنه اذا استمر الحشد في محاولة شق طريقه الى الداخل فقد تكون هنالك ، في أية لحظة ، اعادة لمذبحة الثامن عشر من اذار ... ماذا يمكن أن يفعل ؟ ان عددا كبيرا من رفاقه الطلاب ، هؤلاء الذين ائتمنه الحزب عليهم ، متواجدين الآن في صفوف الذين يهاجمون مركز قيادة الحامية . كيف يستطيع أن يسمح لهم بهدر حياتهم ؟ كان فكره في دوامة . قدح زناد فكره في محاولة لحل هذه المشكلة اليائسة العصيبة المستعجلة .

في الخارج ازدادت الصيحات ارتفاعا وسخطا حتى بدا أنها تشق عنان السماء ..

ــ اهجموا ! يجب أن نهاجم بكل قدرتنا ! أنقذوا طلاب جامعة بكين !

ــ هم يملكون بنادق ورصاصا ، ونحن نملك دماً حاراً !

ــ الى الامام ! اهجموا !...

تبع ضجة الغضب تحطم كبير آخر حينما تداعت البوابة الثانية واندفع الحشد منها . واقتربت الصرخات والهتافات اكثر فأكثر من السجن المظلم ، وصارت تسمع فيه بوضوح .

وجرّ هسو نينغ رفيقه لو شيا ــ شوان صوب النافذة : «تعال الق نظرة ! »

كانوا يرون في غرفة الحارس المقابلة الجنود يتخاطفون بنادقهم بسرعة ويهيؤونها على ضوء المشاعل ، ويركبون حرابها ، ويصوبونها صوب زنزانات السجن .

احتضن الشبان الاربعة قضبان النافذة الحديدية يراقبون المشهد دون أن يأتوا حركة .

وعلى حين فجأة ، كما لو كان من مكان بعيد بعيد ، بلغ أسماعهم صوت خفيض : « تلقينا الامر باطلاق النار على الطلاب حالما يحطمون البوابة الثالثة » .

التفت لو شيا ــ شوان ناحية الصوت ، فلمح حارسا يتنكب بندقية مشرعة الحربة يختفي وراء طرف البناء . فسأل يانغ هسو في عجلة : «من هو هذا ؟»

ــ انه جندي وطني .

كان وجه يانغ هسو ، الذي أضاءته شعلة أحد المشاعل ، شديد الشحوب .

وتوالت أصداء القرع من جديد ، ومرّر أحدهم هذه الرسالة في هدوء : « لقد وجّهت أفواه المدافع الرشاشة على السطح صوب البوابة الثالثة » .

أمسك هسو نينغ بذراع لو شيا ــ شوان : « هل سيطلقون النار على السجن اولا ؟»

أجاب لو شيا ــ شوان ، وهو يهز يد هسو نينغ ليشد يانغ هسو جانبا : « لا اعتقد ذلك » .

وتابع يقول بعد تفكير رزين طوال فترة من الوقت :« أينبغي علينا في هذه المحنة أن نتخذ قرارا سريعا ، ايها العجوز يانغ ! الديك وسيلة نبعث بها رسالة الى الطلاب في الخارج ؟ لقد صبوا على المتطرفين ضربة

شديدة ، ونقترح أن يتنادوا الى التوقف في الوقت الحاضر تجنبا لاراقة دماء لاضرورة لها . مارأيك ؟ » .

اجاب يانغ هسو بعد لحظة من التفكير : « اتقصد الوصول الى تسوية؟ أينبغي علينا أن نستسلم بعد مثل هذه الانطلاقة الشجاعة ؟ سنفكر في الامر مليا » .

قال لو شيا ـ شوان في صوت ثابت : « كلا ! الامر مستعجل جدا. ولا وقت لدينا للتفكير . اكتب رسالة الى طلاب الجامعة المركزية، واكتب انا رسالة الى جماعتنا . ولسوف يسلّم ذلك الجندي الوطني الرسالتين على ما أظن ! » .

ابتعد يو هونغ ـ تاو وهسو نينغ عن النافذة منضمين الى الآخرين، ووقف الاربعة هنالك يعقدون اجتماعا صغيرا طارئا . وفي الختام تبنى اربعتهم اقتراح لو شيا ـ شوان .

أخرج يانغ هسو بقية قلم رصاصي وقطعة ورق وأعطاهما الى لو شيا ـ شوان . وحمل يو هونغ ـ تاو وهسو نينغ اللحاف كستارة ، فيما أشعل يانغ هسو عود ثقاب ، ودوّن لو شيا ـ شوان بعض كلمات. وعندما انتهى من ذلك أشعل عود ثقاب آخر كيما يتيح ليانغ هسو أن يكتب رسالة قصيرة . وما أن تمّ ذلك حتى أسرع يانغ هسو الى النافذة وسعل ثلاث مرات . فارتفعت يد على الفور وتناولت قطعتي الورق.

وفيما وراء البوابة الثالثة تعاظمت الجلبة والصراخ اللذان يطلقهما الحشد .

ــ أيها المتطرفون! لماذا لاتطلقون النار ؟! أنتم تملكون بنادق ورصاصا، اما نحن فلا نملك غير دمائنا الحارة ..

في الليل العاتم توقفت صيحات آلاف حناجر الشبان لبرهة قصيرة كيما يتبعها على الفور انفجارة ساخطة اخرى . وراحت ضربات الاقدام، والصيحات والخوار ، تزداد ارتفاعا وارتفاعا مثل رعد يتفجّر . كان الطلاب يقذفون أنفسهم على البوابة الثالثة التي شرعت تتخاذل تحت ضرباتهم .

انها ساعة الصفر . بنادق العدو على السطح مصوبة الى الطلاب خارج البوابة الحديدية تنتظر مثل نمور مفترسة .

التصق لو شيا ـ شوان ورفاقه الثلاثة ببعضهم بعضا وهم يضغطون أنفسهم على النافذة .

لن تسيطر الظلمة الى الابد

سينتهي الظلام ويبزغ الفجر

شرع لو شيا ـ شوان ينشد في هدوء . لم يكن يستطيع أن يعتبر أن رسالتيهما ستنتجان أثرا ، فشرع يتهيأ للنهاية ذهنيا . وشرع الآخرون يشاركونه النشيد :

سينتهي الظلام ويبزغ الفجرُ

مرت عشر دقائق افاقوا بعدها من أحلامهم ..

ـ الجامعة المركزية ، اجتماع ههنا

ـ جامعة بكين ، اجتماع ههنا !

وارتفعت فوق ضجة الحشد أصوات نفير .

واضيئت انوار السجن مرة اخرى .

اوضح هسو نينغ ، وهو يمسح العرق عن جبهته ويتواثب مغتبطا: « انها النجاة بأعجوبة ! »

التفت يانغ هسو وقبض على يدي لوشيا ـ شوان بقسوة بعثت الالم في عروقه .

وابتسم لوشيا ـ شوان والعبرات في مقلتيه: «هذا جدير بأن تقضي بقية عمرنا في هذا المكان لقاء ماحصل ، أليس كذلك ؟ » .

٨

جاء يوم لم تعد تاو ــ شينغ تحتمل فيه مضايقة يو شينغ ــ تانغ الحقيرة لها في مدرسة يانفشوانغ على الاطلاق . ولم تنتظر حلول موعـد العطلة الشتوية ، بل هربت من بيتايهو الى بيبينغ مثلما هربت مرة مـن بيبينغ الى بيتايهو .

كان راتبها كمعلمة لايتجاوز خمسة عشر يوانا في الشهر ، ولم يكن يتبقى معها بعد تسديد ثمن طعامها ، وادواتها الكتابية ، وطوابع البريد، وبعض الامور الاخرى مايكفي لشراء ثياب دافئة . انطلقت مرتدية ثوبـا مبطنا رقيقا ، ولم تكن تحمل متاعا سوى رزمة صغيرة من الثياب واغطية الفراش ، وتخلت لتلاميذها عن ادواتها الموسيقية التي لم تعد تشعـر برغبة في العزف عليها . وتساءلت وهي في القطار اين يمكن ان تقيـم في بيبينغ ، محدثة فكرها أن المدير هو لا بد يتابع البحث عنها في كل مكان. لاريب أنها تفضل أن تموت جوعا ، كما دونت في مفكرتها اليومية ،عن أن « تبيع روحها » . لقد وطدت العزم على أن تحتفظ بكمالها نقياً مـن أية شائبة تدنسه ...

حينما وصل القطار الى المحطة الشرقية في بيبينغ عـزمت اخيرا على البحث عن صديقتها الطيبة وانغ هسياو ــ ين .

كانت هسياو ــ ين ، الطالبة في السنة الثالثة والاخيرة في المدرسة الثانوية ، تماثل تاو ــ شينغ سنا . ولما كانت شجاعة طيبة القلب فقـد ألفت الطالبات الاكبر منها سنا مناداتها بـ « الأخت الكبيرة » .وكان والدها وانغ هونغ ــ بين استاذا في قسم التاريخ في جامعة بكين ، وكانت

أمها ربة بيت لطيفة أنيسة نالت حظا من الثقافة ، وكانت هسياو ـ ين التي شبَّت في بيت سعيد مسالم يموج بالحب تناقض تماما تاو ـ شينغ المندفعة التي لايعرف الخوف الى فؤادها سبيلا . وكان همها الوحيد، هي السيدة الطاهرة ، أن تدرس وتدرس وتصير مثقفة مثل والدها في الوقت المناسب .

ما ان وقع بصر تاو ـ شينغ على هسياو ـ ين حتى أمسكت بها من يديها ، ولكنها عجزت عن مخاطبتها . لم تعرفها هسياو ـ ين بادىء الامر . كانت رفيقتها ، على الرغم من البرد القارس ، ترتدي ثوبا مبطناً رقيقاً أسود اللون يغطيه الغبار وتلطخه بقع دهنية عديدة . وكان التعب يلوح عليها بعد رحلتها الطويلة . حدقت هسياو ـ ين فيها متشككةطوال ثوان ، ثم نادتها باسمها وقد رسمت على شفتيها ابتسامة ترحيب دافئة.

قالت تستحثها ، جاهلة كيف يمكن أن تبدي لها ودادها : «تعالي اغتسلي ، ومن بعد تبدلين ثيابك ببعض ثيابي . انك تشبهين فتاة قروية».

ـ لاتجرؤين على النظر الى فتاة قروية ! ان أمي...

كانت تاو ـ شينغ مقطبة استياء ، ولكنها أدركت أنه ليس ثمة ضرورة للغضب ، وسرعان ما بدّلت موضوع حديثها : « أنت تجهلين مقدار نصيبك من الحظ يا هسياو ـ ين ، وأنت تعيشين في أسرة رائعة مثل عائلتك ـ مع أبيك ، وأمك ، وشقيقاتك » .

كانت عيناها مبللتين بالعبرات رغم الابتسامة المتخايلة على قسماتها، فاستدارت جانبا في سرعة لالتقاط المنشفة .

راقبتها هسياو ـ ين في اشفاق : « كفي عن الشعور بالاسى على نفسك طوال الوقت ! ينبغي أن تقيمي هنا الى أن يعثر لك والدي على عمل» .

ـ حسنـا .

ابتسمت تاو ـ شينغ ابتسامة مكتئبة ، ونظرت الفتاتان في وجه بعضيهما طوال لحظات. وسرعان ماطوّحت تاو ـ شينغ ذراعيها حول هسياو ـ ين هامسة بعد أن طفحت مشاعرها التي عجزت عن كبتها : « أتعرفين يو يونغ ـ تسي ؟ لقد غدونا صديقين حميمين ... » .

ـ وكأنني لم أكن أعرف ذلك منذ مدة طويلة !

ودفعتها هسياو ـ ين عنها في ابتسامة هادئة ، واستتلت : « يحسن أن تزوريه في أسرع وقت . لابدّ أنه مشتاق الى رؤياك » .

ذهبت تاو ـ شينغ في تلك العشية لرؤية يونغ ـ تسي ، فقعدا يتحدثان في غرفته الصغيرة في الفندق حتى ساعة متأخرة . وأصر حينما رجعت على مرافقتها في طريق العودة، فراحا يتمشيان معاً في الليل الساكن ناحية جدول « حزام اليشب » القريب من تيين آن مين حيث توقفا الى جانب الدرابزون الرخامي . أمسك يونغ ـ تسي في غبشة ضوء انوار الشارع بيدها الباردة بشدة وحدّق في عينيها فترة بدت وكأنها الابد . ثم ترجّاها بعمق في صوت مرتجف : «لين ، هل تصيرين حبيبة قلبي ؟ لسوف احبك دائما ، دائما ! »

حنت تاو ـ شينغ راسها دون أن تعطيه جوابا . كان قلبها يخفق نشوان ، واحمارّ خدّاها بلون قرمزي . أهذا مايسمونه بالحب الفتي؟ أهذه هي السعادة ؟ عجزت عن كبح نفسها ، فأمسكت يد يونغ ـ تسي، واراحت رأسها على كتفه . . .

كان الحب نفسه عاجزا عن طرد متاعبها . كانت هسياو ـ ين ووالداها الطيبة نفسها بالنسبة اليها ، ولكنها لم تكن تستطيع البقاءفي بيتهما الى الابد . ينبغي أن تجد مخرجا ، حالا ودون تأخير ، كيما تكسب قوت يومها . وهكذا شرعت منذ اليوم التالي لعودتها الى بيبينغ بالاتصال بصديقاتها القديمات ومعلماتها في المدرسة اللواتي قد يعثرن لها على عمل . واما تكون وحيدة في غرفتها فهي تروح تبحث في الاعلانات المنشورة في الصحف على أمل العثور على عمل مناسب .

ومرّت الايام على هذه الوتيرة طوال اسبوعين كاملين . وطغى اليأس على صدرها . كانت تبذل جهودها ، ورغم ذلك لم يكن ثمة بصيص من الامل في عثورها على عمل . وأوضح لها البروفيسور وانغ في أسلوب لبق أن خريجي الجامعات وأولئك الذين يملكون كفاءات خاصة لايتاح لهم، في الظروف الراهنة ، العثور على عمل ما لم يكن لديهم شيء من النفوذ. ولن يكون ذلك سهلا على فتاة يافعة مثل تاو ـ شينغ . ونظرا لتلك الاسباب فهو ينصح لها بالصبر . غير أن تاو ـ شينغ لم تقتنع بذلك ، فقد كانت تقول في فكرها ان مدينة باتساع بيبينغ لا بدّ أن يكون فيها فرص ملائمة ، واستمرت تسلك جميع السبل وتطرق جميع الابواب بحثا عن عمل . ورجتها السيدة وانغ مرات عديدة الا تستعجل الامور، مؤكدة لها أنها تنزل في بيتهم على الرحب والسعة ، في حين راحت هسياو

ـ ين تستحثها أن تلجأ الى التعقل والآ تورّط نفسها مع أشخاص سيئين . لم تستطع نصيحتهما ، المقصود بها التخفيف عنها وطمأنتها ، أن تتغلّب على شعورها بضرورة العجلة ، فراحت تتبع أضأل ضوء من الحظ في الحصول على عمل . لكن جهودها ذهبت عبثا ! وذات يوم نشرت احدى الصحف المحلية ، هسياو شيب باو ، اعلانا عن مربية اطفال . خطر لها أن هذا العمل يناسبها ، وأن شروطه مقبولة معقولة ، فعزمت على مقابلة المعلن شخصيا .

لبست بعناية وبصورة جذابة ، وخلعت على كتفيها معطف هسياو ـ ين الاخضر الصوفي ، وكانت في طريقها الى الخروج من البيت حاملة حقيبة انيقة عندما فوجئت بصديقتها عائدة من مدرستها . فأوقفتها هسياو ـ ين سائلة : « أمنطلقة الى تجربة حظك مرة أخرى ؟ »

ـ كلا ، بل أريد القاء رسالة في البريد .

كانت تاو ـ شينغ قد عزمت ، بعد عدد من المحاضرات حول العثور على عمل ، الا تقول الصدق .

أدركت هسياو ـ ين كذب كلامها ، فقالت لها وهي تدفعها في كتفها عابثة : « هيا اركضي اذن ! أتمنى لك حظا سعيدا ! لا تتأخري في العودة الى البيت ! » .

فاستدارت تاو ـ شينغ عنها بابتسامة مرتبكة ، وانطلقت .

كان العنوان يشير الى منزل مهيب ، له بوابة عريضة حمراء اللون ، قائم قرب « القوس الشرقي » . أدخلوها الى غرفة استقبال مؤثثة على آخر طراز ، ومفروشة بأثاث ياباني . وبعيد انتظار طويل جاءها رجل ذو شارب متموّج يرتدي زيا غربيا ، وقدّم لها في أدب الشاي واللفائف . سألها عن عمرها وعن مكان دراستها ، وهو يلتهمها طوال الوقت بعينيه المخادعتين الفاترتين . أرغمت نفسها على الجواب عن أسئلته رغم ضيقها ، ومن ثمة سألت قائلة : « اين هو طفلك الصغير ، ياسيدي ؟ كم عمره ؟ وماهي الدروس التي يحتاج اليها ؟ » .

فتمدّد الرجل السمين الغليظ على الاريكة فجأة وقد انفجر ضاحكا ، وهو يغلق فمه عن صف من الاسنان المحشوة بالذهب . ومن بعد هندم نفسه ، ومرّر أصابعه على شاربيه ، وأصلح من وضع ربطة عنقه ، واجابها مبتسما : « آنسة لين ، أنت امرأة فتية رائعة . لاتزال زوجتي وولدي

في بلدنا العظيم — أعني اليابان! وفي مقدورك البدء بممارسة مهمتك بتدريسي أنا . لسوف أدفع لك بسخاء . وسوف تجمعين ثروة . أؤكد لك ذلك ! » .

وشرع يهنف ضاحكا من جديد .

شعرت تاو — شينغ بالذهول وهي تنطلق هاربة مثل غزال شارد، مهمهمة بأعذار واهية . وما أن صارت على مبعدة من ذلك المنزل المهيب حتى توقفت ترجّع النظر في تلك البوابة الكبيرة الحمراء ، وتفرك عينيها المذهولتين بأصابعها المرتعشة .

وبدلا من أن تعود الى منزل هسياو — ين اتخذت طريقها مباشرة لرؤية يونغ — تسي .

وجدته منكبا على منضدته يكتب . فلما نهض يمسك يدها هزّت رأسها وغرقت في أحد المقاعد . دفنت وجهها في يديها وجلست صامتة لاحراك بها .

وقف يونغ — تسي مرتبكا الى جانبها فيما الدقائق تكرّ متسارعة.

سألها في لطف : « ما الامر ، يا تاو — شينغ ؟ هل أنت غاضبة مني؟»

— أوه ، أبدا ! أنا لست غاضبة منك. لاتلق بالا الى ذلك ،أرجوك. سأكون في أحسن حال في أقل من لحظة .

لم يضف شيئا ، بل جعل يراقبها في ارتباك مفزع . وظلت الغرفة صامتة الى أن استعادت تاو — شينغ هدوءها ورفعت رأسها ونظرت اليه في ابتسامة شاحبة .

— أنا في احسن حال الآن . لقد انتهى كل شيء .. استطيع أن أرى الان بوضوح اكثر من أي وقت آخر أن الصين ضحيّة على مذبح الجشع. ثمة قطاع طرق وحوش متمردون في كل مكان ... هل تعرف قصة شيانغ تاي كونغ ، يا يونغ — تسي ؟ يوم كنت طفلة بعد كانت مربيتي العجوز تروي لي في اغلب الاوقات قائلة : « قد يتبدل حظك . قبل أن يلتقي شيانغ تاي كونغ بالامبراطور وين وانغ ويصير رئيسا للوزراء أضاع الشص عندما كان يصطاد وقلب سلته عندما كان يبيع الطحين ». واني لأتساءل ما اذا كان حظي سيتبدّل » .

حاولت اخفاء مرارتها ، غير أن الدموع جمدت في عينيها . استعادت رباطة جأشها ، ورمت رأسها الى الوراء مثل طفل صغير ، وبكت قائلة:

« ولكنني لا أؤمن بالقدر ! أستطيع أن أحتمل ما تجيئني به الايام ! لابدّ أنني سأجد مخرجا في نهاية المطاف ! »

روت له قصة اختبارها الاخير ، فأصغى يونغ ـ تسي في انتباه. وحينما انتهت كان قد فقد لطفه المألوف ، فذرع الغرفة مرات عديدة ثم استدار وحدّق فيها بثبات وجدّية .

قال : « اعذريني ، يا تاو ـ شينغ ، اذا تكلمت في صراحة . ان شعورنا المتبادل يجعل من المستحيل عليّ أن أحتفظ بالصمت أكثرمما فعلت . ان الطريقة الطائشة التي تندفعين بها خطيرة جدا . في مثل هذه الاوقات يصل أناس أكثر منك قدرة وخبرة الى نهاية محزنة في أغلب الاوقات . ومع ذلك فأنت تندفعين هنا وهنالك مثل مهر غير مرّوض. مافائدة ذلك ؟ المثاليون في أحسن حال ، ولكنك لاتستطيعين الهروب من الواقع . أناخائف ، اذا ما تابعت التصرّف على هذا الفرار ، أن ترهقي نفسك ولاتجدي شيئا يصدّ عنك آلامك » .

ذهلت تاو ـ شينغ ، وهي تحدّق في وجهه الأسمر الهزيل وعينيه البراقتين الصفيرتين ، عندما رأت أن يونغ ـ تسي لم يكن وسيما أو مهذبا . ومهما يكن الامر فقد كانت تلك نصيحة غريبة تعطى لها ! راحت تراقبه ببرودة وفي صمت ، وقد استبد بها القلق .

ـ حبيبتي !

ومرت لحظة من صمت اقترب بعدها منها وأخذها بين ذراعيه ، وهو يغمغم في عذوبة: « أصغي ، ياتاو ـ شينغ ! تعالي أقيمي معي ! هذه هي المرة العاشرة التي أطلب منك ذلك ... فكري في مقدار السعادة التي ستطفى علينا هنا ! سأعود من المحاضرات فأجد طعاما شهيا طبخته يداك . وسأكون قادرا على تعليمك مزيدا عن الادب الذي تحبين . واذا رغبت استطيع أن أمدلك يد العون في كل قصيدة تكتبين . صحيح أن مبلغ المال الذي يجيئني من البيت ليس كبيرا ، لكننا اذا مارسنا شيئا من الاقتصاد ففي مقدورنا أن نجعله يكفي كلينا . لم لاتقبلين بالسعادة التي تنتظرك بدلا من الاندفاع هنا وهناك بمثل هذه الوحشية ؟ أليس لديك مكان خاص وأنت تعيشين عالة على الاخرين ؟ » .

ـ هذا يكفي .

وضعت تاو ـ شينغ يديها على فمه ، ثم ارتدت الى الوراء لتخفي

عينيها . وسرعان ما رفعت بصرها ، وقالت كمن يوجه اتهاما :« لقد تبدلت ، يا يونغ – تسي . أعيش عالة على الآخرين ؟ أفلن أكون عالة عليك اذا عشت معك ؟ أرجو أن تكفّ عن مثل هذا الحديث كلما التقينا . واذا لم تفعل ، فلسوف اعرف أنك تحاول الافادة من حالتي اليائسة الراهنة ... » .

ارتجفت شفتاها ، وبدا واضحا أنها تجاهد لمنع غضبتها من الانفجار .

وقف الى جانبها مرتبكا ، وامسك ذراعها ، وترجّى قائلا : « حبيبتي تاو – شينغ ! لاتقولي ذلك ! أنا أحبك ! وسأظلّ أحبك دائما، دائما ! أنت حياتي ، وروحي – ولن استطيع الحياة من دونك ! »...

تبسمت تاو – شينغ . ان مثل هذه التأكيدات قمينة بأن تذيب أي قلب ، وخاصة قلب فتاة تشعر بالحب لاول مرة في حياتها .

٩

لم تكن تاو ــ شينغ ترغب في الزواج رغم حبها العميق ليونغ ــ تسي . كانت ترفض ذلك كلما ألحّ عليها ، الى ان انطلق أخيرا في يأسه الى سريره ، ودفن رأسه في اللحاف ، وهجر دراسته . وحينما اكتشفت تاو ــ شينغ ذلك سألته في قلق : « ما الامر ، يا يونغ ــ تسي؟ أمريض أنت ؟ » .

جسّت له جبهته . لم يكن محموما . كانت ملامحه العابسة تدلّ على مقدار يأسه .

نظر اليها وعلى شفتيه ابتسامة مرة : « اجلسي ، يا تاو ــ شينغ . اني أحسّ بألم في صدري . أصبتُ في قلبي سابقا ، وكدت أموت من احدى النوبات مرة ، ولكنني لم أعان صعوبات خلال السنوات القليلة الاخيرة . البارحة أصبت بنوبة أخرى . أعتقد انها كانت نتيجة ... »

أغلق عينيه وصمت .

استفهمت تاو ــ شينغ في قلق : « كانت نتيجة ماذا ؟ »

فتح يونغ ــ تسي عينيه ، وهزّ رأسه في ضعف ، وقال : « فلنكفّ عن الحديث في ذلك » .

قالت تاو ــ شينغ ، وهي تهزه في لطف وتعبس في ارتباك : «أرجوك أن توضح لي ماذا أصابك . كفّ عن الفأفأة واللعثمة والتحدث بالالغاز . اذا كان لديك شيء تقوله ، فأرجوك أن تفصح عنه ! »

تندّت عينا يونغ ــ تسي ، وتساقطت العبرات على وجنتيه ، في

حين قبضت أصابعه الطويلة النحيلة على يد تاو ـ شينغ بصورة أشعرتها بالالم . راقبته ، مذهولة ، الى أن قطع حبل الصمت وهمس في رزانة: « أخبريني الحقيقة ، يا تاو ـ شينغ ! اذا لم تكوني تحبينني ، اذا لم أكن جديرا بك ... فاخبريني بالحقيقة ! »

لم تستوعب تاو ـ شينغ ماقصد اليه طوال فترة ـ كانت تحدّق فيه بعينين زائغتين . وما ان وعت معنى كلماته حتى قبضت على يديه وشدت عليهما ، وقلبها فريسة عواطف متضاربة .

صاحت : « لاتفه بمثل هذه الاقوال ، يا يونغ ـ تسي ! لايجب أن تقول مثل هذا الكلام !»

وادارت رأسها تمسح عبراتها ـ لقد كان مريضا بحبها !

راحت مسحة من ابتسامة تتخايل على زاويتي ثغر يونغ ـ تسي، ولكنه كبتها في سرعة وشدّ تاو ـ شينغ ناحيته وجعلها تجلس على سريره . ثم تابع يقول في صوت محزون : « كلا ، أنتِ لا تحبينني . اذا لم أستطع أن أجعلك تقفين الى جانبي فان حياتي ستبدو أشبه بورقة صفراء تعبث بها الريح ... أنقذيني ، يا تاو ـ شينغ ، فأنا لا أستطيع أن أحيا من دونك ! »

كان ذلك اعترافاً معذباًبالحب تسمعه من انسان أنقذ حياتها ! ارتمت بين ذراعيه وقد اذابتها عبراته ، وأبدت موافقتها على أن تعيش معه .

وهكذا بدأت حياة جديدة .

في آخر يوم لها في منزل وانغ شعرت تاو ـ شينغ بكل ما تحس به عروس شابة على أهبة أن تغادر بيت أبيها من خوف وقلق . وفي ساعة متأخرة من الليل ، بعدما جمعت حاجياتها القليلة ، امسكت بيد هسياو ـ ين وقالت في لطف: « غداً أبداً ، ياهسياو ـ ين ، نمطاً جديداً من الحياة . إني أشعر بشيء من الخوف . لكن ، ماذا تراني أستطيع أن أفعل ؟ لاخيار لي . آمل أن تثابري على الدراسة بجدّ وقوة بحيث تتحقق أمنيتك في أقرب فرصة . أنت أسعد حظاً مني . وانا لاأعرف ما يخبئه لي المستقبل ... »

قالت هسياو ـ ين مبتسمة، وهي تمسح بسرعة العبرات التي بللت نظارتها : « ولكنك أكثر مني شجاعة ! لقد أظهرت على الدوام

مزيداً من الشجاعة وأنت تجابهين صعوبات حياتك . أنا معجبة بالطريقة التي جابهتها بها ، وأنت تعرفين أني أتعاطف مع صعوباتك ، ولكنني عاجزة تماما عن أن أقرر شيئا بخصوص العجوز يو . أواثقة أنت أنك تفهمينه جيدا ؟ وماهي ضمانتك في انه سيبقى مخلصا لك ؟ أتستطيعين حقا الوثوق به ؟ »

كانت هسياو – ين تسرد عليها شكوكها مثلما تفعل أخت كبيرة مخلصة يقلقها ان تحفظها من أية اساءة أو أذية .

رفعت تاو – شينغ رأسها ، وعيناها براقتان حرونان مثل عيني طفل صغير .

– أتعتقدين ، يا هسياو – ين ، أن على المرء أن يركب عربة مزينة بالورود ويصطحب معه ثلاث خاطبات وستة شهود كيما يعقد زواجا ناجحا ؟ أنا لا أطيق مثل هذه المراسم السوقية . هل قرأت تأريخ ايزادورا دنكان لحياتها ؟ انه كتاب ممتع ! كانت ايزادورا دنكان راقصة عصرية عظيمة في الغرب ، وكان عليها أن تشق لنفسها طريقا منذ طفولتها . فواجهتها صعوبات جمة لاتعد ولا تحصى ، بَيْدَ أنها لم تستسلم أو تخضع لقوى الشيطان . كانت تكره جميع القواعد الاخلاقية القديمة البالية . وحينما سقط طفلاها في نهر الراين وغرقا أصيبت بكرب ، وقررت أن تتجنب طفلا – رغم أنها كانت أرملا في ذلك الحين . وهكذا قبعت منتظرة ، وقد استلقت على شاطىء البحر ، الى أن مرّ بها رجل وسيم ، فنهضت وذهبت برفقته .

انفجرت هسياو – ين المتزمتة ضاحكة حينما سمعت تاو – شينغ المقتصدة في حديثها تروي لها تلك القصة الغرامية في غيرة وحماسة .

– ولكنك تأخذين مثل هذه الامور مصادفة ، أيتها الفتاة الشريرة! ماذا تفعلين اذا هجرك يونغ – تسي ؟

ضحكت تاو – شينغ ضحكة مختصرة ، وردت : « لست خائفة! فأنا لا أعتمد على الرجال . أستطيع أن أعيش من دونه . وفضلا عن ذلك ... أنت لاتعرفين مقدار حبه لي ! » .

واحمارّت وجنتاها عندما نطقت بهذه الكلمات ، وابتسمت .

أهنفت هسياو – ين ضاحكة : « أتعنين هذا ؟ كيف يمكنني أن أعرف ؟» .

في الحقيقة أن هسياو ــ ين كانت تفكر في عالم تاو ــ شينغ الذكية المغرمة بالكتب . وكانت تعرف أن صديقها واسع الاطلاع وملم بالادب اكثر منها . وفضلا عن ذلك فقد كانت تأسى لها وتسخط على الاسلوب الذي عاملتها عائلتها به . ولذلك كانت على استعداد تام لان تفعل أي شيء يمكن ان يساعدها . ولكنها لم توافق على تهوّر تاو ــ شينغ وعدم حيطتها، على اثارتها العنيفة لعديد من القضايا ووجهات نظرها غير المألوفة، هذه الامور التي كانت هسياو ــ ين ترى أنها لاتليق بفتاة . ومهما يكن الامر ، فقد كانت عاجزة عن ان تهزم تاو ــ شينغ في أي جدال ، وحينما تصل الفتاتان الى اختلاف عرضي في الرأي ، فقد كانت هسياو ــ ين تستسلم على الدوام وهي تضحك .

تناولت هسياو ــ ين من جديد نظارتها ومسحت الدموع عنها : « حسنا ، يا تاو ــ شينغ ، أتمنى لك كل سعادة من صميم قلبي !» .

غلبت العواطف تاو ــ شينغ أيضا ، فأخذت يد هسياو ــ ين وابتسمت وقالت في شجاعة : « لايقلقنك أمري ، يا هسياو ــ ين !سوف لن استسلم للشرّ ــ ليس في الفترة التي أحاول فيها أن أستحق صديقة مثلك ! » . . .

اتخذت تاو ــ شينغ ويونغ ــ تسي لنفسيهما منزلا مشتركا هو عبارة عن غرفتين صغيرتين نظيفتين في فندق أقيم حول ساحة . وزخرفت قمة مكتبتهما بإناء قديم من البورسلين ، وزخرفت المنضدة بباقة من نبات الخنشار موضوعة في قدر . وعلى أحد الجدران علقت صورة لتولستوي في شيخوخته ، وعلى جدار آخر صورة صغيرة لهما وهما يُريقان ابتسامتهما على كل من يتطلع اليهما من خلال اطار جميل . وبكلمة مختصرة هيئت الغرفتان الصغيرتان المؤثثتان على الطراز القديم لتبدوان دافئتين محببتين بسيطتين لكن جذابتين توحيان ، على شكل ما ، بإطلالة الربيع .

كان يونغ ــ تسي رجلا سعيدا . هنأ نفسه على حظه السعيد بحصوله على مثل تلك الفتاة غير المروضة ، بعثوره على زوجة على مثل هذا الجمال والصبا . كان يحملها بين ذراعيه قبل خروجه كل صباح ، ويرنو في عينيها المحبوبتين ويهمهم : « حبيبتي ! انتظريني ! سأعود سريعا ! »

كان يشعر أنه غارق في الحب حتى أذنيه ، فيروح يحسب فترة غيبته كما لو كان منطلقا في رحلة طويلة .

وكان يرجع ساعة الظهر ، فيحييها معانقا قبل أن يجلس الى المائدة الصغيرة المعدة لتناول الطعام . ويحك فكه راضيا ، ويستفسر مبتسما : « هل الغداء جاهز ؟ ماذا هيأت لنا اليوم ؟ فطائر وبيض مقلي ؟ عظيم ! انني أستمتع بطهوك كثيرا ! حياتنا مثالية ، أليس كذلك ، يا تاو-شينغ ؟

مما لا ريبة فيه أن تاو-شينغ كانت تفيض سعادة هي الاخرى . وكانت ملاطفات يونغ - تسي ومراعاته الدائمة لشعورها ترضي نهمها الى الحب الذي افتقدته منذ طفولتها . وكانت ممتنة أيضا للمنزل المريح الذي أعده لها . كانت تشعر أنها ، على الرغم من صغره وتواضعه ، تفيض أمانا بعد حياتها المضطربة في بيتايهو . وفيما الايام تتوالى راح قلقها يتفاقم ، فتأخذ تخاطب يونغ-تسي في شبه مزاح : « أنت طالب جامعي منهمك في دراسات مفيدة . لكن ، ماهو الاسم الذي تخلعه عليّ ؟ »

فيروح يعزيها : « لا أهمية لذلك . ان كثيرات من زوجات أساتذتنا خريجات جامعيات ، وبعضهن أتممن تحصيلهن في الخارج ، ومع ذلك فهن يلزمن بيوتهن كي يصبحن رفيقات طيبات لازواجهن وامهات طيبات لاولادهن . اذا كنت تجدين أن الحياة مضجرة ، يا تاو-شينغ ، ففي مقدورك مساعدتي في جمع موادي أو القيام ببعض أعمال النسخ . أو ربما تستطيعين تعلم الطهي والخياطة ، فنحن لن نستمر طوال حياتنا كشخصين فقط كما تعلمين » .

ويمسد يدها وهو يبتسم ، ويقبلها .

وتسحب تاو-شينغ يدها في رعب : « لماذا تتكلم دائما على هذا الفرار ، يا يونغ-تسي ؟ كانت لك في بيتايهو أفكار على جانب من الاهمية . لكم اعجبت بوجهات نظرك عن الحياة والفن ! لكنك الآن لا تتحدث الا عن الاكل والشرب والاولاد . . . مؤكد أنك تعرف ان الحياة بالنسبة الي تعني أشياء أكثر » .

سألها مبتسما : « ماذا تريدين أن تفعلي اذن ؟ »

- أريد أن أكون مستقلة ! أريد أن أكون حرة !

وسرعان ما بدل يونغ-تسي نغمته : « أنا لا أعارض في هذا ! فلقد

كنت دائما ضد النساء السجينات في مطابخهن. لكن هذه مسألة اجتماعية. ماذا لو لم تستطيعي الحصول على عمل خارج البيت ؟ »

وجاء يوم أعلنت فيه تاو-شينغ في جذل وابتهاج : « لقد وجدت عملا! »

بدا يونغ - تسي كالمصعوق ، فاستفسر : « ماذا ؟ وجدت عملا؟ »

واسترد رباطة جأشه ، وتابع سؤاله : « من وجده لك ؟ »

أخبرته تاو-شينغ أن والد أحد زملائها القدامى ، لي يو-مي ، يدير مكتبة بالقرب من القوس الغربي ، وهو في حاجة الى كاتب . وقد عرض هذا العمل عليها فقبلته . ولسوف تبدأ العمل في صباح اليوم التالي .

كان يونغ-تسي مكتئب الطلعة ذلك المساء . جلس الى منضدته واضعا رأسه بين يديه عاجزا عن تركيز ذهنه . فرفعت تاو-شينغ ، سعيدة أكثر منها في أي وقت آخر ، رأسها عن كتابها وأطالت النظر الى مزاجه المكتئب . دفعته بيدها ، وسألت : « فيم اكتئابك ، يا يونغ-تسي؟ الا تريدني أن أعمل ؟ ان عملي سيجعل الامور أيسر عليك من الناحية المادية، كما تعلم » .

أمسك يونغ-تسي بيدها ، وصاح في تهور : « أكره أن أراك تذهبين الى العمل ، يا تاو-شينغ ! لسوف أتخرج في غضون سنة واحدة ، وأنا أصرف كل تفكيري الى مستقبلي - أعني الى مستقبلنا . طوال السنوات القليلة الماضية كان هو شيه وعدد آخر من المثقفين يتنادون الى دراسة الثقافة الصينية القديمة ، ولاريبة أن هنالك مستقبلا للباحثين في هذا الموضوع . وتعرفين أنني لم أكن أقرأ كثيرا في الادب النقي مؤخرا ، ولكنني كنت أذهب الى المكتبة للبحث عميقا في هذا الموضوع . وقد اخترت مقرري التعليمي وهذه الفكرة تراودني . ثمة مجالات كثيرة طيبة للاستخدام هذه الايام ، ولكنني لا أتوقع قيام أية صعوبة في العثور على عمل مناسب بعد التخرج ، وسنتدبر أمرنا في سهولة . ولهذا السبب لا أريد أن أرى حبيبتي تنغمس في حياة الهرج والمرج خارج البيت . ما كان ينبغي أن توافقي على العمل كمساعدة في مكتبة صغيرة . أفلا تخشين الاجتماع مصادفة بالمدير هو الذي جاءتك به رابَّتك ؟ »

سحبت تاو-شينغ يدها من يده ، وقد غرق قلبها بين ضلوعها : « أنا لم أصرف شيئا من نقوده ففيم أخافه ؟ »

ولم تلبث أن استتلت صائحة : « أنا عاجزة عن فهمك حقا ،

يا يونغ-تسي ! أنت تنادي باستقلال النساء وحريتهن ، ومع ذلك لا تريدني أن أعمل . بيد أنه يجب أن أشتغل ، يا يونغ-تسي ! أرجوك ألا تقف في وجهي ! »

كان يونغ-تسي يعرفها حق المعرفة ، فاكتفى بأن هز رأسه في حزن، وجنح الى الصمت .

في بكور اليوم التالي خرجت تاو-شينغ والبهجة في جوانحها منطلقة من المدينة الشرقية الى القوس الغربي للبدء بمهام عملها الجديد . سارت الامور على خير ما يرام في اليوم الاول ، فلم يكن العمل عسيرا ، كما أتيح لها الوقت لقراءة كثير من الكتب الجديدة . وحمل لها اليومان الثاني والثالث شيئا من الازعاج، وفي اليوم الرابع شعرت أنها لا تستطيع الاحتمال أكثر مما احتملت . وفي اليوم السادس قدمت استقالتها . واليكم ماحدث .

جاءها في اليوم الثاني بعض المتسكعين والمشاكسين . دخلوا الى المكتبة وأثاروا ضجة صاخبة دون ان يشتروا كتابا واحدا . ان قدوم فتاة جميلة قد أثار فضولهم السوقي ، فراحوا يحومون حول المكتبة مثل الغربان . وفي اليوم السادس وجدت هذه الابيات معلقة على باب المكتبة :

مكتبة جميلة صارت هنا
فيها فتاة حلوة مثل العنب
بقبلة أو نظرة منها لنا
سنشتري ... سنشتري كل الكتب

ارتجفت تاو-شينغ غضبا ، وأخبرت بالامر فورا . لم يدفعوا لها أجرا لقاء الايام القليلة التي ابتلعت خلالها عددا من الاهانات . جعلتها هذه التجربة تشعر بالحزن طوال ايام معدودات ، وبدأت تيأس من امكانية العثور على عمل . واغتبط يونغ-تسي من دون ريب وهو يفكر في أنه فاز بانتصار آخر .

علمت تاو-شينغ خلال الايام الفارغة الطويلة أن رفيقة مدرستها القديمة ، شين وي-جو ، سعيدة بزواجها فعزمت ذات صباح كانت فيه صافية المزاج على زيارتها . وصعقها أنها وجدت صديقتها وقد صففت شعرها على آخر موضة وأكثرت من المساحيق على وجهها . كانت تلك التلميذة البسيطة قد غدت سيدة عصرية بعدما ارتدت ثوبا حريريا وردي اللون وانتعلت خفين من الساتان المطرز .

تساءلت تاو-شينغ ، وقد جلست على الاريكة ينهشها الضيق: « لماذا تبدلت على هذا الشكل المضحك ؟ »

كانت وي-جو سعيدة برؤيتها . أمسكت بيد صديقتها القديمة ، ونادت بصوت متكلف ناحية احدى الغرف الداخلية : « يا مربية ، هاتي قليلا من الشاي ! لقد جاءتني ضيفة عزيزة ! »

كتمت تاو-شينغ مشاعرها الحقيقية ، وأجالت بصرها في الغرفة المؤثثة بشكل يلفت الانظار ، وسألت وي-جو ماذا كانت تفعل خلال السنة الاخيرة .

لمست وي-جو شفتيها بمنديل شفاف ، وتبسمت راضية عن نفسها : « سأقول لك ، يا عزيزتي ! بعد افتراقنا لم أتقدم لأي من امتحانات القبول الى أية جامعة . عرّفني ابن عمي على السيد يان ، وسرعان ما تزوجنا . زوجي خريج من جامعة نانكاي ، وهو مساعد مدير مصرف ين يه التجاري . وأحوالنا على خير ما يرام . وقد اشترى هذا المكان في العام المنصرم بحيث نستطيع ان نؤثث فيه عشنا - انظري ، ان الاثاث وحده قد تكلف اكثر من ألفي يواناً . انه من معدن طيب ، يا عزيزتي ، ولا يشبه معظم الرجال الذين ما ان يجمعوا شيئا من المال حتى ينفقوه على فتيات المراقص . وهو يأتي من عمله الى البيت مباشرة . وفي الشهر الماضي أنجبت طفلا صغيرا ريّان . وقد أسميناه بيي - بيي . انه لطيف، ووالده مشغوف به حبا . »

كانت تتكلم بحيوية ومرح ، وهي تصفف شعرها بين حين وحين ، ثم هبت على قدميها ، ونادت : « يا مربية ! احملي بيي - بيي الى هنا ! أريد أن تراه ضيفتنا ! »

وجلست في انتظار وصول الطفل ، ونظرت الى تاو-شينغ وسألت في جزع : « يا عزيزتي ، ألا تزالين غريبة الأطوار كعهدي بك ؟ بطلعتك البهية تستطيعين العثور على رجل أفضل من زوجي » .

ورفعت منديلها الى شفتيها المدهونتين بمسحوق التجميل ، وتابعت تقول : « أخبرني أحدهم انك تعيشين مع طالب جامعي . أصحيح هذا ؟ »

أومأت تاو-شينغ برأسها دون أن تعطيها جوابا .

فقطبت ملامحها في اشمئزاز ، وقوست حاجبيها الاسودين الاهيفين: « أوه ، لكن لماذا ؟ أنا لا أفهم ... عندما كنا في المدرسة لم أكن ممتازة

في دروسـي مثلـك ، أما الآن ... لمـاذا ، لمـاذا لا تفكرين ... ان والد بيي - بيي ... »

فقطعت عليها تاو-شينغ حديثها المتفكك ، قائلة: «كيف، لكم تبدلت، يا وي-جو ! »

ومن حيث كانت تجلس على الاريكة نظرت في أسى الى جفني صديقتها المقوسين وقالت : « أتذكرين يوم كنا نسير الى جانب ذلك الجدول الصغير القريب من المدرسة كيف أصدرنا حكمنا على هذا المجتمع الاسود الشرير واقسمنا أن نكون صادقتين مع نفسينا مهما أصابنا ؟ يوم رفضت رابتي أن تمنحني مالا للبقاء في المدرسة لانها أرادت أن تزوجني من رجل ثري كان انزعاجك كبيرا وشجعتيني ألا أستسلم . مؤكد أنك تذكرين ذلك كله؟ ففيم تسألينني الآن أن أتزوج رجلا ثريا ؟ أيمكن أن أحب رجلا لأنه يملك كثيرا من المال فحسب ؟ »

كانت وي-جو تتناول طفلها من المربية في هذه الاثناء ، فأعادته الى ذراعي تلك المرأة قائلة : « أعيدي بيي - بيي الى غرفته ! »

وتوردت وجنتاها ، وهي تلتفت وتحدق مشـدوهة في تاو-شينغ ، وتنبر في حـدة : « ماذا أصابك ؟ لا تسـيئي فهمي ، ارجوك ! انني لا استحثك على الزواج من رجل ثري . انت حرة في أن تفعلي ما يروق لك » .

ونظرت الى الارض ، وصعّدت تنهيدة : « في المدرسة كانت لنـا أحلام صبيانية ، وتصوري الآن انك لازلت تنظرين الى تلك الاحلام نظرة جدية ! ينبغي على المرء أن يكون عمليا ... »

توقفت عن الكلام حينما رأت تاو-شينغ تقف على قدميها . وقـد انهت هذه المناوشة غير السعيدة الصداقة التي كانت تربط بينهما .



١٠

كان الوقت شتاء . في صباح يوم أحدمثلج قبل مطلع السنة القمرية بفترة قصيرة رجع يونغ-تسي الى البيت وهو يحمل رزما كثيرة - بطة مشوية طرية ، وخنزير مطبوخ من أفضل محلات متعهدي تقديم الاطعمةفي بيبينغ ، وأقراص حلوى ومعجنات وزجاجة من البراندي . فسألته تاو-شينغ بفضول ، وهي تتناول منه هذه الاشياء : « فيم اشتريت هذه الاشياء الثمينة في هذا النهار ؟ »

قبلها في وجنتها في حنو ، وقال لها في مرح : « لقد دعوت شخصا مهما على الغداء . هيا ، فلنرتب الغرفة ونهيىء المائدة » .

- من يكون هذا الشخص المهم ؟ أنا لا اقيم هنا في انتظار أي شخص مهم ؟

ومطت شفتيها استياء ، ورفضت أن تأتي حركة .

رفع يدها الى وجهه ، وقال : « تحسسي وجهي . انه أشبهبالجليد لانني كنت أشتري هذه الاشياء في البرد القارس ، ورغم ذلك فأنت لا تستقبلينني بكلمة لطيفة . تعالي ادفئيني ! » .

وتبسمت تاو-شينغ وسحبت يدها : « قل لي من سيزورنا ! »

فأغاظها قائلا : « سرعان ما ستعرفين . ان في مقدوره ان يؤدي لنا خدمةعظيمة. ينبغيأن تكونيمضيفة مثالية وأنتحسني استقباله... هل نضع هذه الأشياء في صحون ؟ تستطيعين تسخين هذه اللفائف في المبخرة فيما بعد . كلا ، انتظري ! هاتي هذين القدحين من عهد سلالة سونغ أولا . هذه مناسبة نستخدم فيها أفضل ما لدينا من بورسلين وأقدمه » .

كانا قد رتبا غرفتهما وهيئا مائدتهما حينما صاح صوت من الخارج مستفسرا : « هل يقيم المعلم الشاب يو من قرية يانفشوانغ هنا ؟ »

أسرعت تاو-شينغ تفتح الباب . في الخارج كان يقف رجل شيخ

صغير البنية ، رث الثياب ، نفض الثلج والغبار عن ثيابه وهو يتهدج قائلا : « أرجوك . . . هل يقيم المعلم الشاب يو في هذا البيت ؟ »

ـ تفضل !

وقبل أن يتاح لها أن تدخل الرجل الشيخ كان يونغ ـ تسي قد انضم اليهما وهو يستوضح : « من تريد ؟ »

وحينما وقعت عينا الشيخ على يونغ ـ تسي هرول صوبه مغتبطا وقد تخايلت ابتسامة على وجهه المغضّن : «آه ، أيها المعلم الشاب، أنت تعيش هنا ! لقد أمضيت زمنا عصيبا أبحث فيه عنك » .

ودلف داخلا دون أن ينتظر أية دعوة . كان يحمل على كتفه كيسا بجيبين من تلك الاكياس التي يستخدمها الفلاحون في شمالي الصين عندما يذهبون الى السوق .

رفع يونغ ـ تسي يده معترضا طريق الشيخ : « من أنت ؟ »

ـ أنا ؟ كيف ؟ أنا العم الثالث وي الذي يعيش قبالة بيتك . ألا تذكرني ؟

اغتم وجه الشيخ النحيل المغضّن ، وراح يحملق في يونغ ـ تسي في انشداه . وبدا أن يونغ ـ تسي تذكر ذلك العجوز ، فقال : « اوه هذا أنت ، وي الثالث ! » .

أشار اليه بالدخول ، وهو يخاطب تاو ـ شينغ موضحا : « انه أحد المستأجرين القدامى عندنا » .

ولما كان الرجل العجوز متعبا لاهثا فقد خطر لتاو ـ شينغ انه يشعر بالبرد والجوع ، فركضت وحملت اليه مقعدا بدون ظهر وأجلسته جانب النار .

سألته : « هل تناولت شيئا من الطعام ؟ يجب أن تشاركنا . . . »

وقبل أن تكمل جملتها بقولها « طعامنا » رماها يونغ ـ تسي بنظرة سريعة . فتذكرت الاطعمة الشهية الموضوعة على المائدة والزائر الهام الذي يتوقع وصوله بين لحظة وأخرى ، فأومأت برأسها وخرجت تشتري بعض الكعك الذي دسته بين يدي الفلاح واستحثته على الاكل .

ـ انت طيبة طيبة . لا تتعبي نفسك . . .

قَبِلَ ماقدمت له من طعام في كياسة أهل الريف الخشنين ، وشرع يأكل . دلف يونغ ـ تسي عبر ستارة القماش المتخذة بابا الى غرفة داخلية،

فيما بقيت تاو ـ شينغ برفقة الشيخ . التهم الشيخ طعامه في نهم ، وسرعان ما أتى على الكعك وأخرج كيس تبغه وغليونه . أشعل الغليون وتطلع ممتننا بعينيه الضيقتين الى تاو ـ شينغ ، وقال مبتسما : « أنت الآنسة لين التي كانت تعلم في قريتنا ، أليس كذلك ؟ » .

ـ أجل ، يا عماه . أنت لا تزال تذكرني ؟

ـ أعتقد ذلك ! ان حفيدي الاكبر بوبي كان واحدا من تلاميذك . حينما كان يعود الى البيت من المدرسة فقد كان يحدثنا دائما عن مقدار طيبة معلمته الآنسة لين . كان يقول أن الانسة لين تريده أن يقاتل اليابانيين .

بتر يونغ ـ تسي حديث الشيخ حينما جاء يحمل بعض الكتب ، وهو يسأل : « أيها العم وي ، فيم جئت لرؤيتي ؟ أخبرني بسرعة . يجب أن أذهب الآن الى محاضرة » .

بغت الرجل الشيخ بحيث راح الغليون يرتعش في يده . نفض رماد غليونه في بطء ، وهو يبذل جهدا كبيرا لضبط نفسه ، ووضع الغليون وكيس التبغ في جيبه ، ولكنه لم يرد على السؤال فورا .

شرع يقول بعد قليل : « أيها المعلم يو ، انت رجل مثقف ، ولسوف تفهم ... انني أعمل في زراعة تلك الارض الكائنة في الوادي والتي هي ملك لأسرتك ، ولكن مياه الفيضان ظلت تغمرها ثلاث سنوات على التوالي . لست أملك شيئا من الحبوب ، وقد ماتت زوجتي من الجوع . وأرغم الجوع ولدي ، صديقك يو ـ فو ، على الانضمام الى الجيش . ولم يبق في البيت غير حفيدي بوبي وامه ـ ووجب علي أن أصم قلبي وأبيع يو ـ لاي شقيقة يو ـ فو . ونحن لانعرف مكانها الآن » .

بدا أن رواية متاعب الرجل الشيخ ستكون طويلة ، فضرب يونغ ـ تسي على المنضدة ، وبتر له حديثه مرة أخرى : « أخبرني ، أيها العم وي ، ماذا جاء بك الى هنا . اذا لم يكن الامر مستعجلا ففي مقدورك البقاء الى ما بعد عودتي ، اذ انه يجب علي أن أذهب الآن » .

ـ لاتذهب ، ياسيدي ! ابق لحظة فحسب ! لن أعيقك طويلا .

نهض الرجل الشيخ بصورة مفاجئة ، وخطا الى الامام كمن يود الامساك بيونغ ـ تسي ، وبكى بصورة تقطع نياط القلب : « ان المساكين

أمثالنا لا يستطيعون الحياة في هذه الايام . وقد عجزت عن دفع الاجور طوال عامين ... ووالدك يتوعدني ... »

وهز رأسه وتنهد . وسرعان ما راح يبحث في جيوبه ، ثم أخرج بعد فترة مغلفا متجعدا . رفعه عاليا ، ثم قدمه الى يونغ-تسي بيدين مرتعشتين : « انظر ! هذه رسالة من صديقك يو - فو في الجيش . لكم فجرت السعادة في قلوبنا ! أخبرنا أنه يعسكر في شانفسينتيين في ضواحي بيبينغ ، وجئت الى هنا لرؤيته » .

ابتسم يونغ-تسي من حماقة الشيخ ، وقال : «ومافائدة ذلك ؟»

- أنت على حق ، ياسيدي . لا فائدة من ذلك . لقد قطعت عدة مئات من « اللي » وأمضيت فترة عصيبة استدنت خلالها أربعة يوانات أجرة ركوب القطار . ولكني حينما وصلت الى هنا كان هو قد رحل . لقد نقلوا وحدته ولست أدري الى أين ... كنا نأمل جميعا في البيت أن نعثر عليه وان نجعله يمدنا بالمساعدة . فاذا تمكن من أن يدفع الاجور لوالدك فان ذلك يكون أفضل أيضا . ولكن السماء عمياء ، السماء عمياء ! ونحن لا نعرف الى أين أرسلوه ! في أوقات عصيبة مثل أوقاتنا قد ينفجر القتال في أية لحظة . رصاصة واحدة ، ويكون ولدي المسكين ... »

تهاوى على المقعد الصغير ، وهو يزدرد ريقه بصعوبة . أشفقت تاو-شينغ عليه ، وحينما راح الشيخ يمسح عينيه بظهر يده الوسخة أسرعت تحمل اليه منشفة ، غير أن يونغ-تسي اختطفها منها قبل أن تناوله اياها وهو يبتسم ابتسامة ساخرة ويلتفت الى الرجل الشيخ .

- افرح ، أيها العم وي ! تقول انك لا تملك مالاً تدفع منه أجرة بيتك ؟ لا تبال ، سأعطيك يوانا واحدا لقاء ذلك وتستطيع أن تقترض الرصيد من أناس آخرين ، لكنه يجب أن تعود الى بيتك في أقرب وقت ممكن .

وتناول يونغ-تسي ورقة من فئة يوان واحد من جيبه ووضعها على المنضدة الى جانب الشيخ ، وهو يبتسم في وجه تاو-شينغ كمن يقول : « انظري مقدار ما أنا عليه من كرم ! » .

أضاء وجه الشيخ وي في بداية حديث يونغ-تسي ، ولكنه سرعان ماسرت فيه رعشة من ألم وهو يرى أنه طرد من البيت بيوان واحد فحسب.

تطلع بثبات الى يونغ ـ تسي برهة ، واستدار ناحية تاو ـ شينغ التي تقف قريبا منــه .

ترجّى قائلا ، وشفتاه ترتعشان : « أيها المعلم يو ، افعل عملا طيباً ! ان عائلتي تموت من الجوع واحدا بعد الآخر . يوان واحد ـ كيف ، يوان واحد لا يكفي لعودتي الى البيت ! انا اعرف انك رجل شفوق ، ياسيدي . عندما كنت صغيراً أعطيت يو ـ فو خبزاً أبيض مبخراً ... »

وامتلأت عينــاه المقرّحتان بالعبرات : « أعطني تسعة يوانات أو عشرة ، ياسيدي ، فتنقذ بها حياتنا ! لاترجعني خاوي الوفاض الــى بوبي وأمــه ! » .

وانهمرت العبرات من عيني الشيخ ، غير أن يونغ ـ تسي الذي كان يبدو في عيني تاو ـ شينغ على الدوام تجسيدا للشفقة أجاب في برودة وخشونة : « أيهــا العم وي ، اذا لم تدفعوا أنتم المستأجرون الاجور ، فكيف يستطيع والدي أن يرسل لي نقودا ؟ انا طالب ، وانا لا احصل علي أي راتب . ان يوانا واحدا هو أكثر مما أستطيع أن أدفع » .

ونظر نظرة مختلسة ناحية تاو ـ شينغ ، ولكنها كانت قد تركت الغرفة . وقبل ان يتمكن من النطق بكلمة أخرى هب الرجل الشيخ على قدميه وهو يرتجف ، ورمى كيسه على كتفه وكأنه يزن نصف طن . اتجــه ناحية الباب مترنحاً ، وهو يغمغم : « حسناً . حسناً . حينما يكون المرء في ورطة تسير الامور معه على هذا الفرار دائما » .

أعاد يونغ ـ تسي ورقة اليوان المتروكة على المنضدة الى جيبه ، ولم يكلف نفسه عناء مرافقة زائره الى الباب .

ـ رويدك لحظة ، ياعماه !

أوقفت تاو ـ شينغ الرجل الشيخ عند البوابة ، ودست في يده ورقة نقدية : « اليك ورقة من فئة العشرة يوان ، يا عماه ! أعرف أنها لا تكفي ، ولكن ... »

وترددت ، ورمت بصرها ناحيــة غرفتهما ، وأضافت : « أتعرف طريقك الى المحطــة ؟ أحرص على النقود ! فقد يكون هنالك لصوص في القطار ! » .

انهمرت عبرات الشيخ مدرارة مرة اخرى وهو يبحث يائسا في

ثيابه عن مكان أمين يخبيء به الورقة النقدية . وتمتم أخيرا : « هنالك قلوب في كل مكان ! قلوب شفوقة ... كوني مباركة . كوني مباركة ! ان عائلتي لن تعرف كيف تجزيك الشكر ! » .

همر هذا المشهد العبرات في عيني تاو_شينغ أيضا ، وهو يذكرها فجأة بجدها الابيض الشعر ، والد أمها ، والصعوبات التي عاشها . الناس المساكين ، المستأجرون الفلاحون المساكين _ أفليست هنالك نهاية للشقاء في هذا العالم ؟ ... وقفت مثقلة الفؤاد بجانب البوابة فيما الشيخ يعرج على مهلته مبتعدا وهو يلتفت ناحيتها مع كل خطوة يخطوها . ولما غاب عن بصرها رجعت الى غرفتهما فرأت يونغ _ تسي غاضباً .

سألها متهما ، وقد تقطب حاجباه في عبوس : « هل أعطيت الشيخ نقودا ؟ » .

نظرت اليه تاو_شينغ في جرأة ، وأومأت قائلة : « أجل » .

_ كم أعطيتيه ؟

_ عشرة يوانات .

_ تلعبين دور السيدة السخية بأموالي ، أليس كذلك ؟ ماذا تقصدين من ذلك ؟ »

انها المرة الاولى التي يحدثها فيها بخشونة ، فلم تصدق تاو_شينغ أذنيها . وثبت على قدميها ووقفت قبالته بعينين ملتهبتين : « ماذا ! لم تكن تتحدث الا عن الآنسانية والحق ، ومع ذلك فأنت تعامل ذلك الرجل المسكين على هذا الفرار ! لايقلقنك مالك _ سوف أدفعه لك ! »

ورمت نفسها على السرير وغطت رأسها باللحاف وانخرطت تبكي كمن تصدع فؤاده .عجزت عن حبس دموعها ، وهي تشعر بالبؤس والتحرر من الوهم . أهذا هو الرجل الذي احبته الحب كله ؟

وعندما عرف يونغ_تسي مبلغ استيائها العميق نسي انزعاجه ولفها بذراعيه ورجاها الصفح . وفي أقل من لحظة واحدة استعاد عاطفته ورقته مرة أخرى .

ترجَّى قائلا : « اصفحي عني ، يا حبيبتي ! كنت مخطئا . كنت أفكر في ميزانيتنا . أنا لست أنانيا حقا وفعلا . لهذا السبب جاء الرجل الشيخ اليَّ يبغي قرضاً . انه يعرف أني لست مثل والدي ... »

واسترسل بعد لحظة : « أرجوك الا تغضبي ، يا تاو_شينغ . ماكنت

أبالي أن اعطيه الخمسين يوانا التي تلقيتها من البيت لتوي ، ان لم نقل عشرة يوانات ، كيما أجعلك سعيدة » .

لم تكن تاو-شينغ تعيره انتباها ، الا أن ملامحها استلانت وتوقفت عبراتها . أنهضها على قدميها ، ومسد شعرها ، وداعب وجنتيها الملتهبتين بالعبرات المختلطة بمساحيق التجميل .

تفاخر قائلا : « أنا لا أعتقد ان شانغ شانغ ، هذا الذي دهن حاجبي زوجته بالمساحيق ، كان زوجا أكثر مني حنانا . كفي عن التقطيب ، وسأروي لك قصة مسلية . عندما كنت طفلا بَعْدُ كنت صديقا ليو - فو ابن الشيخ وي . وكانت أسرتانا تعيشان قبالة بعضيهما ، وغالبا ماكنا نذهب الى البحيرات القريبة نطرطش الماء ونلهو . جئت الى هذه الدنيا ولوالدي من العمر أكثر من خمسين عاما ، فحاول أهلي تدليلي . لم تكن السباحة مسموحة ، غير أنني كنت أمارسها خلسة . واذا جاء من يفتقدني ، فقد كان يو - فو والصبية الآخرون يلتفون حولي في الماء ويخفونني عن النظر . وكنت أحيانا آخذ بعض الاطعمة المبخرة من مطبخنا واعطيها الى أصدقائي . وذات يوم عندما كان الطاهي يطهو خبزة طازجة اختطفت كمية من النافذة من وراء ظهره ، ودسستها في كيس وركضت ، وعندما استدار ورأى أن الخبز قد طار دخل في رأسه أن ثعلبا جنيا لابد كان في المطهى ! اليست هذه نكتة ؟ »

أجابت تاو-شينغ في برودة : « نكتة عظيمة . لماذا لم تكن اريحيا في هذا النهار ؟ لم لم تقتسم هذه الاشياء مع الرجل الشيخ ؟ »

فرد عليها في اعتداد : « من قال اني لست أريحيا ؟ حينما يموت أبي واغدو رأس الاسرة ، فلسوف أفعل مثل ما فعل تولستوي - أعطي أرضي بكاملها الى الفلاحين » .

فعطست تاو-شينغ وضيقت فرجة عينيها : « تعطي ؟ بعدما مصصت دماء الفلاحين طوال هذه السنوات ستصير على حين فجأة محسنا لهم على ما اعتقد! »

لم ينبس يونغ-تسي بحرف . كان فكره مشغولاً بالزائر « الهام » فلم يسمع ما قالت .

وصل زائرهما بعد هدوء تلك العاصفة . كان قوي البنية ، راسخ الاركان ، يلبس بنطالاً فضفاضا وحذاء رياضيا ، ويلوح مثل أحد

الرياضيين . وكانت عيناه العريضتان تبدوان على شيء كثير من الدهاء. قدمه يونغ ـ تسي بحرارة الى تاو ـ شينغ : « هذا هو لو تا ـ فانغ ، طالب صديق في قسم التاريخ ... وهذه هي تاو ـ شينغ ، حبيبة قلبي » .

مد لو تا ـ فانغ لها يدا كبيرة ، وهز يدها بحرارة ، وابتسم : « تشرفت بمعرفتك . أفلست تدرسين الآن أو تعملين ؟ »

وعلى الرغم من أن تاو ـ شينغ احمرت خجلا ، ولكنها أحبت أسلوب لو تا ـ فانغ الصريح واهتمامه بالآخرين منذ اللقاء الاول . كان يتصرف تصرف صديق أكثر منه تصرف « شخص ذي اهميـة » . ابتسمت ، وأسرعت تصب له الشاي وتهيىء الطعام الفاخر ، مرهفة سمعها في الوقت ذاته الى حديث الرجلين .

ـ حسنا ، أيها العجوز يو ، أفهم أنك بدأت تعمل في البحوث المتعلقة بالنصوص .

ـ أجل . في قسم الادب الصيني يجب علينا ان ننقب في الكتب القديمة . وأنا أجد هذا العمل باعثا على الاهتمام الى حد بعيد . وماذا عنك أنت ؟ أما برحت مشغولا بحركة الانقاذ الوطنية ؟

أجاب لو تا ـ فانغ باقتضاب ، متجنبا الخوض في هذا الموضوع لمتابعة الحديث الذي بدأه : « كلا . أنتم الباحثون في أعماق الماضي تنجزون عملا نافعا عندما تقدمون لنا معرفة أفضل بثقافتنا القديمة . وهذا اسهام على جانب من الاهمية بالنسبة الى المثقفين ، لكن حذار أن تترك نفسك تنقاد انقيادا أعمى وراء حديث الدكتور هو شيه عن « انقاذ البـلاد بالدراسة » . هذا سيكون ... »

دار بعينيه الكبيرتين الداهيتين في ارجاء الغرفة ، وطوح رأسه الى الوراء ، وانثال يضحك ضحكة من أعماق القلب: « اليكما ، أيها الصديقان! اسمحي لي أن أتلو عليكما مقطعا من رائعة الدكتور هو » .

قال يونغ ـ تسي ، وهو يبتسم ابتسامة غير طبيعية : « ها، ها! رويدك قليلا ، فلسوف أطرح عليك سؤالا . أفليس والدك من أصدقاء هو شيه الحميمين ؟ أخبرني ، ما هي العلاقات بينهما الآن ؟ ... أقصد أن أقول هل كان هو شيه مشغولا كثيرا في الآونة الأخيرة ؟ »

ـ تريد ان تعرف أمور والدي وهو شيه ؟ انهما من طينة واحدة .

وهما يدرسان معا درائعية(١) الدكتور ديوي كيما يبيعانها للشعب الصيني. حينما نريد أن نسلم أنه « حيثما يوجد الحليب توجد الام » سيكون سهلا على الامبرياليين وسادة الاقطاع استرقاق الصين . ما قولك ، أيها العجوز يو ؟ فيم هذا الاهتمام بهو شيه ؟ »

كان يبدو أن تدفاق الكلام من بين شفتي لو لن يعوقه شيء .

ابتسم يونغ-تسي ابتسامة مرحبة ، ودعا صديقه الى الجلوس : « سأخبرك عن ذلك فيما بعد . فلنتناول شيئا من الطعام اولا » .

جلس لو تا-فانغ الى مائدة مستديرة صغيرة نشر فوقها غطاء أبيض كالثلج ، وقال في انشداه : « يا لهذه المائدة ! ما كان ينبغي أن تشتري كل هذا الطعام والشراب ، أيها العجوز يو ! »

- نحن صديقا مدرسة قديمان ، ويغبطني أن أكرم وفادتك .

وعاد يونغ-تسي يكمل الحديث من حيث انتهيا : « لقد سألتني عن السبب في اهتمامي بهو شيه ، كنت أقرأ مؤلفات وانغ كيو-جي ولو شين -يو ، ووصلت الى بعض القضايا التي حيرتني وأدهشتني . وخطر لي أن أمر بهو شيه وأستشيره فيها . وعلى الرغم من أنه أخطأ بشكل واضح في عدة نقاط ووصل الى ما يستأهل عليه نقدا مريرا ، بقدر ما أستطيع أنا أن أحكم على ذلك ، فهو لا يبرح واحدا من أشهر مثقفينا الصينيين المعاصرين . ونحن نستطيع أن نتعلم كثيرا من أساليبه في البحث العلمي ، مثلما نستطيع أن نستقي أشياء كثيرة من معرفته . ولذلك أود أن اعرف رأيه حول هذه الامور . وطالما أنه استاذ مشهور وأنا طالب فقير ، فانني أتردد في الذهاب اليه مباشرة . وباعتبار انه صديق حميم لوالدك ، فقد تساءلت . . . »

ووضع قطعة ريانة من البطة في صحن الضيف ، وهو يبتسم ابتسامة مداهنة .

انفجرت في الغرفة ضحكة لو تا- فانغ المُعدية مرة أخرى . هز رأسه بعنف ، وأجاب وفمه مملوء بالطعام : « هنالك عديد من الاساتذة واسعي المعرفة والاطلاع . ففيم اخترت هو شيه ؟ اقبل نصيحتي وابتعد

---

(١) فلسفة اميركية تتخذمن النتائج العملية مقياسا لتحديد قيمة الفكرات الفلسفية وصدقها.

عنه ! سوف أقدمك الى بعض المثقفين الاخرين اذا شئت ، لكن ليس الى الدكتور هو شيه ! » .

التفت يونغ-تسي ناحية تاو - شينغ ، وهو يبذل جهده في اخفاء خيبة امله وانزعاجه ، وقال : « تعالي اجلسي معنا ! »

ثم سأل لو تا - فانغ مبتسما : « الا قل لي ، أيها العجوز لو ، ماذا حل بممثلي الطلاب الآخرين الذين انطلقوا جنوبا برفقتك للقيام بمظاهرة كبرى؟ ولماذا لانسمع شيئا عن نشاطاتك هذه الايام؟ أين هو لي مونغ-يو؟ لقد ولد قائدا ، ذلك الشاب » .

اجاب لو تا - فانغ ، وهو يضع قدح شرابه : « من دون ريب . اذا كنت قد دفنت نفسك بين الكتب القديمة فسوف لن تسمع أية أنباء عن العالم الخارجي » .

ونهض عن مقعده وراح يدور في الغرفة محاولا أن يكوّن رأيا عن مضيفيه من محتوياتها ، وأجاب عن غير قصد : « بعدما أعيد طلابنا المتظاهرون الى بيبينغ مكبلين من أيديهم وأقدامهم بحركة السابع عشر من كانون الاول ، بدأت سلطات الكيومنتانغ مجزرتها بطلاب نانكينغ - لابدّ وأنك سمعت شيئا عن هذا . منذ أن رفعت الكيومنتانغ القناع عن وجهها ، شرعت باتخاذ خطوات قمعية وحشية اضطرت معها حركتنا الانقاذية الوطنية الى الاستكانة الى الهدوء فترة من الوقت . وحينما رجع لي مينغ - يو من قيادة تلك الحملة لاحقته الشرطة العسكرية في كل مكان فاضطر الى الاختفاء » .

توقف عن الكلام لينظر الى يونغ - تسي بعينين صافيتين تتهمانه قليلا . ثم سقطت نظراته على تاو - شينغ ، وتابع يقول في كثير من الارباك : « كلاكما فتيّ بعد ، أيها العجوز يو - فابديا شيئا من القتال! اشتركا في أي عمل جماعي تقدران عليه ! ألم تتقدوا حماسة بما فيه الكفاية هنا في بيبينغ حينما انطلقنا نحن صوب الجنوب للقيام بمظاهرة ؟ »

اجاب يونغ - تسي : « بلى ، كنت كذلك . وانا لا أزال كذلك . ولكنني لا أؤمن أن الهتاف بالشعارات والتلويح بالايدي يكفي وحده . اني أختار طريقي الخاصة لانقاذ البلاد . هيا ، أيها العجوز يو ، وخذ شيئا آخر » .

استحث ضيفه على تناول مزيد من الطعام مثلما يفعل المضيفون المهذبون .

وشاركت تاو ـ شينغ في الحديث وهي تضحك قليلا : « طريقك هي أن تبدل الكتب العصرية الجديدة بكتب صينية قديمة ، أن تبدل بزة الطالب بثوب طويل » .

مما يدعو الى الغرابة حقا هو أن عواطفها كانت الى جانب لو تا ـ فانغ رغم أنها تراه للمرة الاولى . كان يذكّرها بشكل غريب بلو شيا ـ شوان الذي التقت به في بيتايهو .

كان يونغ ـ تسي قد ارتدى في السابق بزة الطلاب ، ولكنه فضّل أن يرتدي « طرازا وطنيا » من الثياب منذ بدأ يبدي اهتمامه بالكتب القديمة . وفي أيام الصيف كان يلبس ثوبا حريريا أو ثوبا مكسوا بالقطن وخفا نعله مصنوع من قماش سميك . وفي ايام الشتاء يلبس ثوبا حريريا مبطنا تحت ثوب أزرق بسيط ، وقبعة سميكة عريضة الحواف ، وحذاء يشبه القارب من تلك الاحذية التي يلبسها الشيوخ عادة . وكانت تاو ـ شينغ تكره هذه الثياب التي تخلع عليه سمات الشيوخ مُبكرا ، الا أنه يصرّ على ارتدائها ، مؤمنا أنها تجعله يبدو وطنيا . وكان من رأيه أن دراسة الآثار الكلاسيكية والاخلاص للعادات الوطنية انما هي تعبير مادي ملموس عن حبه لبلده . وكانت مثل هذه النظريات التي كانت تتردد كثيرا في أحاديثه تفسح في المجال لتاو ـ شينغ أن تتكلم وفق هواها .

حذّر يونغ ـ تسي لوتا ـ فانغ مبتسما : « لاتصدقها ! لقد خابت آمالها لانها عجزت عن العثور على عمل فراحت تجدّ في البحث عن أخطائي . ويجب أن اعترف ان هذا المجتمع يخيّب الآمال . لقد بحثت عن عمل لها في كل مكان فلم اترك بابا الا طرقتُ ، وأنهكت نفسي حتى أشبهت خيالا ، ولكن جهودي ذهبت عبثاً . وهكذا ترتب عليها أن تضيّع وقتها في البيت تغسل وتطبخ لي . أجل ، في هذه الايام « التخرج يعني البطالة » . ولقد بدأت أقلق أنا نفسي خشية من عدم عثوري على عمل بعيد تخرجي . أما أنت فلا تجد عناء ، أيها العجوز لو ـ فان لوالدك نفوذا » .

ـ هذا لايعني شيئا بالنسبة اليّ ! فأنا لا اعتمد على معونة والدي . والحقيقة أننا لأنتوافق في الآراء وكل منا ينطلق في سبيل .

وهبّ لو تا ـ فانغ استعدادا للذهاب : « شكرا لكما . ينبغي أن أذهب » .

لم يأت أي من يونغ – تسي أو تاو–شينغ حركة تدل على محاولة استبقائه ، فاستدار عند الباب قائلا : « نويت ان اتلو عليكما مقطعا من رائعة الدكتور هوشيه . ائذنا لي أن أفعل ذلك قبل رحيلي .

أنت لاتستطيع احتمال ذلك ؟ أنت لاتحتمل التأثير المثير للعالم الخارجي ؟ جميع زملائك الطلاب يتنادون الى حمل السلاح وانت عاجز عن مقاومة الاغراء بالانضمام اليهم أو احتمال احتقارهم ان لم تفعل ذلك ؟ هل تجلس وحيدا في المكتبة تشعر بالارتباك ؟ هل ذهنك مشوش ؟.. اسمح لي أن أروي قصة او قصتين ...

وقف لو تا – فانغ هنالك بعينين محدقتين ووجه كئيب ، يهزّ رأسه فيما هذا الفيضان من الكلمات يتدفق من بين شفتيه . ولما كان يونغ – تسي يتمخط فقد كان من الصعوبة بمكان أن نحدّد مقدار ماسمع منها . وكانت تاو – شينغ تبذل جهدها لخنق ضحكها . وتوقف لوتا – فانغ بعد لحظات يستعيد انفاسه ، وقال : « وحينما انتهى الدكتور هو من مشاطرته أحزان الشبيبة ، فقد حذا حذو غوته وفيخته ، وراح يستحث الآخرين على أن يفعلوا ما فعلا . وعلى الرغم من أن قوات العدو وصلت الى سور المدينة فينبغي الاستمرار في الدراسة في هدوء ... كلا ، أيها العجوز يو ، لاتسمح لهم باستحماقك ، فان الدراسة وحدها لن تنقذ البلاد » .

هزّ رأسه ، وضحك قليلا ، وخرج . مشت تاو – شينغ مبتسمة الى الباب لوداعه ، بينما رافقه يونغ – تسي الى البوابة الرئيسية وهو يجاهد لكبت أحاسيسه . وحينما رجع الى البيت ألقى بنفسه على السرير واستلقى صامتا يحدّق في السقف .

جلست تاو – شينغ الى المائدة الى أن احست باكتئابه . فمشت ناحيته على مهلة . خطر لها أن يونغ – تسي عابس لان لوتا – فانغ سخر منه ، فقالت : « فيم ازعجتك زيارة لوتا – فانغ ؟ ان نصيحته قيّمة المعنى » .

هزّ يونغ – تسي رأسه من حيث كان يستلقي . قال : « لم يغمّني ذلك . من هو هذا الذي أبالي بما يقول ؟ ان مايغمّني ، كما ترين ، هو حقيقة أني أملك منزلا ، وقد حظيت بك ، ولاريبة أننا سننجب أطفالا .

ما كنت لأبالي بتلك المرأة المصابة باليرقان التي كانت عندي وماتت، ولكنني اخشى عليك انت . لسوف أتخرج في غضون أشهر معدودة ،ورغم ذلك فليس هنالك عمل ينتظرني ، وأسرتي مرغمة على ايقاف معونتها لي فكيف استطيع الاحتفاظ بك؟ » .

تنهّد وثبّت عينين قلقتين مدورتين صغيرتين على تاو ـ شينغ: « لهذا السبب أنفقت خمسة يوانات على الشراب والطعام وطلبت الى لو تا ـ فانغ ان يجيء لنتحدث . أمّلت أن أستطيع الوصول الى هو شيه عن طريق والده ، أو أن يعثر والده على عمل لي . لم يخطر لي أن ذلك الفتى متخم بالنظريات الماركسية الكبيرة . لاتبالي ! فلسوف أجد مخرجا آخر . تعالي اليّ ، يا حبيبتي . تعالي عزّيني ! »

جلس ومدّ لها ذراعيه ، غير ان تاو ـ شينغ نفرت متراجعة وفي عينيها نظرة مجروحة . ان معاملته المختلفة تماما مع زائريه في ذلك النهار قد كشفت عنه حقيقة . فامتلأ قلبها مرارة وخيبة امل .

لقد فقدت نشوات الهوى وأخيلتها العذبة الملونة بألوان قوس قزح كل فتنة لها بصورة تدريجية . وشيئا بعد شيء أخذت هي ويونغ ـ تسي تستيقظان من حلمهما على الواقع المؤلم . نادرا ماكانت تاو ـ شينغ تخطو خارج غرفتيهما الصغيرتين ، وكانت صلتها بيونغ ـ تسي تنفّرها من البحث عن صديقاتها القديمات ـ حتى أنها انجرفت بعيدا عن وانغ هسيو ـ ين . كانت حياتها اليومية عبارة عن القيام بأعمال الغسيل ، والتسويق ، والطهي ، والتنظيف ، والخياطة والمهمات المنزلية الاخرى . وفيما الايام تمرّ صارت تصرف اوقاتا أقل على الدراسة . ان احلامها عن المستقبل ، هذه الاحلام التي كانت مرة بدون حدود مثلها مثل السماء والبحر ، قد بدأت تتلاشى ، وتركتها يائسة مغمومة . وكانت الضربة الاشد التي نزلت على رأسها هي ادراكها أن يونغ ـ تسي لم يكن تلك الشخصية الرائعة التي تصوّرتها في ذهنها . ان صفة الشهامة والشاعرية التي جعلته يبدو في عينيها رفيع المقام متفوقا على جميع أقرانه قد بهتت أخيرا واختفت . وأثبت لها أنه أناني ، سوقي ، ضيق التفكير ، لايصرف اهتمامه الا على تفاهات الحياة .

آه ، الى أية طريق مسدودة دفع بها القدر مرة اخرى ؟

□ □ □

١١

كانت ليلة رأس السنة بحسب التقويم القديم .

من خلال النافذة المزودة بشعرية والمغطاة بالورق في احدى غرف منزل على غرار منازل بكين مستخدم كفندق لعدد من طلاب جامعة بكين تدف" غمغمة من الاصوات ونور ـ ان دزينة او اكثر من الشبان والفتيات انغمسوا في مناقشة حامية .

استدارت الوجوه جميعا في تلك الغرفة الدافئة جيدا ، العاجّة بالدخان ، ناحية المضيفة بي لي ـ بينغ صاحبة العينين السوداوين البراقتين المفعمتين حيوية والابتسامة الجذابة . وقفت الى جانب منضدة مستديرة ، ورفعت كأس شرابها ودعت ضيوفها الى الشرب معها: « التقينا الليلة ، نحن المشردون بدون مأوى ، في هذا المكان للاحتفال بالعام الجديد . وعلى الرغم من ان اليابانيين لن يسمحوا لنا بالانضمام الى عائلاتنا في الشمال الشرقي ، الا أنهم لن يستطيعوا أن يمنعونا من قضاء سهرة ممتعة هذه الليلة . فاشربوا ، يا أطفالي ، اشربوا ! »

كانت لي ـ بينغ أصغر من كثيرين من المجتمعين في الغرفة ، ومع ذلك فهي تحب أن تلعب دور الاخت الكبيرة فتنادي ضيوفها على الدوام بـ « الاطفال » . جاءت من مقاطعة كيرين ، وهي تدرس في قسم الحقوق في جامعة بكين ، وهي فتاة طيبة القلب تهوى مرافقة الزملاء . وقدانفصلت عن اهلها منذ حادثة الثامن عشر من ايلول ، مثلها مثل كثيرين من الطلاب ممن يعيشون في الشمال الشرقي . ولهذا سألت عددا من رفاقها في موطنها ، ورفاقها وزملائها في الجامعة ، أن يزوروها في غرفتها للاحتفال بالعام الجديد .

لم تكد ترفع يدها بالكأس وتقترح أن يشرب الجميع نخب عام جديد سعيد حتى وثب شاب وسيم قوي متورد الوجنتين على المنضدة، واختطف الكأس من يدها ورفعها عاليا فوق رأسه ، وصاح : « أنا أحتج! في ليلة رأس السنة أريد ان أرفع صوتي احتجاجا ضد الكيومنتانـغ الرجعي والحكومة الوطنية ! أن سياسة شيانغ كاي ــ شيك القائلة بعدم المقاومة هي المسؤولة عن ضياع مقاطعاتنا الشمالية الشرقية الثلاث، وهي التي جعلت ثلاثين مليونا من فلاحينا يقاسون العذاب ويعيشون كالعبيد . أنا أحتجّ ، وأعارض بشدة حكومة نانكينغ ! »

كان المتحدث يدعى هسو نينغ ، وهو واحد من طلاب جامعـة بكين الذين انتقلوا الى الجنوب للاشتراك في المظاهرة . وهو الذي قـرأ الشعارات في القطار المنطلق جنوبا . وفيما هو يتكلم في صوت عال شرع يعاين الغرفة بعينيه الكئيبتين نصف المغمضتين كمن يريد أن يتعرّف على التأثير الذي أثاره احتجاجه .

صفعته لي ــ بينغ صفعة لطيفة، وهي تبتسم له ابتسامة ملتوية : «لاتكن أحمق على هذا الفرار ، يا هسو نينغ ! فيمَ تصيح بصوت خشن ؟ ان شيانغ كاي ــ شيك لن يسمع احتجاجك ، لكن جواسيسه قد يسمعون ... لاتلتفتوا اليه ، يا أولاد . فلنشرب !» .

بدا أن كلماتها وقعت على آذان صمّاء ، فقد بدأ بعض الشبان يظهرون الغضب ضد الحكومة الرجعية وسياستها في عدم المقاومة . وتنهّد آخرون وقد أثارتهم المناسبة المرحة وجعلتهم يفكرون ببيوتهم . وانضمت فتاة نحيلة في السابعة عشرة الى البلبلة العامة بأن طوّحت نفسها عـلى السرير ، وجعلت ترتجف من جراء نشيجها . ركضت لي ــ بينغ اليها، واستوضحت قائلة : « لاتبكي ، ياهسيو ــ يو ! أنت تفكرين في أمك ،أليس كذلك ؟ لقد كان موتها مأسويا ويجب أن نثأر له !.. »

واسترسلت تقول في صوت خفيض : « لاتبكي ! فأنت فتاة طيبة ! هنالك كثيرات منا يقاسين مثلك ، لم يبق لهن بيوت أو عائلات ، فقـد جعل منهن الشياطين اليابانيون يتامى أو أرامل . سوف ننتقم منهم ذات يوم ! أنت تعرفين أن المتطوعين المناهضين لليابانيين في الشمال الشرقي قد بدأوا نضالا رائعا ضد العدو في هذه الايام ! وسرعان ما سنستعيد بيوتنا عاجلا أم آجلا ... »

كانت لي ـ بينغ قد شاهدت أمورا كثيرة في الحياة ، الا ان التفكير في بيتها والعذابات التي يعانيها أهلها تحت نير احتلال العدو جعلتها تشارك صديقتها الارتماء على السرير وذرف العبرات .

وخيّم صمت ثقيل ثقيل .

كانت تاو ـ شينغ احدى ضيوف الاحتفال .

كانت تعيش في الفندق ذاته ، وكان لوتا ـ فانغ الذي يتردّد غالبا لرؤية لي ـ بينغ قد عرّف الفتاتين ببعضهما . وكان يونغ ـ تسي قد رجع الى البيت للاحتفال بالعام الجديد ، غير ان تاو ـ شينغ رفضت مرافقته وآثرت البقاء في الفندق ، فدعتها لي ـ بينغ المضيافة الى حفلتها .

كانت تجلس وحدها في احدى الزوايا ، مرهفة سمعها في هدوء لأن لي ـ بينغ و لو تا ـ فانغ هما الانسانان الوحيدان اللذان تعرفهما في الغرفة بكاملها . وخطت ناحية هسيو ـ يو و لي ـ بينغ وفي نيتها تقديم العون ، ولكنها لم تكن تعرف كيف يمكن أن تواسيهما . وكان لوتا ـ فانغ ، وهو الذي يتعذر كبحه أو السيطرة عليه عادة ، جالساً في هدوء الى جانب النافذة وقد حنى رأسه . واعتصم هسو نينغ بالصمت بعد انفجاره الساخط .

ـ الاحتفالات تضاعف حنين الرجال الى بيوتهم . في هذه الليلة يفكر أبواي في ولدهما البعيد البعيد . أواه ، يا نهر سونغاري الجميل! أما زالت أمواجك النقية على عهدي بها ؟

كان المتكلم الذي بعثرت عواطفه الجياشة الصمت شابا قصير القامة ذا شعر أشعث يرتدي بزة غريبة رثة . وكان يبدو انه شرب أكثر مما يطيق .

استدار الاخرون ينظرون اليه حيث جلس على المنضدة المستديرة وقد رفع كأسه عاليا . ومسحت لي ـ بينغ عينيها ، وهرولت اليه . اختطفت الكأس من يده ولوّحت به أمام عينيه ، وصاحت : « يا للخجل ، يا يو يي ـ مين ! هل خبلت الخمرة لبّك ؟»

لم تكد المضيفة تجعل الهدوء يخيّم على هذا الركن من غرفتها حتى انفجرت جلبة أشدّ في ركن آخر كان سببها رجل في حدود الثلاثين يرتدي

ثوبا قطنيا مبطنا رمادي اللون . وكان شعره الاشعث في حاجة الى مقص ، ووجهه العنيد بشع طويل .

صاح يقول : « لاحديث في السياسة ، ايها السيدات والسادة! الحياة ينبغي أن تكون حرة – حرة ! الحياة أشبه بمياه دفّاقة ، تنساب متلألئة ... انا لا أستطيع احتمال ذلك ، لا أستطيع احتمال ذلك ... الحياة حلم لانكاد نجد فيه متسعا من الوقت للتمتع بالبهجة . انا لا استطيع احتمال ذلك !... »

ولما لم تستطع هسو نينغ وهسيو – يو احتمال هذا الانين فقد تدخلتا معا ، وفي وقت واحد ، للحيلولة دونه . هبت هسيو – يو على قدميها ، وخطت مقتربة منه ، وأشارت الى أرنبة أنفه وعبست غاضبة وهي تستوضح : « هل اغرق الفنان العظيم في السكر ؟ مؤكد أن الشراب خبلك فلم يُبقِ فيك شيئا صينيا . هل تعرف الايام التي نعيشها ؟ لقد دمَّر العدو بيوتنا ، وبلادنا امست خرابا ، ومع ذلك فأنت تنطق بمثل هذا الهراء السخيف ! أؤكد لك أن اليابانيين يحاولون استعباد بلادنا. انزل من برجك العاجي ! فقد حان أوان اليقظة ! ».

وحان الآن دور هسو نينغ . أومأ بذراعه ، ومرّر أصابعه في طيات شعره الاسود الكثيف ، وامسك بزمام الحديث وكأنه خطيب مفوّه ، وهدر قائلا : « استيقظ ، يا وانغ شيين – فو ! الا تعرف أن جيهول مهددة ؟ وهذا معناه أن شمال الصين بأسره عرضة للخطر ! كيف يمكن أن تخطب على هذا الشكل العدمي ؟ »

أطلق وانغ شيين – فو ضحكة نصف مكبوتة وهو نصف خجلان، ومطّ عنقه كيما يطيل التحديق في هسو نينغ وهسيو – يو بعينين مخمورتين ، فأشبه كلبا هجينا ناله الضرب فاستعد للانسلال خفية وذيله بين مؤخرتيه ، الامر الذي جعل جميع من في الغرفة ينفجرون في عاصفة من الضحك .

مرّت لحظات ، وغدا الحديث عاما من جديد .

ترجّى يو يي – مين ، وهو يرمق مضيفته بنظرة جانبية : « ائذني لنا ، يا لي – بينغ ، ان نتحدث عما هو قريب من قلوبنا ! لا ينبغي ان تكون غرفتك أشبه بمشرب للشاي علقت على كل جدار فيه لوحة تقول : « ممنوع الحديث في السياسة هنا ! » .

افترّ ثغر لي ـ بينغ مبتسما ، وقالت : « في ليلة مثل هذه الليلة أموجُ ثقة في أن كل واحد منكم لديه اشياء كثيرة يريد أن يقولها . انا لست ضد الحديث في السياسة . ولست أريدكم أن تشعروا جميعا بالانقباض . . . »

تندت عيناها مرة أخرى ، فعطفت رأسها ناحية على الفور ، ولم تلبث أن واجهت ضيوفها واسترسلت تقول : « منذ حادثة الثامن عشر من ايلول قضينا ، نحن شبان الشمال الشرقي الذين شرّدنا من بيوتنا ، أوقاتا عصيبة . يجب أن نمتّع أنفسنا في ليلة العام الجديد ، ولكننا لانستطيع » .

استغرقت في التفكير برهة ، وتابعت : « حسنا ، اسمحوا لي أن أروي لكم قصة تبعث السرور في أفئدتكم . وعندما انتهي منها يستطيع كلٌّ منكم أن يروي لنا قصة أخرى . وأنت يا هسو نينغ ، أيها العفَنْريت ، أحذرك ألا تقاطعني او تلجأ الى بعض حيلك الماكرة ! »

غمزت لي ـ بينغ بعينيها وتبسَّمت وهي ترى الجميع يراقبونها .

اكملت تقول : « بعيد حادثة الثامن عشر من ايلول شكّل الثمانمائة ألف عامل في شنغهاي اتحادا لمناهضة اليابان وانقاذ الصين ، وأرسل مندوبون الى حكومة نانكينغ يطالبون بأن تعبأ القوات على الفور وترسل لمقاتلة اليابانيين ، وان يوزع السلاح على العمال بحيث يستطيعون القيام بدورهم في مقاومة العدو . في ذلك الوقت كان طلاب بيبينغ ، بالتعاون مع الطلاب في جميع أطراف البلاد ، قد ذهبوا الى نانكينغ لتقديم العرائض الى الحكومة . ففكر شيانغ كاي ـ شيك في خدعة يتغلب بها على ذلك الموقف . فدعا الطلاب الى الاجتماع في الاكاديمية العسكرية المركزية وألقى فيهم خطابا . فأصغوا الى ماقال ، وانظروا الحمار الذي كانه ! »

أبدت لي ـ بينغ ، وكانت ماهرة في الاشتراك في المسرحيات التي يقدمها الهواة ، كل ماتتطلبه الممثلة من اتزان ورباطة جأش وهي تقلّد حركات شيانغ كاي ـ شيك ونبرته المختلطة : « الآن ـ الحكومة ـ تقوم باستعدادات عملية ـ لمقاومة اليابان . واذا ـ في غضون ثلاث سنوات ـ فشلنا في استعادة اراضينا المفقودة وبعث بلادنا على قدميها من جديد ـ فأنا ، شيانغ كاي ـ شيك » .

ومرّرت لي – بينغ يدها على عنقها ، وقد غدت عيناها عبارة عن زجاجتين ، واسترسلت : « أنا ، شيانغ كاي – شيك – سأسلم رأسي الى الفأس استرضاء لغضب الشعب » .

شكّل تقليد لي – بينغ الحي لشيانغ كاي–شيك تبايناً مدهشا مع جمالها وفتنتها بحيث انثال ضيوفها يضحكون ملء قلوبهم من جديد، حتى ان وانغ شيين – فو الذي كان جالسا يتنهد وقد أحنى رأسه لم يستطع الامتناع عن الضحك . ووثب يو يي–مين ، وكأسه في يده، منتصبا على قدميه .

ضرب هسو نينغ المنضدة بقبضة يده قبل أن يتاح لأي من الحاضرين ان يفوه بكلمة واحدة ، وصاح: « من تراه انخدع مرة بأكاذيب شيانغ كاي –شيك ؟ لا أحد ! بعيد فترة قصيرة من القائه تلك الخطبة المشهورة بدأ الطلاب من جميع أرجاء البلاد يتخذون سمتهم صوب نانكينغ للقيام بمظاهرة كبيرة . واخذت جامعة بكين زمام القيادة في حركة الخامس من كانون الاول الشهيرة . وبعد ذلك ذهب مئات الطلاب من شنغهاي وبيبينغ الى نانكينغ وحاصروا ، هم وطلاب الجامعة المركزية، مركز قيادة الكيومنتانغ واقتحموه وحطموا مكتب « السنترال ديلي » . وحينما وصل الطلاب الى المبنى الحكومي وهتفوا صائحين : « فلتسقط الحكومة الخائنة ! » دبّ الرعب في قلب السلطة فعمدت الى اغلاق البوابات الحديدية الكبيرة .. حسناً ، لقد حدث هذا كله في السابع عشر من كانون الأول قبل سنتين . أتذكرون ؟ »

ولوّح هسو نينغ وهو يقول هذا الكلام بقبضته القوية أمام وجه وانغ شيين – فو العنيد ، فأرغمه على الارتداد برأسه الى الوراء في نوبة من الفزع مما أثار موجة جديدة من الضحك .

– لي – بينغ وهسو نينغ ، لكم صورتما القضية على شيء من الآثارة ! حسنا ، طالما انه ليس لدينا مانعمل في ليلة السنة الجديدة ، وبعيد كل ماشربناه ، ائذنوا لي أن أروي لكم قصة أخرى .

كانت تلوح على لوتا – فانغ أمارات الحزن ، وكأن شيئا وئيدا يثقل على ذهنه ، ولكنه ما أسرع ان أضاء وجهه فجأة وهو يطلق سيل الكلمات من بين شفتيه .

ــ أتذكر ، ياهسو نينغ ، عندما تظاهرنا في نانكينغ كيف عوملت ولوشيا ــ شوان « معاملة خاصة » ، في حين كان لي مينغ ــ يو يقود القوات لاقتحام مركز قيادة الحامية ؟ مما يؤسف له أن مائة وثمانين منا قد اعتقلوا وارسلوا الى ثكنات ضريح مينغ حيث تذوقنا طعم حياة السجن . في الليل كانت الريح تئن والمطر ينهال ونحن ننام على الارض الباردة الباردة ، بينا كل شيء آخر حولنا يلفه صمت أشبه بصمت القبور. كيف يمكن لشبان مثقفين من أمثالنا أن يناموا بعد ان صاروا عصافير في قفص ؟ وصرف بعضنا بأسنانه ، وتنهد بعضنا الآخر وكشروا يئنون، بينا نظم آخرون ممن استثارت الحادثة قرائحهم أبياتا مرتجلة من الشعر ... وكما تعرفون جميعا فأنا موهوب بنظم القريض ، بحيث عمدت والعجوز هسو في تلك الليلة المشؤومة الى نظم أبيات هزلية لبعث الغبطة في قلوب الآخرين الذين أضناهم البرد والجوع وجافاهم النوم. وسرعان ماغدت رائعتنا الشعرية على كل شفة ولسان . وأخذت الصيحات تنهال علينا في الظلمة : « فلننشد نشيد جامعة بكين ، ايها الفتيان ! » « مرة أخرى ! » . وهكذا حوّلنا الثكنات المظلمة الكئيبة الى دار للاوبرا . ولم يكن صوت الآنسة جانيت مكدونالد الذهبي وهو يصدح منشدا ليلقى ترحيبا أكثر من الترحيب بقصيدتنا الخشنة ».

ــ آها ! آها ، أيها الاخ لو ! ماهي هذه الرائعة المثيرة التي تتحدث عنها ؟ أسمعناها ! اننا نعجز عن الانتظار !

كانت هسيو ــ يو قد فُتنت ، فراحت عيناها النجلاوان المدورتان تومضان بالانشداه . ان تلك اللحظة الطويلة قد أرهقت صبرها .

ضحك لو تا ــ فانغ ضحكة مجلجلة ، وقال : « يا أصدقائي الشبان الاعزاء ، ما أسرع ماتنخدعون ! أنا لست شاعرا ! وما نظمت لايعدو أن يكون هراء فجاً . لقد كتبنا ذلك قتلا للوقت كما تعلمون ، واستثارة لمعنويات الجميع » .

وضيّق فرجة عينيه ، ونتر راسه الى الخلف ، وانشد في تبجح ساخر :

من جامعةٍ تُدعى بكين
طلابٌ نحن أشداءُ

سرنا كالموج الى نانكين
لايرهبنا .. لا .. الاعداء
– ليس هذا كل شيء . اليكم مزيدا من ذلك الشعر :
ربطوا ايدينا .. أرجلنا
ضربونا .. هدّوا أنفسنا
تركونا أياما جوعانين
تركونا ايـــاما ظمـــآنيـــن
واليوم ، وان كنا مسجونين
فسنبقى طلابا من بكين
لأنرهب أو نخشى من كان
أو مهـــزلة ككيومنتان !
صاح صوت جديد : « هذه هي الروح ! مزيداً ! »

التفت الجميع جافلين ناحية الباب فشاهدوا أحد الفتيان منتصبا على الوصيد . فصاح أولئك الذين يعرفونه في صوت مرحّب : « العجوز لو ، ها أنتذا هنا اخيرا ! »

أسرعت لي – بينغ اليه ، وامسكت بيده وقد افترت شـــفتاها عن ابتسامة فاتنة : « لو شيا – شوان ، لقد انقضت دهورٌ لم أرك خلالهـــا !» .

توقف فؤاد تاو – شينغ عن الخفقان . أفليس هذا الشـــاب ذو البنية المتوسطة والمشية الجذابـــة والعينين الذكيتين البراقتين والشـــعر الاسود الكثيف والوجه اللطيف الصادق هو الذي التقته يوم كانت تعلّـــم في بيتايهو ؟ ان هذا الطالب الذكي الموهوب قد ترك في روحها انطباعاحلوا وكانت تفكر فيـــه احيانا ، ذلك ما مرّ في فكرها في لمحة خاطفة قصيرة مثلما كان حديثهما قصيرا . وبدا ان لوشيا – شوان لم يذكرها ، وكـــان خجلها يمنعها عن ان تبادره الحديث .

حيا لو شيا – شوان الجميع ، وجلس على كرسي صغير لاظهرله، والتفت ناحية لوتا – فانغ وقال مبتسما : « تابع رائعتك ، ياصاحبي. وحينما تنتهي منها يحين دوري لتسلية الحضور » .

ابتسم لوتا ــ فانغ ابتسامة عريضة ، ونظّف حنجرته ، وتابع يقول : « حسنا اذن ، اسمحوا لي ان أتابع قصتي .. راحت السماء تمطرنا بشدة في تلك الليلة . وبدأ الموجودون يجنحون الى الهدوء تدريجيا بعد أن ارتفعت معنوياتهم ، وما أن انتصف الليل حتى لم يبق مايمكن أن تشاهده في ثكنات ضريح مينغ غير أضواء متناثرة تتأرجح في المنتأى البعيد . ولم نكن نسمع غير اصداء الحراس وهم يخوّضون في الطين أثناء قيامهم بدورات حراستهم . وعلى حين فجأة جاء حراسنا يعلنون لنا : « لقد أرسلت السلطات أكثر من ثلاثين شاحنة وألف جندي وشرطي لاعادتنا الى بيبينغ بالقوة » . أثارتنا هذه الأنباء فشرعنا نهتف بالشعارات مرة أخرى » .

كان يتحدث بصورة اتفاقية ، ولكن حديثه اتخذ طابع الجدية ، وراح صوته الخفيض عادة يجلجل قويا صافيا : « هتفنا بأصوات رنانة كما لم نهتف من قبل قط . لن نذهب ! نرفض أن نذهب ! ينبغي أن تطلقوا سراحنا اولا ! انتم تطالبون تأييد الشعب وثرواته ودماءه ! ونحن نطلب السعادة والحرية لبلدنا الام ! الحرية ! الحرية ! لن نذهب ! »

وتورّد وجه لوتا ــ فانغ وهو يهزّ قبضته ويصيح . واعتصم المستمعون اليه بالصمت . لم يضحك احد منهم لان دماءهم كانت تغلي في صدورهم . وكانوا جميعا قد ركزوا انظارهم على لوتا ــ فانغ وكثيرون منهم انهمرت العبرات من عيونهم .

ومدّ الصمت سلطانه على الغرفة .

رحل وانغ شيين ــ ذو صاحب الوجه العنيد مبكرا . ولم تمض لحظات حتى شرع الباقون يأكلون ويشربون ويتحدثون بحرية تامة .

ابتسم لو شيا ــ شوان لرفاقه ، وقال : « دعوني أسرد عليكم شيئا مسليا . لقد سمعته مؤخرا فقط ، وأعتقد أنه نكتة جديدة تشبه تفاخر شيانغ كاي ــ شيك أمام الطلاب في الاكاديمية العسكرية المركزية من ان اراضينا المفقودة سنستعيدها في غضون ثلاثة ايام . منذ ايام معدودة ، حينما غدت الاوضاع في جيهول متأزمة حقا ، طار ت. ف. سونغ ، اخو زوجة شيانغ ، الى شينفتيه عاصمة المقاطعة . وما ان ترجل من الطائرة حتى نثر خطابا يعج بالعواطف النبيلة امام قوات الحامية في جيهول .

قال : « تابعوا القتال ! أعدكم أن الحكومة المركزية ستقف الى جانبكم . وحيثما تذهبون يكون ت. ف. سونغ برفقتكم . حتى اذا طردتم العدو الى آخر حدود الأرض ستلقون هنالك ت. ف. سونغ ايضا ...» ولكن ماوقع هو انه في اليوم الاول من معركة جيهول ، وكان العدو لايبرح بعيدا بعد ، فان سونغ العظيم هذا ، بدلا من الانطلاق مع القوات حتى آخر حدود الارض ، هرب عائدا الى نانكينغ سرا بحيث لم يخطر هروبه لأحد في بال » .

ومما يدعو الى الغرابة ان حكاية لو شيا - شوان ، بدلا من أن تثير الضحك على نحو ما أثارته قصة لي - بينغ ، بدا أنها فتحت جروحا قديمة وأثارت ذكريات مؤلمة . نظر الآخرون في وجوه بعضهم بعضا دون أن ينطق أحدهم بكلمة ، ومرت لحظات طويلة خرقت بعدها هسيو - ين حجاب الصمت وقالت في نبرة رقيقة : « هذا شيء رهيب ! اذا تم احتلال جيهول ، فان شمالي الصين بأسره سرعان ما ...»

لم يستطع هسو نينغ أن يضبط نفسه أكثر مما فعل . ضم قبضة يده واندفع مجتازا هسيو - يو ، وترجى لوشيا - شوان قائلا : « أيها الاخ لو ، اخبرنا مزيدا عما يحدث ! منذ أن بدأت المحنة لم أستطع حضور أية محاضرة » .

وصاحت هسيو - يو ولي - بينغ في صوت واحد : « بلى ، أيها العجوز لو ! اكمل ! » .

قال ، وهو يهزُّ رأسه ويبتسم : « ولكنني لا أعرف أشياء أكثر مما تعرفون » .

رماه لو تا - فانغ بنظرة توحي بالالفة والدفء : « أكمل ، أيها العجوز لو ، افعل ماطلب اليك أن تفعل » .

ان جوّ الترقب والأحترام الشامل تجاه لو شيا - شوان جعلا تاو - شينغ تراقبه عن كثب . ارادت أن تذهب اليه وتحييه ، ولكنها تشعر بالخجل . ان جميع الموجودين في الغرفة يعرفون أكثر مما تعرف هي ، ويختلفون الاختلاف كله عن الناس الذين عرفتهم في الماضي . انهم يملكون افكارا تدفعهم الى الانطلاق قدما ، كما يملكون شعورا بالمسؤولية

نحو وطنهم وشعبهم . في هذا المحيط الجديد كانت واعية مواطن ضعفها وحدها فحسب ، فعمدت الى الاختباء في زاوية معتمة ، وجنحت الى الصمت .

راح لو شيا ـ شوان يتحدث في هدوء ، وهو يجيل بصره من وجه الى وجه : « ان الوضع الراهن كاف لأن يجعل دماءكم تفور وتغلي ! ان كل صيني يملك شيئا من الضمير قد وصل الى نهايات حدود اصطباره . ومنذ حادثة الثامن والعشرين من كانون الثاني(١) شرعت الحكومة، عن طريق اعترافها بأنها تنفذ سياسة المقاومة خلال المفاوضات ، تتبع سياسة من عدم المقاومة . وفي الفترة الاخيرة ، بعد أقل من خمسة ايام من القتال في ممر شانهايكوان ، تلقى هو شو ـ كيو الامر بالجلاء . وبعد سبعة ايام من بدء القتال في جيهول سقطت شينغتيه في ايدي العدو . واليوم يهيىء الغزاة اليابانيون لمهاجمة الممرات على طول السور العظيم . . »

اخرج لو شيا ـ شوان منديلا مسح به العرق عن جبهته . لقد اختفت رباطة الجأش وسرعة البديهة اللتان أبداهما قبيل لحظات معدودات فيما هو يسترسل في حديثه في نبرات ساخطة صاخبة :« لقد بلغت الامة الصينية مرحلة مصيرية بالنسبة الى وجودها بأسره ، ومع ذلك فان شيانغ كاي ـ شيك لايبرح يؤكد ان أعداءنا ليسوا هم الغزاة اليابانيون بل « عصابات الشيوعيين » . وبدلا من قتال اليابانيين ، فان ملايين من القوات الصينية تحاصر الجيش الاحمر بضراوة شرسة وتقتل الشيوعيين والوطنيين الشبان . . الا أن الجيش الأحمر بقيادة ماوتسي ـ تونغ وشو تيه قد بعثر هذا « الحصار » الذي يقوده شيانغ كاي ـ شيك شخصيا . وقد تحقق نصر عظيم . . . »

صاح هسو نينغ ، وهو يهز قبضته : « يفضل أن تسلم البلاد الى دولة مجاورة صديقة بدلا من أن تسمح لعبيدك بامتلاكها » . الآ تعرفون

---

(١) في الثامن والعشرين من كانون الثاني ١٩٣٢ هاجم اليابانيون شنغهاي . وعصا جيش الكيومنتانغ التاسع عشر المعسكر في شنغهاي اوامر سياسة عدم المقاومة وقام بالنضال . ولكن شيانغ كاي ـ شيك ووانغ شينغ ـ وي غررا بأفراده وخدعاهم .

مامعنى هذا الكلام ؟ انهم يسمون هذا « تسوية النزاعات الداخلية قبل طرد الغزاة » » .

وانهمك الشبان والفتيات في الغرفة ، ويعدّون قرابة دزينة ، في مناقشة حامية . وركنت تاو ـ شينغ الى الصمت في زاويتها ، تصغي باهتمام الى جميع مايقولون . كانت كلماتهم تطير الى فؤادها الوحيد الخائب مثل رذاذ رخيّ يسّاقط على بذور الارز العطشى . كانت تتوق ، وقد استثارتها أهواء جديدة عليها ، الى اثبات هويتها بين الآخرين والمشاركة في مناقشاتهم ، غير أن قوة العادة ـ عادة بقائها وحيدة ـ أرغمتها على الاستكانة الى صمتها والبقاء في زاويتها لايلتفت أحد اليها .

نادى هسو نينغ لو شيا ـ شوان على حين بغتة : « أيها الاخ لو! ماذا ينبغي أن نفعل في رأيك ؟ ماهو السبيل الذي نسلكه للخلاص ؟ »

التفت الجميع ، بما فيهم تاو ـ شينغ ، ناحية لوشيا ـ شوان وكأن الخلاص بين يديه . وكان قلق واضح بيّن يخيّم على قسمات وجوههم .

تطلع لو شيا ـ شوان في وجوههم المترقّبة ، شاملا تاو ـ شينغ بنظرته ، وقال في صوت منخفض رزين : « تريدون سبيلا الى الخلاص؟ طبيعي اننا ، جميعنا ، نبحث عن سبيل الى الخلاص ـ فالامة الصينية بمجموعها تبحث عن مثل هذا السبيل . فأين هو هذا السبيل ؟ انا أؤمن أن هذا السبيل يكمن في المقاومة والنضال . ان سبيلنا الى الخلاص يقوم في ربط مصيرنا بمصير الامة والشعب. ماهو السبيل الآخر امام المثقفين من أبناء الصين نصف الاقطاعية ونصف المستعمرة ؟ ان أول عمل نقوم به اليوم هو أن نحقق تحرير الآمة الصينية ، وعندها فقط يكون هنالك تحرّر وسبيل لخلاصنا كأفراد ... »

لوح هسو نينغ بقبضته ، وأومأ برأسه قائلا : « كما نعثر على سبيل الى خلاص انفسنا ينبغي اولا أن نعثر على سبيل الى خلاص الامة ... هذا حق » .

وهمهمت هسيو ـ يو ، وعيناها عالقتان بهسو نينغ : « بلى ، هذا ما ينبغي أن يكون! »

وتمتم شخص آخر : « ومع ذلك فأنا لا أزال أجهل ماذا ينبغي أن افعـل ... »

وعمّ الضجيج الغرفة حينما راح كل واحد فيها يدلي برأيه.

وثب لو تا ـ فانغ على قدميه خلال النقاش الذي تلا ذلك ، وضرب الطاولة بقبضته ، وصاح : « فليصغ كل واحد منكم ! مافائدة الكـلام الفارغ ؟ فلنقم بعمل مثمر نافع ! »

وفيما راح الجميع يتحلّقون حوله ، يثيرون تعليقات صاخبـة ، انسلّ لو شيا ـ شوان الى حيث كانت تاو ـ شينغ جالسة ، ومدّ يده صوبها ، هاتفا : « لين تاو ـ شينغ ! أتذكرينني؟ »

نهضت بسرعة تصافحه ، وقد تورّدت وجنتاها ، وقالت : « طبعا أتذكرك ... فقد التقينا في بيتايهو ... »

ـ وهكذا رجعت الى بيبينغ ! متى تركت قرية يانفشوانغ !

كان لوشيا ـ شوان يتحدث بحرارة كمن يخاطب صديقا حميمـا لم يجتمع به منذ سنوات طويلة .

وتبسمت تاو ـ شينغ : « منذ أكثر من عام مضى . كيف حالك؟ أمازلت في جامعة بكين ؟ » .

كانت تشعر ، هي الاخرى ، أن لو شيا ـ شوان صديق حميم .

وقبل أن يتمكن لو شيا ـ شوان من الاجابة لمحتهما لي ـ بينـغ فأسرعت تنضم اليهما : « حسنا ، لم يخطر لي أنكما تعرفان بعضكما ! »

فوصف لو شيا ـ شوان ، في شيء من المزاح ، لقاءه الاول مـع تاو ـ شينغ : « التقينا منذ أكثر من سنة ، في فترة حرجة ، وفي بقعـة يخلب الالباب جمالها. كانت الآنسة لين في جدال مع زوج شقيقتي . مما يبعث على الاهتمام التفكير في ذلك الآن » .

واستدار اليها ، وأضاف : « وبالمناسبة ، ماالذي منعك عن متابعة التدريس هنالك ؟ ماذا تفعلين الآن؟ »

احمارّت تاو ـ شينغ حتى أذنيها . كيف تستطيع أن تنبئه أنهـا تركت التدريس ، وأنها قدمت لتعيش مع يو يونغ ـ تسي ، وأن كـل شيء قد انتهى بالنسبة اليها! لم يكن في وسعها ، وقد ارتبط لسانها، الا أن تطيل النظر اليه ، متوردة الوجنتين مبتسمة الشفتين .

ـ أتريد أن تعرف كيف تسير الامور معها ؟ حسنا ، هنالك عقبة كبيرة في طريقها !

وحينما ادركت لي بينغ ارتباك تاو ـ شينغ عبست واسترسلت تقول مبتسمة : « تاو ـ شينغ فتاة طيبة ، فتاة حلوة طيبة ، لكن ذلك المعلم العجوز يحتجزها » .

ونادى أحدهم : « لي ـ بينغ ! تعالي الى هنا ! » .

وابتسمت للاثنين قبل انطلاقها للانضمام الى الآخرين : « حسنا، ينبغي أن يشغلكما حديث طيب طالما انكما صديقان قديمان ! »

واكتشف لو شيا ـ شوان وتاو ـ شينغ ، بعدما بقيا وحيدين ، أن لديهما حقا أشياء كثيرة يتحدثان عنها .

١٢

آبت تاو ـ شينغ الى مسكنها الوحيد قبيل انبلاج الصباح . وعلى الرغم من أنها كانت منهكة القوى مثقلة الجفون بالنعاس الا أنها عجـزت عن النوم بعد رقادها . كانت أصداء الالعاب النارية بمناسبة العام الجديد تزعجها ، وكان قلبها في بلبال بعد التجربة التي مرت بها في تلك الليلة. راحت الوجوه الغريبة لكن الودودة تومض أمام عيني خيالها : لو شيا ـ شوان ، لوتا ـ فانغ ، هسو نينغ ، هسيو ـ يو ، ولي بينغ ... يالهم من اناس يبعثون البهجة في القلب ـ كرماء ، تواقين الى ايجاد سبيـــل لخلاص الصين، يحنّون الى أن يحيوا حياة حقيقية جديرة بأن يعيشوها .. راحت تحدّق الى النوافذ المغطاة بالورق وهي تزداد بياضا بتأثير ضوء الفجر ، وفكرها مشغول بالحفلة وحديثها مع لو شيا ـ شوان ، وتحضن نفسها بابتسامة مغتصبة ...

كانت الالعاب النارية تنفجر بمرح والموقد في حجرة لي ـ بينـغ يتوهج . ورغم ان الساعة كانت في حدود الثانية صباحا فقد بقي ضيوفها مستغرقين في حديثهم أو تسلياتهم المختلفة . وخرج هسو نينغ وهسيو ـ يو الى الساحة يطلقان بعض الالعاب النارية . واقتعد لو تا ـ فانغ ولي ـ بينغ حافة السرير يتهامسان . بدا أنه يلتمس منها شيئا اذ أنها شرعت تبكي ، الامر الذي أثار كوامن حزنه . واخيرا استلقى بجذعه على طرف السرير في حين خرجت لي ـ بينغ تشارك هسو نينغ والآخرين. ويقال ان لوتا ـ فانغ كان مغرما بلي ـ بينغ لكنه يبدو انهما اختصما، وان الكآبة استبانت على كل منهما .

كانت تاو ـ شينغ ولو شيا ـ شوان جالسين في احدى الزوايا يتحادثان طوال الوقت ، وكانت النتيجة أن تاو ـ شينغ شعرت بانجذاب عظيم نحو هذا الصديق الجديد ، المخلص ، الذكي ، المفعم نشاطا ووداداً. وقد تأثرت كثيرا بوجهات نظره الواعية في السياسة ــ فهي لم تستمع الى انسان مثله قبلا . كان يجلس الى جانبها جلسة عادية محببة ، ويسألها عن أسرتها ، عن تجاربها واختباراتها ، كما يطرح عليها عددا من الاسئلة المدهشة عن وجهات نظرها وآرائها . وكانت تاو ـ شينغ من ناحيتها قد اسلمت تحفظها المألوف الى الرياح ، وكشفت له قلبها مثلما تكشفه لصديق صدوق . وقد شدهتها طريقته في طرح الاسئلة وعرض الامور ببساطة بحيث راحت عيناها تنفتحان فيغدو في مقدورها أن تفهم معاني الامور بمزيد من الوعي والادراك . وهكذا تابعت حديثها معه دون أن يبدو عليها شيء من امارات التعب .

قالت ، مستعيرة أسلوب هسو نينغ في التخاطب : « أيها الاخ لو ، اتستطيع أن تخبرني شيئا عن الجيش الاحمر والحزب الشيوعي ؟ أهما يعملان حقا من اجل الشعب وفي صالح البلاد؟ ولماذا يطلق عليهما بعض الناس لقب عصابات ؟ »

كان لو شيا ـ شوان جالسا في الظل ، فارتسمت في عينيه الكبيرتين المتضوئتين تغضينة موجعة وهو يستدير ناحيتها لينظر اليها .

ـ اللص هو الانسان الذي يتهم الآخرين باللصوصية في أغلب الاوقات . والانسان المتمسك بمبادىء الفضيلة والاخلاق وعنده ثلاث زوجات واربع محظيات هو الذي يهاجم النساء على الارجح لعدم بقائهن عفيفات طاهرات . وحكام الصين ، هؤلاء الذين ذبحوا مئات آلاف الشبان ، يتهمون الآخرين بأنهم جزارون ، إحراقيون ، لصوص ، وقطاع طرق ... أثمة ما يثير الدهشة في هذا ؟

تبسمت تاو ـ شينغ ، وهي تقدّر له احساسه بالدعابة ، وبدأت تشعر بالجرأة ومزيد من الارتياح .

استرسلت تقول : « أيها الاخ لو ، قلت منذ لحظات اننا ، نحن الشبان ، ينبغي أن نقاوم ونناضل في سبيل العثور على طريق للخلاص. ولكنني غير مؤمنة بهذا تمام الايمان ».

فاتسعت عيناه دهشة : « لم لا ؟ أتحسبين أنك تستطيعين العثور على طريق للخلاص باحتفاظك بالصمت وعدم الشكوى ؟ »

فنكّست تاو ـ شينغ رأسها ، وجعّدت منديلها الكتاني الابيض في عصبية ، وأجابت في صوت منخفض حزين : « أنت لاتعرف ... لقد قاومت وناضلت ، ولكنني لم أعثر على طريق للخلاص » .

تجاوز لو شيا ـ شوان عن ذلك ضاحكا . وكان هناك شيء صريح ودافيء بشكل خاص في ضحكته العفوية الطليقة .

ـ هذه هي القضية ، اذن ؟ حسنا ، يا تاو ـ شينغ ، دعيني أقدّم لك مثالا ...

تطلع حواليه في أرجاء الغرفة المزدحمة بالشبان المرحين المنهمكين في الشرب والحديث ، ورسم احدى الشخصيات بإصبع واحدة:«أنظري، ياتاو ـ شينغ . الامر على هذا الغرار . الشخصية مو(١) عبارة عن شجرة واحدة ، لكن شجرتين تصيران غابة على ماهو عليه اسمك ، وثلاث شجرات أو أكثر تؤلف غابة كبيرة لاتستطيع عاصفة أو رياح تدميرها، وحينما تناضلين وحدك وبأسلوبك الخاص ، وفي عزلة عن الآخرين ، فمن الطبيعي ألا تصطدمي الا بالمحن والعقبات . أما اذا انغمست في النضال المشترك ، اذا ربطت مصيرك بمصير الشعب ، عندها تكفين عن أن تكوني شجرة وحيدة لاحيلة لها وتغدين جزءا من الغابة الكبيرة ».

لم تتمالك تاو ـ شينغ نفسها من الضحك : « ما اروع الاسلوب الذي توضح الامور فيه ! في الماضي لم اكن أبدي اهتماما بغير أمانتي وكمالي ـ ونادرا ما كانت الامور الاخرى تقلقني . والليلة ، بعدماسمعت منك هذه الامور كلها ، فأنا أشعر أنني .. أنني .. »

ـ أنك ماذا ؟

فأجابت في نبرة ساذجة ، وقد ادهشها قليلا ان تجد نفسها تتحدث

---

(١) في اللغة الصينية مو تعني « غابة » أو « شجرة » . ولين تعني « غابة » أو « حرجا » . وشين تعني « غابة واسعة » .

بحرية الى رجل لم تكد تتعرف عليه جيداً بَعْدُ : « انني كنت فتاة ساذجة ! »

فأعلن في اقتضاب ، وهو يبتسم : « ربما كان ذلك لأنك بقيت طويلا ملازمة برجك العاجي . تاو ـ شينغ ، في الايام العاصفة مثل الايام التي تمر بنا ينبغي عليك أن تهجري تلك الحلقة الشخصية الضيقة التي تعيشين فيها وتنظري الى العالم الفسيح الفسيح . انه عالم مأسوي ولكنه جميل . يجب أن تنطلقي خارجاً وتلقي نظرة حواليك » .

كانت لحديثه فتنة لا توصف ، فقد كان يجمع بين اهتمامه القوي بالآخرين بفطنة متأهبة وقدرة على فتح عيون الرجال .. وكلما استعادت تاو ـ شينغ أشياء مما حدث ، كلما شعرت روحها بالسعادة والاسترخاء.

قال ملاحظا في صدق جليّ : « يا لبراءتك ، يا تاو ـ شينغ ، ويالإخلاصك ! جميل أنك تريدين العثور على أشياء عديدة ، ولكننا لانستطيع أن نتحدث عن كل شيء في عشية واحدة . سأعود اليك في غضون يوم أو يومين وأحمل لك بعض الكتب ـ لا أعتقد أنك قرات كثيرا في العلوم الاجتماعية ، أليس كذلك ؟ هنالك بعض الكتب التي يمكن الحصول عليها . كما أن هنالك بعض الكتب الادبية السوفييتية الرائعة . وباعتبار أنك تحبين الروايات ، فينبغي أن تقرئي الطوفان الحديدي والتسعة عشر(١) ، بالاضافة الى رواية الام لغوركي.

كانت تلك المرة الاولى التي تُشجَّع فيها تاو ـ شينغ على القراءة، فحدّقت شاكرة في الوجه الوسيم .

كانا غارقين في الحديث حينما جاءتهما لي ـ بينغ ، وقالت : «أيها العجوز لو ، ان تاو ـ شينغ صبية شريفة ذكية ، ولكنه ينبغي علينا أن نساعدها في الخلاص من العبء الرهيب الذي يئيد على عنقها .. ما أبشع أن تشاهد وردة غضة فوق كومة من روث البقر . لسوف يكون سببا في دمارها ! »

رمت تاو ـ شينغ ، وقد توردت وجنتاها ، نظرة متوسلة الى لي ـ بينغ ، فلم تكن راغبة في إقحام اسم يونغ ـ تسي في مثل تلك البرهة .

في ساعات الصباح الاولى ودّعت تاو ـ شينغ و لي ـ بينغ كلاً

---

(١) للكاتبين السوفييتين سيرافيموفيتش وفادييف .

من لو شيا ــ شوان ولو تا ــ فانغ . تحدثت لي ــ بينغ ولو تا ــ فانغ في الشارع البارد ، في حين تبعهما لو شيا ــ شوان وتاو ــ شينغ وهما غارقان في حديث آخر .

ــ أشعر بالخزي ، أيها الاخ لو ، لانني لا أعرف شيئا على الاطلاق عن الثورة ، او عما ينبغي أن نفعل لانقاذ البلاد . جئني ببعض الكتب في الغداة .

امسك بيدي الفتاة في ودّ ، وقال: «سأفعل ذلك . والآن، وداعا!» .

وشعرت تاو شينغ بنفور غريب من الفراق .

ــ يا لهم من شبان أذكياء موهوبين !

فيما كانت تبتسم لهذه الفكرة كانت عصافير الدوري تزقزق خارج غرفتها تحية للصباح . ثم تذكرت يونغ ــ تسي الذي ذهب الى البيت وحيدا لتمضية عطلة رأس السنة مع ابويه . لم ترافقه لخوفها من لقاء يو شينغ ــ تانغ . كانت قد تلقت دعوة لحضور حفلة لي ــ بينغ بمناسبة العام الجديد لأنها وحيدة في مسكنهما ، أما الآن فان مجرد تفكيرها في يونغ ــ تسي يئيد ثقيلا على ذهنها .

ــ ما أبأس حظي اذا قارنته بحظوظهم !

وتنهدت ، وشدّت اللحاف فوق رأسها .

بعد افتراقهما عن الفتاتين مشى لو شيا ــ شوان ولو تا ــ فانغ معا على طول الشارع المقفر .

ابتسم لو شيا ــ شوان ابتسامــة لاذعة في وجــه صديقه ، ورمــى بذراعه حول كتفيه العريضتين كمن يواسيه ، وقال : « فيم اكتئابك هذا النهار ، يا تا ــ فانغ ؟ أظنك تخاصمت و لي ــ بينغ ؟ » .

فأجاب لو تا ــ فانغ في اهتياج : « أجل ! ماذا أصاب تلك الفتاة؟ أم أنني كنت مخطئا طوال الوقت ؟ ... أن تنكث عهدي امر لايضايقني كثيرا ، لكنه لاينبغي أن تتراكض وراء هسو نينغ على هذا الفرار . فقد كانت هسيو ــ يو وهسو نينغ صديقين حميمين طوال سنوات ، وقديكون كل منهما خَلِقَ للآخر . ولكنها تحاول أن تضع حدا لعلاقتنا بصــورة تبعث على الخجل حقا . الآ توافقني ، أيها العجوز لو ، أن المرء عندما يصبح متخلفا سياسيا يفترض فيه أن يتفسّخ في حياته الخاصة أيضا ؟ اعتادت لي ــ بينغ أن تكون حصيفة دائما . وكانت لها مثلها العليا ، تلك

الفتاة ، وهو مادفعني الى حبها . غير أنها الآن كفت عن دراستها كما أنها لم تعد تحضر أية اجتماعات على الاطلاق . التمثيل ، وأن تغدو ممثلة سينمائية ، ومشاكل الغرام هي الامور الوحيدة التي تثير اهتمامها ... وطبيعي أن رجلا من طرازي لايمكن أن ينجذب اليها على الاطلاق ».

أومأ لو شيا ـ شوان برأسه في صمت . همس ، وهو يُحدّق في الشارع المقفر : « أنا واثق ، يارفيق ، أنك ستتغلب على ذلك ـ وبعد كل شيء ، فان الحب ليس كل شيء!.. » .

ورمى لو تا ـ فانغ بنظرة ذات مغزى ، وابتسامة عاتبة تتخايل على شفتيه من جديد .

نخسه لو تا ـ فانغ ، وتابع طريقه ، مهمهماً : « صحيح ! أدرك ماترمي اليه ، لكنه يبدو غريبا بالنسبة الي أن رجلا لايملك الا قليلا يعامل النساء به يمكن أن يبدي اهتماما عارما بلين تاو ـ شينغ . كيف، لقد ظللت تثرثر معها ساعات بطولها ! أفلا تعرف أن لديها من أسمته لي ـ بينغ « عبئا رهيبا يئيد على عنقها » ؟ اني أعرف ذلك الذي يحبها . انه مريد مخلص لهو شيه . وقد حاولت ان أكسبه الى صفنا ، لكن من دون فائدة » .

أجاب لو شيا ـ شوان في وقار : « كفاك هراء ! لقد عرفت عنها أشياء من زوج شقيقتي . انها تملك حساً قوياً بالعدالة ومقدارا عظيما من الشجاعة . وينبغي أن نمد لها يد معونة بدلاً من أن نتركها تغرق في الطين أعمق فأعمق . لقد قام بينها وبين زوج شقيقتي في بيتايهوجدال حامي الوطيس بخصوص حادثة الثامن عشر من ايلول ، وأعلنت أن الصين لايمكن أن تسترق أو تستعبد . ولنكن صريحين ، فقد كنت مأخوذا بروحها المعنوية الرائعة ونبرتها الجدية أثناء الحديث . ففيم تريد أن تجعل من الامر قضية شخصية ؟.. يحسن أن تنتبه الى ماينطق به لسانك ! كف عن الهراء ! »

أهنف لو تا ـ فانغ ضاحكا : « تلك كانت دعابة ! الا تحتمل الدعابة؟ وكأني لا أعرفك ! باعتبار انك كرّست نفسك لقضيتنا ، فأنت لاتلقي بالاً الى مصلحتك الشخصية . أنت بيوريتاني مئة بالمئة ، رغم تواجدك في صحبة الفتيات النهار بطوله . أتمنى لو كنت مثلك ! لي ـ بينغ ! أوه، حسنا ! فلنكف عن ذكرها » .

اجاب لو شيا ــ شوان متفكرا : « أنا لست بيوريتانيا . ولكنني لا أستطيع، في هذه الظروف ، أن أسمح بأخذ الاعتبارات الشخصيــة موضع الاعتبار . تا ــ فانغ ، ان تلك الفتاة ــ لين تاو ــ شينغ ــ فاتنــة بسبب من شجاعتها وبراءتها . انها ثورية ! وواجبنا أن نساعدها ونرشدها الى الطريق الصحيحة . ألا توافقني ؟ »

استدار لو تا ــ فانغ صوبه مكشرا : « من دون ريب ! يجب أن نرشدها الى طريق الثورة ! »

على الرغم من ان الليلة كانت ليلةرأس السنة لم يكن في الشــارع عدد غفير من الناس في تلك الساعة . كان بعض المارة يظهرون علىمسرح الرؤية بين حين وحين في الشوارع معتمة الاضاءة . وتحدث الصديقان مع بعضيهما عن عملهما قبل أن يفترقا . ومنذ عودة لو شيا ــ شوانمن نانكينغ بعد المظاهرات صار بقاؤه في جامعة بكين غير مأمون بالنسبة اليه، فأحاله الحزب الى العمل سرا بين الطلاب .

نصح لو تا ــ فانغ قائلا : « أبذل قصارى جهدك واســتخدم نفوذ والدك للبقاء في الجامعة . طالما أن الرجعيين يفاقمون ضغطهم علينا سيغدو من المستحيل على كثيرين منا أن نستمر في نضالنا علنا . وهكذا يجب عليك أنت وهسو هيو أن تبذلا جهودكما لذرّ الرماد في عيون العدو كيما نتمكن من الضرب بشدة حينما تسنح الظروف . أوه ، شــيء آخر ... ان لي مينغ ــ يو موجــود الآن في مناجم تانغشسان يعمــل بين عمالهــا » .

أهاج سماع هذا النبأ لو تا ــ فانغ ، فانتصب جامدا وحملق فــي صديقه في لهفة : « صحيح هذا ! أيها العجوز لو ، أحب أن أذهب الى هنالك أنا أيضا . ليس دعابةً العملُ بين المفكرين » .

لكن لو شيا ــ شوان صديقه لو تا ــ فانغ حينما لمح شخصا يخطو صوبهما من بعيد ، وقال : «هدوءاً الآن ! وداعا! »

وافترقا . وشرع لو شيا ــ شوان يتأرجح مثل رجل سكران ،وهو ينشد مقطعا من احدى أوبرات بكين :

في ليلة الاحتفال بالقمــر
كتب الاخ هسويه رسالة في ضوء القمر ..

وتابع ترنحه منشداً ، ومن ثمة اختفى في زقاق ضيق ..

رجع يونغ ـ تسي الى بيبينغ قبل بداية الفصل الدراسي الجديد. وكان انطباعه الاول عندما دخل الى غرفتيه أن كل شيء بقي على حاله: السرير ، المكتبة ، الورود ، التحف ، وأدوات المطهى . أما تاو ـ شينغ فقد تبدلت ! انها ، وهي التي كانت على الدوام صموتا مكتئبة ، تدهشه الآن بجلوسها قريبا من الباب تنشد الأغنيات مثلها مثل أية فتاة مفعمة بالحياة . وما أثار دهشته أكثر من ذلك هو عيناها اللتان ، على الرغم من أنهما كانتا جميلتين على الدوام وكان ينقصهما البريق عادة بحيث تبدوان حزينتين ، صارتا تشعان الآن بالفرح ، وتلتمعان مثل بحيرة خريفية تترقرق على صفحتها السعادة والفتنة .

ومض في ذهنه المقطع التالي من رواية آنا كارنينا لتولستوي : « تستطيع أن تستدل من عيني المرأة الصبية ما اذا كانت أسيرة الحب . . » فتملكه على حين بغتة هاجس ينذر بالشر . فاختلس نظرات قلقة الى تاو ـ شينغ ، وما أن خرجت تشتري بعض الحاجات حتى اغتنمها فرصة فراح ينقب في الصناديق والدروج والمكتبة ، ولم يوفر سلة المهملات أيضا . لم يعثر على شيء ، بل وجد بعض الكتب اليسارية على المنضدة والى جانب وسادتها . رعش عينيه في عصبية ، وغمغم بينه وبين نفسه : « انا واثق من ذلك ـ لابد أن أحدهم كان يطارحها الغرام ».

ولما كان يونغ ـ تسي قد رجع الآونة ، فقد شرعت تاو ـ شينغ ، والغبطة تغمرها ، تطبخ له ، وتجلس الى جانبه وهو يأكل ، وتحدثه عن أصدقائها الجدد ، وعن تبدل نظرتها الى المستقبل القريب ، وعن السعادة التي عثرت عليها . كانت تقول في فكرها ان من الخطأ أن تخفي ذلك عن حبيبها . وكان لون يونغ ـ تسي يشحب وهو يصغي إليها ، فوضع قصعته من يده ، وقال عابس الطلعة : « تاو ـ شينغ ، لا أكاد أصدق الا بصعوبة جمة أنك تبدلت بمثل هذه السرعة . . . »

وتابع بعد برهة من الصمت : « أرجوك الا تستمري على هذه الشاكلة ـ فهي شيء خطير جدا . حينما يسمونك بالصبغة الحمراء فقد يقطعون عنقك ! » .

انزعجت تاو ـ شينغ كثيرا . انها ، برغم كل شيء ، لم تأتي عملا شائناً ، بل اتخذت لنفسها عددا من الاصدقاء وقرأت مجموعة من الكتب التقدمية . ففيم يثير رعبها على هذا الفرار ؟ حدقت في احتقارفي

ملامحه المرتبكة ، وما أن وثقت من أنها تستطيع أن تتكلم حتى نفَّست عن أفكارها التي لم تجرؤ على التصريح بها من قبل : « ما الذي يجعلك مفرط الحساسية ، يايونغ ــ تسي ؟ أنت مستاء من المجتمع القديم المتعفن ، وانت تعرف أن اليابانيين يدوسون فوق الصين ــ فلم تعجز عن التقدم خطوة أخرى وتقديم عمل يفيد الشعب ويفيد البلاد ؟ »

فغمغم: «الأن .. أعتقد.. أعتقد أنهذلكفوق طاقتنا، يا تاو-شينغ. هذا عمل منوط بالحكومة وقواتنا المسلحة . ماذا يستطيع المفكرون شاحبو الوجوه مقيدو الايدي أن يفعلوا ؟ طبيعي جدا أنه من السهولة بمكان الهتاف بشعارات جوفاء ! تعرفين أنت أني شاركت في الحركة الطلابية الوطنية أيضا ، ولكن هذا حدث منذ مدة من الزمن . والآن ــ الان أعتقد أن أفضل ما أفعل هو أن أنصب على دراساتي . ان لدينا منزلا ، ويحسن بنا أن نبعد عن طريق الأذية ... »

فبترت له حديثه بعنف : « كيف يمكن أن تكون أحمق بهذا الشكل؟ انت تطلق هتافك بشعارات جوفاء ! لم يخطر لي في بال أنك ستكون مثل هذا الجبان ! »

صعق يونغ ــ تسي ، ففرق في صمت عميق طوال لحظات ، وعيناه الخرزيتان تحملقان في تاو ــ شينغ . وشحب وجهه فجأة ، وارتعشت شفتاه ، فوضع رأسه على المنضدة وهو ينشج بعنف ، وقد استبان عليه الحزن أكثر منها . ليست كبرياؤه التي جرحت ــ بل هو يقاسي من غصَّات الغيرة !

ــ ... قاسية ... ياللقساوة التي طفت عليها ! لابدّ أن قلبها أصابه شيء من التغيُّر فوقعت في غرام رجل آخر ...

وتهاطلت العبرات من عينيه لدى هذه الفكرة . ان الحب ، في نظره ، هو الشيء الوحيد في العالم القادر على تغيير المرأة .

امتنع تاو ــ شينغ ويونغ ــ تسي عن مخاطبة بعضيهما بعد هذا النفور اياما عديدة ، ولكنها احتفظت بانشراحها . كانت تدندن أنغاما اثناء اعداد الطعام أو الغسيل ، وقد قوّست حاجبيها الاسودين في جذل واضح . وحينما تنتهي من أعمال البيت فهي تتناول كتابا وتروح تقرأ في شرهٍ طوال ساعات دون أن تتحرك أو ترفع رأسها . وكان استغراقها في دراساتها يجعلها تبدو وكأنها تتجاهل وجود يونغ ــ تسي وكآبة

الحياة بين تلك الجدران الضيقة . كانت روحها تحلّق في العالم الرحب الفسيح وراء هاتيك الجدران . أما يونغ ــ تسي فقد نفر من المداومة على حضور المحاضرات ، وأغلق الباب على نفسه طوال النهار في مسكنهما الصغير كيما يراقب تاو ــ شينغ . وعلى الرغم من أنه حاول أن يزيح الستار عن أسرارها ، فقد كان يرتبك وهو يرى صراحتها وصدقها . لم تكن هنالك أية دلآلة على وجود عشيق لها .

كانت تاو ــ شينغ تنحني في العشية على منضدتها وتروح تدرس في صمت كتاب لينين « الدولة والثورة » ، وتدوّن ملحوظات ، وتضع خطوطا تحت الفقرات الهامة فيه . وحينما تتعب فهي تقرأ في رواية غوركي « الأم » . ان الحماسة الملتهبة التي لاتعرف الحدود والتي أثارها هذا الكتاب في جوانحها ، بتصوره عالما أكثر سعادة ، ملأتها بسرور وقناعة لم تعرفهما من قبل . ومن جهة أخرى ، فقد كان الذهول يئيد على يونغ ــ تسي في تلك الغرفة الصغيرة ، فالتمس العون من الروائع الكلاسيكية الصينية التي كان يدرسها منذ أكثر من عام كامل . كان يجلس الى جانب تاو ــ شينغ يقرأ بصوت عال مقاطعه المفضّلة لديه . وكانت منضدته الصغيرة عامرة بمجموعات من الاوراق وأصناف من المؤلفات الكلاسيكية ، فيروح يقرأ ويقرأ الى أن يستغرق كلية في الماضي البعيد المغمور في المشاهد القديمة والطبعات النادرة . وحينما يحتاج الى راحة قصيرة فهو يستغرق في بناء قصور في الهواء ــ فيهدهد نفسه أنه « سينشيء مدرسة » ، ويغدو مفكرا عظيما ، وشخصية يشار اليها بالبنان ، وبذلك يستطيع أن يحيا حياة مترفة . كانت مثل هذه الطموحات تثيره لدفن نفسه أعمق فأعمق بين طيات كتبه .

وكانت رغبة تاو ــ شينغ في القراءة ، على أية حال ، تحركها دوافع حماستها الثورية . لم تكن تبالي ما اذا كانت تستطيع أو لاتستطيع استيعاب الآثار الكلاسيكية الماركسية ، كما لم تكن تعرف كيف تجمع بين النظرية والتطبيق ، ولكنها توالي قراءاتها على أمل أنها قد تستخلص من هذه الكتب لمحة عن العالم الجديد وعن الحقيقة التي تبحث عنها منذ زمن بعيد . وهكذا كان الشابان ــ أحدهما يتطلع الى ماهو جديد وثانيهما يتطلع الى ماكان قديما ــ يجلسان يلتهمان الكتب حتى ساعة متأخرة من الليل . ومنذ مطلع السنة الجديدة ، حينما حمل لو شيا ــ شوان الى



تاو ــ شينغ هذه الكتب الجديدة ، تحولت نظرتها الى الحياة تماما . ان تأثيرها على مشاعرها لم يعد أقل اثارة . وقد ظلت طوال سنوات عديدة تلت ذلك تتذكر بوضوح تام أن اول كتاب قدمه لو شيا ــ شوان اليها كان بعنوان « كيف تدرس العلوم الاجتماعية الجديدة » . وهــي تستطيع أن تتذكر كيف اضطجعت متكومة تحت لحافها تقرأ في ساعــة متأخرة من عشية رأس السنة ، غافلة عن أن المدفأة انطفأت نارها وأن ريحا قارسة تصفر من خلال شقوق الجدران . ظلت تقرأ وتقرأ ، مسلوبة اللب بطوله ، الى أن أنهت قرأءة المجلد الصغير .

أعطاها لو شيا ــ شوان اربعة كتب ماركسية ــ لينينية رئيسية تتحدث في العلوم الاجتماعية ، فأخذت منها قراءتها خمسة أيام كاملة من الدراسة المركّزة . لم تدرك الا قليلا مدى التأثير البعيد الذي ستسبغه هذه الايام الخمسة على حياتها . فقد كشفت لها هذه الكتب عــن اتجاهات تطور المجتمع البشري ومستقبله ، وسلّطت الضوء على الحقيقة وعلى الطريق التي يجب أن تسلكها . ووعت عن طريق تلك الكتب ماهو موجود خلف هذين السطرين اللذين كتبهما تو فو(١) :

خلف تلك البوابات القرمزية يضيع اللحم والخمرة هباءً
فيما تضطجع على الطريق خارجا عظام الرجال الذين جلّدهم الموت .

وأخبرتها تلك الكتب عن السبب في وفاة أمها ، وطردت التشاؤم واليأس اللذين ما أكثر ما اغارا عليها في عنف وقسوة ، وأفعمت فؤادها بحماسة ثورية عنيفة دفعت بها الى الامام قدما .

كانت ترجو أن يزورها لو شيا ــ شوان ويحمل اليها مزيدا مــن هذه الكتب . وعلى سبيل المثال فهي لم تستطع أن تستخلص شيئا من كتاب « أنتي دوهرنغ » لأنجلز ، أو كتاب « بؤس الفلسفة » لماركس . ومع ذلك فان رغبتها الفتية الملحة في المعرفة ، وروحها الوثابة ، جعلاها تقرأ وتقرأ وتقرأ سواء استوعبت ما تقرأ أو لم تستوعبه . كان يونغ ــ تسي بعيدا عنها في ذلك الوقت ، وكانت وحيدة ، وهذا ماجعلها تكرّس خمس عشرة او ست عشرة ساعة للقراءة يوميا ــ حتى أنها كانت تقرأ أثنـــاء

---

(١) شاعر واقعي من عهد سلالة تانغ (٧١٢ــ٧٧٠).

الطعام . ولما كانت نقودها قد نفدت فلم تكن تستطيع أن تؤمن لطعامها غير الخبز المحمَّس المصنوع من دقيق الذرة الرديء . كانت تضنّ على الوقت أن تضيعه في اعداد الطعام . ولم يكن خبز الذرة مستساغ الطعم، غير انها كانت تستغرق في كتبها بحيث تنهي طعامها دون أن تنتبه الى ذلك . وبعدما اكتشفت «النكهة» الجديدة في كتبها لم تعد تفترق عنها لحظة واحدة .

– هسو نينغ ، الا خبرني : هل الميتافيزياء والمنطق الصوري شيء واحد ؟

– اذا كانت المبادىء الرئيسية الثلاثة للدياليكتيك يمكن أن تطبق في كل حالة ، فما هو معنى انكار الانكار ؟

– لماذا لم يبدأ الاتحاد السوفييتي مجتمعا شيوعيا بعد ؟ وكيف ستكون الصين تحت لواء الشيوعية ؟

– ...

هذه بعض أسئلة كانت تبحث لها عن جواب .

ولما كان هسو نينغ يزور بيي لي – بينغ في اغلب الاوقات ، فقدكان يزور تاو – شينغ التي تسأله في كل مرة أن يشرح لها بعض القضايا التي تثير حيرتها . وكان مرغماً في كثير من الأحيان على أن يهزّ رأسه ويغتصب ابتسامة وهو يقول لها : « رويدك ، يا آنسة ! ألا تعتقدين أنك تعضين اكثر مما يمكن أن تمضغي ؟ كيف يمكن لأي امريء أن يستوعب هذه الآشياء كلها في زمن قصير ؟ اخاف أن أكون عاجزاً عن الاجابة عن جميع أسئلتك » .

ولكنه حينما تصل الامور حقا الى شرح نظريات ، فقد كان هسو نينغ يقدم لها شروحا متحمسة متماسكة تستطيع استيعابها . وكانت تاو – شنغ تغتبط أيما اغتباط وتفخر لحصولها على مثل هؤلاء الأصدقاء الجدد . فاستعادت نضارة شبابها التي بدا وكأنها تنسرق عن ملامحها، فتروح تغني أو تهمهم في أغلب الأوقات في سعادة شاملة ، وتملأ يومها حتى حافته كما لو كانت واقعة تحت سيطرة طاقة لا حدود لها . مثل هذه السعادة كانت أبعد من مستوى وعي يونغ – تسي ، فازدادت شكوكه ، وطفق يعاني من غصات الغيرة الناهشة .

١٣

كانت تاو ــ شينغ تشعل الموقد في الساحة لإعداد طعـام الغداء حينما رفعت رأسها فلمحت لو شيا ــ شوان داخلا . فوضعت على الفور قطـع الفحم وأسرعت ترشده الى غرفتها ، متجاهلة حقيقة أن النـار بدأت تلتهب في الموقد .

قال لو شيا ــ شوان ، وقد وقف يبتسم الى جانب الموقد فيمـا هي تضع قطع الفحم في النار : « فيم العجلة ؟ لمَ لا تضعين قطع الفحم أولا ؟ فالنار قـد تأكل بعضها وتخمد سريعاً ! » .

وارتفعت موجات من دخان أسود كثيف تتموّج من قلب الموقد، وكانت تاو ــ شينغ مرتبكة اهتياجا لرؤيته اياها وهي تؤدي مثل هـذا العمل المنزلي التافه . وفاقمت مساعدة لو شيا ــ شوان الرشيقة لهامن ارتباكهـا .

قالت في نبرة موبِّخة : « أيها الاخ لو ، أنا لم أرك منذ فترة طويلـة . تفضل ! كيف كانت أحوالك ؟ لاتستطيع أن تعرف كيف كنت أنتظـر في توق ... »

وقفت هنالك يشوشها ارتباكها . صافحها لو شيا ــ شوان في هدوء ، ثم سحب كرسيا لنفسه الى مقربة من الباب . وابتسم لهـا ، وقال : « حسنا ، كيف كانت الامور تسير معك ، يا تاو ــ شينغ؟ كنت مشغولا ــ ولذلك لم أزرك » .

بذلت تاو ــ شينغ جهدها لتفرخ روعها ، لكن دفقة من الاحترام والسرور الفائضين لذلك اللقاء جعلت عينيها تبرقان . فاستندت الى المنضدة وهي لاتبرح تحسّ بالخجل والارتباك ، وقالت في لطف : « أيها الاخ لو ، كنت أقرأ كثيرا وتعلمت أشياء كثيرة . لقد بدلتنـي الامـور التي تعلمتها ... »

واحمارّت وجنتاها ، عاجزة عن أن تعرف كيف تعبر عن مشاعرها. ومرت لحظات أدرك خلالها أن ارتباكها وبلبلتها همدتا دون أن يشعر بهما ، هدأت ثائرتها تماما فحدثته عن الكتب التي قرأت ، وعن الانطباعات التي خلفتها فيها ، وعن التبدلات التي طرأت على مشاعرها . وازدادت معنوياتها وهي تتحدث الى أن تلاشت آخر آثار العصبية . ثم حنت راسها الى جانب ، وشعّ وجهها ، وأسرّت له : « أليس ذلك غريبا ، أيها الاخ لو ؟ في هذه الفترة القصيرة صرت انسانة أخرى مختلفة الاختلاف كله ــ فأنا أشعر أنني أصغر سناً الآن ! »

شملها بنظره خلال عينيه نصف المقفلتين ، وابتسامة شبه ساخرة تتلاعب حول شفتيه ، وقال : « لم تكوني عجوزا أول الامر ، فكيف يمكن أن تشعري أنك أصغر سناً ؟ »

فقالت تاو ــ شينغ في جدية مطلقة : « أؤكد لك أن ذلك صحيح . أنت لاتعرف ، أيها الاخ لو ، ولكنني على الرغم من أنني لم أتجاوز العشرين بعد ، فان ... ان حياتي الماضية جعلتني أشعر وكأنني امرأة هرّمتها السنون . كل شيء في الحياة بدا لي من دون معنى ومن دون أمل . كنت في يأس شديد الى درجة أنه خطر لي أن أضع حدا لحياتي ... غير أنني ، منذ ليلة رأس السنة ، حينما التقيت بكم جميعا فشجعتموني على قراءة هذه الكتب طرأ تبدّل فجائي .. »

التفتت فوجدت يونغ ــ تسي في وسط الغرفة وعيناه الخرزيتان مثبتتان على لو شيا ــ شوان . فتوقفت عن الكلام فجأة . وقبل أن يتاح لها متابعة الحديث كان يونغ تسي قد استدار اليها عابسا : « الموقد يلتهب . لماذا لم تهتمي بطهوك ؟ هل يمكن أن يملأ الحديث الصاخب معدتنا ؟ »

وخرج من الغرفة دون أن ينتظرمنها جوابا ، وصفق الباب وراءه بشدة ..

أحست تاو ــ شينغ وكأنها نبتة أتلفها الصقيع المفاجىء . توردت وجنتاها برهة من الوقت ، وأعجزها الغضب عن أن تقول شيئا . كان لو شيا ــ شوان أكثر منها تجربة ، وقادراً على التغلب على المشكلات في الحالات الدقيقة . نظر الى الباب الذي انصفق ، ثم رجّع بصره في هدوء

الى وجه تاو ـ شينغ الذي يعصره الألم . نهض واقفا ، واتجه اليها قائلا : « التقيت بالاخ يو من قبل ... وباعتبار انه يستعجل الطعام، فيفضل أن تهيئيه له على الفور . لاينبغي ان نترك محادثتنا تزعجه. لم لاتنقلي الموقد الى الداخل بحيث نستطيع أن نتحادث وأنت تهيئين له الطعام ؟ »

فوافقت تاو ـ شينغ في اغتباط : « حسنا ! »

كانت خائفة من ان تفضب تلك الحادثة لو شيا ـ شوان فيرحل. فلما عرفت انه سيبقى غمرتها السعادة وسرعان مانقلت الموقد ووضعت الارز فوقه . وأفسح سخطها السبيل تدريجيا للاكتئاب . قالت ، ورأسها مخفوض : « أيها الآخ لو ، يجب أن تجد لي مخرجا . فأنا مقطوعة عن كل شيء ، ولا اتنفس الا بصعوبة بالغة !»

ثم رفعت نظرها ، وكانت عيناها شديدتي اللمعان : « هل توصي بي للانضمام الى الجيش الاحمر ، أو الحزب الشيوعي ؟ أشعر أني على أتم الاستعداد للاشتراك في الثورة ، أو الى المتطوعين الشماليين الشرقيين المناهضين لليابانيين ؟ »

فأطلق صيحة انشداه . هذه الفتاة تظن أن الانضمام الى الثورة من أبسط الامور ! تطلع اليها متأملا ، واستوضح : « لماذا ؟ لماذا تريدين الانضمام الى الجيش الاحمر ؟»

ـ أن أكون حجرا كريما مكسورا افضل من أن اكون قرميدة كاملة ، كما يقول المثل . لست أريد ان اضيّع حياتي على طريق رتيبة لامعنى لها . منذ أن كنت طفلة َبعدُ عزمت على أن أعيش في سبيل هدف معين . فاذا لم يسمح لي هذا المجتمع الشرير أن أعيش سعيدة ، فأنا أفضل الموت اذن !

وازدادت حمرة خدها ، ولمعت عيناها السوداوان فيما هي تتابع قائلة : « وبعد قراءتي للكتب الثورية التي أعرتها لي بدأت أعرف الحقيقة واتخذت قراري ان أنذر نفسي لقضية الحقيقة . وأنا أؤمن أنه كيما نجعل الحياة ذات شأن ينبغي أن نعيش مثل الابطال الذين يذهبون الى بيوتهم . أيها الاخ لو ، اسمح لي أن أغوص في أعماق المعركة ! فأنا لا استطيع الاستمرار في الحياة على هذه الشاكلة . »

قعد لو شيا ــ شوان هنالك ينقر على المنضدة وكأنه يؤكد هذا التدفاق من الكلمات . ثم هزّ رأسه وارتسمت نظرة ساخرة خفيفة في عينيه المفعمتين حياة من جديد .

ــ تاو ــ شينغ ، دعينا نناقش هذه المعضلة اولا . وبالمناسبة ، اذا أنت لم تحركي الارز فلسوف يلتصق بقعر المقلاة . لقد كانت لك بعض المناوشات مع أسرتك في الماضي ؛ وقد كرهت هذا المجتمع المظلم ؛ وهذه أنت الآن في عجلة من أمرك للانضمام الى الثورة والقتال في ساحةالوغى. فما هو هدفك بعد كل شيء ؟

شدهت تاو ــ شينغ ولم تعرف بماذا تجيب . عضت على شفتيها متفكرة ، ونسيت الارز ، فملأت الغرفة رائحة حريق . كانت غارقة في أفكارها بحيث لم تلحظ لو شيا ــ شوان وهو يحرك الارز وينقله الى جانب الموقد لينضج على مهلة . وبعيد لحظات قليلة قالت في كلمات مترددة ، وهي تنظر اليه في شيء من الارتباك : « أنا لم أفكر في الامر مليا ... ولكنني لا أؤمن أني أريد الانضمام الى الجيش الاحمر لغايات انانية . أنا أكره الانانيين الذين لايفكرون الا في مصالحهم الشخصية» .

سألها قائلا : « أواثقة أنت من ان افكارك ورغباتك لاتمليها عليك وجهات نظر شخصية ؟ »

فوثبت على قدميها : « أتقصد اني فردانية ؟ »

فأجاب في وقار : « كلا ، انا لا اقصد ذلك . لديّ سؤال أطرحه عليك : فيم تهيمين على وجهك شرقا وغربا، تدسين اصبعك في هذا الشيء وتستديرين بأنفك عن ذاك ؟ ما الذي يجعلك تشعرين بالبؤس والاكتئاب ؟ وعلى من تكتئبين ؟ على الجماهير المعذّبة أم على نفسك ؟ الآونة أنت تريدين الانضمام الى الجيش الاحمر او الحزب الشيوعي وتصبحين بطلة .. ما هو باعثك على ذلك ؟ أن تنقذي الناس من عذاباتهم أم أن ترضي طموحك الخاص ــ الا وهو أن تعيشي حياة بطولية وتهربي من محيطك المشوش الراهن ؟ »

شعرت تاو ــ شينغ بالدوار . ولم تستطع بعد شيء من التردد الا أن تبتسم مرة أخرى وهي توقن مقدار فهم لو شيا ــ شوان لأسرارها العميقة ! احست بشيء من الخجل ، فاستدارت ناحية ، وتلعثمت : « أيها الاخ لو ، أنت على صواب . كل ماكنت أتمناه في الماضي هو أن

أصير انسانة طيبة ــ ألا أستثمر الآخرين أو أجعلهم يستثمرونني . واعتقد أنني كنت افكر في نفسي فقط . صحيح أنني لم أفكر في الآخرين في أغلب الاوقات ، ولكنني لا أبرح عاجزة عن الفهم . فقد كنت على الدوام أدّخر مصروف جيبي وأعطيه الى سائقي الريكشا والمتسولين . فأنا أحب مساعدة الفقراء . هل تستطيع ان تقول أنني كنت أفعل ذلك لنفسي أيضا ؟ » .

أومأ لو شيا ــ شوان برأسه ، وقال : « أعتقد أنه كيما نقدر قيمة تصرف أيٍّ كان ــ بما فيه جميع جهوده ونضالاته ــ ينبغي أن ننظر ليس الى بواعثه فحسب ، بل الى تأثير أفعاله . هل يساعد المجتمع على التحرك قدما ، أم أنه يمجد تعفنه ويساعد على الحفاظ على هذا التعفن ؟»

وانبثقت من عينيه ابتسامة لطيفة ذات مغزى . رمى بصره في حذر خارج الباب ، ثم رجع به ناحية مقلاة الارز المهملة ، واسترسل يقول : « قد تكونين مددت يد المساعدة الى عدد من سائقي الريكشا والمتسولين ، يا تاو ــ شينغ ، لكن هل في مقدورك أن تؤمني الطعام لآلاف سائقي الريكشا والمتسولين ؟ بصرف النظر عن اشباع رغبتك الشخصية في أن تكوني « طيبة » ، فما فائدة احسانك الى المجتمع كمجموع والى الجماهير المعذبة ؟ أما بخصوص انضمامك الى الجيش الاحمر والذهاب الى ساحة القتال ، فان نياتك طيبة ، ولكن يجب أن تكوني واقعية . وبعد كل شيء فهنالك أشكال مختلفة من العمل الثوري . هنالك القتال الوحشي ضد العدو ، وهنالك النضال في الحياة اليومية ، هذا النضال الذي يظهر مألوفا جدا بحيث لا يلحظه الناس الا بصعوبة فائقة ؟ »

وتوقف عن الحديث ليحرك الارز الذي شرع يحترق من جديد ، ورمى تاو ــ شينغ بنظرة أخرى : « خذي ، مثلا ، الاعمال البيتية كالطهي والغسيل اللذين تمارسينهما الآن . انها أعمال تافهة وقد تبدو غير ذات قيمة ، لكن فلنفترض أننا نقوم بها في سبيل الشعب وفي سبيل الثورة ، فلنفترض أنها شيء ينبغي أن يُفعل ، وأن المهمة مطلوبة منا ، عندها يجب علينا أن نفعلها . الانضمام الى الثورة لايمكن أن يعني بالضرورة القتال في ساحات القتال . . ماقولك في ذلك ، يا تاو ــ شينغ ؟ ألا زلت تصرين على الموت مثل بطلة في الجبهة ؟ »

ابتسم ، فابتسمت تاو ــ شينغ بدورها . وأخذت معنوياتها ، مثل

مركب شراعي صغير تتقاذفه الامواج ، ترتفع وتنخفض مع كل كلمة يقولها . وعندما رأت أنه يقدم لها نصيحة صادقة صريحة ومشجعة ، فسرعان ما أبلّت من الضربة التي اصابت اعتبارها لذاتها . ان ضحكته المرحة واهتمامه الدافيء بها جعلا فؤادها يتقد حرارة .

قالت وابتسامة تشرق على خديها المتورّدين وعيناها الحلوتان تومضان : « أيها الاخ لو ، لكم أنا ممتنة لك ! »

ـ ماذا ؟ ألم ينته الغداء بعد ؟

كان يونغ ـ تسي قد تسلّل الى الغرفة . طوّح قبعته على السرير، وجلس متصلّب العود ، وحدّق في تاو ـ شينغ .

شحب وجهها فجأة ، ونظرت اليه في ارتباك ، عاجزة عن النطق. لم تكن ترغب في التخاصم معه امام لو شيا ـ شوان .

كان لو شيا ـ شوان لبقاً ، فلما استشعر التوتر في الجو حمل قبعته ، وأومأ ليونغ ـ تسي مبتسما ، وخاطب تاو ـ شينغ والابتسامة الهادئة لاتبرح مطبوعة على شفتيه : « حسنا ، لقد تحدثنا حديثا جيدا هذا النهار . لقد حان الآن وقت تناولكما الغداء ، وينبغي أن أذهب » .

وأومأ ليونغ ـ تسي ايماءة أخيرة ، ودلف خارجا .

تبعته تاو ـ شينغ في صمت الى البوابة ، ثم رجعت وهي تعضُّ على شفتيها . استدارت ، فوجدت يونغ ـ تسي وراءها ، وقد بدا عليه التقطيب والغضب .

لجأت تاو ـ شينغ الى فراشها دون أن تتناول عشاءها في تلك الليلة ، تشوشها الافكار والاحاسيس التي وجدت صعوبة في تحديدها. كانت عاجزة عن النوم ، وحينما تطلعت الى يونغ ـ تسي رأت رأسه منخفضا ورأته يحاول أن يتحقق من شيء . فتغرغرت عيناها بالعبرات .

ـ أيمكن ان يكون هذا الرجل مَنْ احببت بشغف وسلّمت قلبي له ؟...

وجرّت اللحاف فوق رأسها لتخفي صوت نشيجها .

ظلَّ يونغ ـ تسي يقعد غارقا في أفكاره . لقد عرف طوال زمن ان تاو ـ شينغ تصادق لو شيا ـ شوان ، وجعلته نبرة حديثهما غير المتكلف اليوم يدرك بوضوح أكثر لماذا تبدّلت . بذل جهده للتغلب على غضبه ، قائلا في نفسه أنه لايليق بشرف الانسان ان يسمح لامرأة أن تؤذيه

أو تهينه . الا أنه حينما استعاد في ذاكرته وجه لو الوسيم الذكي وأسلوبه غير المألوف ، وتذكّر البريق في عيني تاو ـ شينغ المتقدتين عاطفة وهي تنظر اليه ، فقد اعتصره الحزن والغضب والحقد . عصر دماغه طويلا والضجر يضنيه ، ولكنه لم يستطع أن يتخذ قرارا بما يمكن أن يفعل. كانت تاو ـ شينغ عنيدة وحروناً ، وقد تتصرّف وفق هواها . ولم يك يستطيع أن يقنعها بالحجة أو يستدر عطفها بالعبرات . وكذلك لم يكن يستطيع أن يرغمها على الخضوع باستخدام القوة ... فما هو الحل اذن ؟ توصل اخيرا الى ما اعتبره خطة ناجحة . لسوف يخط رسالة الى لو شيا ـ شوان ينبّهه فيها أن يكون أكثر حذرا اذا كان يملك شيئا من الاخلاق .

وكانت الرسالة على النحو التالي :

عزيزي السيد لو ،

نظرا لحقيقة أننا زملاء دراسة في جامعة بكين ، وأن أسرتك وأسرتي تنحدران من قرية واحدة ، وأن أياً منا لايحمل للآخر أية ضغينة شخصية ، فأنا أرى انه أمر لايدرك غوره أن تلجأ ، تحت ستار نشرك لنظريات معينة ، الى تسميم عقل زوجتي بمثل هذه الدرجة بحيث أنها تتصرف وفقا لتعليماتك . واذ هي راحت الآن تتحدث عن « الثورة » و « النضال » طوال النهار ، فان سعادتنا البيتية قد تضعضعت بصورة لامبرّر لها . لكم يثير الاسى أن تسعد أنت على حساب شقائي وأن تبني مستقبلك على حساب تعاستي ، رغم أنك قد تجد أنك حققت رغبة فؤادك ... ينبغي أن يكون لكل انسان شيء من الاخلاق ، والاّ يدمّر سعادة الآخرين باستخدامه كلمات محرّضة وخطبا وردية . ان التصرف على هذا الغرار مخالف للضمير والاخلاق . أسمح لنفسي أن أقدم لك هذه الكلمات نصيحة ، وآمل أن تفكّر جيدا قبل أن تصل الى نتيجة تحدد فيها ما اذا كنت أنا على صواب أم أنا على خطأ .

أرجو ان أبقى ياسيدي العزيز

المخلص لك جداً

يو يونغ ـ تسي

شعر بقليل من الارتياح بعد كتابة هذه الرسالة ، وقد نفّس عن سخطه ونقمته . ختم الرسالة ، وتمطّى ، وتثاءب ، ومضى الى الفراش . كانت تاو ــ شينغ مستغرقة في النوم . وكان وجهها البيضوي الشاحب أشبه برخام منحوت نقيّ ، هادىء ولطيف ، يؤطره شعرها الاسود القصير الناعم . كانت روحَ الفتنة والجمال . وكانت ابتسامة صغيرة مختبئة في زاويتي نظرها رغم أن الدموع لاتبرح تتلألأ على وجنتيها . قال في فكره : « كيف ، لقد كانت تبكي ! » وتلاشى غضبه وتوتره على الفور ، وحل مكانهما شيء من الشفقة والعطف . وسرعان ما توضّح له أنها ليست أكثر من فتاة عادية لها مثلها العليا ، وانه يجب عليه أن يفهمهما ويغفر لها ... وقف هنالك يراقبها برهة وهو يفكر : « انها مثال الطيبة والشرف بحيث لايمكن أن تخونني أو تعشق انسانا غيري . ففيم أكدّر نفسي من دون سبب ؟.. » ولان فؤاده كما لو كانت شكوكه كلها قد تبخّرت . وانحنى وطبع قبلة على وجنة تاو ــ شينغ ، ومن ثم استجمع اطراف شجاعته والقى بالرسالة فوق جمرات الموقد في نزاعها الاخير . وما أن التقطها لسان النار لالتهامها حتى شعر كمن قام بعمل بطولي فذ . رفع ذراعيه ، وضرب الهواء عدة ضربات مثلما يفعل الملاكم ، ومن ثم تثاءب مرة اخرى ، وخلع ملابسه ، واندس في الفراش .

١٤

ذات يوم مرّ هسو نينغ بمنزل بيي لي ــ بينغ ، فلما لم يجدها فيه عرّج لرؤية تاو ــ شينغ . سأل ، وهو لا يبرح في الغرفــة الخارجية : « اين لي ــ بينغ ؟ وفيم خرجت ؟ انهــا ليســت من طــراز اللواتي يلزمن بيوتهــن » .

ولمحت خيبة الامل تظلل وجهه الوسيم .

كان هسو نينغ على علاقة طيبة مع تسوي هسيو ــ يو ، ولكنه بعد رحيلها الى الشمال الشرقي وقع أسيرا لفتنة لي ــ بينغ ، وصار الاثنان يتزاوران كثيرا في الفترة الاخيرة . ولما كانت لي ــ بينغ اجتماعية ولها أصدقاء كثيرون ، فقد كانت تمرّ أوقات لا يعثر لها فيها هسو نينغ على أثر . وفي مثل هذه الحالات فهو يعرّج على تاو ــ شينغ مستطلعا أنباء لي ــ بينغ .

جلس شارد البال ، واستوضح : « أخبريني ، يا تاو ــ شينغ ، ماهي حقيقة الامر مع لي ــ بينغ ؟ »

فردت على استيضاحه بسؤال آخر : « هل وصلتك أنباء مــن هسيو ــ يو ؟ أصحيح أنها انضمت الى المتطوعين للقتال ضد اليابانيين؟ »

احمرت وجنتا هسو نينغ لدى سماعه هذه الكلمات ، وغدا هذا الشاب المرح المفعم حيوية ، الذي يعمّ بوجوده الضحكُ والانشراح ، غدا مكتئبا مربوط اللسان على حين فجأة . حدّق زمنا في صورة بيتهوفن المعلقة على الجدار ، ثم أدار رأسه على كره منه ، وابتسم بمرارة : « تاو ــ شينغ ، لا أريدك أن تخطئي فهمي . انحبي لهسيو ــ يو ليس فيه شيء مشترك من شعوري نحو لي ــ بينغ . كان يمكن أن أذهب الى الشمال الشرقي مع هسيو ــ يو للانضمام الى المتطوعين ، ولكن أمي ،

وحقيقة أني سأتخرج في وقت قريب ... انا أعرف طراز لي ـ بينغ ... »

قالت تاو ـ شينغ ، وكانت عاجزة عن أن تتحدث بحدة ، رغم انها لاتوافق على وجهة نظر ذلك الشاب فيما يتعلق بالحب : « وداعاً لما تعرفه » .

واستحثته في صراحة : « هسو نينغ . لآتنسَ هسيو ـ يو ! انها واحدة من الافضل بيننا » .

لمس اهتمامها المخلص الصدوق شغاف قلبه ، فراح يفتح لهامغاليق فؤاده : « أنت على حق ، يا تاو ـ شينغ . اذا أردت الحقيقة فهي لاتبرح ذهني على الاطلاق ، وعندما أفكر أنها أغاظتني ... أنت ترين .. لم أكن أبالي بلي ـ بينغ كثيرا في البداية . لكن ... لكن لها أسلوبا خاصا .. والمشكلة هي أن عملنا يجمع بيننا كثيرا ، و ... حسنا ، فلنكفّ عن الحديث في هذا الموضوع . أنا واثق أنني قادر على الانتصار على عواطفي » .

واستغرق في التفكير برهة ، ثم نهض يبغي الرحيل .

أوقفته تاو ـ شينغ قائلة : « هسو نينغ ! أخبرني ان كنت رأيت العجوزين لو شيا ـ شوان ولو تا ـ فانغ . ماذا يحدث ؟.. »

ـ أوه ، شكرا لتذكيري . لقد طلب الي ّ العجوز لو أن أخبرك أن الغداة هو ذكرى حادثة الثامن عشر من آذار . وسيقيم طلاب بيبينغ احتفالا تذكاريا كبيرا ، وقد تعقبه مظاهرة . أتودين المشاركة فيه ؟

ـ وفيمَ المظاهرة ؟

ـ لمعارضة سياسة الكيومنتانغ في عدم المقاومة ، والخطوات العدوانية التي تتخذها اليابان ضد الصين ، والامبريالية الاجنبية وأتباعها . وبالتالي لمناصرة الاتحاد السوفييتي الاشتراكي .

هتفت تاو ـ شينغ دون تردد على الاطلاق : « سأشترك معكم ! هل ستذهب أنت أيضا ؟ وماذا عن العجوز لو ؟»

ـ سيكون هنالك ، من دون ريب .

لقد تبددت كآبة هسو نينغ كلها . هزّ قبضته في وجهها وعبس : « طبيعي أنني سأكون هنالك أيضا . وبالاضافة الى ذلك ، يا تاو ـ شينغ ، يجب أن تبذلي جهدك لاقناع صديقاتك على الاشتراك معنا . ان العجوز

لو يريدنا أن نستثير الجماهير . يجب أن اذهب الآن . سأراك غدا . سوف نجتمع على أرض جامعة بكين في الثامنة . لاتنسي أن تجيئي ! »

وقفت تاو ــ شينغ وحيدة على الوصيد تتابع بعينيها هسو نينغ الى أن غيبه النظر . كانت تبتسم . انها لم تشترك قط في لقاء أو موكب جماهيري . وتساءلت : كيف يمكن أن يتمَّ ذلك ؟ طفى عليها اهتياج غريب ، ومرت فترة طويلة قبل أن يهدأ في جوانحها .

حينما رجع يونغ ــ تسي الى البيت متأبطا رزمة من الكتب أسرعت تاو ــ شينغ اليه وقالت متلاطفة : « لسوف أشارك في مظاهرة الثامن عشر من آذار في الغداة ، يا يونغ ــ تسي . تعال معي ! »

فحدق في وجهها في رعب : «ماذا ؟ ماذا ستفعلين ؟ »

ــ أشارك في موكب الثامن عشر من آذار . كيف ، ألا توافقني ؟

وضع يونغ ــ تسي كتبه كيفما اتفق ، وانقضت فترة طويلة قبل أن يتمكن من الكلام . قال في نبـرة موحشـة عابسـة : « لاتفعلـي ، يا تاو ــ شينغ ! أصغي اليّ هذه المرة . سمعت أن اعتقالات كثيرة حدثت ... انقاذ البلاد أمر رائع ، لكن فيم اصطناع جلبة بخصوص الثامن عشر من آذار الذي لايستأهل الاحتفال به ؟ اذا حدث شيء ... تاو ــ شينغ ، كوني متعقلة ! قد تنفجر عاصفة في أية لحظة ، ومن يدري أين يضرب برقها .. »

كانت في عينيه المركّزتين نظرة متوسلة ، وعلى صفحة وجهه ملامح القـلـق .

وكان من عادة تاو ــ شينغ الاعتصام بالصبر حينما يروح يونغ ــ تسي يحاضرها ويناكدها : « كلا ! لسنا جبناء مثلك جميعا ، تخشى أن تسحقك احدى اوراق الخريف حتى الموت ! »

وما ان بلغ الحديث الى الثورة حتى انفجرت على الفور ولم تعـد تطيق أيّ تدخل منه : « انسَ ذلك . أردتك أن تذهب معي ، وها أنذا اكتشف الآونة انك لاتريدني أن أذهب . حسنا ، فلنكفّ عن الحديث ، وليهتم كل منا بقضاياه » .

وركضت خارجة من المنزل .

انطلقت ، متحمسة لأقناع مزيد من الناس بالاشتراك في الموكـب على ما أخبرها لو شيا ــ شوان ، لرؤية صديقتها هسياو ــ ين .

سألتها هسياو ــ ين : « فيم المظاهرة ؟ »
ــ لمعارضة اعتداء الامبرياليين اليابانيين ، ومعارضة سياسة الكيومنتانغ في عدم المقاومة ، ومعارضة الامبريالية الاجنبية واتباعها ، ومناصرة الاتحاد السوفييتي الاشتراكي ..

ظلت هسياو ــ ين معتصمة بصمتها لحظات ، فيما تاو ــ شينغ منتصبة تراقبها في عصبية منتظرة جوابها . قالت أخيرا في حماسة،وقد هزت رأسها : « لاتغضبي ، يا تاو ــ شينغ ، ان لم أذهب معك . يقول والدي ان على الشبان أن يدرسوا قضايا أكثر وأن يتحدثوا في السياسة أقل . أنت لم تشتركي في الموكب بعد ، ولكنك تتحدثين في السياسة طوال الوقت ... أنا لاأعرف الامور التي تتحدثين عنها ، لا أعرفها حقا » .

عبست تاو ــ شينغ ، وقد توردت وجنتاها قليلا ضيقا وتكدرا : « هسياو ــ ين ، أنت تستشهدين بهو شيه . متى أصبحت حوارية له ؟ »

اتسعت عينا هسياو ــ ين وشعت فيهما ثقة بالنفس ساذجة ، وقالت في شيء من الخجل : « لاتسأليني ، يا تاو ــ شينغ . والدي مفكر موهوب وأنا اثق فيه ... لاتسمحي لنفسك بالانجراف مع حجج اليسار . الدراسة أكثر اهمية من أي شيء آخر : ماذا يستطيع الاتحاد السوفييتي ، سواء كان بلدا اشتراكيا أم لم يكن ، أن يفعل لنا؟ »

كانت هسياو ــ ين تملك قلبا طيبا ، وكان استنكارها اللطيف ، المبني على عدم أيمانها ، يختلف الاختلاف كله عن جبانة يونغ ــ تسي الانانية . فشعرت تاو ــ شينغ ، بكل بساطة ، بخيبة أمل عنيفة من صديقتها ، ولكنها لم تشعر بشيء من الامتعاض الذي أثاره يونغ ــ تسي في صدرها . وخطر لها أنه ليس هنالك مايمنع أن تبدي صلابة تجاه من تحب ، لكن من الخطأ أن تبدي اكتئابك في وجه صديق .

نظرت كل من الفتاتين الى الاخرى في صمت طوال دقيقة ، ومن بعد آبت تاو ــ شينغ الى بيتها تنهشها الحيرة .

في تلك الليلة تحدث اليها يونغ ــ تسي ، وهما في السرير ، في صوت منخفض رقيق عن حياة وغراميات عظماء الفنانين والكتاب في العالم ــ كيف أثلج جمال الطبيعة قلوبهم فضحوا في سبيل الحب بجميع مايملكون . راح يمسد لها شعرها ، ويهمس في رقة : « تاو ــ شينغ ، أما زلت تذكرين تلك الايام التي قضينا على شاطيء بيتايهو ؟ أتذكرين تلك الليلة

التي جلسنا فيها نصغي الى توثبات الامواج ؟ كان البحر يتلألأ في ضوء القمر الفضي . حدّقتُ في عينيك ــ عينين عميقتين براقتين جميلتين مثل البحر ! وقد أسكرني جمالك بحيث وددت أن أضمك بين ذراعي وأنهال عليك بالقبلات . أبداً لن أنسى تلك الليلة أو الاوقات التي أمضينا معا في بيتايهو . لو كنا نستطيع أن نقضي حياتنا بطولها في مثل تلك الاجواء الجميلة الشاعرية !»

أغلق عينيه وقد استغرقته الذكرى ، ثم فتحهما وفيهما نظرة ألم: « ولكنك حينما تقفين أمام الحقيقة وجها لوجه ــ الضجر ، والتوتر ، والنضال العقيم ضد المصالح الشخصية ورائحة البارود في كل مكان ــ كيف تستطيعين أن تشعري بمرارة الروح العميقة ؟..»

وصعّد تنهيدة حرّى وعيناه مغمضتان ، ولف ذراعيه حول عنقها.

أمرّت كلمات يونغ ــ تسي في مخيلة تاو ــ شينغ صورة عن المحيط الفسيح المهيب ، المتموج فضيا تحت ضوء القمر . فقبضت على يديه ، وحدّقت فيه في وداد . وغمغمت : « بلى ، ما كان أجمله ! » . غير أن تفجّعه الاخير على صعوبات الحياة العملية وأخطارها أهابت بها أن تأخذ حذرها ، فسحبت يديها في لطف ، وهمست : « لآتجعل الاموراكثر صعوبة بالنسبة اليّ ، يا يونغ ــ تسي ، أرجوك . مؤكد أنك لاتستطيع أن تفهمني ... من الطبيعي أنني لن أنسى بيتايهو حيث التقينا اول مرة » .

كان فؤادها أشبه بخصلة متشابكة ، فهي ترنو الى المستقبل متأمِّلة ، دون أن تستطيع نسيان الماضي . كان الماضي والمستقبل ،في اعماق فؤادها ، متعارضين تماما ، ورغم ذلك كانا مرتبطين ببعضهما بوثاق متين .

راح يونغ ــ تسي يلاطف شعرها : « حبيبتي ! أنا لا أعارض البتة وقوفك الى جانب الحق . وأعرف أن من واجبنا أن نجعل لحياتنا معنى ساميا ، ولكنك صغيرة صغيرة بعد وعديمة الخبرة كيما تكافحين مآزق هذا المجتمع الشرير وأحابيله . وهذا ما يثير قلقي . لو اننا لم نلتق في بيتايهو فالسموات وحدها تعرف المأزق الذي يمكن ان تقعي فيه في هذا الحين ! الا تعرفين أن في جامعة بكين وحدها من يُسمّون بالتروتسكيين، والوطنيين ، والفوضويين ، هذا اذا لم نذكر شيئا عن جماعات

الكيومنتانغ ؟ هنالك عدد ضئيل جدا من الشيوعيين الحقيقيين ، هؤلاء الذين يبدو أنك تربطين مصيرك بمصيرهم . وقد تناهى اليّ أن عددهم تضاءل كثيرا جدا منذ عملية التطهير . فأين هي الثورة بمعنى هذه الكلمة الحقيقي ؟ وهل أولئك الذين تتقربين منهم ممن يعوّل عليهم؟ وهل أنت واثقة من أنهم يخلصون لما يقولون ؟ تاو ــ شينغ ، أنا لست ذلك الرجل المتطرّف الذي تتصورين . انت لاتعرفينني اذا كنت تظنينني أنانيا ومحافظا ... ذلك يجعلني تعيسا !»

وتوقف عن الحديث فجأة ليرسل من صدره تنهيدة حزن عميقة.

كانت برودة الربيع الباكر قد تغلغلت في غرفتهما الصغيرة لأن الليل كان باردا . وكانت عاصفة رملية شديدة مما هو مألوف في الشمال تجعل أوراق النوافذ تخشخش . وكانت تاو ــ شينغ التي أسندت رأسها على كتف يونغ ــ تسي النحيل ترتعش .

« هل انت واثقة من أنهم يخلصون لما يقولون ؟ أيمكن ان يكون هذا صحيحا بالنسبة الى لو شيا ــ شوان ، ولو تا ــ فانغ ، وهسونينغ؟ كلا ، مستحيل ! » وحاولت أن تطرد الشكوك التي زرعها يونغ ــ تسي. « أنا لن أصدقه ! لن أفعل ذلك ! » كان قلبها يحتجّ ، فيما الانفعالات المتضاربة تفجر الدموع في مآقيها .

جمعت نفسها على بعضها بسرعة ، وهي تقول في حدة : « كلا، يا يونغ ــ تسي ، لاتحاول تدمير ايماني . لقد كنت قاسيا بما فيه الكفاية ــ ولكنني أثق بهم وسأظل أثق بهم . ان كنت على خطأ فأنا راغبة في تحمل العاقبة . واذا أوذيت يوما أو مت فلن أحمّل اللوم غير نفسي ».

فنبر يونغ ــ تسي على حين غرة : « أنا لن اسمح بذلك !»

كان اليأس المرتسم في عينيه الخرزيتين قد أشبهه بحيوان مفترس مرغم على الدفاع عن نفسه بضراوة : « أنت ملكي ! وقد اتحدت حياتك بحياتي . وسوف نعيش معا ونموت معا ــ وليست هنالك قوة على الارض تفرّق بيننا ! كلا ، لاشيء يفرّق بيننا ! لن أسمح لك أن تندفعي مثل رجل أعمى يمتطي صهوة جواد أعمى ، يا تاو ــ شينغ . لايجب أن تشتركي في الموكب غدا مهما كانت الاسباب والظروف ! أتفهمين ؟ هذه هي المرة الاولى التي أتدخل فيها في أعمالك ، ولكن هذا من واجبي».

صاحت تاو ــ شينغ ، وقد جلست على غير انتظار : « واجبك!

كيف تجرؤ على ذلك ؟ الآونة افهم ماذا كان يكمن وراء تلك المحاضرة في الفراش ! بأي حق تتدخل في شؤوني ؟ هل أنا في سبيلي الى اشعال الحريق عمداً ؟ أو اقتراف سرقة او ارتكاب فاحشة ؟ لقد سحرتني برهة بحديثك العذب ، ولكنني أرى الآن ماذا كنت تقصد منه ــ كنت تريدني أن أبدل فكري وتضيّعني .. أوه ، لسوف تكون سبباً في دماري ! » .

تخاصما بشدة حيث أيقظا الجيران، وحينما سعل أحدهم بصوت عال على سبيل الاحتجاج جنحا الى هدوء تدريجي .

ظلت تاو ــ شينغ مستلقية صاحية طوال الليل ، وما أن شرع الفجر يبزغ حتى تسللت من سريرها ، واختطفت نظرة الى يونغ ــ تسي المستغرق في النوم. وانسلت على أطراف قدميها ، دون ان تغسل وجهها، وخرجت من البيت ، خشية من أن يرغمها على البقاء فيه عندما يصحو . وسيكون من الخطورة بمكان أن يعرف الجيران الى أين كانت ذاهبة !

ذهبت الى غرفة هسيو ــ ين في نزل الفتيات في جامعة بكين ، وغسلت وجهها هنالك . وحينما عجزت عن اقناع صديقتها بالاشتراك في الموكب مشت وحيدة حتى وصلت الى ماوراء البناء الاحمر .

١٥

كان صباحا ربيعيا رائعا ، وعصافير الدوري المرحة تتواثب من غصن اخضر الى غصن ، والنسيم اللطيف المنعش يجعل المرء يؤمن ان الربيع أطل أخيرا . وكانت ساحة الملعب وراء البناء الاحمر في جامعة بكين تغتسل بأشعة شمس الصباح فيما الطلاب يتجمعون هنالك فرادى وجماعات . بعيد حادثة الثامن عشر من ايلول تصدعت الحركة الوطنية لمقاومة اليابان التي كانت تنتشر انتشار النار في الهشيم في أرجاء البلاد بسبب من المذابح الدموية التي قام الكيومنتانغ بها . ولما غدا من المستحيل على الطلاب القيام بمظاهرات ضخمة فقد بدأوا يقيمون مواكب صغيرة ولقاءات « طائرة »(١) .

وشرعت أعداد غفيرة من الشبان والفتيات تتجمع على أرض الملاعب الكبيرة . كان يقوم عند حائط الجامعة المنخفض صف من أشجار الصفصاف الباكي وأوراقها الخضراء الطرية يتلاعب بها النسيم . وكان لو تا ـ فانغ يراوح ويغادي تحتها ، وكتفاه العريضتان تبرزان بوضوح في وجه شمس الصباح حيناً ،وحيناً تندفعان صوبها بجرأة وجسارة . ومن وقت الى آخر ينقبض حاجباه الكثيفان الاسودان انقباضة متفكرة، ولكنه ما أن يرفع رأسه ليمدّ بصره الى الحشد الصاخب المتزايد سريعا حتى يضيء وجهه باشراقة صبيانية .

كان قد التقى بلي ـ بينغ في الليلة المنصرمة . فأمسكت بيديه وشدّت عليهما في عنف وانّبته وهي تبتسم : « ما أروعك من شاب

---

(١) أسلوب تبناه المناضلون والثوريون أيام الرعب الابيض ، حيث كانوا يحتشدون بسرعة ويتفرقون بسرعة .

يافع ! تتجاهلني طوال هذه الفترة ! هل نسيت الماضي ؟.. ما زلت مخلصة لك ! »

هزّ رأسه ، وكبح جماح اهتياجه ، وطرق موضوعا آخر ، فقال: « غدا يوم ذكرى الثامن عشر من آذار ، يا لي ـ بينغ . يجب أن تذهبي وتشاركي في الاحتفال . كيف تسير الامور معك ؟ هل أنت مشغولة كعهدي بك ؟ »

ابتسمت ، وقوّست حاجبيها المزججين ، واتسعت عيناها الفاتنتان: « يا صديقي العزيز ، أنا مشغولة بصورة جنونية بالمشاهد والتمارين ـ أنت تعرف أني أمثل دور البطلة في مسرحية «مروحة الليدي وندرمير» ... ولربما كنت تجهل أني سأرحل الى شنغهاي سريعا لأباشر التمثيل في الافلام . وليس لدي وقت على الاطلاق أصرفه على شيء آخر . يجب أن تذهب الى اجتماع الثامن عشر من آذار بدلا عني ، ياعزيزي !.. »

وأمسكت بيديه بشدة مرة أخرى ، وابتسامة عذبة تتخايل على وجهها .

هزّ رأسه ، وقال : « ممثلة سينمائية ! » وابتسم بمرارة ، وانعطف عنها .

طوّح لو تا ـ فانغ ذراعيه حول جذع صفصافة كثيرة العُقد ، وبصق في اشمئزاز . ثم نظر الى الحشد المزبد ، وسرعان ماصافحت أذنيه هذه الاغنية :

يجب أن نشقّ طريقنا الى الوطن !
يجب أن نشقّ طريقنا الى الوطن !
ونطرد الأمبرياليين اليابانيين !..

ادفأت الموسيقى الثورية فؤاده ، فهزّ قبضته ، وغمغم : « لابدّ أن يرسلني العجوز لو الى دار شعبية قديمة ! »

والحقيقة ان لو شيا ـ شوان الذي يرأس أعمال الحزب الآن في جامعة بكين ، كان قد أخبر لو تا ـ فانغ مرارا ألاّ يعرّض نفسه من غير داع ، وأن يعمل ، في هذه الفترة الحرجة من الرعب الابيض ، بصورة سرية قدر المستطاع في سبيل الحفاظ على قواهم . وفضلا عن ذلك ، فقد خطّر على لو تا ـ فانغ أن يلقي خطبة في هذا الاجتماع ، وقرّر ان يخطب بنفسه . سهّل عليه أن يختبىء عندما تدعو الحاجة الى الاختباء لانه

لم يعد يحضر الى الجامعة وليس له عنوان معروف . وشعرلو تا ـ فانغ بخيبة أمل واكتئاب لأنه منع عن الكلام . كان جسده القوي يختـزن شحنة عظيمة من الطاقة وهوى جامحا في تدمير جميع المفاسد واستئصال شأفتها . ورغم ذلك فان هذه السجايا فيه يتم تجاهلها .

ذكّره الحشد في ساحة الملعب بالوقت الذي انطلق فيه عشرات ألوف الطلاب الى الجنوب للقيام بمظاهرة ، شاقين طريقهم الى قلب مركـز قيادة الكيومنتانغ الرئيسي في نانكينغ ، محطمين مكاتب « السنترال ديلي » ومركز قيادة الحامية . تلك كانت معركة ملحمية . ومن دون انتباه أخـذ نفساً عميقا وهو يفكر في ذلك .

تمتم قائلا : « مبادىء الحزب ! والتعليمات تعطى عن قصد . وينبغي ان تطاع » .

استغرق في التفكير قليلا ، ثم اتجه ناحية الحشد .

كانت تاو ـ شينغ قد وصلت بدورها الى ارض الملاعب ، وبحثت بين الحشد عبثا عن هسو نينغ ولو تا ـ فانغ ولو شيا ـ شوان . لم تكـن تعرف أحدا هنالك ، فانتحت ناحية ، مهتاجة لكن خائفة . وسرعان ما اجتمع قرابة ثلاثمائة أو اربعمائة شخص هنالك ، ولكنها ظلت واقفـة وحيدة عند حافة الحشد . وعلى غير انتظار ، راحت الشعارات تنطلق من مختلف الجهات ، عالية قوية ، ترسل في حناياها رعشة من الفرح .

ـ عارضوا هجوم الامبريالية اليابانية !

ـ فليسقط خونة الكيومنتانغ الذين يبيعون البلاد !

ـ أقيموا حكومة شعبية !

ـ تذكروا الثامن عشر من آذار واتحدوا في العمل ! فلتسـقط الامبريالية اليابانية .

كانت هذه الهتافات الجريئة الشجاعة تهيج أفئدة الجميع . وكانت تاو ـ شينغ ، الواقفة على مبعدة قريبة من الصفوف الرئيسية المبلبلـة قليلا ، تتوق الى رفع قبضتها والصياح مع الآخرين ، ولكنها كانـت أسيرة ذهول شديد منعها عن أن تفتح فمها . وفيما هي تمسح جبهتها المتعرقة بمنديل أبيض لمحت فتاة تلبس ثوبا قطنيا مشعثا مخططا باللون الازرق تقف الى جانبها . كانت غامقة البشرة ، قصيرة البنية ، نحيلة القوام قليلا . وكان يبدو على هذه الطالبة قصيرة الشعر كثير من رباطة

الجأش ، وتصيح بصوت واضح قوي ، وكأنها تقود الآخرين الى الهتاف بعدها . فقالت تاو ــ شينغ في سرّها : « يالشجاعتها ! » . وراحت تحدّق فيها في أعجاب . ورأت الفتاة الأخرى ارتباكها ، فأومأت لها محيّية : « أهذا هو لقاؤك الاول مع مثل هذه الأجتماعات ؟ هل أنت وحيدة ؟ » .

اقتربت تاو ــ شينغ منها وقد اغبطها تحطيم الجليد بينهما ، واجابت : « أجل ، جئت الى هنا وحدي ولم أعثر بَعْدُ على من أعرفه .. من أية مدرسة انت ؟ » .

فتناولت الفتاة يد تاو-شينغ بطريقة ودية طبيعية ، وقالت: « من جامعة بكين . أول مرة شاركت في مثل هذا الموكب شعرت بالخوف أنا الاخرى . وتخلصت من الخوف حينما بدأت أهتف بالشعارات مع الآخرين . هيا ، شاركينا !» .

وتساقطت على تاو ــ شينغ أزواج كثيرة من عيون متحمسة، وبدت الانظار الدافئة الودود وكأنها تدعوها الى مشاركتهم صفوفهم وأن تغدو واحدة منهم . فاستردت شجاعتها على الفور ، وركضت الى الامام ويدها بيد الفتاة الى منصة صفت عليها مقاعد صغيرة لاظهور لها . هنالك كان فتىً قصير يلبس نظارة يلقي خطبة ملتهبة وهو يلوّح بيديه كثيرا .

ــ أيها الزملاء الطلاب ! أيها الرفاق ! ان الكيومنتانغ على حافة الهاوية ! والمدّ العظيم للثورة آت ! يجب أن نسلّح انفسنا ونهزم الامبريالية اليابانية ! فليسقط الكيومنتانغ ! عاضدوا الحزب الشيوعي الصيني ! عاضدوا الاتحاد السوفييتي ! عاضدوا الحكومة الصينية السوفييتية!..

وفيما هو يهتف بهذه الشعارات أخذت اوراق صغيرة حمر وخضر تتطاير في الهواء . واختلط صوت تاو ــ شينغ الواضح الملتهب بصيحات الحشد القوية العازمة ليسبح في هواء الربيع فوق المدينة القديمة. وفيما هي تمشي وراء فتاة جامعة بكين راحت عيناها البراقتان تشعان وقلبها يخفق اهتياجا بسرعة . للمرة الاولى في حياتها شعرت بقوة الجماهير الهائلة ، ففقدت الآونة ، بعد أن لم تبقى وحيدة أو خائفة ، جزءاً من ذلك الاحتشاد الواسع .

وبينما هذه الافكار تطفى على ذهنها تردّدت في الأرجاء أصداء صفارات

رجال الشرطة . فتردد الخطيب الذي كان يهتف بالشعارات ووثب هابطا عن المنصة . وفي الحال اخذ مكانه في هدوء شخص يرتدي ثوباً مخططاً قطنيا أسود اللون . وحدقت تاو ــ شينغ ... مما لاريبة فيه أنه لو شيا ــ شوان ؟ فهزت ذراع مرافقتها بشدة، وهمست : « انظري! صديقي ــ وأستاذي أيضا ــ سيلقي خطبة ! »

ــ أتقصدين العجوز لو ؟

يبدو ان الاخرى كانت تعرفه بدورها ، فقد ضغطت على يد تاو ــ شينغ ضغطة بمثابة الجواب .

وقف لو شيا ــ شوان على مقعد ، ونسيم الربيع الدافىء يبعثر شعره المقصوص القصير . واجه المستمعين بعينين براقتين مغناطيسيتين، وراح يقول في صوت قوي مخفوض ، فيما أصداء صافرات الشرطة تزداد اقترابا : « أيها الزملاء الطلاب ! ايها الرفاق ! افتحوا عيونكم لتروا الواقع ــ لتروا اراقة الدماء والقتل ! »

هذ المطلع القوي سحر الجميع فالتفتوا اليه . وخمدت الاحاديث الاخرى . ورفع عدة مئات من الموجودين ضمن الحشد رؤوسهم ، وقد أمسكوا أنفاسهم ، يتطلعون الى تلك الملامح المعبِّرة الرابطة الجأش : « جميعنا ، نحن الفتيان ، نملك طموحات سامية ونتمنى أن تغدوبلادنا ثرية وقوية ، بحيث ينتظرنا مستقبل براق عظيم ... لهذه الغاية بذل الثوريون القدامى حياتهم ، واحدا بعد الآخر ! لهذا السبب أعطى أبطال حادثة الثامن عشر من آذار حياتهم ! وهؤلاء نحن الآن نعمل بشدة ،ناذرين انفسنا في حماسة فائضة . ونحن لانوفر جهداً لبناء مجتمع طيب في الصين . ولكم نختلف عن حكامنا ، هؤلاء الذين يعيشون حياة من الانغماس في الملذات تندى لها الجباه ! انهم يركعون ويمسحون الأرض بجباههم كالارقاء ، راغبين في بيع البلاد في سبيل رغباتهم الانانية الخاصة . في البلاد يسيطرون على الشعب بواسطة القاء أفراده في السجون ، أو استرقاقهم ، أو توقيفهم ، أو ذبحهم ... منذ استولى الكيومنتانغ على السلطة وزملاؤنا من ابناء الريف يُرغمون على معاناة الشقاء ، بينما ذُبح مئات ألوف الشبان والنساء أو تعرضوا للقتل . مئات الالوف ! ولو صُفّ أولئك الذين قتلوا في هذا المكان لما بقي متسع حتى ولو كانت أرض جامعتنا اكبر مما هي عليه الآن مرات عديدة . وقداثبت الكيومنتانغ،

بتعاملهم مع أبناء وطنهم ، أنهم « شجعان » ومتوحشون في وقت واحد.
لكن دعونا نرَ كيف يثبتون في وجه القوى الاجنبية . ان المعتدين اليابانيين يهاجمون الآن ممرات لينفكو وهسيفينغ وكوبي . وقوات الحامية موجودة هنالك وصدور أفرادها تغتلي وطنية ، وقد حملوا السلاح طوعا لمقاومة الغزاة اليابانيين . وهم يقاتلون العدو في هذه اللحظة . لكن، ماذا يقول الجنرال يسمو شيانغ ، ياترى ؟ ماذا تراه يفعل ؟ لقد أصدر أمره الى أربعين فرقة معسكرة قرب بيبينغ وتيينتسين وفي مناطق ممتدة على طول السور العظيم ألا تقاوم اليابانيين ، بل أن تراقب قواتنا المقاتلة مراقبة دقيقة ! وفي مرسوم موسوم بالعار أصدره الى الشعب والقوات التواقة لمقاومة اليابانيين هدّد « أولئك الذين يتحدثون بوحشية عن مقاتلة اليابان بالاعدام دون رحمة أو شفقة ... »

– فليسقط الغزاة اليابانيون !

– فليسقط خونة الكيومنتانغ المتلبسون بالعار !

كانت هذه الهتافات الفاضبة تمتزج مع خطبة لو شيا – شوان حين مزق الفضاء وابل من طلقات الرصاص . فتطلع الطلاب حواليهم في رعب .

– أيها الزملاء الطلاب ! أيها الرفاق ! يجب أن ينتهي الحكم الرجعي في أقرب فرصة ممكنة . ان الشعب يهبّ على قدميه !

شدّ لو شيا – شوان جذعه ، في جلال وهدوء ، وبدا كمن هوغافل عن طلقات الرصاص العنيفة ، واسترسل يقول في رزانة : « حسنا ، أفلم يقل الشاعر شيللي « اذا جاء الشتاء فلا بد أن يتبعه الربيع »؟» .

فرددت أصداء الطلاب في ايمان راسخ : « اذا جاء الشتاء فلا بدّ أن يتبعه الربيع ! »

وهمست تاو – شينغ ، وعيناها مبللتان بدموع الاهتياج :« اذا جاء الشتاء فلا بدّ أن يتبعه الربيع ! »

ومزّقت السماء فرقعة مسعورة لطلقات بنادق ، فأوقعت الاجتماع في بلبلة وفوضى . فأطلق بعض المتظاهرين صيحات شعاراتهم بأعلى ما في اصواتهم من قوة ، في حين شرع آخرون يركضون في مختلف الاتجاهات . وتطلعت تاو – شينغ في هلع من الفتاة الواقفة بجانبها الى لو شيا – شوان الواقف هنالك في هدوء تام كمن ينتظر اشارة معينة . أطار المشهد

خوفها فاقتربت ، رغما عنها ، أكثر فأكثر منهما . رفعت بصرها الى لو شيا ــ شوان ، وتساءلت في قلق : « لماذا لايتحرك من مكانه ؟ »

ومن بعد لوّح لو شيا ــ شوان ، بعدما أصغى الى تقارير من بعض كشافته ، بذراعيه وطلب أن يسود النظام . صاح قائلا : « أيها الزملاء الطلاب ! ايها الرفاق ! ان المتطرفين يستخدمون القوة مرة أخرى . لقد حوصِرْنا ! لكن المقاتلين الشجعان لايمكن أن يتعرضوا للخوف. سوف نقاتلهم بقبضاتنا العارية أو بالحجارة حتى النهاية المريرة . فلنقتحم هذا الحصار ! الى الشارع ! انطلقوا بالموكب ! ».

انطلق الطلاب قدما ، وهم الذين ارتبكوا برهة ثم احتشدوا من جديد ، وقد امتلأت جيوبهم حجارة ، في صفوف من ثمانية طلاب متشابكي الاذرع ، يهتفون بالشعارات وهم يتجهون صوب بوابات البناء الاحمر. أما الفتاة ذات الشعر القصير ، وكانت على رأس المجموعة التي وجدت تاو ــ شينغ نفسها بين افرادها ، فقادت الطريق في هدوء . فالتصقت تاو ــ شينغ بها ، وقد رفعت رأسها، وراحت تخطو بجسارة .

انهضوا ، أيها الجياع ، من سُباتكم !
انهضوا ، يا اسرى الاملاق !
فان نذير الثورة يرعد الآن ،
ولسوف يضع نهاية للتسوُّل ..

راحت نغمات « نشيد الاممية » الملتهبة تتفجّر كالسيل في قلب طلقات الرصاص المتقطعة لتسبح عبر سماء الربيع المترامية . وشكّل الطلاب وقد استحثهم ذلك صفوفا منتظمة .

ــ قفوا ! أو نطلق النار !

كان رجال الشرطة المرتدون بزات سوداء الحاملون بنادقهم يتصرفون وكأن هؤلاء الصبيان والبنات العزّل من السلاح جيشا بمليون قوة. شرعوا ينبثقون من جميع الاتجاهات ، وهم يلوّحون بحرابهم وبنادقهم وهراواتهم . ولم يعد لو تا ــ فانغ يقوى على ضبط نفسه أكثر مما فعل. فبرز في مقدمة صفوف الطلاب وكأن الارض انشقت عنه ، ورعد في صوت شق عنان السماء : « تابعوا مسيرتكم ! الى الشوارع ! اتبعوا مثال ضحايا الثامن عشر من آذار ! »

وقبل أن تصل طليعة المسيرة الى البوابات اضطر الطلاب الى الاشتباك



مع رجال الشرطة والجنود . شرع الجانبان ، وهما يصيحان ويزعقان ، يتماوجان هنا وهنالك في فوضى تامة ، في حين انطلقت الحجارة ضد طلقات البنادق والحراب . وحينما عجز رجال الشرطة والجنود عن ايقاف المسيرة شرعوا يطلقون النار فوق رؤوس الحشد ، فطفق الطلاب يرشقونهم بالحجارة رداً على تحديهم . وفيما المعركة تدور رحاها بين الطرفين شرعت أعداد من رجال التحري والدرك يتوافدون من المؤخرة ويباشرون الاعتقالات .

وصاح الطلاب في غضب : « اضربوا هؤلاء الجلادين حتى الموت! فليسقط الكيومنتانغ !»

فردّ عليهم الضباط نابحين : « اعتقلوا جميع الحمر الذين يعملون من أجل الروبلات ! »

في بلبلة العراك أضاعت تاو – شينغ زميلها لو شيا – شوان والطالبة الاخرى التي كانت الى جانبها . رمت جميع الحجارة التي كانت معها ولم تعد تعرف ماذا يمكن ان تفعل . في هذه الفترة كان رجال الشرطة يقاتلون الطلاب بضراوة بالمسدسات والهراوات . فانكدم كثيرون منهم ونزفت الدماء من جروح رؤوسهم ، في حين تم اعتقال عدد منهم اقتيدوا الى التوقيف . وتلقت تاو – شينغ ضربة من احدى الهراوات ، ولكنها راوغت الشرطي الذي كاد أن يقبض عليها ، واندفعت في قلب مجموعة أخرى. ولمحت بعد برهة قصيرة ، والرعب ينهشها ، تلك الطالبة من جامعة بكين مشتبكة في عراك مع رجل سمين يرتدي بزة من الجوخ . كانت تلك الفتاة النحيلة الضئيلة مقاتلة شجاعة . فتمكنت من الامساك بياقة الرجل السمين وجعلت تخدش له وجهه وتعضّ يديه مثل امرأة حقود ، والرجل السمين يترنّح ويتراجع وهو يشخر مثل الثور ، ويمزق لها ثوبها عن كتفيها .

– ين كينغ ! أيها الوحش ! أيها الرئيس الملعون للسجن المركزي السادس ! كم مناضلا سبق لك أن اعتقلت ؟

كان صوتها أجشّ ، وبدت على أهبة الاستعداد للاجهاز عليه . . والحقيقة أن ين كينغ لمح تلك الفتاة النحيلة وهو يقود رجاله السريين ، وخطر له أنه يستطيع ان يسلّي نفسه على حسابها . وقد خاب رجاؤه نتيجة الذعر الذي سيطر عليه . فان تلك الفتاة الناعمة الهزيلة أثبتت انها

أكثر من ندٍّ لرئيس السجن السمين . وحينما أيقن أن مرؤوسيه ليسوا قريبين منه ، وان الطلاب يتدافعون مهددين ، فقد راح يشخر محتجا مثل ثور يذبح .

ـ من هنا ، أيها الرجال ! أسرعوا ! اقبضوا عليهم .

ـ أيها اللئيم ! فيم تنبح ؟ انظر الآن ماهية القبضات الحديدية التي يملكها الشـــعب !

وهجم الطلاب عليه ، يرفسونه ويصفعونه بحيث لم تمرَّ لحظات حتى كان قد غدا أسود مزرقاً . والتوت قسمات وجهه من الالم ، فانبطح على الارض عاجزا عن النهوض على قدميه .

ـ النجدة ! النجدة ! لقد قتلوني !

كانت صيحات رعبه تختلط بصيحات الغضب التي يطلقها أولئـــك الذين يسخرون منه مما جعل الطلاب ينفجرون بالضحك .

ركضت تاو ـ شينغ الى الطالبة الشجاعة ، وامسكت بها ، واخرجت منديلا تمسح به الدماء عن وجهها . وفي تلك اللحظة انطلقت رشة من الطلقات ، فافترقت الفتاتان نتيجة البلبلة التي أعقبت ذلك . وأهرع شرطي مسلح لنجدة ين كينغ . فأشار رئيس السجن السمين ، وقـــد أغضبته الاهانة التي لحقت به ، صوب جماعة من الطلاب وزمجر والرعب ينفضه نفضا : « أمسكوها اولا ! أمسكوها اولا ! يالها من جروة ! »

واندفعت الفتاة النحيلة في ملء جماعة أخرى واختفت مثل الريح ، ومطاردوها يتراكضون في أعقابهـــا . ووقفت تاو ـ شينغ تراقب في قلق مرعوب ذلك الشرطي يدركها ، فأخذت تتساءل ماذا يمكن ان تفعل من أجلها . ولكن الفتاة استدارت بغتة ، ونطحت بكل ما تبقى لها من قوة أول رجـــل بين مطارديها . وفيما الرجل يتمايل من أثر الضربة استدارت للاستمرار في هروبها ، وركضت بين أعضاء جماعة من الحشد والشرطي ورئيس السجن السمين لا يكفان عن مطاردتها . وكان هذا الاخير لا يحيد عنهـــا بعينيه . وركضت تاو ـ شينغ وراءهم ، فرأت الفتاة تتجه صوب البناء الاحمر .

ـ أوقفوها ! أوقفوها !

عند مدخل البناء الاحمر قبضت يداشرطي كبيرتان لا تعرفان الشفقة على الفتاة . وتوقفت تاو ـ شينغ مذهولة . وفي تلك الاثناء تلقى الشرطي رفسة ثقيلة جعلته يتمايل مترنحا . وركضت تاو ـ شينغ الى أرض المعركة

وعرفت أن الضربة جاءت من لوشيا ــ شوان ، فنسيت في حموّة سرورها الخطر المشترك المحدق بهما ، وركضت اليه صائحة : « أيها الآخ لو ! أيها الاخ لو ! . . . »

وبدلا من أن يردّ عليها ، راح يتلفت يمنة ويسرة في سرعة ، ثم أومأ الى تاو ــ شينغ وطالبين آخرين مشيرا الى باب خشبي . ودفع بهم عبر الباب ، وهمس في عجلة : « بسرعة ! انزلقوا من هنا الى القبو ، ثم استديروا ناحية اليمين . وفي المطبعة تجدون أنفسكم بين أيدي أمينة » .

لم تسمح الفتاة الاخرى لتاو ــ شينغ بالكلام ، بل أمسكت بها ، واتبعت التعليمات التي سمعتها ، واتخذ أربعتهم طريقهم في الظلمة متجهين الى القبو في البناء الاحمر .

كان هناك ضوء خافت منعهم عن أن يروا طريقهم الا بصعوبة فائقة . وما أن استداروا ناحية اليمين حتى بادرهم الكلام عامل مطبعي شاب فهمس قائلا : « اختبئوا هنا لحظة الى أن تنتهي الازمة » .

فقالت الطالبة ، وهي تمسك بيد الشاب دون اي ارتباك : « شكرا لك ! »

دخلوا جميعا غرفة صغيرة ملأى بسقط المتاع . وما ان دخل العامل الشاب بالفتاتين اليها حتى أطفأ النور ، وأقفل الباب ، وقاد الشابين الى مخبأ آخر .

على الرغم من أن تاو ــ شينغ اغتبطت لخلاصها من الخطر الا أن قلبها غرق في ضلوعها حينما فكرت في لو شيا ــ شوان ولو تا ــ فانغ اللذين كانا يقودان المتظاهرين هاتفين بالشعارات . كيف يتاح لهما ان يهربا والشرطة في أعقابهما ؟ راحت تبحث في الظلمة عن يد الفتاة الاخرى ، وسألتها : « أتعتقدين انه قد يحدث شيء لهما ــ أعني لو شيا ــ شوان ولو تاو ــ فانغ ؟ »

فأجابت الطالبة في صوت مكبوت ، وهي تمسك بيد تاو ــ شينغ : « أعتقد انه لن يصيبهما مكروه . ان غالبية رجال الشرطة اليوم من السجن المركزي السادس ، وهم عبارة عن مجموعة من الاغبياء . والعجوز لو ذكي حذر . وهو يعرف كيف يتعامل معهم . أنا واثقة أنه لن يتركهم يلقون القبض عليه . اذن ، أنت تعرفين لو تا ــ فانغ ايضا ؟ »

كان في سؤالها شيء من الانشداه .

ــ أجل ، أنا أعرفه .

كانت أفكار تاو ـ شينغ أسيرة دوامة من البلبلة . جلست في صمت على صندوق تعبئة ، وهي تستعيد ذكرى النضال القوي الذي مروا بـه منذ برهة قصيرة ، فهب في قلبها حقد لم يسبق ان عرفته . للمرة الاولى في حياتها شهدت الاجراءات الوحشيةالتي يتخذها الرجعيون ضدالوطنيين الشبان الشرفاء . وكانت تكنّ تقديرا عظيما لشجاعة لو شيا ـ شوان ولو تا ـ فانغ والآخرين الذين أراقوا دماءهم وواجهوا الموت مندون خوف . يا للامور المتناقضة مع ترددها الرعديد ! حركت رأسها بصورة غير طوعية لتنظر الى الفتاة الجالسة الى جانبها . وعلى الرغم من أنهـا لم تستطع رؤية وجه رفيقتها بسبب من الظلمة ، غير أنه كانت في ذهنها صورة حية لعينين عازمتين ويدين صغيرتين نفذّتا عملا مدمرا ضد رئيس السجن . فأثقل عليها احساس بالخزي والحقارة .

ـ ما هو اسمك ؟

بتر هذا السؤال اللطيف أفكار تاو ـ شينغ . أجابت ، ثم سألت الفتاة الاخرى عن اسمها .

ـ هسو هيو .

فاندهشت تاو ـ شينغ واغتبطت في وقت واحد : « هسو هيو ؟ سمعت عنك ! حينما ذهب الطلاب جنوبا للقيـام بمظاهرة كنت واحـدة من القـادة . . . »

فغطت هسو هيو فم تاو ـ شينغ بيدها ، وقالت في صوت مكبوت : « لا تتحدثي بصوت عال ! وليس ثمة ضرورة للاهتياج ! . . . أعتقد انك سمعت عني من هسو نينغ ؟ ولقد سمعت عنك أيضا منذ زمن بعيد ! »

واستسلمتا الى صمت أنيس . فهما تشعران الآونة ، وقد انحطم الجليد ، وكأن كلا منهما تعرف الاخرى منذ سنوات ، فأمسكت كل منهما بيد الاخرى وراحت تضغط عليها في الظلام .

مرّ أكثر من ساعتين . ويبدو ان الوقت كان بعد الظهر حينما فتح عامل مطبعة الباب وأضاء النور . في تلك اللحظة لمحت تاو ـ شينغ لو شيا ـ شوان منتصبا في ثوب عمل عند الباب . أمسكت بيده في فرحة عامرة ، وصاحت : « أيها الاخ لو ، أانت على خير ما يرام ؟ . . . »

ابتسم لها في هدوء ورباطة جأش مثله ابـدا ، وصافحها : « هيـا أخرجا . لقد أصيب رجال الشرطة الاعزاء بتراجع « منتصر » .

وثبت هسو هيو بدورها الى جانبه في حماسة ، وسألت في صوت خفيض : « كيف سارت الامور ؟ هل كانت الاصابات كثيرة ؟ »

ــ اعتقل اربعون ، وقتل اثنان . . . ولسنا نعرف بعد عدد الجرحى. لقد قبضوا على تا ــ فانغ . . .

ــ تا ــ فانــغ !

وخفض لو شيا ــ شوان ، والعامل ، وهسو هيو رؤوسهم دون أن ينطقوا بحرف . وتخيّلت تاو ــ شينغ ، وقد خفضت رأسها بدورها ، ملامح تا ــ فانغ القوية الشجاعة .

ــ النضال يعني اراقة الدماء . انها معركة حتى النهاية . . . ان النظريات التي قرأتها تؤيدها الحقائق .

بعيد فترة من رحيل الآخرين قاد لو شيا ــ شوان تاو ــ شينغ عبر البوابة الخلفية في جامعة بكين . سارا في الازقة الضيقةمجتازين تيين آن مين متجهين الى المدينة الغربية . كانامنطلقين بادىء الآمربخطوات متسارعة دون أن يتبادلا أي حديث ، لكنهما ما ان اقتربا من الجامعة حتى اقترب لو شيا ــ شوان من تاو ــ شينغ ، واستوضح قائلا : « هل جئت الى المسيرة وحدك هذا النهار ؟ »

فأومأت براسها ، مرتبكة قليلا : « أجل ! طلب الي هسو نينغ ان استحث الآخرين على المشاركة ، ولكنهم رفضوا » .

ــ وفيم كان رفضهم ؟

ــ رفضوا بعدمــا سمعوني اتحــدث عن مبادئنا وعن دعم الاتحــاد السوفييتي . اعتقد أنهم كانوا مترددين أو خائفين من المشاركة .

فلم يجبها لو شيا ــ شوان . كان غارقا في التفكير يحدّق الى الامام منه وقد شغلته بعض القضايا الشائكة . اختلست تاو ــ شينغ نظرة اليه، وتساءلت ما اذا كانت قد قالت شيئا خاطئا .

قال لها ، وهما يجتازان ضفة شيهشاهاي المقفرة ، وهي بحيرة عفنة من المياه الراكدةقائمةفي مؤخرة حديقةبيهاي : « تاو ــ شينغ ، لقد ذكرتيني بشيء ما . صحيح أن الناس لا يمكن أن يتقبلوا جميع شعاراتنا . وفي كل مرة نقوم بمظاهرة او مسيرة تحدث اعتقالات كثيرة واصابات . فما هــو السبب الحقيقي ؟ . . . »

كان يخاطب نفسه في هدوء ، وكأنه نسي أن تاو ــ شينغ الى جانبه.
نظرت اليه في دهشة ، غير عارفة ما كان يرمي اليه .
استدار اليها ، وسألها على الفور : « ماذا كان انطباعك عن هذا النهار؟»
فبذلت تاو ــ شينغ جهدها للحفاظ على رباطة جأشها : « انطباعي ؟ حسنا ، لا أعرف الا بصعوبة جمة من أين أبدأ ! أشعر انني تعلمت أشياء أكثر مما تعلمت من الكتب ، واكثر مما علمتنيه انت . بدا الامر وكأنما نبتت لي أجنحة حملتني الى السماء عاليا ، بحيث كوّنت فكرة شاملة عن هـذا العـالم . . . »
وتبسمت ابتسامة ساذجة ، وسألت بعـد فترة قصيرة في اقتضاب : « لماذا لم يشارك هسو نينغ في المسيرة ؟ أخبرني أنه سيفعل » .
فأهتف لو شيا ــ شوان ضاحكا : « لا فائدة من أن تنبت لك أجنحة تحملك الى السماء عاليا . يحسن كثيرا ان تبقي قدميك على الارض وان تصهري نفسك في بوتقة نضال الجماهير . أما بالنسبة الى هسو نينـغ فأجرؤ على القول إنه كان يمتّع نفسه مع بيي لي ــ بينغ . أو ربما كان خائفا . ألم تكوني خائفة ، ، يا تاو ــ شينغ ؟ واذا قمنا بمثل هذا العمل في مرة أخرى فهل تشاركينني فيه ؟ »
فلوت تاو ــ شينغ ، التي كانت تنظر الى لو شيا ــ شوان نظرتها الى استاذها ، لوت شفتيها مثل طفل اخطأوا فهمه .
ــ أيها الاخ لو ، ينبغي أن تثق بي وان تفهمني . . . فأنا لست جبانة. كنت آخذ على نفسي عهدا في أغلب الاوقات أنني سأتعلم منكم أنتم الثوريون الشجعان ــ وقد تعلمت كثيرا خلال الشهرين الاخيرين المنصرمين ، وتعلمت اليوم أكثر وأكثر . . . وأنت لا تعرف كم أنا ممتنة لكم جميعا لتقديم مثل تلك السعادة لي .
كانت عبرات متلألئة تتضوأ في رموشها الطويلة ، وغلبتها عواطفهـا فلم تزد في الكلام حرفا .
مشى لو شيا ــ شوان اليها وقد مست شغاف قلبه حماستهـا وشجاعتها وروحها الثورية ، ولم يتماسك عن ان يمسك يديها . حدّق اليها طويلا دون أن ينطق بكلمة واحدة .
قال أخيرا : « تاو ــ شينغ ، ان لديّ عمـلا أنجزه . ويحسن أن أتركك هنـا » .

انه يضع نفسه تحت المراقبة الآن فيتمكن من أن يخفي الاحساس الكبير الذي يجذبه الى هذه الفتاة .

ــ عودي سريعا الى البيت . فلا بد ان يونغ ــ تسي يذعره القلق عليك .

احمارت تاو ــ شينغ ، وتمتمت في ارتباك : « أيها الاخ لو ، فيم تغيظني ؟ لمن المؤلم ... »

واسترسلت بعد فترة صمت : « لا تذهب الآن . أخبرني كيف قبض على تا ــ فانغ . أذكره وهو يبدأ ينشد النشيد الاممي » .

ــ حسنا . كان بعض رجال الشرطة على وشك أن يعتقلوا طالبتين عندما اندفع العجوز لو الى نجدتهما ، وانهال بعدة ضربات ثقيلة من قبضتيه الضخمتين فطوّح باثنين منهم يتدحرجان على الارض . وهذا ما جعل منه هدفا للهجوم ، واستطاعت الفتاتان الهرب بينما هو ــ اعتقل .

كان صوت لو شيا ــ شوان هادئا على مألوف عادته ، ولكنها استشعرت الكرب في فؤاده . تابع يقول بسرعة دون أن يعطيها فرصة للجواب : « أنا آسف ، فان لدي أعمالا يجب انجازها . فلنقل وداعا » .

ــ وداعا ! تعال لرؤيتي كلما أتيحت لك الفرصة !

كانت تكره الافتراق عن لو شيا ــ شوان الذي تشعر في وجوده بالسلامة والطمأنينة والقوة ، ولكنه كان لابد من أن يذهب كل منهما في سبيل . وحينما التفت ورأى وجهها الهادىء المحزون خاطبها قائلا وهو يبتسم : « بلى ، أعدك أن أزورك في بعض الاحايين ، لكن ... »

وتابع طريقه دون أن يكمل كلامه .

ان من واجبه اليوم ، وقد اعتقل كثيرون من الطلاب أو قتلوا أو جرحوا ، ان يقوم بأعمال عاجلة . لهذا السبب لم يستطع أن يرافق تاو ــ شينغ غير مرحلة من الطريق ، وكان عليه ان يفارقها دون ابطاء .

وقفت تحت ظلال صفصافة وراقبت هيئته تختفي في البعيد . وقفت هنالك ، وكأنها مصابة بدوار ، وبقيت كذلك فترة طويلة بعيد أن غاب عن النظر .

□ □ □

١٦

استيقظ يونغ ــ تسي من أحلامه ذلك الصباح فلم يجد تاو ــ شينغ الى جانبه . وبعدما أصغى بانتباه ، فتأكد لديه أنها لم تكن تشعل النار أو تنظف الغرفة ، هبّ من سريره ، وفتح الباب قليلا ورمى أنظاره الى الساحة ــ فلم يجد فيها أحداً . صفق الباب صفقة جبارة خشخشت معها أوراق النافذة ، ومن ثم رجع الى السرير في كسل ، وأغلق عينيه ، وهمهم : « هذه هي النهاية ! حسبت انني سعيد ، ولكنني كنت أفصّل ثياب الزفاف ليلبسها غيري . . . »

وانعصر وجهه النحيل الطويل بموجة رهيبة من خيبة الامل . ولما كان فقد كل رغبة له في النهوض او الحركة ، فقد راح يستعيد الوسائل التي استخدمها في الليلة الماضية لاقناع تاو ــ شينغ على البقاء في البيت . وقد ضاعت جميع كلماته الناعمة هباء ، اذ أن الفتاة العنيدة انسلت خارجة وتركته دون ان تكتب له حرفا ، وانطلقت تشارك في مظاهرات الاحتفال بذكرى الثامن عشر من آذار . ان كبرياءه الجريح قد أثارته تماما وأرهقته فيما هو مضطجع في الفراش يتساءل كيف يمكن ان يستمر في الحياة مع مثل تلك الفتاة ، وماذا يمكن ان يصيب حبهما . ثم اسخطته رؤيا وجه لو شيا ــ شوان الباسم . فطرح عنه الغطاء ، ووثب عن السرير ، وانطلق ، من دون ان يغسل وجهه أو يتناول فطوره ، متجها الى المكتبة الكائنة خلف البناء الاحمر .

كانت المكتبة ملاذه طوال الاشهر الاخيرة . فحيثما يشعر بالحزن أو فقدان الحيلة مع تاو ــ شينغ ، وكلما كانت الازمنة المثيرة وادراكه انه فقد حماسة الشباب تملؤه بعواطف متضاربة او بالخجل ، فهو يركض يبحث عن ملجأ في المكتبة . ففي أجوائها الهادئة اللطيفة يوصد الباب في وجه وطأة العالم الخارجي ونزاعاته . ههنا يركز الناس أفكارهم في القراءة ، ويتركون كل انسان لشؤونه الخاصة . والأمر الثابت انه حين

يكون سيء المزاج فهو ينطلق الى غرفة القراءة ويدفن نفسه بين الكتب طوال ساعات ، ويروح يقلب صفحات المجلدات الضخمة الخاصة بالآثار الكلاسيكية الصينية مما يسمح له بنسيان كل ما يحيط به . فاذا كان حظه جيدا ووجد بعض الكتب او المقاطع التي يستطيع استخدامها في عمله الباحث فهو ينسى متاعبه جميعا ويبتهج بصورة لا يعتريها شك .

بينما كان الاجتماع الاحتفالي جاريا على قدم وساق خلف البناء الاحمر ، والمتظاهرون يلهبون عقائرهم مرددين شعارات صارخة او يتقاتلون بضراوة مع رجال الشرطة والجيش ، كان يونغ ـ تسي جالسا على كرسي خشبي في المكتبة مستغرقا في التفكير . كان منصرفا بكليته الى مشاكله الخاصة كما لو كان العالم الخارجي لا يمت اليه بصلة على الاطلاق . كان متضايقا غاضبا أول الامر معتزما تركيز أفكاره ، ولكنه حينما رفع رأسه ورأى وجوه زملائه الطلاب المألوفة هنا وهنالك وراء المناضد الطويلة، فقد ازداد هدوؤه وسرعان ما صار قادرا على الانكباب على دراساته .

ـ فلتسقط الامبريالية اليابانية ! فليسقط خونة الكيومنتانغ الذين يبيعون الوطن !

كانت هذه الشعارات المحرّضة تتسلل الى المكتبة بين حين وحين ، فتعكّر صفاءها وهدوءها مثلما يتعكر جدول رائق صيفي يلقي فيه بعض الصبية الاشقياء كمية من الحصى . وكانت هذه الآرتعاشات تختفي سريعا ، فيدفع القراء المجدّون رؤوسهم ببساطة تامة وقد عبست ملامحهم، ويمدون أنظارهم من النافذة منزعجين لحظات قبل ان يستعيدوا صفاء أذهانهم .

كان يونغ ـ تسي يتصفح كتابا حينما ومضت في ذهنه أبيات للشاعر تساو مينغ ـ تيه :

يا صاحبي .. غنّ وغنّ
حياتنا جدُّ قصيره
كأنها ندى الصباح
أطل في الفجر وراح
أو أنه طيفُ أميره
ضاعَ سدى منكَ ومني

وعلى حين فجأة أثقل عليه احساس لا يعرف له كنها بالتحرر من الوهم ، فنحَّى كتابه جانبا ومشى صوب النافذة . كانت هناك لطخ طرية خضراء على الغصون في الخارج . وكانت أزهار الدراق تتفتح تحت الشمس الدافئة ، والهواء عابقا بشذى الربيع النديّ . وفيما هو يمدّ بصره رجعت أفكاره الى تاو ـ شينغ مرة أخرى . ماذا تراها تفعل في هذا الصباح الربيعي الجميل ؟ ... وسرعان ما استغرق في الاحلام من جديد : ان حبيبته تاو ـ شينغ لا تهتف مع الهاتفين في الحشد ، ولا تشارك في النضال العنيف دفاعا عن مثلها . رآها بعيني خياله مثلما كانت عليه يوم التقاها على الشاطىء ، رقيقة حلوة مثل احدى الجنيات ببشرتها البيضاء الناصعة ، وقد ارتدت البياض ، وعيناها الكبيرتان مفعمتان حبا ، وهي تنتظر قدومه ... تاق اليها بقوة من خلال ألمه العقلي كما لو لم يكن رآها طوال سنوات ، كما لو كانت قد ضاعت منه الى الابد .

فرقعت خلال تلافيف افكاره اصداء طلقات نارية ، حادة واضحة . وما لبث صراخ عنيف وجلبة مزعجة أن أرغما قلبه على الخفقان في خوف.

سأل طالبا آخر وقف بدوره يحدق الى البعيد في قلق : « ماذا حدث ؟ طلقات نارية ! اصغ ! انها تدفق من أرض الملاعب ... »

كانت معرفته بوجود تاو ـ شينغ في أرض الملاعب أقوى مما يحتمل. ان عددا من الطلاب الذين كانوا مستغرقين في قراءة كتبهم قد عجزوا عن البقاء في مقاعدهم أطول مما فعلوا . حتى أن أمناء المكتبة انطلقوا خارجين مع الآخرين لإلقاء نظرة ومحاولة معرفة مصدر الضجة .

وتناهت الى الاسماع رشة حادة اخرى من طلقات البنادق .

ـ كلا ، هذا لن يفيد ! يجب أن أسرع وأبحث عنها !

وانطلق يونغ ـ تسي دون أي تردد .

لم تكن مكتبة الجامعة تبعد كثيرا عن أرض الملاعب . وما أن دلف خارج البوابة حتى ركض عدة خطوات ناحية الشرق ، ثم تسلق رابية تشرف على الملعب . وشاهد الأشتباك بين رجال الشرطة والطلاب ـ الصيحات ، واللعنات الغاضبة ، ولمعان الحراب ، وهسهسة الهراوات ، والتراشق بالحجارة ، والجرحى الغارقين في بحيرات من الدماء ـ فملأه ذانك المشهد المخيف والصخب المرعب بالهلع . وبدت قدماه وكأنهما تسمَّرتا في الارض ، ولم يعد يستطيع ان يتحرك . تغلب على اضطرابه ،

وراح يراقب عن كثب الحشد الذي دبت الفوضى في صفوفه على أمل أن يلمح تاو ـ شينغ . آه لو انها تستطيع أن تخرج من ذلك الحشد ، اذن لركض الى لقائها ، ولكنها لم تكن على مسرح رؤيته . اين يمكن ان تكون ؟ هل تراها أصيبت ؟ أو ربما أسوأ من ذلك ... وكلما ازداد قلقه ازداد التصاق قدميه في الارض رسوخا .

بدأ ضميره يؤنبه ، فأحس بالخجل . فسأل نفسه : « اذا لم يكن جميع هؤلاء يشعرون بالخوف ، ولم تكن هي ايضا تشعربالخوف ، فلماذا أشعر أنا به ؟ » وانتوى أن يندفع في قلب ذلك الحشد لانقاذ تاو ـ شينغ مثلما فعل مرة في تلك الليلة العاصفة على شاطىء البحر في بيتايهو ، غير أن حذره الفطري اوضح له أن الحال تختلف هذه المرة عن المرة السابقة وأنه ينبغي ان يكون حذرا . فعزم على ألا يتحرك من موضعه حينما انفجرت طلقة نارية ومرت الرصاصة تؤز قريبا من رأسه . وتملكه الرعب ، وغدا وجهه بلون الرماد ، وارتعشت اصابعه . راح يحدق حواليه بوحشية وقد ملأه الخوف من أن يكون أصيب وعلى وشك السقوط ، ليتأكد ما اذا كانت الارض لا تبرح ثابتة تحت قدميه . رفع احدى ذراعيه الواهنتين الى رأسه ، فعرف أنه لا يزال سليما ـ ان الرصاصة لم تخدش جلده ، فتنفس الصعداء حينما وثق انه لم يصب بأذى . ثم سمع رصاصة أخرى تمر به صافرة ، فأطلق العنان يسابق الريح ، ناسيا كل شيء عن تاو ـ شينغ وعما اذا كانت اصيبت بأذى أم لا . كان هدفه الاول ان يركض مبتعدا عن الجامعة قدر المستطاع .. ولكنه حينما خطر له أن أحدا لا يمكن أن يسبق رصاصة مهما كانت سرعته عظيمة في العدو ، فقد انزلق الى أرض المكتبة وتهادى الى قاعة القراءة الرئيسية .

أحس غصات الجوع عند الظهر . كانت الضجة قد خفتت والمكتبة قد خلت من زوارها عندما نهض متثاقلا عن مقعده ، وجمع كتبه ودفاتره ومشى خارجا في اكتئاب . لم يجرؤ على التطلع ناحية أرض الملعب ، بل انطلق الى منزله مباشرة .

لم تكن تاو ـ شينغ قد عادت ، فاضطر الى اشعال الموقد ، ثم مسح الارض في فتور ، ورتب الغرفة الموحشة . ومسح المائدة المغطاة بالغبار فيما المعكرونة تنضج على النار ، وهو يهمهم : « ليس هنالك بيت من دون امرأة . فارجعي الى بيتك ، يا حبيبتي ! »

١٧

عند الصباح كانت أشجار الدردار الوافرة المزروعة على جانبي شارع بيهوين مبرقعة بضباب كثيف فيما المدينة القديمة لا تبرح غارقة في أحلامها في صمت . أما لو شيا ـ شوان الذي قضى الليل في النزل الثالث لجامعة بكين فكان قد هبّ من فراشه . لقد اختطف بضع ساعات من النوم في غرفة هسو نينغ في الطابق الاول نائما الى جانب زميله في سريره الضيق ، ثم استيقظ وهسو نينغ لا يبرح يغط في نوم عميق . مرّر أصابعه في شعره الاشعث ، وفتح الباب في لطف ، فاندفعت منه الى الغرفة نسمة هواء نقيّ ، فوقف على رؤوس أصابعه ، وشرع يقوم ببعض التمارين الرياضية التنفسية بقوة ونشاط . ورغم أنه كان متعبا وعيناه محتقنتين بالدماء بسبب من قلة النوم ، فقد كان وجهه ممتلئا بالحيوية والنضارة مثل الصباح الربيعي الجميل . وقف وحيدا في الممر وقد بدا عليه الاسترخاء الكلي ، الا أن عينيه المتوقدتين ذكاء كانتا تنعمان النظر في أراضي الجامعة المغلّفة بالضباب منقبتين كل زاوية فيها ، ومجتازتين سورها ايضا . فقد علّمه الرعب الابيض أن يكون محترسا من الخطر دائما ، وهذا هو الآن يضاعف من حذره لان مقرات عديدة لمنظمات من الحزب الشيوعي تعرضت ، خلال الأيام القليلة الماضية ، لغارات مفاجئة اعتقلت فيها اعداد من الرفاق . فقد ارسل شيانغ كاي ـ شك فوج الشرطة العسكرية الثالث مع تابعه الامين المخلص شيانغ هسياو ـ هسيين الى بيبينغ ، فعانت المنظمات الثورية المحلية من ضربات ثقيلة وقوية . وكانت الاوضاع بالغة الخطورة . وكان يتوجب على كل ثوري أن يحترس من الخطر في أية لحظة من لحظات النهار .

لم يكشف له تفتيشه الصامت عن شيء غير مألوف ، ولكنه رأى ، وهو يستدير للعودة الى الغرفة ، دراجة نارية تتجه بسرعة ناحية بوابة « النزل الثالث » وتقف هنالك . وفي غضون لحظات قليلة ظهر عدد من الرجال المرتدين ثيابا غريبة ممن يثيرون الشبهة بالاضافة الى بعض رجال الشرطة العسكرية السريين وكأنهم انبثقوا من جوف الارض . ولم يعد لو شيا ــ شوان في حاجة الى التطلع . فانسل وراء أحد الاعمدة ، ورجع الى غرفة هسو نينغ . هزّ صديقه يوقظه من غطيطه ، وقال : « هسو نينغ ! أولاد الزنا ههنا للقيام باعتقالات ! رتب أشياء الغرفة قليلا ، هيا عجِّل ! يجب الا أبقى هنا ! »

فاعترضته ذراعا هسونينغ ، وهو يسأل قائلا : « أين تستطيع أن تذهب ؟ فقد فات الاوان تماما كيما تنجو بنفسك » .

ــ كلا ، لا أستطيع بقاء ههنا . انهم لا يشكون فيك بعد ... ولا ينبغي ان يعثروا عليّ في هذه الغرفة . اذا قبضوا عليّ فأرجو ان تخبر هسو هيو بذلك في أقرب وقت ممكن .

واندفع متجاوزا هسو نينغ ، واختفى .

وسرعان ما غرق النزل في خضم من الهياج . وظهر هنا وهنالك عملاء للشرطة العسكرية مسلحون بالمسدسات . وبعدما فشلوا في العثور على لو شيا ــ شوان في غرفة يو تا ــ فانغ حيث يقضي الليل في أغلب الاوقات قسموا أنفسهم جماعات صغيرة وشرعوا يفتشون البناء تفتيشا دقيقا . واندفع ثلاثة منهم يتبعهم أحد رجال الشرطة السريين الى غرفة هسو نينغ فوجدوه متكوما على فراشه يغط في نوم عميق .

وقبضت على عنقه يدٌ مهزولة : « انهض ، عليك اللعنة ! قم ! »

حملق هسو نينغ ، وقد بدا عليه انه أجفل من أحلامه ، في الشرطي المنتصب امام سريره .

ــ أهناك شاب يدعى لو في غرفتك ؟ انه ليس من طلاب هذه الجامعة!

هدأت نفس هسو نينغ وامتلأت غبطة عندما فهم من السؤال أن لو شيا ــ شوان لم يُعتقل . لكن ، أين ترى استطاع صديقه الداهية أن يختبىء ؟ غمغم يقول ، دون ان يرد على السؤال : « ما هذا ؟ اتقصد ان أحدهم تسلل الى غرفتي ؟ حسنا، هيا ابحثوا عنه ! وسوف أساعدكم ! »

وقفز عن سريره ، وشرع يبحث هنا وهنالك فيما يشبه الجدّ .

ولما تأكد لهم ان احدا لا يختبىء في تلك الغرفة الصغيرة خرجوا منها صافقين الباب وراءهم بشدة .

وتبلبلت الامور في جميع الطوابق، عاليها وأسفلها . وارتفعت أصداء الجزمات الثقيلة ، واللعنات الصاخبة ، وتكسرت بعض الاشياء على الارض فشكلت سمفونية متنافرة الاصوات ، محطمة هدوء ذلك الصرح المهيب للعلم ومطلقة الذعر في جميع الافئدة .

كانت هناك في الطابق الاول غرفة صغيرة على بابها لوحة كتب عليها « البواب » . وكان الباب مفتوحا قليلا والغرفة تبدو مقفرة . اقترب منها شرطي فتي . وتفحص اللوحة الخشبية ، ورفس الباب ، ودخل . كانت نوافذها مغلقة ، والغرفة مظلمة خانقة . وفيما الشرطي ينكص على عقبيه ليفتح الباب على مصراعيه لمح رجلا عجوزا مستلقيا على سرير من الالواح الخشبية . كان وجهه صوب الجدار ، ويرتدي قبعة ليلية صغيرة وقد لفّ منشفة بيضاء على جبهته ، وتلفّع بلحاف ثقيل وهو يواصل الانين ــ قد يكون يشكو من مرض معد خطير ! عبس الشرطي وبصق ، ثم رفس الباب رفسة قوية أخرى ، وأسرع خارجا .

قام رجال الشرطة ببحث دقيق ، فبحثوا في السرير وتحت السرير .

بدأت عمليات التفتيش في الساعة السادسة صباحا واستمرت حتى العاشرة . وعلى الرغم من أن النزل انقلب رأسا على عقب بحثا وتدقيقا، فقد فشل أولئك الخبراء في « القبض على الشيوعيين » من رجال الفوج الثالث للشرطة العسكرية ومركز قيادة الكيومنتانغ المديني في العثور على لو شيا ــ شوان الذي كان يمكن أن يغدق اعتقاله عليهم بعض المكافآت أو آيات المديح . فبارحوا الجامعة غاضبين بعد أن اقتادوا عددا من الطلاب .

في الطابق الاول بقي باب البواب نصف مفتوح . وبقي لو شيا ــ شوان ، طوال أربع ساعات من روحات رجال الشرطة ورجعاتهم ، مستلقيا في هدوء على فراش العجوز وانغ .

حينما بلغت أصوات احتجاجات الطلاب الساخطة ولعناتهم الغاضبة الى غرفة البواب عرف لو شيا ــ شوان أن رجال الشرطة والمباحث غادروا المبنى . فوثب عن السرير . وفيما هو يخلع قبعة الليل والمنشفة دلف العجوز وانغ الى الغرفة . شُدِهَ البواب العجوز للمظهر الغريب الذي بدا عليه الفتى المرتدي ثوبه الرمادي وقبعته الليلية ، ولكنه ما أن

عرف لو شيا ــ شوان الذي كان من عادته أن يتردد على المبنى حتى أدرك القصة . أمسك به من ذراعه وقال : « يا للفرار الضيق ! أولئك الرجال كانوا من فوج الشرطة العسكرية الثالث . لربما كنت واحدا من الذين كانوا يطاردون ؟ »

ــ ربما ! اذا هم لم يعتقلوا مزيدا من المواطنين العاديين فكيف يمكن أن يزدادوا ثراء ؟

ونزع لو شيا ــ شوان الثوب الرمادي ، وطوى اللحاف ، وكنس الارض ، وفتح النافذة . نظر العجوز وانغ اليه في عصبية ، وغلاية الشاي في يده ، وخاطب نفسه قائلا : « يا للمكان الضيق الذي وجدت فيه ! ورغم ذلك فان هذا الفتى يستطيع أن يبتسم لي ابتسامة ودية . وهذا هو يساعدني في ترتيب الغرفة بكل هدوء » .

طغى التأثر على الرجل العجوز الى درجة لا توصف . لقد رأى خلال حياته بطولها أشياء كثيرة والتقى بأصناف كثيرة من الناس ، ولكنه لم يجتمع بأشخاص كثيرين من أمثال لو شيا ــ شوان . عرج متقدما وتمتم ، وقد تناسى الأعباء الملقاة على عاتقه : « هَه ! هذه المجموعة التي تسمي نفسها الحكومة الوطنية وتدعي أنها من اتباع صن يات ــ صن ، ان أفرادها ــ واسمح لي أن أتحدث بصراحة ــ أكثر سوءا من قطاع الطرق! لقد رأيت أشياء كثيرة ، ولا أبالي ان أنا أخبرتك بها . اذا تحدث شاب شريف عن انقاذ البلاد ومقاومة اليابان ، أو قرأ كتابا غلافه احمر ، فان تلك العصابة تستشيط غضبا كما لو كان أحدهم يحتفر لها قبور أسلافها! ثم يطلقون عليه اسم لص شيوعي ، أو أحمر أو مشاغب في الجامعة . ان للمرء رأسا واحدا يمكن أن يفقده ــ وتلك تكون نهايته . يا للعدد الكبير من الفتيان الرائعين الذين رأيتهم يقبضون عليهم واحدا بعد الآخر أمام عينيّ ! »

وصعّد تنهيدة حرّى ، واسترسل يقول : « ذلك كثير ! أخبرني ، يا سيد لو ، الى مَ سيؤول هذا العالم ؟ ... »

وقف لو شيا ــ شوان هنالك يصغي في اهتمام ، فيما الرجل العجوز يرسل كلامه في سرعة الى ان فتح البواب عينيه أخيرا بأقصى ما يستطيع ، وبدّل نغمة صوته : « ولكن ، ربما تكون مشغولا ياسيدي ، ولا ينبغي ان اضيع وقتك بثرثرتي . اني افكر بعالم الرجال الذين هم من

أمثالك . ان لدي عددا من الاصدقاء بين الطلاب ، وجميعهم مثلك ، لكن عددا ضئيلا منهم فحسب تم اعتقاله ... حسنا ، لا ينبغي أن استمر في الحديث ، فأنا أؤخرك . لا تذهب على الفور . دعني ألق نظرة اولا فأتأكد اذا كان الشاطئ خاليا . قد يكون بعض من اولاد الزنا يتجولون هنا وهنالك . انتظر لحظة واحدة » .

تناول العجوز وانغ غلاية كبيرة ، وزحف خارجا من الغرفة .

جلس لو شيا ــ شوان ينتظر الى أن عاد العجوز . وأخبره وانغ أن الجواسيس ما برحوا يختبئون عند البوابة ، ويحسن ان ينتظر حتى المساء . ولما بلغت الساعة السابعة كان في غرفة أحد الطلاب وقد ارتدى بدلة غربية أنيقة ، ولم يلبث أن اغتنم فرصة الازدحام الذي يحدث في العشية فتسلل من بوابة النزل الثالث ، وهو يطلق من بين شفتيه صفرة، فأشبه بذلك غندورا متظرفا .

كان لو شيا ــ شوان قد ابصر النور في لوتينغ في مقاطعة هوبيي حيث كان والده معلما في مدرسة القرية . وبفضل لي تا ــ شاو(١) وشعبيته في تلك المنطقة فقد تعرف لو شيا ــ شوان ، وهو صغير بعد ، على الثورة . وبعيد ذلك ، خلال دراسته في المدرسة الثانوية في بيبينغ ، صار يذهب أغلب الاوقات للقاء لي تا ــ شاو الذي شحذت هوايته الصبور وتأثيره الهادئ وعي لو السياسي وجعلا منه ثوريا مخلصا . وعمل للثورة في مدرسته الثانوية ، وما أن انتسب الى الجامعة حتى غدا عضوا مسؤولا في منظمة الحزب الشيوعي فيها . وبعيد عودته من المظاهرة في نانكينغ شرع العدو يتجسس عليه ، كما بذلت محاولات كثيرة لاعتقاله . وهكذا نقل لقيادة الحركة الثورية في المدارس الثانوية والكليات في الجانب الشرقي من المدينة.

في صيف عام ١٩٣٣ قاست منظمة الحزب في بيبينغ من خسائر جسيمة على يد العدو . وكان الاعضاء الحزبيون الذين عانوا الامرّين من الرعب الابيض مهددين بخطر الاعتقال . وبناء على ذلك فلم يكن للو شيا ــ شوان مكان اقامة ثابت . فقد يمضي نصف ليلة في جامعة شاويانغ والنصف

---

(١) لي تا ــ شاو (١٨٨٨ ــ ١٩٢٧) كان واحدا من أوائل الثوريين الذين نشروا الماركسية ــ اللينينية في الصين ومؤسس الحزب الشيوعي الصيني . وقد أعدمه القائد العسكري الشمالي شانغ تسو ــ لين في نيسان ١٩٢٧ .

الآخر في الجامعة الكاثوليكية . ورغم أن غارات الشرطة كانت مدروسة ببراعة غير أن براعته ومرونته المدعومتين بولائه وشجاعته كشيوعي حقيقي اختطفتاه مرارا عديدة من براثن الموت .

كان الوقت غسقا حينما بارح النزل الثالث ، وكانت شوارع المدينة القديمة تعجّ بالناس . شق لنفسه طريقا بين الجمهور ، وانطلق متجها الى حيث كان سينعقد اجتماع للجنة مقاطعة المدينة الشرقية . كان يسترق النظر من فوق كتفيه وهو يسير في الطريق ، فلما لم يجد أحدا يتعقبه أسرع من خطواته . وحينما مرّ بكشك يبيع الكعك ذكّرته عضة من الجوع أنه لم يذق لقمة من الطعام خلال أحداث ذلك النهار . ابتسم ، وبحث في جيبه فوجد أنه لا يملك غير عشرين قرشا . ان هذا المبلغ من المال يجب أن يكفيه طوال يومين كاملين ، فاشترى ثلاث كعكات صغيرة من الكشك الثاني . وضعها في جيبه ، فقد كان يجب أن يتروى قليلا على الرغم من أن معدته تصرخ من الجوع . ان هو شرع يأكل في الطريق ، مرتديا تلك الثياب المبهرجة المستعارة ، فلسوف يلفت الانظار اليه .

وما أسرع أن انعطف في زقاق ضيق داخل تيين آن مين وتوقف عند بوابة تساقط دهانها . وعندما وقعت عيناه على قرميدة مكسورة موضوعة على وصيدها تخايلت على ملامحه ابتسامة خفيفة . أخرج الكعكات من جيبه والتهمها في نهم .

وما أن بلغ الساحة الداخلية والغرفة المواجهة للشمال حتى لوّح بقبعته وصاح وهو يرفع رأسه في حركة مفاجئة : « هاي ! ان لعبة المهجونغ تحتاج الى أربعة لاعبين . هل جعلتكم تنتظرونني طويلا ؟ »

لقد انقلب في تلك اللحظة فتى مرحا من جديد .

هبت امرأة نحيلة العود جميلة الطلعة يتراوح عمرها بين الثلاثين والأربعين الى ملاقاته ، وأمسكت بيديه . تطلعت اليه مليا ، وهمست : « أيها الرفيق ، لقد تأخرت ؟ لقد خطر لنا جميعا أن شيئا اصابك » .

ــ كلا ، أيتها الاخت الكبيرة ليو ــ كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟

ورمى نظرة ناحية المنضدة المربعة التي القيت فوقها أدوات المهجونغ وجلس حولها امرأة ورجلان . أومأ الجميع برؤوسهم وابتسموا له . ونهضت المراة ، وكانت فتية أنيقة الهندام ، وأشارت له أن يتخذ مقعدها ، ثم انسحبت وهي تومىء له من جديد وتبتسم .

قعقعت أدوات المهجونغ لحظات عديدة . وحينما خفتت أصداؤها نظر لو شيا ــ شوان الى رفاقه وقال في هدوء : « كل شيء مثلما ينبغي ان يكون ــ فهل نبدأ؟ » .

كان سكرتير الحزب للجنة المقاطعة رجلا يغازل الخامسة والعشرين من عمره يدعى تاي يو . وكان هو الذي تحدث قبل لو شيا ــ شوان في الاجتماع الاحتفالي بذكرى حادثة الثامن عشر من آذار . وكانت عيناه تبدوان من خلف نظارته ناتئتين مثل سمكة ذهبية .

أعلن بوقار قائلا : « فلنفتتح الاجتماع » .

ناقشوا ، بادىء الامر ، كيف سيتم الاحتفال بالاول من أيار ، يوم العمال العالمي . وقبل ان يتوصلوا الى قرار نهائي ثبت تاي يو عينيه على لو شيا ــ شوان وقال في نبرة صارمة : « لقد غدت أخطاء الرفيق فينغ شين(١) خطيرة بصورة متزايدة . أقترح أن نناقش هذا الموضوع الآن . نعرف جميعا أن حكم الكيومنتانغ الرجعي يواجه أزمة أكثر خطورة من أي وقت مضى ، وأن مدّ الثورة الحاسم يقترب ويقترب . ينبغي أن نهيىء لعمل على مدى واسع مثل تسليح الجماهير ، وتنظيم اضرابات بين الطلاب والجيش والتجار ، ونحقق النصر الذي سيجعله الحزب معروفا للجميع . ويجب علينا أيضا أن نزيد من أعضائنا . ولكننا بدلا من أن نفعل هذه الاشياء نروح نناقش نظريات جوفاء وقضايا ايديولوجية مع مثقفي البورجوازية الصغيرة . يجب أن ندرك أن هذه العناصر المتوسطة أكثر زعزعة ورجرجة . فهم يشكلون قوى البورجوازية الاحتياطية ! »

رفع نظارته وخلط قطع المهجونغ في لغط صاخب قبل أن يسترسل قائلا : « لا ينبغي أن نسمح للامور أن تسير على هذا المنوال . ان انتهازية فينغ شين اليمينية قد تطورت الى حدود لا تطاق . وأكثر من ذلك انه تناهى الى مسمعي أنه كان يلقّن الشيوعية لزوجة طالب جامعي رجعي . واسمها لين تاو ــ شينغ ، أليس كذلك ؟ انني استنكر بشدة عمل الرفيق فينغ شين هنا ... »

أبقت الاخت الكبيرة ليو رأسها مخفوضا وقد نأت بعينيها عن الحاضرين ، وهي تطقطق بقطع المهجونغ في يديها . وكان الرجل الآخر ،

---

(١) الاسم المستعار للو شيا ــ شوان .

يو فينـغ السمين الشاحب ، غارقا في بحران صمت هو الآخر . تطلـع لو شيا ـ شوان بثبات في وجه تاي يو وقد أرهف سمعه بانتباه . وحينما انهى تاي يو حديثه اغتمّ وجه لو وعبست ملامحه .

قال في نبرة متمهلة : « أيها الرفيق تاي يو ، ان آرائك مُغرضة وغير موضوعية . أرجو أن تفتح عينيك وتنظر في هدوء الى الاوضاع في بلدنـا وتراها في ضوئها الحقيقي . في الوقت الراهن تطالب الامة بأسرها بمقاومة اليابان ، ولذلك فان واجب الحزب أن يقود المقاومة ضد اليابان . وأيـة شعارات أو مطاليب تكون زائدة عن حدودها سوف تبعدنا عن الجماهير » .

وعكست ملامح وجهه ما كان يعتمل في نفســه من ضيق ، وشحب وجهه ، وغدا صوته أكثر رزانة : « ينبغي أن تفهم ما هو مطلب الشعب الاكثر الحاحا ، وما هو الأمر الذي يقلق أفكاره أكثر من سواه ... أمـا فيما يتعلق بنشر الدعوة بين المثقفين فهو عمل عهد به الحزب اليّ . في كتابه « تحليل الطبقات في المجتمع الصيني » كان أول شيء أخبرنا بـه الرفيق ماوتسي ـ تونغ هو أنه يجب علينا ان نميز بين الاصدقاء والاعداء . وهو يقول ان البورجوازية هي أقرب صديق الينا ، كما يقول ان الجنـاح الايسر للطبقة الوسطى نفسه قد يتغلب ايضا ... ولا تنس ، أيها الرفيق تاي يو ، أنه لا أنت ولا أنا ننحدر من الطبقة العاملة » .

أما بخصوص تاو ـ شينغ فلم يقل شيئا للدفاع عنها ، معتبرا أن هذا الامر لا صلة له بموضوع الحديث .

أومض وجه تاي يو الشاحب بالغضب ، وهـدر : « ماذا ؟ هـذه انتهازية ! أنت تقول ان الطبقة الوسطى يمكن ان تكون صديقة لنـا ؟ ياللفكرة المروّعة ! »

ولهث كي يستنشق الهواء ، وأدار عينيه الناتئتين ، ثم اندفع في حديث مرتفع النبرة معارضا محاولات لو شيا ـ شوان الواعية الصبور لتثقيف المفكّرين . ظل يئز على نحو رتيب ، وكأنه نسي أنهم يعيشون في ظل الرعب الابيض الوحشي ، وأن من الضروري توفـير الوقت وحـل المشكلات . وحينما لم يعد في مقدور لو شيا ـ شوان الاحتمال أكثر مما احتمل فقد دفع قطع المهجونغ جانبا ، وهبّ على قدميه فجأة ، وصاح في صوت قوي : « أيها الرفيق تاي يو ، رويدك لحظة ! أيزعجك الاصغاء الى رأيي ؟ »

واقتعد كرسيه مرة أخرى وهو يلوّح بذراعيه : « اني اتفق معك في بعض ما قلت » .

كان يبذل جهده ليتحدث بصوت معتدل : « صحيح انه يجب علينا ان نعمل عازمين لتنفيذ المهمة التي عهدت بها الينا منظمات الحزب العليا ، وهي تطويع مزيد من الاعضاء . لكن في ظروفنا الحالية هذه ما هو عدد الاعضاء الحزبيين الجدد الذين يمكن تطويعهم ؟ منذ مجيء الفوج الثالث للشرطة العسكرية غدا الرعب الابيض أكثر وحشية وقسوة . وقد درّب شيانغ كاي ــ شيك ، بمساعدة الفاشيستيين الالمان والطليان ، جميع هؤلاء العملاء السريين مثلما يدربون الكلاب الدموية لاصطيادنا . وقد عمت الفوضى الشاملة بين أفراد الشعب . واغلب المنظمات القريبة من الحزب تبعثرت ، وما تبقى منها سادته البلبلة بحيث غدا من العسير عليها أن تتوسع وتنتشر . ولما كانت الامور على هذا الفرار فأنا أعتقد أن الجزب يجب أن يتبنى سياسة أكثر أمنا وثباتا في الوقت الراهن . وبدلا من أن يعزل نفسه من دون داع عن طريق كشف نفسه ، فينبغي أن يحاول الحفاظ على قواه . لكن . . . »

فقاطعه تاي يو مستوضحا : « لكن ماذا ؟ ايها الرفيق فينغ شين ، ان التوتر الراهن ما هو غير توتر وقتي ، في حين ان احتمالات الانتصار تبث الشجاعة في أفئدة جميع الثوريين للانطلاق قدما . . . هل يجب أن نوقف خطواتنا خشية من فقدان حيواتنا ؟ . . . »

ثم تعد الاخت الكبيرة ليو تطيق صبرا . فتدخلت في الحديث قائلة : « رويدك ، أيها الرفيق تاي يو ! ائذن لي أن أقول بضع كلمات ! »

كان وجهها النحيل المتغضّن قد تورد احمرارا وأنفاسها مرهقة : « لا تبتكرنّ عقيدة ، أيها الرفيق ! أعتقد أن وجهات نظر فينغ شين تستأهل أخذها بعين الاعتبار » .

ودفعت قطع المهجونغ ناحية تاي يو ويو فانغ اللذين جلسا صامتين ، واسترسلت تقول في حزم : « أتفق ، في الغالب ، مع فينغ شين . . والرفيق تاي يو يقدم ، بكل بساطة ، آراء دوغماتية من دون تفهم للوضع الراهن . لقد ظللت فترة طويلة مكتئبة مثل فينغ شين . وقد سيطرت علينا ذات الاحاسيس طوال فترة مديدة من الزمن . وعلى الرغم من أن قيادة الحزب قد تغلبت على الاصوات المتلاحقة ، وعلى مسلك المغامر

لي لي ـ سان(١) ، فهل جميع تكتيكاتنا سليمة تماما ؟ مقاومة اليابان وانقاذ البلاد هو ما يريده الشعب من صميم فؤاده ، الا أن الشعارات التي نطلقها هي في الغالب أكثر من ذلك فيما عدا بعض المتحمسين القلائل تجد الجماهير انه غير مرغوب فيهم . ولهذا السبب فأنا أؤمن ... »

وانخفض صوتها حتى تعذر سماعه ، ولم تكمل بقية حديثها .

لجأ أربعتهم الى الصمت . وأبقى تاي يو الغضوب فمه مقفلا . ولم يكن يسمع في الغرفة غير الاصداء المتقطعة المملة لقطع المهجونغ . تطلعت الاخت الكبيرة حولها لبتر حبل الصمت الطويل ، وقالت في نبرة ناعمة : « أستطيع ان اقول لك ، يا تاي يو ، شيئا عن تلك الفتاة التي قلت أنه لا ينبغي أن يقدم لها فينغ شين شيئا . لقد صدف أن تعرفت اليها . انها تقدمية تناضل ضد المجتمع القديم وتتوق الى مساعدة الحزب الشيوعي . ويقتضينا واجبنا أن نساعدها ونثقفها . وأعتقد أن فينغ شين على حق » .

وتكلم يو فانغ الذي ظل صامتا طوال تلك الفترة ، فقال : « ذلك متوقف على الظروف . اذا هي تزوجت طالبا رجعيا فان وجهة نظرها لابد أن تكون موضع شك من دون ريب . وعلى أية حال ، فان مسلك حزبنا الطبقي أمر له أهميته . ولذلك فأنا ، بدوري ، أرغب في أن أحذر فينغ شين في ان يحترس بصورة خاصة عندما يتعامل مع مثقفين من البورجوازية الصغيرة . وأفضل أن ينحرف المرء الى اليسار من أن ينحرف الى اليمين » .

فوافق تاي يو بسرعة : « بلى ، أفضل أن ينحرف المرء الى اليسار من أن ينحرف الى اليمين » .

هزّ لو شيا ـ شوان رأسه في هدوء ، وهو يمس قطع المهجونغ

---

(١) اشارة الى المسلك الانتهازي « اليساري » الذي اتبعه الحزب لفترة قصيرة من الزمن في عام ١٩٣٠ وكان يمثله لي لي ـ سان ، القائد الاكثر نفوذا في الحزب في ذلك الحين . كان ينكر الحاجة الى بناء قوة جماهيرية ويرفض الاعتراف بتفاوت التطور الحزبي . وكان يعارض فكرة ماو تسي ـ تونغ القائلة ان من واجب الحزب ، ولفترة طويلة من الزمن ، أن يكرس اهتمامه بصورة رئيسية لاقامة قواعد ريفية ، واستخدام المناطق الريفية لتطويق المدن وبذلك يتم احراز انتصارات كبيرة في البلاد ، وتتحقق انتفاضات فورية في المدن الرئيسية .

بأصابعه ، وقال : « يساري أفضل من يميني ؟ كلا ، ليس هكذا تقيّم الامور . ينبغي أن نوحد الخط الطبقي مع تحليل للاوضاع الراهنة اذا كنا راغبين في ايجاد قواعد صحيحة للسيطرة على العالم الموضوعي . ومهما يكن من أمر ، فأنا اقبل تحذيرك . لسوف أكون اكثر يقظة . اذا لم تعد هناك امور على غاية من الأهمية نتناقش فيها فأقترح ان نستأنف البحث في ماذا نفعل في الاول من أيار » .

فأشرق وجه يو فانغ ، وقال : « بلى ، فلنتحدث عن احتفالات الاول من أيار ! أما فيما يتعلق بقضية من هو انتهازي « يساري » ومن هو انتهازي يميني ، فأعتقد ان من الصعوبة بمكان أن نصل الى نتيجة . وفوق ذلك كله ، وباعتبارنا أعضاء حزبيين ، فمن واجبنا أن نبذل قصارى جهدنا لتنفيذ المقررات التي يتخذها قادة الحزب » .

عادت الفتاة التي ترتدي ثيابا على آخر طراز فدخلت الى الفرفة ، وشملت الاربعة بنظرتها ، وتمتمت : « كل شيء على ما يرام ــ أكملوا ! » . ودلفت خارجة من جديد .

كان يبدو أن تاي يو يختزن في فكره أمورا أخرى ، ولكنه اكتفى بالقول : « حسنا ، سنبحث هذا الموضوع في فرصة أخرى » .

ناقشوا من جديد موضوع احتفالات الأول من أيار . في رأي تاي يو أن الحزب الشيوعي ، وعصبة الشبيبة الشيوعية والمنظمات التقدمية مثل عصبة عمال العلوم الاجتماعية واتحاد الكتاب اليساري ، ينبغي أن تحشد جميع اعضائها للقيام بمسيرة كبرى . بعد قليل من التفكير رفع لو شيا ــ شوان رأسه ونظر الى تاي يو ، وقال : « منذ عدة أيام ، في مسيرة ذكرى جنازة الرفيق تا ــ شاو(١) ، تم اعتقال كثيرين من جماعتنا . ونحن الآن في موقف خطير . وأنا واثق ان العدو في الاول من أيار سيتخذ تدابير كثيرة ويلجأ الى تنفيذ خطوات اكثر تطرفا وعنفا . وآمل أن تبحث هذا الامر مفصلا مع لجنة المدينة . فأنا أخشى أن . . . »

فتدخل تاي يو في الحديث ، وهو يمسح زجاج نظارته مقطب الوجه : « هذا جبن مطلق ! هل تحاول ان تخرب العمل ، يا فينغ شين ؟ . . .

---

(١) أقيمت مسيرة جنائزية في نيسان ١٩٣٣ من قبل منظمات الحزب السرية في بيبينغ لتخليد الذكرى السادسة لوفاة الرفيق لي تا ــ شاو .

هذه مهمة مقدسة أناطها الحزب بنا . وأية شكوك تتعلق بهذه المهمة تعتبر ترددا يبعث على الخجل ! »

وربّت على زاويتي فمه بمنديل قبل أن يدفع قطع المهجونغ بعيدا عنه . وما ان حذا الباقون حذوه حتى ارتفعت ضجة صاخبة نتيجة النقاش الساخن . وحينما خمدت الضجة استرد وجه لو شيا ـ شوان الشاحب لونه الطبيعي . تطلع في عيني تاي يو الناتئتين ، وقال في نبرات صوته الطبيعية المألوفة : « أيها الرفيق تاي يو ، لا يقلقنك شأني . فأية مهمة يندبني الحزب لها أنفذها دون نقاش . لكنه يجب أن تسمح لي أن أعرض وجهات نظري . قد تكون خاطئة . وقد يكون استنتاجي بأكمله خاطئا ، لكنه ينبغي على أقل تقدير أن تكون على ما يكفي من صفاء الذهن لترى ما اذا كنت حقا جبانا انانيا أم لا . . . »

وخفض رأسه ، عاجزا عن الاستمرار في الحديث .

قال يو فانغ : « حسنا ، فلننفذ عازمين تعليمات لجنة المدينة . ولنبذلن قصارانا لاثارة أكبر عدد من الناس نستطيع اثارته ، وهذا كل شيء » .

وأعلنت الاخت الكبيرة ليو بسرعة ، وقد بدا القلق عليها : « حسن جدا أن نستثير الناس ، ولكنه لا يستحسن أن نتركهم ينطلقون الى الهدف مباشرة بعد استثارتهم » .

خيم الصمت ، استمرت خلاله مناقشة خرساء في عيونهم الملتهبة الى أن هدأ تاي يو بما يكفي ليعلن قائلا : « حسنا ، اذا لم يكن فينغ شين والآخرون يعارضون القيام بتظاهرة واسعة ، فلسوف نستحث الجماهير على الاحتشاد فوق جسر السماء في الاول من أيار . وسوف تعلن التفاصيل لكم فيما بعد » .

وهكذا انفضّ الاجتماع .

حينما نهضوا استعدادا للذهاب أسرعت الفتاة التي ترتدي ثوبا على آخر طراز ناحية البوابة ، ولما تأكدت من عدم وجود أشخاص يبعثون على الارتياب رجعت باسمة الوجه وأعلنت أن الشاطىء نظيف . كان تاي يو ويو فانغ اول من ذهب . بعيد ذهابهما تمشى لو شيا ـ شوان والاخت الكبيرة ليو على مهلتهما ناحية البوابة في عتمة ضوء القمر الجديد . وعند المدخل توقفت الاخت الكبيرة ليو وأمسكت بلو شيا ـ شوان من يده .

وعندما تكلمت جاء صوتها منخفضا ، معتدل النبرة : « ابتهج ، ايها الشاب فينغ ! الحزب يفهمك . ونحن جميعا نفهمك ... في الاول من ايار ينبغي أن تكون أكثر احتراسا . وتذكر أن تستشير أكبر عدد ممكن من الناس » .

اعتصم لو شيا ـ شوان بالصمت فترة طويلة وقد حنى رأسه . ولما رفعه لينظر اليها كانت عيناه مبللتين بالعبرات .

ضغط على أصابعها النحيلة بشدة ، وقال : « شكرا لك ، أيتها الرفيقة العزيزة ! لا ينبغي أن تقلقي عليّ ، أيتها الأخت الكبيرة . في رأيي أن عزم الشيوعي على تكريس نفسه بالكلية لقواعد الحزب يطرد من رأسه كل الاعتبارات الشخصية المتعلقة بالخسارة أو الربح ، بالمجد او العار . ولن اسمح لما حدث الآن أن يجعل الامور تختلف ... حسنا ، فلنقل وداعا ! »

استندت الاخت الكبيرة ليو الى البوابة المتداعية وجعلت تراقبه وهو يبتعد بخطوات ثابتة عازمة ، ولم تغلق البوابة حتى رأته يختفي وراء زاوية الزقاق المعتمة . وغمغمت في صوت خفيض لم يسمعه الاها : «الشاب فينغ رفيق رائع ! لكن ، لم لا يفتح تاي يو عينيه وينظر حواليه قليلا ؟ ...»

١٨

ذات صباح ، وبعدما وضعت الارغفة للنضج ، جلست تاو ــ شينغ الى جانب النافذة تقرأ « دراسات مختصرة في الديالكتيك » ، ولكنها لم تكد تلمح شريطة صغيرة من القماش الاحمر مخبأة بين ثنايا الصفحات حتى توقفت عن القراءة . وضعت الكتاب جانبا ، وشرعت تتأمل تلك الشريطة من القماش الاحمر البراق كما لو كانت كنزا ، وأضاءت وجهها ابتسامة وهي تغمغم بينها وبين نفسها : « آه ، الأول من أيار ! لكم كان يوماعظيما!»

في الاول من أيار ، ذلك اليوم التذكاري العظيم ، طلب اليها لو شيا ــ شوان أن تشارك في التظاهرة . أخفت نفسها مع عدد آخر من المجموعة ذاتها في زقاق قريب من جسر السماء . واقترب لو شيا ــ شوان منهن لتسليمهن حزمة من الكراسات الصغيرة ، وسألهن ما اذا كن أحضرن معهن اعلاما صغيرة ومسحوق الكلس ، وما أن تلقى ردا ايجابيا حتى تابع سبيله وتركهن يتسكعن في ذلك الزقاق فترة من الوقت . وسرعان ما ظهر ضابط اتصالات يحمل الاوامر بالتراصف فورا على الدرب المؤدية الى جسر السماء . ركضن ، وانضمت اليهن جموع أخرى تتدفق في وقت واحد من جميع الازقة ، وسرعان ما شكلت فريقا يبعث على الدهشة . تاقت تاو ــ شينغ أن تكون قريبة من لو شيا ــ شوان لانها تشعر بالطمأنينة والهدوء في رفقته ، ولكن مهمات كثيرة تنتظره ، وما أسرع أن رأته فيمقدمة الرتل من جديد . كانت تسير ضمن الصفوف المكتظة حينما رفرف على حين فجأة علم كبير أحمر اللون في وجه السماء مثل شمس براقة حمراء تبرز من قلب الضباب . رمت رأسها الى الخلف ، ولمحت ما هو مكتوب على العلم بالحبر الاسود : « يا عمال العالم اتحدوا ! » . فخفق قلبها بشدة وصخب . ان الشعارات المهتوفة بحماسة ، والكراسات المتناثرة في الهواء ، والقبضات الملوّحة ، والاعلام الحمراء التي لا حصر لها ترفرف من جراء النسيم تبدو كلها وكأنها تجعل الارض ترتجف تحت أقدامهم ...

استطال ذلك لحظات قليلة فحسب . ان نفخات قوية من صافرات رجال الشرطة ، وضجيج دراجات نارية وأصداء طلقات نارية قد ملأت الهواء . ومرة أخرى انبثق رجال شرطة وجنود مسلحون حتى أسنانهم من كل حدب وصوب .

تقطب جبين تاو ــ شينغ وهي تمس بأصابعها شريطة القماش . ومرة أخرى لاح وجه لو شيا ــ شوان الشجاع الجميل أمامها بصورة مشرقة . ولقد شتت رجال الجيش والشرطة جموع الحشد وقاموا باعتقالات عديدة . وكان واجب لو شيا ــ شوان ان يدافع عن حامل العلم ، فاندفع حينما انكسرت السارية وكاد حاملها ان يعتقل ، فضرب السفاح الذي كان يضايقه ضربة قوية ، ونثر الكلس بشدة . خلقت فعلته ستارا من الدخان استطاع حامل العلم الهرب من جرائها ، لكن أنظار الجنود انجذبت الى لو شيا ــ شوان على الفور . كانت تاو ــ شينغ تركض وراءه فلوح لها باشارة يطلب منها الابتعاد ، غير أنها تجاهلت اشارته ، وركضت بأقصى سرعتها ناحيته . كان لو شيان ــ شوان ينعطف في احد الازقة حينما أطلق دركي في ثوب رصاصي طلقتين فوق رأسه . وبدا أنه لن تمضي ثوان قليلة حتى يتم القبض عليه ، غير أنه استدار فجأة وأفرغ بقوة محتويات رزمة في الهواء . ومرة اخرى فعل الكلس أفعالا رائعة ، اذ أن الضباب الابيض الخانق الذي أثاره جعل رجال الجيش والشرطة يغلقون عيونهم ، مما أتاح له فرصة التخلص منهم . واتبعت تاو ــ شينغ الاسلوب ذاته في تأمين نجاتها . ثم التقت به ، على ما كان مقررا من قبل ، في حديقة سرادق البهجة ، وبعدما مشيا فترة متشابكي الذراعين مثل عاشقين متيمين ، وتبادلا بضع كلمات مختصرة ، افترقا بسرعة . وخلال سيرهما معا لمحت تاو ــ شينغ شريطة ممزقة من العلم الاحمر في جيبه فأخذتها تذكارا ثمينا لذلك اليوم المجيد .

ــ لكم هو شجاع ، ولكم هو داهية !

ان تفكيرها في جرأة لو شيا ــ شوان خلال الاحتفال بالثامن عشر من آذار والاول من ايار أثار فيها اعجابا عميقا . ومما لا ريب فيه أن أحاسيس معقدة اخرى سيطرت على موقفها منه . ولم تكن تستطيع ترجمة تلك الاحاسيس . كل ما كانت تعرفه أنها تاقت الى رؤيته وتعلم المزيد منه .

ذهب يونغ ــ تسي بعد الغداء الى احدى المحاضرات ، فذهبت

تاو – شينغ ، وقد وجدت بيي لي – بينغ في بيتها ، للتحدث فترة من الوقت .
غمزت لها لي – بينغ وابتسامة لعوب تتراقص على شفتيها : « أهلا ، يا صغيرة ! هل اشتركت في مسيرة الاول من أيار نهار البارحة ؟ »
– أجل ، لقد اشتركت . لماذا لم تفعلي أنت ذلك ، يا لي – بينغ ؟
– انا ؟ أوه ، ان لدي عملا آخر يجب أن أنجزه !
وما أسرع أن بدلت لي – بينغ موضوع الحديث على غير انتظار ، وهي ترمي ذراعها حول كتفي تاو – شينغ : « لقد تشاجرت ورجلك العجوز ليلة البارحة ، أليس كذلك ، يا تاو – شينغ ؟ أخبريني ، ايتها الطفلة الغبية ، لماذا أوجبت على نفسك أن تمضي حياتك مع مثل هذا الفتى ؟ أتعجزين عن العثور على رجل أفضل ؟ »
كانت لي – بينغ تشير الى يونغ – تسي بكلمة « العجوز » لان الثوب الطويل الذي يرتديه يخلع عليه مظهر معلم هرأته السنون .
تبسمت تاو – شينغ عن اسنان مثل العاج ، قائلة : « اهتمي بشؤونك الخاصة ! نحن لسنا مثلك . حينما تجدين رجلا تميلين اليه فأنت تحبينه ؛ وعندما تجدين رجلين اثنين ، فأنت تحبينهما معا . أنت خبيرة في شؤون الحب ! »
– حسنا ، حسنا ! أهذا هو الشكر الوحيد الذي تسبغين عليّ لانني أحدثك في أشياء في صالحك ؟ فكّري فقط في غرابة مظهره . فما هذا الذي يستثير الحب فيه ؟ أخبريني ، يا تاو – شينغ ، ما هو رأيك في العجوز لو ؟ انه نشيط ، شجاع ، مقتدر وذكي . اتريدينني أن أكون واسطة بينكما ؟
توقف قلب تاو – شينغ قليلا عن الخفقان وقتما ربطت لي – بينغ اسمها باسم الرجل الذي تحترمه كثيرا وتحبه الحب كله . احمارّ وجهها ، وابيضت عيناها الكبيرتان . تكركرت لي – بينغ ضاحكة ، واحتضنتها ، وهمست في أذنها : « فيم التردد ، يا صغيرة ؟ « اطرد عنك الحب القديم ، واستقبل الحب الجديد ! » أتستطيعين أن تتذكري من قال ذلك ؟ وشرفي ان معلمك العجوز ذاك لا يستأهل قلامة ظفرك . كوني شجاعة وابدئي بداية جديدة ! »
اجابت تاو – شينغ في رقة ، وهي تهز رأسها : « كلا . فهو يحبني . ومن القسوة ان اتركه ! »

لم تكن تستطيع أن تأخذ الموضوع على سبيل الهزل في حين تقصد صديقتها كل حرف منــه .

استوضحت لي ــ بينغ في وقار ، رغم أن ابتسامة ساخرة تلهو على شفتيها : « أتنتظرين ان يقيم يونغ ــ تسي تمثالا لطهارتك ؟ تتحدثين عن المشاركة في الثورة ، ورغم ذلك لآ تجرؤين أن تثوري على شيء تافه مثل هذا ــ وبرغم كل شيء فماذا تهم القضايا الشخصية هنا ؟ »

ازعجت تلك الملحوظة الطارئة تاو ــ شينــغ ، فأطلقت سراح يــد صديقتها ، وظلت جالسة دون ان تنبس بحرف ، خافضة رأسها . كانت تعرف أن ثمة تصدعا بينها وبين يونغ ــ تسي ، هذا الصدع الذي جعل سعيها وراء حياتها اليومية يوسعه يوما بعد يوم ، ومع ذلك فقد كانت تشفق عليه . كان ثمة احساس عميق من الشفقة يربطها اليه . ولما كانت تؤمن أنه لا ينبغي على الثوري أن يصرف اهتماما على قضاياه الشخصية فقد تحملت آلام فؤادها الناجمة عن مثل هذه العواطف المتضاربة ، آملة ان تستطيع نتيجة ذلك ان تتحسن أمورها مع يونغ ــ تسي . غير ان اشارة لي ــ بينغ الى « التفاهات » فتحت عينيها على الواقع الذي كان يسمح لهذه التفاهــات أن تسيطر عليهــا ، اذا غضضنا الطرف عن قضاياهــا الشخصية ــ ولم تكن لامبالاتها أكثر من تكلّف غير صحيح .

راحت تحدق بانشداه من النافذة الى السماء الزرقاء وقداستغرقها تفكير عميق ، الى أن خيل للي ــ بينغ أنها لابد غضبت منها ، فعانقتهــا ولاطفتها وكأنها طفلة صغيرة : « رويدك الآن ، يا تاو ــ شينغ ، لا تغضبي ! ان كان العجوز يويستأهل حبك ، فأحبيه ! عاجزة انا عن أن أحشر نفسي بينكما ! لكن ائذني لي أن أذكرك شيئا واحدا . . . »

وتركت يد تاو ــ شينغ ، وانتصبت واقفة ، واسترسلت تقول في وقار : « أنت تعرفين أن هسيو ــ يو انطلقت الى الشمال الشرقي للانضمام الى المناضلين المناهضين لليابان ، اليس كذلك ؟ وقد ارادت أن يرافقها هسو نينغ باعتبار انهما يحبان بعضيهما . غير أن هسو نينغ ــ هذا الماهر في القاء الخطب الرنانة ، ولكنه يفقد مهارته عندما يصل الامر الى العمل ــ رفض أن يذهب . لم يكن يطيق أن يترك أمه وحيدة ، أو ان ينقطع عن دراسته . ومما لآ ريب فيه أنني أكون ملومة ، بشكل او بآخر ، أن أنــا منعته عن الذهاب . ومع ذلك فلا استطيع الا الاعجاب بهسيو ــ يو .

فهي تدرس ايضا ، وغارقة في الحب ، ولكنها تركت كل ذلك في سبيل الثورة ، وانطلقت الى الشمال الشرقي . لا تتعلمي من هسو نينغ او مني، يا تاو ـ شينغ . بل يفضل ان تتبعي مثال هسيو ـ يو . وبالمناسبة ، أعتقد انك تعرفين انها كورية » .

ـ كوريــة !...

رددت تاو ـ شينغ هذه الكلمة في انشداه ، ولجأت الى الصمت .

رجعت الى غرفتها مفعمة بالانقباض ، ورمت نفسها على سريرها ، وسرعان ما استغرقتها الافكار .

حل الفسق ، ولكنها لم تنهض لاعداد العشاء .

ـ تاو ـ شينغ ، ما أجملك ! تشبهين زهرة التفاح البري ، أوالجمال الذي يستيقظ من أحلامه في الربيع ...

انه يونغ ـ تسي الذي تسلل الى الغرفة في هدوء ووقف يحدق في كيانها الجميل المستلقي على السرير .

تجاهلت تاو ـ شينغ وجوده ، فالتقطت كتابا ودفنت وجههـا بين صفحاته . فمشى اليها ، وتناول الكتاب من يدها ، واكفهرّ وجهه عندما قرأ العنوان : « رأس المال » .

سأل مبتسما : « ما هي القضايا التي يدرسها الآن هـذا الحواري العظيم لكارل ماركس ؟ »

فصاحت ، ونظرتها تستقر عليه طوال لحظة موقنة ان يونغ ـ تسي الذي احبته انقلب الى شخص آخر سوقي تعافه النفس : « لماذا تجعل مني أضحوكة ؟ »

وتابعت تقول ، وهي ممزقة بين الغضب واليأس : « وعلى أية حال ، فان حواريا لكارل ماركس افضل بكثير من حواري لهوشيه ! »

وصار الآن دور يونغ ـ تسي في الغضب ، فصاح : « ماذا قلت ؟ ما هو وجه الخطأ في أن أكون حواريا لهوشيه ؟ »

ـ أوه ، انه شيء رائع ! انه يلعق أحذية الطبقة الحاكمة والآمبرياليين، ويساعد شيانغ كاي ـ شيك في قسوته على الطلاب ومعاملتهم بخشونـة فظة . فما وجه الخطأ في هذا ؟ » .

ورمت تاو ـ شينغ كتابها على السرير ، وأدارت له ظهرها في ازدراء .

انحنى يونغ ـ تسي على المنضدة ووضع رأسه بين يديـه محاولا

السيطرة على نفسه ، ولكنه سرعان ما رفع رأسه وشخر قائلا : « الثورة ! النضال ! ياللتعابير المرنّة ! لكم أريد أن أرى واحدا من السيدات الشابات والسادة الشبان الذين يدعون انهم ثوريون ينزل الى أحد المناجم ! كلا ، بل ان الصراخ عن البروليتاريا والبورجوازية أكثر استساغة وأبعث على السرور ! »

فوثبت تاو ــ شينغ على قدميها ، وهي ترمقه بعينين غاضبتين : « كيف تجرؤ على هذا ! لقد نلت كل ما أستطيع أن أحتمله منك . واعتبره لطفا ان أنت سمحت لي بالرحيل ! »

على الفور ذاب التوتر الذي ملأ هواء الغرفة . وأخذ يونغ ــ تسي يترجى بصوت أجش ، كمن هو في النزع الاخير : « يا حبيبتي ! يا حبيبتي ! يا حياتي ! لا تتركيني ! »

تم الصلح بينهما قبل أن يأويا الى فراشهما في تلك الليلة . تطلع يونغ ــ تسي في وجه تاو ــ شينغ ، فأشرق وجهه ، وقال : « لقد رجعت بعد ظهيرة هذا اليوم مشرق الروح لانني حصلت على انباء طيبة لك . ومن سوء الحظ اننا تخاصمنا حول شيء تافه . فلا تجعلينا نتخاصم بعد اليوم ، يا عزيزتي ... يكفينا ما وقع بيننا . أتعرفين أنني وعدت بعمل بعيد تخرجي ؟ أفليست هذه أنباء رائعة ؟ »

ــ أي عمل ؟ فأنت لن تتخرج قبل شهرين كاملين .

ــ اجل ، لكنه يحسن بي أن أخطط للمستقبل . أنت تعرفين التنافس للحصول على عمل في هذه الايام .

واستتلى قائلا في صوت ناعم اختلطت به نشوة النصر برعدة الخوف من ان يستثيرها الغضب : « ان لي كيو ــ بينغ يعرف هو شيه معرفة طيبة ــ أرجوك الآن لا تغضبي . انا لا اجعل من هو شيه مثاليا ، ولكنه يجب علي أن افكر في اسباب معيشتنا . بناء على طلبي تفضل لي وأطلع هو شيه على احدى دراساتي عن أبحاثي النصيَّة . وهل تصدقين أن الدكتور هو كان جد مسرور بحيث أخبر لي أن يصحبني لزيارته ! وجرؤت هذا الصباح على زيارته . فشجعني ان ادرس بجد وأمدني ببعض المعلومات عن كيف أتابع تنفيذ ابحاثي . ووعد أخيرا ان يعثر لي على عمل حين تخرجي » .

وأمسك يدها بشدة ، وعيناه تشعان فرحة ، وأكمل يقول :

« حبيبتي ، لقد سمعت أن أي طالب يطريه يتحقق له نجاح مرموق ، مستقبل رائع ! »

عضت تاو – شينغ شفتيها وهي تشاهد التعبير المعتدّ المرتسم على وجهه : « هم ! لقد غدوت اذن حواريا عظيما للدكتور هو شيه ! »

فرفع يده الى فمها ،وعنفها قائلا بنبرة ساخرة جادة : « حبيبتي ! يجب ألا تسمحي ان تستبد بك تلك الاهواء الثورية . ان الوقائع هي الوقائع بعد كل شيء . ان منحة هو شيه الدراسية معروفة منذ حركة الرابع من أيار ، فكيف يمكن أن يلحق الاذى بشبابنا؟ لقد قاسيت او قاتامريرة خلال السنتين المنصرمتين بتجربة حظك معي . وأشعر في أغلب الاحيان اني خذلتك . وقد قال لي بعض أصدقائي : « ايها العجوز يو ، ان زوجتك جميلة الطلعة . فلماذا لا تكسوها بأجمل الملابس ؟ » فاذا حصلت حقا على عمل جيد بعيد التخرج ، فان اول ما سأفعل هو ان اشتري لك ثوبين من المخمل وعدة أثواب من الحرير ، كما سأشتري لك معطفا أيضا . فما اللون الذي تفضلين ، يا حبيبتي ؟ سأحب أن أراك في واحد أصفر برتقالي أو أخضر فاتح كيما يبرز شبابك وحلاوتك . وعندها سيرى الجميع روعة بهاء حبيبتي تاو – شينغ ... »

استغرقه الحديث كثيرا بحيث دفعها تحت الضوء وخطا متراجعا عدة خطوات يحدّق فيها وكأنه يراها للمرة الاولى . أمال رأسه الى جانب ، وضيَّق فرجة عينيه ، وجعل يتفحصها من رأسها الى قدميها : « أنت رائعة تماما ، يا تاو – شينغ ، غير أن كتفيك عريضان قليلا وفمك واسع قليلا . ان جميلات الايام الغابرة كن ضيقات الكتفين صغيرات الفم . اتذكرين بيت الشعر : « فم جميل أحمر مثل الكرز ، وخصر أهيف ومطواع مثل الصفصاف ؟ » لا تقولي إنك غضبت مرة أخرى ! فيم عبوسك ؟ هيا، فلنأوينّ الى فراشنا الآن . تستطيعين صفعي اذا أردت ، لكن لا تقطبي وجهك طوال الوقت ! »

كادت تاو – شينغ أن تفقد صبرها ، فهي لا تستطيع أن تحتمل معاملتها مثل دمية على هذا الغرار الذي لا معنى له ، غير أنها كانت منهكة عاجزة عن الاحتجاج . فاستسلمت الى نوم مزعج ، وأفاقت بعد مجموعة من الكوابيس المختلطة . استدارت في الظلمة تنظر الى الرجل النائم الى جانبها، عاجزة عن ان تصدق انها احترمته واحبته بجماع قلبها ذات مرة . لقد

أنقذها ، وساعدها ، وأحبها ـ لدوافع وأسباب انانية ... وفي ومضة البرق ، لمعت في رأسها كلمات بيي لي ـ بينغ فشرعت تفكر في لو شيا ـ شوان ... الثوري ... الشجاع . وابتسمت في حنايا نفسها : « هذا رجل حقيقي لك ! » كانت الاغصان السوداء خارج النافذة تتأرجح في لطف . فتدفق في فؤادها احساس مرير ـ حلو ، وشعرت بسعادة غامرة ممزوجة باليأس .

حلمت في تلك الليلة حلما غريبا .

تحت قبة السماء السوداء كانت تجذف في قارب فوق البحر المزبد العاصف . وكانت الريح والمطر ، والامواج العظيمة والغيوم المكفهرةتتكالب جميعا ضد قاربها الصغير ، والرعب يستولي عليها . وكانت وحيدة تماما فوق ذلك المحيط المرعب . وكانت موجات عظيمة جبارة تساقط عليها مثل كتل ضخمة . والغيوم تضغط عليها مثل حيوانات عملاقة . فصرخت وارتجفت . وكان قاربها ، المتأرجح يمنة ويسرة ، يكاد ان يغرق بين لحظة واخرى في الاعماق . فراحت تجذف بقوة ، وأدارت وجهها فلمحت هيئة مألوفة في مقدمة القارب ، رجلا في ثوب طويل يبتسم لها في هدوء . فأطلقت في وجهه شتيمة في هبة من اليأس : « يا للعنة ! هل ستتركني أغرق ؟ » . ولكنه ظل جالسا هنالك في هدوء ، لا بل أخرج من جيبه كيس تبغه . فألقت المجذافين من يديها في غضب ورمت نفسها عليه . وعندما قبضت عليه من عنقه تبين لها أنه شاب قوي جميل فتنتها عيناه المشبوبتان عاطفة وهو يبتسم لها . وما ان ارخت يديها عنه حتى هدأت العاصفة وصار البحر أزرق من جديد . جلسا صامتين قبالة بعضهما يحدق كل منهما في الآخر . لقد كان لو شيا ـ شوان ! رمت من دهشتها أحد المجذافين في البحر ، فألقى بنفسه وراءه ، غير أن الامواج ابتلعته . وفي الحال صارت السماء سوداء ملبدة بالغيوم مرة أخرى . فألقت بروحها في البحر ، باكية ناشجة بوحشية ...

هبت من غفوتها على يونغ ـ تسي يهزها بلطف .

ـ ما الامر ، يا تاو ـ شينغ ؟ فيم تصرخين ؟ لم أستطع النوم من جراء تفكيري في أطروحتي . عندما انتهي منها سأطلع الدكتور "هو" عليها . وقد تساعدني في الحصول على عمل جيد بعد العطلة الصيفية .

كانت تاو ـ شينغ تستعيد خيوط حلمها في دهشة . فاستدارت اليه ، وأجابته في اقتضاب : « فلننم . فأنا منهكة تعبا ! »

ولكنها كانت مستغرقة في أفكارها ، مثل يونغ ـ تسي ، بحيث عجزت عن النوم طوال الليل .

١٩

في غرفة قراءة صغيرة قائمـة في حديقـة صغيرة كان ضوء الشمس اللطيف يتخلل عبر حاجز من الخيزران ويرقش الخزائن المملوءة كتبـا جميلة . وكان لو تا ــ فانغ الذي رجع لتوه الى البيت من السجن مستلقيا على أريكة من شقائق الخيزران يسرد ذكريات تجاربه الاخيرة على مسمعي لو شيا ــ شوان الجالس على كرسي دوار امام المنضدة يصغي اليه في سكون ، وعيناه مثبتتان على رفيقه .

كشّر لو تا ــ فانغ ، وهو يهز قبضتيه موضحـا : « في الليلة التي رجعت فيها تشاجرت مع والدي . مرز شاربه ونبر شاكيا بلكنته الشمالية الشرقية : « يا سمين ! » ــ لا تضحك ، فهذا هو الاسم الذي يدللوني به ــ « لم أترك حجرا لم اقلبه كيما اكفل خروجك من السجن وجندت معونة جميع أصدقائي ، وأنفقت الف دولار فضي بالاضافة الى ذلك . من الآن فصاعدا يجب أن تنأى بنفسك عن المتاعب وتنكب على دراستك . عنـدي خبر طيب لك : سوف أرسلك الى اليابان للدراسـة ، أو الى الولايات المتحدة ان كنت تفضل ذلك . لكن ، قبل ذهابك ، لا تجرؤن على القيام بأي نشاط مع الشيوعيين . فاذا اختلطت مع أولئك الوحوش » ــ ومسح نظارته المذهبة كيما يحدّق بي كمن ينوي أن يقتلني. خمّن ماذا كان جوابي له ، أيها العجوز لو ! قلت له : « يا أبتاه ، لقد خسرت هذه الصفقة ! فأنا لا اساوي ألف دولار فضي ، ولا لطف أصدقائك الفائض ، كما لا أستأهل ان تبعث بي الى أميركا كيما تطليني بقشرة من ذهب . الخشب المتعفن لا يمكن ان ينحت كمـا يقول المثل . تفعـل حسنا اذا أنت أعدتني الى السجن » . فانفجر غضبا ، وأقسم اني ابن عاق لا أشعر بالواجب يملك عينين ولكنهما لا تبصران بسبب من تشربي للافكار الشيوعية ، وسـوف

أنهي حياتي على المشنقة عاجلا أم آجلا ... لم أفقد هدوئي . ابتسمت له في لطف وقلت : « باكر جـدا ان تقول من منـا سيكون مصيره الهلاك ، يا أبتاه ... » حمي وطيس غضبه ، فحزم ملابسه ورحل الى لو شان لقضاء الصيف مصطحبا رابتي معه » . وانفجر ضاحكا .

نقل لو تا ـ فانغ من مركز قيادة السجن الى سجن محكمة المقاطعة المحلي حيث بقي محتجزا طوال شهور ثلاثة . ورغم أن وجهه لم يعـد سمينا متوردا كالسابق الا أن الأضطهاد الذي عاناه لم يكئبه . فقد بقيت عزيمته كسابق عهدها قوية . كانت عينـاه الكبيرتان تلتمعـان ، وكـان يهز قبضتيه وهو يتكلم .

هبّ لو شيا ـ شوان على قدميه ضاحكا ، ونخزه في كتفه ـ وهو الاسلوب المألوف لاظهار صداقتهما : « انت تعرف شيئا أو شيئين حقا ، أيها الفتى . فماذاتنوي أن تفعل الآن ؟ هل ستلزم البيت مثل جنتلمان فتي؟ »

استند لو تا ـ فانغ بجذعه الى خزانة زجاجية للكتب ، وتبسم وهز رأسه : « كلا ، هذا ليس من مبدئي ! ان رجلي العزيز يزداد رفعة في عالم الوظيفة وسوف ينطلق قريبا الى نانكينغ ليرأس أحد الفروع في الادارة الحكومية في يوان . وقد اتخذت قراري بالانفصال عن عائلتي على وداد ، ولن استطيع الاستمرار في دراستي في بيبينغ . أيها العجوز لو ، اتمنى مخلصا أن يأتمنني الحزب ويضعني موضع التجربة بارسالي الى حيث المعركة أكثر شدة وضراوة » .

ارتسمت طلعة كالحة محل الابتسامة على وجهه ، في حين ظلت عيناه مثبتتين في هدوء وثبات على لو شيا ـ شوان .

كان هذا الاخير يذرع الارض المصقولة غارقا في أفكاره ، يسترق النظر بين لحظة وأخرى الى رفيقه .

في الخارج ، كانت ممرات الحديقة المروية حديثا مخططة بأشجـار الرمان والدفلى المزهرة ، وعطرها الذكي يتسلل اليهما مع هبات النسيم عبر النوافذ المغطاة بشريط منخلي . وبدت حديقة ذلك المنزل الكبير الصغيرة ، في ذلك الجو الحار الرطب ، باردة هادئـة نظيفة بشـكل مميز . وكان لو شيا ـ شوان ، المرتدي بزة أجنبية فاتحة اللون وقـد صفف شعره جيدا ، يبدو اكثر شبها برب الدار من لو تا ـ فانغ اشعث الشعر بقميصه القطني الرث . تروّى في الامر طويلا ، فوصل الى قرار ، فرفع رأسه وقال

بثبات : « أيها العجوز لو ، اليك المكان الذي تقف فيه ، فأنت لا تستطيع البقاء في بيبينغ أكثر مما فعلت . ان جيش تحالف شمال شاهار المناهض لليابانيين يقوم الآونة بقتال شجاع ضد الفزاة . وكنا نرسل الرجال للانضمام الى ذلك الجيش . فما رأيك ؟ أمستعد أنت للذهاب ؟ »

أمسك به لو تا ـ فانغ كمن يريد منعه من الفرار ، وقال : « رائع ! لك شكري العميق ، أيها الرفيق ! أرجوك أن تستعجل الحزب لتقرير ذلك في أقرب وقت » .

كانت قطرات العرق الكبيرة على جبهة لو تا ـ فانغ تجعله يشبه أحد عدائي المسافات الطويلة متوردي الوجه الناضحين عرقا ، لكن المبتهجين لفوزهم في السباق . كان قد أعطى قلبه بكامله للقضية الشيوعية ، وكان خوفه الوحيد ، بعيد خروجه من السجن ، هو ألا تكون قضبان السجن الحديدية قد قطعته عن الحزب . وحينما اقنعه لو شيا ـ شوان الآن ان كل شيء على ما يرام ، فقد طفت الفرحة في جوانبه بحيث لم يعد يلجأ الى المزاح . استفهم عن وضع جيش تحالف شمال شاهار المناهض لليابانيين ، وراح الصديقان يتدارسان الوضع العسكري .

في أيار ١٩٣٣ ، خانت « اتفاقية تانغكو » بين الكيومنتانغ والفزاة اليابانيين استقلال الصين وأثارت سخطا عارما في البلاد بحيث وحدت بين الناس بشدة فألقوا بأنفسهم في لهيب المقاومة بمزيد من الضراوة . وفي السادس والعشرين من أيار انشيء جيش تحالف شمال شاهار المناهض لليابانيين ـ وهو قوة نظمها الشعب ـ في شانغ شياكو . وكان هذا الجيش الذي يقوده شي هونغ ـ شانغ العضو في الحزب الشيوعي والجنرالات فينغ يو ـ هسيانغ وفانغ شين ـ يو المناهضان لليابان ، بالاضافة الى عدد من متطوعي الشمال الشرقي المناهضين لليابانيين ووحدات من الجيش المحلي يضم مجموعة من الطلاب في شمالي الصين . وكانت أعداد متزايدة من المثقفين الوطنيين تلبي نداء الحزب الشيوعي وتسير بحماسة الى ساحات القتال فيما وراء السور العظيم لانقاذ البلاد من الدمار .

وسرعان ما أعلن لو شيا ـ شوان ملاحظا : « قال هسو نينغ انه يريد الذهاب الى شمال شاهار أيضا ، ولكنه لا يبرح متأرجحا . منذ عودته من مظاهرة نانكينغ شارك في عدة عمليات ولكنه لم يحضر بعض

المناسبات الآخرى . انه ثوري بورجوازي صغير نموذجي يود الاشتراك في الثورة ولكنه يخاف من صعوباتها والخطر الذي يمكن ان ينجم عنها ».
— أليست بيي لي — بينغ على غراره تماما ؟ أقول ... هل توطدت صداقتهما اكثر ، ايها العجوز لو ، منذ اعتقالي ؟
وارتسمت سحابة على وجه لو تا — فانغ .
— طوال فترة حدث ذلك ، أجل . قد يكون هسو نينغ وقع تحت تأثير بيي لي — بينغ . أما الآن ، بعد ذهابها الى شانغهاي ، فلابد ان يتحسن اذا ما قدمنا له ما يكفي من العون .
كشر لو تا — فانغ بعيد فترة قصيرة تكشيرة عريضة : « دعني احاول . ألن تعطيني هذا العمل ؟ »
فحدق لو شيا — شوان في انشداه لطيف ، وقد انحنى على المنضدة : « اتريده حقا ؟ حسنا ، هذا رائع ! أواثق ان هذا لن يؤثر في مناقبك ؟ » .
فوثب لو تا — فانغ في صخب ليضربه على كتفه : « ماذا تحسبني ؟ الحب — كيف يمكن ان يقارن الحب بقضيتنا الثورية ؟ »
لم يقل لو شيا — شوان شيئا ، فقد ومضت أمام عينيه فجأة صورة عيني يونغ — تسي الصغيرتين تتأججان غيرة ، ووجه تاو — شينغ الشاحب الحزين ... كان يريد ان يراها اكثر وان يقدم لها معونة اكثر ، لكنه لم يزرها طوال فترة مديدة ، عازفا عن التدخل بينها وبين زوجها . سيطر على عواطفه وتدبر أن يوالي الاتصال بها أقل ما يمكن .
كان لو تا — فانغ جالسا الآونة على الكرسي الجلدي الدوار أمام المنضدة ، فتناول من أحد دروجها ساعة ذهبية فتحها وشرع يعمل في اصلاحها . وحينما بقي لو شيا — شوان منتصبا هنالك غارقا في الصمت ، رفع لو تا — فانغ رأسه ، واستوضح : « ماذا يعتمل في فكرك ؟ »
بدا أن الآخر لم يسمع ماقال . كان يحدّق فيما وراء النافذة ، غارقا في بحران من التفكير ، في أجمة صغيرة من الخيزارن . تمتم بعيد لحظات بينه وبين نفسه : « لقد مرت عصور منذ رأيتها ... »
— هل هي ، لين تاو — شينغ ، سبب متاعبك كلها ؟
على الرغم من ان لو تا — فانغ لم يكن يبالي أو يهتم ببعض الشؤون ، الا انه كان نافذ البصيرة . رفع رأسه عن الساعة التي يصلحها ، وقال : « ليبدونّ لي انك غارق في هواها — فلم لا تخبرها بذلك صراحة ؟ »

استلقى لو شيا ـ شوان على أريكة الخيزران مرة أخرى ، وقد وضع يديه وراء رأسه ، وأعلن بعد زمن قصير : « كفّ عن الهراء ! الا تعرف أن لها زوجا ؟ »

ـ يو يونغ ـ تسي ؟ لا تلق اليه بالاً ! انهما متنافران بحيث لن يدوم بقاؤهما مع بعض طويلا . كلا ، أيها العجوز لو ، انت لا تلعب اوراقك بصورة جيدة !

ـ أنا لا أريد أن اسبب المتاعب لأي انسان . هذا شيء لم يخطر لي في بال ... ولهذا السبب لم أكن القاها الا في الندرى قدر استطاعتي .

وضع لو تا ـ فانغ الساعة ، واستدار ناحية صديقه في مهابة ، وقال في لطف وصراحة : « فيم تجعل الامور قاسية بالنسبة اليك ؟ أنا لا أستطيع أن أرى أية علاقة لهذا الموضوع بالاخلاق . حتى لو لم تكن تحبها أنت ، فانها لا تستطيع البقاء مع شخص مثل يو يونغ ـ تسي طويلا » .

فأجاب لو شيا ـ شوان في صوت خفيض ، وقد أغلق عينيه : « هذا أنت تعود الى الحديث هراءً . فأنت لا تفهم بكل بساطة . انهما مغرمان ببعضهما كثيرا ... وفضلا عن ذلك ... حسنا ، أنا لا أريد أن أتدخل بينهما » .

ـ اذا لم تكن ترغب في هدم القديم فكيف تستطيع أن تبني الجديد ؟ أتريد ان تترك هذه الفتاة يدمرها يو يونغ ـ تسي ؟ ينبغي ان تضرب مثل البرق كيما تحطم ما هو ميت أو يموت . لا تتصرف وكأنك تلميذ لكونفوشيوس !

فتح لو شيا ـ شوان عينيه وكشر : « ليست الامور بمثل هذه السهولة ... حسنا ، دعنا من هذا ، فهو يقودنا الى لا مكان » .

واغلق عينيه مرة أخرى ، وجنح الى الصمت .

رجع لو تا ـ فانغ الى المنضدة لمتابعة عمله في اصلاح الساعة ، وهو يسترق النظر بين آونة وأخرى الى وجه صديقه المكتئب . وعجز عن أن يجد حديثا يقطع به حبل الصمت .

سأل أخيرا : « أيها العجوز لو ، لقد رهنت ساعتك ، أليس كذلك ؟ لقد كانت ساعة قديمة جدا ، على اية حال . صدف البارحة ان عثرت على هذه الساعة الذهبية في أحد دروج والدي . انها ساعة جيدة ، ولكنه

يبدو ، وقد تركها في ذلك الدرج ، انه لا يعتبرها مناسبة له . وأنا أحاول اصلاحها بحيث تستطيع استخدامها » .

ولما رأى صديقه معتصما بالصمت ، فقد استرسل يقول : « أتذكر النصيحة التي أعطيتني بخصوص بيي لي ـ بينغ ، أيها العجوز لو ؟ لقد قلت : « الحب ليس كل شيء » . وسأعطي لك الآن النصيحة ذاتها . ان بلشفيا صلب العود مثلك لا ينبغي أن يستسلم لأوهام الحب !... »

هبّ لو شيا ـ شوان على قدميه ، وهو يفرك عينيه نافضا عنه اليأس : « كفّ عن هرائك ! من تراه يحتاج الى نصيحتك ؟ »

وتابع يقول ، وقد علت وجهه تكشيرة : « لا تقلق عليّ . فماذا يهم الأمر ، على أية حال ... والآن ، أيها العجوز لو ، فلننشد أغنية . لأذكر كيف تنشد المارسيليز بصورة رائعة . هيا بنا ! »

ـ كلا ، ان أحدا منا لا تسمح له حاله النفسية بالغناء .

وبدلا من الغناء فقد شرعا يتحدثان عن كل شيء تحت الشمس . خلع لو شيا ـ شوان معطفه بسبب من شعوره بالحر ، فاكتشف ثقبين كبيرين في كميّ قميصه . استدار صوب صديقه ، وغمز له وهو يسأل : « هل أستطيع أن آخذ حماما هنا ؟ هذه البدلة التي أعطانيها صديق تبدو أنيقة بما فيه الكفاية ، ولكن قميصي ، وبنطالي ، وجوربي ممزقة جميعا . هل تستطيع ان تعطيني ثيابا بدلا عنها ؟ »

ـ من دون ريب !

ضغط لو تا ـ فانغ على جرس استجابت له مدبرة البيت التي جاءت من غرفة داخلية . كانت سمينة في حدود الاربعين من العمر مموّجة الشعر تلوح نظيفة بارعة في ازارها الابيض . ارتدى لو شيا ـ شوان معطفه قبل دخولها لأخفاء قميصه الممزق .

حملت مدبرة المنزل صينية فوقها ابريق شاي وبعض المرطبات . وفيما هي تضعها على المائدة التفت لو تا ـ فانغ اليها في وقار ، وقال : « شكرا ، يا عمتاه . اتركي هذه الاشياء هنا . دعني اقدمك لها . هذا هو السيد يو أحد تلامذة والدي . لقد رجع لتوه من دراسته في الولايات المتحدة ، وما أسرع ان يشغل منصبا رفيعا في احدى الادارات في بيبينغ » .

هزت المرأة راسها على الفور ، وسألت وهي تبتسم ابتسامة احترام:

« هل مر عليك زمن طويل ههنـا ، يا سيد يو ؟ الجو خانق الحرارة ، أليس كذلك ؟ »

كبت لو شيا ــ شوان رغبته في الضحك ، ورد على ايماءتها بايماءة أخرى ، وألقى نظرة سريعة على صديقه الذي شارك مشاركة فعلية في هذه المسرحيـة .

ــ الجو خانق الحرارة ، يا عمتاه ، والسيد يو اصيب بالبرد . وقـد سألته أن يأخذ حماما مريحا هنا . فهـلا هيأت كل شيء ، رجاءً ، وحملت لنا بعضا من أفضل قمصان السيد ، وثيابه الداخلية وجواربـه بحيث يتمكن السيد يو من تبديل ثيابه . لقد اعتاد على ارتداء أفخر الثيـاب في أميركا ، فجيئينا بأفضل الاصناف التي تعثرين عليها » .

وختم حديثه عندما لمح اهتمامها بالموضوع واذعانهالطلباته : « السيد يو من أفضل تلاميذ والدي . وينبغي أن تحسني معاملته » .

خرجت مدبرة المنزل ، وقد أبدت اذعانها للامر .

وما ان ابتعدت عن مرمى السمع حتى انفجر الشابان ضاحكين . مسح لو شيا ــ شوان دموع المرح من عينيه ، وهزّ قبضته ، وصـاح : « ايها النذل ! اين تعلمت جميع هذه الحيل ؟ »

فكشر لو تا ــ فانغ : « في الوقت الذي يعود فيه رجلي العجوز الى البيت أكون قد رحلت . وفي مقدوره ان يفرقع ويشتم وينعتني بالابن العاق ، والخدّاع ، واللص الاحمر الحقير أو أي شيء آخر يروق له ! يجب ألا تبخس قدر هذا الامَة . فأبواي يثقان بها ثقة عمياء . وقد طلبا اليها أن تراقبني ، ولذلك يجب أن أفعل شيئا أنرفزها به » .

حينما انتهيا من شرب الشاي أنزل لو تا ــ فانغ حاكيا جميلا عن أحد الرفوف ، وقال « فلنسمع قليلا من الموسيقى قبل أن تأخذ حمامك » .

وضع اسطوانة ، فامتلأت الغرفة بأصداء صوت عاطفي جميل :

صدقني ، يا عزيزي ،
فأنا مخلص !
مخلص لك !
ولك وحدك !

ــ يا للعبث المطلق !

انتزع لو تا ــ فانغ الاسطوانة وألقى بها الى الارض ، فتحطمت قطعا

متناثرة . وبعدما بحث في مجموعـــة كبيرة من الاسطوانات اعلن قائلا : « لا فائدة : كلها موسيقى جاز أميركية . حسنا ، فلنصغ الى جانيت مكدونالـد » .

اصغيا مبتسمين الى اغنية من « موكب الحب » ، ولو تا ـ فانغ يهز راسه في توافق مع النغم . وحينما انتهت الاغنية قال : « لو اننـا نستطيع أن نعزف النشيد الاممي بصوت عال كما نشاء ، أو الاغنيات عن مقاتلينا من العمال والفلاحين ! حسنا ، لسوف يأتين ذلك النهار ! »

* * *

٢٠

في ساعة متأخرة من احدى الليالي كان هسو نينغ ولو تا ـ فانغ يتمشيان جانب الجدار الذي يحيط بأرض جامعة بكين . كانا يتحدثان خلال سيرهما وذراع لو تا ـ فانغ القوية تحيط هسو نينغ الذي كان وجهه يبدو رزينا ، وكأن أخا كبيرا يحاول في أناة وصبر أن يقنع أخاه الصغير الحرون الذي لا يقدّر المسؤولية . وكانت الليلة الصيفية قد قطعت شوطا طويلا بحيث ان العشاق والاصدقاء الذين كانوا يتمشون الهوينى أزواجا أو أكثر قد اختفوا جميعا ، ورغم ذلك ظل الشابان يتابعان طريقهما مستغرقين في حديث عميق .

ـ أدخلني في الحساب ، أيها العجوز لو . سآتي معك . فأنا أستطيع أن أقنع والدتي . وأنا اعرف ما هو صحيح ...

ـ هذا حسن ، يا هسونينغ ! انا اصدقك ... لاأعرف الشعورالذي تحس به ، ولكنني عندما أتذكر الحياة المجيدة في الجبهة فأنا أتمنى لوكنت أملك جناحين يطيران بي مباشرة الى ما وراء السور العظيم ! أنت تعرف القول : « الرجل الشجاع على استعداد للموت في ساح الوغى ، وأن يحمل الى البيت ملفوفا بجلد حصان » . بلى ، لقد آن أوان العمل » .

وأطاف لو تا ـ فانغ عينيه فوق أرض الجامعة الفسيحة المقفرة ، حيث يبدو البناء الاحمر مثل شاشة كبيرة أمام سماء الليل . فأمسك بذراع هسو نينغ بشدة ، وقد تغلبت عليه حماسته .

وكان هسو نينغ ايضا قد تأثر بحماسة صديقه . تطلع بقسوة في الوجه العريض اللطيف ، فأدهشه شيء مهيب في طلعة لو تا ـ فانغ . فاستعاد ذكرى بطولة صديقه تلك الليلة عند ثكنات أضرحة مينغ في نانكينغ ، وتفانيه في عمله في الجامعة ، ورفضه المطلق لرفاهية البيت البورجوازي ،

وأكثر من ذلك كله صعقه تحرره الواعي من الغيرة التي جعلت لو تا ـ فانغ يعامل الرجل الذي سرق منه حبيبة قلبه معاملته لأخ . حدق هسو نينغ اليه طويلا ، وهو ممزق بين الاعجاب والخجل ، ثم تمتم في صوت مضطرب: « يجب أن أذهب وأقنع أمي ـ لا أعرف كيف أشكرك ، ايها العجوز لو ! »

ـ يا صديقي العزيز ، يا للروعة اذا كنا نستطيع أن نقاتل كتفا الى كتف !

بذل هسو نينغ جهده ، بعد هذه الحادثة ، لاقناع والدته واقناع نفسه أيضا . غير انها باعتبارها غدت ارملة في بكور شبابها ، وباعتبار انه ولدها الوحيد ، فقد كان من الصعب اقناعها بأن تدعه يذهب الى الجبهة. ولم يكن واثقا حتى ما قبل رحيل صديقه بيوم واحد فحسب ، ما اذا كان سيذهب معهم أم لا .

انطلق في الغسق لرؤية والدته .

كان مكتئبا قلقا . فتلك كانت فرصته الاخيرة ـ كان عليه أن يبذل جهدا أخيرا للتغلب على رفضها .

كانت جالسة على مقعد لا ظهر له فاترة الهمة ترفأ الجوارب . لم تترك لولدها فرصة كيما يفتح فمه ، بل شرعت تشكو وتتذمر . وكان شعرها الابيض يرتعش ، ويدها التي تحمل الأبرة ترتجف .

ـ لا تزدني قولا ، يا ولدي ، عن الذهاب . لم لا أستطيع أن أموت وأنتهي من هذا الشقاء ؟ مات أبوك وأنت في الثالثة من العمر ، وتركك تواصل مسيرة العائلة بعده . في سبيلك ناضلت الحياة طوال ثلاثة وعشرين عاما ، أرعاك واشقى في سبيل تنشئتك . والآونة تريد أن ترحل بعيدا ؟ كلا ، أنت لن تذهب !

وراحت العبرات تنهمر على خديها ، فرفعت طرف معطفها تمسحها به ، وتابعت تقول قبل ان يقطع عليها حديثها : « أنت كبير وطويل الآن ، أما عندما كنت صغيرا فقد كنت مريضا طوال الوقت . وكنت في كل شهر أمضي عشرين ليلة أو أكثر ساهرة الى جانب فراشك يجافيني النوم . أنت لا تعرف كم مرة تزلفت الى بوذا ، أو كميات البخور الذي احرقت من أجلك . وقد اشتد عليك المرض مرة بحيث اعتقد الجميع انك هالك لا محالة ، وابتلعت من شدة يأسي كمية من الافيون ... »

لم يعد هسو نينغ يحتمل مزيدا . لوّح بيده وقطع عليها تفجعها :

« لقد سمعت هذا مائة مرة ، يا أماه ! ولا يمكنني أن أصغي اليه بعد الآن . فيم تتذمرين على الدوام ؟ فأنا لم أنس ، بعد كل شيء ، ما أنا مدين لك به ... لكن الأمر هو ، يا أماه ، أنه حين تكون بلادنا في خطر مميت ، فلا يستطيعن شاب مثلي أن يجلس في بيته دون ان يعمل شيئا ... وليس هنالك من خطر علي أيضا . فقد رحل عدد كبير من رفاقي الطلاب ، وأرسلوا جميعا رسائل تقول ان الامور هنالك رائعة ... »

قاطعته أمه، خائفة ان تمسح عبراتها : « أنت تضيع وقتك فحسب، يا ولدي . أنا لن اسمح لك بالذهاب ! واذا ذهبت ، فلسوف ... فلسوف اقتل نفسي ! »

رمت رأسها الى الوراء لتثبت نظرها عليه ، وصاحت في ألم مبرح: « الصين تملك أعدادا هائلة من الناس – وهي ليست في حاجة اليك ! »

تأكد هسو نينغ انه ليس ثمة فائدة من ان يقول شيئا آخر . فوثب على قدميه واتجه ناحية الباب ، ولكنه لم يكد يخطو عدة خطوات حتى قفل عائدا ليقول في اقتضاب جاف : « أمـاه ، كفي عن البكاء ! أتكونين سعيدة ان انا لم أذهب ؟ ان انا اردت الذهاب حقا فلن يكون في طوقك ان تمنعيني . يا للمأزق ! ما كان ينبغي أن أسأل نصيحتك ... »

وانطلق مباشرة الى حديقة بيهاي وامضى الليل يصعد تلالها ويهبطها . كان نسيم حار رطب يخشخش أشجار الصفصاف ، وصوته يصر في أذنيه . وكان هنالك عدد من الزوار . حدق بانشداه في حشد النجمات التي ترصع السماء الرمادية المضبة ، ورأى في خيال عينيه وجه تسوي هسيو – يو الرقيق الفتي – أتراها في جبال شانغباي أو في غابات هيلونغكيانغ العظيمة ؟ ... هذه الفتاة التي بذل جهده لنسيانها قد سيطرت على روحه خلال الايام القليلة الماضية ، وملأته بالقرف من نفسه وبالندم من تصرفاته .

لابد أنها نسيته ، نسيت جبانا مثله .... دفع أصابعه في صدغيه وبدا وكأنه يسمع صوت لو تا – فانغ يرن في أذنيه : « يا صديقي العزيز، ياللروعة اذا كنا نستطيع ان نقاتل كتفا الى كتف ! » واذ شعر بالاهتياج يهزه فقد مزق قميصه عن صدره وتهالك جالسا ورأسه بين يديه .

كان والد هسو نينغ ، الموظف الصغير ، قد توفي شابا فلم تتزوج أمه بعد وفاته ، ولكنها راحت تتدبر أمور معيشتهما من واردات الملكية الصغيرة التي ورثتها لتنشىء ولدها وتبعث به الى الكلية . وقد الف هسو

نينغ طوال حياته الجو الدافىء المريح للاسرة البورجوازية الصغيرة ، كما أن رعاية أمه جعلته رقيق العود . وبناء على ذلك ، ورغم أن هذا الصبي المعافى الجميل قد انجـذب الى الثورة وشارك بحماسـه في عدد من النشاطات الثورية بعد قراءته للنظريات الماركسية وصداقته مع عدد من افراد الشعب مثل لو شيا ــ شوان ، فقد تراجع ، في اللحظات الحاسمة عندما كان يطلب منه التضحية بشيء ما في سبيل الانطلاق قدما ، مثل شجرة عاجزة عن الصمود في وجه الرياح .

وعندما شاركت تسيو هسو ــ يو جموع المتطوعين الشماليين الشرقيين المناهضين لليابانيين للدفاع عن بيتها ووطنها الثاني كانت تتوقع ان يذهب هسو نينغ برفقتها . ولكن حبيبها لم يكن راغبا في التخلي عن دراسته لأنه كان سيتخرج في غضون سنتين ، كما ان له أمـا يرعى شؤونها . وبالأضافة الى ذلك ، وبالرغم من أنه لم يعلن عن شعوره ، فقد كان الشمال الشرقي بالنسبة اليه مكانا مقفرا غريبا اذا ما قورن بمقاطعته الاصلية كيانغسو . وعلاوة على هذه الامور كلها كان هنالك انجذابـه الى بيي لي ــ بينغ . . . وهكذا انطلقت هسيو ــ يو في النهاية في رحلتها مع عـدد من الطلاب الشجعان ، مخلفـة هسو نينغ في البيت لمتابعـة دراسته ورعاية شؤون والدته . وبعد ذلك ، حينما شدد الرعب الابيض قبضته ، لم يعد يجرؤ على المشاركة في النشاطات الثورية . وهذا جيش تحالف شمال شاهار المناهض لليابانيين يخوض غمار نضال بطولي ضد العدو ، وقد بذل هسو نينغ ، وقد ألهب حماسته لو شيا ــ شوان ولو تا ــ فانغ وعزمه على التعويض عن أخطائه الماضية ، محاولات عديدة جديدة للحصول على موافقة والدته على ذهابه ، لكن من دون طائل . ولما يئس من ذلك فقد تخلى عن محاولاته نهائيا . وكان معنى ذلك انه حينما كانت حركة مشاركة الجيش على أشدها بين زملائه الطلاب ، كان هو يشعر بالتردد بصورة فاجعة . وفي النهايـة جعله الأحساس برفاهيـة الحياة الهادئة في البيت يعدل عن المشاركة بصورة قاطعة . وفيما هو يركض هابطا عن التلة كانت ساقاه ترتعشان ، وعيناه غائمتان بعبرات الخجل .

وكيما يتجنب الطلاب المتطوعون انتباه الكيومنتانغ ويظلوا بعيدين عن طريق الاذية ، فقد استقلوا القطار المنطلق شمالا من محطة صغيرة تقع خارج « البوابة الغربية » . وعزم هسو نينغ على رؤيتهم يرحلون ،

الا أن احساسا غامرا بالخجل جعله يعدل عن رأيه في منتصف الطريق . فأمضى نهاره مستلقيا في فراشه في المنزل ، ثم انسل الى بيته عشية للاطمئنان عن أمه . وما أن رفع ستارة الباب المصنوعة من الخيزران حتى وجدها جاثية على ركبتيها أمام لوحة بوذية .

كانت تصلي قائلة : « يا بوديساتفا ! يا إلاهة الرحمة ! احفظي ولدي من الشر والاذى ، أتوسل اليك ! لا تتركيه يرحل . اجعليه يبدل رأيه ويبقى الى جانب أمه مثل تلك الايام السعيدة يوم كان صغيرا بعد ... »

أهنف هسو نينغ بالضحك بينه وبين نفسه ، والتفتت أمه وقد اجفلها الصوت فطغى عليها السرور لمرآه واقفا على وصيد الباب كما لو كان جوابا عن صلواتها . نهضت سريعا على قدميها ، وامسكت به من ذراعه . هممهمت ، وقد استخفها الفرح : « وهكذا فأنت لم ترحل بعد كل شيء ، يا بني ! حسنا ، انها ارادة السماء . فلأقدمن شكري الى إلاهة الرحمة ! »

وسجدت مرة اخرى امام الصورة : « يا إلاهة الرحمة العظيمة ! تقبلي عرفان أمتك الحقيرة بجميل حمايتك لولدها . لسوف تمتنع عن اللحم وترتل لك الصلوات من الكتاب المقدس كل يوم ... »

فقاطعها هسو نينغ بابتسامة مريرة : « كفي عن هذه البربرة ، يا أماه ! أفلن تهيئي العشاء ؟ أنا جائع » .

فأسرعت تهيىء له طعاما لذيذا ، وقد غمرتها السعادة على الرغم من كلماته الساخرة ، وهي تختلس النظر بين حين وحين الى ولدها المضطجع على السرير كمن تخشى ان يطير عزيزها من بين يديها .

سألت خلال العشاء فجأة : « ان اصدقاءك الذين رحلوا الى الجبهة يملكون بيوتا ، أليس كذلك ؟ »

— من دون ريب . ان لكل منهم أبوين .

— كيف تطيق أمهاتهم السماح لهم بالرحيل ؟ أنا لا أستطيع أن أفهم ذلك .

وتوقفت عن التهام الطعام ، والسلطانية في يديها ، ونظرت اليه في اكتئاب .

رد قائلا في نقمة : « الامهات الآخريات لا يشبهنك ! انهن يعرفن أن واجبهن يقضي بأن يحببن بلادهن ، وهن يردن أن يكن أمهات

حقيقيات ... وبعد كل شيء ، اذا جاء العدو فان مجيئه سيكون نهاية كل شيء ــ الاطفال ، والبيوت ، وكل شيء آخر » .

لم تفه بحرف ،ولكنهاهزت رأسها ومشت تغسل الصحاف وقد أطلقت تنهيدة ثقيلة . وقرأ هسو نينغ قليلا بعد العشاء ، ومن ثم ذهب الى فراشه دون أن يلقي اهتماما الى أمه . وفيحوالي منتصف الليل أهبَّه من النوم صوت ، فأرهف سمعه ، فتناهى اليه صدى صلواتهامن جديد.

ــ يا بوديستافا ! يا الإهة الرحمة ! صوني اولئك الشباب الذين رحلوا لقتال اليابانيين . لا تدعي الأذى يلحق بهم ! أعيديهم الى بيوتهم سالمين معافين . اغفري لي ، يا إلاهة ، اني لا استطيع ان افترق عن ولدي ...

وضحك هسو نينغ بينهوبين نفسه : « هكذا تشعر هي اذن ! » .

كان يريد أن يناديها حين انهال ضرب عنيف فجائي على الباب جفل له كلاهما . وسرعان ما تدفق رجال الشرطة والدرك الى البيت الذي احتشد برجال وحوش الطلعة مسلحين بالمسدسات والبنادق . وتشبثت أم هسو نينغ مرعوبة بولدها الذي وقف الى جانب الباب وقد صعقته الدهشة . التفت اليه رجل سمين من الشرطة السرية يرتدي قبعة عالية ، واستفسر قائلا : « أأنت هو هسو نينغ ؟ »

فتمالك هسو نينغ نفسه ، وأجاب وهو يومىء برأسه : «نعم!» .

تشبثت أمه بذراعه بقوة أكثر ، وقد أخبلها الرعب .

شرع رجال الشرطة والدرك يفتشون المكان ، باحثين في الصناديق والخزائن دون أن يعثروا على شيء . ثم استدار أحدهم الى الرجل السمين ، وهز رأسه وغمز بعينيه مستفسرا عن الاوامر . وومضت أسنان الرجل السمين الذهبية في ابتسامة شريرة : « ألم يسعفكم الحظ ؟ فلأجرب أنا ! »

ومد يده في أحد دروج المكتب واخرج نسخة من كتاب « رايةشمال الصين الحمراء » . فصاحمتهللا : « ما هذا؟لأشك في ذلك ــ فهوأحمر!»

لما كان رجل الشرطة السرية يعرف أن القبض على أحد الشيوعيين يغدق على رجاله مكافأة قدرها خمسمائة يوانا ، فقد وضع تلك المجلةفي الدرج بغية تلفيق تهمة كاذبة ضد هسو نينغ .

وردد الآخرون : « هذا اثبات ! انه شيوعي ، حسنا ، فالعنوه ! »

ـ اقبضوا عليـه !

ولما رأت الام ان تلك العصبة المسلحة القت القبض على ولدها وشرعت تجره ، أخذت تصيح من قلب مكسور دون أن تفلت قبضتها عن ذراعه : « فيم تأخذونه ؟ ما هي الجريمة التي ارتكبها ؟ »

ومن رعبها نطحت برأسها أحد رجال الشرطة . وفي معمعان ذلك التوتر والصخب ومضت فكرة رزينة في ذهن هسو نينغ ، فقال : « لو واتتني الشجاعة على الذهاب معرفاقي اليوم لما حدث هذا كله ! »

وصب اشمئزازه من جبنه شجاعة في نفسه . فحرر نفسه بالقوة من قبضة والدته وخاطبها في قسوة قائلا : « أماه اتركيني ! ينبغي أن يأسف كلانا على ما حدث ! »

وانتصب من بعدجامدا ، وقد أصم سمعه عن صراخها ، منتظرا رجال الدرك أن يضعوا القيد الحديدي في يديه .

□ □ □

٢١

خرج يونغ ـ تسي ذات عشية بعد العشاء تاركا تاو ـ شينغ تنظف المائدة وتغسل الصحاف . فتحت سيدة الدار المذياع ، فتناهت اليها كلمات أغنية شعبية عاطفية :

المطر الخفيف يسّاقط
والسماء سوداء
والريح تعصف ...

نظفت تاو ـ شينغ المائدة في فتور . كلما كانت الموسيقى أكثر عاطفة كلما بدا أن سيدة الدار وزوجها يحبانها أكثر . تنهدت ، وكادت أن تتخذ مجلسها عندما شعرت بنقرة خفيفة على كتفها . التفتت ، فرأت لو شيا ـ شوان الذي لم تره منذ شهور عديدة . رمت بالمريلة جانبا في اهتياج، وتوردت وجنتاها ، وصاحت مبهورة الانفاس : « ايها الاخ لو ! لقد مر زمن طويل لم أرك فيه ! أين كنت طوال هذا الوقت ؟ ... »

لم يكونا قد التقيا منذ الاول من أيار . في هذه الآثناء كانت بيي لي ـ بينغ قد رحلت الى شانغهاي ، وكان هسو نينغ يزورها بين حين وآخر وهو في عجلة من أمره على الدوام . ومرة اخرى غدت حياة تاو ـ شينغ عبارة عن كسل مطلق بخلاف أعمال البيت . وفقدت عيناها الكبيرتان ، اللتان كانتا مرة مرحتين براقتين ، كل لمعانهما ، كما انها كفت عن ارسال الغناء في أرجاء البيت بعدما استحوذت عليها موجة من اليأس والحيرة . وقد جعلتها هذه الزيارة غير المتوقعة سعيدة مهتاجة .

قال لو شيا ـ شوان : « اصفحي عني لاني لم أزرك من قبل ـ خلال الشهور القليلة الماضية تراكم العمل عليّ أكثر منه قبلاً » .

ووضع حقيبته الصغيرة على المنضدة وجلس ، ولكنه ما لبث أن نهض على قدميه ، واستفسر قائلا : « كيف كانت أمورك ، يا تاو ـ شينغ ؟ أكنت تستشعرين الحزن من جديد ؟ »

حنت تاو ـ شينغ رأسها ومسحت عبرة من عينيها : « أجل ، كنت كذلك ! ان حياتي أشبه ما تكون ببحيرة راكدة ـ لا شيء يعكرها غير المشاحنات والقراءة اللامتناهية. . .أيها الاخ لو ، أخبرني ماذاافعل !»

رفعت رأسها اليه ، بوجه مضطرب وشفتين راعشتين : « كنت أتوقعك ـ أتوقع الحزب ـ ان يهب الى نجدتي ... »

جلس لو شيا ـ شوان على كرسي الى جانب المنضدة وابتسم بعدما ألقى نظرة خاطفة شملت الغرفة والباحة ، وقال في صوت وقور ، وعيناه هادئتان لطيفتان مثلهما ابدا : « أعرف ماهية شعورك يا تاو ـ شينغ . لكن اياك ان تستسلمي لليأس . سنبذل جهدنا لمساعدتك ... ان الرعب الابيض يزداد شراسة يوما بعد يوم . وفوج الشرطة العسكرية الثالث الذي يقوده شيانغ هسياو ـ هسيين يعتقل الوطنيين الشبان في كل مكان من بيبينغ . هل عرفت أن هسو نينغ أعتقل ؟ » .

فعجّ الرعب في صدر تاو ـ شينغ : « كلا ! ليس هسو نينغ ؟ متى اعتقلوه ؟ »

ـ اعتقلوه في ذات العشية التي رحل فيها لو تا ـ فانغ وبعض الطلاب الآخرين الى شمال شاهار للانضمام الى الجيش . وقد انتوى هسو نينغ الرحيل أيضا ، ولكن ظل يؤجل ذلك الى ان تم اعتقاله . نحن نعيش اوقاتا عصيبة ، يا تاو ـ شينغ ، والنضال يزداد حدة . هل تراك نكرت يوما في مثل هذه الامور ؟

احمرت وجنتا تاو ـ شينغ ، فاستندت الى المنضدة : « أكثر مما استطيع أن أقول لك . أنا لست خائفةمن أي شيء ، حتى ولا من الموت ! بالنسبة الي ، فان الموت ميتة الابطال افضل عندي من أن أعيش حياة رتيبة عقيمة ! »

وفيما عينا لو شيا ـ شوان الذكيتان تبحثان في وجهها الجميل الذي ورّده الهياج وسادته البساطة ، فقد شعر أنه يستطيع ان يثق ثقة عمياء بهذه الفتاة التي كانت حياتها مشحونة بالتناقضات . أمضى فترة

يرنو الى عينيها ، ثم استوضح : « أماتزالين راغبة في أن تموتي ميتة بطولية في ساح الوغى ؟ » . وأهنف قليلا ، ثم استرسل : « هذا خطأ ، يا تاو ــ شينغ ! نحن نشارك الثورة ليس في سبيل الموت ، بل كي نحيا ــ كي نحيا حياة اكثر جدارة كيما نحمل السعادة الى الملايين والملايين من المظلومين المضطهدين . فيم تفكرين في الموت قبل أن تؤدي عملا له شأنه ؟ هذه نظرية خاطئة ! »

ــ حسنا اذن ، ايها الاخ لو ، دلني كيف اشارك في الثورة ! فليس ثمة شيء ثوري في حياتي الآن .

ــ حسنا ، اذا كان هذا ما تريدين حقا ، فلسوف أسألك المساعدة الآن .

وسرعان ما ازداد وقارا على حين فجأة : « ثمة أشياء ثلاثةاريدك أن تقومي بها . أرجوك أن تفكري فيها مليا كيما تدركي ان كنتتستطيعين المساعدة . أولا ، هنالك بعض الاوراق التي أحب أن احفظها في مكان امين بضعة أيام . ثانيا اريدك ان توصلي رسالة مني هذه الليلة . ثالثا ... » وتوقف عن الحديث وحدق فيها مليا : « ثالثا ، اريد أن أقيم هنا فترة من الوقت ــ اذا كان ممكنا ــ ليلة واحدة . ان مخبري الشرطة يتعقبونني طوال الايام القليلة الماضية ــ واريد أن استدرجواحدا منهم للمجيء الى هنا » .

اختلطت غبطة تاو ــ شينغ بهذه المهمة بقلقها على لو شيا ــ شوان. كان يتحدث في جذل عن حياتها اليومية ووجهة نظرها بحيث لم تخطر في بالها اي فكرة عن الخطر المحدق به . حدقت اليه ، وقد شدتها رباطة جأشه ومرحه ، ثم قالت بعد لحظات بنبرة صريحة : « سأفعل ما تريد ، أيها الاخ لو . لقد كنت أتمنى أن تعاملني كواحد منكم . طبيعي انك تستطيع البقاء هنا ــ وسيكون كل شيء على مايرام . سأذهب لأخبر يونغ ــ تسي » . ان مجرد ذكر هذا الأسم ارسل الحمرة في خديها .

كان لو شيا ــ شوان منحنيا الى الامام واحدى قدميه على مقعد لا ظهر له واحدى يديه تسند جبهته . وكان وجهه الجميل الموحي بالثقة رزينا وحاجباه متغضنين تفكيرا . وبعيد برهة استغراق فيالصمت هز رأسه ونقر على المنضدة قائلا : « كلا ، يحسن الا تخبري العجوز يو ، يا تاو ــشينغ . لا يجدر بي أن أقضي الليلة هنا ... لنفرض اننا رتبنا

الأمور على الشكل التالي : ان لدي بعض الكتابات يجب أن أنجزها ، وأحب أن أمضي هنا فترة أخرى من الوقت . أفي مقدورك أن تطلبي الى يونغ ـ تسي ان يتأخر في عودته عن مألوف عادته ؟ » وناولها حقيبته الصغيرة ، وأكمل قائلا : « ههنا بعض المنشورات السرية . ضعيها في مكان أمين ، وحاذري أن يراها العجوز يو » .

ـ حسـنا !

أخذت تاو ـ شينغ الحقيبة البنية المهترئة بين ذراعيها في حرص . كان قلبها عامرا بالفرح الطاغي يوحي بأنه سيبدد القلق الذي سيطر عليها. حضنت الحقيبة ، ونظرت اليه بعينين براقتين : « أيها الاخ لو ، امض ليلتك هنا ! اذا لم تكن تريد رؤية العجوز يو ، ففي مقدورنا ، أنا وهو،ان نمضي الليلة في مكان ما بحيث نبقي المكان لك وحدك . وأعدك أن . . . ».

أرادت أن تعده بأن تصونه من الشر ، ولكنها لم تفه بحرف واحد . كيف يكون في مقدورها ، هي الصغيرة الفتية ، ان تستخدم كلمات لاتنطق بها غير شفاه الأمهات ، وذلك بتوجيهها الى رجل تعتبره بمثابة استاذ لها ؟

حمل قلق تاو ـ شينغ الواضح ابتسامة راضية الى شفتيه : « لا ضرورة لذلك ! اريدك ان تزوري احداهن ، يا تاو ـ شينغ . وباعتبار انها تسكن في مكان بعيد عن الطريق ، فيحسن بك الانطلاق على الفور . انها معروفة باسم الآخت لي . اسأليها فقط : « هل رجعت الصغيرة تاي والصغيرة يو من السينما ؟ » ، ثم قولي : « ان يونغ فينغ الشاب يقوم بعمل جيد جدا » . اذا قالت انهما رجعتا فهذا رائع . واذا لم تستطيعي العثور عليها ، وسألك أحدهم عما تبغين ، فقولي انك تبحثين عن احدى قريباتك أو أنك أخطأت العنوان . افعلي ما ترينه حسنا . تمالكي أعصابك، ولا تضطربي . . . »

ثم اعطاها بعض النصائح عن العمل السري ، وشرح لها في أناةجميع التفصيلات الضرورية .

سألت تاو ـ شينغ ، وقد اتسعت عيناها دهشة : « الصغيرة تاي والصغيرة يو اللتان ذهبتا الى السينما ـ ما معنى هذا ؟ » .

فأجابها في لطف ، لكن في حزم : « ما لاحاجة بك الى معرفته لاتسألي عنه ـ هذا واحد من مبادئنا » .

أومأت تاو ـ شينغ برأسها ووقفت تبرم طرف معطفها . ان هـذا العنصر الجديد من الالغاز قد جعل مهمتها تبدو مثيرة ، على الرغم من شدة بلبالها وقلقها . كانت لديها أشياء كثيرة تريد ان تسأل عنها ، ولكنها لـم تستطع أن تتكلم .

وقفا يواجهان بعضيهما في صمت .

نهضت لتذهب ، وهي لا تريد أن تتأخر ، وأومأت للو شيا ـ شوان وهي تتجه صوب الباب . وسرعان ما خطر لها أن بعض الجواسيس الاشرار قد يكونون كامنين في انتظاره في الخارج . لربما قبضوا عليه بعد رحيلها مباشرة . سمَّرها الخوف الى الارض ، واستندت الى الباب مضطربة ، تراقبه في انشداه ، عاجزة عن التعبير عن نفورها من الرحيل ونقمتها القويمة على تصرفاته .

لم يرفع عينيه عنهاطوال الوقت ، فقال : « انها الثامنة والنصف ، يا تاو ـ شينغ . يحسن ان تنطلقي ! » .

ـ حسنا ، أيها الاخ لو ، أنا ذاهبة ! انتظرني هنا !

واستدارت للذهاب وقد عضت على شفتيها . ولكنه ناداها قبل ان تجتاز عتبة الباب : « لا يبدونّ عليك الارتباك والعجلة . حافظي على هدوئك ! ان العصبية قد تفسد كل شيء . سأنتظرك هنا طاقة ما في وسعي . اذا لم تجديني هنا عند عودتك فلا تقلقي . سآمر في فرصة اخرى خلال ثلاثة أيام لاستعادة أشيائي » .

ـ يجب أن تنتظرني ! لا تذهب ...

ركضت تاو ـ شينغ عائدة اليه وأمسكت بيده ، ورموشها الطويلة تلتمع بالدموع .

كانت أحاسيس لو شيا ـ شوان معقدة أكثر من المألوف في تلك اللحظة . ان طموح الفتاة المتقد واعجابها به ، وهما أمران تعجز أحيانا عن اخفائهما ، قد أثاراه بعمق بحيث ود لو يفتح لها مغاليق فؤاده . غير أن ذلك لم يكن واردا على الاطلاق . يجب عليه ان يضبط نفسه . راح يخاطبها ، ويداها بين يديه ، مثل أخ ، في حنان ووقار : « تاو ـ شينغ ، أنت لم تمارسي نضالاً مريرا ولا تعرفين مدى خطورته وتعقيداته ... افترضي اني لن اعود بعد ثلاثة ايام ... » وفتح عينيه اللطيفتين البراقتين على مداهما : « عندها يحسن ان تحرقي الاشياء التي تركت هنا . في

المستقبل – في المستقبل ،طالما انك تؤمنين بقضيتنا وتستطيعين القتال في سبيل الأيام السعيدة الطيبة التي ستأتي ، فأنا أعرف انك ستبلغين هدفك وان حلمك سيتحقق . لا تنسي ذلك ، يا تاو – شينغ . الشيوعية لا يمكن ان تلحق الهزيمة بها . وهم لن ينجحوا في قتل جميع رفاقنا – فنحن جمع غفير ! وأتوقع أن نلتقي مرة أخرى ... » .

جرت تاو – شينغ نفسها وحملقت فيه بحيث تستطيع أن تلتهم كل كلمة تفوه بها . كانت كلماته ذهبية بالنسبة اليها . وكانت تنصب مباشرة في قلبها . وحينما استوعبت مغزى آخر كلماته سيطر الذهول عليها وانهمرت العبرات من عينيها . تمنت يائسة لو كان لديها مكان أمين تخبئه فيه في أمان بعيدا عن عيون الرجعيين الذين يسعون للقبض عليه . لكن ، أين تراها تجد مثل هذا المأوى ؟ وقفت هنالك تائهة في أفكارها ، ثم تذكرت انه حان وقت رحيلها – ينبغي ألا تنتظر أن يذكرها مرة أخرى . فمشت بخطوات مترددة ، غير أن لوشيا – شوان أمسك بذراعها وحذرها مرة أخرى : « تذكري جميع ما قلت لك ، يا تاو – شينغ . يجب أن تعطي الاخت لي الرسالة كلمة كلمة ، وحاذري على الطريق . اذا لحق بك أحد فلا ترجعي الى هنا مباشرة ... ثمة شيء آخر ! ارجو أن تسألي العجوز يو ألا يعود الى البيت باكرا ! » .

– سأفعل كل ما قلت لي . لا تقلق !

وخرجت ، واختفت في الظلمة .

استند لو شيا – شوان على اطار الباب ناظرا الى الباحة الساكنة وهو يبتسم كما لو كانت لا تبرح واقفة هنالك . انطلقت تاو – شينغ مباشرة الى غرفة لي كيو – ينغ في النزل الشرقي حيث عثرت على يونغ – – تسي . أشارت اليه أن يخرج اليها ، وهمست في حمية : « يجب أن أخرج الليلة في عمل . أيزعجك ألا تعود الى البيت حتى ساعة متأخرة ؟ »

فضاقت عينا يونغ – تسي المفعمتان بالشك : « ما الامر ؟ لماذا أبقى خارج البيت اذا لم أكن أريد ذلك ؟ وما الفارق في أن أنتظر عودتك في البيت ؟ »

كانت تاو – شينغ في ورطة ، فعزمت على ألا تخفي عنه شيئا ، خاصة وانه ليس هنالك ما تخجل منه . فأفضت بسرها اليه في هدوء : « يونغ – تسي ، الجواسيس يسعون وراء لو شيا – شوان ، وقد لجأ

قبل لحظات الى دارنا . لا ترجع الى البيت حتى ساعة متأخرة أكثر من المعتاد . هل تفعل ما أطلب منك ؟ وأنا ذاهبة لانجاز مهمة له الآن » .

انتصب يونغ ــ تسي بدون حراك مثل تمثال من الطين وقد استغرق في التفكير : « في هذه الليلة الصيفية الجميلة ، المعطرة بأريج الورد ، لابد انهم ... ولهذا السبب لا تريد زوجها ان يعود الى البيت ... » اختلس اليها نظرة جانبية ، وهسَّ قائلا : « وهكذا فان صاحبك ينتظرك ! ولكن البيت بيتي ، وسأعود اليه حينما تروقني العودة ! » واستدار وقفل عائدا الى غرفة لي صافقا الباب وراءه .

كانت تاو ــ شينغ ناقمة بائسة الى ابعد الحدود . وقفت هنالك في الممر المعتم عدة لحظات كما لو كانت مسمرة بالارض . كانت غريزتها تدفعها الى الانطلاق والتحدث مع يونغ ــ تسي ، لكن تفكيرها في لو شيا ــ شوان جنح بها الى الهدوء . كزّت على أسنانها ورفعت رأسها ، وقد ارتسمت على وجهها ملامح التصميم : « كلا ، يفضل أن أذهب . فلا فائدة من الجدال معــه » .

كان لو شيا ــ شوان قد ذهب ، قبل ساعتين من زيارته تاو ــ شينغ ، برفقة تاي يو وعدد آخر الى السينما في المدينة الشرقية . وقبل بدايــة العرض بلحظات أغلق تاي يو وبعض رفاقه باب المسرح ووثب لو شيا شوان ، كما سبق أن تم الاتفاق عليه ، الى المنصة وشرع يتحدث عن الشيوعيــة ، وانتصارات الجيش الاحمر ، والحاجة الى مقاومة اليابان وانقاذ البلاد . وفي هذه الأثناء كان الآخرون يوزعون النشرات الدعائية . وتبلبل المشاهدون. وقبل ان يبلغ لو شيا ــ شوان الى ختام خطابه طوّق رجــال الشرطة والجيش المكان بأسره . فنزع عن رأسه قبعته ببديهة حاضرة ، وارتدى ثوبا آخر كان قد حمله معه ، وغادر السينما بين المشاهدين . وقد ارسل تاو ــ شينغ الى مركز القيادة لمعرفة ماذا حدث لرفاقه .

ولكنه كان شخصا مشبوها . وكانت الشرطــة السرية تضعه تحت المراقبة المستمرة ، وثمة عدد من رجالها يتعقبونه خلسة . ومن حســن حظه أنه تمكن من تضليل هؤلاء الرجال وهو في طريقه الى منزل تاو ــ شينغ. كان يعرف أنه سيكون آمنا هنالك لأنها تعيش مع يونغ ــ تسي الــذي لا يمكن ان يشك انسان بتعاطفه مع الشيوعيين . وتأكد لديه ، من دون ريب ، أن يونغ ــ تسي لن يرضى عن بقائه ، غير ان الحالة كانت خطيرة ،

ولم يكن يجرؤ على اظهار نفسه في الطريق في ذلك الوقت الراهن . وكانت حاجته الملحة الى مكان يختبىء فيه ترجح جميع الاعتبارات الاخرى من حيث الاهمية .

وعلى الرغم من أن لو شيا – شوان خاض نضالاً عنيفا لتوّه ولم يذق لقمة طعام في يومه ، فقد جلس الى منضدة يونغ – تسي يكتب مذكرة عاجلة . وفيما هو يحاول تركيز أفكاره تحلّب لعابه مرات عديدة لمرأى بعض الارغفة الساخنة موضوعة في المكان الصغير الذي تحفظ فيه تاو – شينغ اللحوم وغيرها من المأكولات ، ولكنه لم يكن يملك وقتا كافيا للاكل . كانت مهمته عاجلة ، ولم يكن يريد أن يؤوب يونغ – تسي الى البيت قبل أن ينتهي منها .

كان لو شيا – شوان يكتب حينما فتح الباب واندفع يونغ – تسي من خلاله حاملا مجموعة من الكتب الصينية القديمة تحت ذراعه . التفت شاحب الوجه ينبض بغضب متفجِّر حينما وقع بصره على الزائر جالسا الى منضدته على ذلك الاسلوب الرصين فكأنه صاحب الدار . والتمعت عيناه الصغيرتان محدقتين في لو شيا – شوان وكأنه انسان غريب دخل بيته عنوة ، ولكنه ضبط لعنات الغضب التي كادت تفلت من بين شفتيه بعدما شعر انه من غير اللائق والمعقول التفوه بها . ولم يتح له لو شيا – شوان فرصة للتفكير في توبيخ مناسب سريع ، فقد ابتسم له وهز رأسه : « وهكذا فقد رجعت ، أيها العجوز لو ! أنا لم أرك منذ شهور » .

ولفّ الورقة التي كان يكتب فيها في برودة ، ونهض ، وتطلع مباشرة في عيني يونغ – تسي .

سأل يونغ – تسي في جفاء ، وهو يبذل جهده للسيطرة على غضبه: « ماذا تفعل في منزلي ؟ »

– طلبت الي تاو – شينغ أن أنتظرها هنا .

– طلبت اليك أن تنتظرها ؟

كان الجواب قد نخس يونغ – تسي فاستثاره الى مزيد من الغضب . فحملق ، محترقا غضبا ، ولكنه أحجم عن ان ينهال عليه توبيخا . شرع يدور في الغرفة ، وقد أدار له ظهره ، ثم قال في صوت خشن : « لو شيا – شوان ! ارجوك أن تكف عن ان تخلب لبّ تاو – شينغ بمبادئك الماركسية العظيمة ! ينبغي أن أذكرك انها زوجتي! ولن يستخدم انسان أساليب ماكرة لتحطيم سعادتنا ! »

نظر لو شيا ـ شوان في هدوء الى كتفي يونغ ـ تسي النحيلتين المتعظمتين ـ في حموّة اضطرابه لم يكلف نفسه عناء خلع قبعته ، فانعكس ظل رأسه على الجدار أشبه بنبتة فطر سوداء كبيرة يمثل جسده الطويل الهزيل ساقها .

قال في رزانة وهو يراقب يونغ ـ تسي في ثبات : « لا تنس أنك ، فضلا عن كونك زوج تاو ـ شينغ ، طالب جامعي أعلن عن وطنيته مرةبصوت مرنان . اذا كانت سعادتك قد تحطمت فأنت وحدك الملوم على ذلك » .

وفتح الباب في هدوء وهو يقول هذهالكلمات ، والقى نظرة أخيرةعلى يونغ ـ تسي الذي كان لايبرح مديرا وجههصوب الجدار ، وانطلقخارجا .

بعيد ذهابه تهالك يونغ ـ تسي ، كما لو كان مصعوقا ، على المقعد الذي هجره لو شيا ـ شوانأمام المنضدة ، ودفن رأسه بين ذراعيه . لقد أهمد اليأس فورة غضبه كلها . وحينما رفع رأسه من جديد جعل الضوء الكهربائي ، المعتم في ذلك الوقت من الليل وجهه الطويل يلوح أكثر هزالاً واكتئابا منه قبلا .

ـ النساء هنّ اصل جميع الشرور ...

وأخرج منديلا ومسح العبرات المترقرقة على وجنتيه .

بعد أن عثرت تاو ـ شينغ على الاخت لي دون أية صعوبة وأعطتها رسالة لو شيا ـ شوان ركبت عربةريكشا في طريق عودتها الى البيت . كانت منفعلة ومغتبطة لتنفيذها المهمة التي أوكلت اليها ، غير انها كانتفي تلك الآونة مفعمة بهواجس الشر بسبب من الاخطار التي تهدد صديقها مما أشعرها بانزعاج شديد . وفيما هي جالسة في العربة شرعت أفكارها تطوف ، ولم تتذكر تحذيره لها من الانتباه فيما اذا كان أحد يتعقبها الا عندما قاربت مدخل زقاقدارها . راحت تلقيانظارها في جميع الاتجاهات وهي تعنف نفسها على طيشها واهمالها . واستعادت هدوءها حينما رأت الشارع المعتم مقفرا من الناس ، وانشرح فؤادها وقامت بدورة ثماتجهت الى شقتها وقلبها مفعم بالهواجس والشكوك .

كان الوقت منتصف الليل والغرفة غارقة في ظلمة دامسة . دخلت ، واضاءت النور بأصابعمرتجفة . فلمتجد ما يدلعلى وجود لوشياـشوان ، في حين استدار يونغ ـ تسي ، المستلقي على السرير ووجهه صوبالجدار ،

ناحيتها يحدق فيها دون ان ينطق بحرف واحد . سألته في عجلة دون ان تروّي النظر في المزاج المسيطر عليه : « متى عدت ؟ أين لوشيا_شوان ؟ »

ـ وكيف أعرف ؟ ليس من واجبي أن ارعى شؤون صديقك المحترم!

ـ ينبغي أن تخجل من نفسك ، يا يونغ ـ تسي ! اذا اعتقل لو شيا ـ شوان الليلة فسيخطر لي أنك وشيت به !

همست تاو ـ شينغ بهذه الملحوظة بشكل عفوي ، دون أن تدرك كيف تلفظت بها ، وحملقت فيه كما لو كان عدوا لها .

جلس يونغ ـ تسي فجأة ، وقد أيقن أن تذمرا حقيقيا قد سيطر عليه الآن . لم يبذل أية محاولة للدفاع عن نفسه ، ولكنه نخر بابتسامة باردة : « لم أصل الى هذه الدرجة بعد . لكنه ان سرق احدهم زوجتي مني ، فقد أفعل ذلك » .

كان وجهاهما شاحبين مثل ضوء المصباح المعتم .

بعيد لحظة صمت هدأت تاو ـ شينغ قليلا بعدما فكرت مليا في أنه يجب عليها أن تعثر على مكان وجود لو شيا ـ شوان بأي ثمن ، وكبتت غضبها ، واستفسرت في نبرة لطيفة : « يونغ ـ تسي ، لا تجعلنا نسيء فهم بعضنا بعضا ! ان أحدا لن يسرق منك زوجتك . الوضع خطير ـ فاخبرني الى أين ذهب ! »

هزّ يونغ_تسي رأسه مبتسما ابتسامة مريرة : « رحل بعيد عودتي مباشرة ـ في العاشرة . كيف تراه يحتمل صحبة رجل رجعي مثلي ؟ طبيعي انه لم يكد يلمحني حتى انطلق في سبيله . لا تقلقي! فما زلت أملك ضميرا حساسا يمنعني عن الوشاية بأي انسان » .

كان ذهن تاو ـ شينغ مشوشا ، فلم تكن تعلم هل تبتهج أو تحزن. وقد ارتاحت لأن لو شيا ـ شوان لم يعتقل في بيتها ، لكن حقيقة فشلها في استبقائه تلك الليلة تعني أنها ستكون مسؤولة فيما اذا تم اعتقاله بعد رحيله . جلست هنالك فترة من الوقت غارقة في التفكير وقد حنت رأسها. وحينما شعرت أن الغرفة خانقة في حين كان قلبها مثقلا بالهم فقد خرجت الى الساحة ووقفت تحت شجرة عناب محملقة في السماء المرصعة بالنجوم. كان تفكيرها المؤلم في أن مهمتها لم تنفذ كاملة قد جعل خديهـا يتوردان وقلبها يضطرم بالخزي .

ناداها يونغ - تسي من الغرفـة : « تاو - شينغ ، ألن تأتي الى السرير ؟ هل ستقضين الليل كله واقفة هنالك ؟ »

كان من الواضح انه ينتظرها ، وأنه لا يستطيع الى النوم سبيلا . غير أنها لم تعره التفاتا وهي واقفة هنالك تمد بصرها الى الافق المظلم . وصعدت تنهيدة حرى ، وبدا انها استيقظت من غفوة . خاطبت نفسها قائلة : « انا عبارة عن حزمة من الاعصاب . في مقدوره أن ينتظر ! بعد كل شيء ، فان أياما ثلاثة لابد ان تمر سريعة » .

* * *

٢٢

انعطف تاي يو بعيد مغادرته السينما في زقاق ضيق ـ فألقي القبض عليه من قبل رجال الشرطة السرية الذين كمنوا هنالك في انتظاره .

نقلوه في سيارة مسدلة الستائر الى رقعة فسيحة من الأرض كالحة المنظر . ثم اقتاده آسروه عبر ساحتين الى غرفة أنيقة بصورة رائعة حيث كان ثمة شاب في ثياب غربية أشار اليه أن يقعد على أريكة عريضة ثم انسحب من الغرفة . وشرع تاي يو الذي بقي وحيـدا في الغرفة يُنعم النظر في كل زاوية على الرغم من قلقه. ياللغرابة ! ان المكان لا يشبه السجن أو غرف الاستجواب على الاطلاق ... انه من دون ريب غرفة مطالعة او غرفة جلوس في بيت احدى العائلات الثرية . وكانت ستائر حريرية خضراء فاتحة تتدلى على النوافذ الوسيعة ، والكتب تملأ الخزائن زجاجية الابواب المرصوفة على الجدار . وكان ثمة اناء قديم من البورسلين ، حفرت فيـه بعض الرسومات ، موضوعا على منضدة في منتصف الغرفة ، محاطـا بزجاجات من الخمور المنتقاة والمشروبات الروحية ـ ماوتاي ، وخمر ابيض ، وبراندي . وشده تاي يو بصورة خاصة من مجموعـة الارائك المريحـة والمقاعد ، ولفائف الكتابات اليدوية واللوحات المعلقة على الجدران البيضاء. ان المكان بأسره قد اربكه وأدهشه . قبيل لحظات معدودات كان يصيح ويجاهد وسط حشد مضطرب يوزع المنشورات ، وهذا هو الآونة في غرفة فاخرة هادئة . انها تختلف الاختلاف كله عن الزنزانات المظلمة شديدة الرطوبة ، والتعذيب الوحشي الذي توقعه وهم يركبونه السيارة . وفضلا عن ذلك ، فان هذه الاشياء التي تحيط به غير مألوفة ايضا . كان قدعاش في مثل هذا الجو منذ فترة طويلة من الزمن . كان يملك ، قبل ان يشارك في الثورة وهو في الثامنة عشرة من عمره ، مثل هذا البيت الهادىء المريح

البسيط ، وخزائن تعجّ بالكتب وكمية من الماوتاي ـ شرابه المفضل . لقد نشأه والده ، المـلاك والموظف الحكومي ، في بحبوحة ورغد من العيش . وفي الفترة الاخيرة فقط ، حينما قبل الحقائق الثورية التي لقنه اياها زميل في الدراسة يعتنق الشيوعية ، فقد دخل عالما جديدا ، عالما من العمل الصعب ، والنضالات ، والصعوبات ، والاخطار . لقد مضت فترة طويلة منذ أن خطرت في بالـه خزائن الكتب ذات الابواب التي تمنـع الغبار ، والخمرة ، والستائر الجميلة ، واللوحات الرائعة . ولكنه في هذا النهار ، وفي غضون فترة لا تبلغ ساعة واحدة بعد اعتقاله ، وحين وقع بصره من جديد على هذه الاشياء المترفة ، رجع اليه ماضيه المنسيّ . فشعر وكأنه يعيش في عالم من الاحلام .

كان واعيا ، وقد جلس على الاريكة المصنوعة من نسيج مزئبريختلس النظر حواليه ، كل هذه الاحداث المختلطة . في تلك اللحظة ذاتها فتح باب صقيل ودخلت منه امرأة فاضحة التبرّج ترتدي ثيابا أنيقة يتبعها رجل نحيل البنية في خريف العمر يرتدي ثيابا على الطراز الغربي . وقبل أن يتخذ قراره عن الوضع الذي سيضع نفسه فيه كانا قد اقتربا منه وقـد مد كل منهما ذراعيه يحييه وكأنهما صديقين قديمين .

ـ كيف حالك ، أيها السيد تاي !

وحاول الرجل ان يمسك بيده ، لكن تاي يو ، بعدما رمـاه بنظرة منذهلة ، سحب يده الى الخلف . والتفت جانبا فقابلته المرأة التي مدت له يدها وهي تبتسم ابتسامة خجولة . خفض رأسه في ارتباك متجنبـا التطلع في وجهها مباشرة .

تناوب عميلا الكيومنتانغ هذان تهديده بخطط « ناعمة » ، وما أسرع أن بدأ تاي يو بالاضطراب . ان عالم الماضي الدافىء المألوف ، وهذه الاشياء المترفة التي تحيط به ، جذبته مثل مغناطيس وحطمت مقاومته الضعيفة . ولم تمر نصف ساعة حتى كان يجلس الى المائدة المدورة يشرب الماوتاي مع مضيفه ومضيفته . وسمح له بالذهاب بعد ذلك . وقبيل مغادرته تلك الغرفة المريحة المؤثثة بصورة تدل على ذوق حسن قال مضيفه يخاطبه وقد رسم على شفتيه ابتسامة طرية : « انت رجـل ذكي ، يا سيد تاي . وستعيش طويلا اذا اعتنيت بنفسك . لا اعتقد أنك تعرف من أكون ؟ اسمي

هو هو مينغ – آن . أنا عضو في لجنةمركز قيادةكيومنتانغ بيبينغ . ويجب أن نظل على اتصال دائم ببعضنا في المستقبل » .

وابتسمت له المرأة في كياسة ووهن، وقالت : « وأنا وانغ فينغ – سوان . وسوف نلتقي كثيرا ، يا سيد تاي » .

وهكذا خرج تاي يو من مركز قيادةكيومنتانغ بيبينغ . وراح يتصرف، مستفيدا من واقع ان احدا من اعضاء الحزب الشيوعي لم يعرف بتوقيفه والتطورات اللاحقة له ، وكأن شيئا لم يحدث . وعاود اتصالاته بالحزب . ولم تمض فترة قصيرة حتى تم اعتقال كثيرين من رفاقه الثوريين السابقين ووقعت غارات متكررة على مراكزهم . وكان لو شيا – شوان واحدا من الذين اعتقلوا بناء على وشاية هذا الخائن .

بعدما طرد لو شيا – شوان من قبل يونغ – تسي رجع أدراجه الى مسكن أحد أصدقائه الذي كان يقيم معه ، واعتقل قبل أن يجتاز عتبة الباب . كان مستعدا لمثل هذا الاعتقال منذ طويل زمن ، فاتخذ جميع الاحتياطات الضرورية . ولم يعثر العدو على أية وثائق تدينه ، كما ان تفتيش غرفة صديقه لم ينتج عنه شيء له أية صلة بالنشاطات الثورية . ونقل الى مركز قيادة الفوج الثالث للشرطة العسكرية ، ولكنهم عجزوا عن انتزاع أي اعتراف منه . وهكذا بدأ لو شيا – شوان مرحلة من النضال المرير يجب على جميع الشيوعيين أن يشنوها خلال وجودهم في السجن أو في قاعات المحاكم .

حاول العدو ، باديء الامر ، ان يعدم له مقاومته باستخدام الاسلوب الذي أعطى نجاحا حين استخدم مع تاي يو . وذهبت جهودهم ادراج الرياح . وقد استغل هو الفترة الزمنية التي كانوا يحاولون خلالها اجتذابه الى صفوفهم فأنشأ فرعا للحزب لقيادة النضال ضد سلطات السجن . وحينما تأكد العدو أنه وفي للحزب ولا يمكن أن ينقلب خائنا له بدل تكتيكاته معه وأخضعه لعذابات وحشية . . .

استرد لو شيا – شوان وعيه في منتصف الليل فعرف أنه يستلقي على الارض في زنزانة يعاني من ويلات الظمأ . كانت شفتاه الجافتان المشققتان المتخثرتان بالدماء تحترقان ، وثمة مذاق ملحي مرير في فمه .

أنّ صارخاً : « ماء ... ماء .... » . وحاول أن يستدير ، غير ان آلاما مبرحة مزقته تمزيقا ، فطحن أسنانه واسترخى مستلقيا .
— مـاء ...
لم يكن يشعر عندما استرد وعيه قليلا الا بالظما القاتل ، الامر الذي جعله يتأكد أنه لايزال على قيد الحياة . فتح عينيه في جهد ، وتطلع حواليه في الزنزانة المظلمـة . فلمح ، هنالك خلف النافـذة المشـبكة بالقضبان الحديدية القائمة في أعلى الجدار ، بعض نجمات تبرق في رقعة صغيرة من السماء السوداء . وكانت خطوات أحد الحراس الثقيلة ترنّ من بعيد ، وبعض الجرذان الجائعة تتراكض الى جانبه تائقة الى اشباع جوعها على حساب أعضائه المدمـاة ... وفيمـا هو يستعيد السيطرة علىْ قواه تدريجيا وبصورة مؤلمة ، جعلت فكرة وحيدة تتردد في ذهنه وتمكنه من نسيان ظمئه القاتل وآلامه المبرّحة .
— يجب أن أخبر ... رفاقي ...
كان يستلقي بدون حراك على الارض يصارع آلامه .
— يجب أن أبعث كلمة ... اليهم ...
كان قـد أمضى في سـجن درك بيبينغ أكثر من شهرين لم تنجـح العذابات الوحشية في اضعاف عزيمته . لقد قاتل بعناد على الرغم من انه ضرب حتى الموت . ونظم اضرابا عن الطعام داخل السجن في سبيل النضال للمطالبة بمحاكمة عامة ومعاملة أفضل للمساجين السياسيين . وفي اليوم الثالث للاضراب جُرّ لو شيا — شوان من زنزانته الى استجواب قاس كما لو كانوا يصوغون رواية عن التعذيب الوحشي والمعاملة اللاانسانية التي كان المساجين السياسيين يتعرضون لهما لتوزيعها « كفرينـة » وتعريف الجماهير بها . وخلال التعذيب الذي تبـع ذلك كسرت ساقاه ونخزت اصابعه العشر بالأبر الى ان تفجرت الدماء منها . وجلد بالسياط حتى قاربت أنفاسه أن تنخمد في جسده المرضوض المسحوق بحيث ضاعت معالمه . ولم تتلفظ شفتاه بأية معلومات على الاطلاق . كانت فكرة لي تا — شاو الذي ثقفه وقدمه الى الحزب الوحي الذي يستقي منه . كان على أتم الاستعداد لاراقة آخر قطرة من دمه في سبيل القضية التي نذر نفسـه لها ... وكان العدو الماكر قد امتنع عن قتله . وذات يوم ، وكان مرميا على الارض بين الغيبوبة والوعي ، سمع اثنين من جلاديه يقولان : « هذا

الشاب قد انتهى . ففيم نتعب أنفسنا معه بعد الآن ؟ من الايسر أن نطلق رصاصة عليه وننتهي منه ! » فرد عليه الآخر : « هل ننتهي منه ببساطة؟ كلا ! ان قائدنا يعلّق عليه أهمية كبيرة . ويحتمل ان يرسله الى نانكينغ كلقطـة » .

حينما استرد لو شيا – شوان وعيه وتغلب على الموت مرة أخرى كانت نيته الثابتة في تحذير رفاقه بالخطر تفوق جميع عذاباته .

فتح عينيه المنتفختين بصعوبـة وحملق في الظلمة – هـذه ليست زنزانته القديمة ! انه الآونة في زنزانة بالغة الصغر في نهاية المبنى ، في بابها الحديدي الصغير نافذة صغيرة . من خلال هذه النافذة كان يستطيع رؤية رقعة من الجدار الرمادي والاسلاك الشائكة ، لكنه خلف النافذة في هذه الزنزانة تنتشر سماء مرصعة بالنجوم . من الواضح أن العدو قام بعمل سريع . فقد نقلوه ، ولربما نقلوا عددا من الآخرين في محاولة لتحطيم منظمة الحرب والاضراب العنيد عن الطعام الذي باشره المساجين السياسيون . لقد أغلقوا عليه في هذه الزنزانة ليمنعوه عن أي اتصال برفاقه . . . اضطجع دون حراك يعمل التفكير في الحال التي هو فيها . خطر له أنهم قد ينقلونه سريعا او يخرجونه من زنزانته ويطلقون النار عليه . ومهما يمكن أن يحدث فينبغي أن يجد وسيلة ما بقيت في جسده بارقة من الحياة لايصال كلمـة الى رفاقه .

بدأ يتصارع مع جسده الذي فقد كل سيطرة عليه تقريبا .

كانت ساقاه مكسورتين ، والاوتار التي تمسك عظامـه مسحوقـة تنزف دما . وكان ظهره وذراعاه نصف مشلولين من جراء التعذيب الـذي تعرض له . وكانت يداه المنتفختان النازفتان مثقلتين بقيدين حديديـين ثقيلين . ورغم ذلك وطد عزمه على العمل . قرر أن سبيله الوحيد هو ان يصل الى الجدار ، وبذلك ينشىء اتصالا مع رفاقه .

أغمض عينيه وتمـدد بدون حراك طوال برهة قصيرة في محاولـة لاستجماع ما تبقى له من قوى . حاول أن يتدحرج على الارض ، ولكنه وجد ذلك مستحيلا . كزّ على أسنانه ، واستجمع قواه من جديد ، ولكنه فشل مرة أخرى في أن يأتي حركة . وانتفضت في جسده موجة عاتية من الآلام ، فغاب عن وعيه مرة أخرى .

حينما أفاق في ساعة متأخرة من تلك الليلة ولمح رقعة السماء وبعض النجمات الشاحبات تغلبت آلامه الروحية على عذاباته الجسدية .

ـ ... هل سيبزغ الفجر قريبا ؟... حينما يبزغ الفجر ـ هل سيتركونني أعيش الى انتصاف النهار ؟

واستعاد أحداث الليلة المنصرمة . في حوالي الساعة العاشرة ، حينما كان أكثر المساجين يغطون في النوم ، استاقوه الى الاستجواب دون سابق انذار . وتم استجوابه ، في غرفة معتمة ، بواسطة رجل سمين شاحب الوجه كان يجلس وراء منضدة بنية ضخمة . حياه ذلك الرجل بابتسامة ماكرة : « أنت شاب ذكي ، أليس كذلك ، يا فينغ شين ؟ مؤسف جداً انك لا تستطيع الاستمرار في تنفيذ عملياتك... أخبرني بأسماء أعضاءمنظمتك الحزبية الجديدة . عجّل الآن ! ... وهكذا فأنت لا تريد الكلام ؟ حتى وأنت عرضة لمثل هذه الحال ؟ ... تؤسس فرعا للحزب الشيوعي داخل السجن ، وتقود اضرابا عن الطعام للنضال في سبيل ما تسميهحقوقكم.. أنت هو رئيس حلقة هذا التدبير كله ! أنت لا تستطيع اخفاء الحقائق عنا الآن ! ... حسنا ، أرى انك عازم على التضحية بجميع « رفاقك » . دعني أخبرك ، اذن ، اننا نعرف جميع أسمائهم وجميع خططكم . واكثر من ذلك فنحن سنعمل على اعدامكم جميعا قبل أن تستطيعوا ارسال كلمة واحدة خارج السجن » .

احتفظ لو شيا ـ شوانبرأسه مخفوضا واعتصم بالصمت متجاهلا تهديدات ذلك الوغد السمين ورشاواه . كان يعرف أن العدو لو كان يملك حقا المعلومات التي يدعيها لما اضاعوا وقتهم معه . انهم يخدعونه ليس غير . كما أيقن ، على أية حال ، ان نشاطات منظمته وخططها قد تعرضت للخيانة . ولما كانت الحال على هذا الفرار فقد يتعرض عدد من المساجين للقتل بصفتهم مشبوهين . وفي هذه الحال الطارئة ، ولأن رفاقه يجهلون هذا الهجوم المفاجيء ، فينبغي عليه أن يفضح هذه المؤامرة بأسرع وقت ممكن كيما يتم تجنب المأساة ويسمح للقتال بالاستمرار الى حين احراز النصر النهائي .

مرة أخرى حاول أن يحرك جسده المتصلب . ألقى بكامل ثقله على ذراعه الواحدة ، وطحن أسنانه ، ودعم نفسه ، فتدفق العرق والدم منه. كان لا يبرح يدرك ، لاهثا مهتاجا ، ذلك الظمأ الرهيب الذييستقطر

منه آخر طاقات قدرته . وكان يتهاوى في أعماق غيبوبة ناشئة عما لحق به من أذى . فلعق شفتيه المتشققتين المنتفختين وحاول أن يرطّب حلقه بلعابه ، لكن فمه كان جافا تماما . خدش الارض بأظافره محاولا استخلاص شيء من الارض الرطبة يضعه في فمه ، ولكنه أحس بانتفاضة أخرى من الالم تسري في اطراف جسده قبل ان يتمكن من تنفيذ ذلك .

تسرب اليه من مكان قريب صدى أصوات مخفوتة وخطوات ثقيلة على الإرض . لابد أن الوقت يقارب الساعة الثالثة صباحا اعتمادا على الخبرات التي اكتسبها طوال الشهرين الاخيرين من اقامته في السجن ، وهو الوقت الذي يطوف فيه حراس الليل جولتهم الاخيرة. ولن تمر ساعة أو أكثر حتى ينبثق النهار ، وعندها ـ لكن لا ، قد يأخذونه في أية لحظة ... ان حياته الخاصة ، وقضاياه الشخصية لا أهمية لهما على الاطلاق ، أما قضية الحزب ، القضية الجمعية ... فيجب أن تصان مهما غلا الثمن . وشعلة النضال لابد أن تبقى مشتعلة . وبخ نفسه على ضعفه في وجه الالم . ينبغي أن يقاتل ويقاتل طالما فيه نفس يتردد ، طالما تسري في عروقه نقطة واحدة من الدم ، وذلك ضد العدو وضد جسده « الحرون » . تدحرج على نفسه في تشنجة عنيفة تشابه تشنجات نمر جريح ، ولكنه غاب عن وعيه مرة أخرى .

حينما استرد رشده كانت شفتاه منطبقتين على الارض الندية . ابتسم في وهن ، وأغمض عينيه ، وتجاهل الخفقان الوحشي في قلبه والالم الناهش في جسده ، وشرع يجر نفسه أنشا بعد انش مستعينا بمرفقيه.

أغمي عليه مرتين قبل أن يبلغ الجدار . ولم يكد يسترد الوعي حتى بذل جهدا كبيرا كما لو كانت هبة من النشاط المكثف قد سرت في اوصاله فوصل الى الجدار ونقر عليه بأصابع ثخينة متخشبة مثل أسافين خشبية: رات ـ تات ـ تات ـ تات .

مرت بضع دقائق. لم يأته جواب . الجواب الوحيد الذي تلقاه بخصوص نقراته القلقة هو تراكض الجرذان على الارض .

ما أسرع أن يطل الفجر . والنجوم تشحب فيما وراء النافذة . والوقت يمر سريعا بالنسبة اليه ، ومع ذلك فهو لم ينجز مهمته الاخيرة في السجن .

قال يخاطب نفسه ، وابتسامة باهتة ساخرة تعصر وجهه المضروب

المزرق : « الانسان يعيش مرة واحدة ... ماذا ! أيمكن أن انتهي على هذا الفرار ؟ انتظر في هدوء أن يحملني الجزارون ويطلقون النار علي ؟ أدرى رفاقي مأسورين ولا أفعل شيئا ؟ ابدا ! » .

جر نفسه كيفماكان الى الجدار المجاور . نقر عليه من جديد ، ومن جديد لم يأته جواب . فاستدار الى الجدار الثالث – أمله الوحيد . ان لم يجئه منه جواب فان جهوده كلها تكون ضاعت عبثا . ولسوف يعني ذلك أن أحدا من رفاقه غير موجود هنالك . وبعد ماذا ؟ ... لم يعد يقوى على احتمال التفكير .

رات – تات – تات – تات .

راح الدم يتدفق من جراحه مرة أخرى ، فتجاهله ونقر من جديد.

واصاخ السمع .

ان النقر الذي دفق اليه من الجانب الآخر جعله يجن فرحا . لقد تلقى جوابا لا ريب فيه من واحد من رفاقه . وغاب عن الوعي كرة أخرى وقد أثاره الهياج . وحينمااستعاد رشده كان الضعف قد أخمد كل قواه. ولما أيقن أنه ليس هنالك صوت آخر يمكن أن يتدخل في الاشارة التي يبعث بها فقد نقر استفسارا باشارات مورس : « من أنت ؟ »

– رقم ثمانية ... لي ليانغ .

– رقم واحد ... لو ...

واغمض عينيه وارتاح قليلا قبل ان يكمل : « رسالة عاجلة. مررها، بسرعة . الحال في السجن ساءت الى أبعد الحدود . العدو يعرف خططنا. وبعضنا ، وأنا منهم ، قد يقتلون او ينقلون . ولكن النضال ينبغي أن يستمر ! ان اضرابنا عن الطعام ومخطط عدونا في اعدام المساجين يجب ان ينقلا الى العالم الخارجي . أسرع ! الرفاق في السجن ينبغي ان يحترسوا ويتحدوا بقوة أكثر ... »

لقد أنهى ما كان يريدأن يقول . بدا ان الدماء جفت من عروقه كلها، ولكن وجهه كان متضوئا بابتسامة مشرقة نبعت من سعادة لم يعرف لها مثيلا من قبل . الآن ، في آخر المطاف ، بهذا الحمل من المشاعر في صدره، يستطيع أن يلقي عن كاهله ذلك العبء الثقيل . انحنى رأسه نحو الارض، ورقد بدون حراك .

٢٣

مرت أيام ثلاثة لم يظهر لو شيا ـ شوان خلالها . واعقبتها عشرة أيام اخرى ، وشهر كامل ، ومع ذلك لم يأت .

ماذا تراه حدث ؟

تذكرت تاو ـ شينغ بوضوح تأكيده لها انه خلال ثلاثة أيام سيعود ليأخذ اشياءه . ولكنه لم تبد منه أية اشارة . كانت تفقد الامل مع كل يوم يمر ، وفيما راح قلقها يتعاظم شرع توبيخها لنفسها وغضبها على يونغ ـ تسي يتعاظمان أيضا . كانت متلهفة في يأس لتسقط أية اخبار عن لو شيا ـ شوان ، بيد أنها لم تعرف بمن تتصل . ان صديقهما المشترك هسو نينغ معتقل أيضا ، ولو تا ـ فانغ قد رحل الى شمال شناهار . زارت الاخت لي في عنوانها القديم ولكنها كانت قد انتقلت ولا يعرف أحد من جيرانها أين ذهبت .

وفيما الايام تمر طفقت تاو ـ شينغ تشعر بمزيد من القلق فيما احساسها بالخسارة يزداد عمقا واتساعا .

ـ لماذا لم أقرر أن أسمح له بالابقاء هنا ؟ لماذا لم أقدم له مساعدة أكثر ؟ . . . لنفترض أن هنالك صعوبات ـ أفلم يكن في مقدوري التغلب عليها ؟

كان الندم يمزقها بسبب من الضعف والتردد اللذين جعلاها تهمل واحدا كانت معجبة به الاعجاب كله ، الامر الذي ضاعف نفورها من تردد يونغ ـ تسي وأنانيته . كانت تجلس النهار بطوله الى جانب النافذة تقلقها أفكارها الحزينة ، تحدق في بلادة في أوراق شجرة العناب الوحيدة الزمردية القائمة في الساحة . وبدا العالم وكأنه انقلب رمادي اللون ، وباب السعادة الذي انفتح نتيجة قرعها له قد انغلق مرة اخرى قبل أن تجد الوقت للدخول . وحينما لم يكن ثمة انسان الى جانبها فقد كانت تخرج الحقيبة

الصغيرة التي تركها لو شيا ــ شوان وتروح تتحسسها بأصابعها ــ فهي لم تحرقها كما طلب اليها ــ آملة بلا رجاء أن يعود ويطلبها . وصيرها النوم والقلق مهزولة شاحبة .

سألها يونغ ــ تسي ذات يوم وقد لمح التبدل الذي طرأ عليهـا : « ما الامر ؟ أثمة شيء يدور في خلدك ؟ »

هزت رأسها قليلا . ولكنه تابع أسئلتــه حتى أفقدها صبرهــا ، فانفجرت قائلة : « كل من يملك ضميرا لا يستطيع ان يظل رخيّ البال ! من يدري اذا كان قد تعرض لخيانة ام لا ! . . . »

حدق يونغ ــ تسي فيها بعينيه الضيقتين ، وابتسامة ماكرة متكبرة تتخايل على وجهــه .

ــ هذا اذن بسبب من صديقك المحترم السيد لو ؟ . . . في هــذه الحال أنصح لك ان تنسيه ! ان اي مغامر من طرازه لا يمكــن ان تكون نهايته سعيدة !

نظرت اليه تاو ــ شينغ باستقامة طوال لحظة من الزمن دون ان تنطق بحرف . ثم قبضت على ذراعه ، وصاحت في يأس : « أهذا صحيح ؟ كيف سمعت ذلك ؟ . . . هل اعتقلوه ؟ »

أومأ يونغ ــ تسي برأسه ايماءة ثقة متغطرسة . لم تكن لديــه في الحقيقة أية فكرة عما حدث للو شيا ــ شوان ، ولكنه خطر له أن ما قال هو أفضل سبيل لتدمير اهتمام تاو ــ شينغ به .

غرقت تاو ــ شينغ ، وقد بلغ السيل بها الزبى ، الى جانب المنضدة ، وراسها بين يديها ، وشرعت تنتحب . ان البلية التي أصابت رفيقا تحبه وتحترمه قد جعلها غافلة عن سخرية يونغ ــ تسي الغيور . وقف الى جانبها ، وقد ضغط على شفتيه النحيلتين بشدة ، الى الحين الذي لم يعد يسيطر فيه على غضبه ، فصاح : « لا أكاد أصدق أن شيوعيتك قد خلبت لبك الى هذا الحد ! لكم أرثي له لانه اعتقل ولان احلامك الجميلة لم تصل الى شيء ! . . . لكن ، لا تبالي ، لأبــد ان لديك عددا آخر مــن الرفاق مطلقي السراح . . . »

وثبت تاو ــ شينغ على قدميها ترتجف من الغضب : « صمتا ! كيف تجرؤ على السخرية من مصيبتي ! »

ونشجت ، بعيد صمت قصير : « كيف يمكن ان تكون من دون قلب !

شاب رائع تم اعتقاله ــ وحياته في خطر ــ وكل ما في طوقك ان تفعل هو الشعور بالارتياح والسخرية ... دعني وحدي ! » ودفعت يونغ ــ تسي جانبا ، وركضت خارج الغرفة .

حينما رجعت الى المنزل في تلك الليلة ذرف كلاهما الدموع ــ وحزنا على اتحادهما الحزين .

غدت الحياة تعيسة بالنسبة الى تاو ــ شينغ . كانت تحس وكأنها في جزيرة مهجورة ، بعيدة عن الاصدقاء ، والاقرباء ، أو أي انسان يمكن أن يفهم عذاباتها ورغباتها . وكان هناك شيء وحيد واضح . انسانان لكل منهما وجهات نظره السياسية المختلفة يسافران على طريقين مختلفتين لا يمكن أن يعيشا معا . وليخدعنّ نفسه من يتصور أن ذلك « الشعور » ، وحده ، كان كافيا لأن يربط بينهما ــ فقد كان مقدرا لكل منهما ان يدمر هدوء بال الآخر تدميرا شاملا .

ــ ينبغي ان اتركه ! أنا لا أستطيع أن أتركه يدمر حياتي بأسرها !

كان هذا هو الحل الوحيد الذي تركز في ذهنها .

وذات يوم أخرجت حقيبة لو شيا ــ شوان الصغيرة مرة أخرى عازمة على احراق محتوياتها طالما أنه يبدو لها أنه ليس ثمة مايشير الى عودته. فتحت الحقيبة في شيء من الاضطراب ، فوجدت فيها لفافات من الورق الاحمر والاخضر والابيض أثارت جوانحها في غصة من الالم ممتزجة باحساس غريب من السعادة . فخاطبت نفسها قائلة : « أيها الصديق، لأشعرن أنك معي ههنا مرة أخرى ! » .

عندما أعطاها لو شيا ــ شوان الحقيبة كبحت جماح فضولها المتطلع الى معرفة محتوياتها ، فأخفت الحقيبة بأن لفتها بخرق من قصاصات القطن المحشو . وهذه هي اليوم تقفل الباب على نفسها وتنشر تلك الأوراق على المنضدة وتشرع في قراءتها بحماسة وغيرة . كانت عبارة عن شعارات منسوخة على ورق رقيق بكلمات صغيرة مقروءة .

احتفلوا بالانتصار العظيم للجيش الاحمر على حملة الكيومنتانغ الرابعة « التطويقية القمعية » !

يا شعب الصين ، احمل السلاح ! فلتسقط الامبريالية اليابانية !

عاش الحزب الشيوعي الصيني !

عاشت الحكومة الصينية السوفييتية !

وكان هناك ايضا بيانان مطولان صادران عن لجنة مدينة بيبينغ في الحزب الشيوعي الصيني وعصبة بيبينغ المناهضة للامبريالية .

الحزب الشيوعي الصيني ! بينما كانت تاو ـ شينغ تقرأ هذا الاسم الملهم العزيز راحت أصابعها تنطبق بشدة على تلك الاوراق ، وامحت جميع مخاوفها ووساوسها . شعرت وكأنها تلتقي بانسان قريب وعزيز على فؤادها بعد فراق طويل . انها لا تستطيع ، مهما كانت الظروف ، أن تحرق مثل هذه الاشياء الثمينة ! ضمتها الى صدرها ، وطفقت تفكر مبتهجة الاسارير أن هذه النشرات الحمراء والخضراء بتحديها لجميع الرجعيين قد ربطت مصيرها بمصير الحزب الشيوعي . مما لاريب فيه أنهما لن ينفصلا عن بعض مرة اخرى ! كانت تعتبر ائتمانها على هذه النشرات شرفا رفيعا وسعادة طاغية ... وحلقت روحها وتجدد ايمانها بالحياة .

سألت نفسها ذات ليلة : « ماذا أفعل بهذه النشرات ان لم أحرقها؟» انه لن يعود ، ومن الخطورة أن تحتفظ بها . وخطرت لها فلاسوفا في رواية « الام » لغوركي ، هذه التي حملت نشرات الى المصنع ووزعتها على العمال . وخاطبت نفسها : « بلى ، سأفعل مثلما فعلت ! » كان هياجها يمنع النوم عن عينيها ، مثلها مثل جندي ابتكر خطة رائعة للهجوم . لكن ، كيف تباشر عملية التوزيع ؟ انها عديمة الخبرة ، ولكنها تعرف الاخطار التي قد تنجم عن ذلك . فكرت في الامر الجزء الاكبر من الليل ، وخطر لها ما اعتبرته خطة جيدة .

بعيد ثلاثة أيام باشرت عملها .

كانت ليلة من ليالي الصيف . كان درب اللبانة يترامى على صفحة السماء الصافية المزروعة بالنجوم أشبه ما يكون برمال براقة رائعة ، في حين كانت الارض تحته تغط في لفائف النوم . وكانت الشوارع المقفرة ساكنة الا من همس النسيم ونباح بعض الكلاب بين حين وحين . في ملء هذه السكينة المخيفة كانت امرأة فتية تلبس على الزي الحديث تدخل الازقة الضيقة القريبة من بناء جامعة بكين الاحمر وتخرج منها حاملة حقيبة أنيقة . كانت تنزلق مسرعة صارفة انتباهها الى أضأل صوت . وكانت أية خطوات على الارض او اي صدى يدف من البعيد يجعلها تقف وتضغط جسدها النحيل على الجدار مرهفة سمعها حابسة أنفاسها . وكانت عيناها الواسعتان تلمعان في الظلمة ، وقلبها يخفق بعنف بحيث

تسمع ضرباته . وحينما يتضح لها أنه ليس ثمة ما يدعو الى الخوف فقد كانت تسترخي وتبتسم ابتسامة صبيانية بريئة . وبعد أن تتوقف قليلا تلتقط أنفاسها تروح تتابع طريقها قدما مثل خيال أسود .

تلك كانت تجربة غير عادية بالنسبة الى تاو – شينغ . أبدا لم تعرف من قبل في حياتها مثل هذا القلق وهذه الاثارة . وبدأ قلبها يخفق منذ الساعة التي قررت فيها ان تقوم بتوزيع النشرات سرا في الليل . وارتجفت اكثر من مرة وهي تفكر في أنه قد قبض عليها وهي توزع منشورات حمراء، ولكنها تنفست الصعداء حينما تذكرت قول لو شيا – شوان لحظة رحيله: « ثقي بقضيتنا . وتابعي النضال في سبيل مستقبل سعيد ... » . يجب أن تحفظ هذه الكلمات الخالدة ثابتة في ذهنها وتناضل دون خوف . وهكذا أشغلت نفسها بالاستعدادات الضرورية ، ومن بينها شراء ثلاث زجاجات صغيرة من الصمغ وحذاء خفيف النعل لا يصدر عنه أدنى صوت . وكانت قضية تنكرها بزي مناسب قد أقلقتها الى أن انطلقت تستعير فرشاة صغيرة من مالكة الدار فألفتها تلبس ثوبا زهري اللون ضيقا وقد تبرجت بالحمرة والمساحيق بصورة كثيفة . فعزمت على ان تنتحل شخصية نصف دنيوية وعالنت نفسها على انها لن تبالي ان اخطأوا فحسبوها احدى بنات الشوارع . وأسرعت في تلك العشية ، خشية من ان يراها يونغ – تسي فيقف عقبة في طريقها ، الى غرفة مالكة الدار تستبدل ثيابها حيث لبست ثوبا حريريا أخضر اللون . ثم صبغت شفتيها بالحمرة ، ولبست زوجا من الكلسات الحريرية بلون اللحم ، وحملت حقيبة يدوية أنيقة فغدت أشبه بسيدة فتية فاتنة . ففرت مالكة الدار فمها وهي ترى ثوب تاو – شينغ عاديا بسيطا .

قالت مالكة الدار في نفسها ، وهي تتذكر تجربة خاصة بها : « لابد انها في سبيلها الى لقاء عشيقها » .

وابتسمت لها ابتسامة ذات مغزى ، وهمست : « أأنت خارجة ، يا سيدة يو ؟ ... حسنا ، حسنا ! اني أفهم تماما ... ان هنالك شخصا آخر أيضا ... » .

اغتبطت تاو – شينغ لهذه الفكرة التي خطرت لمالكة الدار ، فردت على ابتسامتها في تظرّف ، وقالت قبل ان تنطلق خارجة : « ان سأل يونغ – تسي عني ، فأرجو ان تخبريه أني سأعود سريعا . هل تؤدين لي هذه الخدمة ؟ »

وهكذا انزلقت خارجة في عصبية وهي تشعر شعور مجند غر في ساحة القتال وجب عليه ان يتقدم وحيدا . وراحت تنسل داخلة خارجة في منعطفات الازقة مثل بغي تبحث عن زبون . وحين تأكدت من عدم وجود أي أمرؤ من الجوار فقد استجمعت شجاعتها لتنفيذ المهمة التي ندبت نفسها لها . رطبت قمة الاوراق المصمغة بطرف لسانها وألصقت عددا منها على الجدار . ارتعشت يداها ، وعجزت قدماها عن حملها حينما خطت خطواتها الاولى ... وتصورت في تلك اللحظة جميع الشبان والشابات الذين التقت بهم في حفلة رأس السنة الجديدة ... لو أنهم كانوا معها هنا لتم تنفيذ العمل بسرعة . ولكنه يجب عليها أن تعمل بمفردها في أعماق الليل ، وحيدة خائفة . لم تكن خائفة من الشرطة وحدها ، بل من الرجال الذين يمكن ان يعتبروها احدى فتيات الليل . وبعدما الصقت عددا من النشرات ودست عددا آخر من خلال شقوق الابواب لم تعد قادرة على الاستمرار في عملها فرجعت عائدة الى بيتها .

هنالك استلقت مهدودة القوى .

في الليلة التالية كانت تؤدي المهمة ذاتها ، لكن بثقة أكبر . انطلقت قبيل بزوغ الفجر ، حينما يكون رجال الشرطة الذين يقومون بالخدمة يهوّمون من التعب ، وألصقت مجموعة من المنشورات او دستها عبر الابواب في عدد من الازقة . وعندما انتهت حصتها رجعت آمنة الى البيت .

صعق سكان المدينة من تلك المنشورات فكأن اعصارا ضربهم دون سابق انذار . وراح الشبان يتداولونها من قبيل الفضول فيما الشيوخ والرعاديد استبد بهم الجزع والخوف .

راحوا يتساءلون في همسات مذهولة : « هل يتزايد عدد الشيوعيين في هذه الايام ؟ » .

وراحت اتحادات الطلاب في عدد من المدارس الثانوية والجامعات تتلقى بواسطة البريد صحفا ما أن تفتح حتى يتبين انها تضم منشورات شيوعية دستها تاو ــ شينغ فيها . وشرع بعض الطلاب ، وقد سيطرت عليهم الشجاعة والدهشة ، يتحزرون طوال أيام عن هوية المرسل . كانوا واثقين ، على أية حال ، ان الحزب الشيوعي قد بدأ التحرك من جديد ، وخطر لهم ان موجة جديدة من الثورة في طريقها اليهم .

وكان رجال الشرطة الذين أخذوا يكتشفون ، منذ بكور الصباح ،

تلك المنشورات الشيوعية على الجدران قد استبد بهم الغضب والخوف وهم يعجلون في تمزيقها .

لجأت تاو ـ شينغ ، دون علم يونغ ـ تسي ، الى مختلف السبل لتوزيع تلك المنشورات ، وارسال بعضها عن طريق البريد الى أشخاص تعرف فيهم نزعاتهم التقدمية . ولم يمض طويل زمن حتى كانت قد وزعت أكبر كمية ممكنة . وأبقت لديها كمية منها لانها لم تكن قادرة على الافتراق عنها سريعا .

وغريب أن نقول ان تلك الاوراق الصغيرة الحمراء والخضراء قد أنقذتها من حافة اليأس . مرت أيام شعرت فيها أن كل شيء انتهى بالنسبة اليها ، حينما وجدت نفسها مرة أخرى ، من دون ارشاد لو شيا ـ شوان لها أو عناية الحزب بها ، حبيسة رقعة ضيقة مختنقة مثل رفقة يونغ ـ تسي اللطيفة ، حيث لاشيء تتشوق اليه سوى اليوم الذي يستطيع فيه أن يشتري لها أثوابا مخملية ومعطفا صوفيا ... ان التفكير في مثل هذا المستقبل رهيب جدا . وان توزيع المنشورات قد حمل اليها شعورا بالتحرر. وبمقدار ما كانت توزع من المنشورات كانت تشعر بمزيد من السعادة ، اذ انها لم تعد الآن تهتف بالشعارات وحدها ، الامر الذي كان يونغ ـ تسي يسخر منه قائلا ان هذا هو الشيء الوحيد الذي يستطيع المثقفون من البورجوازية الصغيرة ان يقوموا به . لكن ذلك العمل أغدق في صدرها السعادة لانها عرفت انها تؤدي عملا طيبا .

اقترب أوان العطلة الصيفية . وأرادت تاو ـ شينغ أن تعرف مدى تأثير تلك المنشورات ، فقامت بزيارة وانغ هسياو ـ ين التي كانت في السنة الثانية في جامعة بكين .

أمسكت ذراع صديقتها في اهتياج ، وقالت : « هسياو ـ ين البارحة صباحا عثرت على شيء غريب جدا ! »

فأغلقت هسياو ـ ين الكتاب الذي تحمل في يدها في بطء ، وحدقت فيها : « ما هذا ؟ »

فأخرجت تاو ـ شينغ ثلاثة منشورات من جيبها : « انظري ! خرجت البارحة صباحا للقيام بنزهة . ولم أكد أخرج من الباب حتى وقع نظري على هذه ... » وأخفضت صوتها الى درجة الهمس : « الا تفهمين أن الحزب الشيوعي الصيني هو الذي يوزعها » .

تناولتها هسياو ـ ين ، ونظرت فيها ثم رمتها على المنضدة : «ظننت انك قصدت شيئا غيرمألوف حقا ... لكنه ليس ثمة شيء جديد بخصوص هذه المنشورات . فقد رأيتها من قبل » .

ـ هذا غريب جدا ! أين وقعت عليها أنظارك من قبل ، يا ترى ؟

لم تجبها هسياو ـ ين على الفور ، بل فتحت درجا وأخرجت منه علبة سكاكر ، وقالت : « خذي سكرة ، يا تاو ـ شينغ . فقد جاءني بها والدي لتوه من شنغهاي . أخبريني ، فيم اهتمامك الشديد بهذه المنشورات ؟ ألهذا جئت الي اليوم ؟ »

ـ اني لا أستطيع ان افهم الامر كله . هل يمكن ان يكون هنالك بعد عدد كبير من الشيوعيين ؟

قالت هسياو ـ ين ، وهي تجلس الى جانب تاو ـ شينغ : « أعتقد أنه لا يزال هنالك بعد عدد كبير منهم » .

وتابعت تقول ، بعد أن وضعت سكرة في فمها : « منذ عدة أيام . قبل انتهاء الفصل الدراسي ، تلقى اتحادنا الطلابي نسخة من « تا كونغ باو » بواسطة البريد . وكان في داخلها ثلاثة منشورات مثل منشوراتك . انشده بعض الناس واهتاجوا ، وخاف بعضهم الآخر ، واقترح آخرون أن يعلقوها على لوحة الاعلانات ، غير ان آخرين لم يستحسنوا الفكرة خوفا من عواقبها » .

ـ وما رأيك أنت ؟ هل كنت خائفة ؟ أنت تقومين ببعض الاعمال في الاتحاد ، أليس كذلك ؟

ـ لم أبالي بالامر على اية حال ، غير أن تلك المنشورات ظهرت على اللوحة في اليوم التالي مباشرة . وأثارت اضطرابا عظيما ... وطبيعي أن سلطات الجامعة لم تبدد وقتها في تمزيقها . وغضب الرئيس شيانغ مين ـ لين عندما وجد أن الامور لم تعد الى طبيعتها حتى الآن .

قذفت هسياو ـ ين شعرها الكثيف الى الوراء وابتسمت ابتسامة خفيفة وقورة . وانتشت تاو ـ شينغ غبطة . وشع وجهها مثل وردة ، فاحتضنت صديقتها : « هسياو ـ ين ! ما أروع السعادة التي أشعرتيني بها ! »

ـ ماذا اصابك الآن ؟ فيم اهتياجك ؟ ... لا تقولي ان لك ضلعا بهذه الامور ؟

عجزت تاو ـ شينغ عن الاستمرار في الصمت ، فاعترفت بجميع ما فعلت .

ـ حذار ان تنطقي بكلمة واحدة لأي كان ، يا هسياو ـ ين ! ... انا التي أرسلت جميع هذه المنشورات !

ـ ماذا ؟ أتعنين ذلك حقا ؟ ... متى انضممت الى الحزب الشيوعي؟

قالت هسياو ـ ين ذلك ، وهي تحدق في صديقتها في ارتياب .

هزت تاو ـ شينغ رأسها في اكتئاب، وردت : « أنا لست شيوعية. ولكن لدى أصدقاء شيوعيين ـ أتذكرين ما أخبرتك به عن لو شيا ـ شوان؟ لقد ترك هذه المنشورات عندي قبيل اعتقاله . وبعدها فقدت كل أثرله... ولم اعرف ماذا أفعل بهذه المنشورات الى أن عثرت على طريقةلتوزيعها» .

نظرت اليها هسياو ـ ين وكأنها تراها للمرة الاولى : « لكن ، لماذا لم تحرقيها ؟ ألا تعرفين مقدار خطورة توزيع أشياء مثل هذه ؟ » .

فلفّت تاو ـ شينغ ذراعا حول كتف صديقتها ، وأعلنت في حماسة: « كلا ، يا هسياو ـ ين ، أنت لم تفهميني ! لقد تبدلت منذ السنة الماضية .. يسعدني في هذه الايام ان اكون قادرة على القيام بمثل هذه الامور ... انني اشعر بالقلق أيضا لأن جميع أصدقائي تم اعتقالهم من قبل الكيومنتانغ ... ولكن لا أهمية للزمن الذي سيسجنون فيه . الثوريون يشبهون العشب الكثيف في السهل ـ « لا تحرقه نار المروج لأن رياح الربيع تعيده الى الحياة من جديد » . وأنا واثقة انهم سيعودون عاجلا أم آجلا » .

وتطلعت من النافذة الى الغيوم السابحة في السماء ثم خفضت رأسها من جديد ، وقد أحزنها الخسران .

ضغطت هسياو ـ ين على يد صديقتها وقد أثرت فيها شجاعتها وحماستها ، ممزقة بين السخط والتعاطف .

ـ أنا أفهمك ، يا تاو ـ شينغ ـ فأنت أشبه ما تكونين بالشعلة . لكن ، فكري في مستقبلك ! ما هو المستقبل الذي ينتظرك اذا انضممت الى الثورة ! ...

فردت تاو ـ شينغ في غيرة : « وما هو المستقبل الذي ينتظرك اذا دفنت نفسك بين الكتب طوال النهار ؟ هذا زمن محنة وطنية ، والبلاد

بأسرها تغلي هياجا . الا تعرفين المثل القائل : « لأيمكن ان تبقى بيضة واحدة دون كسر اذا كان العش مضطربا » ؟ »

نخرت هسياو ــ ين موافقة ولكنها لم تنبس بحرف وقد استغرقتها أفكارها الخاصة .

ــ استيقظي ، يا هسياو ــ ين ! اننا نعرف بعضنا منذ كنا صغارا. فاذا لم تكوني ناقمة علي ، فهل تمدين لي يد المساعدة ؟

وأمسكت تاو ــ شينغ بذراع هسياو ــ ين ، وقد طرأت على رأسها فكرة جديدة : « مازال لدي بعض المنشورات . ومن الخطورة الاحتفاظ بها . فهل تساعدينني في توزيعها ؟ »

أجفلت هسياو ــ ين تماما ولم تعرف بماذا تجيب . هزت رأسها بعد صمت طويل ، وأجابت : « كلا ، لا أستطيع ذلك ! » .

فتمتمت تاو ــ شينغ ساخطة ، وقد استدارت تبغي الرحيل : « وتسمين نفسك صديقة ! »

شدتها هسياو ــ ين على مضض : « حسنا . اعطيني تلك المنشورات . سأحاول الاتصال بأولئك الطلاب الذين سيعلقونها على لوحة الأعلانات . ولأخبرك الحقيقة ، فأنا لا أستحسن هذه النزوة الجديدة التي خطرت لك » .

كانت البهجة قد طفت على تاو ــ شينغ فمنعتها عن الاصغاء الى تتمة الحديث . شدت على يد هسياو ــ ين ، وقالت في اهتياج : « هذا رائع ! أنت صديقة حقيقية ، يا هسياو ــ ين ! .... حينما يعود لو شيا ــ شوان أعدك أن أعرفك به » .

* * *

٢٤

طوال عدة أيام متوالية ظلت تاو ـ شينغ تتزين وتتجمل وترتدي ثيابا أنيقة ثم تنزلق خارج المنزل ومن بعد تعود اليه في كل وقت ـ وأحيانا لا ترجع الا بعيد انتصاف الليل ، وأحيانا لا تخرج منه الآ قبيل انبلاج الفجر . ولم يعد غضب يونغ ـ تسي يعرف حدودا . ولما كانت تاو ـ شينغ لم تعد تأتمنه ، فهو لم يكوّن أية فكرة عن المكان الذي تذهب اليه أو الاشياء التي تفعل . جرؤ مرة على سؤالها ، فنبرت في وجهه : « اهتم بشؤونك الخاصة ! » . ونفد صبره أخيرا ، فأمسك بها من ذراعها ذات ليلة وهما في الفراش ، وسألها من خلال اسنانه المنقبضة : « ماذا تقصدين بهذا ، يا تاو ـ شينغ ؟ الآ تخجلين من هذا الاسلوب الذي تتبعين ؟ »

كانت مستلقية في هدوء فلم تتحدث طوال فترة من الزمن . وتوصلت بعد تفكير طويل الى قرار يتعلق بمستقبلها ، مما ساعدها على الاحتفاظ بهدوئها . جلست كيما تشعل النور ، وأجابت في صوت هادىء : « يونغ ـ تسي ، أنت تعرف مقدار الهوة القائمة بيننا . انها تجعل منا تعيسين . ولما كنا لا نبرح في زهرة العمر بعد ، أفلا تعتقد أنه يحسن بنا ان نفترق؟»

كان الاسلوب المتفكر الذي عبرت به عن رأيها وطريقة حديثها اللطيفة المختلفة عن نكدها العاصف في الماضي قد جعل يونغ ـ تسي يتبين أن الحال لا يمكن تداركها بالانقاذ . لم يكن يستطيع أن يأمل ابقاءها معه . فقد كان عدم مبالاتها ضربة قاصمة لكرامته . جلس هو الآخر واستغرق في التفكير برهة ، ثم قال أخيرا في صوت أجش وقد عبس وجهه : « حسنا اذن . فليذهب كل منا في حال سبيله » .

غادر يونغ ـ تسي الدار في بكور اليوم التالي . وبعيد الظهر كانت تاو ـ شينغ قد فرغت من اعداد حوائجها واستعدت للانتقال الى نزل

آخر في الجوار حينما طرق الباب زائر . لم تتذكره ، ولكنه حياها تحية صديق قديم . أسرع اليها يصافحهـا ، وهو يسأل في صوت خفيض : « أأنت هي لين تاو ــ شينغ ؟ أنا تاي يو ، صديق لو شيا ــ شوان » .

أدخلت الزائر الى البيت ، وقد خطر لها أنه ربما كان يحمل اليهـا أخبارا عن لو ، وفي صدرها شعور مختلط من السعادة والانشداه . طلبت منه أن يتخذ مقعدا ، وسألته في حماسة : « هذه مفاجأة سارة . أصحيح أن الاخ لو قد اعتقل ؟ وكيف هو الآن ؟ » .

لم يرد تاي يو على سؤالها فورا . تطلع حواليه في أرجاء الغرفة ، ثم نظر الى وجهها في ثبات قبل ان يجيب في هدوء : « أجل ، وذلك من سوء الحظ . لقد اعتقل قبل ثلاثة شهور . احتجزوه اولا في مركز قيادة الشرطة العسكرية . ولست أعرف مكانه الآن » .

وخفت صوته حينما لمح الشحوب يتسلل الى وجـه تاو ــ شينغ ، وأصابعها تقبض على حافة السرير .

ابتسم لها في رقة ، وقال : « أأنت مرتبطة به ، أيتها الرفيقة لين ؟ »

اندهشت تاو ــ شينغ واغتبطت عندمـا ناداهـا « رفيقة » . ان لو شيا ــ شوان ، رغم أنه صديقها ، الا أنه لم ينادها بهذا الاسم . كتمت انفعالها بسبب أخبار اعتقال لو شيا ــ شوان ، وأجابت برقة واندفاع حار : « كم يسعدني لقاؤك ! ورغم أننا لم نلتق ــ كلا ، هذا ليس صحيحا ، فانا أذكر انك كنت اول من تكلم في احتفال الثالث عشر من آذار ــ ويخال لي أن الاخ لو قد حدثك عني من دون ريب . . . أنا غرة قليلة التجربة بعد ، وآمل أن تمدني بالمساعدة غالبا . . . »

ــ طبعا سأفعل ذلك ! الا تعرفين أني ولو شيا ــ شوان صديقـان حميمـان ؟

ــ أوه . . .

لم تعرف تاو ــ شينغ بماذا تجيب ، فقد استغرقها مزيج من الحزن والفرح .

أشعل تاي يو لفافة أخذ منهـا عدة انفاس قبل ان يسأل بصورة عرضية : « وبالمناسـبة ، ألم يترك العجوز لو شيئا في عهدتك ؟ ما هي الاشياء التي أعطاها لك آخر مرة كان فيها ههنا ؟ » .

أخبرته بتفاصيل لقائها الاخير مع لو شيا ــ شوان ، وكيف عملت على توزيع المنشورات .

أصغى اليها تاي يو في انتباه ، وأومأ برأسه ، وقال : « حسنا فعلت ! تلك كانت شجاعة منك . لكن ، لم لم تطلبي الى بعض الرفاق الآخرين أن يساعدوك ؟ أنت تعرفين خطورة تنفيذ مثل هذا العمل لوحدك » .

— لم أكن أعرف أحدا أسأله المعونة . فالاخ لو ، وهسو نينغ ، وبعض الثوريين الآخرين الذين أعرف اعتقلوا جميعا .

— أرى ذلك .

كانت عينا تاي يو تراقبانها بانتباه من خلف نظارته ، وظل ابتسامة يتراقص على وجهه السمين الشاحب : « حسنا اذن ، وكيف تنوين الاستمرار في النضال ؟ »

لم ينتظر جوابها ، بل تابع يقول : « هنالك عدد كبير من التقدميين الشبان ممن يعتنقون الافكار اليسارية . ويجب أن تبذلي طاقة جهدك لتوسيع حلقة الاصدقاء والمعارف ... »

فقاطعته تاو — شينغ في صوت يخنقه الحزن : « لكنني لا أعرف صديقا تقدميا واحدا ، أيها العجوز تاي . هل في مقدورك ان تعرفني بواحد منهم ؟ لقد كنت أحيا حياة فارغة منذ اعتقال لو ، وغدوت أشبه ما يكون بضفدعة في بئر . ولسوف اترك زوجي الآن — لربما كنت تعرفه ؟ — لانه رجعي الى أبعد الحدود . ان لنا نظريتين مختلفتين في الحياة ، والطريق الوحيد الذي يمكن ان يحررني هو أن اتركه . وأنا اريد أن أجعل من حياتي حياة لها معنى وهدف ، أن أعيش الحياة التي تعيشها انت والرفاق الآخرون . لكم أحسدكم على حياتكم النضالية الغنية ! »

— بلى ، من دون ريب ...

نهض واللفافة بين شفتيه ، وأخذ يراوح في الغرفة ويغادي ، يتفحص هذا الشيء وذاك . وحينما وقع بصره على اوراق نبات الخنشار الزمردية تتدلى على الجدار والاناء البورسليني القديم الرائع على المكتبة التفت الى تاو — شينغ وهو يبتسم ابتسامة توبيخ : « يا رفيقة لين ، هذه الدمى البورجوازية التي تعرضين هنا لاتتفق والثورية . ان مناضلة ثورية من الطبقة البروليتارية لا تحتفظ بمثل هذه التفاهات لأنه ، على حد قول المثل : « الاغتباط بالتفاهات يضعف عزيمة المرء » . حسنا ، ينبغي أن أذهب الآن . أرجو ان تعطيني عنوانك الجديد بحيث أستطيع زيارتك حينما يسنح لي الوقت . وما ان تصلني أنباء العجوز لو حتى أوصلها اليك ...

الامر الأكثر أهمية بالنسبة اليك هو ان تشاركي في النضال الثوري وان تبذلي طاقة جهدك لمواصلة الاتصال بالمنظمات الثورية . وطبيعي أننا أقمنا معا نوعا من الاتصال » .

رجعت تاو ـ شينغ بعد وداعه الى الغرفة وجلست على حافة السرير . كان اهتياجها من جراء هذا الاتصال الجديد بالثوريين وتوقع مزيـد من الحياة النشيطة قد انسياها ان الوقت قد حان للانتقال الى محل اقامتها الجديد . وجعل تفكيرها في لو شيا ـ شوان فؤادها يزداد ثقلا مرة أخرى . جلست هنالك فترة دون حراك تحدق بانشداه عبر النافـذة الى السماء اللازوردية ، وبقيت غافلة لم يوقظها من أحلامها غير رؤيتها بصورة عرضية صورتها مع يونغ تسي وعباءته الزرقاء الطويلة معلقة على المشجب ، نهضت وتطلعت حواليها وتساءلت عما اذا كانت حقا ستترك الرجل الذي أحبته مرة من صميم فؤادها . أفلن تعود الى هذه الغرفة الصغيرة حيث قضت أياما كثيرة مفعمة سعادة ؟ . . . كانت ملاءاتها مربوطة ، وحقيبتها الصغيرة محزومة ـ اما كل شيء آخر في الغرفة فستتركه ليونغ ـ تسي . وتندت عيناها بالعبرات . « يجب ان ارحل على الفور ! » . وثبت على قدميها وقد اخجلها ترددها وعاطفيتها ، والتقطت ربطة ملاءاتها ، ولكنها رجعت عند الباب لتدون هذه الملحوظة :

٢٠ ايلول ، ١٩٣٣

يونغ ـ تسي ،

أنا راحلة . ولن اعود ، اعن بنفسك جيدا . حاول ان تكون نظرتك أكثر شمولا ، ولا تنظر بقسوة الى الامور . أتمنى لك كل سعادة !

تاو ـ شينغ

وبعيد نضال فكري من التوبيخ الذاتي المؤلم حملت تاو ـ شينغ ربطة ملاءاتها مرة أخرى وخرجت من الغرفة حيث عرفت السعادة واليأس الذي لا حدود له .

٢٥

كانت الغرفة الصغيرة الهادئة تعج بموسيقى حلوة ناعمة فيما تاو ـ شينغ قد جلست على مقعد بدون ظهر امام الفرن تنشد في صوت مخفوض أغنية نظمتها لتوها :

سوداءٌ بواباتُ السجن
لكنْ لنْ تخنقَ ضوءَ الشمسُ
ورفاقي لو كانوا في السجن
في هذا اليوم ويوم الامس
فالشمس وقبّرة الحقل
وصبايا حلواتٌ مثلي
كالوردِ ، كباقاتِ الزهرِ
لرفاقي .. أبطال الدهر
ينشدن بصوتٍ مسحورٍ
يطردن الظلمة بالنور

انشدتها عدة مرات في صوت لطيف . استيقظت من مزاجها الحالم ، وفتحت باب الغرفة واخرجت منه الارغفة الكبيرة البيضاء . « لقد نضجت ! » . قالت ذلك وهي تبتسم ابتسامة راضية عن عملها . وتفحصت بعناية كل رغيف على حدة ، وهي تفكر : « أي واحد منها ترى يحوي القلم الرصاص ؟ لكم سيسر هسو نينغ ورفاقه بالحصول عليه ! »

انتقلت تاو ـ شينغ ، بعد افتراقها عن يونغ ـ تسي ، الى نزل صغير قريب من الجامعة . وقد غدت الآن حرة في تكريس كامل طاقتها ووقتها لاقامة اتصالات مع الثوريين ، كما قامت بعدة زيارات الى والدة هسو نينغ في سبيل الحصول على انباء عنه منها . وعلمت ان هسو

نينغ كان محتجزا في محكمة بيبينغ المحلية ، فصحبت أمه لمقابلته زاعمة انها شقيقته – اغتبطت من زيارتها كثيرا ، سواء بالنسبة اليها او بالنسبة الى والدة هسو نينغ . لم يهمل مظهره الشخصي بسبب من سجنه ، ولكنه يبدو انيقا رشيقا رغم نحوله وضعفه . ولم يبد عليه شيء من آثار القنوط . بدا ان السجن جعل منه رجلا .

عالن تاو – شينغ التي وقفت ما وراء قضبان زنزانته الحديدية قائلا : « أنا في أحسن حال ، وأحصل على ما يكفي من الطعام ... لقد جعلوني أسمن مرتين . والقاضي يقول ان قضيتي ليست خطيرة ، وانهم سيخلون سبيلي ان انا نشرت اعلانا في الصحف استنكر فيه علانية .

سألت تاو – شينغ : « تستنكر علانية – ما معنى هذا ؟ »

التفت هسو نينغ يسترق النظر الى الحارس الذي يراوح ويغادي بخطواته البطيئة المنتظمة على مقربة ، وغدت ابتسامته أكثر سخرية : « انها تعني الاستسلام » .

– ماذا ستفعل اذن ، أيها الشقيق الثاني ؟ هل تنوي الاعلان ؟

هز هسو نينغ رأسه ، واجاب بقوة : « كلا ، أبدا ! جميع المعتقلين السياسيين هنا رفضوا بصراحة ذلك . واذا ضغطوا علينا فسوف نحتج باعلان الاضراب عن الطعام ... »

كان هسو نينغ يتكلم بصوت مهموس ، وحينما يقترب الحارس منهما فقد كان يرفع نبرة صوته ويبتسم لها ابتسامة ذات مغزى : « وهكذا فان مدرستك ستحتفل بيومها الرياضي قريبا ، أليس كذلك ، أيتها الاخت الرابعة ؟ هذا رائع ... »

وما ان يبتعد الحارس من جديد حتى يسترسل هسو نينغ في لطف : « أريد ان اكتب شيئا ، ولكنني لا أملك قلما . ألا ترسلين الي بعض الارغفة وتخبئين فيها قلما ؟ ... »

فأومأت له بابتسامة فاهمة .

تطلعت تاو – شينغ مرة أخرى ، وهي تستعيد هذه الذكرى ، الى أرغفة الخبز في يدها في عناية ، وقد التهبت في صدرها نيران الشباب ، وشرعت تغني في صوت مخفوض :

قلم رصاصي صغير من خشب
خبأته في بعض أرغفة طرية

هو مثل كوم من غبارٍ من ذهب
متناثر في رمل هاتيكَ البريــة
أخفيته عن عين حراس الســجون
ليصير بين يدي رفــاق طيبين
به يلهبون الشعبَ ناراً من غضب
قلم رصاصي صغير من خشب
حادٌ كسيف قاطع كالخنجرِ
حرٌ أبيٌ صادق عبــق ثري
يجتز أعناق الجناة الآثمين

كانت تغني لنفسها في هدوء ، وهي تمد بصرها من النافذة والرغيف لا يبرح في يدها ، غير واعية ما كانت تفعل . كانت تتصور فرحة هسونينغ ورفاقه المساجين عندما يتلقون القلم الرصاصي ، وكيف أنهم لن يضيعوا وقتا في تعبئة هوامش الكتب بكتابات متراصة . فقــد حرمت السلطات الرجعية المساجين من الاقلام والورق كيلا يسجلوا احتجاجات الشعب . ومع ذلك فلسوف يكتبون بدون انقطاع بواسطة القلم الذي هربته اليهم .

... تركتها هذه التصورات البهيجة مغتبطة العشية بطولها ، وقد طردت عنها اليأس الذي تملكها بعيد اعتقال لو شيا – شوان . وقد تاهت عجبا لانتصارها على روحها القديمة ، وملأها السرور لانها بدأت حياة جديدة .

بعيد العشاء ، وبعدمــا انهت ترتيب الغرفــة ، أسرعت فأخرجت مجموعة من الكتب وجعلت تغلفها بالورق . كانت تعرف ان الكتب مطلوبة جدا في السجن ، وكانت تود تهريب بعض الكتب الثورية بتغليفها بورق بني اللون وكتابة عناوين على تلك الأوراق مثل « مبادىء الشعب الثلاثة » ، « وأسس اعادة البنــاء الوطني » ، « وخمسة أبطال وسبعة متأنقين » « والرحلة الى الغرب » . وتساءلت وهي تخط هذه العناوين عما يمكن أن يفعله الحراس اذا اكتشفوا ذلك . خاطبت نفسها : « لا تبالي ، فليس ثمة ما أخاف منه ! » كانت واثقة ان الامور ستسير على خير ما يرام ، وان القدر انحنى أمام ارادتها ، وانها غدت الآن قادرة على الوقوف على قدميها .

جاءها تاي يو في تلك الليلة حاملا اليها بعض المنشورات السريــة . كان أنيس الطلعة ، وخاطبها بنغمة خفيفة موزونة . تفحص مسكنها الجديد ، وقال ملاحظا بابتسامة خفيفة : « مكان لطيف حقا ، بسيط يدل على ذوق

طيب . . . هل اتصلت بأحد من الرفاق ؟ من الآن فصاعدا ينبغي ان تكرسي نفسك كلية للعمل الثوري » .

قالت تاو ـ شينغ في فرحة غامرة : « ايها العجوز تاي ، لقد رأيت هسو نينغ ! »

وروت له كيف تم اتصالها به : « على الرغم من انه الآونة في السجن ، فأنا ارى أن قوى الثورة تشعر الناس بها في كل مكان . ان السجن قد قوى عزيمة هسو نينغ ـ أفليس هذا دليلا على قوة الثورة ؟ »

كان تاي يو يدخن لفافة بعد أخرى ، وهو يرفع رأسه بين حين وحين يرهف السمع في انتباه الى حديث تاو ـ شينغ عن نشاطاتها . أومأ برأسه في لطف بعدما انتهت من حديثها ، وقال : « رائع ! أنا أعرف هسو نينغ . وانا واثق أنه سيزداد تحسنا . ألا تعرفين انك تقودين الحزب الشيوعي الصيني حتى في السجن ؟ »

ـ كلا ، أنا لم اعرف ذلك .

وفتحت تاو ـ شينغ « الراية الحمراء للصين الشمالية » التي حملها تاي يو اليها ، وقرأت في رقة : « قاتلوا في سبيل اقامة السوفييتات(١) في الصين الشمالية » . رفعت نظرها في حماسة ، وسألت : « أوه ، أيطلب الحزب الينا اقامة السوفييتات في الصين الشمالية ؟ ما هي الحال الآن ، أيها العجوز تاي ؟ فأنا لا أعرف ما فيه الكفاية عما يجري من أمور . . . » .

ـ هذه المجلة مطبوعة منذ طويل زمن . أتودين معرفة ما هي عليه الحال الآن ؟ حسنا ، ان مد الثورة الصينية يقترب ويقترب ، ولذلك يجب أن نجمع ما فيه الكفاية من القوى لنجني مزيداً من الانتصارات . . . »

وشرع يسهب في شرح النظريات الثورية في بطء ، فأصغت اليه تاو ـ شينغ في توق ، على الرغم من أنها كانت قد سمعت بها أو قرأت عنها من قبل ، تفيض في جوانحها سعادة عثورها على قائد جديد . ومن بعد ، حينما ودعته حتى الباب ، سألته بصورة عرضية : « سأذهب لرؤية هسو نينغ غدا . أتستطيع الذهاب معي ؟ »

هز تاي يو رأسه : « لا تذكري اسمي عند رؤيتك له » .

---

(١) خلال الحرب الاهليـة الثورية أقيمت سوفييتات في المناطق المحررة بقيادة الحزب الشيوعي الصيني .

كان اليوم التالي يوم زيارة للسجن . وبعدما أخذ هسو نينغ الأرغفة أسرعت تاو ـ شينغ الى منزل وانغ هسياو ـ ين . كانت هذه قد اقترحت، في سبيل مساعدة صديقتها على تحصيل ما يقوم بأودها ، ان تغدو تاو ـ شينغ مدرسة خاصة لشقيقتيها الصغيرتين ، وهكذا صارت تمضي بعيد ظهيرة كل يوم هناك . وبعدما تتناول العشاء مع اسرة وانغ المقيمة في المدينة الغربية ، كانت تؤوب الى البيت . كان الطريق مظلما ، ولكنها عزمت على السير على قدميها توفيرا لاجر الركوب . واجتازت جسر بييهاي ومتحف القصر عندما انعطفت سيارة من شارع شينغهاسان الشرقي وتوقفت امامها. لم تلتفت اليها ، بل تابعت طريقها . وفتح باب السيارة ، ووثب منها رجلان ، وسرعان ما قيّد ذانك الرجلان ذراعيها وقد وقف كل منهما عن أحد جانبيها . وبعد برهة خاطفة برز رجل ثالث وكمّ فمها قبل ان يتسع لها الوقت للصراخ . وجروها ، في لمحة خاطفة ، الى السيارة التي لم تلبث أن انطلقت بأقصى سرعتها .

٢٦

كان ذلك أشبه بكابوس بالنسبة الى تاو ـ شينغ . فقبل ان تدرك معنى لذلك الخطف الذي تعرضت له اطبقت يدان خشنتان على عينيها فعصبتاهما بقطعة من القماش الاسود . اربكتها الظلمة المرعبة التي وجدت نفسها فيها فمنعتها عن التفكير في وضوح . وخفق فؤادها مضطربا فيما السيارة تنطلق مسرعة ، فشعرت وكأنها سقطت في هاوية لا قعر لها .

دفعوها اخيرا خارج السيارة ، ورفعوا العصابة عن عينيها والكمامة عن فمها ، وحلوا وثاق يديها . فبدأت تدرك ما حدث لانها تذكرت أن رجال الكيومنتانغ غالبا ما كانوا يقبضون على المشبوهين بمثل هذه الاساليب الشريرة، وان الشبان الذين يختطفون على هذا الفرار نادرا ما كانوا يرجعون.

ـ انا على استعداد للموت اذا كان قد حان أوان تضحية نفسي في سبيل القضية !

فيما هي تتوصل الى هذه النتيجة دفعها الرجال داخل بوابة . تركت عينيها مغلقتين ، جافلتين من مرأى ذلك المكان الشرير . وتصرفت مثل امرؤ حكم عليه بالموت فقبع ينتظر ان يلفظ آخر أنفاسه .

ـ طالبة شابة ! ماذا تفعلين هنا ؟

ـ ما هي التهمة التي أوصلتك الى هذا المكان ؟

ـ لم لا تفتحين عينيك ؟ ليس هذا مكانا تستغرق فيه الراهبات العجائز في التفكير . ففيم تبقين عينيك مغمضتين ؟

فتحت تاو ـ شينغ عينيها أخيرا بعدما أحاط بها عدد من النسوة وباشرنها الحديث . ان الغرفة المظلمة الرطبة المزدحمة والرائحة النتنة جعلاها توقن أنها في السجن وليست في كهف رهيب او ساحة لتنفيذ الأعدام . عرض عليها أحدهم مقعدا ، فجلست على حافة السرير فيما تحلقت بقية السجينات حولها .

سأل عدد منهن في فضول : « لماذا ادخلوك السجن ؟ »

فركت تاو ــ شينغ ذراعيها اللذين ما برحا يؤلمانها من جراء المعاملة الخشنة التي تعرضت لها ، ونظرت في الوجوه الغريبة المحدقة بها : « لست ادري . قبض علي في طريق عودتي الى البيت من عملي في التدريس ، وارغموني على الركوب في سيارة . وعصب بعض الرجال عيني وكمموني وجاؤوا بي الى هنا » .

ــ اوه ، لابد انها سجينة سياسية ! أتساءل لماذا جاؤوا بها الى هنا ؟ فليس هذا مكانك !

كانت المتكلمة مومس نحيلة مدمنة على المخدرات تحت عينيها دوائر سوداء . غضنت حاجبيها وهي تقول ذلك .

فأسرعت تاو ــ شينغ تستوضح في اشمئزاز : « ما هي التهم المنسوبة اليكن جميعا ؟ »

وقبل أن تجيب مدمنة المخدرات شرعت امرأة سمينة ينكشف فمها عن أسنان ذهبية تعدد الجرائم على أصابعها : « ما هي التهم المنسوبة الينا ؟ كل جريمة تحت الشمس ــ البغاء ، والمقامرة ، وتهريب المخدرات ، والسرقة ، والاختطاف ، والفرار من بيت الزوجية ، وتناول الافيون ! »

وفيما هي تذكر الافيون اختلست النظر الى امرأة نحيلة وضحكت ضحكة مكبوتة ، كاشفة عن أسنانها الذهبية .

احمارت المرأة النحيلة غضبا ، وحاولت الاثئار بقولها : « أنت لاتعرفين ! ان لدينا عاهرات ههنا ، وقوادات ، وفاحشات بغاء ــ مجموعة كاملة من الفاسقات المستعدات لكل شيء . وهن يحسبن ان قروح الزهري على وجوههن شيء جدير بالفخار ... »

فقدت المرأة السمينة أعصابها ، فصفعت المرأة النحيلة ، وبصقت في وجهها ، وأثارت ضجة صاخبة كادت ان تشيل سقف الزنزانة النتنة . وملأ الفضاء عويل ، وصراخ ، ولعنات مما ارغم السجانة على الاسراع اليهن واعادة النظام بمجموعة من الشتائم البذيئة . لم تشعر تاو ــ شينغ بغير القرف من ذلك الحشد المتنافر ، وتمنت لو ألقوا بها في سجن المساجين السياسيين حتى ولو كان معنى ذلك اعدامها اخيرا . تطلعت الى النسوة المحتشدات في الزنزانة . كان بعضهن ممن لبسن ثياب الفلاحات قد أحنين رؤوسهن بصورة مكتئبة . ولبس بعضهن الآخر ثيابا مصبوغة ممزقة من

الحرير والساتان وبدا عليهن عدم الاهتمام بما يجري أمامهن فشرعن ينشدن أغنيات داعرة . وكانت أخريات يمضغن الافيون او يضطجعن على أسرة خشبية ينفخن حلقات من الدخان من لفائفهن ، ويدرن بعيونهن هنا وهناك .

تساءلت تاو ــ شينغ ، وقد انتبذت زاوية من الغرفة : « أين رأيت أمثال هؤلاء النسوة من قبل ؟ » وما اسرع أن تخايلت أمام عينيها صور محظيات ابيها ، وملامح وجه رابتها الحقود . وسمعت أغنيات داعرة وقعقعة قطع المهجونغ ، وتذكرت مشاهد ووجوها عديدة نسيتها منذ زمن بعيد . بصقت على الارض في قرف لتحرر ذهنها من تلك المشاهد والوجوه. ولما تبين لها انه ليس ثمة مكان لها على اي من الاسرة ، فقد تقرفصت على الارض في احدى الزوايا ، ودفنت رأسها في يديها ، وتظاهرت بالاغفاء .

كانت أرض الزنزانة رطبة باردة . وحينما اتعبها التقرفص لم تتوانى عن الجلوس . واذ عجزت عن النوم فقد قدحت زناد فكرها لتتذكر كيف استطاع رجال الكيومنتانغ اكتشاف امرها وفيم نقلوها الى السجن . ان كان ذلك بسبب من توزيع المنشورات او اصدقائها الثوريين ، فقد كان ينبغي وضعها مع المساجين السياسيين . ماتزال هنالك بعض المنشورات في جيوب ثيابها في الصندوق ، والمنشورات الممنوعة التي أعارها اياها تاي يو موجودة أسفل الصندوق . وقد يفتش رجال الشرطة ذلك الصندوق ويعثرون عليها . وقد يعدمها الكيومنتانغ من جراء ذلك . ارتفعت حرارتها حينما خطرت هذه الفكرة في بالها ثم شعرت بالبرودة .. فتحت عينيها راغبة عن النوم ، ولم تستسلم له الا قبيل الصباح بقليل .

أخذوها بعيد ظهيرة اليوم التالي للاستجواب . سألها القاضي عن اسمها ، وعمرها ، ومحل ولادتها حينما ظهر من فجوة سوداء خلف المحكمة المقيتة رجل نحيل طويل يرتدي بدلة غربية . اقترب من القاضي وهمس في أذنه لحظات . أومأ القاضي برأسه مرارا . بدا وجه ذلك الرجل مألوفا لتاو ــ شينغ ، ولكنها لم تستطع ان تميزه . لم تكد تسترد وعيها من دهشتها لهذا الانقطاع في الاستجواب حتى التفت القاضي اليها قائلا : « لين تاو ــ شينغ ، تحولت قضيتك الى مركز قيادة الكيومنتانغ . ويخلى سبيلك الآن بكفالة السيد هو مينغ ــ آن » .

ــ من هو هذا الهو مينغ ــ آن ؟ وفيم يكفلني ؟

مشت خارجة من البناء بقلب مثقل وشكوك مهلكة ، واجتازت جدارا

أسود اللون يمنع الاقتراب منه ، والتفتت تلقي نظرة تتأكد فيها من أنها قضت الليل في سجن مكتب الآمن العام . استأجرت عربة ريكشا تقلها الى منزلها مباشرة . وما أن وصلت حتى شرعت تتلفت حواليها لترى ما اذا كان ثمة شيء مفقود . وفتح الباب ودخل منه الرجل الذي أخلى سبيلها.

ـ خشيت ان يكون الرعب قد استولى عليك كثيرا . يا آنسة لين ! وقد جئت اطمئن عنك !

ابتسم ، وخلع قبعته الرمادية الانيقة ، وحياها بانحناءة .

وثبت تاو ـ شينغ كما لو عقصها عقرب . تراجعت وقد شلهاالرعب عن الكلام الى زاوية الغرفة لتحدق في وجه هو الاصفر النحيل وعينيه البيضاوين المتوهجتين . هذا هو المدير هو الذي خطط مع رابتها للزواج منها . لا ريبة انه عميل خاص لمركز قيادة الكيومنتانغ في المدينة .

اهنف قائلا : « لا تخافي الآن ، يا آنسة لين . فأنا لم أرك منذ زمن طويل ، وجئت الآن خصيصا للسؤال عنك . أرجوك أن تجلسي » .

وأشار الضيف لمضيفته الى احد المقاعد . لم تجلس تاو ـ شينغ ، غير أن يو انحنى مرة أخرى واتخذ لنفسه مقعدا .

بذلت تاو ـ شينغ جهدها للتغلب على خوفها واخفاء نفورها من ذلك الرجل . مشت في بطء الى الباب وجلست هناك .

ـ ياللزمن كيف يمر ! فقد انقضت سنتان تقريبا منذ اجتمعنا آخر مرة .

كان هو مينغ ـ آن ، وقد جلس متراخيا . يشعل لفافة بعد أخرى ويتحدث بصوت مترنم لرجل عالم ومهذب .

ـ ذهلت والدتك تقريبا عندما تركت البيت . وقد قلقت أناالآخر . . . أتعرفين مقدار الاعجاب العظيم الذي أكنه لك ، يا آنسة لين ؟ . . . لقد جرحني رحيلك بحيث لم يخطر الزواج لي في بال منذ . . .

أطفأ لفافته بسحق عقبها ، وحدق مترقبا في تاو ـ شينغ التي شابهت في شحوبها صفرة الأموات .

غير أن الفتاة لم تنظر اليه او تفه بحرف واحد .

أشعل يو لفافة أخرى حينما رأى أنها لن ترد عليه . واذ وجد ان كرسيه القاسي غير مريح ، فقد نقله من مكانه قليلا وأسند قمته الى الجدار بحيث يستطيع ان يتراخى عليه مثلما يتراخى على كرسي وثير .

كان ثمة قلق زائف في عينيه اللتين ضاقتا فأشبهتا شقين طوليين : « أنا لا أعتقد أنك تعرفين جميع ماأصاب أسرتك ! فقد توفيت أمك ، ورحل أبوك الى نانكينغ . وانتويت ان أرعى شقيقك الصغير تاو ــ فينغ ، وأجيء به الى هنا للدراسة في بيبينغ . ولكنه اختار الرحيل جنوبا برفقةوالدك . وكلاهما الآن في نانكينغ على ما يخال لي . حسنا ، يا آنسة لين ، سمعت ان لك زوجا تميلين اليه . فلم لا أراه هنا ؟ »

ارتعدت تاو ــ شينغ ، متسائلة كم يعرف عنها من امور . أجابت في برودة . وهي تبدل مكانها قليلا : « اجل ، ان امورنا على خير ما يرام » .

فرنت ضحكته الصاخبة المجلجلة مثل نفخة صفارة في غرفة سوداء صغيرة : « ها ، ها ، ها ! لا تحاولي استحماقي ! على خير ما يرام ؟ لقد افترقتما . بسبب من خلاف وجهات النظر ، أليس كذلك ؟ . . . حسنا . يا آنسة لين ، أعتقد انك في ضائقة مالية . نحن صديقان قديمان . فلا تترددي . اسمحي لي أن أرعى شؤونك . فأنا أعتقد أنك تعرفين ما حدث لي . فخلال السنتين الأخيرتين صارت الامور جيدة بالنسبة الي . ولدي دخل كبير جدا بالنسبة الى رجل عازب . . . »

لم تعد تاو ــ شينغ تستطيع ضبط نفسها أكثرمما فعلت. فبصقت جوابها من خلال اسنانها المنقبضة المشمئزة : « أن كانت لك مآرب عندي. فاعلنها صراحة . لماذا جعلتهم يعتقلونني ؟ ولماذا كفلتني ؟ أنا لا أريد أن أسمع شيئا بخصوص الماضي . أسرتي وأنت لا تعنيان شيئا بالنسبةالي » .

سر هو مينغ ــ آن من أنــه استطاع ان يرغم تاو ــ شينــغ على الكلام ، فاعتدل في جلسته ، ووضع لفافته . وحنى رأسه مصغيا في مزيد من الانتباه . وحينما انتهت من كلامها ابتسم لها في هدوء والتقط لفافته من جديد : « هذه أسئلة سهلة للاجابة عنها . لقد اعتقلوك لان الفوج الثالث للشرطة العسكرية يعرف أنك تشاركين في النشاطات الشيوعية . ومــن حسن الحظ انني كنت ، عندما سمعت بذلك . قادرا على كفالتك باســم مركز قيادة الكيومنتانغ . . . لا تكوني سخيفة الآن ، يا سيدتي الشابة العزيزة ! تمالكي نفسك ! لقد قمت بهذا العمل ، كما تعرفين ، لانني أحب الشبان وأرغب في انقاذهم . . . »

أومأ برأسه وعلى وجهه علامة الراضي عن نفسه ، ثم تشدق في نغمة متصنعة : « ان عدد الشبان الذين ضللهم الحزب الشيوعي لم يكن صغيرا ،

وهذا ما أخشاه . ولكنني لم أكن اعتقد يا آنسة لين انك يوم غادرت منزلك كي تشقي طريقك في هذا العالم ستكونين احدى ضحاياهم . ذلك مالم يخطر لي في بال على الاطلاق! ذلك مالم يكن يخطر لي في بال على الأطلاق ! »

تنهد مرارا ، وهو يميل بكرسيه الى الوراء اكثر من قبل للحصول على مزيد من الراحة ، وتابع يقول في بطء : « ليس هنالك ما يثير قلقك ، يا آنسة لين . ان شيئا لن يؤذيك طالما أنا أساعدك . حتى لو قمت بنشاطات ضد الجمهورية ، فأنا أعدك . طالما أنك تتلقين مساعدتي ... »

نبرت تاو ـ شينغ ، وقد هزها الغضب ، وقدحت عيناها شررا :
« أنا لم أقم بأي عمل ضد الجمهورية ! ولست في حاجة الى مساعدتك ! لقد ادركت مراميك الخفية منذ زمن بعيد . وأعرف من تكون ! وليس هنالك شيء مشترك بيني وبينك . وأنا لا أريد وعودك ، أنا لا أريد شفقتك ! والسلطات تستطيع ان تفعل بي ما تشاء ! »

اختفت ابتسامة هو ، وانعصر وجهه النحيل فكأن احدهم انهال عليه صفعا . ولما كان رجلا عركته التجارب فقد خلع على ملامحه مسحة الرضا . وقال في هدوء ، وهو يطيل النظر الى تاو ـ شينغ التي اضفى عليها شحوبها مزيدا من الفتنة والجمال : «أرجو ألا تسيئي فهمي ، ياآنسة لين ! نستطيع ان نتحدث بصراحة كصديقين قديمين . أتعرفين مدى خطورة التهم الموجهة اليك ؟ من تراه ذلك الانسان الذي وزع جميع تلك المنشورات الدعائية الشيوعية في جميع شوارع بيبينغ ؟ ومن بعث منشورات الى عدد من المدارس ؟ ومن شارك في أعمال الشغب الشيوعية المدمرة في بيبينغ؟ وصندوق من يحوي منشورات ووثائق شيوعية ؟ ينبغي أن تعرفي خطورة جميع هذه التهم ، ولا حاجة بي الى مزيد من القول . والقائد شيانغ هسياو هسيين لا يعرف الرحمة ــ فهو يقتل الناس دون ان يطرف له جفن . وبعدما تجمعت لديه جميع هذه المعلومات عنك فهو يريد ان ينظر قضيتك بنفسه . وهكذا ترين ، يا آنسة لين ، ان وضعك محرج للغاية ... أنا لا أسألك ان تشكريني ، ولكن الحقيقة هي انني تكبدت كثيرا من المتاعب لتحويل قضيتك الى مركز قيادة الكيومنتانغ في المدينة . والقضية قد يكون من السهل تسويتها وقد يكون ذلك صعبا ، وهذا أمر يتوقف على الموقف الذي ستتخذين . أنا واثق انك ذكية بما فيه الكفاية ، ، يا آنسة لين ،

بحيث لا تصرين على نطح الجدار برأسك . وطبيعي انك لا تريدين اضاعة حياتك الثمينة هدرا ؟ »

ثمة تهديد لاريب فيه وراء هذه المحاضرة الحماسية المقنعة التي أطلق في ختامها تنهيدة عميقة وكأنه يبدي معها تعاطفا وديا .

ظلت تاو – شينغ جامدة خلال هذا البيان عن نشاطاتها ، وقد تضاعف حزنها وخوفها من اكتشاف العدو لأسرارها جميعا . عضت شفتها وحاولت الا ترتعش ، وهي تتساءل في يأس : « كيف تراهم عرفوا ذلك ؟ »

خرخر هو مينغ – آن ، وهو ينهض في روية ، ويخطو ناحيتها ويضع يديه على كتفيها : « لا تقلقي ، يا سيدتي العزيزة ، ففي مقدورك الاعتماد علي . . . »

صرخت تاو – شينغ ، وهي تثب الى طرف المنضدة الآخر : « لا تجرؤون على لمسي ! »

وتحدته ، وهي تنظر في عينيه بثبات لاهثة الانفاس : « أنت تتحدث عن منشورات ، عن أعمال شغب ، عن الحزب الشيوعي – وهذه كلها كذبة دنيئة ! ما هو الدليل الذي تملكه ؟ »

نظر هو مينغ آن اليها دون ان يعطيها جوابا ، ثم التقط حقيبة جلدية كبيرة عن المنضدة . تناول منها ببطء عددا من المنشورات الحمراء والخضراء ، ومجموعة من المجلات ، ونشرها أمامها في افتخار ، وسأل مبتسما : « ما هذه ، يا سيدتي الشابة ؟ »

بينما هي تنظر الى المنشورات المألوفة لديها التقطت عيناها الحروف البراقة التالية : « الحزب الشيوعي الصيني » ، كما لمحت أن « راية الصين الشمالية الحمراء » التي أعطاها لها تاي يو قد وقعت في يدي العدو ايضا . كان قلبها يلتهب ، وكانت على أهبة الاستسلام للبكاء . أبدا من قبل في حياتها لم تعرف مثيلا لهذا الحقد المسعور . ان جميع احقادها الماضية على والدها ورابتها ، على المجتمع واولئك الذين اضطهدوا وأهانوا امها مثلما اضطهدوها وأهانوها ، تنصب الآونة على هذا الرجل الذي سرق لها منشوراتها . حملقت فيه بقوة ، ووجهها الشاحب ينقلب قرمزيا ، والغضب ينسيها انها تتعامل مع عدو ماكر . صاحت في براءتها بصوت متهور : « المنشورات ملكي ! وأنا التي وزعتها على مختلف المدارس . . . أنا أكرهك ! أنا أكرهك ! فافعل ما لديك من افعال شريرة ! »

انعصر وجه هو مينغ ـ آن مرة أخرى ، غير أنه ضحك مبديا عدم مبالاته ، وقال : « أنا شديد الاسف بالنسبة اليك ، يا آنسة لين ! فيم تفقد انسانة مثقفة مثلك احساسها بالتوازن فجأة ؟ لا تكوني حرونا . لابد انك متعبة جدا . حاولي ان تنالي قسطا من الراحة . سأذهب الآن ، ولكنني سأعود اليك في فرصة أخرى » .

أغلق حقيبته ولبس قبعته . واستدار في طريق خروجه يومىء لها ايماءة وداع ، في حين كانت هي واقفة أمام النافذة مبهورة الابصار : « فكري في الامر مليا . استخدمي ذكاءك ، يا سيدتي الشابة العزيزة . فلست أريد مضايقتك الآن » .

٢٧

افاقت تاو ـ شينغ في صباح اليوم التالي منهكة القوى بعد ليلة لم تعرف للنوم فيها طعما . ولم تكد تنهض من سريرها حتى جاء هو مينغ ـ آن وقد ارتدى بدلة بنية أنيقة ، وحمل حقيبته الكبيرة في احدى يديه وباقة من الورد في الآخرى .

انحنى انحناءة عميقة ، ووضع الورد في اناء زجاجي ووقف الى جانب الباب يشعل لفافة ، وهو ينظر اليها بصورة جانبية : « سعدت صباحا ، يا آنسة لين ! لقد بكرت في النهوض » .

اشتد احمرار وجه تاو ـ شينغ حينما وقعت عيناها على باقة الورد . رغبت في أن تلقي بورود هذا الرجل البغيض خارجا . ولكنها تمالكت نفسها ، ووضعت يديها المنقبضتين وراء ظهرها .

راح كل منهما يراقب الآخر في صمت طويل برهة .

قال هو أخيرا : « رأيت البارحة أنك غير صافية المزاج . »

وأسند كرسيا الى الجدار وتهالك عليه كما لو كان مضنى من الانهاك . وتابع يقول في صراحة ، وهو يراقبها عن كثب : « ولذلك لم أكمل ما اردت ان أقول . واليوم لاريبة أنك أكثر هدوءا بحيث نستطيع ان نتحدث بشكل لائق » .

وأشعل لفافة أخرى ، وطرف بعينيه متفكرا ، ثم استدار مبتسما الى تاو ـ شينغ التي لم تتحرك من مكانها : « باعتباري صديقا قديما للعائلة ، يا تاو ـ شينغ ، فأنا مهتم بك كثيرا . لا أريد ان اتحدث عما جرى بيننا سابقا ـ فأنا أؤمن بالحرية في الحب ، ولن أكرهك على شيء . ولكنه ينبغي أن أوضح لك مقدار حبي لك واحترامي . خلال السنتين المنصرمتين ظللت أفكر فيك كل يوم . قد لا ترغبين في سماع ما اقول ، ولذلك لن أحدثك عنه الآن على الاطلاق . فأنا مؤمن بأن الاخلاص المطلق

سيحرك المشاعر في قلب من الحجر ، ان لم نقل قلبك ، حينما يحين الاوان . اما في اللحظة الراهنة فلنتحدث عن موضوع أكثر الحاحا . في الليلة الماضية هتف لي شيانغ هسياو – ين مرةاخرى يسألني عن قضيتك . فهو يوليها اهتماما خاصا ويريدها ان تسوى في أسرع وقت ممكن . وأفضل ما كان يمكنني ان افعل هو أن أحضر اليك اليوم لتحذيرك » .

سحب نفسا عميقا من لفافته ، ثم رماها وقد احترق نصفها . وأغلق عينيه برهة في تفكير صامت ، ثم فتحهما من جديد ليقول مبتسما : « تاو – شينغ ! انت في وضع خطير من دون ريب . يجب ان تثقي بي وتؤمني اني أرعى مصلحتك في صميم قلبي . أنت أكبر من فتاة صغيرة بقليل ولا تعرفين تعقيدات هذا المجتمع وشروره . الحزب الشيوعي يدعي انه سينقذ البلاد ، وشعبنا والعالم بأسره ، في سبيل قيادة الشباب الى الضلال . لكم خدع شبانا وشابات ! فهل يمكن ان يتم انقاذ العالم بواسطة قليل من الحماسة العمياء ؟ وهل يمكن انقاذ مجتمع متعفن تماما مثل مجتمعنا الصيني بواسطة شباب متحمسين من امثالك ؟ أفيقي ، يا آنسة لين ، أرجوك ! وانظري الى الحياة في وضوح أكثر ! وعندها سترجعين عن الطريق الخاطئة التي مشيت عليها » .

مثل هذا الحديث كان يصرّ في أذني تاو – شينغ ويصب الالم في فؤادها . صاحت محتجة ، دون ان تفقه معنى لكلماتها : « كفّ عن هذا الهراء ! فأنا ارفض الاصغاء اليك » .

تابع يقول ، وهو لا يبرح يبتسم ويضطجع الى الخلف وكأن شيئا لم يحدث : « لا تكوني طائشة الى هذه الدرجة الآن ، ياآنسة لين ! فما فائدة ذلك ؟ كثيرون من الشبان ، حينما يتم اعتقالهم لاول مرة ، يحاولون التظاهر بالشجاعة . ويبدو ان قيامهم بذلك هو امر مطابق للزي الحديث . ولكنهم حمقى ، حمقى حتى مخ عظامهم » .

هز رأسه معبرا عن اشفاقه ، وضرب الارض باحدى قدميه تعبيرا عن توكيده . وبعدما انتظر عبثا جوابا منها ، تابع يقول : « هذا الشاب هسياو – هسيين لايعرف الشفقة . ليلة البارحة اعدم خمسة عشر شيوعيا آخر ، جميعهم شباب في مقتبل العمر ، لطفاء ، مفعمون بالامل ، بينهم ثلاث فتيات . أرجوك ان تفكري ، يا تاو – شينغ ، هل ذلك جدير

بالاهتمام ؟ فيم تضحين بحياتك الغالية هباء ؟ هل يغدون هـذا العالم فردوسا على الارض لأن بعضا منكم يموتون ؟ »

ـ النفوس الصغيرة الوضيعـة لا تستطيع ان تفهم قضية بطوليـة رائعة ! تحدث في صميم الموضوع ، يا سيد هو . ان كان شيانغ هسياو ـ هسيين قد ارسلك لاعتقالي ، فلسوف أذهب معك ! »

كانت تاو ـ شينغ ، وعيناها تنظران من النافذة ، تتحدث في مزيـد من الهدوء الآن .

ـ هيا الآن ، يا آنسة لين ، فهـذه ليست قضية مزاح ! وكأنني أستطيع ان اقوم بمثل هذا العمل ! لو كنت مسؤولاً لكان الامر في غايـة البساطة . من سوء الحظ انك وقعت بين يدي شيانغ هسياو ـ هسيين الذي وافق على اخلاء سبيلك حينما أصررت انا على كفالتك . أريد ـ ويجب علي ـ ان اجد وسيلة لانقاذك ! »

ومضى الى المنضدة حيث كانت حقيبته ملقاة وأخرج لفة من الاوراق النقدية . وراح يقترب من تاو ـ شينغ في بطء وقد مد يده لها بالنقود ، وهو يستحثها قائلا : « خذي هذا المبلغ واشتري لنفسك بعض الثياب الجيدة ، يا آنسة لين . الحياة تنطلق بسرعة . ولقد عرفت كثيرات مـن الجميلات ، ولكن ايا منهن لا يمكن ان تقارن بك . . . لا تغضبي الآن ، فهو مبلغ صغير » .

وقفت تاو ـ شينغ هنالك وقد ابيض لونها مثل صفحة من الورق ، جامدة مثل تمثال .

ـ أرجوك أن تأخذيه ! خذيه في يديك البيضاوين !

وامسك بها من يدها ، وهو يختلس اليها نظرة جانبية .

طاخ ! وطارت رزمة الاوراق النقديـة فاصطدمت بوجهه النحيـل المعبر عن الرضى قبل ان تتبعثر على الارض . فصعق طوال لحظة .

ومن بعد ، وبحركات سريعة رشيقة ، ألقت تاو ـ شينغ ورود هو مينغ ـ آن الى الباحة ، واندفعت راكضة صوب البوابة الأمامية . فسد طريقها رجل كريه المنظر ، وهو يزمجر : « ابقي في مكانك ! »

كان عميلا سريا مسلحا وقف عند البوابة بحيث لا تستطيع الى الهرب سبيلا . فتراجعت متقهقرة في فزع واستندت الى الحاجز الموضوع عنـد مدخل الباحة الداخلية لاسترداد انفاسها . وحينما هدأت قليلا خطت

تحت شـجرة ليلك . وتاهت عيناهـا على طول أبواب الغرف الاخرى في مجموعة تلك المنازل ، باحثة عن مكان تلجأ اليه . ولكن الابواب جميعـا كانت مغلقة . لاريب ان السكان شعروا ان شيئا مغلوطا قد وقع فأغلقوا الابواب على أنفسهم .

واذ تأكدت تاو ـ شينغ ان لا سبيل الى الهرب ، فقـد استعدت لمواجهة الاحداث .

صاح هو مينغ ـ آن ، وهو يندفع الى الباحة بعدما جمع اوراقـه النقدية : « قفي ثابتة ! لا تتحركي ! » لقد تلاشت العناية المفرطة التي ابداها قبل لحظات . سدد مسدسه اليها مثل أحد قطاع الطرق . كانت عيناه تلتهبان ، وصوته يرتجف غضبا ، وهو يشخر : « أنت تستأهلين أسـوأ مصير ممكن » . وكشف عن أسنانه ، وهز مسدسه ، وشتم : « ايتهـا العاهرة ! الا تعرفين انك مجرمة شيوعية ذات شأن ؟ الا تشعرين بالخجل؟ كنت احاول انقـاذك بدافع من الرقـة في قلبي ... ولكنك رفضت ان تثوبي ... ايتها العاهرة الوقحة ! » .

وقفت تاو ـ شينغ هادئة تحت شجرة الليلك ، وشمس الصبـاح الباكر تضيء وجهها الشاحب الخالي من أي تعبير . لم تكن خائفة كما لم تكن غاضبة . كانت فيما وراء التفكـير والاحساس . ولو أطلق الوغـد الرصاص عليها لما كانت حاولت أن تفر . غير أن هو مينغ ـ آن كان يخادعها . وحينما ادرك لا مبالآتها الواضحة أطلق سيلا من الضحكات المزوجـة بالغضب ، وقال : « أنت شجاعة ، أليس كذلك ؟ لقد ضربتيني ! لقد جرؤت على ضربي « أنا » ! ... سأمنحك فرصة اخرى لانك شابة . سـيكون لديك ثلاثة أيام تفكرين فيها . وبعد ذلك ، اذا لم تظهري شيئا من علائم التوبـة ... »

ورماها بنظرة بشعة وبصق في قرف : « فعندها ، يا سيدتي الشابة ، لا تستطيعين أن تلومي هو مينغ ـ آن مهما حصل ! »

ومضى خارجا ، وحقيبته تحت ابطه .

حينما وثقت تاو ـ شينغ ان مضطهدهـا قد ذهب حقا آبت الى غرفتها وانهارت مترنحة على أحد المقاعد وهي تشعر بالوحدة والضعف اكثر من أي وقت آخر في حياتها . وبدت لها غرفتها الصغيرة فسيحة

الارجاء هادئة منذرة بالسوء ، واعقاب اللفائف مبعثرة على أرضها وكل شيء في فوضى . اسندت راسها على المنضدة ، واستسلمت للبكاء .

ـ لا تبكي على هذا المنوال ! من كان ذلك المتنمر الذي كان ههنا قبل قليل ؟

شعرت تاو ـ شينغ بيد تربت عليها فرفعت عينين مروعتين فوجدت أربعة او خمسة من جيرانها ، وهم طلاب في جامعة بكين ، يقفون حواليها. كانت تلك التي خاطبتها فتاة هيفاء جميلة لم تكن تعرف اسمها . وكانت الوجوه جميعا تبدي اهتماما بالغا بها .

ـ من كان ذلك المتنمر ؟ ماذا كان يريد ؟ ...

سألت الفتاة في حماسة ، بينما وقف الرجال الاربعة ينظرون اليها في اهتمام زائد . تأثرت تاو ـ شينغ كثيرا . استجمعت اطراف شجاعة جديدة ، ونهضت ، وقدمت لهم مقاعد . ثم جففت عبراتها وروت لهم تفاصيل ما حدث معها خلال الأيام القليلة الماضية . فصاحت الفتاة الاخرى في صوت ناقم : « يا للحيوانات ! ياللحقارة الدنيئة ! »

هز رجل في حدود الثلاثين من عمره راسه ، يضع نظارة على عينيه ويرتدي ثوبا طويلا ، وزم شفتيه في غضب . قال : « ياللفكرة ! يهددك بمسدس ! تستطيعين الاشتكاء عليه في المحكمة ومقاضاته . »

وأعلن طالب شاب مبتسما : « لا تصدق ذلك ، ايها الاخ تينغ ! فأنت تضيع وقتك كله على هذه الامور القديمة ولا تعرف شيئا عما هو عليه العالم في هذه الايام . انت لن تنال شيئا اذا ذهبت الى المحكمة . ولو ذهبت الى حكومة نانكينغ فلن تحصل على اية فائدة ـ فجميعهم عصبة واحدة . فليس ثمة عدالة في المجتمع الراهن » .

وتبادل الشبان النظر . انهم يتعاطفون مع جارتهم التعيسة ، ولكنهم لا يجدون لها مخرجا .

قالت تاو ـ شينغ في لطف : « شكرا لكم جميعا . فأنا لست الوحيدة بين الضحايا ... »

فوافق أحدهم على قولها على نحو شفوق فيما كان الرجال يخرجون من الغرفة وهم يتنهدون : « هذا صحيح ! ... »

بعدما خرجوا ضغطت الفتاة على يد تاو ـ شينغ في حنو ، واقترحت قائلة : « هل أذهب وابعث اليك وانغ هسياو ـ ين كيما تناقشي الموضوع

معها ؟ أعرف انكما صديقتان حميمتان . وبالمناسبة ، فأنا ادعى لي هواي ــ ينغ ، زميلة دراسة لهسياو ــ ين » .

ــ سأذهب بنفسي .

ــ كلا ، يفضل الا تذهبي . قد يكون هنالك بعض الجواسيس ينتظرونك خارجا . فثمة عددمن الرجال يقفون عند البوابةمنذ عدةلحظات .

ولوحت لي هواي ــ ينغ بيدها في لطف ، وانطلقت مثل السنونو .

لم تذق تاو ــ شينغ طعاما عند الظهر او في المساء . وحينما خيمت العتمة كانت لا تبرح مستلقية على فراشها ، وفكرها في دوامة والقلق يمزقها . عرفت انها في مأزق خطير . لم تكن الامور هينة مثلما تخيلتها خلال قضائها الليل في السجن . كانت تتوقع أن تموت وبذلك تنتهي جميع بلاياها ، ولكنها نجت من الموت وصار عليها أن تواجه أزمة شديدةالتعقيد . وهذه هي الآونة ، بدلا من نشدانها الموت ، تتحرق للثأر لنفسها من هو مينغ ــ آن ، والنضال ضد الأوغادالشريرين الآخرين من أمثاله . كانت تعرف انها ضعيفة لا حول لها ، وانها وحيدة وحيدة من دون رفيق او أسرة تمدها بالمعونة ؛ فقد اعتقل لو شيا ــ شوان وهسو نيينغ ، وهي لا تعرف متى يزورها تاي يو ولا تعرف سبيلا للاتصال به فماذا ينبغي عليها أن تفعل ؟

فتح الباب ، وتناهت اليها أصداء خطوات خفيفة وصوت لي هواي ــ ينغ الرقيق يستوضح : « لماذا لم تشعلي النور؟ هل ضجرت من الانتظار؟ »

اشعلت تاو ــ شينغ النور وأخذت يد هواي ــ ينغ الصغيرة الباردة في يديها .

قالت هواي ــ ينغ في صوت خفيض : « التقيت بوانغ هسياو ــ ين! كان القلق يقتلها عليك . ولكنها لم تجد سبيلا اليك . ذهبنا معا لرؤية هسو هيو التي كانت عضوا في لجنة اتحادنا الطلابي ، فخطرت لها خطة . وسوف تأتي لرؤيتك في غرفتي بعد ظهر الغد . واليك هذه الرسالة من هسياو ــ ين » .

عبرت تاو ــ شينغ عن شكرها وقد سرتها هذه الانباء : « هسوهيو؟ أنا اعرفها ! »

وسألته عن مزيد من الانباء عن هسو هيو ، غير أن هواي ــ ينغ قالت : « سأرجع الى غرفتي . يبدو ان ثمةرجالامن الشرطة السريةيتجولون

في الخارج طوال الوقت . قالت هسو هيو انه يجب أن نأخذحذرنامما نقول عندما نكون معا ، ويجب الا نبقى مع بعضنا فترات طويلة . يحسن بك الا تخرجي حتى ولا الى منزل هسياو ـ ين » .

في الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم التالي ، وحينما كان الطلاب يدخلون الى النزل ويخرجون منه بعد انتهاء دروسهم ، عرجت على هواي ـ ينغ فتاة هيفاء مفعمة حيوية ترتدي ثيابا عصرية . وحينما رأت تاو ـ شينغ من خلال شق بابها انها هسو هيو التي امسكت برئيس السجن الداخلي السادس في اجتماع الاحتفال بذكرى الثامن عشر من آذار هرولت الى غرفة هواي ـ ينغ للقائها . نهضت هسو ـ هيو سريعا ، وابتسمت ، وامسكت بيديها .

شرحت قائلة : « لين تاو ـ شينغ ! لم أرك منذ زمن بعيد بعيد . يا للمفاجأة السعيدة أن أجدك هنا ! ... »

أغلقت هواي ـ ينغ الباب وخرجت تبتاع شيئا يؤكل .

كانت تاو ـ شينغ مضطربة بحيث عجزت عن الكلام ، وهي تمسك بيد هسو هيو .

تبسمت هسو هيو لها ، وقالت : « تاو ـ شينغ ، أصحيح انك طلبت الى وانغ هسياو ـ ين ان تساعدك في توزيع المنشورات ؟ »

التمعت عينا تاو ـ شينغ وومض وجهها القلق بالغبطة . وأومأت برأسها في لطف : « أجل ! فهل فعلت ذلك أيضا ؟ »

كانت عينا هسو هيو براقتين يقظتين : « فلنكف عن الحديث حول هذا الموضوع الآن ! ارجو ان تخبريني ماذا كان يحدث معك ؟ » .

وصفت لها تاو ـ شينغ كيف تم اعتقالها ، وكيف التقت بهومينغ آن . أصغت اليها هسو هيو في انتباه ، وأحيانا كانت تهز رأسها في ابتسامة متسامحة ، وأحيانا تقطب وجهها وتربت على كتف تاو ـ شينغ . وقدمت لها اخيرا رأيها مثلما تفعل صديقة قديمة : « تاو ـ شينغ ، يجب الا تنزعجي اذا انا قلت لك ما يجول في فكري . شجاعة انت بما فيه الكفاية حينما يحتاج الامر الى القتال ، وانا أحب صراحتك واخلاصك ، ولكن تكتيكك غير صحيح . ما الذي ارغمك على أن تخبري ذلك السفاح بالحقيقة ؟ تلك كانت حماقة كبيرة حقا . ما كان ينبغي ان تعترفي انك وزعت تلك المنشورات ! واخبريني ، كيف تراهم اكتشفوا حقيقتك ؟ أتعرفين ذلك ؟ » .

قبضت تاو ـ شينغ على يد هسو هيو وقد احمر وجهها ، وبكت وهي تتطلع في عينيها البراقتين : « ايتها الاخت الكبيرة هسو ! اني ارى الآن مقدار ما كنت عليه من الحماقة ! لست أستطيع أن افهم قضيةاعتقالي على الاطلاق . انها تربكني تماما . فماذا تنصحين لي ان افعل ! »

وارتسمت ملامح التفكير على وجه هسو هيو : « هم ... ماذا تنوين ان تفعلي ؟ »

ـ احب أن أهرب، ولكنني لا أعرف كيف افعل ذلك .

فضحكت هسو هيو ضحكة مكبوتة : « انت على حــق ! يجب أن ترحلي ! قرري ذلك وسنساعدك » .

رجعت هواي ـ ينغ في تلك اللحظة حاملة قليلا من الفول وبذور البطيخ والتفاح البري . وما أن دخلت حتى همست برقة في أذن تاو ـ شينغ : « ثمة شخص ينتظر رؤيتك خارجا » .

فأجفلت تاو ـ شينغ : « من هو ؟ »

هزت هواي ـ ينغ رأسها : « لست أعرفه » .

وثبت تاو ـ شينغ ونظرت الى هسو هيو بعينين قلقتين ، وكأنهــا تسألها « ماذا أفعل ؟ » فهمست هذه الاخيرة في هدوء تنصح لها مما اضاء وجهها بابتسامة مشرقة .

٢٨

ركضت تاو ـ شينغ الى الساحةلرؤية زائرها ، فوجدته فتى غريبا اشقر البشرة يرتدي بدلة على الطراز الغربي يقف خارج الباب . اسرع صوبها ، ونظر اليها في انتباه ، وامسك بيدها ، وهو يقول : « أختاه ، ألم تعرفيني ؟ »

هتفت تاو ـ شينغ مهتاجة ، وقد عرفت فيه أخاها الاصغر الذي غدا شابا مديد العود منذ آخر مرة رأته فيها قبيل ثلاث سنوات : « تاو ـ فينغ ! » .

أدخلته الى الغرفة ، وقالت له ضاحكةوقد تناست جميع متاعبها : « ادخل ، يا اخي ، واجلس ! ماذا اصابك واصاب الاسرة خلال السنوات القليلة الماضية ؟ » .

وبدلا من ان يتخذ لنفسه مقعدا انتصب تاو ـ فينغ في وسط الغرفة يتطلع حواليه كمن يثمن الاشياء التي تقع عيناه عليها . شمل الاثاث بنظرة متفحصة مثلما شمل ثوب شقيقته وبدا ان ذلك أثار فيه شيئا من خيبة الامل .

ـ سمعت أنك تزوجت ، يا أختاه . فلماذا تقيمين في مكان مثل هذا المكان تكسبين قوتك بعرق جبينك ؟

ـ بلى ، فأنا اكسب قوتي من عرق جبيني هنا ، يا اخي . هلا جلست!

أخرج تاو ـ فينغ منديلا مسح به الغبار قبل ان يطيعها .

سأل مبتسما : « وأين هو صهري ؟ وماذا يفعل لكسب قوته ؟ هل هو ثري جدا ؟ »

تضايقت تاو ـ شينغ قليلا : « فيم تسأل عنه ؟ لقد هجرته منذ زمن طويل . اخبرني اين تعيش الاسرة الآن . ومن اين انت قادم ؟ »

كانت تكره اسرتها ولم تتصل بها منذ سنوات ، ورغم ذلك فقدكانت تبدي شيئا من الاهتمام بها بين حين وآخر .

قال في شيء من اللامبالاة : « ماتت أمنا العام المنصرم . وقد اقمت مع والدنا خلال السنتين الاخيرتين . . . أتعرفين أنه غدا موظفا مرةاخرى؟ ومنزلنا في نانكينغ – اعني انـه يعيش في نانكينغ ، بينمـا اعيش انا في شنغهاي . ولم أخبره انني ادرس في جامعة اورورا هناك » .

– لماذا جئت الى بيبينغ اذن ؟ واين هو والدنا ؟

اخرج تاو – فينغ منديلا رائعا : « والدنا ؟ ان الرجل العجوز في عوز الى المال ، وعلى الرغم من ان الارض الواقعة خلف السور العظيم قد بيعت فهو لم يقبض الا ثمنا تافها ويريدني ان اذهب الى المستأجرين واضغط عليهم للحصول على مزيد من النقود . وقد رحل الى جيهول ، وتركني هنا لاحاول وأضمن مساعدة محظية السكرتير العام لحكومة جيهول الريفية . ومن الصعب جمع شيء من المال من اولئك المستأجرين الملعونين دون اللجـوء الى استخدام القوة » .

في تلك الآونة فحسب انتبهت تاو – شينغ الى بدلة شقيقها الاجنبية المكوية جيدا ، وشعره المرجل ، ومظهره المغرور الضحل : « هذا هو الشاب الذي انتهى اليه اذن . . . »

وعقدت حاجبيها ، واقتربت منه عاجزة عن منع نفسها عن ان تجادله: « تاو – فينغ ، لا تمدد يد المساعدة لوالدنا في مثل هذا العمل الشرير ! فان مستأجري الارض معدمون بما فيه الكفاية ، لا يملكون ما يأكلون اويلبسون . وفضلا عن ذلك ، فان تلك الارض قد بيعت – فكيف يمكنه ان يعتصر مزيدا من المال منهم ؟ بعدما اعتصرهم عصرا يريد ان يسرق ملح جروحهم !»

واسترسلت تقول في حمية ، وقد استثيرت الاثارة كلها : « تأكدت الآن ، يا أخي ، ان والدينا يحملان وزرا كبيرا كالوزر الذي نحمله أنا وانت . لقد نشأنا أنا وأنت على دم هؤلاء المستأجرين . وطريق والدي سـوف توصل الى الموت ، وهي الطريق ذاتها التي سارت عليها أمنـا . ولكننا مازلنا في ريق العمر ، وفي مقدورنا السير على طريق مختلفة . . . »

أخرج تاو – فينغ لسانه لمثل هذا الحديث ، وقاطعها قائلا : «اصغي ، يا أختاه ، فان لدي صديقة . اسمها كاو لينغ – لينغ وهي باهرة الجمال . تنحدر من أسرة ثرية وهي ملكة جمال الجامعة . نحن مخطوبان ، ووالدي يقول اذا استطعنا ان نجمع قليلا من المال لقاء ارضنا الواقعة خارج السور العظيم فلسوف ينفقه على زواجنا . « لقد غرست الانانية في قلب الرجل

من قبل السماء » . وطالما انني لااستطيع ان اجعل جميع اولئك المستأجرين المعدمين أثرياء ، ففي مقدورهم أن يسهموا في بناء سعادتي » .

انفجرت تاو ــ شينغ وهي تسمع هذه الانانية الساخرة ، ونبرت في احتجاج : « يا اخي ! كيف يمكن ان تكون الى هذا الحد وضيعا خسيسا ؟ فكر فيما تهرف به ! انت تتحدث مثل احد الملاكين او الرأسماليين ــ الا تعرف أن هذه الطبقات لا مستقبل لها ، وانها عرضة للدمار ؟ ... » .

نسيت في اهتياجها وجعها الخطير ، فوصفت النضال الطبقي والتطور المستقبلي للمجتمع الانساني .

اصغى تاو ــ فينغ في نفاد صبر متعاظم الى ان لم يعد في طوقه الاحتمال اكثر مما احتمل . فنهض على حين بغتة ، والتقط قبعته ، وقال في ضحكة معنفة : « لا تهرفي ، يا اختاه ! انت شيوعية . أليس كذلك ؟ حسنا ، هذه ليست قضية مزاح » .

حذرها في صوت مخفوض ، وهو يتظاهر أنه يقطع عنقها بيده : « انتبهي الا تخسري راسك ! » .

بقيت تاو ــ شينغ واقفة في مكانها فترة مديدة بعد رحيله . اسفت على ما نطقت به ، فوبخت نفسها كمن اصيب بالدوار ، قائلة : « يالي من حمقاء ! هل ينبغي ان اعرّي قلبي لمجرد انه شقيقي ؟ »

وتذكرت تحذير هسوهيو من ان تقول الحقيقة لاي من الاعداء . بدأت تهدأ تدريجيا وهي تتذكر همسة صديقتها اثناء الوداع : « ابقي في غرفتك حتى الليل حين يجيء شخص يساعدك في الهروب ، لكن لاتذكري كلمة واحدة لاي انسان كان » .

رفعت يدها ، ضاحكة ، الى وجهها المحترق وهمست في حنايا نفسها : « يالي من حمقاء اذا قورنت بها ! »

لقد بارحها احساسها بالوحدة ، فقد امدها العطف والدفء الحقيقيان اللذان حصلت عليهما بشجاعة كبيرة . ليبدونّ انه ان استطعت ان تبقى عائما في البحر وتناضل في سبيل البقاء فلن تغرق ابدا . وفيما هي تهيء حاجياتها راحت تتساءل ماذا سيحمل لها الفصل الجديد في حياتها . وومض في ذهنها بحدة سؤال من اسئلة هسو هيو : « كيف تراهم اكتشفوا حقيقتك ؟ »

كيف ؟ ... وضعت تاو ــ شينغ مجلد « موسوعة العالم » الـذي كانت تحمله وجلست على السرير تفكر . بالاضافة الى يونغ ــ تسي ووانغ هسياو ــ ين ، فان تاي يو هو الوحيد الذي كان قريبا منها ويعرف كل شيء عن امورها . وفكرت في نفسها : ان يونغ ــ تسي لا يمكن ان يصل الى حد التبليغ عنها ، في حين ان هسياو ــ ين الصريح المستقيم يمكن ان يثق به المرء كثيرا . أما تاي يو ــ وهو ثوري ــ فكيف يمكن ان يفعل شيئا مثل هذا ؟ لم تصل الى نتيجـة لان الدهشـــة كانت قد سيطرت عليها سيطرة كاملة .

وتذكرت كلمات هسو هيو مرة اخرى ، فضحكت موبخة نفسهـا : « لماذا قلت الحقيقة ؟ ان ذلك حماقة كاملة ! خونة ــ اتعتقدين انه ليس ثمة خونة في معسكر الثورة ؟ »

لقد اخبرها لو شيا ــ شوان في آخر لقاء لهما أن كثيرين من اصدقائه قد اعتقلوا نتيجة لوشاية الخونة بهم . أحست ، وهي تذكر ذلك ، أن أكثر تصرفات تاي يو كانت عرضة للشكوك ... ولكنها سرعان ما عنفت نفسها : « كلا ، لا يمكن ان يكون ذلك ! » وطردت عنهـا تلك الشكوك في سخرية . وفي ساعة متاخرة من تلك الليلة اضطجعت في الظلمة وشرعت تدير في رأسها أسئلة عديدة لا حصر لها ، عاجزة عن ايجاد جواب عنها . وتاقت الى انسان تستشيره وقد اثقلت على كاهلها قضايا عديدة . لكم كانت الامور تختلف لو كان لو شيا ــ شوان معها الآن ! وثبت حينما خطر في بالها ، واشعلت النور وجلست الى المنضدة لتخط أشياء كثيرة ارادت أن تعالنه بها .

كتبت : « أيها الاخ لو » ، ثم شطبت هذه الكلمات وبدأت من جديد ، وقد حذفت اسمه هذه المرة :

يا ناصحي وصديقي العزيز ،

اكتب لك في بيبينغ في التاسع عشر من تشرين الاول ١٩٣٣ . انـا لا أعرف في أي سجن أنت الآن أو أعرف شيئا عما تعاني من صعوبات . ولكنني اشعر انه يجب أن أكتب اليك ، يا صديقي ، لان لدي اشياء كثيرة للقول ، أشياء كثيرة أقولها لك . دعني اولا أعالنك بأكثر أخباري اهمية ، وهي أخبار انا موقنة انها تسـرك . لقد كففت عن التردد ، وشاركتك

بصورة عازمة في السير على الطريق التي تسير أنت عليها . كما تدبرت أمري للتغلب على مواطن الضعف البورجوازية الصغيرة الخطيرة ـ الارتباط العاطفي بالماضي والتعاطف المشوش مع الآخرين بغض النظر عن المبدأ . لقد بدأت انطلاقة جديدة في الحياة. وكيما اكون أكثر دقة فقد هجرت يونغ‍ـتسي . يؤلمني ، يا صديقي ، أن أفكر في السنة التي تصرّمت . فان التفكير فيها يشعرني بالذنب . في تلك الامسية التي ذهبت فيها لرؤية الاخت لي غادرت انت البيت قبل ان اعود ، وبعيد ذلك بفترة قليلة تم اعتقالك . وسوف لن اصفح عن نفسي ابدا لانني خذلتك حينما كان الخطر يحـدق بك . ولن أكون قادرة على أن اكفّر عن ذلك . ولكنني لن اسمح للنـدم أن يستولي علي ، كما لن اطلب صفحك . ان جميع ما اريد ان اقول لك هو هذا : لقد اعتقلوك ، ولكنني انضممت الى الصفوف . وانا اؤمن ان آلاف الشبان الآخرين من امثالي يسيرون قدما ايضا . وطبيعي انني عديمة الخبرة الى حد بعيد ، ولا يمكن ان اقارن بك بوجه من الوجوه .

توقفت بعد هذه السطور التي خطتها واستغرقت في التفكير فترة طويلة . وفي الخارج كانت الريح الغربية تصفع الاوراق المتساقطـة على النوافذ الورقية . كان الخريف في أخرياته ، وكانت ترتدي ثيابا خفيفة . كانت الريح الباردة التي تنفخ من خلال الشقوق في النافذة تجعلها ترتعش . وفي الوقت ذاته كان الشعور الجديد في قلبها قد ساعدها على نسيان البرد والخطر المحدق بها ، وساعد أفكارها وقلمها على التحرك بسرعة .

يا صديقي العزيز والأكثر احتراما ، شيء آخر اريد ان أخبرك بـه هو انني مررت بتجربـة صغيرة . فالرجعيون كادوا ان يدمروني تدميرا كاملا . ولكنه حينما بلغت الاوضاع ذروة خطورتها بحيث لم أعـد اجد لها مخرجا ، مد لي الحزب ـ أمنا العظيمة ـ يد المعونة . وهكـذا على الرغم من قلقي وشقائي فأنا سعيدة جدا . الحزب ـ من خلالك انتـ انار لي الطريق حينما ضعت في دوامة ، ولما واجهني الخطر وقامت في وجهي المهاوي المخبأة في طريق مسيرتي قدما هب الحزب الى نجدتي مرة اخرى ... انا لم اسلم من الخطر بعد ، ولكنني واثقة انني سأكون في مأمن . انا سعيدة جدا عندما افكر ان حياتي الآن تشبه حياتكم ـ ملأى بمغامرة عظمى .

وآخر كل شيء ، يا صديقي العزيز والاكثر احتراما ، اريد ان اخبرك شيئا من اعماق قلبي ، شيئا لم أملك يوما ما يكفي من شجاعة للجهربه... ارجو الا تضحك عندما اقول لك انه حينما تطالع عيناك هذه الرسالة فلسوف تكون ناظرا الى قلب صريح صادق ... لا تضحك علي ،ياصديقي! انا لن انساك عمري ، ابدا ! وأيان كنت ، حيا ام ميتا ، ومهما تبدلت الظروف والاوضاع او مهما اشتد سؤوها ، فلسوف تبقى حيا في فؤادي. متى يتاح لنا ان نلتقي مرة اخرى ؟ هل يتاح لنا ان نرى بعضنا مرة اخرى ؟ ... أعيش على أمل مجيء مثل هذا اليوم . فاذا جاء وانا على قيد الحياة ، فلكم ستكون سعادتي عظيمة ! يا صديقي ، هل يتاح لنا ان نلتقي مرة اخرى ! اعن بنفسك جيدا .. ان تصميمك الثابت في القتال سيبقيك منبع وحي في عيني .

حينما أنهت تاو ــ شينغ الرسالة قرأتها مرارا وتكرارا . فبدت أضأل من ان تكون رسالة خطتها الى لو شيا ــ شوان منها رسالة نجح في ارسالها اليها في صعوبات لم يجرؤ أحد على التصريح بها . استغرقت في قراءتها كلية ، فجرفتها انفعالات قوية انستها الخطر المحدق بها مثلما انستها محنتها .

سألت نفسها : « كيف يمكن ان ابعث بها اليه ؟ »

لمست الرسالة بأصابعها وابتسمت في ضوء الفجر العاتم . انها رسالة لن يتاح لها أن تصل الى صاحبها على الاطلاق .

٢٩

دلفت وانغ هسياو ـ ين الى غرفة ابيها صامتة مكتئبة الطلعة ، وكأن شيئا يئيد على ذهنها .

سألتها أمها في شيء من القلق : « ما الامر ، يا هسياو ـ ين ؟ هل تقلقك دروسك ؟ »

فهزت رأسها ، نبساء الوجه ، في طريقة غير مألوفة منها : « كلا! »

ـ ما الامر اذن ؟ أخبرينا !

اسندت هسياو ـ ين رأسها على المنضدة دون ان تنطق بحرف .

مشى البروفسور وانغ اليها ورفع رأسها وهو يومىء في وداد : « ليس هنالك ما تخفيه عن ابيك ، يا ابنتي . هيا ، ماذا يزعجك ؟ »

تطلعت في يأس من ابيهاالى أمها ، وقالت : « ابتاه ، ينبغي انتساعدني!»

ـ حسنا ، قولي ما الامر ، يا ابنتي ؟

ـ تاو ـ شينغ في خطر رهيب يهددها به رجال عصابة الكيومنتانغ . وانا آسفة من اجلها لانها تكسب قوتها بعرق جبينها . يجب أن نجدمخرجا لمساعدتها ، يا ابتاه !

كانت الدموع تترقرق في عيني هسياو ـ ين .

حدق البروفسور وزوجه في ابنتهما مشدوهين وهما يستوعبان ذلك الخبر .

ـ لقد وعدتهاان نساعدها . ويجب ألا نخيبأملها ، يا ابتاه . يتملكني الغضب حينما افكر في المصائب التي عصفت بها !

وروت لابويها بالتفصيل الاحداث التي مرت بها تاو ـ شينغ . وحينما انتهت رفع البروفسور وانغ هونغ ـ بين نظارته عن عينيه ولوّح بها في الهواء ، وانهال بقبضته على المنضدة . وصاح : « هذا غير معقول على الاطلاق ! غير معقول ! »

وتوقف عند هذا الحد للسيطرة على انفعاله ، ثم تابع في صوت أكثر هدوءا : « حسنا ، يا هسياو ــ ين ، لا تقلقي ، واخبري تاو ــ شينغ الا تقلق أيضا . سنجد مخرجا لها كيفما كانت الحال » .

ابتسمت هسياو ـ ين . ان الخطة التي رسمتها مع هسو هيو قد اثبتت فعاليتها تماما . كانت تعرف أن عمتها في تينغهسيين الى الجنوب الغربي من بيبينغ تدير مدرسة ابتدائية وفي حاجة الى معلمات ، والعمل هنالك يبدو حلا معقولا لمشاكل تاو ــ شينغ . كانت خائفة من أن تخاطب والدها بصورة مباشرة ، فراحت تحوّم حول الموضوع لاستثارة سخطه وشفقته معا . وقدانتهى كل شيءعلى ما أمّلت، لان البروفسوروانغ اقترح رأسا ، دون ان يُطلب منه ذلك ، ان يوصي بتاو ــ شينغ لدى شقيقته . وبعيد ذلك ، وبناء على طلب هسياو ــ ين ، ذهب أبعد مما كان سيطلب منه فوعد ان يوصل تاو ــ شينغ الى المحطة لضمان هروبها من بيبينغ . وحينما سويت هذه الامور كلها فقد حذر ابنته في حياء : « هسياو ــ ين ، من واجبنا ان نساعد لين تاو ــ شينغ ، لكن اياك في المستقبل ان تتدخلي في شؤون الناس الآخرين . يستحسن ان نترك السياسة وشأنها : وكلما أهملنا الالتفات اليها كان ذلك افضل . واجبك هو ان تدرسي ــ ولا شيء آخر » .

فأومأت ــ هسياو ــ ين : « أوافق ، يا أبتاه . فانا لا أعرف شيئا في السياسة . ولكنني قلقة بشأن تاو ــ شينغ . فأنا آسفة من أجلها » .

في صباح اليوم التالي عرّجت هسياو ــ ين لزيارةتاو ــ شينغ حاملة معها سلة كبيرة من الفواكه . نادت بصوت عال قبل ان تدخل الى غرفتها على خلاف عادتها : « ما الامر ، ياتاو ـ شينغ ؟ فأنت لم تأتي الى منزلنا لاعطاء الدروس يومين كاملين . امريضة أنت ؟ طلبت الي أمي أن آتي لمعرفة الامر » .

غصت تاو ــ شينغ . وتعانقت الصديقتان وعجزت كلتاهما عن الكلام طوال فترة . مسحت هسياو ــ ين عينيها اخيرا ، وهمست : « يجب أن تكوني جاهزة في الساعة السابعة مساء للرحيل عن بيبينغ . ستذهبين الى تينغهسيين للتعليم في مدرسة عمتي . ستجدين ثياب رجل مخبأة في السلة . وقد رتبنا الامور بحيث يحضر عدد من الطلاب الى غرفة لي هواي ــ ينغ والاخريات بعيد الساعة السادسة للذهاب الى السينما . وتستطيعين

الانضمام اليهم مرتدية ثياب رجل وقبعة حينما يخرجون من البوابة » .
همست هسياو ـ ين هذه السطور كلها دون أن تأخذ نفسا . وتوقفت وقد خطر لها انها لم توضح الامر جيدا ، ومدت بصرها من النافذة ، وتابعت في صوت خفيض : « تظلم الدنيا في الساعة السابعة ، فيسهل عليك الانسلال بين الحشد والصخب دون ان يلحظ ذلك أحد . انتبهي ان يكون تنكرك جيدا ! شدي كتفيك الى الوراء بحيث يحسبونك صبيا . قد لا يخطر لنا هذا في بال ، غير ان هسو هيو واثقة من تواجد بعض الجواسيس في الخارج . وهي تسألنا ان نكون حذرين » .

ابتسمت هسياو ـ ين واخذت نفسا عميقا . ثم رفعت من نبرة صوتها ، وقالت : « يا تاو ـ شينغ ، امي قلقة عليك ! ولو لم تكن اليوم مشغولة لجاءت اليك بنفسها » .

اجابت تاو ـ شينغ ، وهي تعقد حاجبيها : « ليس هنالك ما يبعث على القلق . سوف اكون احسن حالا في غضون يوم او يومين » .

ثم همست قائلة : « لكم أنا ممتنة لك ولهسو هيو لمساعدتكما ... لكن افترضي انه حدث خطأ ما وتورطت في الموضوع ، فماذا يحدث ؟ »

ـ لا يقلقنك ذلك . تقول هسو هيو ان هنالك اخطارا ينبغي ان نتحملها ان كنا نريد الوصول الى نتائج .

ابدا من قبل لم تكن هسياو ـ ين على مثل هذه الاثارة . مسحت على يدي تاو ـ شينغ الباردتين ، وتطلعت في وجهها المضنى مباشرة ، واسترسلت تقول في صوت قلق مرتفع الرنة : « يبدو عليك انك منحرفة الصحة ! وانك لم تأكلي منذ عدة ايام . اذهبي وتناولي طعاما في المطعم الصغير عند البوابة . أحقا انك لا تريدين شيئا ؟ »

ثم خفضت صوتها ، وأكملت تقول : « تقول هسو هيو انه يجب عليك ان تأكلي . فاذا اجعت نفسك فلسوف تمرضين ... أوه ، ياويلتي! لقد نسيت شيئا على درجة كبيرة من الاهمية . حينما تخرجين في هذه العشية انطلقي مباشرة الى انعطافة البناء الاحمر وهنالك تجدين سيارة في انتظارك يركب والدي ووالدتي فيها ـ على اهبة الاستعداد لنقلك الى المحطة » .

استدارت هسياو ـ ين للذهاب بعدما قالت هذه الكلمات . ولكن تاو ـ شينغ قبضت على ذراعها واخرجت من جيبها رسالة كانت قد

كتبتها في الليلة المنصرمة ، وترجمتها قائلة : « ارجو ان تعطي هذه الى هسو هيو . قولي لها اني أكون شاكرة اذا استطاعت ايصالها الى لو شيا — شوان » .

كررت هسياو — ين الاسم في انشداه : « لو شيا — شوان ؟ »

— أجل ! ارجوك الا تنسي ، وحاذري أن تضيع منك !

ابتسمت هسياو — ين لصديقتها ، وانطلقت خارجة دون ان تفوه بكلمة أخرى .

بقي ذهن تاو — شينغ بعد ذهابها موزعا بين عدد من المشاكل . كانت سلة الفواكه التي ستساعدها على الهرب موضوعة على كرسي لا ظهر له، لكن ، ترى ، هل تنجح المحاولة ؟ ... ان الايام الثلاثة التي منحها اياها هو مينغ — آن قاربت على الانتهاء . ولم تكن قادرة على تحمل التفكير فيما قد يحدث في الغداة — ما لم يتح لها أن تهرب في هذه العشية ...

— ماذا يدور في خلدك ، يا تاو — شينغ ؟

أثارها صوت خفيض ، فرفعت رأسها ، فوجدت تاي يو امامها . كان يرتدي بزة طلابية قطنية مهملة ، ويحمل رزمة صغيرة ملفوفة في صحيفة . نهضت على الفور ، ووضعت سلة الفواكه تحت المنضدة كيما تهيء له مقعدا : « كنت أرجو أن تحضر ، أيها العجوز تاي . أنا مسرورة جدا بلقائك ! » .

كانت الشكوك التي تملكت تاو — شينغ في الليلة المنصرمة قد جعلتها على شيء من الحذر تجاه تاي يو ، ولكن حذرها تقابله حاجتها الى صديق . صافحته بحرارة وود ، وقدمت له مقعدا .

أشعل تاي يو لفافة بعد ان اتخذ لنفسه مقعدا ، وراقبها طوال فترة قبل أن يتكلم . تلك كانت عادته ، لذلك لم تعره تاو — شينغ أي اهتمام.

قال : « كيف كانت تسير الامور معك هذه الايام ؟ أمازلت تعلمين؟»

— حسنا ...

كانت متضايقة قليلا ، فتساءلت ما اذا كانت ستخبره عن آخر تطورات قضيتها ، ولكنها قبل ان تعزم رأيها ، أشعل تاي يو لفافة اخرى واسترسل قائلا : « لا يبدو عليك أنك في صحة جيدة . هل كنت مريضة؟»

فأجابت : « كلا ، ولكنني مررت بأشنع تجربة وارهبها » .

كانت تشعر انه من الخطأ ان تصون متاعبها عن صديق ثوري يبدي بها اهتماما ، على الرغم من ان بعض تصرفاته كانت تثير التساؤل والشكوك.

اجاب تاي يو في وداد، وهو يسترق النظر اليها من عينيه الحسيرتين: « ماذا حدث ؟ »

فقدمت له عرضا مختصرا عن اعتقالها ومضايقة هو مينغ – آن لها. ولما كانت مشغولة بالاستعداد لتلك العشية ، فلم تكن ترغب في الاطالة في الحديث مع أي كان .

سأل تاي يو ، وهو يحملق فيها : « لماذا ، هذا شيء لا يصدق ! ان لذلك الرجل حدودا . واولئك الرجعيين لايملكون شيئا من الخجل».

– ماذا تعتقد انه يجب أن أفعل ، ايها العجوز تاي ؟ لقد منحني ثلاثة أيام – وقد انقضى منها يومان .

نظر تاي يو الى الارض متفكرا طوال برهة . ثم نقر على المنضدة في شيء من القلق ، وسأل : « ما هي الخطط التي رسمت للخروج من هذا المأزق ، يا تاو – شينغ ؟ انني أرى انك في وضع بالغ الخطورة » .

– ايها العجوز تاي . . .

وكادت ان تروي له خطة هسو هيو حينما ومضت في ذهنها تحذيرات صديقتها بأن تلتزم السرية المطلقة في عملها فمنعتها عن ذلك . فبدلت من نبرة صوتها قائلة : « انني فقدت صوابي . لقد لازمني القلق ثلاثة ايام بحيث لم أذق شيئا من الطعام » .

رفع رأسه وتحدث في وقار : « أهذا ما حصل ؟ حسنا ، يجب أن تجدي لنفسك مخرجا – هل خطر لك مرة ان تهربي ؟ »

– كلا . فليس ثمة مكان ألجأ اليه ، ولو كان ثمة مثل هذا المكان فأنا لا أعرف كيف اهرب . الا تعتقد ان هنالك بعض الجواسيس يربضون في الخارج ؟ فلا أجرؤنّ على الخروج . وقد امتنعت عن الذهاب لاعطاء الدروس طوال عدة ايام .

أصغى تاي يو دون ان يبدي شيئا من الاهتمام. كان رأسه منحنيا، وكان ينفخ دخان لفافته ويبدو كمن يفكر في شيء في ذهنه . وظل صامتا فترة .

كانت تاو – شينغ تنقر بقلم على المنضدة ، ممتلئة سخطا وخيبة أمل . لمَ لم يعرض عليها معونته مثلما فعلت هسو هيو ؟ فيم هو

هادىء الى هذا الحد ؟ راحت تراقبه في صمت . وقف فجأة ، ونفض بعض الغبار عن ثيابه وقال في هدوء : «لا تقلقي ، يا تاو ــ شينغ . عاملي ذلك الشاب يو كما ترينه مناسبا . سأذهب للعثور على طريقة اساعدك بها . وحينما اصل الى شيء محدد فسأجيء اليك واطلعك عليه» .

فقالت تاو ــ شينغ في برودة ، وهي تشعر بالقرف : «شكرا لك » .

هز تاي يو يدها المثلجة ، ثم استدار وخرج من الساحة .

ــ قد يجد طريقة تخرجني من مأزقي ــ لكن الوقت قد فات .

جلست على سريرها مستغرقة في التفكير ، غافلة عن مشروع هروبها الى ان وقع بصرها على سلة الفواكه التي ذكرتها بوجوب البدء في استعداداتها .

نهضت على الفور وأخرجت البدلة الغربيـة . كانت الساعة قـد جاوزت الرابعة ، ولم يبق غير أقل من ثلاث ساعات على الوقت الذي حددته هسياو ــ ين . كانت تاو ــ شينغ تحمل البدلة على صدرها عندما دخل شقيقها مرة أخرى . كان يبدو عليه الخوف والغم . وكان شعره مشعثا . وثيابه مجعدة ومن دون رباط عنق . جلس على المقعد دون ان ينتبه الى ماذا كانت شقيقته تضع في حقيبتها وما اذا كان المقعد نظيفا أم لا ، وثبت عينين حمراوين على تاو ــ شينغ .

قال : « أختاه ، لقد اعتقلوني . يجب أن تنقذيني ! »

اجفلت تاو ــ شينغ : « ماذا ؟ هل اعتقلوك ايضا ؟ »

ــ اجل . بعيد ساعتين من خروجي من عندك اعتقلوني . وقد ضربني رجال الشرطة ، قائلين انـا وانت شيوعيان ندبـر مؤامرة . أثمـة شيء آخر يمكن أن يكون أكثر ظلما ؟

وأخرج منديله يمسح به عينيه : «انقذيني ، يا أختاه ! انت الوحيدة التي يمكنها انقاذي ! »

ــ كيف استطيع « أنا » أن أنقذك ؟

خفض تاو ــ فينغ رأسه ، وهو يمسح عينيه ويضرب الارض بقدمه : « خطر لي أول الامر انهم سيضربونني حتى الموت ، وفي آخر لحظة جـاء سيد يدعى هو وانقذ حياتي . كان بالغ اللطف . قال لي انه يعرفك وانك تعرفين كيف تنقذينني . وهكذا ارسلني الى هنا » .

خفضت تاو ــ شينغ رأسها غارقة في التفكير لحظات . ان نصيحـة هسو هيو والدرس المرير الذي تلقته من لقائها الاول وشقيقها جعلاها تلتزم

الحذر. وفي هذه المرة لم تخاصم شقيقها تاو ـ فينغ أو تهاجم هومينغ ـ آن. رفعت رأسها بعيد لحظة صمت ، وقالت في صوت لطيف : « لا تنزعج ، يا أخي . اذن فأن السيد هو يسألني ان انقذك ؟ مما لاريبة فيه انه يجب أن ابذل طاقة جهدي لمساعدة شقيقي ، لكن . . . »

فسألها في فرحة مدهوشة : « لكن ماذا ؟ »

ـ لكن السيد هو نافد الصبر كثيرا ، وهو صارم خشن . فقد جاءني قبل البارحة يهددني بمسدسه ، وظل جواسيسه طوال يومين يراقبونني. وقد خفت كثيرا بحيث لم آكل او أنم . اذا تبدلت هذه الحال ، فلربما عندها استطيع . . . »

وتوقفت عن الكلام مبتسمة .

تلاشى القلق المرتسم على وجه تاي ـ فينغ . اخذ ذراعها وضغط عليها بشدة : « شكرا لك ، يا أختاه ! وشكرا باسم لينغ ـ لينغ أيضا . انت طيبة جدا من دون ريب . هل قلت ان السيد هو صارم وخشن ؟ في رأيي انه رجل لطيف جدا » .

وهمس في أذنها ، وهو يبتسم ابتسامة حيية : « يبدو انه غارق في الحب ـ وهو ثري جدا » .

احمارت وجنتا تاو ـ شينغ . وبذلت جهدها لكبت غضبها ، وأجابت ببساطة وهي تهز رأسها : « لا تهرف ! فهو ليس طيبا . . . لكن ، قل لي، كيف يتوقع مني ان انقذك ؟ »

ـ حسنا ، انه يقول اذا كنت توافقين . . . قال انـه حدثك وانك فهمت . وانا واثق انك اذا كنت لطيفة معه فلسوف يسرّ كثيرا » .

تمتمت تاو ـ شينغ في صوت مرتبك : « كيف يمكن ان اوافق ؟ لقد منحني ثلاثة ايام للاجابة ، وقد تبقى يوم واحد قبل ان ينتهي الموعـد ، ولذلك يجب علي أن أفكر في الامر مليا . اذهب وقل له انه اذا ظل يضغط علي ويبعث جواسيسه لمراقبتي فلسوف اعالنه بالرفض الجازم . أما اذا ابدى نحوي احتراما ولطفا فلسوف اعطيه جوابا حسنا بعد غد » .

سأل تاو ـ فينغ في قلق : « ماذا سـيكون جوابك ؟ مـن أجلي ، يا أختاه ، من اجل والدينا اللذين أنا ولدهما الوحيد ، ومن أجلك انت ، وافقي على ما يقول ! »

دفعته ناحية البــاب ، وهي تقول : « لا تقلق . بعد كل شيء أنــا لا أريدك أن تقاسي،كما أنه يجب علي أن أفكر في سلامتي ايضا. اذهب فقط واخبره بما قلت لك » .

ــ شكرا ، يا اختاه ، وشكرا من لينغ ــ لينغ ايضا ! سأمضي مباشرة واخبر السيد هو انك ستعطينه جوابا بعد غد .

انحنى لها في ابتسامة متوسلة ، وخرج من الغرفة .

مشت معه الى البوابة حيث كانت ثلاث عربات ريكشا في الانتظار . قالت : « لاتقلق الآن ! » .

كان هنالك شرطيان سريان وقف كل منهما عن احد جانبيه ودفعــاه الى العربة الوسطى وانطلقوا جميعا . وفيما تاو ــ شينغ واقفــة عنــد البوابة ، رجّع شقيقها نظره اليها بعينين تشبهان عيني حمل يقاد الى الذبح . مست تلك النظرة جوارحها وبدأت تشفق على ذلك الشــاب البريء . رجعت الى غرفتها بقلب مثقل . ووثبت بعد عدة لحظات من التفكير ونظرة عازمة على وجهها ، واستحثت نفسها : « ناضلي ! لاسبيل الى مزيد من التردد ! » ثم تناهى اليها صدى خطوات مضطربة فيالساحة، يتبعها انفجارات من الضحــك . كان عدد من الزوار يتجمعون في غرف صديقاتها . وكان الطــلاب يتحدثون ويضحكون مــلء اصواتهم ، فدب النشاط في النزل على حين فجأة في الظلمة السائدة .

ارتجت تاو ــ شينغ الباب وبدلت ثيابها بسرعة ، فلبست أكبر عدد ممكن من الثياب تحت قميصها وبنطالها . ثم رجلت شعرها بنشاط . في أية لحظة الآن قد تعلن الساعة السابعة . فراح قلبها يخفق بعنف اسرع وأسرع .

* * *

القسم الثاني

١

بمعونة البروفسور وانغ وزوجه ركبت تاو ــ شينغ القطار الى تينفهسيين حيث غدت معلمة في المدرسة الابتدائية القائمة خارج البوابة الشرقية . وأحبَّها التلاميذ لحميَّتها وعملها الدؤوب ، كما أن المديرة الصارمة وانغ ين ــ وين ، عمة هسياو ــ ين ، كانت تمتدح على الدوام هذه المعلمة الشابة التي أوصاها شقيقها بها .

كانت تاو ــ شينغ لا تبرح تشعر بشعور من العبث ، وشوقها الى بيبينغ يزداد ويزداد ، وتتوق في حنان الى حياة مفعمة بمغامرة بطولية ، وتحلم أبدا بزيارة غير متوقعة من لو شيا ــ شوان أو بعض الثوريين الآخرين . وكان الزمن يمرُّ دون أن تصلها كلمة واحدة من أولئك الرفاق الذين تحمل في جوانحها لهم أعمق الاحترام والتقدير ، ولم تكن لديها أية وسيلة تمكّنها من معرفة مكانِ وجودهم . وعلى الرغم من أنها واصلت مراسلتها لهسو هيو ، وراحت تستمد الالهام والشجاعة من رسائلها ، فقد بقيت غير راضية ، شاعرة أن شيئا هاما في حياتها ينقصها.

وهكذا انصرمت عدة شهور .

ذات يوم ، في الربيع ، تلقت رسالة من هسو هيو تخبرها أن تنتظر زائرا يدعى شيانغ هوا ، وتطلب اليها أن تجد له عملا في تينغهسيين . فلم تعرف غبطة تاو ــ شينغ حدودا . قرأت الرسالة ، ووضعتها في درجها ، وتبسمت . بعيد لحظات قرأتها مرة أخرى وابتسمت من جديد. ورغم أن الرجل لم يكن لو شيا ــ شوان ، أو أيا من معارفها القدامى ، فقد كانت واثقة انه واحد منهم ــ ثوروي . أطلقت لتصوراتها العنان والرسالة

لاتبرح في يدها . هل تراه يبدو رجلا مثل لو شيا ــ شوان أو هسونينغ؟. واحمارّت وجنتاها حينما تأكد لديها كيف راحت أفكارها تجول هنا وهناك . وأخذ خيالها يجمح بها مثلما يفعل دائما .

وسرعان ما أفسح الهياج مكانا للقلق . ان هسو هيو تطلب اليها ان تجد لشيانغ هوا عملا . لكن كيف ؟ والى من تلجأ ؟ تركتها هذه المعضلة ساهرة الليل بطوله ، وانطلقت في بكور الصباح الى مديرة المدرسة مباشرة ، وقالت لها : « ان أحد أبناء عمي اضطر الى ترك دروسه ، يا آنسة وانغ . وهو قادم الى هنا ، ويريدني أن أعثر له على عمل . أيمكنك تقديم شيء من العون ؟ » .

بوغتت وانغ ين ــ وين تقريباً ، وهزت رأسها متشككة ، وقالت وهي تبتسم : « لقد بدأ الموسم الدراسي منذ زمن طويل ، وليس ثمة مكان فارغ هنا .. لم أكن أعرف ان لك ابن عم . أهو ابن عمك حقا ؟ »

كانت المديرة ، وهي عانس تجاوزت الاربعين ، تتشمم رائحة الغرام سريعا .

ضحكت تاو ــ شينغ ضحكة مرتبكة : « لاتسخري مني ، يا آنسة وانغ ! فأنا أحتاج الى معونتك . انه يدعى شيانغ هوا ، وهو طالب في جامعة بكين . أرغمه ابوه مؤخرا على الزواج من فتاة لم يرَ وجهها . رفض وانفصل عن أسرته ، فوجب عليه أن يترك الجامعة للعثور على عمل . ان لك قلبا طيبا ، يا آنسة وانغ ، وأنت تعرفين عدداً كبيرا من الناس في تينغهسيين . فمدي له يدَ معونة !» .

واحمرّ وجهها ، وخفق قلبها بشدة ، وهي تسرد هذه القصة الملفقة بعناية .

أقنعت كلمة « الزواج » وحماسة تاو ــ شينغ مديرة المدرسة أن الشاب لابدّ أن يكون حبيبها . صمتت لحظة ، ومن بعد أومأت برأسها: « الا صبرا ، يا تاو ــ شينغ . سنحاول أن نجد عملا حينما يصل.متى يكون هنا ؟ »

ضحكت تاو شينغ غبطة ، وأمسكت يد العجوز شاكرة : « سيصل سريعا . ستساعدينا ، أليس كذلك ؟ ان لك قلبا رائع الطيبة ، ياعمتاه ! »

أطالت مديرة المدرسة الهيَّابة المحترسة النظر منقِّبة في وجه تاو ـ شينغ اللطيف ، وقالت : « آه منكم ، أيها الشبان ... » وتلاشى صوتها الناعم الذي كان يرنُّ بالاعجاب .

لم تعد تاو ـ شينغ ، بعيد انتهاء المدرسة في عصر ذلك اليوم ، تطيق أن تبقى في البيت . ذهبت الى المحطة القائمة خارج البوابة الغربية للقاء شيانغ هوا ، ولم تدرك عملها الاحمق الا بعد وصولها الى هنالك . سوف لن يكون في مقدورها أن تتعرف على الضيف المنتظر حين وصوله ! فقفلت راجعة وهي تشعر بالاكتئاب .

ذات عشية ، بعيد أسبوع من ذلك ، جاءها البواب وأخبرها أن السيد شيانغ يطلب رؤيتها . ركضت لملاقاته ، فوجدته شابا مديد القامة ، قوي البنيان ، أسمر البشرة ، منتصبا عند البوابة . كان يلبس قبعة عتيقة من اللباد ، وبدلة رمادية من القطن مقفلة حتى العنق ، يبدو أشبه ما يكون بطالب بسيط القيافة من احدى الكليات ، أو موظف في أحد المكاتب الحكومية . سألته ، وقد توردت وجنتاها ، بعدما تأكد لها أن أحداً لايقف قريباً منهما : « ما اسمك ، من فضلك؟ ومن أين أتيت ؟ » .

أجابها في هدوء ، وهو يومىء برأسه : « أنا شيانغ هوا . وقد أرسلتني هسو هيو » .

تناولت تاو ـ شينغ حقيبته وصحبته الى غرفتها . أغلقت الباب بعد دخولهما ، وهمست تخاطبه وكأنهما من قدامى الاصدقاء : « تذكَّر أنك ابن عمي ، طالب في جامعة بكين . لاتنسَ ذلك عندما تتحدث مع الناس الآخرين . يجب أن تتفق رواياتنا ، كما تعرف ! » .

هزَّ شيانغ هوا رأسه مصادفة ، وجلس وهو يبتسم . استندت تاو ـ شينغ على منضدتها ، وراحت تنظر اليه مترقبة . كان يبدو مثل شاب غريب ، وقد جلس هنالك هادئا يراقبها في صمت ودود . كانت مرتبكة بحيث لم تجرؤ على مباشرة الحديث ، كما أن شيانغ هوا بقي صامتا طوال فترة من الزمن . كان صوته خفيضا عميقا ، وكانت له لكنة شمالية .

ـ كيف اتفق لك أن عرفت هسو هيو ؟ منذ متى وأنت هنا ؟

وشرعت تاو ـ شينغ ، وقد شعرت أنه راغب في معرفة شيء عن خلفيتها ، تروي له بالتفصيل قصة قدومها الى تينغهسيين . كانت تتحدث بسرعة ، رافعة صوتها بصورة غير متعمدة . وكان يشير اليها أن تخفضه ، فتذعن مبتسمة . اخبرته كيف كانت تترقبه في قلق ، كما أعلمته أنها سألت الآنسة وانغ أن تجد له عملا . واستفسرته أخيرا عما اذا كان رأى هسو هيو قبيل مغادرته بيبينغ .

قال : « شكرا على العناء الذي تجشمتِ من أجلي . أنظري ، لقد جئتك برسالة » .

أخرج من جيبه رسالة أعطاها اياها : « كتبت هسو هيو هذه الرسالة كيما تروي لك كل شيء عني » .

تحدث ببساطة وفي صميم الموضوع،وكان تصرفه طبيعيا ومخلصاً .

فتحت تاو ـ شينغ الرسالة متسائلة لِمَ لَمْ يعطها اياها من قبل. وتورّد وجهها بعد قراءتها .

ـ ما أعظم سروري بمجيئك ! انت لاتعرف كم كنت أتوق ، في كل لحظة من لحظات النهار ، الى انسان يتصل بي ... وقد بعثت بك هسو هيو الآن !

أخفى شيانغ هوا دهشته وقال في تبلّد ، وهو يتطلع في وجه تاو ـ شينغ المهتاج المتلهف : « هل تناولت عشاءك ؟ أنا لم أفعل ذلك !»

ـ أوه ، يا إلهي ! كيف لم أفكر في ذلك ! لقد أثارني الاهتياج بحيث نسيتك . لقد تناولنا عشاءنا فعلا ، لكن ذلك لايغفر لنا ألا نذكر حاجاتك . رويدك لحظة . سأجيئك بشيء تشربه وأطلب الى البواب أن يشتري وجبة خفيفة من أي طعام كان .

خرجت مسرعة ، ورجعت بعد لحظات تحمل ابريقا من الشاي الساخن . صبّت له قدحا ، وهي تقول : « لابدّ انك لهوف الظمأ » .

شرب شيانغ هوا قدح الشاي في جرعات قليلة . وجلست تاو ـ شينغ بعدما صبت له قدحاً آخر من الشاي الى جانب المنضدة. قالت ، وقد حنت رأسها قليلا الى أحد الجوانب : « ماذا جاء بك الى هنا ؟ وأين كنت تعمل قبلا ؟ »

في تلك اللحظة دخل البواب يحمل بعض المعجنات ، ودجاجة مشوية ، وقليلا من السجق ولحم الخنزير الساخن . وحينما فردها غطت أكثر من نصف المنضدة .

سأل شيانغ هوا بعدما ذهب البواب : « لِمَ اشتريت هذه الاشياء كلها ؟ » .

ــ لابدَّ أنك شديد الجوع . تفضَّل . تينفهسيين مشهورة بمعجناتها ودجاجها المشوي ، ولكني لا أعتقد أنها تستأهل هذه الشهرة.

كانت تاو ــ شينغ تبذل جهدها لتشعره بالراحة كما لو كان في منزله .

ــ أخبرني، يا شيانغ ، هل رأيت هسو هيو قبل مجيئك؟ كيف حال هسو هيو ، يا شيانغ ؟

كانت ترشقه بأسئلتها بسبب من اهتياجها . أما هو فيهز رأسه ببساطة ويحييها مبتسما : « كلا ، ليس « شيانغ » ، بل « ابن العم »».

لم يكن في حاجة الى مزيد من القول . كانت تعرف ضرورة الحذر. فابتسمت ابتسامة ندم ، وقالت : « يا لغبائي ! » .

كانت الظلمة قد انتشرت عندما انتهى الطعام ، فأشعلت قنديلا من زيت البارافين في غرفتها الصغيرة ، وجلسا يتحدثان حديثا طويلا .

استوضح شيانغ هوا : « كيف تسير الامور في هذه المدرسة ؟ ».

أغرقت تاو ــ شينغ في التفكير برهة ، ثم أجابت : « لست أعرف حقا من أين أبدأ . لكن دعني اخبرك قبل كل شيء أن مديرة المدرسة وانغ ين ــ وين هي عمة صديقتي وانغ هسياو ــ ين . انها مسيحية ذرَّفت على الاربعين من العمر . وهي لم تتزوج قط . وفي المدرسة تسعة معلمين . ثلاثة منهم ، بما في ذلك أنا ، من النساء » .

ــ هل في مقدورك إخباري شيئا عن وجهات نظرهم ، وعن حياتهم؟ حسنا ، أهي سيئة أم لا مبالية ؟

شدهت تاو ــ شينغ ، لكنها أجابت مغتبطة : « حسنا . أستطيع القول ان أكثرهم ، بما في ذلك اثنان في المكتب الاداري ، تقلقهم حال البلاد وهم غير راضين عن نظام الفساد الراهن ، ولكنهم لايفعلون أكثر

من الشكوى . واثنان أو ثلاثة منهم مشوشو الذهن بحيث أن الطعام والتعليم والنوم واللعب بالمهجونغ تشكّل أيامهم بأسرها . أما بالنسبة الى المراتين ، فاحداهما لايشغل تفكيرها غير جمع المال كيما تسعف زوجها المريض الذي فقد عمله ، والثانية دائمة التفكير في الزواج من رجل تستطيع ثروته أن تؤمن لها جميع متطلباتها » .

حنى شيانغ هوا رأسه ، وزمجر : « أفلم تعثري على انسان جدير بالاحترام ههنا ؟ » .

كانت عينا تاو ـ شينغ نصف مغلقتين ، ووجهها يحمل تعبيرا من الانزعاج : « هنالك واحد أفضل من الباقين . كما أن هنالك آخر رهيب حقا ! » .

ـ حدثيني عنهما .

كان شيانغ هوا يبتسم ، فردت تاو ـ شينغ ابتسامته أيضا : « حسنا . الرهيب هو جبل من الدهن يدعى يو يو ـ تيين ، له حاجبان كثيفان يكادان يلتقيان فوق أنفه . ورأسه يهتزّ ويرتعش حينما يتكلم . والامر الاكثر كراهية فيههو الطريقة التي يتراكض فيها حول المعلمات . . »

ضحك شيانغ هوا لدى سماعه ذلك ، ولم تستطع تاو ـ شينغ الا أن تشاركه الضحك .

ـ انه عضو في الكيومنتانغ ، وهو فاسد شرير . وغالبا مايذهب الى مركز قيادة الكيومنتانغ في حاضرة المقاطعة .

تفاقم اهتمام شيانغ هوا : « هل راقبتيه جيدا ؟ هل يمكن أن يفعل في المدرسة شيئا ؟ » .

هزت رأسها قائلة : « لا اعتقد ذلك » .

ـ حسنا . وماذا عن الرجل الذي هو أفضل من الباقين جميعا ؟

ـ انه يدعى شاو يو ـ شينغ الذي اعتاد ان يدرس في دار المعلمين الابتدائية الثانية في باو شينغ . هو شاب ومتحمس ، وأنا على صلة طيبة معه . وقد شارك في الحركة الطلابية في دار المعلمين الابتدائية ، كما أنه أخبرني ، في ثقة تامة ، أنه يتوق للانضمام الى الحزب الشيوعي . .

فكشّر شيانغ هوا وقال : « وأنت قلت له انك تشعرين شعوره أيضا . ما ؟ » .

توردت وجنتا تاو ـ شينغ : « أنت مخمِّن ممتاز ! غالبا ما كنا نتحدث عن مثلنا العليا ، عن الثورة ـ وبصورة سرية بكل تأكيد » .

لم يعلِّق شيانغ هوا على كلامها . نظر اليها والتقط بعض الدفاتر المدرسية عن منضدتها وقلَّب صفحاتها ناظراً فيها ، ثم سأل في شيء من المزاح : « حسنا . هل تظنين أنه يمكن أن تثقي بي ؟ »

ـ طبعا ! لِمَ لا أثق بك ؟

أومأ شيانغ هوا برأسه ووضع الدفاتر المدرسية ، وبدَّل موضوع الحديث : « أخبريني شيئا عن التلاميذ » .

بدأ يسألها بالتفصيل عن تلاميذ المدرسة وعددهم وخلفيات أسرهم . ماهو عدد الذين ينحدرون من عائلات فلاحية ؟ ماهو عدد الذين ينحدرون من الطبقة العاملة ؟ هل هنالك تلاميذ كثيرون يعمل آباؤهم في وظائف حكومية ؟ وهل أسرهم على شيء من الثراء أم لا ؟ استغربت فيمَ كان يطرح هذه الاسئلة كلها ، ولكنها سردت عليه كل المعلومات المتجمعة لديها ، رغم أن هذه المعلومات محدودة جدا . وانقضى قليل من الزمن قبل أن تتاح لها فرصة مقاطعته : « لماذا تريد أن تعمل في تينغهسيين ؟ من أين جئت ؟ »

ـ ليس لي عنوان ثابت .

كانت ابتسامة شيانغ هوا تجعل من المستحيل أن يشكَّ الانسان فيه . ونجح في حذق في أن يعيد دفة الحديث عن تاو ـ شينغ : « طالما أننا سنغدو صديقين ، فهل هنالك مايمنع من أن تخبريني شيئا عما فعلتِ في الماضي ، وما تنتوين أن تفعلي في المستقبل ؟ »

كانت الرصانة تبدو عليها ، وتكلمت في بطء وهي مستغرقة في التفكير : « بكل تأكيد ! أنا ابنة رجل ملاَّك وامرأة فلاحة . وهكذا فان لي عظاما بيضاء وأخرى سوداء(١) » .

واختلست نظرة الى شيانغ هوا لتتأكد من أنه لم يكن يضحك ، ثم تابعت : « اعتدت أن أكون عاطفية أكتئب بسرعة وتمرضني الحياة .

---

(١) سندا الى الاسطورة الشعبية الروسية القائلة ان للطبقة الارستقراطية عظاما بيضاء ، وللاقنان والعمال عظاما سوداء

قرفت وكرهت كل شيء في هذا العالم لأن والدي ورابّتي عاملاني معاملة سيئة . ولم أكن أعرف كيف أثور ضد كل ماكرهت . هكذا كانت الامور معي الى أن التقيت رجلا غاية في الطيبة ، أفضل رجل رأيت . نصح لي ودلني على الطريق التي أسلك ، وعلمني كيف أثور ضد هذا المجتمع المتعفن ، وكيف أميّز الناس والاشياء من وجهة نظر طبقية . كان هذا حين ... أعتقد أنه كان في مقدوري أن أقول انه في ذلك الحين فقط بدأت عظامي البيضاء تتقلص وتنكمش . بدأت اعرف الطريق القويمة التي يجب أن أسلك . ولكنه لم يكن من السهل الاستمرار على تلك الطريق ، وكنت أضيّع سبيلي في أغلب الاحيان » .

وتوقفت تاو – شينغ عن الكلام ، وهي تحدق قلقة في شيانغ هوا وكأن هنالك أشياء كثيرة لم تنطق بها .

اعتصم بصمته زمناً طويلا ، وعيناه المتفكرتان تنظران اليها وكأنهما تقولان : « بلى ، يافتاتي ، بالحقيقة كنت تنطقين » .

* * *

٢

هذه أزهارُ أيـَّــار
برعمتْ فيكل أرضِ
في الربى ، في كل روضِ
لونـها أحمــرُ كالنارْ
قاتل الشـــجعان منا
كلٌّ من أرضي تحدّى
كاسبين الغــار مجــدا
فالربى تنعــمُ أمنا

على الرغم من أن تاو ـ شينغ لجأت الى فراشها في ساعة متأخرة من تلك الليلة ، الا أنها استيقظت في صبيحة اليوم التالي مع بزوغ الفجر . وبعد أن تأكدت أن شيانغ هوا لايزال مستغرقا في النوم تسللت وانطلقت ، وهي ترســل أغنياتها ، على طول الحقول القريبــة مــن المدرسة . وقفت عند قبر وحيد تنشد أغنية « ورود أيار » فرجعت الأغنية بأفكارها الى لو شيا ـ شوان . لقد ظلّت منذ قدوم شيانغ هوا، لسبب أو آخر ، توالي المقارنة بين اثنيهما ، وبدأ قلبها ينعصر مــن جديد . التقطت بعض الورود في محاولة للتخلص من أفكارها المعذّبة. كان نسيم الصباح اللطيف يتهادى فوق الحقول التي تنبىء بتباشير إطلالة الربيع . وكان الهواء البارد النقي يعج بالعبير . وفيما هي تجمع زهور الأوركيد البرية ارتاح بالها لفكرة الهدف الـذي قد يدخلـه شيانغ هوا على حياتها .

ركضت قافلة الى المدرسة تحمل حزمــة من الأوركيد وبعــض عساليج الليلك . كانت ترتدي ثوبا أزرق وسترة زرقاء فاتحة وحــذاء وجوارب بيضاء . وكان وشاح رأسها الحريري الأبيض يبدو زخرفة

رائعة تحيط بوجهها الوسيم وتقاطيعها الرقيقة . كانت ، في مظهرها وروحها ، مثلها مثل الصباح الربيعي ، تجسيدا حياً للشباب .حينما وصلت الى غرفتها وضعت الورد في إناءين من الزجاج حملت احدهما الى الجناح الغربي الذي يقيم فيه شيانغ هوا . كانت تمشي بخطوات خفيفة كيلا توقظه من نومه . إسترقت النظر من خلال الباب الذي كان نصف مفتوح ، فرأت أنه استيقظ وانحنى فوق أحد الكتب . وحينما التفت ورآها تقف خارجا ، ويداها وراء ظهرها ، هبَّ واقفا على قدميه : « لم لاتدخلين ؟ ماذا تراك تحملين ؟ »

— قد لا تحب ذلك ، لكن ..

وضعت تاو — شينغ في خجل إناء الورد على المنضدة ، وتابعت تقول في استحياء وبصوت شبيه بصوت من يشعر بالاثم : « قد تضحك عليَّ من دون ريب . ولكنني مغرمة بالورد الى حدٍّ بعيد . اليك بعض الورود التي جمعتُ من الحقول » .

اخذ شيانغ هوا الإناء وشمَّ الورد وأومأ براسه موافقا ، الامر الذي أثار دهشتها : « يا للرائحة الزكية ! كل انسان يحبُّ ما هو جميل . فلم لا أفعل أنا ذلك ؟ » .

وضع الإناء من يده ، والتفت اليها : « أتعرفين الطريق في المدينة ؟ أريد أن أزور صديقا » .

— تريد أن تخرج ؟ لكن الفطور سيكون جاهزا في وقت قريب. سأذهب معك بعد الافطار وأدلّك على الطريق .

— كلا ، لاضرورة لذلك . ان لديك دروسا يجب أن تواظبي عليها . سأذهب وحدي .

وأضاف مبتسما بعد لحظة من التفكير : « هنالك شيء واحد ينبغي أن تهيئيه في ذهنك . كيف سينظر الآخرون الى علاقتنا ؟ »

تورَّدت وجنتاها ، غير أنها أجابت من دون أي تردد : « ما أهمية ذلك ؟ أنا لا أبالي بما قد يخطر لهم في البال . لايقلقنك هذا ! » .

— هذا رائع اذن . سيسهل علينا أن نتبادل أحاديث طيبة . أحب أن أبقى هنا عدة أيام . هل سيكون ذلك على مايرام ؟

— سيكون ذلك رائعا ! سأذهب الآونة وأذكر الانسة وانغ بوعدها بإيجاد عمل لك .

ـ حسناً .

اعتبر المعلمون ، وقد لحظوا الألفة بين تاو ــ شينغ وشيانغ هوا، أن هذا الاخير لابدَّ أن يكون حبيبها . وبدأوا يتجمعون اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة ويتحدثون متهامسين . وعند الغداء ثبت السمين يو يو ــ تيين عينيه الناتئتين على تاو ــ شينغ ، واستوضح قائلا : « آنسه لين ، لماذا يسمي كثيرون من المحبين في الصين أنفسهم أبناء عمومة بدلا من أن يجهروا بالحقيقة ؟ » .

انفجر المعلمون في الغرفة ضاحكين . وانتظر يو في وقار جوابا من تاو ــ شينغ ، وحاجباه الاسودان الكثيفان أجعدان .

كانت تاو ــ شينغ تتوقع مثل هذا الهجوم ، خاصة وانها تحدثت في ذلك مع شيانغ هوا في بكور ذلك الصباح ، وتأهبت للجواب . قالت في هدوء من دون أن تضع الرغيف الساخن من يدها : « ينبغي أن أفكّر أن السبب في غاية البساطة . ذلك أن تأثير الاقطاعية لا يبرح قوياً جدا يمنع الحب الحقيقي من أن ينطلق على سجيته . فاذا وجد الشبان أنه من السماجة أن يطلقوا على انفسهم لقب الأحباب ، فلا ريب أنهم يسمون أنفسهم أبناء عمومة ».

نتأت عينا يو يو ــ تيين من ذلك الجواب غير المنتظر .

تحدى قائلا ، وهو يرنو من شيانغ هوا الى تاو ــ شينغ ويهزّ برأسه : « وماذا عنكما أنتما اذن ؟ أبناء عمومة ؟ عاشقان ؟ أو كلاهما معا ؟ »

وانفجرت في غرفة الطعام عاصفة من الضحك .

أجابت تاو ــ شينغ عندما خمدت عاصفة الضحك : « كلاهما معا » .

ان وحدة تاو ــ شينغ وصلابتها ، وهدوء شيانغ هوا الباسم ، ومنظر رأس يو المتأرجح الذي يثير الضحك ، ووقاره المغرور جعل الغرفة بأسرها تهتز بالضحك بصورة أكثر شدة وارتفاعا . وضعت المعلمتان اعواد طعامهما واستخفهما المرح كثيرا . وضربت مديرة المدرسة ، وقد أدركت أن النظام سيفلت ، المنضدة بعودي الطعام وصاحت في صوت قوي : « لقد ذهبتم في المزاح بعيدا جدا ، ايها الاصدقاء ! السيد شيانغ ضيفنا . ولم نكن على شيء من التهذيب .. ارجو الا يستثيرك

الغضب ، ياسيد شيانغ . فاننا ، جميعا ، نعامل تاو ــ شيانغ مثل شقيقتنا الصغيرة ، مثل واحدة من العائلة ».

ــ اسمع ، اسمع ! لا مزيد من المزاح الآن ، ياسيد يو !

ــ يجب الا يفسد السيد يو متعة الآخرين !

وضاع الموضوع من جراء الهجوم العام الذي شنوه على يو .

بعيد الغداء لحق شيانغ هوا بتاو ــ شينغ الى غرفتها . وما أن دخلا حتى أطلقت الفتاة العنان لفورة سخطها : « لاريبة أنك غضبان !.. فقد كانوا قساة جدا ! »

سألها مبتسما : « وفيم أبالي ؟ فالمرء يتوقع مثل هذا التصرف من غير المثقفين . فعلتِ حسنا عندما اجبت في هدوء مطلق . حسنا ، فلنستمر في تصرفاتنا على هذا الغرار بحيث لانخيِّب أملهم ! »

وانفجر ضاحكا فضحكت تاو ــ شينغ بدورها الى أن ترقرقت الدموع في عينيها .

خرج شيانغ هوا عصر ذلك اليوم ولم يرجع قبل الساعة التاسعة ليلا . كانت تاو ــ شينغ ، وقد جلست قريبا من القنديل ، على أهبة أن تسأله كيف أمضى نهاره ، ولكنه أخذ زمام المبادرة وشرع يبحث معها نظريات ثورية ، وليس أسئلة عن المدرسة والحياة اليومية : «دعينا نتحدث الليلة ، يا تاو ــ شينغ ، في موضوع مختلف . أتعرفين المشكلة الرئيسية للثورة الصينية في هذه الايام ؟ »

حدقت تاو ــ شينغ فيه ، وقد غرقت في لجة من الضياع .

تابع يقول بعد صمت قصير : « لاتبالي ، فلنأخذن موضوعاً آخر . ان جيش التحالف المناهض لليابان في شاهار الشمالية تقهقر متراجعا ، لكن ماهو مدى تأثير ذلك على حركة المقاومة والانقاذ الوطني؟ وفي أي سبيل تعتقدين أن الثورة الصينية ستتطور ؟ »

زمت تاو ــ شينغ شفتيها وانتابها القلق . واستغرقت في التفكير برهة ولكنها لم تستطع الجواب .

كانت تفخر دائما أنها قرأت كتبا كثيرة: المبادىء الثلاثة للديالكتيك، طبقات الرأسمالية ودرجاتها ، نظرية الفناء المحتّم للامبريالية والانتصار النهائي للشيوعية ــ لقد درست هذه المؤلفات وغيرها . لكن سؤال

شيانغ هوا عن القضايا المميزة والطبيعة الاساسية للثورة الصينية أربكها حقا . قدحت زناد فكرها بحثا عن جواب مناسب . ان عليها الآونة أن تدفع الفرم لأنها لم تقرأ تلك الاوراق في اعتناء ولم تدرس القضايا العملية دراسة جيدة . وكلما أغرقت في التفكير ازداد ارتباكها . وشعرت أن أي جواب قد تعطيه سيكون أسوأ من عدم الجواب . قالت مترددة بعد فترة من الصمت المؤلم ، شعرت خلالها شعور ولد خجول استفرده المعلم لتوبيخه ، وهي تراقب وجه شيانغ هوا : « لقد فكرت طويلا ، ومع ذلك لا أستطيع الجواب . لقد فضحتني .. أوه ، يا إلهي! كيف كنت أجهل مثل هذه القضايا طوال هذه الفترة ؟ »

ضحك شيانغ هوا على الرغم منه ، وهو يرى ارتباكها وحياءها : « حسنا اذن ، فلأطرح عليك سؤالا آخر . أتعتقدين أن الصين يمكن أن تهزم اليابان ؟ »

هذه المرة كانت تاو ــ شينغ متأهبة للجواب ، فأعلنت بصورة منتظمة : « طبعا ! فأولا ان أربعمائة مليون صيني لن يقبلوا أن يكونوا عبيدا من دون وطن خاص بهم . وثانيا الصين كبيرة وغنية بمواردها الطبيعية وسكانها كثيرون . بينما اليابان صغيرة ، وسكانها قليلون ، ولا تستطيع أن تنتصر في الحرب لمجرد أنها تملك أسلحة أفضل. وثالثا . . . »

عضت شفتها وفكرت برهة : « وثالثا فان الشيوعيين وجميع التقدميين وطدوا العزم برسوخ على مقاومة اليابان ، وأكثر من ذلك أن الحزب الشيوعي انضم الى الجبهة المتحدة لمناهضة اليابان . هل ماقلت صحيح ، يا شيانغ هوا ؟ »

كان شيانغ هوا جالسا معتصما بالصمت ، في حين كانت تاو ــ شينغ واقفة تنتظر جوابه في لهفة . تكلم أخيرا في بطء ، فقال: « ان حجتيك الأوليتين صحيحتان ، لكن الثالثة فيها شيء من الخطأ . من دون قيادة الحزب الشيوعي لاتستطيع الثورة الصينية أن تنتصر ! وكذلك الامر بالنسبة الى الحرب ضد اليابان : لاينبغي على الحزب أن يشارك فيها فحسب ، بل يجب أن يقودها . أتعرفين ما معنى القيادة، يا تاو ــ شينغ ؟ »

كانت عينا شيانغ هوا المتفكرتان متوهجتين ، فبدأت تاو ــ شينغ، وكانت تلتهم كل كلمة ينطق بها ، تشعر باحترام عميق له . كانت تشعر بانتعاش مفاجيء ، فملأت قدحها ، وشربت قليلا من الماء ، ومن ثم انحنت على المنضدة وقد ثبتت عليه عينيها ، وهي تقول : « ما أعظم سروري بقدومك ، يا شيانغ هوا ! كنت أعرف أمورا قليلة ، وكانت الافكار القليلة التي أعرفها سطحية تماما .. من الآن فصاعدا يجب أن تمدّني بالمساعدة ! من أية كلية تخرجت ؟ أعتقد أنك كنت تقوم بنشاط ثوري طوال سنوات ، أليس كذلك ؟ » .

ــ أنا لم أتخرج من أية كلية . تكونين أكثر دقة ان أسميتيني عاملا .

ــ ماذا ! أنت عامل ؟ لا أظن ذلك !

فابتسم ابتسامة عريضة : « بلى ، أنا عامل . وحتى ماقبل فترة قصيرة كنت أعمل في أحد مناجم الفحم » .

هزت تاو ــ شينغ رأسها متشككة : « ولكنك لاتبدو مثل العمال . وانت تعرف الكثير .. كنت أعتقد طوال الوقت أنك خريج احدى الكليات » .

فضحك شيانغ هوا : « لماذا ؟ أتحسبين أن جميع العمال خرقاء جهلة ؟ ليس ثمة سبب يفرض عليهم ذلك ! » .

ذهلت تاو ــ شينغ كثيرا . انها تشعر الآونة بمزيد من الارتباك والخجل أكثر مما شعرت به حينما عجزت عن الرد على أسئلته . لمست هدب ثوبها ، وقالت في صوت خفيض : « نظرياً أعرف أن العمال أقوياء مقتدرين ، أما في قلبي ... الحقيقة هي أنني مابرحت أؤمن بالمثل القديم القائل « العلم قبل أي شيء آخر » . وقد بدأت اليوم أرى نفسي على حقيقتها ــ مخدة مطرزة محشوّة بالقش » .

ضحك شيانغ غير أنه لم يجبها الى أن اضطرت تاو ــ شينغ الى الضحك أيضا رغم ارتباكها . ومن ثم طرح عليها سؤالا جديدا : « أخبريني ، ، يا تاو ــ شينغ ، هل أنت على صلة بأي من آباء تلاميذك ــ أقصد العمال والفلاحين ؟ »

أجابت تاو ــ شينغ في اضطراب : « كلا ، لم أفعل ذلك . لم يخطر لي أبدا أنه ينبغي عليّ أن أتصل بهم . فأنا أقضي أوقات فراغي بالمطالعة » .

كان يراقبها في انتباه ، وهو يلهو بمسطرة في يده : « من الآن فصاعدا ، وعن طريق تلاميذك ، اريــدك ان تتصــلي ببعض العمــال والفلاحين . فسوف يفيدونك كثيرا . انهم يختلفون عن الناس الذين تعرفين ، ويثيرون الاهتمام أكثر » .

كان يتحدث في نبرة طبيعية دمثة بحيث لم تشعر تاو ــ شينغ انه يلقي عليها محاضرة . قالت : « أنت على حق . كنت أشعر أحيانا اني أحب ان اتحدث اليهم ، ولكنني لم أكن أعرف ماذا أقول ــ لم يكن يبدو أن ثمة شيئا مشتركا بيننا » .

شرع شيانغ هوا يجوس أرض الغرفة . ثم فتح الباب وأطلّ على الساحة المظلمة . أغلق الباب مرة أخرى ، ونظر الى صورة تولستوي المعلقة على الجدار برهة،والتفت الى تاو-شينغ مبتسمة «اعتقد أن أفكارك عن الثورة كلها وهمية ومثالية . أنت أشبه ماتكونين بشاعرة رومانطيقية ... ماتحتاجين اليه هو مزيد من الاحتكاك مع الشعب العامل . فهو يملك معرفة واسعة بالمحروقات ، والارز ، والزيت والملح ، وكيفية تربية الاطفال ، وجميع الامور الاخرى المتعلقة بالحياة اليومية . وأفراده عمليون جدا . وأنت تنقصك هذه الروح العملية الى درجة بعيدة » .

رفعت تاو ــ شينغ عينيها اليه في صمت . تمنى لها ليلة سعيدة، دون أن يعرف ما اذا كانت وافقت على كلامه أم لم توافق ، وخــرج من الغـرفــة .

سمح لشيانغ هوا أن يقيم في المدرسة في تلك الفترة الراهنة . وقد اعتاد أن يخرج خلال النهار حين تكون تاو ــ شينغ تعطي دروسها ثم يعود بعد هبوط الغسق ، فيقضي أغلب العشايا يطرح أسئلته عليها ويســاعدها في تحليل مختلف القضــايا . وبين حين وحين ، وهمــا يتباحثان في صوت مهموس ، يفتح بعض الزملاء الفضوليين البــاب ويدخلون . فيهب شيانغ هوا على قدميه مبتسما ، وتقف تاو ــ شينغ في هدوء الى جانبه ، ووجهها يشعّ بسعادة لاتبذل أية محاولة لاخفائها.

ــ آه ، انهما غارقان في الحب حتى آذانهما !

وبعد أن ينسحب الضيف الفضولي الذي تسلّى قليلا ، يروحان يعاودان حديثهما .

لم تستطع تاو ــ شينغ مرة أن تمتنع عن القول : « شيانغ هوا، سألتك مراراً عن حياتك الماضية وعن السبب في قدومك الى هنا ، ومع ذلك لم تجبني بحرف واحد » .

ــ جئت الى هنا بحثاً عن عمل ، وهذا كل شيء . كانت حياتي الماضية عادية جدا ولا تستأهل الحديث عنها . لربما أخبرك شيئا عنها فيما بعد » .

ابتسمت تاو ــ شينغ قانطة . كانت تستطيع أن ترى أن شيانغ هوا نشيط حيوي وعزوم . وخمّنت أن لديه مهمة ثورية هامة، وتاقت الى معرفتها ومعرفة هويته ، غير أن جميع الاسئلة التي طرحتها بهذا الخصوص ظلت من غير جواب ، على الرغم من انه ظل على الدوام لطيفاً معها يعاملها في ود ورفق .

ذات عشية لم يرجع في ساعته المعهودة . انتظرته تاو ــ شينغ حتى منتصف الليل ، ثم لجأت الى فراشها وقد جافاها النوم . على الرغم من تكتّم شيانغ هوا فقد كوّنت فكرة غامضة عن العمل الذي يقوم به ، الامر الذي يجعلها قلقة خلال فترة غيابه . كان الوقت قد جاوز منتصف الليل حينما سمعت نقراً خفيفاً على نافذتها وصوتا خفيضا خشن النبرة يناديها باسمها .

وثبت من السرير ، وأشعلت القنديل ، وفتحت الباب .

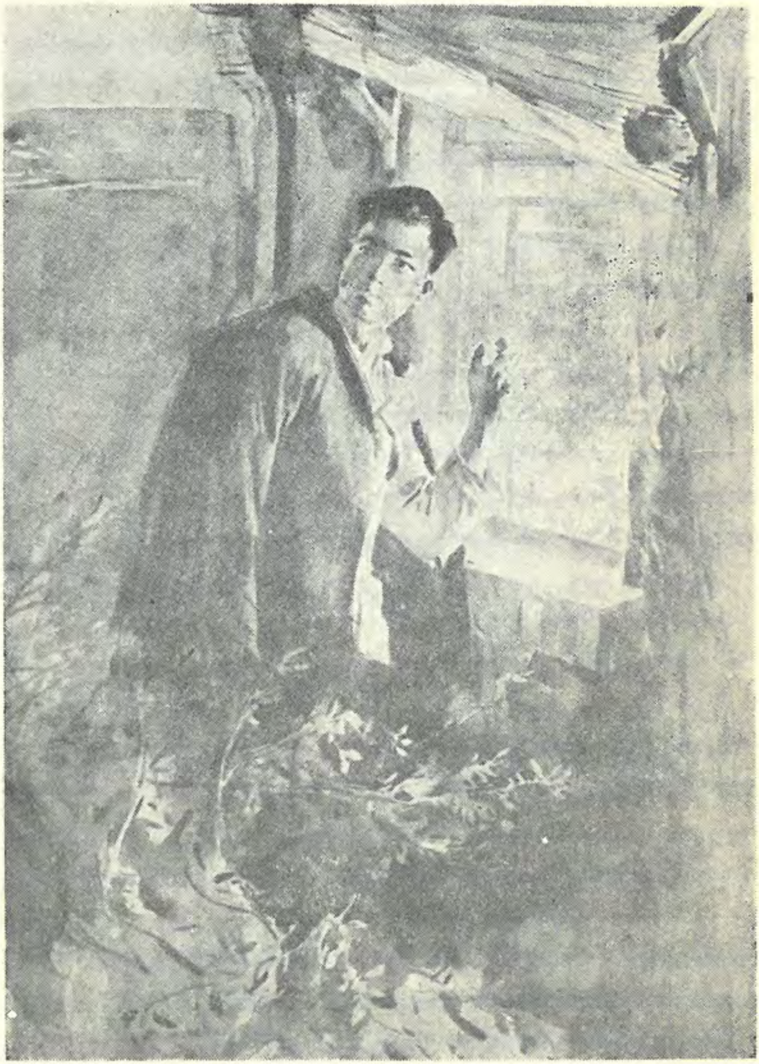
تسلّل شيانغ هوا الى الغرفة ، مرتديا ثياب فلاح مهلهل الثياب التي لطخها الطين هنا وهناك .

كان وجهه يبدو في ذلك الضوء المعتم شاحبا شحوب الموتى حيث انتصب جامدا طوال لحظات ، مسمّرا في الارض مثل شجرة قوية .

خفق قلبها بشدة وهي تنظر اليه في ذعر .

ــ نجمت بعض المشاكل ، يا تاو ــ شينغ . يجب ان ارحل على الفور .

تقطب وجهه فكأن كل كلمة ينطق بها تؤلمه اشد الالم . ارتمى على مقعد ، وأنفاسه تتلاحق في لهاث قصير ، واسترسل يقول : « أمّلت أن أبقى هنا طويلا . ويحزنني أن ذلك من المستحيل .. أرجو أن تخفضي ضوء القنديل قدر ماتستطيعين » .



فعلت تاو ـ شينغ ماقال لها ممسكة أنفاسها . ثم مشت على رؤوس أصابعها الى جانبه لتنظر اليه عن قرب . فكشف ضوء القمر الشاحب المتسلل عبر النافذة ، على غير انتظار ، لطخة حمراء كبيرة على كتفه الايمن وذراعه اليمنى . وتأكد لها ، والرعب يملؤها ، أنه دم!

جاء صوتها خفيضا مرتعشا : « هل أنت جريح ؟ ماذا حدث ؟ من فعل هذا ؟ »

استند شيانغ هوا بثقل على الكرسي الى أن استرد هدوءه المألوف بصورة تدريجية ، وقال : « من تظنين فعل ذلك ؟ هل تستطيعين اعطائي قطعة قماش أعصب الجرح بها ؟ »

عثرت سريعا على قطعة من القماش ، ولكنه رفض أن تمدّ له يد العون . عصب ذراعه اليمنى باستخدام أسنانه وعدة حركات رشيقة من يده اليسرى . ثم طلب اليها أن تربط الضماد جيدا . وما أسرع أن انتقع القماش بالدماء .

وجاءها صوته خفيضا ضعيفا : « تاو ـ شينغ ، يؤسفني أنه لم يكن لديّ وقت طويل ابحث فيه العمل معك . لم تتح لنا أحاديث جدّية خلال هذه الايام القليلة الماضية . لم أكن أعرف أن الامور ستنطلق بمثل هذه السرعة .. حسنا ، هل تودين ممارسة بعض الاعمال العملية ؟ » .

ـ من دون ريب ! لكن، أخبرني ، يا شيانغ هوا ...

كان السؤال يتردد في ذهنها طوال أيام ، ولكنها حاولت أن تهدىء قلبها الخفاق وهي تطرحه : « أخبرني ـ هل أنت شيوعي ؟ »

ـ فيمَ تسألينني ؟

ـ أنا ، أنا ـ هل توصي بي اذا طلبت الانضمام الى الحزب؟

كان شيانغ هوا جالسا ورأسه الى الجدار وعيناه مغلقتين من حموّة الالم . فتحهما لينظر الى تاو ـ شينغ ، وابتسامة باهتة تتخايل على وجهه الشاحب : « اعتقد انك تعرفين ماهو مقصود بكلمة «اختبار». لقد رأيت بتجربتك الخاصة ماهية الحزب والثورة . لكن الثورة بدورها يجب أن تضعك موضع الاختبار ... فاذا كنت قوية بما فيه الكفاية، فلسوف يفتح الحزب لك بابه » .

سعل واراح راسه على المنضدة برهة . ثم قال في قلق واهتمام ودِيين : « لاتقنطي ! ستتاح لك فرصة الانضمام الى الحزب فيما بعد. أما في الوقت الراهن فينبغي أن تقومي بعمل عملي . أريدك،بعيد ذهابي، أن تقومي بعمل ثوري بين تلاميذك وزملائك ، وأن تقيمي صلات مع آباء تلاميذك . فلنناقش كيف ينبغي أن تفعلي ذلك » .

انتهى حديثهما قبيل انبلاج الفجر ، حينما هبّ شيانغ هوا على قدميه ومدّ بصره من النافذة . كان الضوء ينتشر في الشرق . وكانت نصيحته الاخيرة لها : « كوني شجاعة لكن حذرة . ابذلي جهدك واربحي زملاءك الى صفك .أنا واثق انك ستقومين بعمل جيد . حسنا ، يجب ان ارحل قبل طلوع الصباح . أيمكن ان تجيئيني بحقيبتي ؟ يجب أن أبدل ثيابي » .

راقبته تاو – شينغ في اضطراب مرعوب وهو ينزع ثيابه الملطخة بالدماء ، ويلفها ، ويغسل وجهه باحدى يديه ، ثم يحزم أشياءه في هدوء .

– هل سترحل حقا ؟ ذراعك لاتبرح تنزف .

ابتسمت شفتاه البيضاوان ابتسامة خفيفة : « لا أهمية لذلك. في اجتماع ليلة البارحة حاصرتنا على حين غرة جماعة من الشرطة السرية . وقد أصابوني وأنا أندفع هاربا ... لكن الامر ليس خطيرا. الامور غدت الآونة هنا بالغة الخطورة . يجب أن أرحل » .

تراقصت على شفتيها ابتسامة كئيبة : « هل ستعود ؟ »

– لا أستطيع ان أجزم بذلك . ولكننا نستطيع ان نجد وسيلة نتصل بها مع بعض . قد يجيء أحدهم لرؤيتك . ان لديّ عمة هي الطيبة بعينها ، وهي تسكن في الجوار . لربما زارتك ... حسنا ، في مقدورك أن تودعيني . فلنخرج من البوابة الرئيسية ونقل انني استطيع أن ألحق بالقطار .

التقط شيانغ هوا أمتعته ، وقد ارتدى لبوس عامل في أحد المكاتب . وحملت له تاو – شينغ حقيبته ، وخرجا معا .

كان الفجر قد بزغ ، وثمة بعض نجمات متسكعة لاتبرح تتألق في السماء الغربية ، والهدوء يخيّم خارج المدينة . وفيما هما يسيران على العشب الندي في نقاوة الصباح اعتصم شيانغ هوا بالصمت ،

فيما أثقل الحزن على فؤاد تاو ــ شينغ . كان لديها أسئلة كثيرة تريد أن تطرحها ، ولكنها لاتستطيع ذلك الآونة .

استرقت نظرة اليه فرأت وجهــه الذي لايزال شــاحبا رابط الجأش هادىء القسمات : « لكم هو قوي وشجاع ! » وتساءلت : « أهو غافل عن الالم ؟ » . وشعرت بألم في قلبها ، فلم تستطع الا أن تسأله : « ايؤلمك ذلك ؟ ينبغي أن تستريح عدة أيام معي » .

هزّ رأسه ومشى في هدوء . توقف عند مفترق الطرق ، وقال: « تاو ــ شينغ ، لاتكوني طيبة القلب جدا ــ النضال شاق . يجب أن ترجعي الآن » .

ــ ما هو اسمك الحقيقي ، يا شيانغ هوا ؟ الا يمنكك أن تخبرني به؟

ــ اسمي لي مينغ ــ يو ! ارجعي الآن ، فيجب أن أرحل . وداعاً !

مشى يهبط الطريق دون أن يتيح لها فرصة لطرح مزيد مــن الاســئلة .

ــ أهذا هو لي مينغ ــ يو الذي قاد طلاب جامعة بكين عندما ذهبوا الى نانكينغ للقيام بمظاهرات ؟..

وقفت تحت شجرة صفصاف ، وعيناها تتابعان قامته الطويلــة العريضة الى أن ابتلعه الضباب . ثم حنت رأسها ، وقالت وكأنهــا تتمتم صلاة : « حظا سعيدا ، يا رفيق !.. ارجع مرة ثانية !.. »

* * *

٣

وهكذا كان شيانغ هوا هُوَ لي مينغ ـ يو ، الطالب في جامعة بكين . لكن ، فيم يجب على طالب جامعي أن يسمي نفسه عاملا ؟ أثار هذا السؤال حيرة تاو ـ شينغ .

كان لي مينغ ـ يو مواطنا من هونان ، نقله والده بعد تخرجه من المدرسة الابتدائية وهو في الثالثة عشرة الى شنغهاي ليغدو صبياً ممهّناً في مطبعة . كان يشتغل نهارا ويواظب على احدى المدارس ليلا. وهنالك اتصل بالشيوعيين ، وانضم الى عصبة الشباب الشيوعيين، ثم الى الحزب. ودرس في المدرسة الثانوية وانتسب الى جامعة شنغهاي. وكان يقيم أوده على مايكسبه من أعمال اضافية ، وفي الوقت ذاته يقود النضال العمالي . وحينما فشلت ثورة ١٩٢٤ ـ ٢٧ وبدأ رجعيو الكيومنتانغ يمثّلون بالعمال والثوريين هرب كيلا يقع ضحية الاعتقال. ولما فقد اتصاله بالحزب وعجز عن البقاء في شنغهاي رحل الى بيبينغ ليعيش مع عم له هو عامل في احدى المطابع ايضا . وأمّل ان يعاود اتصاله بالحزب في بيبينغ والحصول على عمل ، لكن هذا الامر كان أكثر صعوبة مما توقّع ، فخطر له ، خلال ورطته ، أن ينتسب الى الكلية . وصار في النهار يقوم بأعمال غريبة في احدى الاسواق الصغيرة خارج شيين مين حيث يحصل على ما يكفي للقيام بأوده ، وفي الليل يجلس في احدى زوايا حجرة عمه الوحيدة مستغرقا في القراءة . درس بشدة بحيث استطاع في فترة أقل من خمسة شهور أن يكون متأهبا للانتساب الى الجامعة . وبواسطة دبلوم دراسة ثانوية مزيف تمكن من اجراء امتحان الدخول فنجح فيه ، ومن ثم سجل اسمه في قسم الفلسفة في جامعة بكين . وقام قبل ذلك باعادة اتصاله بالحزب فأوكلت اليه مهمة قيادة الحركة الطلابية . وهذا هو السبب في أنه يعتبر نفسه عاملا في المقام الاول .

حينما رجع الطلاب بعد قيامهم بالمظاهرات في نانكينغ لم يستطع لي مينغ – يو بقاء في الجامعة . فأرسله الحزب الى تانغشان شرقي هوبيي حيث عمل في أحد مناجم الفحم أكثر من سنة كاملة وساعد في قيادة الاضراب الكبير في مناجم الفحم الخمسة في تانغشان . وحينما شكل جيش التحالف المناهض لليابان ذهب الى شانغشياكو وصار آمر فرقة . وبعيد انهزام الجيش رجع الى بيبينغ ، وأجرى اتصالات مع اللجنة الحزبية في مقاطعة هوبيي فأسندت اليه مهمة قيادة الحركة الفلاحية في باو تينغ . في ذلك الوقت كان فلاحو المنطقة الذين بلغوا حدود اليأس بسبب من الملاكين والمرابين ، والضرائب والجبايات التي لاتنتهي ، والافلاس السريع للاقتصاد الفلاحي،يهيئون سرا بقيادة الحزب لقيادة المقاومة . وقبل أن تصل تاو – شينغ الى تينغهسيين كان شيانغ هوا ، باعتباره سكرتيرا للجنة الحزب في المقاطعات المحيطة بتينغهسيين ، يقوم بنشاطات سرية هنالك . فاتصل بتاو – شينغ بواسطة هسو هيو لتضليل العدو ، وبقي مختبئا في مدرستها يهيىء لانتفاضة مسلحة في المفرزة الثانية من فيلق الامن العام في تينغهسيين . وكان الفلاحون الذين يعيشون على ضفتي التانغهو يرونه في أغلب الاوقات يراوح ويغادي على دراجة هوائية يبيع أدوات قرطاسية . وأحيانا كان يتحدث ، وقد ارتدى لباس الفلاحين ، مع أهل المنطقة عن صعوبات قدرهم المشترك والاعباء الثقيلة التي تلقيها على كواهلهم الضرائب والأتاوات الباهظة . وما أكثر ما كان يبدل تنكره وأدوات عمله بحيث تمكّن من أن يعمل في تينغهسيين أكثر من ستة شهور كاملة دون أن ينكشف . وكانت المؤسسات الثورية في المنطقة تزداد قوة يوما بعد يوم .

وفي الليلة التي انتظرته تاو – شينغ فيها طويلا كان ضوء القمر الشاحب يستلقي على شكل ضبابي فوق نهو التانغهو المتعرِّج ، وأعواد القصب في المستنقع المجاور تتهادى تحت أنفاس الريح الباردة . وكانت الليلة الربيعية المتأخرة ساكنة الا من خشخشة أعواد القصب حينما تجمع هنالك فريق من رجال في بزات عسكرية مهترئة وثياب فلاحية مهلهلة . كانوا أعضاء حزبيين أو أعضاء في عصبة الشباب الشيوعيين

الذين نجحوا في الانضمام الى فيلق الامن المحلي . وقف بعضهم عند السياج والبنادق في أيديهم ، وتقرفص آخرون مسلحون بالبنادق أيضا في الطين المتجلد . وشرع حارسان شابان يراوحان ويغاديان على طول السياج الذي ينيره ضوء القمر ، وبندقيتاهما على أهبة الانطلاق.

وكان بين افراد ذلك الجمع كل من شيانغ هوا وتاي يو الذي قدم قبل يومين باعتباره ممثلا للجنة الحزب في باو تينغ. كانوا قد التقوا يتباحثون كيف يعملون على تقوية الحزب في المنطقة ويهيئون لثورة في فيلق الامن – وهو ميليشيا مُلاك الارض . كان كلاهما يرتدي لبوس الفلاحين : شيانغ هوا في معطف صوفي أسود اللون وقبعة مهلهلة من القش ، وتاي يو في لباس أسود وهو يضع نظارته على عينيه . كانا متقرفصين في الطين برفقة الآخرين .

بدأ شيانغ هوا الاجتماع بأن قدمّ تقريرا عن الشعور العام وطلب من المجتمعين التصويت للاعلان عن آرائهم حول ذلك الموضوع .

لم ينطق أحدهم بحرف طوال زمن ، على الرغم من أن ضوء القمر المنتشر فوق القصب المتناثر كان يفضح ملامح التوتر والاهتياج على وجوههم . ان سنوات العذاب قد خلّفت تغضنات عميقة على جباههم ، في حين شعّت عيونهم بالحقد والسخط .

بدا الصمت القصير وكأنه أمد طويل . ثم تحدث رجل في حوالي الثلاثين في صوت خفيض مملوء مرارة : « لانضيّعن وقتاً ! كيف ينبغي أن نبدأ الامور ؟ ان لدينا أكثر مما نستطيع أن نحتمل هنا . لم نجمع أي « كاتي »(١) من القمح بسبب من الفيضان ، غير أن مُلاّك الارض لا يزالون يتوقعون الحصول على الايجار وخدمات مجانية ... والمرابون ينتهزون هذه الفرصة لامتصاص النقى من عظامنا . واقتراض ربع بوشل واحد من الذرة الآن يعني نصف بوشل من القمح يتم دفعه بُعيد الصيف ، سواء أكان الحصاد المقبل جيدا أم سيئا . ونساؤنا وأطفالنا يتضورون جوعا ... »

---

(١) وحدن وزن في الصين وجنوب شرقي آسيا .

قال لي لو ـ كوي ، سكرتير لجنة الحزب في المقاطعة القوي القصير البدين ، وكان بدوره قائد كتيبة في فيلق الامن : « نحن ، اعضاء الحزب جميعا ، نذرنا نفوسنا . فليذهبوا الى الجحيم ! يجب ان نجعل رجال فيالق الامن في مختلف القرى يقومون بالعمل سوية. فبعد ان نقوم بضربتنا ونطهر تلك الحثالة نتقهقر الى الجبال ... وحينما نقيم السوفييتات هنا في شمالي الصين ، مثل تلك الموجودة في كيانغسي ، فلسوف يكون في مقدور فلاحينا أيضا أن يسووا حساباتهم مع ملاكي الارض ويتقاسموا الحبوب المختزنة ... وسوف يكون في مقدورنا أن نقوي ظهورنا ! »

وسدّد لي عينيه الضيقتين الداهيتين الى الشبان الواقفين قريبا منه . استلّ مسدّسا من قرابه ، ولوّحه مدللا على أنه يقصدمايقول.

ــ من يريد أن يتحدث أيضا ؟ يستطيع عضو الحزب أن يقدم ما يشاء من اقتراحات الى الحزب .

كان رفاق شيانغ هوا يستطيعون أن يروا من اسلوبه انه ثوري ممرّس ، وانه صلب الرأي عنيد .

قال شاب ذو حاجبين كثيفين وعينين واسعتين وكتفين عريضين: « أنا أريد ! »

كانت كلماته تتحدث في صميم الموضوع ، وكان اسلوبه ملتهبا : « سوف ننفذ كل ماتأمرنا به القيادة . نحن على استعداد للتضحية بأرواحنا اذا دعت الضرورة ، كيما نحرّر نفوسنا ... »

أومأ شيانغ هوا برأسه : « تذرع بالصبر ، يا لي يونغ ـ كوانغ ! »

ثم استدار يخاطب الآخرين بصوت خفيض : « ان جيشنا الاحمر يخترق تطويق العدو . انه يخوض نضالا قاسيا . يجب أن نقوم بمزيد من العمل هنا ، في المناطق البيضاء ، بحيث نستنزف مزيدا من قوى العدو ... فلنناقش الخطوات التي يجب أن نتبعها » .

فقاطعه لي يونغ ـ كوانغ : « العم لو ـ كوي استعد تمام الاستعداد ونحن مثله . وما أن تعطي لجنة الحزب الامر حتى يباشر جميع الرجال في فيلق أمن مقاطعتنا العمل . سنحاصر اولا منزل الملاّك هسينغ ، وسأتولى الامر واقتل الخنزير ! ثم نتحرك قدما .. مارأيكم ، أيها الرفاق ؟ » .

ربّت تاي يو ، وقد بقي صامتا طوال ذلك الوقت ، على كتف لي يونغ ــ كوانغ . وسعل بصوت عال عدة مرات ، وقال : « هذا رائع منك ، أيها الفتى ! هل أنت عضو في الحزب أم في عصبة الشباب ؟ اني احب شجاعتك ! يجب ان نقاتل كيما نمسح متنمّرينا المحليين وملاكنا الاشرار ونقيم حكومة سوفييتات في شمالي الصين ! »

لم يكد ينهي كلامه حتى مزقت الهواء ثلاث طلقات حادة واضحة المعالم ــ اشارة على أن العدو ظهر على مسرح الرؤية . هبّ الرجال المتقرفصون في الطين على أقدامهم وهيّأوا بنادقهم . وأعطى شيانغ هوا الامر في صوت خفيض : « لاتتحركوا ! انتظروا برهة ! »

ورن صوت خشن في الوقت الذي سُمعت فيه عدة طلقات أخرى: « كفوا عن أحلامكم، أيها الحمر ! فأنتم محاصرون ! »

همس لي لو ــكوي مخاطبا شيانغ هوا و تاي يو في رعب : « ذلك الكلب هسينغ ورجاله قد حاصرونا ! ماذا سنفعل ؟ لاريبة أنه فيلق الامن العام الاقليمي ــ كيف اكتشفوا مكاننا ؟.. »

رفع شيانغ هوا احدى يديه في هدوء بعدما أرهف سمعه لحظات قصيرة : « اثبتوا ، أيها الرفاق ! اذا لم نكن نريد أن نموت فيجب ان نقاوم،وأن نقاوم بضراوة! ان لدينا قرابة عشرين شخصا مسلحين ههنا!»

وتوقف هاتفا بالحارسين عند الخندق : « اضطجعا ارضا ! واطلقا النار حينما يقتربون ! »

وتطلع الى الفلاحين المتجمعين حوله في الطين ، واسترسل : « لا نستطيع أن نوقفهم فترة طويلة . يجب ان نتراجع تحت حماية ، ثم نتفرق ونختبىء .. مارأيك ، أيها العجوز شينغ ؟ »

كان قد التفت الى تاي يو ، المعروف باسم شينغ شون ــ تساي، ملتمسا العون .

تلعثم تاي يو ، وقد ابيضّ وجهه كالحوّار : «يا للضربة! يا للضربة! لم يبق أمامنا خيار .. غير .. أن نقاوم »».

وترددت انفجارات قوية عديدة فيما يحيط بهم ردّ عليها الحارسان الشابان باطلاق النار وهما يصيحان : « لقد جاؤوا ! ان فيلق الامن العام الاقليمي يهاجمنا ! »

اصدر شيانغ هوا أمره الى لي لو – كوي والفلاحين الآخرين ، متجاهلا تاي يو : « سيبقى لي يونغ – كوانغ هنا الى جانبي لحماية تراجعكم . أما بقيتكم بقيادة لي لو – كوي فيتأهبون للعمل فورا . شقوا لكم طريقا ! ولسوف نلتقي عند « أرض الاثنين مو » قبيل انبلاج الفجر لنتخذ قرارا بخصوص خطوتنا المقبلة » .

امسك لي لو – كوي بذراع شيانغ هوا ولهث قائلا : « هذا لن يكون ! سأبقى أنا هنا ! فانسحب أنت مع الآخرين . وسأحميك » .

على الرغم من المأزق المحكم الذي وقعوا فيه ، فقد كان ثمة احترام وحب عميقان في جميع العيون المنصبة على شيانغ هوا .

– ألم تسمعني ؟ العدو يقترب . انطلقوا ! ليس هذا وقت التأدب!

كانت تجربة شيانغ هوا كقائد في جيش التحالف المناهض لليابان تجعله ذا فائدة جمة وهو يصدر أوامره الصارمة بهدوء الى اولئك الفلاحين الذين لم يسبق لهم أن اشتركوا في معركة .

أطاعوه ، واصروا على أن يعطوه أفضل بندقية . ومن ثم رموا قذائف يدوية مرغمين العدو على التسمر مرعوبا في مواقعه . واستغل لي لو – كوي هذه الفرصة لينطلق ورجاله . واستلقى شيانغ هوا و لي يونغ – كوانغ على أرض الخندق الرطبة المتجلدة واطلقا سيلا من النيران أرغم الملاك هسينغ ورئيس فيلق الامن العام الاقليمي على الجمود بالرغم من العدد الوفير من الجنود الذي يبلغ تعداده بين خمسين وستين شخصا .

صاح هسينغ وقائد فيلق الامن المغرور : « هجوم ! اسحقوهم ! العصاة يهربون . لم لاتطلقون النار ؟ »

لكنه ما أن كان أحد رجالهما يتحرك أدنى حركة حتى يفتح لي يونغ – كوانغ و شيانغ هوا النار بالتتابع . وبعدما أصيب اثنان من الميليشيا في رشة سريعة لم يجرؤ احد من الباقين على التحرك . ولما أيقن شيانغ هوا أن رجاله ابتعدوا ركض والشاب في اتجاه حقول السَّرغوم الواقعة الى الاسفل من الخندق . أصيب لي أثناء ركضه ، فرمى شيانغ هوا بندقية رفيقه على ظهره وحمله معها وركض الى الامام ، وقد ضغط وجهه على وجه الفلاح الشاب . ولم يكد يقطع عدة خطوات حتى

شعر بتشنج يصيب الجسد الثقيل الذي يحمله في ذراعيه . فباطأ شيانغ هوا من عدوه ، وفتح لي يونغ - كوانغ عينيه ، وقال : « قل لأمي الا تحزن كثيرا .. تابعوا قتالكم ... » وأسلم الروح . فأنزل شيانغ هوا في بطء الجسد القوي الذي بدأت البرودة تسري فيه، ووضعه على الارض الطينية ، وحدق في رفيقه الميت طوال برهة . كانت الطلقات تتوالى غير بعيد الى الوراء منه ، وكان عليه أن يترك المقاتل الشاب.

لم ينتبه الى انه أصيب في ذراعه. واستطاع اخيرا أن ينجو هاربا. وبعدما ركض الى منزل العمة لي ، والدة يونغ - كوانغ ، وخبأ البندقيتين، رجع أدراجه لرؤية تاو - شينغ، ثم رحل بعد فترة قصيرة.

* * *

٤

كان الوقت بكور الصيف . وشمالي الصين بأسره ، بما في ذلك الريف الجميل المحدق بتينغهسيين ، يعج وينبض بالحياة . وكانت غيوم بيضاء تبحر على مهلة على اتساع السماء ، والفلاحون في الحقول ، جماعات جماعات ، منغمسين في العمل ، وفروع الصفصاف تتدلى كثيرا فوق ضفتي المجرى حيث لايقطع حبل الصمت غير صياح الاطفال .

ـ انظروا ! أنظروا !

ـ أنظروا هذه الضفدع الصغيرة !

كانت صيحاتهم السعيدة ، وهي ترنُّ في هواء الصباح النقي ، تعجل في قدوم فرحة الربيع في قلوب جميع الذين يسمعونها .

ـ أنظري ، يا آنسة لين ! أهذه صخرة رسوبية ؟

ـ أليست هذه زهرة جميلة ، ياسيد شاو ؟

كان حوالي دزينة من تلاميذ المدرسة ، فتيات وفتيان في الثانية أو الثالثةعشرة من العمر،يسيرون علىطول طريقالمقاطعة برفقة تاو ـ شينغ ومعلم آخر . كانوا يتصايحون في نشوة أثناء سيرهم ، ويتلفتون في حمية هنا وهنالك . وكانت فتاتان معقوصتا الشعر ، تسيران خلف الآخرين قليلا ، تتحدثان في همس .

قالت الاكثر سمنة بينهما ، وهي تلتقط زهرة عن جانب الطريق وتشمها : « أنظري مقدار شعبية الآنسة لين ، يا هسيو ـ ينغ ! وطبيعي أن السيد شاو ليس سيئا على أية حال .. أنت تعرفين ان عددا كبيرا من أمثالنا يردن الانضمام الى الثورة . وأنا ارغب فيالانضمام الىالجيش الاحمر ، يا هسيو ـ ينغ ، ولكنني لا أعرف كيف أفعل ذلك .. »

قالت هسيو ـ ينغ الاكثر هزالا: «يجب الا تفعلي ! يجب الا تفعلي ذلك بكل بساطة ! الم يخبرنا ، يا كيو ـ هوا ، كل من الآنسة لين

والسيد شاو أننا لانبرح صغيرتين بعد ؟ ان عملنا الآن هو أن ننكب على دراستنا بقوة لتهيئة أنفسنا للمستقبل ــ ولربما يكون الشيوعيون قد جاؤوا حتى ذلك الحين ، مثلهم مثل الجيش الاحمر ! »

ــ كلا ! أنا لا أوافقك . الانضمام الى الثورة معناه الانضمام الى الجيش الاحمر. وذلك يعني حمل بندقية والقتال !

نادتهما تاو ــ شينغ من بعيد : « كيو ــ هوا ! هسيو ــ ينغ ! فيمَ تتجادلان ؟ أسرعا ! تستطيعان الجدال حينما نصل الى هناك » .

ان قدوم الاطفال في صباح ذلك الاحد الرائع حمل الحياة الى ذلك المجرى المكسو بالصفصاف الى جانب قرية يو لي. وتبعثر الصبيان والفتيات يلعبون على طول الضفة المتمعجة . خلع بعضهم أحذيتهم وجعلوا يحركون أقدامهم في المياه المقرورة ، يتصيدون السلاحف ، والانكليس ، والسمك. وكانت أصوات الفتيات المرتفعة المسرورة المنطلقة تحت شجر الصفصاف تملأ الريف برائحة الربيع .

جلست تاو ــ شينغ على الضفة الرملية وقد لفت شالها الحريري الابيض حول عنقها . راحت تراقب الصغار يلعبون ، وقالت تخاطب المعلم الآخر في لطف : «أنظر ، يا يو ــ شينغ ، الى النتائج التي حققتها!»

ابتسمت ، واشارت الى الصبيان الذين يبحثون عن السمك : «منذ فترة وجيزة فحسب كانوا صبيانا شريرين . فانظر اليهم الآن . . . »

فأجاب شاو يو ــ شينغ ، وهو شاب في حدود العشرين من العمر ، ذو وجه ضامر حليق وعينين ذكيتين متلهفتين : «ليس ثمة ما أتباهى به» .

كان يرسم صورا على الرمال ، فرفع رأسه ليسترسل قائلا وقد أغرق في التفكير : « من دون أي ارشاد تشعرين بنفسك وكأنك طائرة ورقية قطع خيطها فحملتها الرياح من دون هدف على الاطلاق في الفضاء الفسيح . ولا نستطيع أن نستمر على هذا الشكل الى لاحدود » .

تنهدت تاو ــ شينغ وهي تفكر في شيانغ هوا ، وقالت: «لا أفترض أننا نستطيع ذلك . لقد التقيت بابن عمي . لو كان هنا لعرفنا بصورة أفضل ماينبغي أن نفعل . . . قال لي يوم رحيله ان أحدا سيجيء ، لكن أحدا لم يجيء . وكان ذلك منذ عدة أسابيع مضت » .

كسرت غصن صفصاف وراحت تعبث به ، وهي تنظر في حزن الى المعلم الشاب .

قال : « ومع ذلك ، فأنت حينما تفكرين في الامر ، ترين اننا لم نأت عملا سيئا من تلقاء نفسينا . جميع هؤلاء الاطفال هم للثورة ، كما أن بعض زملائنا يتعاطفون معنا أيضا . وفي مقدورنا أن نجرب شيئا كبيرا عما قريب » .

هزت تاو – شينغ رأسها : « كلا ، اعتقد أنه يفضل بنا أن نسأل الحزب أن يرسل الينا أحدا في أقرب وقت ممكن . لقد كتبت أطلب ذلك . رغم أنني لا أعرف ما اذا كانت كتابتي ستؤدي الى نتيجة » .

وتابعت تقول بعد صمت قصير : « لقد لعبوا بما فيه الكفاية . وقد حان اوان المناقشة » .

نفخ شاو في صفارة، وما أسرع أن وضع الفتيان سطولهم ورفوشهم وقضبان الصيد ، وتجمعوا حول المعلمين . كانت ثيابهم جميعا ملطخة بالطين ، فيما عدا بعض الفتيات الكبيرات مثل لي كيو – هوا و ليو هسيو – ينغ اللتين بقيت ثيابهما نظيفة . راحوا يمسحون وجوههم بأكمامهم وهم يمدون ألسنتهم في وجه بعضهم بعضا . وكلما فعلوا ذلك بشدة تفاقمت قذارة الوجوه ، الامر الذي دفع تاو – شينغ الى الضحك رغما عنها .

– كلا . يا أعزائي . يحسن أن ترجعوا الى النهر وتغسلوا أيديكم ووجوهكم قبل أن نبدأ .

اندفع الفتيان الى النهر لتنظيف أنفسهم ، ثم قفلوا راجعين وجلسوا حول المعلمين . اختفت نظرة النزوع الى الأذى من وجوههم ، وراحوا يحدقون بانتباه الى المعلمين . وتحدثت تاو – شينغ في صوت لطيف يموج بالاحساس : « أنتم أطفال الصين الطيبون ، كل واحد منكم . وجميعكم تعرفون لماذا يجب أن تحبوا بلدكم ، وجميعكم قلقون بهذا الخصوص . وتعرفون أيضا الى أين ستسير الصين . في المستقبل سنعيش في مجتمع تغمره السعادة ، مثلنا مثل الشعب السوفييتي اليوم . هل قرأتم جميعا كتاب «حياة الاطفال السعيدة في الاتحاد السوفييتي؟» أفعلتم ؟ حسنا . اذن دعونا نناقش لماذا الاطفال سعداء هناك ، بينما الاطفال في بلدنا يعانون أوقاتا عصيبة » .

كانت أشعة الشمس الدافئة ، المتسللة من بين أغصان الصفصاف ، تشع على حلقة الاطفال على الضفة فيما كل واحد منهم ، وقد توردت وجنتاه اهتياجا ، يحاول أن يكون أول المتكلمين ..

ـ أعتقد أن ذلك بسبب أن الاطفال في الاتحاد السوفييتي يتغذون جيدا ويلبسون جيدا ، وآباؤهم جميعا يجدون عملا ..

والتمعت عينا لي كيو ـ هوا الكبيرتان بالحماسة وهي تقول ذلك.

واضاف صبي نحاسي الشعر كان أنفه وسخا : « ولكنني أعتقد أن الامر الاكثر أهمية هو أن يكون المرء قادرا على الدراسة . عدد ضئيل جدا من الاطفال في بلدنا يتاح لهم ذلك . أنظروا الي ! والدي يجب ان ينفق على خمستنا خمسة عشر يوانا في الشهر ـ فكيف يستطيع أن يبقيني في المدرسة ؟ الطفل في الاتحاد السوفييتي يذهب الى المدرسة الابتدائية ، والمدرسة الثانوية ، والجامعة . وطالما أنه ينجح فهويستمر في الدراسة الى ما يشاء . لكن ، أنـ ... ظر .. وا الينا ! أنظروا الي ! ما أصـ .. عب ذلك بالنسبة الي ! » .

بدأ يتمتم لان الموضوع كان يتعلق به . تورد وجهه الصغير ، واستدارت عيناه بسبب من شعوره المنفعل .

نظر اليه طفل آخر نظرة موبخة ، وقال : « كف عن الكلام ، يا بي تيه ـ جوي ! اذا تابعت الحديث فلسوف تنفجر عيناك ! »

التفت بي تيه ـ جوي اليه مجروحا ، وقد احمرت عيناه بصورة مريبة : « تسخر مـ ـ ني ... ومع ذلك .. تتحدث عن الثورة ! »

نهضت تاو ـ شينغ ، ونظرت بحدة الى الصبي الذي ضايقه : « ان ما قاله تيه ـ جوي صحيح تماما : فقد كان يتحدث عن تجربة خاصة . وتعرفون جميعا كيف يؤدي دروسه بنجاح تام ، غير أن أسرته شديدة الفقر بحيث لن تتيح له أن يتابع دراسته . وكل يوم ، بعيد انتهاء الدروس ، يضطر للذهاب على طول السكة الحديدية لالتقاط قطع الفحم أو اصطياد النفايات من أكوام الأشياء المهملة . وغالبا ما يأتي الى المدرسة جائعا .. فلنبحث الآن لماذا يجب على أطفال بلدنا أن يقاسوا على هذا الشكل ! » .

لم يرد أحد عليها ـ كانوا ينظرون ، جميعا ، الى بي تيه ـ جوي. ورأوا الصبي الذي أغاظه قد أحنى رأسه ، ومشى اليه ، ثم صافحه .

قال شاو ، وهو يبتسم للفتى : «هذا رائع ، يا هسو يبه ـ شانغ! هذا هــو التضامن الصحيح لأطفال الصف الواحــد . أجلسوا الآن ، جميعكم . ولنتابع مناقشتنا » .

نادى أحدهم على حين غرة : « ثمة شخص قادم الينا » . وبــرز من وراء أشجار الصفصاف جسم يو يو ــ تيين العبل الاسود ممتطيا دراجــة .

ركضت تاو ــ شينغ اليه مسرعة ، وقالت وهي تبتسم : « وهكذا فأنت تحب هذه البقعة أيضا ، ياسيد يو ! اننا نمضي وقتاً ممتعاً ههنا مع الاطفال ، نلعب ونلقي الاشعار . ان قصيدة كيو مو ــ جو «الإلاهات» من المقتطفات الادبية المختارة الرائعة . ألن تشاركنا ، يا سيد يو ؟ »

أجاب يو يو ــ تيين ، وهو يتابع طريقه ، بهزة متعجرفة من رأسه: « بما أن اليوم هو الاحد فأنا ذاهب لزيارة أحد الاقرباء . لم أتوقع أن أجدكم هنا جميعا ... تابعوا إلقاءكم الشعر . لسوف تغدون جميعــا شعراء عظاماً في يوم من الايام من دون ريب ! »

توقف متشككا ، بينا الاطفال يحدقون اليه في حيرة وتردد . وبينا هو يتابع مسيره على مهلة ويدفع دراجته ، انطلقت جوقة صاخبة مــن أصوات الاطفال منفجرة وراءه تنشد قصيدة كيو مو ـ جو «فتنة الصباح»:

الصباح ، شاحب مثل ضوء القمر ،
يخترق أعماق الغابــة المكتظة ،
مبعثرا أخيلة تنضفر مضطربة بالرمال الفضية .
صاف هو البحر وراء شجرات الصنوبر ،
بعيدا ، بعيدا جدا ، اخيلة الجزر تنبثق سديمية ،
قد يخطر للمرء أن يتشبث بحلم الليلة المنصرمة .

بعد شهرين من مغادرة شيانغ هوا لتينفهسيين بدأت الامور تتبدل في المدرســة الابتدائية . أخذت تاو ــ شينغ تتصرف وفقا لتعليماته ، وبذلت جهدها لتجذب اليها اكبر عدد ممكن من الناس . اقتربت أولا من شاو يو ــ شينغ الذي كان يبدي شيئا من الميول الثورية . وكان التشابه في وجهات نظريهما قد جعل كلا منهما يعتمد على الآخر لبث الشجاعة

في نفسه ، وغالبا ماكانا يتباحثان حول كيفية مواصلة عملهما السري في المدرسة . وشيئا بعد شيء شرعت أعداد متزايدةمن الطلاب والمدرسين بالقيام بأعمال المقاومة ضد اليابان . وأنشئت جمعية طلابية مستقلة كما أنشئت جمعيات ادبية وموسيقية ومسرحية . وكانت تاو ـ شينغ على صلات طيبة مع أكثر زملائها ، فقد اتبعت نصيحة شيانغ هوا لها باتخاذ أكبر عدد ممكن من الاصدقاء قبل محاولة التأثير عليهم . وبصورة خاصة ، فقد بذلت قصارى جهدها كيما تجعل مديرة المدرسة الحذرة المحافظة تحبها وتثق فيها بصورة تبعدها عن التدخل في نشاطاتها .

سألت مديرة المدرسة مرة بصورة اتفاقية : « ماذا تفعلين أنت والاولاد في الريف ، يا تاو ـ شينغ ؟ غدوت ، خلال نصف العام الذي أمضيت هنا ، أشبه ما تكونين بولد صغير ! » .

ـ انهم ، جميعا ، أعضاء في الجمعية الادبية ، ياعمتاه . نحن نحب الادب جميعا ، ولذلك نستمتع بالعثور على بقعة جميلة في الريف نتلو فيها الاشعار أو الآثار الادبية الرائعة . ويخطر لي حقا أن تنضمي الينا ذات يوم .

ضحكت مديرة المدرسة ، ولمست شفتيها بمنديلها .

ـ شاخ بي العمر . ولست أملك الانعطافات الشعرية التي تملكون ، أنتم الشبان ...

واسترسلت هامسة ، وقد ارتسمت على وجهها علائم الجد : « أخبرني السيد يو أنهم يعتبرونك مشبوهة ، وكذلك شاو يو ـ شينغ أيضا ... وأنك تأخذين الطلاب خارج المدينة لعقد اجتماعات . حذار ! فليس في نيتنا أن نعرض سمعة المدرسة للأخطار » .

ومسدت شعر الفتاة ، وتابعت تقول في قلق : « أثمة شيء مغلوط ؟ أنت تزدادين نحولا وضعفا ؟ هل وصلتك رسائل من السيد شيانغ ؟ ... لقد كتب شقيقي وهسياو ـ ين عدة مرات يطلبان الي أن أعنى بك جيدا ، فكوني فتاة طيبة ، ولا تتيحي لأحد فرصة لنشر الاقاويل ! » .

ـ أتصدقين حقا ما يقول السيد يو ، يا عمتاه ؟

وانتظرت تاو ـ شينغ في هدوء أن تحصل على جواب .

هزت الآنسة وانغ رأسها بعيد لحظات من التردد ، وقالت : « كلا ، لا أصدق ! ولكنني مسؤولة عن هذه المدرسة كما تعلمين . وكلمة « شيوعي » تثير اعصابي ».

انفجرت تاو - شينغ ضاحكة . وأمسكت بالاصابع النحيلة للمرأة العجوز بين اصابعها ، وقالت في حنو : « لاتقلقي ، يا عمتاه ! ليس ثمة ماتخافين منه . فالكيومنتانغ يسمون كل وطني شيوعيا . كل ما فعلت هو انني أخبرت الطلاب أن يحبوا وطنهم وأن يجتهدوا في دروسهم . ترى ، كيف يمكن لأي صيني يملك قلبا ألا يحب وطنه ؟ فكري ، ياعمتاه ، في الخطر المحدق بالصين !.. » .

أومأت المديرة برأسها ، والتمعت عيناها الصغيرتان بالعبرات .

وهكذا استمر العمل السري .

ذات عشية قبيل بدء العطلة الصيفية بزمن قليل ، جاء البواب يخبر تاو - شينغ أن شخصا يود رؤيتها . خفق قلبها . وتساءلت : « أيمكن أن يكون شيانغ هوا ؟ » .

أسرعت خطواتها الى البوابة .

تضايقت عندما وجدت أنه تاي يو ، ولكنها ما أسرع أن مدت يدها اليه .

قال تاي يو في وداد ، وهو يقبض على يدها في يده : « لم أرك منذ طويل زمن ؟ كنت مارا من هنا ، فاغتنمت الفرصة وجئت أزورك ».

- حقا مر طويل زمن . تفضل !

قادته تاو - شينغ الى غرفتها ، وعاملته معاملة صديق قديم ، واسترسلت تقول : « ان شيانغ هوا لم يكتب لي منذ ذلك الحين ، وليس لدينا انسان يمكن أن نلجأ اليه لقيادتنا . انقذ قدومك الموقف حقا ! » .

كانت تمحضه كامل ثقتها .

سأل تاي يو ، وهو ينفث دخان سيكارته : « هل جاء احد من المدينة لرؤيتك ؟ » .

مطت تاو - شينغ شفتيها ، وهي تشعر انها أشبه ماتكون بطفلة صغيرة في حضرة هذا الثوري : « لم يأت احد على الاطلاق ! ليس

ثمة غير شخصين منا هنا. الآخر يدعى السيدشاو، وهورجل فتي، فطن، طيب . وقد تمكنا من اجتذاب عدد من المعلمين والطلاب حولنا ، وقمنا بدعاوة قليلة وعمل تثقيفي قليل . وان حوالي دزينة من الاداريين والطلاب تقدميون ويتعاطفون معنا ... »

قاطعها تاي يو مستفسرا : « من هم ؟ ماهي أسماؤهم ؟ ماهو نوع العمل الذي قاموا به ؟» .

ــ الا يمكن أن تؤجل هذه الامور قليلا ؟

كانت شكوك تاو ــ شينغ قد بدأت تستثار ، فأمسكت عن ذكر الاسماء حينما تذكرت نصيحة شيانغ هوا .

لوّح تاي يو بيده لإسكاتها ، وهو يرشف شايه قائلا : « من دون ريب . اخبريني بخططك عن المستقبل ــ هل أنت قانعة بالقيام بأعمال الدعاوة فقط ؟ » .

ــ قال شيانغ هوا انه لاينبغي علينا أن نكون عديمي الصبر ، وان بناء قوتنا يتطلب زمنا ... وان شرارة واحدة يمكن أن تشعل نارا كبيرة !

ــ لكن هذا خطأ ، هذه وجهة نظر يمينية !

شدهتها نبرة حديث تاي يو القاطعة . فأصغت الى محاضرة طويلة عن الثورة الصينية ، وهي عاجزة عن القول ما اذا كان على صواب أم على خطأ . الا انه لم يك هنالك شيء غير صحيح بخصوص وصيته الاخيرة : « أحضري ذلك الرفيق شاو . وسوف أناقش معكما ما ينبغي أن نفعل » .

حينما جاء شاو يو ــ شينغ ، واشعلت تاو ــ شينغ القنديل ، جلس ثلاثتهم حول المنضدة ، فشرع تاي يو يصدر تعليماته في هدوء. انهمك الآخران في مناقشة حامية . أعلنت تاو ــ شينغ ، وقد اصطبغ وجهها حمرة : « اذا نحن استمررنا نعمل وفق مايقال ، فلسوف ننتهي من دون ريب ، واذكر كلماتي هذه ، الى المتاعب ! أفلا ترى انه بسبب اننا انتصرنا على مديرة المدرسة وعدد من جهازها الاداري ، وبسبب اننا عزلنا يو يو ــ تيين جانبا ، فقد وطدنا لأنفسنا موطىء قدم ههنا وصار في مقدورنا أن نتابع عملنا قدما ؟ فاذا دمرنا الراس فأين يمكن أن نكون ؟ »

حدّق شاو فيها بثبات ، وقد اهتاج مثلها : « لقد جانبك الصواب ! ولا تستثيري مشاعرك كثيرا ، يا تاو – شينغ ! يجب الا نكون ودعاء ونحن ننفذ أوامر قائدنا . ينبغي أن نطيع حتى لو أودت بنا الطاعة الى صعوبات . والاكثر من ذلك » وتطلع الى وجهها المتورّد المذهول ، وضرب على المنضدة بقبضته ضربة خفيفة « أفليس معروفا بصورة عامة أن وانغ ين – وين كانت تتعاطف كثيرا مع مفوض التعليم بحيث راحت تستخدم النقود المخصصة لطعام الطلاب للقيام بأعمال خاصة بالتحالف مع يو يو – تيين ؟ وتبعا لنصيحة يو شرعت تتجسّس على المعلمين والتلاميذ . أفلم تسمعي شكاوى الجميع ؟ كان الرفيق تاي على حق حينما قال : « انهم خدم للكيومنتانغ » . والناس هنا ليست لديهم خبرة بالنضال – ويجب أن نغتنم هذه الفرصة لتعميدهم بنيران المعركة ! »

ظلت تاو – شينغ معتصمة بصمتها فترة من الزمن ومرفقاها على المنضدة ، وراسها مدفون بين يديها .

وجاءها صوت شاو صدوقا ملحاحا : « مارأيك في هذا ؟ اذا كان لديك أي اعتراض ، فاذكريه لي ! »

رفعت تاو – شينغ رأسها في انشداه : « ماذا يمكن ان أقول ؟ فليسقط يو يو – تيين ، ولتسقط مديرة المدرسة .. طالما ان هذه أوامر ، من واجبنا تنفيذها . لكنني لا أستطيع أن أفهم حقا – هل يعتبرون مديرة المدرسة عدوا ؟ »

قطب شاو وجهه فجأة في قساوة : « هل يجب أن تأتي القضية ثانيا والعلاقات الشخصية اولا ؟ لقد كنت صديقة حميمة لها خلال هذه المدة بطولها ... وكنت تنادينها « العمة » هنا و « العمة » هنالك ... وأنا لم أحب ذلك . ومع هذا ، فقد انتهى كل شيء الآن . وبما أننا تلقينا أوامر من قائدنا ، فيقتضينا الواجب أن ننفذها حرفيا ...الثورة يجب أن تكون مثل العاصفة ، مثل الرعد والبرق ، تمسح كل شيء أمامها ، مثلما حدث في أماكن عديدة ..»

ولما شعر أنه احتدّ أكثر مما هو ضروري ، فقد استمرّ يقول في صوت خفيض : « تذكري ، يارفيقة ، انني شاركت في الحركة الطلابية

في المدرسة النظامية الثانية في باو تينغ ، وانا اعرف عمَّـاذا اتحدث. اياك والتردّد بعد الآن . ولنبحث كيف نباشر العمل . »

ان كره شاو لأسلوب وانغ ين — وين السوقي في محاولة نيل الحظوة لدى بعض المعلمين ، ومعرفته ببعض أخطائها الشخصية ، جعلاه يعتزم تدميرها وتدمير يو يو — تيين . ووافقت تاو — شينغ ، وقد كانت تنقصها الشجاعة لإقناع نفسها ، على خطته والذهول يتملكها.

* * *

في الصباح ، بعيد ثلاثة أيام ، بينما تلاميذ الصفوف الاولى يطفرون فرحا في طريقهم الى المدرسة وقد علقوا حقائبهم المدرسية بظهورهم ، كان ثمة شيء غير عادي يقع في صفوف الحلقتين الخامسة والسادسة. كان الطلاب والطالبات ، في باحة المدرسة ، قد تجمعوا اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة وهم يتحدثون في اصوات مهموسة . وحينما قرع جرس الانطلاق الى الصفوف لم يتحرك أحد منهم صوب قاعات الدرس ، كما لم يتحرك أحد منهم أيضا حينما قرع جرس البدء بالدروس بعد فترة من الوقت .

وقف يو يو — تيين ، معلم الصف السادس ، خارج غرفة الدرس وحاجباه الكثان منعقدان احتدادا . ثم استدار واتخذ طريقه، وقد استشاط غضبه،الى مكتب مديرة المدرسة.وظهر شاو يو — شينغ، معلم الصف الخامس ، ثم اختفى .

وفيما راح يو ومديرة المدرسة يتشاوران في همس اقترب منهما حشد من التلاميذ يطلقون هتافات عالية . وعلى الفور استحال وجه مديرة المدرسة النحيل بلون الشمع ، وشرعت ركبتاها ترتجفان .

اندفع الى الامام وو هسويه — شانغ و لي كيو — هوا وثلاثة آخرون من ممثلي الطلبة ، وركزوا انتباههم على مديرة المدرسة ويو ، واستفسروا : « آنسة وانغ ، فيم تطعمين الطلبة الداخليين بصورة سيئة ؟ ماهو المبلغ الذي جمعتيه من مدفوعات طعامنا ؟ »

— يو يو — تيين ، انت جاسوس من جواسيس الكيومنتانغ ! فيم

تتجسَّس علينا ؟ وفيم تضطهد الطلبة الوطنيين الذين يريدون مقاومة اليابان ؟

ولم تمض لحظات حتى دوّت الباحة بأصداء صيحات غاضبة :

ـ فليسقط يو يو ـ تيين !

ـ فلتسقط وانغ ين ـ وين !

وشرع التلاميذ ، بوجوههم المتوردة . يتواثبون في حركات جنونية وهم يلوّحون أذرعهم .

صاح يو حالما سنحت برهة من الصمت : « أرجعوا ! عودوا ! »

وقف عند الباب ، وقد هدأ وجهه الشاحب ، وهو يواجه خمسين أو ستين تلميذا .

ـ عودوا الى صفوفكم ! هل جننتم بحيث تسمحون لأنفسكم أن يقودكم الشيوعيون على هذا الغرار ؟ ان أنتم أثرتم شيئا من المصاعب فلسوف تندمون على ذلك حقا .

وصاحت المديرة في صوت مرتجف : « أيها الصبيان والفتيات ! . »

كانت شفتاها شاحبتين ، وعيناها الصغيرتان تلتمعان بالعبرات : « لا تكونوا حمقى ! اياكم وذلك ! عودوا الى صفوفكم ! » وانهمرت العبرات على وجنتيها .

زحف بعض الطلبة ، ممن أخافتهم تهديدات يو ومست شغاف افئدتهم عبرات مديرة المدرسة ، عائدين الى صفوفهم ، وقد خابت آمالهم بالكلية . أما البقية البالغ عددهم ثلاثون بقيادة وو هسويه ـ شانغ و لي كيو ـ هوا المثالي الشجاع ، فقد تابعوا صراخهم وتواثبهم خارج مكتب مديرة المدرسة . كانت تاو ـ شينغ ، حتى اللحظة الراهنة ، تكبح جماح الطلاب التقدميين ، وتحذرهم مرات عديدة ألاّ يفضحوا أنفسهم . أما الآونة ، وقد بث شاو يو ـ شينغ في نفوسهم روح الشجاعة بالانطلاق قدما دون خوف ، فان هؤلاء الاطفال غير المجرّبين ، الذين امتلأت رؤوسهم بالافكار الثورية ، يباشرون اضرابهم بصورة خرقاء .

ـ فليسقط يو يو ـ تيين ، عميل الكيومنتانغ !

ـ فلتسقط الانانية وانغ ين ـ وين !

– فليسقط الخونة الذين يقبلون بالحلول التي تحمل المهانة !

وقسم الطلاب انفسهم الى قسمين ، شرع كل منهما يطلق هتافاته بالتناوب بأصوات جشاء . وشرعوا يعنفون أصدقاءهم الذين عادوا الى صفوفهم .

ازداد الجو توترا . وغدت المدرسة الصغيرة التي كان يسودها الهدوء دائما ساحة معركة . كان هنالك اضراب لاريب فيه في الصفين العاليين ، في حين قفل عدد من الطلاب الودعاء من العائلات الثرية الى بيوتهم خلسة . وسار طلاب الصفوف الدنيا ارتالا الى قاعاتهم على مألوف العادة حينما قرع الجرس ، الا أن عيون معلميهم ظلت شاردة صوب أرض المدرسة . كانوا يخاطبون أنفسهم في رعب : « هذا يعني مصاعب جدية .. »

في باحة المدرسة ، تابع الصبيان والفتيات الكبار صياحهم بأعلى مافي أصواتهم من قوة ، وقد توردت وجناتهم واستولت الفظاظة عليهم فكأنهم يشاركون في شجار في أحد الشوارع . بعضهم ، ممن ينزعون الى الهدوء ، يطلقون صيحات لامعنى لها ، وبعضهم الآخر ليست لديهم اية فكرة عن أعدائهم، فهم يتابعون صراخهم وتواثبهم أسوة بالآخرين .

* * *

٥

بقيت مديرة المدرسة و يو لائذين بالصمت فترة خيّل انها دهر كامل . وحينما تبينت لهما ثغرة في صفوف التلامذة فقد انطلق يو الضخم البنيان بين ذلك الحشد واندفع خارج المدرسة .

ـ أدركوه ! أسرعوا ! اقبضوا على الافعى !

ـ أسرعوا ! فلنذهب ونقدّم عريضة لمكتب التعليم !

ونُفّذ اقتراح لي كيو ـ هوا على الفور ، فركضت مجموعة من الصبيان والفتيات وراء يو .

ـ أفلن تجيء ، يابي تيه ـ جيو ؟ ... تعال ! فنحن ذاهبون الى مكتب التعليم !

وامسك لي كيو ـ هوا وصبي آخر كبير منقّط الوجه يدعى لي شان ـ آو بذراع بي تيه ـ جيو يشدّاه للذهاب معهما .

تمتم يقول في احتقار : « أنا لن أذ ـ ذهب .. مافائدة الذهاب ؟ الافضل أن أقضي الوقت في البحث عن الطعام » .

ونكس راسه وعاود الدخول الى المدرسة .

صاح لي شاو ـ آو وراءه في صوت غاضب : « هه ! لقد انهار ! » وركض يلحق بالآخرين .

ماأن ذهب يو ومتأثروه حتى أنتقت تاو ـ شينغ عددا من التلاميذ للعمل على لصق منشورات حمراء وخضراء في أرجاء المدرسة كلها ، بما في ذلك المراحيض وغرف الطعام . كان بعضها يحمل مثل هذه الكتابات : « فلتسقط مديرة المدرسة ! » و « ليسقط يو يو ـ تيين ! » ، وبعضها الآخر ، وهو الذي اجتذب مزيدا من الاهتمام ومزيدا من الدهشة « عاضدوا الحكومة الصينية السوفييتية ! » أو « عاضدوا الحزب

الشيوعي الصيني ! » وتبادل الفتيان والفتيات الذين تراصوا لقراءتها نظرات الانشراح ، أو الفضول ، او الرعب .

ــ انظروا الى هذا ! الحزب الشيوعي ...

أمر بعض المعلمين ، وهم يغالبون ذعرهم ، تلاميذهم بالعودة الى الصفوف ، في حين راح آخرون يحدقون في الملصقات بعيون يمازجها التساؤل والغبطة .

كانت تاو ــ شينغ معلمة للصف الثالث . ظلت أول الامر في قاعة صفها مثل بقية معلمي الصفوف الدنيا ، وهي تسترق النظر بين حين وآخر الى الخارج وترهف سمعها كيما تلتقط جميع مايجري هنالك . وحينما غادر المعلمون الآخرون صفوفهم بعد انفجار الاضراب خرجت تبحث عن شاو يو ــ شينغ . غير ان ذلك الشاب المتهور الطائش لم يكن على مرمى البصر في أي مكان . كان قد ركض يمدّ يد العون للذاهبين يعترضون .

ــ ابذلي جهدك للاندماج في الناس الذين يحيطون بك ، ولا تسمحي لنفسك بالانفضاح . وحاولي بشتى الطرق اكتساب مزيد من المتعاطفين الى جانبك ..

كان شيانغ هوا قد انبأها بهذه المبادىء الثلاثة للعمل السري في المناطق التي يسيطر الكيومنتانغ عليها في ذلك اليوم الذي جُرح فيه. ماذا ستكون نتيجة الأعتراض والالتماس ؟ ماذا سيحدث الآن بعد ان فضحت نفسها مثلما فضح شاو يو ــ شينغ والطلاب التقدميون أنفسهم ؟ قرع الجرس الاخير ، فانطلق الفتيان والفتيات الى بيوتهم ، وسارت تاو ــ شينغ مكتئبة الطلعة عائدة الى غرفتها على قدميها . ولم تكد تجلس لتهدئة ذهنها المضطرب والتروّي فيما تأتيه من عمل بَعدُ حتى دخلت مديرة المدرسة ، شعرها مبعثر وعيناها منتفختان حمراوان . نظرت الى تاو ــ شينغ مباشرة طوال لحظات ، ثم تهالكت جالسة مثل جثة متيبسة . سألت ، منكسة الرأس : « آنسة لين ، أفلست تملكين ضميرا ؟ أتراني عاملتك بصورة سيئة طوال هذه المدة؟»

ــ ماذا تقصدين ، ياعمتاه ؟

لم تفاجىء الزيارة تاو ــ شينغ . لابدّ أن مديرة المدرسة خمنت أنها ، على الرغم من انها لم تفضح نفسها بصورة مباشرة ، تقف وراء اضراب هذا النهار .

انها ، على الرغم من أنها لم تفضح نفسها بصورة مباشرة ، تقف وراء اضراب هذا النهار .

رفعت وانغ ين – وين رأسها فبدا وجهها شاحبا : « ان لدي أشياء كثيرة أقولها ! لقد جئتِ الي بناء على توصية من شقيقي . والحقيقة اني أحطتك بعناية خاصة . لقد أخبروني منذ البداية أنك موضع شبهة . غير أنني رفضت أن أصدق ذلك . كان أبعد من حدود تصوري أن فتاة شابة يمكن أن تنضم الى أي حزب أو تشارك في مثل هذه النشاطات المجرمة الخطيرة . وفيما بعد ، حذرني السيد يو أكثر من مرة من أنك وشاو يو–شينغ تجمعان التلامذة لعقد اجتماعات، اجتماعات لنشر الافكار الشيوعية ، ولكنني رفضت أن أصدق ذلك أيضا . وظللت ، حتى آخر الحدود ، ادافع عنك ! » أطلقت تنهيدة ، ولجأت الى الصمت فترة . ثم قست ملامح وجهها : « ما أصعب أن تحكم على فؤاد المرء بالتطلع في وجهه ! لم يخطر لي في بال أنكما ستحرضان التلاميذ ضدي وضد السيد يو ، وان جدران مدرستي ستعج بالشعارات الشيوعية ! .... حسنا ، ياآنسة لين ، ماذا هنالك أيضا مما يمكن أن يقال ؟ لقد وضحت الحقائق بما فيه الكفاية بحيث يراها الجميع ، فافعلي ماترينه مناسبا . وينبغي أن تنفذ العدالة ! »

نهضت على قدميها ، وانزلقت خارجة بسرعة قبل أن تتمكن تاو – شينغ من بذل اية محاولة لتبرير عملها . وظلت الفتاة جالسة فترة طويلة في دوامة من الاستغراق .

بعيد ظهيرة ذلك اليوم رجعت قلة من التلاميذ الى المدرسة . فقد استبقاهم آباؤهم في البيوت بعدما سمعوا عن الاضطرابات ، وهكذا توقفت الدروس بصورة مؤقتة . وكانت تاو – شينغ فريسة قلق شديد – ومن حسن حظها ان ليو هسيو – ينغ وثلاثة آخرين من المسؤولين عن « أعمال الارتباط » ، كانوا يترددون بين فترة وأخرى ويقدمون تقريرا عما يجري في الخارج .

– وقف السيد شاو ورفاقنا الطلاب فترة من الوقت خارج «مكتب التعليم» يهتفون بالشعارات ، مطالبين بفصل مديرة المدرسة والسيد يو . ومن بعد انطلقوا الى الحكومة الاقليمية حيث لايبرحون يهتفون بالشعارات هناك .

— ذهب السيد يو الى مركز قيادة الكيومنتانغ . والآنسة وانغ موجودة في « مكتب التعليم » .

كان القلق ينهش تاو — شينغ بأنياب حادة ، والوقت يبدو وكأنه يجري على مهلته .

وحينما بلغت الساعة الثالثة ولم يرجع شاو والتلاميذ فقد عجزت عن الإنتظار في سكون خامل ، فانطلقت معدزينة من الصبيان والفتيات ميممة شطر الحكومة الاقليمية . كانت سحب من الغبار تهب عن طريق الوسخة ، وشمس الصيف تنصبّ قائظة ، فيما هم يتابعون ركضهم متضرجي الوجوه لاهثي الانفاس . وعلى حين غرة ، لمحوا شاو يو—شينغ وجماعته يقتربون . وانفجرت الجماعتان في صيحات مبتهجة .

— لقد رجعتم ! لقد رجعتم !

— لقد انتصرنا ! لقد انتصرنا !

وترامى الصغار على أعناق بعضهم يتراقصون فرحا ، وتصافح المعلمان . وهتف شاو في اهتياج وقد انصبت أشعة الشمس على وجهه المغبرّ النحيل : « لقد تكلّل نضالنا بالانتصار ، يا تاو — شينغ ! لم يعرنا مكتب التعليم أقل اهتمام بادىء الامر . كما تجاهلتنا الحكومة الاقليمية ايضا . ولكننا ظللنا نهتف بالشعارات ونهدّد بتحطيم المكتب الحكومي الى ان استسلموا . وخرج رئيس حكومة المقاطعة ومفوّض التعليم معا للقائنا . ووعدا بفصل وانغ ين — وين و يو يو — تيين . »

وأنهى شاو حديثه مبتسما ، وهو يربّت على ظهر تاو — شينغ : « والآن ، ماراًيك ؟ » .

كان بذلك يقصد الى القول : « لقد كنت محقا ، بعد كل شيء! »

شعرت تاو — شينغ بفيض من البهجة يعمر قلبها بسبب انتصارهم ، واكثر منه بسبب عودتهم سالمين . لم تفصح عن ذلك ، بل شدّت على يدي اثنين من التلاميذ وهتفت ضاحكة : « ما أسعدني! لقد رجعتم أخيرا ! » .

❋ ❋ ❋

أمطرت السماء في تلك الليلة ، فما استطاعت تاو — شينغ أن تغمض جفنا وقد اذهلها ذلك الإنعطاف الفجائي في الاحداث ، وأعجزها

التأكد من النتيجة التي سيقود اليها . لم تكن تشارك في تفاؤلية شاو البسيطة . وكان عليها أن تثق بنفسها . وكانت أفكارها تتجه الى المرسين في قضايا النضال ، رجال من أمثال شيانغ هوا و لو شيا - شوان . وغلبها النعاس ، فرأت بعيني خيالها وجهيهما ، وتراءى لها انهما يخاطبانها بقولهما : « اثبتي ، يا تاو-شينغ! لاتفقدي صوابك !.. »

لابدّ أن هنالك من ينادي عليها باسمها ، فاستيقظت جافلة . لم يكن ذلك حلما . ثمة من يقرع على النافذة .

وتناهى اليها صوت مرعوب لاتلتقطه الاذن الا بصعوبة : « آنسة لين ! آنسة لين ! »

وثبت تاو - شينغ وفتحت الباب . كانت الظلمة مخيمة والمطر يسّاقط مدرارا . وكان بي تيه - جوي يقف عند الباب وقد غسله المطر وارعشه البرد . أمسك بها من ذراعها ولهث قائلا : « ثمة شيء قد سار في وجهة خاطئة ، يا آنسة لين ! » . وتوقف عن الكلام يلتقط انفاسه وقد أعجزه الاهتياج عن النطق .

خفق قلب تاو - شينغ . ولكنها سيطرت على أعصابها ، وقالت في نغمة لطيفة : « رويدك ، ياتيه - جوي ! ماذا حدث ؟ » .

- آنسة ... يا آنسة لين ، والدي أرسلني الى هنا لأخبرك .. انك في خطر !

- ماذا تقصد ؟ أي خطر ؟

لاريبة ان أمرا خطيرا حمل هذا الطفل الذي يقطر الماء من انفه على التوجه الى المدرسة في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل تحت تهطال المطر .

- يجب أن ترحلي ، ياآنسة لين ! على الفور ! انهم قادمون لإلقاء القبض عليك وعلى السيد شاو !

- ماذا ؟ ...

وجرت تاو - شينغ الصبي الى غرفتها .

- سمع والدي هذا الحديث حينما كان يقدم الشاي في مكتب الحكومة الاقليمية . لقد عقدوا اجتماعا هذا المساء ، رئيس الاقليم ورجال من مركز قيادة الكيومنتانغ .

وحدق بي تيه – جوي في وجه تاو – شينغ خلال العتمة ، واكمل يقول : « سمع والدي ما قالوا . الليلة ، الساعة الثانية عشرة ، سيجيئون لالقاء القبض عليك وعلى السيد شاو ... يجب أن تهربي – سريعا ! » .

نظرت تاو – شينغ في ساعتها : انها تقترب من الحاديةعشرة . فربتت على كتف بي تيه – جوي ، وقالت : « أنت ولد طيب . شكرا لك ! اشكر والدك نيابة عني أيضا . المطر لا يزال ينهمر بشدة مثله قبلا ، ولكنه يحسن بك أن تعود الى البيت .رويدك برهة ! هل سيعتقلون احدا غيرنا ؟ » .

– كلا ، ليس هنالك أحد . أسرعي ، يا آنسة لين ، واخبري السيد شاو ... عجلي ! واهربا في أسرع وقت ممكن !

وانطلق بي تيه – جوي . وقفت تاو – شينغ تطيل النظر الى هيئته الصغيرة تحت المطر المنهمر الى أن اختفى وراء جدار منخفض . ثم عجلت تقرع باب شاو يو – شينغ .

عقدا مشاورة مستعجلة . أبدى شاو كرهه للرحيل وقد طغت عليه الشكوك أول الامر . وفقدت تاو – شينغ صبرها ، فقالت : « كيف يمكن أن تكون على هذا القدر من اليقين أنك على صواب ؟ أقول لك انك في خطر حقيقي ! حسنا ، اذا لم تكن ترغب في الرحيل ، فسوف لن أرحل أنا أيضا ! » .

قال شاو ، وهو يزرّر معطفه : « اذا كان هذا هو شعورك ، فلنرحل اذن . لكن ، الى اين نذهب ؟ ليس في مقدورنا أن نترك عملنا في المدرسة على هذا الفرار ، كما أن هنالك أولئك الصغار الذين يجب أن نفكر فيهم أيضا » .

– أنت على حق . مؤكد أننا لا نستطيع الرحيل بعيدا . وفضلا عن ذلك ، ينبغي أن نخبرهم ماذا يجب أن يفعلوا بعيد رحيلنا .

واغرقت تاو – شينغ في التفكير برهة ، واستتلت تقول : « سأقول لك ماذا ، يا يو – شينغ . سأذهب الى بيت ليو هسيو – ينغ . انها تعيش في قرية وانغ ووالدها يعمل نجارا . وبواسطتها

نستطيع البقاء على اتصال بالتطورات الجارية هنا . وأقترح أن تذهب أنت للاقامة مع وانغ بي ـ فو . وهنالك شيء آخر : هل ينبغـي أن نحذر زملاءنا القريبين منا ـ العجوز شين ، والعجوز هو ؟ »

ـ أنا أعرف مـاذا يجب أن أفعـل . اتركي كـل شيء لـي .

ـ وومضت عيناه ـ اذهبـي انـت اولا . وسـأرحل حالما انهي هذه الامور . وغدا صباحا أبعث اليك بكلمة ، وعندها نقرر الخطوات التي ينبغي اتخاذهـا .

ـ حسـنا ! لكن حذار من الا ترحل ! سأرجع الى غرفتي لاحزم اشيائي ، ولننطلق بعيد عشر دقائق من فوق الجدار .

ـ يحسن بنا الا نرحل معـا . اذهبي انت أولا ، وسألحق بـك سريعا . لقد عانيت مثل هذه المشكلة من قبل . ولست بخائف !

لم يكن لدى تاو ـ شينغ ما تضيفه . هدأت ثائرة نفسها قـدر استطاعتها ،وصافحت يد شاو بشدة وحدقت في وجهه طويلا ،وقالت في صوت مرتعش : «كن حذرا ، يايوشينغ ! حظا سعيدا ، ووداعا !».

احمارّت وجنتا الشاب وتبدى الاعجاب في عينيه . كان اهتمامهما الوحيد حتى هذه الفترة منحصرا في العمل ، أما في هذه اللحظة من لحظات الفراق فقد مس اهتمامها الودود به شغاف قلبه .

* * *

٦

هربت تاو – شينغ في تلك الليلة في ملء المطر المنهمر الى بيت تلميذتها ليو هسيو – ينغ .

لم تكن قد عملت في المدرسة في سبيل الثورة فحسب ، بل أقامت علاقات صداقة مع أهالي تلاميذها أيضا عملا بنصيحة شيانغ هوا . وكانت أقرب الصديقات اليها بين هؤلاء الاهالي والدة ليو هسيو – ينغ ، وهي فلاحة قوية في منتصف العمر أنجبت ستة أولاد . وكانت، على الرغم من صعوبات حياتها ، باسمة الوجه ، متفائلة ، شغوفاً بالعمل على الدوام . وكانت نظرتها الى الحياة وتجربتها الثرية قد ساعدتا على فتح عيني تاو – شينغ التي كانت ، بسبب من تربيتها المدينية ، متحيزة نوعا ما ضد الفلاحين على الرغم من أنها عاشت في الريف وتعرفت الى عدد كبير من القرويين . كان الفلاحون يبدون لها مجموعة من الفقراء الاغبياء ، تنقصهم الثقافة وتغرقهم مصالحهم القليلة في بحر من التعاسة. غير أن صداقتها مع والدة هسيو – ينغ بدّلت وجهات نظرها . ان زوج النجار هذه تعرف كل ما يتعلق بالزراعة مثلماتعرف كل شيء عن اولئك الفلاحين الذين يتعبون في الحقول ويعرقون . وكانت تختزن مجموعة من الحكايات المسلية حفظها زوجها خلال زياراته لعدد كبير من القرى المختلفة . وكان لها أيضا فهم أصيل بالحياة ، وبالنضال الطبقي المرير في الريف ،وبالاساليب العديدة التي كان الملاكون والمرابون الذين لايعرفون الى الرحمةسبيلا يستخدمونهالاعتصار الفلاحين الفقراء. وتعلمت تاو–شينغ من هذه المرأة العاملة العادية ان الفلاحين ليسوا اغبياء او متخلفين على الوجه الذي تصورته على الاطلاق ، ولكن الفقر المتواصل الابدي طحنهم بين أضراسه . ولما كانت واثقة الآن من ان صديقتها السيدة ليو

ستمد اليها يد المساعدة فقد انطلقت مباشرة الى منزلهـا . واستقبلتها المراة الذكية البارعـة في ودّ وبشاشة .

كانت باحة عائلة ليو نظيفة علـى الدوام . وكان نبـات القـرع والفاصولياء يمتدّ متدليـا عن التعريشات ، تتنفس اوراقه الخضراء السلام والهدوء تحت أشعة الشمس الدافئة . وكانت الغرفة التي تواجه الشمال مقسومة ثلاثة أقسام تنطلق من أحدها ، المطبخ ، سحب مـن الدخان . وكان الزمن وقت الغداء ، والسيدة ليو تراقب الفرن وهـي تخاطب تاو ــ شينغ .

تبسَّمت مُطَمْئِنة : « لا تقلقي ، ياحبيبة ! أمكثي هنا عدة أيـام وراقبي مجرى الامور .ان لدينا ، نحن القرويين ، مثلا يقول : ليـس هنالك نهر لا تستطيع عبوره . »

ــ لكن ، كيف يمكنني اللجوء الى الكسل هنا ، يا أختاه ، في حين ان في المدرسة ...

وتوقفت عن الحديث حينما لمحت هسيو ــ ينغ داخلة .

كانت هسيو ــ ينغ قد ذهبت في بكور ذلك الصبـاح الى المدرسـة للاطلاع على مجرى الاحداث . وراحت الآن تخاطب تاو ــ شينغ والعبرات في عينيها ، وقد خفضت رأسها : « لقد اعتقلوا السيد شاو ! »

ــ هسيو ــ ينغ ! اخبريني كيف وقع ذلك .

لم تفقد تاو ــ شينغ تفكيرها في دوامة ماسـمعت ، فتابعـت تقول : « أكملي ! » .

ــ في الليلة الماضية جاءت دزينة من رجال مكتب الامن العـام وفيلق الامن وأحاطت بالمدرسة . وكان السيد شاو لايبـرح فيهـا ، منهمكا في عمله ، وهكذا قبضوا عليه .

وارتعشت شفتا هسيو ــ ينغ ، ومسحت عينيها .

ــ وما هي أخبار بقية الصبيان والفتيات ؟ هل اعتقلوا أحداً منهم ؟

فأجابت الفتاة ، وهي تنشج : « أجل . لي كيو ــ هوا و يـو هسويه ــ شانغ ... ما ان وصلنا الى المدرسة هذا الصباح حتـى جرّت المديرة والسيد يو كلُّ من شارك منـا في تقديم عريضة البارحة الى مركز قيادة الكيومنتانغ للاستماع الى محاضرة . وحذّرَنا جنرال

نحيل يشبه القرد من أننا ، اذا أثرنا شيئا من المتاعب ، فسوف يتم اعدامنا جميعا .. وقد هددوا باعدامك والسيد شاو ايضا ! »

قالت تاو ـ شينغ ، وهي تحدّق في نبات القرع الاخضر الصغير المتدلي عن العريشة : « لاتبكي ، ياهسيو ـ ينغ ! سيجري كل شيء على مايرام . أثمة مزيد من الانباء ؟ »

كانت هسيو ـ ينغ لا تبرح منخرطة في نشيجها : « كلا .. هذا كل شيء . لكن ، ماذا ستفعلين ، يا آنسة لين ؟ انهم يبحثون عنك لاعتقالك ! »

ـ لا تقلقي ، يا هسيو ـ ينغ ، سوف لن يستطيعوا اعتقالي .. هل يمكن أن تخبري بي تيه ـ جوي و لي شو ـ ينغ وشو يو ـ كوانغ ووانغ كوانغ ـ تسو و لي شان ـ آو للاجتماع بي عند بحيرة قريتكم هذه الليلة ؟ لسوف نتحدث قليلا هنالك .

انتأت هسيو ـ ينغ شفتيها استياء ، ومسحت عينيها ، وقالت : « ان ذلك المجدور المرعب لي شان ـ آو خاننا ! لقد مال في مركز قيادة الكيومنتانغ الى صفهم ، وجعل يعظنا ويسخر منا . انا اكرهه!»

شحب وجه تاو ـ شينغ ، ولكنها امسكت الفتاة من يدها ، وقالت وهي تغتصب ابتسامة : « نستطيع أن نعمل من دونه . أخبري الآخرين اذن » .

بعيد ظهيرة ذلك اليوم ، وقبل أن يتاح لتاو ـ شينغ لقاء تلاميذها ، جاءت الى البيت امراة في حدود الخمسين من العمر . كانت تحمل سلة صغيرة ملأى بقطع من القماش ورسوم لأحذية مطرزة. كانت نحيلة ملفوحة الوجه ، أنيسة يغلب الخجل عليها . وكان يبدو انها على صلة طيبة بالسيدة ليو ، فما أن حيتها مبتسمة حتى شقت طريقها في صمت الى الغرفة الداخلية . كانت تاو ـ شينغ تجلس الى الكانغ منهمكة في الكتابة . فأخذها دخول تلك المرأة الغريبة على حين غرة ، ولكنها هبت تحييها وتقدم لها مقعدا .

قالت المرأة على مهلة ، وهي تبتسم : « لاتشغلي نفسك بي ، ياحبيبة ! تابعي كتابتك . في مقدوري أن أجلس في مكان آخر ».

ووضعت سلتها على صندوق ، وجلست على كرسي لا ظهر له.

دخلت السيدة ليو وراءها مباشرة ، وابتسامة غريبة تتخايل على ملامحهـــا .

وتطلعت الفتاة من امرأة الى الاخرى ، غير عارفة ماذا ينبغي ان تقــول .

قطع الصمت المربك صوت تلك المرأة الزائرة ، وهي تستوضح : « أتحبين شراء بعض رسوم الاحذية ؟ انها جديدة وجميلة » .

هزت تاو ــ شينغ راسها : « أخشى انني لا ألبس أحذيةمطرزة» .

تطلعت المرأة اليها معجبة : « لم لا ؟ انها تجعل من الفتاة الجميلة اكثر جمالا ! » .

والتفتت الى السيدة ليو مفترة شفتاها عن ابتسامة: «يا لها من فتاة جميلة ، فاتنة حقا ! ترى ، ماذا يمكن أن أملك ولا أعطيه للحصول على فتاة مثلها ! » .

تبسمت تاو ــ شينغ في ارتباك . جلست على حافــة الكانــغ ورمت بصرها صوب ذلك الوجه اللطيف ، وسألت في لطف : « هل أنت من هذه القرية ، يا عمتاه ؟ مما لا ريبة فيه أن لديك ابنة ؟ » .

فتحدثت السيدة ليو عن ضيفتها ، قائلة : « كلا ، ليس لديها ابنة على الاطلاق ! لقد فقدت زوجها منذ زمن طويل ، مثلما فقدت ولدهــا الوحيــد منذ مدة قريبة » .

ونظرت الى المرأة الاخرى ، وبارحت الغرفة وقد صعّدت تنهيدة .

شدهت تاو ــشينغ كثيرا لانالسيدة ليو وعدت أن تبقي وجودها لديها سرا من الاسرار . ولكنها دخلت في حديث مع الزائرة .

ــ صعب أن يعيش المرء وحيدا ، يا عمتاه . كيف تدبرين أمورك؟

وأدهش صوتها الواثق الهادىء تاو ــ شينغ كثيرا : « اني ادبر اموري كيفما كان . ان لديّ عددا كبيرا من الابناء والبنات بالمعمودية كما تعلمين . أقوم بجولاتي بين القرى وهذه السلة معلقة بذراعي ولاأعرف للجوع طعما . لكن ، من اين انت ، يا حبيبة ؟ وماذا تفعلين هنا ؟ » .

بدأ قلب تاو ــ شينغ ينبض بشدة وهي تتساءل ما اذا كانت عائلة ليو قــد خانتها .

أجابت في نبرة هادئة : « جئت في زيارة قصيرة ، يا عمتاه . هطل

المطر البارحة في أوانه ، أليس كذلك ؟ وينبغي أن نساعد في أعمال الحصاد » .

اطلقت المرأة الاخرى تنهيدة ، وعيناها على تاو ــ شينغ : « بلى. لقد حصلنا في السنوات القليلة الاخيرة على أكثر من نصيبنا من الجفاف والفيضانات . والاسوأ من ذلك قيام الحرب الاهلية ، فضلا عن أن رجال العصابات يشبهون الطاعون في كل مكان . لم تعد الحياة سهلة على الناس العاديين من أمثالنا في هذه الايام. أنت لست من هذه الانحاء ، ياحبيبة. أمعلمة أنت ؟ » .

حاولت تاو ــ شينغ ألا يبان الانزعاج على ملامحها . قالت :«أجل. أنا معلمة هسيو ــ ينغ وجئت أطلب من أمها أن تقوم ببعض أشغال الابرة لي . فتفضلت ودعتني أن أقيم يوما أو يومين ، وكنت سعيدة بقبول دعوتها . أتعيشين في هذه القرية ، يا عمتاه ؟ أجئت تسألينني أن أكتب لك رسالة ؟ » .

ضحكت المرأة الاخرى ، واجابت : « أوه ، كلا ! جئت اسأل عن أحدهم . أتعرفين من يدعى السيد شيانغ هوا ؟ »

شعرت تاو ــ شينغ بقلبها ينبض بسرعة . من تكون هذه المرأة ؟ ماذا يكمن وراء هذه الاسئلة ؟ لكن هسيو ــ ينغ التي دخلت في تلك البرهة كانت تبتسم . وكانت أمها ايضا تخلع على ملامحها ابتسامة غريبة. ووعت تاو ــ شينغ كل شيء على حين بغتة . لابدّ ان تكون هذه المرأة « عمة » شيانغ هوا .

قالت في هدوء : « أجل . انا أعرفه » .

نظرت المرأة الى هسيو ــ ينغ قبل أن تقترب من تاو ــ شينغ وتقبض على يدها . سألتها مبتسمة : « ألم يخبرك يوما عن عمته ، يا ابنتي ؟ » .

ــ أوه ، هذا ما أنت عليه اذن !

ورمت تاو ــ شينغ نفسها بين ذراعي المرأة . ثم قبضت على يديها ، يدين نحيلتين كثيرتي العقد ، لكن قويتين مفعمتين دفئا .

أجلست المرأة تاو ــ شينغ الى جانبها على الكانغ بعدما بارحت هسيو ــ ينغ الغرفة وتركتهما وحيدتين . قالت : « أنا آسفة،

يا ابنتي ! أخبرني ابن شقيقي انك تعلّمين في المدرسة . كان ينبغي أن أجيء لرؤيتك في وقت أبكر ، لكن الامور كانت تتطلب الحذر ههنا . وكنت أنا بعيدة . لم أستطع تدبير حضوري في وقت أبكر ... ومع ذلك فقد كنت أسمع اخبارك » .

أدركت تاو — شينغ الآن لماذا كانت السيدة ليو تقدمية حقا . لابدّ انها أخبرت « عمة » شيانغ هوا بجميع الاحداث التي وقعت . اصغت في سكون وانشداه ، فيما المرأة العجوز تتابع حديثها : « لقد فهمت أنك كنت تقومين بعمل رائع في المدرسة . فلماذا سارت الامور في وجهة خاطئة ؟ » .

أجابت تاو — شينغ هامسة : « ذات يوم جاء عضو في الحزب يدعى تاي يو لرؤيتي واخبرنا ان نهاجم المديرة ومعلما يدعى يو . وهكذا انكشفنا وفشلت خطتنا » .

وتكلمت المرأة في صوت هادىء : « وهكذا فقد زارك أحدهم ! » وبدا عليها الاضطراب .

وارتبكت تاو — شينغ .

احتفظت المرأة العجوز بالصمت ، وقد استغرقت في أفكارها .

وحدثت تاو — شينغ نفسها ، وعيناها تنظران الى ذلك الوجه العادي الاسمر المتجعد ، في تبصر فجائي : « انها المرأة التي قاتلت كتفا الى كتف بجانب شيانغ هوا ! » .

قالت المرأة في صوت ناعم حنون ، وهي تلتقط سلتها : « يؤسفني انني لم اتصل بك في وقت مبكر ، يا فتاتي . لكن لا فائدة من التأسف الآن . فلنواجه الحقائق . العدو يمشي على الدرب الى الحرب وينبغي أن تختبئي » .

قالت تاو — شينغ في اندفاعة متهورة : « عمتاه ، لا اريد ان ارحل بعيدا . ان لديءعددا كبيرامن التلاميذ هنا . كيف يمكنني أن أتركهم؟» .

ابتسمت المرأة الاخرى ، وضربت بلطف على يدي الفتاة الناعمتين ، واجابت : « الثوريون الطيبون لايستعجلون الامور ، يا بنيّتي ! ولاتستطيعين الاختباء هنا ، وأنا لن أطوح يك الى الاسود . مؤكد أن النصر سيكون

حليفنا في النهاية ، لكن الرجل الذي يقف تحت أفريز منخفض يجب أن يخفض رأسه » .

وبدلا من أن تشرح لتاو - شينغ ضرورة التراجع المؤقت لصيانة القوة الثورية ، جعلت تحاول ، بكل بساطة ، اقناعها بأن تينفهسيين مكان أخطر بكثير من أن تقيم فيه .

- لكن ، يا عمتاه ، ليس هنالك مكان ألجأ اليه . أفي مقدورك أن تعثري لي على مكان ؟

قالت المرأة ناعمة الصوت بعد تفكير قصير : « حسنا ، يا حبيبة . تستطيعين الذهاب معي . سأدبر أمرا لك » .

وابتسمت تاو -شينغ : « أوه ، حسنا ! » .

واسترسلت تقول ، وهي قلقة بعض الشيء : « أرجوك الا تنسي تلاميذي وشاو يو - شينغ . انه فتى ممتاز ، وقد اعتقلوه أيضا » .

اومأت العجوز برأسها ، وانفتحت عيناها المتعبتان ، فظهر فيهما بريق فتي : « لا تحزني ، ياابنتي . في اليوم الذي ننتصر فيه سنعمل على تضميد جروح كثيرة ... ان ولدي لي يونغ - كوانغ - هل سمعت به ؟ - وهب حياته منذ زمن قصير . لحمي ودمي ! ان ذلك يجرح قلب الام ويمزقه ! ولكنها الثورة ! ... »

وانخفض رأسها ، وتدحرجت العبرات على وجنتيها المغضنتين .

ترجتها تاو - شينغ ، وقد مس شغاف قلبها ذلك الوجه المعصور ألما : « لا تأذني للاسى أن يعتصرك ، يا عمتاه ! لقد فقدت ولدا واحدا ، ولكن لديك كثيرين ، كثيرين آخرين ... » .

وغص حلقها .

رحلت العمة لي ، وسلتها في ذراعها ، بعد أن وعدت بالعودة في غضون يومين لاصطحابها . وسرعان ما انطلقت تاو - شينغ بحماسة الى السيدة ليو تستوضحها : « أختاه ، أتستطيعين أن تروي لي مزيدا من الامور عنها ؟ »

فجاءها الجواب : « لست أعرف الكثير عنها ، أنا نفسي .. »

كانت وزوجها من الفلاحين الطيبين الشرفاء الذين يعيشون في قرية تاوانغ على مبعدة خمسة وعشرين « لي » من هنا . كانا معدمين ، لايملكان

من الارض ولا « مو » واحدا ، وكان عليهما ان يعملا لدى أحد اصحاب الاراضي ، وحينما ثار الفلاحون في كاويانغ وليهسيين شــارك زوجها في الثورة وقتل . وترك لها ولدا يدعى لي يونغ ـ كوانغ ، وهو شــاب رائع قاد حملات النضال في هذه الانحاء . أما بالنسبة الى الام ، حسنا ، فلن تجدي لها ندا بسهولة . الجميع في هذه الارجاء يعرفونها ويحبونها . وكل انسان يقع في المصاعب يستطيع دائما الاعتماد على عونها . وهــي لاتفشل أبدا . وهكذا تتابع عملها،في المطر والصحو ، على مدار السنة» .

ومســحت السيدة ليو وجهها الذي يغسله العرق بطرف معطفها والتقطت بيــدها نعل حذاء من القماش كانت تخيطه ، وتابعت تقول : « تلك المرأة معجزة من المعجزات . وهي تمر خلال النهار على بيوت جميع أصحاب الاراضي للقيام بأعمال غريبة أو بيع الحلي الصغيرة لنسائهم . أما عندما يهبط الليل فهي تمارس نشاطا ثوريا » .

وابتسمت .

غير أن هذه المعلومات الضئيلة لم ترضي تاو ـ شينغ التي تطلعت بحماســة في وجههــا وكأنها تستحثها قائلــة : « أخبرينــي عنها أكثر وأكثر ! » .

* * *

٧

بعيد ثلاثة ايام ، حوالي المساء ، أخبرت « عمـة » شيانغ هوا تاو ــ شينغ أن ترتدي ثيابا قروية وصحبتها الى بيتها ، على مسافة خمسة وعشرين « لي » الى الغرب . كان الظلام قد انتشر حينما بلغتا الكوخ الوحيد القائم خارج القرية . أقفلت « العمـة » لي الباب ،ودلفت الى الداخل وأشعلت مصباحا يعمل بزيت البارافين كان موضوعا علـى رف . فكشف ضوؤه العاتم عن كانغ(١) نشرت فوقه حصيرة ممزقة ، ولحاف قطني لا لون له ، ومخدة ضخمة تستخدم فراشا . وفيما راحت تاو ــ شينغ تطيل النظر حواليها في فضول خمّنت العجوز ماكان يجول في فكرها ، وقالت : « أنت لم تشاهدي منزلا فقيرا مثل هذا المنزل ، أليس كذلك ، يا ابنتي ؟ لكن ، ماذا أستطيع أن أفعل ؟ كنت أملك بعض قطع الاثاث وعددا من الصناديق ، ولكنني اضطررت الى بيع اكثرها. وهذا شيء له ميزته ــ فلست أملك الآن حاجيات تقف حجـر عثـرة في سبيلي ! »

وكنست الغبار عن الكانغ وهي تضحك ، وأشارت الـى تاو ــ شينغ أن تجلس .

اختلط ضوء مصباح البارافين المرتعش بأشعة القمر المتسللةمـن ورق النافذة الممزق وملأ الغرفة بسديم غريب يشبه ضباب كوخ في غابة من اكواخ احدى أساطير الجنيات ، وأسرت تاو ــ شينغ ، العاطفية الخيالية ، بسحر ذلك الجو الغريب وغرقت في تفكير حالم .

وبينما شرعت المرأة العجوز باضرام النار في الغـرفة الخارجية،

---

(١) مصطبة تستعمل سريراً فـي أرياف شمالي الصين مبنية من اللبـن والآجـر توقد فيها النار للتدفئة أيام الشتاء .

جلست تاو ــ شينغ على الكانغ مستغرقة في أحلامها ، تجرفها غرابة الاشياء المحدقة بها ، هذه الاشياء التي تختلف كثيرا عن الاشياء المألوفة لديها سابقا . وأدهشتها « عمة » شيانغ هوا ، وهي نموذج عادي من النساء النَّصَف المتعبات ، ولكن لها روحا فتية بالغة الروعة... وعادت الى عالم الواقع حينما أحضرت لها العمة لي فنجانا من الماء الحار .

انزلقت عن الكانغ ، وأخذت يد المرأة العجوز بيدها في حرارة ، وقالت في عجلة : « فيم هذا ، يا عمتاه ؟ لست عطشى » .

وابتسمت العمة لي :« ان لم تكوني عطشى ، يا ابنتي ، فأنا عطشى! كنت أعزق حقول الملاكين طوال النهار . أنا متعبة وظمأى » .

والتقطت السلطانية الكبيرة ، ونفخت على الماء الحار لتبريده ، واخذت رشفة . وراحت أفكار تاو ــ شينغ تنوه مرة أخرى . انها لم تعمل في الحقول من قبل ، ولذلك فهي من دون ريب لا تملك أية فكرة عما يعنيه التعب بعد عمل مرهق . وجعلها انهاك صديقتها الجديدة تشعر بالخجل من نفسها. ههنا امرأة في منتصف العمر أنجزت عملا يوميا مرهقا ورغم ذلك لم يزعجها أن تسير مجهدة عشرات من « ني » في المساء لترافق شخصا على طول الممرات الريفية المظلمة في سبيل حمايته ...

وشعرت تاو ــ شينغ بالعبرات تتجمع في مقلتيها . وطغى عليها التأثر بحيث عجزت عن الكلام فترة طويلة من الزمن .

في تلك العشية شاركت العجوز لي لحافها ومخدتها ، هذه العجوز التي استغرقت في النوم حالما اراحت رأسها على الفراش . ولكن تاو ــ شينغ عجزت عن النوم . كانت مجموعة من الاسئلة تعتصرها في فكيها . اين تراها ستقيم ؟ وكيف يتاح لها أن تعيش في المستقبل ؟ وما هوالعمل الذي تستطيع أن تمارسه ؟

كان القنديل قد انطفأ وضوء القمر قد تلاشى . ولم يكن ثمة ادنى صوت يزعج سكون تلك الغرفة سوى تنفسات رفيقتها الثقيلة ونباح الكلاب البعيدة المنطلق بين حين وحين . وكانت تاو ــ شينغ تستطيع سماع ضربات قلبها الخاصة . رغبت عدة مرات أن تستدير على جنبها،

غير أنها كبحت جماح نفسها ، فهي لا تود أن تزعج رفيقة فراشها . ولم يغمض لها جفن طوال تلك الليلة .

حينما أفاقت العمة لي في بكور الصباح كانت تاو ــ شينغ قد هيأت قليلا من الماء المغلي . ووضعت حوضا صغيرا من النحاس على حافة الكانغ الذي يقوم بثلاثة أعمال في وقت واحد : سرير ومائدة ودكة.

قالت تاو ــ شينغ في فرحة : « لقد نمت نوما عميقا ليلة البارحة، ياعمتاه .. هل أنت ظمأى ؟ اليك هذا الماء الحار » .

ــ يالك من بنية طيبة !

ابتسمت العمة لي مبتهجة وهي تمسك بيد تاو ــ شينغ : « ان أحدا من قبلُ لم ينتظر يقظتي على هذا الفرار » .

ــ لسوف نعيش جميعا حياة طيبة ، ياعمتاه ، حينما يتواجد مجتمعنا الجديد . الا تظنين ذلك ؟

ــ بلى ، من دون ريب . ورغم هذا ، فانها لمتعة رائعة أن يكون هنالك الآن من يغلي الماء لي . ما أسعدني !

شرعت العمة لي تطبخ في حين غذّت تاو شينغ الموقد بالحطب . وافطرا كعكا مصنوعا من جريش القمح وثريدَ دُخُن . وقالت العمة لي بعد الفطور : « لقد وجدت لك عملا للتدريس لدى عائلة أحد الملاكين. أهذا رائع ؟ »

وفوجئت تاو ــ شينغ : « عائلة أحد الملاكين ؟ »

ابتسمت العمة لي : « أجل . ما هو وجه الخطأ في قضاء وقت قصير في راحة بال ؟ » .

واستاءت تاو ــ شينغ لاول مرة منذ لقائهما : « كلا ، أنا لا أريد ان أذهب الى مثل هذا المكان ! »

ربتت العجوز على ظهر يدها وضحكت : « تجانبين الصواب ، ياعزيزتي . أنا لا أبعث بك اليها للعيش في راحة بال . أنا أطلب اليك القيام بعمل مثمر . ان جامع المال الخبيث ملاّك كبير لديه اكثر من الفي « مو » من الارض . وهو يبحث عن مربية لحفيده . وقد تدبرت الامر ، بواسطة صديق لي ، لأحصل لك على هذا العمل . هذه فرصة طيبة . ويحسن بك قبولها » .

— لماذا ؟ أنا لا اريد أن اعمل في خدمة أي من الملاّكين !

فجاءها الصوت اللطيف المتملّق قائلا : « كلا ! كلا ! اذهبي ، يا ابنتي . يمكن أن يفيدنا كثيرا وجودك في ذلك البيت . سأقودك مسافة من الطريق ، ومن ثم نلتقي بالسيد وانغ شيه — لي ، وهو مفتش المدرسة في هذا الاقليم . وسوف يقدمك الى الملاّك . في مقدورك أن تقولي انك جئت من تيينتسين ، وانك خريجة مدرسة ثانوية . أما ماتبقى فسيخبرك به السيد وانغ . فلنذهب الآن ، ألن نذهب ؟ » .

توقفت عينا تاو — شينغ السوداوان الكبيرتان على المرأة العجوز التي كان صوتها الحنون الثابت يفرض عليها أن تذعن وتطيع . فلم تظهر مزيدا من الاعتراض ، ولكنها لبست ثيابها الخاصة وانطلقت .

كان الملاّك سونغ كوي — تانغ يعيش في قرية تقع على حدود اقليم شينتسي المجاور لتينغهسيين . وما أن مشت المرأتان حوالي عشرة « لي » أو اكثر حتى التقتا رجلا يرتدي عباءة طويلة من الحرير قدمته العمة لي على أنه السيد وانغ . وحدست تاو — شينغ أنه واحد منهم . وحينما انتهى التعارف بينهما واستدارت العجوز تبغي العودة امسكت تاو — شينغ بها من ذراعها وقالت في اندفاعة : « تعالي زوريني دائما ، يا عمتاه ! لاتنسيني ! » .

وأخذت العجوز لي تاو — شينغ بيدها ، وتبسّمت : « ياللفتاة الحمقاء ! ليس هنالك مايبعث على الا كتئاب ! لقد حذّرني ابن شقيقي من ان فتاة من المدينة مثلك في حاجة الى شيء من التخشين . اظهري الآن قليلا من شجاعة ، وابذلي جهدك للتعرف على حياة الريف . لاينبغي أن تخافي من العمل الشاق أو الاوساخ . واذا ما وجدت شيئا من صعوبة فلا بدّ أن يمدّ أحدهم اليك يد المساعدة والعون . وسأحضر لرؤيتك بين حين وحين أيضا . والآن ، هيا اذهبي برفقة السيد وانغ . فقد اجرى كل الترتيبات مع سونغ كوي — تانغ » .

تأثرت تاو — شينغ حتى اعماقها . لقد ترك شيانغ هوا كلمة عنها اذن ! وهي كلمة تتوافق ونصيحته لها : « ينبغي أن تكوني قوية بما فيه الكفاية لاحتمال أي اختبار او تجربة » . وسرعان ما تشجّعت على الفور وأشرقت اساريرها مرة اخرى .

قالت ، وقد تضرّجت وجنتاها : « سأذكر ما قلت لـي ، ياعمتاه. أنا على استعداد للذهاب ، يا سيد وانغ » .

راحت تاو ـ شينغ ، وهي تخطو برفقة رفيقها الجديد ، تختلس اليه بين الحين والحين نظرات فضولية . كان دون الاربعين من العمر ، له وجه شاحب وشاربان صغيران . وكان يبـدو بعباءته الحـريرية الرمادية وقبعته اللبادية ونظارته أشبه بواحد من الطبقـة الراقيـة . أزعجها أن يقودها رجل من هذا الطراز الى منزل ملاك مرموق ، ولكـن ثقتها بالعمة لي أعانتها في التغلب على هواجسها .

سارا بمحاذاة ضفة النهر المتعرّجـة دون أن ينبس أحدهمـا بحرف ، والشمس الملتهبة ترسل أشـعتها الحارة فوقهما . وتفجَّر العرق من تاو ـ شينغ ، غير أن السيد وانغ تابع طريقه رابط الجأش .

اجتازا مسافة عشرين « لي » أو اكثر ، وراحا يقتربان من وجهتهما عندما توقف وقال في هدوء : « ينبغي أن تبدّلي اسمك . هـل نناديك شانغ هسيو ـ لان ؟ » .

أومأت تاو ـ شينغ برأسها وتبسمت في حياء :« شانغ هسيو ـ لان؟ »

ـ أجـل ، ويجب ألا تذكري شيئا عـن ماضيك في مدرسـة تينغهسيين . والا وقعنا جميعا في المتاعب . أخبريهم فحسب أنك من تيينتسين ، حيث كنت معلمة زميلة لابن عمي لي شين .

أومأت تاو ـ شينغ مرة أخرى ، وهـي تستذكر الاسم جيـدا في رأسها . ثم استدارت اليه مستوضحة في نبرة جدية : « ماذا لو سألوني عن السبب في قدومي الى الريف ، ياسيد وانغ ؟ » .

تبسَّم وهزّ رأسه موافقا : « سؤال وجيه . ماذا ستقولين ؟ »

ـ أعتقد اني سأقول لهم انني لم استطع العثور على عمل فـي تيينتسين ، ولذلك جئت الى هنا للاقامة مع عمتي . هل ينجح هذا ؟» .

ـ أجل ، أخبريهم بهذا على اية حال . يجب أن أحذّرك من شيء واحد . ان ذلك العجوز البخيل سونغ كوي ـ تانغ نذل حقيقي فـي مقدورنا أن نتعامل معه دون أية صعوبة ، غير ان ولده سونغ يو ـ بين ، وهو خريج جامعة بكين ، اكثر منه حرصا وحذرا . وأشك أن تكوني ندا له ، ولذلك عليك أن تتوخي الحذر .

شعرت تاو ـ شينغ بالرعب ، فتوقفت عن السير رغم ارادتها : « تقول أنه أكثر سوءا من والده ؟ اذن فأنا .. أنا .. »

ارادت أن تستوضح فيم يرسلونها اذن الى مثل هذا المكان ، ولكنها ضبطت نفسها . ألـم يقل شيانغ هوا أنها ينبغي أن تكـون متأهبة لأي اختبار أو تجربة ؟ طحنت اسنانها ، وتبعت السيد وانغ .

خمَّن ماكان يجول في فكر هذه الفتاة المدينية التي جاءت نعيـش في منزل احد ملاكي الاراضي في الريف حيث سيكون كل شيء جديدا عليها . وما يزيد الامور تعقيدا بالنسبة اليها أنها في مكان خطير وبين أعـــداء ...

خاطبها قائلا ، وهو يبتسم : « لاتقلقي ، فسوف لن تكوني وحيدة. انا و « عمتك » سنجيء لزيارتك في أغلب الاوقات . واجبك الاول هـو أن تقيمي علاقات طيبة مع الاسرة . حاولي جهدك بأية طريقة أن يحبوك ـ الاولاد وبقية افراد العائلة ايضا . وهذا يساعدك على القيام ببعض الاعمال بين الفلاحين » .

رددت تاو ـ شينغ في فزع : « أجعلهم يحبونني ؟ أنا لاابالـي باقامة علاقات صداقة مع الفلاحين ، أما الملاّكين .. »

ضحك السيد وانغ وهو يبتر حديثها بقوله : « سوف نبحث هذا الامر فيما بعد . الشيء الاكثر أهمية بالنسبة اليك هو أن تكوني على صلة طيبة مع هذه العائلـة . كما ينبغي ان تتظاهـري بالجهل قدر المســتطاع » .

جنح كلاهما الى الصمت . وتأثرت تاو ـ شينغ في سرها مـن مهابـة رفيقهـا وجلالـه .

وما اسرع ان بلغا قرية سونغ ووصلا الى قصر مهيب يمتدُّ تقريبا على طول الشارع بأسره . وشرع فؤاد تاو ـ شينغ يخفق وهي تجتاز البوابة السوداء السامقة . بدا لها أن والدها ورابئتها الحقود ينتصبان أمامها مرة أخرى . كانا قاسيين محبين للانتقام ، لكن عائلة سونغ هذه قد تكون أكثر منهما سوءا . وشعرت كما لو كانت تدخل عرينَ نمرٍ ، وكان عليها أن تستجمع كامل شـجاعتها لاخفاء انفعالها وهي تدلـف الى الردهة .

كانت الابواب والنوافذ مصقولة على الطراز الغربي ، أما المكتب والاثاث الخشبي فعلى الطراز الصيني . واستقبل تاو ـ شينغ والسيد وانغ رجل سمين نشيط الحركة في حدود الخامسة والثلاثين من العمر يرتدي عباءة من القماش . انه سونغ يو ـ بين الذي رحّب بتاو ـ شينغ في ادب جم .

ـ جميل منك ان تحضري وتعلمي ولدي . والدي مشغوف بهما كثيرا بحيث لايطيق التحاقهما بمدرسة . ولهذا السبب أوصى بك السيد وانغ وذكرك لنا . ويسعدنا ان تكوني هنا بيننا .

ردّت تاو ـ شينغ في حياء : « ليست لديّ خبرة كافية في حقل التعليم ، ولكنني سأبذل جهدي » .

وتدخل السيد وانغ في الحديث بعد أن ظلّ صامتا طوال تلك الفترة ، فقال : «ياسيد سونغ . الآنسة شانغ فتاة مستقيمة شريفة لم تتعرف على اشياء كثيرة في هذا العالم . وآمل أن توليها عنايتك الطيبــــة » .

ـ من دون ريب .

قال سونغ ذلك في حين ركضت من الغرفة الخلفية فتاة في الثانية عشرة من العمر يتبعها صبي يصغرها بعدة سنوات وتوقفا في المدخل . ابدت الفتاة اغتباطها ودهشتها لدى رؤيتها تاو ـ شينغ ، أما الصبي فجمجم قائلا : « يا للهراء ! فتاة ! » . وركض على الفور صوب الباحة ، وهو يصيح : « جداه ! جداه ! لا اريد ان تعلمني فتاة ! »

اعتذر سونغ قائلا: «لقد أفسده جدّه . أرجو أن تتعهديهما برعايتك، يا آنسة شانغ . وأنا أعتمد عليك » .

ـ شكرا ، يا سيد سونغ. سأبذل جهدي ، يمكنك أن تثق بذلك.

حينما استأذن السيد وانغ بالانصراف اطالت تاو ـ شينغ النظر بحماسة الى وجهه ، جاهلة ما اذا كان عليها أن تغتبط أو تأسى . لقد قال لها بصوت حنون : « لاتقلقي . سوف تحضر « عمتك » خلال يومين اثنين » .

أومأت برأسها وابتسمت : « أرجوك أن تخبرها أني سأبذل قصارى جهدي . يجب الا يساورها أي قلق » .

بعدما رحــل السيد وانغ تبادل سونغ يو ــ بــين وتاو ــ شينغ عدة كلمات ، ثم مالبث الباب المصنوع من القماش ان دُفع جانبا ودلفت منه امرأة نحيلة شاحبة الوجه في الثلاثين من عمرها تقود أمامها طفلين.

نهض سونغ يو ــ بين على قدميه ، وعالن تاو ــ شينغ قائلا : « هذه هي زوجتي . انها عليلة » .

واستدار الى زوجته ، واستتلى : « هذه هي الآنسة شانغ . لقد أوصى بها السيد وانغ مفتش المدرسة . ارجو أن تشرفي على حصولها على جميع ما تحتاج اليه ! »

لم تجب السيدة سونغ بحرف ، الا أنها انعمت النظر في وجــه تاو ــ شينغ . ومن حسن الحظ أن ارتباك الفتاة لم يدم طويلا ، فقــد أطلق الصبيُ ضجة صاخبة للذهاب الى معبد القرية لمشاهدة احدى المسرحيات . فطاش انتباه والدته ، فقالت تخاطب تاو ــ شينغ وهي تبتسم : « ارجو أن تعني بهذين الولدين ، يا آنسة شانغ . انهما أصغر من أن يملكا شيئا من الادراك » .

سيطرت تاو ــ شينغ على امتعاضها ، واومأت برأسها . أمسكت بيدي تلميذيها الجديدين واستفسرت عن اسميهما . فردّت الأم قائلة : « اسمه وين ــ تاي واسمها هسياو ــ سو » .

مسّدت تاو ــ شينغ شعر رأسيهما وابتسمت : « يا للاسمــين الجميلين ! أتحبان الاقاصيص ؟ » .

صاح وين ــ تاي ، وهو يتشبث بذراعها : « أوه طبعا ! أتعرفين قصة الابطال الخمسة في العاصمة الشرقية ؟» .

وضحكت تاو ــ شينغ : « أعرف كثيرا جدا مــن الاقاصيــص . ولكنني لا ارويها الا على أسماع الاطفال الذين ينفذون ما اطلب منهم . ماهي الاقاصيص الاخرى التي تحب سماعها ، يا وين ــ تاي ؟ » .

تدخلت هسياو ــ سو في الحديث قائلة : « أوه ، اية قصة فيها شيء من القتال . انه ينسى طعام غدائه في سبيل الاصغاء الى قصة الجنرالات في رواية الممالك الثلاث » .

صاح وين ــ تاي الذي بدا انه أكثر خشونة من شقيقته:«اصمتي، ايتها الصغيرة !» .

وجنحت الصغيرة الى الصمت بعدما رأته عابسا .

ابتسم سونغ يو – بين في وجه زوجته بعدما شاهد ماحدث ، وقال : « الآنسة شانغ معلمة ممتازة . انا واثق انها ستعنى بهما جيدا . هل هيأت لها غرفة ؟ » والتفت الى تاو – شينغ ، وأكمل : « ألن تدخلي وتنالي قسطا من الراحة ؟ لقد كان والدي يعاني شيئا من المرض في الفترة الاخيرة ، وسأقدمه اليك عندما تسنح الفرصة المناسبة » .

في تلك البرهة دلف الى الغرفة شيخ مديد القامـة نحيل البنية يرتدي عباءة صوفية بسيطة رمادية اللون . كان يتوكأ على عصا ،وهو يزمجر : « فيمَ تريدون ان تقدموني الى أحدهم ، وحقّ الشيطان ؟. أانت هي المربية الآنسة شانغ ؟ أهلا بك » .

ودون ان ينتظر منها جوابا التفت الى ولده وقـد ارتسمت تقطيبة حادة على وجهه المتغضن : « ما أسرع ان يحين اوان حصاد القمح ، يا يو – بين . ينبغي أن تشرف على جميع التفاصيل . تذكّر أن تأمر الفلاحين بحصاد ارض وانغ لاو – تسينغ البالغة ثلاثة « مو » والواقعة شرقي القرية . وتذكّر أيضا أننا اشترينا أرض سونغ ويـن – كانـغ البالغة اثنين « مو » . يجب ان تصرف مزيدا من الاهتمام على هذين الموضوعين . ستؤول جميع الاملاك اليك عاجلا ام آجلا ! » .

قال سونغ يو – بين باقتضاب : « أنت أكثر شيخوخة ، يا أبتـاه ، من أن تقلق على مثل هذه الامور . فأنا أقضي وقتي كلـه على الاعمال الخارجية . وقد وردتني دعوة من نقابة المحامين في باو تينغ ، وأنـا أفكر في قبولها . أما بخصوص القضايا المنزلية فأية أهمية ترى اذا ما طلبنا أقل مما هو متوجب لنا على هؤلاء الفلاحين المعدمين ؟ » .

صاح الشيخ غاضبا قبل ان ينهي ولده كلامه : « أنا أحـذّرك، يا يو – بين !.. هل بنى لنا اسلافنا هذا الارث بسهولة مطلقة ؟ اذا استمررت على هذا المنوال فلن يتبقى منه شيء » .

ثم رعّص اصبعه في وجه حفيده الذي تشبث بعصاه وقد نفـد صبره من الانتظار : « وأنت مبذّر آخر ، يا وين – تاي ! » .

ابتسم سونغ يو – بين وزوجته في جذل حينما مشى الشيـخ متثاقلا وهو يغلي من الغضب . استدار عند الباب ينظر الى تاو – شينغ

التي كانت تراقبه في هدوء وكأنه ينوي أن يرى ما اذا كانت تشبه أحد اللصوص أم لا . وزمجر قائلا : « وين – تاي ! هسياو – سو ! يجب أن تدرسا في جدٍّ مع هذه المربية . فكرا فحسب ! عشرة يوانات في الشهر بالاضافة الى الطعام ! لسوف تكونان سببا في دمار جدّكما !»

في تلك الليلة أوت تاو – شينغ الى فراشها في غرفة غريبة أوراقها الصقت حديثا . وظلّت صورتان تبرزان أمام مسرح خيالها . اولاهما صورة السيدة سونغ النحيلة الشاحبة التي جعلتها عيناها المتوعدتان ترتجف ، غير عارفة ما اذا كان هذا الارتجاف نتيجة الكره أم الخوف .. والاخرى صورة الملاّك الشيخ المتوكيء على عصاه والذي تصوّرته يحدّق فيها بانشداه ويجأر قائلا : « لاتلمسي شيئا من ممتلكاتي ! أنا ادفع لك أجرا مجزيا – عشرة يوانات في الشهر بالاضافة الى الطعام ! » .

ادارت رأسها صوب القمر البرّاق الذي يشعّ عليها من خلال النافذة ، وصعّدت تنهيدة : « فيم ينبغي عليّ احتمال مثل هذه الاهانة؟ كيف استطيع الصبر على وجودي هنا ؟ ينبغي عليّ القيام بخدمة ولديهما ، في حين انهما ينظران اليّ نظرتهما الى لص او أسوأ من ذلك ! » .

وتذكرت نصيحة العمة لي على حين بغتة : « لقد حذرني ابن شقيقي من ان فتاة من المدينة مثلك في حاجة الى شيء من التخشين » . كان لهذه الذكرى تأثير قوي ، فاستدارت على جنبها وشرعت تعاتب نفسها: « ارسلك الحزب الى هنا ، يا تاو – شينغ . ويجب ان تنفذي التعليمات الصادرة اليك . لقد قال لوشين : الثورة تعني العذاب : إنها ، من دون ريب ، ممزوجة بالقذارة والدم » ... وغالبت هواجسها الليل بطوله ، فأعجزها ذلك عن أن تستسلم الى نوم هنيء .

بُعيد يومين طفى شيء من السعادة على تاو – شينغ ، فقد استطاعت بأقاصيصها التغلّب على وين – تاي . وشعرت ايضا ان سونغ يو – بين أقلّ شرا مما وصفه السيد وانغ لها . والحقيقة ان ما فاجأها حقا هو انه العضو الوحيد المنطقي واللطيف في الاسرة بكاملها الى حدما . وقد عالنها في اليوم الثاني من وجودها هناك قائلا : « تعرفين ، يا آنسة شانغ ، اني أكره مساعدة والدي في جمع الديون والاجور .

لكن ، ماذا تراني أستطيع أن أعمل غير ذلك ؟ فهو أكثر شيخوخة من أن يتدبر أمر هذه الاشياء وحده . هذه المساحات القليلة من الارض تدمر تقدمي ونجاحي . وانا أفضّل بالاحرى القيام بأعمال البحث العلمي ». كان يتحدث بحماسة وغيرة بحيث اشفقت عليه . وبدا لها أن من التعاسة ان يصرف خريج جامعي جلّ وقته أسيرا في البيت . وكانت الجدران العالية التي تسوّر المنزل كله تجعله أشبه مايكون بالسجن .

كان قصر الملاك ، في الحقيقة ، يشبه السجن الى حدّ ما . وكانت بواباته الكبيرة الثلاث تنغلق على ثلاث باحات رئيسية وثلاث باحات أصغر منها . وفي الباحة الرئيسية الاولى يقوم صف من الغرف قبالة الشمال . هنالك يقوم وكيل القصر بجمع الايجارات وعقد القروض أو وزن الحبوب التي يحملها المستأجرون ، وهنالك تنام عائلات الحراس البالغ عددها اثنتي عشرة عائلة أو أكثر . قبالة ذلك خمس غرف كبيرة مطوّقة بغرف اصغر منها . الغرف الكبيرة،حيث استقبل سونغ يو-بين في احداها تاو - شينغ ، تشغلها الاسرة ، في حين ان الغرف الصغيرة مخصصة للضيوف من الرجال . في الباحة الجانبية ناحية الشرق تقوم الاسطبلات والمظلات التي تؤوي العمال المستأجَرين . وكانت الباحة الرئيسية القائمة في الوسط كبيرة جدا ملأى بالغرف في جوانبها الاربعة. يشغل سونغ كوي - تانغ الغرف التي تواجه الجنوب ، اما الغرف الاخرى التي صنعت أبوابها من الحديد فهي غرف التخزين . وفي الباحة الكبيرة القائمة خلفها أبنية في جوانبها الثلاثة : خمس غرف رحبة مشرقة تواجه الغرب مخصصة لأسرة سونغ يو - بين ، وجناح غربي يستخدم مكتبا له وجناح شرقي مخصص لدراسة الطفلين. الى جانب هذا في الطرف الشرقي من الباحة ثلاث غرف شمالية مخصصة للضيوف من النساء . وباب الغرفة القائمة في الوسط ينفتح على الساحة . وكانت غرفة نوم تاو - شينغ في الطرف الغربي . وكان المطبخ وغرف الخادمات في الجناحين الشرقي والغربي . وكانت الباحة الجانبية المجاورة للساحة الرئيسية في الوسط تضم طاحونة وغرفا لتخزين الاثاث والادوات الزراعية . وهكذا كانت أسرة مؤلفة من خمسة اشخاص - اذ أن زوج الملاك الشيخ متوفاة -تشغل منزلا يحوي أكثر من ستين غرفة

محاطا بجدران مرتفعة سامقة . لقد كان يذكّر تاو ــ شينغ بأحد السجون!
وفضلا عن هذا فقد منع الفلاحون بصرامة من الدخول الى الباحة الرئيسية الثانية ، ان لم نقل أيضا الباحة الخلفية . ولم يكن يسمح للضيوف من النساء بالدخول الى غير الغرف المخصصة لهن . كما ان ابنة الملاك الشيخ المتزوجة كانت ممنوعة من الاقامة في الساحة الرئيسية التي كان لها جدار خاص من القرميد القاسي وباب صغير من الحديد . وحينما ينقفل هذا الباب ليلا تنقطع تلك الساحة عن بقية العالم .

اكتشفت تاو ــ شينغ بعيد يومين من وجودها في هذا « السجن» انها تحت مراقبة صارمة . وكانت العمة شين ، التي تشغل غرفة تواجه غرفتها وتقوم ببعض أعمال الغسيل والحياكة للاسرة ، تعمل في الباحة الرئيسية خلال النهار أثناء اعطاء تاو ــ شينغ الدروس في غرفة الصف . وما ان تعود الفتاة حتى تلاحقها العمة على أعقابها . والاكثر غرابة في هذا أن تاو ــ شينغ ضبطتها في مناسبتين تسترق النظر من خلال نافذة غرفتها الصغيرة . أزعجها ذلك التحديق المتطفل وأثار دهشتها ، فقد كانت المرأة العجوز تبدو انسانة شريفة بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى . تذكرت أن السيد وانغ نصح لها أن تتآخى مع الخدم والعمال والمستأجرين ، فراحت تخاطب نفسها قائلة : « لمَ لا ابدأ ذلك معها ؟ فهي واحدة من المضطهدين ايضا » . وهكذا بدأت في يومها الثالث حديثا مع العمة شين ، وسرعان ما انطلقت ، بعيد عدة ملحوظات ، الى هدفها مباشرة : « عمتاه ، لماذا تراقبينني طول الوقت وكأنني سأرتكب عملا خاطئا ؟ هل طلب اليك ذلك السيد سونغ ؟ » .

تخضب وجه العمة شين المتغضن المجدور بالحمرة وهي تطيل النظر برهة قبل أن تجيب بخراقة : « لايجب أن يخطر لك ذلك في بال ، يا آنسة . لم يطلب اليّ أحد أن .. ولكنك فتاة صبية وحيدة ههنا ، وانت في حاجة الى انسان يرعاك » .

كانت نبرات جوابها مفعمة بالصدق ، الامر الذي هدأ من هواجس تاو ــ شينغ التي حوّلت دفة الحديث بسرعة : « كم هو عدد أفراد اسرتك ، ياعمتي ؟ وهل يعيشون في هذه القرية ؟ » .

هزت العجوز رأسها وتنهدت : « أسرتي ؟ ليس لديّ انسان واحد، وهذا هو البيت الوحيد الذي أعرفه » .

ــ لماذا ؟ كيف يمكن ان يكون ذلك ؟

مسحت العمة شين عينيها بطرف معطفها ، وقالت : « قُتِل زوجي في منجم للفحم في شينغهسينغ . وتوفي ولدي منذ سنوات . اما ابنتي فقد نقلوها بعد الزواج الى مقاطعة اخرى ، ولم أسمع شيئا عنها منذ عدة سنوات » .

حلّت الشفقة محلّ الشكوك في فؤاد تاو ــ شينغ ، وهي تتبادل مع العجوز نظرات تفاهم ودي : « آه ، ياعمتاه ، ما أشدّ صعوبة هذا الامر عليك ! » .

غريب ان نقول انه منذ تلك الفترة بدأت السيدة سونغ تنظر الى تاو ــ شينغ نظرة أقلّ عداء وكراهية ، وتناقص الحقد الذي كان يطل من عينيها الحادتين . أما العمة شين فقد شرعت تظهر نحوها كثيرا من الرعاية بدلا من التجسس عليها ، وتحضر لها ماء حاراً وتملأ قنديلها بالزيت دائما . ورغم ذلك ظلت تاو ــ شينغ تتذكر ان تكون على حذر.

* * *

٨

كان من أحد واجبات تاو ـ شينغ كمربية أن تصطحب الطفلين في جولة بعد انتهاء الدروس . وذات يوم تصادف أن مرّت و وين ـ تاي عبر الباحات الجانبية في طريقهما الى الارض التي تُدرس الحنطة فيها، وتبلغ مساحتها حوالي اثنين « مو » . في طرفها الجنوبي ، الى جانب أجمة من شجر التمر ، كان ثمة عدد من الاكواخ خزن القش فيها . لم يكن سونغ كوي ـ تانغ على شيء من الحماقة . فهو يعرف ان الفلاحين اذا ماطغى عليهم اليأس فقد يضرمون النار في القش العائد لصاحب الارض ، فعمد ، في سبيل حماية أسرته ومستودعاته ، الى بناء تلك المظلات على مسافة كافية من الاجزاء المستعملة للمعيشة .

وبينما تاو ـ شينغ و وين ـ تاي يقتربان من تلك الاكواخ كان ثمة رجل أشعث الشعر يرتدي ثيابا ممزقة يعمل في تقطيع القش بمعونة صبي في الثانية عشرة من العمر . نظر الصبي الى وين ـ تاي مكشرا ، في حين احتفظ الرجل برأسه منخفضا واستمر في عمله .

صاح وين ـ تاي : « فلنذهب ، يا آنسة شانغ . فليس ثمة ما يسترعي النظر في هذا المكان » .

كان يشدها بعيدا حينما رفع الرجل وجهه الاسمر المضنى بالهموم . فالتقت عيناه بمقلتيهما البيضاوين بصورة غريبة بعيني تاو ـ شينغ .

جعلت تسائل نفسها ، وهو يعاود عمله من جديد : « انه يبدو مألوفا لديّ . أين تراني التقيته قبل الآن ؟ »

قادت وين ـ تاي الى البستان حيث لم تستطع ان تمتنع عن سؤاله : « وين ـ تاي ، من يكون هذا الرجل ؟ » .

فأجاب الصبي ، وهو يتعمشق على احدى اشجار المشمش : « فلاح مستأجر – يدعى شينغ الاحمق » .

– شينغ الأحمق ! ماهو اسمه الحقيقي ؟

– ذلك الاحمق ؟ ليس له اسم معين . خذي ، التقطي .

ورمى اليها مشمشة من حيث قبع على الشجرة يلتهم ثمارها.

بعيد ظهيرة ذلك اليوم كله ظلت كلمات « فلاح مستأجر – يدعى شينغ الاحمق » ترن في ذاكرة تاو – شينغ . لقد ازعجتها كثيرا أسمال الرجل البالية ، ووجهه الاسمر المضنى لكن المألوف طلق المحيا ، وعيناه الخاليتان من أي تعبير اللتان حدّقتا فيها طويلا .

عبثا حاولت ان تتذكر أين التقت به .

بعيد يومين اثنين ، وفيما هي تجوس عبر الساحة الجانبيةوقت الغسق ، اجتمعت بشينغ الاحمق مرة أخرى . كان يستقي ماء من البئر . ولما لم يكن ثمة انسان هنالك فقد عزمت على التحدث اليه . ومرة أخرى راحت تانك المقلتان البيضاوان الغريبتان تحدقان فيها طويلا. كانتا تبدوان شاحبتين في ضوء الغسق ، فتساءلت ما اذا كان الغضب أو الكرب يجعلهما تطيلان التحديق اليها فيما هو يفلت مرفاع البئر من بين يديه ويروح يخطو صوبها . شرع قلبها يخفق بشدة فيما عيناه المخيفتان تقتربان منها ، واضطرت ان تستجمع اطراف شجاعتها كيلا تفرّ هاربة . خطت متقدمة ، وهمست في لطف : « شينغ ... » ثم رسمت على شفتيها ابتسامة ، واحمارّت وجنتاها ، غير عارفة بماذا تناديه .

مسح الرجل وجهه العرقان بمنشفة وسخة ، وصاح بصوت خشن : « اسمك هو لين ، وليس شانغ ! » .

عجزت تاو – شينغ عن النطق تماما . كيف تراه عرف اسمها ؟ ماذا لو عرفت اسرة سونغ بذلك ؟.. ركضت قافلة الى غرفتها حيث راحت تجهد دماغها من جديد . ثم تذكرت أخيرا .

* * *

قبل تسع سنوات ، يوم كانت بَعدُ في الثانية عشرة من عمرها ، ذهبت برفقة والديها الى كوبيكو لجمع الايجار . وفي تلك القرية الجميلة عقدت أواصر صداقة مع هيي – ني ابنة فلاح مستأجر . كانت هيي – ني طفلة حلوة لطيفة تعشق الحقائب المطرزة وتخيط دمى من القماش مثلما كانت تهوى رواية الاقاصيص وصيد الفراشات. وقد أغرمت تاو–شينغ كثيرا بتلك الفتاة التي تماثلها سنا . فشرعت تنطلق الى رؤيتها في كل يوم ، في غفلة عن رابّتها وشقيقها من أمها . كانت رابّتها قد منعتها من اللعب مع أولاد المستأجرين الذين كانت تطلق عليهم لقب « الاطفال الخرقاء » أو « الصعاليك الصغار » . لكن تاو – شينغ التي لم تكن تشعر بمثل هذا التحيُّز كانت تستلذّ صحبة هيي – ني وتعلقت بوالدي صديقتها اللذين يعيشان في كوخ حقير . وكان شينغ تيه – فو ، والد هيي – ني ، رجلا لطيفا قويا هادئا يبتسم على الدوام في وجه تاو–شينغ ويحاول اصطياد بعض العصافير النادرة لها . أما زوجته ، وهي أمرأة أنيسة لطيفة بشوشة الوجه ، فتعاملها معاملة افضل بكثير من معاملة رابّتها، وتحتفظ للطفلة الزائرة بقليل من الجوز او التمر. وما ان تصل تاو – شينغ حتى تناولها اياها ، وهي تقول : « خذيها ، يا صغيرتي . فنحن أشد فقرا من أن نقدّم لك شيئا أفضل منها » .

وكانت تاو – شينغ تقبلها وتجدها هدية رائعة .

وما أسرع ان تلازمت الفتاتان بحيث لم تعد تاو – شينغ تستطيع انفصالا عن هيي – ني على الرغم من توبيخات رابّتها أو ضربها لها . وذات يوم حدث مشهد يعتصر القلب ، مشهد انحفر عميقا في ذهنها بحيث لايمكن أن تنساه او تطويه الايام .

في ذلك الصباح ذهبت لرؤية هيي – ني فوجدتها منتصبة على عتبة الكوخ وقد أطلقت لعبراتها العنان . وكانت أمها الجالسة على الكانغ تبكي بحرقة هي الاخرى ، أما والدها فيشدّها بقوة ليأخذها بعيدا .

وقفت تاو – شينغ خارجا تحدّق في انذهال ، في حين راحت هيي – ني تنوح قائلة : « لا تكن غليظ القلب ، ياأبتاه !... لاترغمني على الذهاب ، يا أماه !.. انتما لن تجوعا ، وانا لن أجوع أيضا .. »

كانت والدة هيي ـ ني تجلس على الكانغ وقد صالبت ساقيها والعبرات تتدحرج على صفحتي وجهها ، واستدارت اخيرا عن ابنتها الوحيدة ، وصاحت باكية : « سنموت ثلاثتنا من الجوع اذا بقيتِ هنا. أنت فتاة عاقلة . فارجعي ، ياعزيزتي ، الى حيث كنتِ . لقد أخذ الملاك حبوبنا لقاء الايجار ... ولم يتبقّ لدينا شيء . كان لا يزال لدينا في الاسبوع الماضي شيء من النخالة والخضراوات ، أما الآونة فليس لدينا حتى شيء من الاوراق أو لحاء الشجر ! » وتحطّم صوتها ، وعجزت عن متابعة الحديث .

شدها والدها بقوة من ذراعها ، وهو يقول : « يحسن ان تذهبي ، يافتاتي ! سنموت جميعا من الجوع ان لم تذهبي » .

اضطر والدا هيي ـ ني ، وقد عضّهما الجوع ، الى بيع ابنتهما وليس لها من العمر أكثر من سبع سنوات الى تاجر بسيط كعروس طفلة . وقد عوملت لدى أسرته مثل حيوان من حيوانات الجرّ ، تضرب وتشتم ، وحينما تأتي لزيارة والديها فهي ترفض العودة . ولما لم يكونا يملكان ما يطعمانها به فقد أرغما عى تقسية فؤاديهما وأجبارها على العودة .

كانت الآونة تنشج ، وكتفاها الهزيلان يرتعشان تحت معطفها المهلهل ، وعيناها البجّاوان تنبضان بالشفقة مثلهما مثل عيني بقرة تساق الى المسلخ . وجعل الفقر هذه الفتاة البالغة الثانية عشرة من عمرها تبدو اكبر من سنّها ، فيما هي تترجى والديها قائلة : « أبتاه ! أماه ! لاتجبرا ابنتكما الوحيدة على الذهاب الى الجحيم ! لسوف يضربونني هنالك حتى الموت ان لم يميتوني من الجوع أولا . أرجوكما! أرجوكما ! » .

أدارت أمها وجهها الى الجدار بعد أن ألقت عليها نظرة يائسة أخيرة ،وهي تنشج : « ياحبيبة قلبي ! يفضل أن تذهبي !.. وحينما يطلُّ الربيع ، حينما تبرعم الاشجار ... حينما ينبت العشب وتخضرّ الحقول .. لسوف يكون لدينا شيء من الطعام مرة اخرى ، وعندها نتمكن من استردادك .. »

ان شينغ تيه ـ فو ، الفلاح القوي البالغ الاربعين من العمر ،

لم يعد يقوى على كبت عبراته . كانت الام والابنة تبكيان كما لو كان قلباهما ينحطمان ، غير ان التهديد بالجوع جعل قلب الاب يقسو .رفع الفتاة الضعيفة فوق كتفه وانطلق بها دون ان يمسح عبراته أو يدير رأسه . وقد بكت هيي ـ ني وناضلت ، ولكنها كانت أضعف من ان تستطيع تحرير نفسها . وتبعتهما تاو ـ شينغ الى ان انعطفا وراء احدى التلال . وسرعان ماغاب الاب والابنة عن مسرح رؤيتها ، فاستسلمت لنوبة من البكاء المرير .

منذ ذلك الحين لم تعد تاو ـ شينغ ترى هيي ـ ني او تسمع من أخبارها شيئا . والآن ، ما الذي قاد والدها ، المدعو شينغ الاحمق وكأنه لايملك اسما خاصا به ـ الى هذا الاقليم الصغير في وسط هوبيي؟ واين هي هيي ـ ني ووالدتها ؟..

لم تستطع تاو ـ شينغ أن تغمض جفنيها وهي تستعيد من الماضي ذكرى هذه الاحداث التي تجعل الدم يجمد في عروقها . كما انها لم تستطع أن تستوعب معنى لأحوال شينغ المتبدلة ـ فقد كان يحملق فيها كما لو كانت عدوا له . كان الحزن والقلق يطغيان عليها ، فودّت لو أن شيانغ هوا أو العمة لي يأتيان ويخبرانها ماذا تفعل،أو يصطحبانها بعيدا عن عائلة هذا الملاّك البغيض .

جاءت العمة لي والفسق يرخي سدوله بعيد أربعة او خمسة أيام. كان شعرها الاشيب مسرّحا بعناية ، ومعطفها المغزول على يدها وسروالها القطني الاسود نظيفين لاعيب فيهما . وطفى السرور على تاو ـ شينغ لدى مرآها . أقامتا في تلك الغرفة ذاتها هاتيك الليلة ، وراحتا تتحدثان في صوت مخفوض ، وقد استلقتا على الفراش .

سألت المرأة العجوز اول ماسألت : « هل تحبك عائلة سونغ ، ياحبيبة ؟ » .

ـ يحبني الجميع ماعدا السيدة سونغ والشيخ العجوز .

ـ ولم ذلك ؟ ينبغي أن تبذلي جهدك لادخال السرور الى قلبيهما.

ـ اوه ، انهما يعاملانني الآن معاملة أفضل منهـا في أول الامـر . أنت لاتعرفين معنى لتلك النظرات القذرة التي أسبغتها والدة وين ـ تاي عليَّ لدى قدومي الى هنا ! ومن بعدها العمة شين ...

وسردت تاو ـ شينغ تجربتها مع الخادم العجوز .

ضحكت العمة لي ، وقالت : « أرى ذلك . طبيعي ان والدة وين ـ تاي نهشتها الغيرة حينما رأت انك فتاة جميلة . يحسن أن تذهبي اليها بين حين وحين وتثرثري معها قليلا ، وتلمّحي ان لك حبيبا . وعندها قد تشعر بقليل من التحسّن تجاهك . ولم يكرهك الشيخ العجوز؟ »

ـ لانه بخيل شحيح ! ان دفع عشرة يوانات يصيبه بكرب عظيم . ورغم ذلك ينبغي عليه أن يثقّف حفيديه . لقد تعاقد مع مربية لانه لا يريد ارسالهما الى مدرسة القرية ، ولكنه لايستطيع الا أن يمتعض من ان يدفع لي أجري .

استسلمت العمة لي للتفكير برهة ، وقالت : « هكذا اذن ! لم لاتحاولي اذن ان تخفضي الاجر بمقدار يوانين اثنين ؟ »

ضحكت تاو ـ شينغ ، وهي تتذكر قصة موليير « البخيل » . اذا كان ثمة رجل يملك آلافا من « مو » يصرف اهتماما كبيرا على قروش قليلة فلا ريبة انه يغتبط أشدّ الغبطة اذا ماعرضت عليه أن يخفض اجرها بمقدار يوانين اثنين .

قالت : « ما اسعدني لمجيئك ، ياعمتاه ! سأعمل بنصيحتك . ولكنني لا أريد البقاء هنا حقا . فلا فائدة من ذلك » .

فجاءها الصوت الهامس وكأنه يبدّد الظلمة : « لمَ لا ؟ ما كانوا طلبوا اليك البقاء هنا لو كان بقاؤك بلا فائدة . يا بنيّتي ، لقد احتمل الفلاحون كل مايستطيعون احتماله من اصحاب الاراضي الملاّكين ! ولسوف يكون هنالك نضال حول حصاد القمح . وأنت تعرفين ان الشيخ سونغ وولده على اتصال مع جميع الرجال الكبار في الاقليم . فابذلي جهدك لاستخلاص ما تستطيعين استخلاصه عنهما ، ولسوف تساعدنا معلوماتك في عملنا . طبيعي أن الأمر ليس سهلا . وينبغي الاّ تتيحي لهما أن يساورهما أقلّ شك عنك ، او أن يعرفا هويتك الحقيقية .. »

وقبضت على يد تاو ـ شينغ بقوة ، واسترسلت : « انها مسؤولية كبيرة ، ياعزيزتي ! » .

ضغطت تاو ـ شينغ على اصابع صديقتها القوية الخشنة كمن تجيبها في ارتعاش: « اعرف ماترمين اليه ، ياعمتي . ولكنني خائفة .. قد يكون ذلك فوق طاقتي » .

فجاءها الجواب الحاسم : « لماذا ؟ الم تقبلي به ؟ »

اضطرت تاو ـ شينغ ان تروي لها مصادفتها غير المتوقعة مع شينغ تيه ـ فو . قالت في استياء : « أنا لا أعرف فيم يكرهني . كان مغرما بي عندما كنت صغيرة . وهو يعرف اسمي ـ الاسم الذي كنت معروفة به في تينغهسيين . تصوري ذلك فقط، ياعمتاه. . .ماذا أفعل؟»

لم يأتها جواب طوال فترة من زمن ، في حين كان صوت انفاس المرأة العجوز المنتظمة يتردّد وكأنها استسلمت الى نوم عميق . وغرقت افكار تاو ـ شينغ في دوّامة . هذه التطورات المعقدة للامور اكثر من ان تحتملها . وشعرت بنفسها وكأنها ورقة تتقاذفها الرياح . وحين لم تسمع جوابا ، فقد جازفت تقول : « عمتاه . . . » .

اشار الجواب الواضح الذي تلقته ان العجوز كانت مستيقظة طوال الوقت : « ماذا تريدين ؟ أخبريني ، يا ابنتي ، ماهو رأيك وانت تنظرين في جميع الاحداث التي مررت بها ؟ » .

ـ حول شينغ تيه ـ فو ؟

ـ اجل . ماهو شعورك تجاهه ؟

ـ حسنا ، صحيح أن أبويَّ استغلاه ابشع استغلال ، ولكنني لم افعل به ذلك . . . فقد كانا يعاملانني بقسوة ، انا الاخرى ».

جاءها الجواب بعد فترة قصيرة : « هذا ما تبدو عليه الامور من وجهة نظرك . حاولي أن تنظري اليها من وجهة نظره . وتذكري أنك ابنة صاحب ارضه القديم » .

حان دور تاو ـ شينغ ان تعتصم بالصمت . ان ألماً فجائيا مخدّرا أيقظها على واقع تفاهتها البغيض . ان احساسا من الامتعاض لايبرح يطغى عليها لان تلك الخطيئة لم تكن خطيئتها مباشرة بل نتيجة كونها احدى افراد أسرة احد الملاّكين اصحاب الاراضي . وعجزت عن النطق.

بدأ ان المرأة الاخرى قرأت افكارها ، فراحت تمسح على شعرها وهي تقول في لطف : « سأروي لك قصة ، يافتاتي ، تساعدك على الفهم

.. أنت تعرفين ولدي يونغ ـ كوانغ ، فقد كان شابا حرونا .. وحينما عمل لدى هسينغ تسي ـ تساي حاولت ابنة هذا الملاك اغراءه واستمالته. كانت في الثامنة والعشرين ، ولم يكن والدها قد عثر لها على زوج مناسب. وشرعت تحلم بولدي ـ بلى ، كان جذابا قويا له حاجبان كثيفان وعينان كبيرتان . فهل كانت «هي» طيبة نحوه ! لقد جعلت منه همَّها اليومي، وبدأت تقلق على صحته ، وما أكثر ما كانت تحمل طعاما وخمرا جيدين الى الكانغ الخاص به ، تماما مثلما يحدث في اساطير الجنيات . وحينما كان ولدي يعود الى غرفته في المساء يندهش لوجود تلك اللذائذ، ويلتهمها دون ان يحاول معرفة مصدرها . ولما عرف الحقيقة اخيرا رمى بها الى الخنازير قائلا ان ابنة ملاّك ليست فتاة من طبقته ـ وليس لديه مايفعل معها . صحيح ان الفتاة لم تكن سيئة . كانت تعامل المستأجرين والفلاحين أفضل من معاملة والدها لهم ، لكنَّ ولدي هرب منها مثلما يهرب من الطاعون » .

وارتعش صوت تاو ـ شينغ ، وهي تستفسر : « أتعتبرينني فتاة من طبقة الملاكين اذن ، ياعمتي ؟ »

فأمسكت العمة لي بيدها بشدة ، واجابت : « كلا ، كلا ! اخبرني ابن شقيقي عندما طلب مني أن أرعاك أنك ثرت ضد طبقتك الخاصة ، وانك نذرت ان تهبي حياتك للثورة . كيف ، أنا اعتبرك ابنة لي ... لاتكوني ضيّقة التفكير ! فأنا لا أخبرك بقصة ولدي لأرفع في وجهك اصبع توبيخ . مارميت اليه هو ان ضحايا الظلم والاضطهاد لايتورعون عن كراهية جميع مضطهديهم وطبقتهم بأسرها . فلا تلومي شينغ تيه ـ فهو ان كان يكرهك . كيف تراه يستطيع ان يعرف أنك تبدلت ، وانك غدوت الآن في صفه ؟ » .

كانت تلك الليلة بالنسبة الى تاو ـ شينغ ليلة غير عادية ، ليلة من ليالي الالم المرير ، ليلة من اشد ليالي الضنى التي مرت بها . فمنذ أن شرعت تتبع تعليمات الثورويين من أمثال لو شيا ـ شوان ، واخذت تدرس بعض المؤلفات الماركسية ـ اللينينية عن الطبقة المناضلة ، طفقت تتخيَّل أنها غدت في صفوف المضطَهدين واتَّخذت لنفسها موقفا بروليتاريا صادقا . وقد تطلب ذلك اقامتها هذه بين أفراد اسرة احد

الملاّكين الآخرين كيما ينكشف لها أن فهمها للنضال الطبقي وحقدها على المضطهِدين كانا مجرد فهم وحقد نظريين فحسب . فيم ترى ابتعد شينغ تيه ــ مو هذا البعد كله عن منزله ؟ ما الذي أوصله الى هذا الحد من الفقر والبؤس ؟ مما لاريبة فيه ان الاضطهاد الوحشي الذي أنزله به والدها هو السبب في ذلك كله . وماذا عنها هي اذن ؟ أين تراها تقف حقا ؟ شرعت تحدث نفسها في كرب ، وقد استلقت تصغي الى أنفاس رفيقتها المنتظمة : « أنا مجرد مثالية ثورية بورجوازية صغيرة . لوني « أزهر » فحسب ، في حين أن لون الطبقة العاملة أحمر ناري . وطبقة الملاّكين ــ هذه الطبقة المضطهِدة ــ وسمتني بميسم أبيض ، ميسم انحفر عميقا في نفسي . لهذا السبب لم أحتمل نظرة شينغ تيه ــ فو الحادة اليّ ، ولذلك كرهته كثيرا .. آه ، يا تاو ــ شينغ ، أي وجدان طبقي هو هذا الوجدان ؟ » .

أبداً من قبل لم تقم بمثل هذا النقد الذاتي الواعي . ان ادراكها لوجهة نظرها البورجوازية قد جعل قلبها يغص بالالم . طحنت أسنانها وحملقت في المرأة المستلقية الى جانبها ، وهي تحسد كمالها السياسي وموقفها الثابت الواضح . كيف تراها اكتسبتهما ؟ ليست هي امرأة مثقفة ، كما انها لم تدرس النظرية الماركسية . بلى ، انها قضية منشأ طبقي اذن ! ان واقع انحدار العمة لي من طبقة مضطهَدة بشدة قد أتاح لها ان تواجه الحقيقة بصلابة ، وان تفهم النضال الطبقي ، في حين أن تاو ــ شينغ نفسها كانت طيبة القلب ، ضعيفة ، وخائفة من النضال القاسي . لم تكن قد اطّرحت عنها بَعْدُ وقار ابنة الملاّك الزائف ، أو تواضعت أمام المستأجرين المظلومين بصورة تحزُّ في النفس ... وبدا لها انها ترى في الظلمة رفيقتها هيي ــ ني ، جميلة نحيلة مثلها أبدا ، تمدُّ اليها بصرها في شوق وحنان . وشعر فؤاد تاو ــ شينغ بالدفء وهي تتذكر صداقتهما الطفولية . لكنه سرعان ما تحولت عينا هيي ــ نياللطيفتان بُعَيْد لحظة الى كرتين بيضاوين مخيفتين يشعُّ منهما بريق حقود ... فتحت تاو ــ شينغ عينيها وألم رهيب يعتصرها .

ومرة اخرى استعادت ذكرى مأساة لقائهما الاخير : « أين هي

هيي ــ ني ؟ أما زالت على قيد الحياة ؟ ولماذا بكت هيي ــ ني بمرارة ؟ وفيم أرغمها أبواها على العودة الى بيت حماتها ؟ ولماذا ينبغي أن تصير فتاة في السابعة من عمرها عروسا ؟ » ان تاو ــ شينغ قد كرهت والدها ورابّتها دائما بسبب من سوء معاملتهما لها ولأمها . وهذه هي الآن تكرههما للمرة الاولى بسبب ما الحقا بالآخرين من اذى . وهذا حقد طبقي حقيقي بدأ يجعلها الآن تمقت طبقة الملاكين ، وجميع الطبقات الاخرى المضطهِدة ، من اعمق اعماق قلبها . كما شرعت تكره ذلك الميسم الذي خلّفته تلك الطبقة فيها .

* * *

٩

في بكور اليوم التالي لمحت العمة لي ، لشديد دهشتها ، وجه تاو ــ شينغ شاحبا واخاديد سوداء تحت عينيها . فسألت قائلة : « اتشعرين بشيء من المرض ، يا ابنتي ؟ »

هزت تاو ــ شينغ راسها ، وردت في خجل : « لم انم ليلة البارحة . انا . . » وحنت راسها فتساقطت دمعتان كبيرتان على معطفها. واسترسلت تقول بعد صمت قصير : « أعدك ، يا عمتي ، أن . . . انني سأهب نفسي بكليتها للطبقة العاملة . . . »

أضاءت وجه المراة العجوز المتغضّن ابتسامة كانت من أحلى الابتسامات التي شاهدتها تاو ــ شينغ عليه من قبل . أخذت يد الفتاة في يدها ، وتطلعت من النافذة كيما تتأكد من ان أحدا لايرهف السمع الى ماتقول ، وأعلنت : « لقد قسوت عليك ، ياصغيرتي ، ولكنك لم تحقدي عليّ . . . حسنا ، ما اروع ذلك ! يثبت هذا ان ابن شقيقي كان على حق حينما قال ان الثورة في حاجة الى شبان يتلهفون الى التعلّم مثلك . لكن هنالك سؤالا لابدّ لي من أن اطرحه » .

ومرة اخرى مدّت بصرها عبر النافذة ، وخفضت من نبرة صوتها: « ألم يطلب اليك السيد وانغ القيام ببعض الاعمال بين الفلاحين المستأجرين ؟ أنت لم تبدئي ذلك بعد ، أليس كذلك ؟ ماهي خططك ؟ » .

اجابت تاو ــ شينغ،وقد ارتسمت على صفحة وجهها نظرة خجول: « لقد ارتبكت كثيرا منذ لقاء شينغ تيه ــ فو . وقد قصدت ان أبدأ بها . . . » واشارت بيدها ناحية الغرفة المقابلة : « أقصد بالعمة شين . ولكنني خشيت من التمادي لانه بدا لي أنها قريبة جدا منعائلة سونغ » .

ــ انها خادم ، على اية حال . ويبدو أنها لم تعاملك معاملة سيئة،

او أن تكون اداة طيعة في يدي أسرة سونغ . حاولي اولا أن تقيمي صلة صداقة معها ، ثم انتهزي فرصة لاثارة اهتمامها سياسيا . ستؤمنين مساعدة عظيمة ان استطعت الانتصار عليها ، لكن ، اياك أن تتعجلي الامور ! توخي الحرص! وستكون هذه اختبارا طيبابالنسبةاليك» .

هزّت تاو ــ شينغ رأسها . واستفسرت في قلق ، عندما شاهدت العجوز تجمع حاجياتها القليلة : « أذاهبة انت ، ياعمتاه ؟ كيف استطيع الاتصال بك ان اضطررت الى ذلك ؟ » .

ــ أتعرفين هسو مان ــ تون ؟

بوغتت تاو ــ شينغ قليلا : « سائق عربة النقل صاحب الحاجبين الاشعثين والعينين الكبيرتين ؟ » .

ــ اجل ، هذا هو . اذن أنت تعرفينه جيدا ، أليس كذلك ؟

مشت الى النافذة وأرهفت سمعها مرة أخرى . من حسن الحظ ان السيدة سونغ كانت مريضة والعمة شين ذهبت قبل انبلاج النهار للعناية بها . وهذا ما اتاح لهما فرصة طيبة للحديث .

قالت العمة لي : « اتصلي به . وافعلي ما يطلب منك . لكن حذار أن تتركي الآخرين يشكون ان ثمة شيئا بينكما . هذا كل شيء اذن . ينبغي أن ارحل . تذكري فحسب : عملك الاول ان تقيمي صلات طيبة مع أسرة سونغ وان تراقبي ماذا يفعل افرادها . وعملك الثاني أن تقيمي علاقة صداقة مع العمة شين وأن تثيري وعيها السياسي. وعملك الثالث ان تبدلي موقفك الطبقي تماما بحيث يكفُ شينغ تيه ــ فو عن كرهه لك . قد يوصي بك هسو مان ــ تون لديه ، لكن الامر كله بين يديك» .

ــ ما أطيبك ، ياعمتاه !..

نظرت اليها تاو ــ شينغ في امتنان للنصيحة التي أسدتها اياها .

تذكرت تاو ــ شينغ ، بعيد رحيل المرأة العجوز ، اول لقاء لهامع هسو مان ــ تون ، هذا الذي ستعمل معه في الايام المقبلة . كان محبا للمزاح الى درجة بعيدة . ففيما كانت تقوم بنزهة في صحبة وين ــ تاي ، في اليوم الثاني لوصولها ، لمحت رجلا قوي البنيان يغازل الثلاثين من العمر أشعث الحاجبين كبير العينين . كان يستقي ماء من البئر ، فما ان اقتربا حتى نادى على وين ــ تاي قائلا : « أيها السيد الصغير ! انت

هو الامل الوحيد لأسرة سونغ . لاتقترب من البئر كثيرا . ذلك خطر عليك ! » هذا ما كان هسو مان – تون عليه . وبالرغم من هذا التحذير كان وين – تاي يثب بين حين وحين الى حجر البئر ، فيتوقف هسوعن العمل للامساك بالطفل ويقول في نبرة تبعث على الغيظ : « كم زوجة سيختار لك جدك ، ايها السيد الصغير ؟ أنا أعرف ! سيكون لك ثلاثة قصور ، وسيكون لزوجاتك ومحظياتك ست حجرات ، مثلك مثل أحد اباطرة العهد الغابر . بلى ، ان قصرك هذا كبير ورائع بما فيه الكفاية بحجراته الست . ومايترتب عليك عمله الآن هو ان تبني ثلاثة قصور».

شدهت تاو – شينغ لمزاح الفلاح المستأجر الساخر .

– لست أريد أي زوجة ...

ورمى الطفل بنفسه ضاحكا على هسو مان – تو وتحداه أن يلاكمه. كان الفلاح المستأجر يعرف قليلا من الملاكمة . ونسيا تاو – شينغ في غمرة مزاحهما . لكن ما أن وقع نظر هسو عليها حتى لمحت شيئا من الشك في عينيه اللطيفتين الصافيتين . أرادت أن تقول شيئا ، لكنها لم تعرف ماذا تقول ، فقد كدرتها تلك الومضة من الشك .

ولما كانت قد التحقت بأسرة سونغ فقد أحزنها الجو الغريب المحيط بها وعدم وجود صديق يمكن أن تتحدث اليه بصراحة مطلقة . أما الآونة ، وقد عرفت ان هسو مان – تون سيشاركها العمل ، فقد احست بشيء من السعادة . وفضلا عن ذلك ، فان تلك الليلة المبرّحة من النقد الذاتي قد تركتها رخيّة الفؤاد كما لو كانت قد خلّصت نفسها من ندوب مشوّهة . وهذا ربيع جديد يتمثل في خطواتها .

أنهت دروسها ذلك اليوم وصحبت وين–تاي في جولتهما المألوفة. امّلت ان تلتقي بهسو مان – تون ، ولكنها لم تعثر له على اثر . كان في الآونة الاخيرة يقوم بأعمال نقل وبعض الاعمال الاخرى خارج الساحة. فعزمت على مقابلة شينغ تيه – فو ، عازمة أن تصبر على أي ازدراء يلحقه بها ذلك الرجل التعيس ، وان تحبه من اعماق فؤادها.

كانت تاو – شينغ ، باعتبارها مربية ، تتمتع بحرية كبيرة في التجوّل لأن تلميذها وين – تاي يعشق اللعب خارج جدران البيت . كان يتشوّق الى الخروج معها بعيد انتهاء دروسه ، وقد وافق ابواه

وجدُه على ذلك . كانا ينطلقان في اغلب الاوقات الى البستان القائم وراء الساحة حيث يعيش شينغ تيه – فو. وكانت في البستان اشجار عديدة من الفواكه والجور القصير . وكان ثمة جدول ماء صغير ايضا ، فيروح وين – تاي يمتّع نفسه بصيد الخنافس او تسلق الاشجار لاقتطاف الفواكه . فما أن تسلق شجرة هذا النهار حتى تسللت تاو – شينغ قافلة الى الساحة للعثور على شينغ تيه – فو . استرقت النظر الى كوخه اثناء سيرها فلمحته جالسا على الكانغ يدخّن .

اندفعت داخلة الى غرفته الصغيرة المظلمة كما لو كان هنالك من يطاردها ، وهي تلهث : « الاتعرفني ، ايها العم شينغ ؟ » .

– ماذا ؟

رفع الغليون من بين اسنانه ونفض الرماد منه . ثم ادار راسه ناحيتها واستفسر في صوت متمهل : « ماذا تريدين في هذا المكان ؟ » . اثّر فيها صوته الجاف اللامبالي مثل رشة مفاجئة من الماء البارد ، فغص حلقها عن الحديث . وهزتها في الوقت ذاته رائحة عفنة لاذعة ، رائحة غرفة لا تدخلها الشمس على الاطلاق ، ولحاف مشبع بالعرق والدهون طوال سنوات عديدة ... ضعضعت برودة شينغ المزوجة برائحة الغرفة النتنة تصميم تاو – شينغ الاولي . وكان جلُ ماتستطيع أن تفعله هو الا تركض هاربة ، بل ان ترغم نفسها على أن تقول في نبرة طبيعية : « الست والد هيي – ني ؟ كيف هي أحوالها في هذه الايام ؟ »

ارسل اسم « هيي – ني » رعشة في جسد شينغ تيه – فو . ولمحت تاو – شينغ ، من خلال الضوء العاتم الذي يخترق النافذة المربعة الصغيرة ، وجهه يشحب وعينيه بمقلتيهما البيضاوين المرعبتين تنظران اليها في شدة ترعش الفؤاد . نال منها الرعب وتساءلت ما اذا كانت ارتكبت خطأ ، وفيم أثار اسم ابنته في نفسه مثل هذا التبدل الملحوظ .

– قل لي شيئا !

حاولت ان تحتفظ بهدوئها ، ثم طرحت عليه سؤالها من جديد : « لقد سألتك : هل ابنتك ، صديقتي هيي – ني ، في حال جيدة ؟ » .

بقي شينغ تيه – فو معتصما بالصمت زمنا مديدا . ثم رفع يدا مرتجفة أشار بها الى الباب ، وقال في صوت خشن خفيض بنبرة أهل

جيهول : « لا تذكري هذا الاسم ، يا آنسة ! اخرجي ! لن تستطيعي احتمال العفونة هنا ! »

هذه التلميحات المؤلمة جرحت تاو ـ شينغ في الصميم . غادرت الغرفة وكأنها في حلم ، غير دارية بالعبرات التي تكاثفت في عينيها .

مرة اخرى طغى عليها اليأس والارتباك . لقد ناضلت ضد أبيها وربابّتها ، ضد يو يونغ ـ تسي وهو مينغ ـ آن ، من دون ان تتيح فرصة للوهن او الخوف . أما هنا ، في هذه القرية ، فقد أهينت وجرحت كما لم يحدث لها من قبل بواسطة فلاح مستأجر عجوز فقير ، مستأجر سابق من مستأجري أسرتها ووالد صديقة طفولتها . لقد وعدت العمة لي أن تتخذ موقفا جديدا الى جانب الطبقة العاملة بكل صدق واخلاص. ومع ذلك فان هذا الرفض الاولى أفعمها استياء ويأساً ، وشعرت انه يستحيل عليها ان تحطم الحواجز القائمة امامها .

في هاتيك العشية ، بعدما أنهت العمة شين عملها ، انطلقت تاو ـ شينغ الى غرفتها رغم قلبها المثقل بالهموم .

ـ لابدّ انك منهكة القوى ، ياعمتاه . تنهضين في بكور الصباح وتأوين الى فراشك في ساعة متأخرة من الليل كل يوم !

اقتعدت تاو ـ شينغ حافة الكانغ ، وناولتها علبة سيكارات .

تناولت العمة شين الهدية وقد استبانت الفرحة في ملامحها ، وقالت : « أوه ، ماكان ينبغي أن تفعلي ذلك ، يا آنسة شانغ ! الغليون يكفيني ! » واشعلت لفافة ، واكملت : « متعبة ؟ يجب أن أفكر أنني متعبة ! كيف استطيع احتمال ذلك ؟ السيدة سونغ منحدرة من أسرة ثرية وتتطلب أمورا كثيرة . وليس ثمة نهاية لأعمال الغسيل والخياطة التي تطلبها ، هذا ان لم نقل شيئا عما يطلب مني أن أكون على الدوام رهن اشارتها ، فألبسها ثيابها وأصفف لها شعرها ! » .

ـ انها ليست سيئة المزاج مع هذا كله ، أليس كذلك ؟ ويبدو لي أنّها تعاملك معاملة حسنة » .

نظرت العمة شين الى تاو ـ شينغ وصعّدت تنهيدة : « انها ممتازة عندما يكون مزاجها صافيا . أما عندما تنفجر ... » وتوقفت عن الحديث فجاة ، وعيناها الغائرتان تحدقان أمامها في انشداه . وهزت

رأسها بعيد فترة طويلة ، وأكملت مغمغمة : « لو كان رجلي الشيخ على قيد الحياة ... لو كان ولدي على قيد الحياة ... لما آل بي الامر الى هذه الحال ! »

استوضحت تاو ـ شينغ في عذوبة : « أكان لك ولد ، ياعمتاه ؟» .

أضاء الوجه المتغضن النحيل باشراقة سعادة طوال برهة قصيرة. وومضت على صفحة وجهها ملامح سريعة الزوال لسعادة ضائعة ،وبصيص حب طال اختباؤه بين طيات قلب الام . وما أسرع ان ظهرت نوبة من حزن ويأس مريرين أرغما صوتها الواهن على الارتعاش : «بلى ، ياعزيزتي، كان لي ولد . كان ولداً مطيعا رائعا ـ وجميل الطلعة أيضا ! كنا فقراء، وزوجي يشتغل مزارعا مستأجراً وأنا أشتغل في عدة اعمال لدى صاحب الارض . وكان عملنا يضطرنا الى البقاء خارج البيت طوال اليوم . وكان ولدي يعنى بابنتنا الصغيرة ، ويجمع حطب الفرن ، ويطبخ للاسرة كلها . كان يقوم بأعمال الرجال في البيت وليس له من العمر أكثر من عشر سنوات ! ثم جاء يوم .. يوم .. » وانهمرت الدموع من عينيها. « كانت السماء تثلج ذلك اليوم ، ولم يكن قد بقي شيء من الماء في الراقود . وكان ولدنا جائعا ، ويريد أن يهيىء طعاما . ذهب الى البئر لاستقاء الماء وحده ، وله من العمر عشر سنوات فقط ! وكان الحجر الموضوع على فم البئر مغطى بالجليد ، ففقد توازنه ، وانزلق في البئر!. كان يوما خشنا ـ والجميع في بيوتهم ـ فلم ينتبه أحد الى ماحدث . ولدي المسكين .. ولدي .. »

أمسكت تاو ـ شينغ يد المرأة العجوز بصورة غير شعورية ، وتناست الكلمة التي هيأتها عن الاضطهاد والاستغلال الطبقيين . ولم تستطع أكثر من ان تقول : « كفي ، ياعمتاه ! انسي ذلك . لاتضايقي نفسك هكذا ! » .

مسحت العمة شين عبراتها بطرف معطفها . استعادت هدوءها . بعدما نفّست عن حزنها المكبوت ، وتطلّعت الى تاو ـ شينغ بعينين منتفختين ، وقالت : « يا آنسة شانغ ، لقد تولّعتُ بك أول ما رأيتك، وشئت ان انفض لك جميع ما يختزن قلبي . أنت تعرفين أنه خلال السنوات العشر التي خدمتُ فيها هذه الأسرة لم أخبر أحداً من قبل بوفاة ولدي »

اغتنمت تاو – شينغ الفرصة فقالت : « لقد عرفت ، مثلك ، اوقاتا عصيبة انا الاخرى . فقد عاملتني رابتي بفلظة ووحشية . لكن جميع أرباب العمل من الاثرياء – فماذا يمكن أن يعرفوا عن عذابات الفقراء ؟ » .

شدهت العمة شين ، فقالت : « ولكنه لايلوح عليك انك عرفت اوقاتا عصيبة ! فأنت رقيقة مهذبة ، ودرست في مدرسة على الطراز الغربي » .

نهضت تاو – شينغ واخفضت ضوء القنديل ، ثم رجعت تجلس على الكانغ الى جانب المرأة العجوز . قالت : « لاريبة انك منهكة ، يا عمتاه . اضطجعي ونامي . سأروي لك قصتي في يوم آخر » .

قبضت المرأة الاخرى على ذراعها ، وترجّت قائلة : « أخبريني بها الآن ، ياصغيرتي ! ترتاحين كثيرا اذا ما نفضتها عنك الآن ، ان أنت رويت جميع مايختزن قلبك الى انسان قريب وعزيز » .

وانتعشت روح تاو – شينغ من جديد ، فقالت : « عمتاه ، ما أسعدني أن ناديتيني بابنتك ! أن أحدا لم يحبني منذ وفاة أمي ، وقد وقعت يوم كنت طفلة صغيرة بعد ! حسنا ، اذا شئت الاصغاء الى قصتي ، فلنضطجع معا » .

استلقتا وجها لوجه على الكانغ ، وشرعت تاو – شينغ تسرد قصتها : « توفيت أمي ولي من العمر سنة واحدة . وكانت رابتي قاسية ظالمة . وأسرتنا ثرية ، فكانت ترتدي وابنها الحرير والصوف الممتاز ، أما انا فأروح وأجيء مثل متسولة صغيرة . كان الشتاء الفصل الاكثر رهبة بالنسبة اليّ . ومهما يكن الجو باردا متجلدا فما كان يسمح لي أن ارتدي حذائي القطني المبطّن باللباد ، أما جواربي فملأى بالثقوب . كنت في السادسة او السابعة من عمري يومذاك ، وكان عليّ أن أهيم على وجهي وأقوم بمختلف الاعمال التي تأمرني بها ، وأقل هفوة مني تعني ضربا مبرحا او فيضانا من التوبيخ . وبدأت التشققات في عقبيّ تتقيّح بحيث يجعلني الالم انخرط في البكاء – لكنها لم تكن تلقي اليّ بالا . كانت تصدر اوامرها اليّ على مألوف عادتها ، وعلي أن أعرج هنا وهناك على قدر استطاعتي ... أوه ، مازال يؤلمني ، ياعمتاه ، أن اذكر

ايام طفولتي : القمل في معطفي القطني المهلهل وفي شعري المتشابك ، ويداي خدرتان وحمراوان بتأثير البرد ، وقدماي متقرحتان منتفختان فلا تدخلان في حذائي ... »

أمسكت العمة شين باندفاع‌بيد تاو ـ شينغ، وأوضحت والعبرات في مقلتيها : « آه ، ايتها الطفلة المسكينة ! يا للايام القاسية التي مرت عليك ! قد نكون فقراء معدمين ، ولكننا لا نترك ابنتنا أو ابننا يصل الى هذا الدرك . ما أشد قسوة فؤاد المرأة التي كانت رابتك ! » .

ـ جميل منك أن تبدي بي اهتماما ، يا عمتاه ! سأروي لك أمرا لا أستطيع له نسيانا . ذا تعشية مثلجة ، ولي من العمر ثماني سنوات فقط ، أمرتني رابتي أن أوصل رسالة الى شخص يعطيني غليونا من الافيون ـ وحذرتني من العودة خاوية اليدين . لم يكن الرجل في منزله ، واضطررت أن أبحث عنه . كان الليل قد انتصف عندما عثرت عليه ، والثلج يساقط بوفرة والريح شديدة قاسية . وكنت المخلوق الوحيد الذي يتجول في الشارع . وجعلتني الريح القاسية ، وخوفي من وحدتي ، وانهاكي الشديد أبأس من أن‌استسلم للبكاء . ونتيجة لارتباكي اخطأت طريق عودتي بحيث ضعت تماما . كنا نعيش في الجانب الجنوبي من بيبينغ ، غير أنني رحت أتجول في الجانب الشمالي من المدينة . ولما كنت منهكة فقد وددت ان اضطجع على عتبة احد الابواب ، ولكنني كنت أعرف اني ان فعلت ذلك فسوف اتجمد حتى الموت تحت ذلك الثلج الكثيف والرياح الشمالية المتجلدة . فتابعت طريقي مجهدة ، ههنا وههناك . كنت أطحن أسناني في صمت ، غير اني لم أعد احتمل ذلك في النهاية ، فجعلت أنشج مثل جرو صغير وأنا أنطلق قدما . وفي ساعات الصباح الاولى التقيت سائق ريكشا لطيفا حملني الى‌البيت . هنالك صبت رابتي جام غضبها على رأسي ، وطفقت توبخني وتشتمني لعودتي المتأخرة التي أفسدت متعتها . كما انها رفضت ان تدفع لسائق الريكشا أجره ! » .

أرغمت الذكرى المؤلمة تاو ـ شينغ على البكاء كما لو كان قلبها ينفطر . ثبتت الخادم العجوز في العتمة الداكنة عينيها عليها ، وهمهمت : « يا للصبية المسكينة ! يا للصبية المسكينة ! » .

كانت ، هي الاخرى ،تشاركها البكاء في عطف وود .

١٠

بُعيد يومين ، بينما تاو ـ شينغ تقوم بجولتها المألوفة برفقة وين ـ تاي عندالفسق، التقت هسو مان ـ تون في الساحة الجانبية. كان يسقي الماشية ويتحدث الى سونغ يو ـ بين . فأرهفت سمعها تتنصّت الى ما يقولان .

انتشرت ابتسامة عذبة على سيماء سونغ المتربلة الناعمة ، وهو يقول : « دعني أسألك هذا السؤال ، يا مان ـ تون ! أفلا تشعرون ، انتم الفلاحون المستأجرون ، انكم الآونة أفضل منكم في الماضي ؟ » .

ادار هسو رأسه استعدادا للجواب فيما هو يشدُّ مرفاع البئر : « أي زمن في الماضي تقصد ، ياسيدي ؟ « الماضي » قد يكون في أي وقت » .

أومأ الملاك برأسه موافقا : « بلى ، أنت على حق . فلنقل أيام حكم اسرة شينغ . منذ اعلان الجمهورية فُرض نظام جديد للضرائب وتساوى الناس في الحقوق المدنية . ومما لاريبة فيه أن حياة الفلاحين المستأجرين تبدلت تماما » .

كان هسو يملأ صفيحة بترول بالماء على مهلته ، فنظر الى معلمه وابتسامة ساخرة على شفتيه : « ماكنت لأعرف هذا . يحسن ان تتوجه بالسؤال الى جدّي » .

فلوّح سونغ بيده القصيرة السمينة قائلا : « لكن لابدّ أنك تملك فكرة عن الموضوع . وعلى سبيل المثال ، أفلا تجد فارقا بين الاسلوب الذي اعاملك به والاسلوب الذي كان جدي يعامل به اسلافك » .

ـ بلى ، ياسيدي ، انت متحدث لبق جدا .

اخافت ابتسامة هسو الساخرة تاو ـ شينغ من أن يشعر السيد بما حوَته من تهكّم . ضحك سونغ معتدا بنفسه ، وعيناه تبدوان هزيلتين جدا من وراء نظارته المؤطّرة ، وأصر قائلا : « أكمل ! » .

– أنت تتحدث غالبا عن المساواة في الحقوق المدنية و ... قدسية العمل . وأنت تقرضنا نقوداً عندما تعوزنا الحاجة ، هذا صحيح .. وأنا ألقى منك معاملة افضل مما كان جدّي يتلقى من اجدادك » .

هزّ سونغ رأسه بسرعة مرات عديدة ، وتناول ورقة من جيبه يدوّن عليها ماقيل له . ثم التفت فوقع بصره على تاو – شينغ وولده.

ابتسم قائلا : « حسنا ، يا آنسة شانغ ، اعتقد أنك سمعت حديثنا . انني أكتب مقالة بعنوان « دراسة عن الضريبة الراهنة على الارض » ، وأريد ان أختبر الفارق بين حياة الفلاحين المستأجَرين والمستأجرين في هذه الايام وحياتهم في الماضي . هل لديك وجهة نظر خاصة في هذا الشأن ؟ » .

ألقت تاو – شينغ نظرة على ذلك الوجه السمين المتلألىء والنظارة المؤطرة التي تخلع عليه مسحة جديرة بعالِم . انه لايبدو شريراً مثلما وصفه السيد وانغ . ولكنها ردت قائلة : « أنا لا أفهم شيئا في هذا الموضوع ، ياسيد سونغ ، ولذا فلا يمكن أن يكون لدي أية وجهة نظر . ان ما ألقي اليه بالي هو التدريس . هل وجدت أي فارق في وين–تاي وهسياو – سو ؟ » .

– يسرني ان اقول انني استطيع ان أرى تحسنا عظيما' .

والتفت ناحية هسو ، وقد أشرق وجهه بابتسامة : « لقد كنا سعداء بحصولنا على مربية جيدة . حتى والدي يتحدث عنها بشكل مرضٍ ... آها ! »

على الرغم من ان سونغ يو – بين كان ملاكا فلم يكن يعطي أمور أملاكه من الوقت اكثر مما كان يصرف على الكتب . وجعلت رحلاته المتوالية الى عاصمة الاقليم ، أو باو تينغ أو تيينتسين ، والده يطلق عليه لقب المبذّر المسرف .

غمز هسو لتاو – شينغ بعينه ، لكنه لم يقل شيئا .

قال الملاّك مبتسما : « هل أستطيع أن اسألك معروفا ، يا آنسة شانغ ؟ »

سألت ، وقد غلبتها الدهشة : « ماذا تريد ؟ » .

ـ أريدك ان تنسخي لي بعض المخطوطات . لاعلاقة لهذا العمل بتدريسك ، أؤكد لك ذلك .

أول ما خطر في بال تاو ـ شينغ ان هذا العمل سيتيح لها أن تراه اكثر ، الا أن ذكرى نظرات زوجته الغيور صدّتها قليلا . ترددت لحظات ، ثم قبلت . عزمت على استشارة السيدة سونغ اولا . اذا وافقت هذه السيدة فان تاو ـ شينغ ستطلب اليها ان تدبّر الموضوع، عارفة انها ستراقبهما من دون شك . وهذا يكون عملا جيدا لانه على الرغم من ان السيد سونغ يبدو رجلا طيب الاخلاق ويقال انه لايتحرش بالفتيات ، فقد كانت تعرف ان من واجبها ان تأخذ حذرها منه .

كانت السيدة سونغ داهية بما فيه الكفاية بحيث قبلت عرضها على الفور . وحدث مثلما توقعت تاو ـ شينغ ، فهي كلما ذهبت الى غرفة المطالعة وجدت هذه المرأة النحيلة الشاحبة لكن الجذابة جالسة فيها . كانت تنتحي زاوية وهي تخيط الى أن تنتهي تاو ـ شينغ من عملها ، فتصحب زوجها الى غرفتهما الخاصة .

ونجحت تاو ـ شينغ أخيرا بالتحدث الى هسو مان ـ تون ، هذا الذي خضع موقفه منها الى شيء من التبدل . استفسر قائلا بعدما سألها عن احوالها مع أسرة سونغ : « هل أغضبك العجوز شينغ ؟ »

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ أوه ، سمعت شيئا عنه .

كان يجدل قطعتين من حبل غلظ بسلك معدني ، ورفع رأسه بعد برهة ليكمل قائلا : « انه شاب عجوز مهذب ، كما تعلمين ، شريف ولطيف . كما أنه حرون قليلا أيضا . يجب أن تجدي مخرجا لتسوية الاخطاء التي أنزلها والدك به » .

تضرّجت وجنتا تاو ـ شينغ كدرا ، وقالت : « ماهو الضرر الذي سببته له « أنا » ؟ »

صحيح انها اعترفت مرة أن أسرتها امتصّت دماء الفلاحين ، ولكنها لاتستطيع ان تحتمل ان يلومها الناس على هذه الافعال .

ولما لم يكن أحد موجودا ، فقد أهنف هسو مان ـ تون ضاحكا،

وقال في لطف : « لاتغضبي . يا لشينغ العجوز المسكين ! لا تبالي بما قلت لك الآن . تذرعي بالصبر وستنتهي الامور على مايرام » .

وسألها ، وهو يبتسم ابتساماته الساخرة : « مارأيك في السيد سونغ الصغير ؟ » .

– سونغ يو – بين ؟ أظنه افضل من ابيه .

شعت الاشراقة الساخرة ذاتها في عيني هسو على النحو الذي شعّت به خلال حديثه مع سونغ يو – بين . قال : « أفضل ، أليس كذلك ؟ تذكري : لقد دُهنوا جميعا بفرشاة واحدة . ولا تستطيعين التمييز بينهم . انت مثقفة ، يا آنسة ، فائذني لي ان أسدي اليك نصيحة صغيرة . اياك ان تنسي ما قالت لك العمة لي ، وانك جئت الى هنا لتعطي دروسا – انت تعملين لهم مثلما نعمل لهم نحن المستأجرون الفلاحون . واذكري أن سونغ يو – بين هو سيدنا الثري ! »

هزّت تاو – شينغ راسها بعد تفكير قصير : «بلى ، انت على حق. سأذكر ذلك » .

واغرقت في التفكير طوال برهة ، واضافت : « انت لم تكن هنا طوال الايام القليلة الماضية. قالت العمة لي أنه سيكون هنالك نضال . فاخبرني كيف أمدُ يد العون ، وسأبذل قصارى جهدي » .

كان هسو قد انهى عمله تقريبا ، وشرع ينظف عدّته . قال : « بلى ، سيكون هنالك نضال . لكنك لاتستطيعين ان تفعلي شيئا في الخارج . حاولي فقط التقرب من اسرة سونغ ولاتنسي العمة شين . واذا حصلت على اية معلومات مهمة فزوّديني بها على الفور . وان لم اكن موجودا هنا فاذهبي الى قرية تاشين على مبعدة ثمانية عشر «لي»، وهنالك تجدين السيد وانغ ابن عم احدى زميلات دراستك . اياك ان تذهبي اليه ما لم تكن الامور على جانب كبير من الاهمية » .

أصغت اليه تاو – شينغ في انتباه . وفيما هي تستدير الآونة لإلقاء نظرة على وين – تاي ، رفع هسو صوته قائلا : « أرجو أن تخبري السيد سونغ اننا نعيش افضل مما كنا نعيش في الماضي » . ثم خفض صوته ، واكمل : « لاتتيحي لأحد فرصة معرفة انك تعرفين شيئا عندما يتفجّر القتال . لقد جرّونا ، نحن الفلاحين ، الى ابعد مما نحتمل – ما احمق القول اننا نعيش عيشة افضل » .

ترك هذا الحديث القصير انطباعا عميقا في فؤاد تاو ــ شينغ التي راحت تخاطب نفسها : « يا للموقف الصلب الذي يقفه ! فهو ينطلق مباشرة الى صميم الموضوع ! » . كان بين هسو والعمة لي شيء مشترك لايزال ينقصها . تساءلت ما اذا كان الاختلاف في جذور الطبقة العاملة او في الشخصية الفطرية للشعب العامل هو الذي يفصلهما عنها . واسعدها ان تتعرّف اليهما لأن في مقدورهما تثقيفها جيدا ، ولكنها تحسّ قلقا ذهنيا في حضورهما وكأن جميع نقائصها تنكشف علانية فتسبّب لها حرجا وارتباكا . انها قادرة على تسوية الاخطاء التي نزلت بالعجوز شينغ من دون ريب !وخزتها هذه الفكرة الى ان وجدت لنفسها عزاء في تفكيرها. أن نبرة هسو الساخرة ربما كانت نتيجة جهله بماضيها .

في اليوم التالي أثارت تاو ــ شينغ صراعا جديدا مع نفسها . كان فؤادها مثقلا ولكنها ذهبت لرؤية شينغ تيه ــ فو . كان الوقت ظهرا ، ولم يكن ثمة انسان هنالك . نادته عدة مرات من خارج كوخه، ولما لم تسمع جوابا اتخذت طريقها اليه. كانت قد عقدت العزم على الحديث مع العجوز شينغ بحيث بدت لها عفونة الغرفة المظلمة أقل نفورا .ولكن الغرفة كانت خاوية الا من لحاف قطني مهلهل موضوع على الكانغ . وكادت ان ترجع أدراجها ، مستاءة ، حينما دخل شينغ تيه ــ فو . فوجىء بوجودها هناك ، في حين التقطت هي أنفاسها في عصبية .واجه كل منهما الآخر في صمت طوال برهة ، الى ان تجرأت تاو ــ شينغ فبدأته الحديث قائلة : « عمّاه ، جئت لرؤيتك ... »

ــ ماكان ينبغي أن تزعجي نفسك ! ماذا تريدين من رؤيتي ؟

اساءها هذا الرد الحاد ، ولكنها استرسلت تقول : « لاتغضب مني ، يا عماه . فأنا لست مثل والدي او رابّتي . انا اكرههما ايضا. »

ــ هذه مشكلتك انت !

جلس بتثاقل على طرف الكانغ وملأ غليونه بيدين مرتعشتين ، ثم انحنى الى الامام يدخّن متجاهلا وجود تاو ــ شينغ .

وقفت الفتاة عند مدخل الباب مرتبكة لا تعرف ماذا تقول الى ان ومضت في ذهنها نصيحة « سوّي الخلاف معه » ، وتفسير العمة لي لكراهيته الفطرية . أمدّها ذلك بشجاعة كيما تجلس في هدوء على

مقعد لاظهر له وتروي له كل شيء عن ماضيها . حدثته عن أمها وعن قساوة رابّتها بعد وفاة تلك الام .. وفي منتصف قصتها هب هسو تيه ـ فو فجأة على قدميه ودلف خارجا حاملا غليونه معه . استاءت تاو شينغ كثيرا . آبت الى غرفتها والعبرات تغسل عينيها يائسة محطمة بحيث طوّحت نفسها على فراشها دون أن تتناول طعاما. لم تكن تعرف كيف تحقّق انتصارها على هذا الرجل العجوز وافكاره الغريبة .

* * *

١١

بعيد يومين وقعت حادثة أخرى أثناء جولة تاو ــ شينغ برفقة وين ــ تاي .

وصلا الى حشد من الاكواخ حيث يعيش مستأجرو أسرة سونغ وقرويون فقراء آخرون ، وترجتّ تاو ــ شينغ ان تشاهد شيئا من ظروفهم المعيشية . كان مايحيط بها عبارة عن بيوت فقيرة لها نوافذ مربعة صغيرة قذرة ، وفي بعض الباحات الصغيرة الصغيرة تطوف جموع من الصيصان والخنازير تبحث عن طعام فوق أكوام الروث المزدحمة بأسراب الذباب . لم تجد تاو ــ شينغ في نفسها مايشجعها على دخول أحد تلك الاكواخ ، فضلا عن ان وين ــ تاي ما كان يجيز لها ذلك . صحبت الصبي الى ماوراء القرية الصغيرةحيث عثرا على بحيرة مغطاة بالقصب والنيلوفر . أطلق الصبي صيحة سرور ، وشرع يطارد اليعاسيب التي يعج بها المكان . لمحت تاو ــ شينغ كوخين منفردين تحت احدى اشجار الحور غير بعيد عنهما . فحذّرت الصبي قائلة : « حذار ، يا وين ــ تاي ! اياك ان تسقط في الماء ! سأذهب الى هنالك، لكنني لن اغيب طويلا ... » واشارت الى الكوخين ثم انطلقت صوبهما.

كان باب احد الكوخين مفتوحا ، وخيّل لها انها سمعت اصواتا في داخله . ترددت في الدخول ، واسترقت النظر من خلال النافذة المتداعية . كان كل ما استطاعت ان تميّزه اول الامر في هاتيك الغرفة الداكنة كانغ ينتصب وراءه فرن . وكان رجل شيخ مضطجعا عليه وفتاة شعثاء الشعر في الخامسة أو السادسة من عمرها مهلهلة الثياب تستكين الى جانبه .

سألت الطفلة ، وهي تمسّد لحية الشيخ : « اأنت الآن احسن حالا ، يا جدّاه ؟ »

بدأ الشيخ وكأنه نصف مصعوق . أجابها في ضعف ، وهو يخلّل شعرها بأصابعه : « كلا ، يا حبيبتي ، لم أتحسن بعــد ... » وأغمض عينيه وكأنه مضنى .

حدّقت الطفلة فيه ، جامدة الحركة وكأنها أحد التماثيل ، وعيناها اللامعتان تتغايران بصورة غريبة مع وجهها الشاحب القذر . كانت هنالك ومضة من الألم في عينيها ، أو ربما كانت نظرة ترقّب لما هو آتٍ ؟ ارتعش ثغرها على حين فجأة ، فتعلقت بعنقه ، وصاحت : « جدّاه ! انا جائعة! » .

تشوّشت تاو ـ شينغ كثيرا ، وهي تصغي الى الحديث من خارج الكوخ ، من صيحة الفتاة . التفتت كيما تتأكد من أن وين ـ تاي ما برح يلعب الى جانب البحيرة ، واطمأنت أنه في مكان آمن ، ورجعت فمدّت بصرها عبر النافذة .

كانت عينا الشيخ مفتوحتين الآن ، ودمعتان كبيرتان تتدحرجان على وجنتيه المهزولتين . مسحهما ، وشدّ الطفلة اليه وهو يرتجف ، ودفن وجهها في صدره . وتهدّج صوته قائلا : « لاتبكي ! سيحضِر لك شقيقك شيئا تأكلينه » .

في تلك اللحظة دلف الى الكوخ صبيٌ يحمل على كتفه بعض حزم من قضبان . كان في حدود الثانية عشرة من عمره ، قذرا يتســربل الاسمال البالية . كانت تاو ـ شينغ مستغرقة في افكارها بحيث لم تلحظ ما اذا كان لمحها ام لا . راحت تراقبه وهو يضع حزمته في الغــرفة الخارجية ، ومن ثم يدلف الى الغرفة الاخرى لرؤية جدّه .

رفع الجد رأسه ، وشبح ابتسامة يتخايل على شفتيه : « هاأنتذا قد عدت ، أيها النمر الصغير ! هل جلبت شيئاً يؤكل ؟ »

امتنعت الطفلة ، بدورها ، عن البكاء لترفع بصرها الى كيس يحمله شقيقها في يده . مرة أخرى كانت جامدة الحركة فكأنها قُدّت من صخر .

لم ينبس الصبي بحرف ، بل خفض رأسه ، وأفرغ محتــويات كيسه علــى الكانغ فــي تمهّل . تدحرجت مــن الكيس بعض حبــات المشمش الفجة والخوخ الصغير . لم تستطع شقيقته ان تخفي امتعاضها ، فتعلقت بذراع الشيخ وهي تبكي : « أنا جائعة ، ياجدّاه ! أنا جائعة ! ولست أريد مشمشا ! » .

تناول الصبي ، وقد ارتسمت على وجهه نظرة مكتئبة ، عصفوراً دورياً من جيبه وعرضه على شقيقته ، وقال في نبرة لطيفة : « لاتبكي ، يا أختاه ! سوف أشويه لك ! » .

رمته الصغيرة بنظرة،ثم تشبثت بجدها وانفجرت في نشيج جديد. أنهض الشيخ جذعه ، وحملق في الصغيرين ، ثم جلس بدوره على حافة الكانغ وكأنه استحال الى صخرة جامدة ، والعبرات تتلألأ في عينيه .

هذا المشهد المحزن اعاد الى ذهن تاو ـ شينغ ذكرى هيي ـ ني، وشينغ تيه ـ فو . وأهبها من استغراقها صوت وين ـ تاي وهو يقول على حين فجأة : « فلنرجع الى البيت لتناول العشاء ، يا آنسة شانغ! قالت أمي انه سيضم هذا المساء كعكا مرقوقاً ولحم خنزير ساخنا » .

جمعت تاو ـ شينغ بعضها ومشت متحركة صوب وين ـ تاي. وفيما هي تخطو على مهلة لمحت الشيخ المريض يترنّح خارجا ، وقد حمل في يده منجلا ، وحفيداه يلحقان به في أعقابه .

تمايل الشيخ في مشيته كالسكران ، وهو يحدّق الى الامام منه ، بينما بذل الصغيران طاقتهما للّحاق به .

تساءلت تاو ـ شينغ ، والقلق ينهشها ، ماذا عساه انتوى أن يفعل . وسألها وين ـتاي في فضول ، وهو يتبعهم نظراته : « ماذا سيفعل هذا الفزّاعة ، يا آنسة شانغ ؟ »

امسكت تاو ـ شينغ ، وقد طغى عليها الفضول والاشفاق ، بيد وين ـ تاي وركضت وراءهم . اجتازوا حقلين وبلغوا قطعة من الارض راح القمح الناضج فيها ينحني تحت هبّات الريح . وأهوى الشيخ على السنابل يقطعها بمنجله .

خاطب الصغيرين قائلا : « خذاها الى البيت! ان كان الملاّك يستطيع ان يأكلها ، فلم لانستطيعُ نحن ذلك ؟» .

وقف الصبي والفتاة جامدين لاحراك فيهما ، وقد تشبّث كل منهما بالآخر ، وعيونهما ملتصقة بالشيخ العجوز .

كان هنالك شكل بشري طويل في يده عصا كبيرة يدنو مقتربا ـ انه العجوز سونغ كوي ـ تانغ . وعندما وقع بصره على ما يفعله الشيخ المريض ركض ملوّحا عصاه وهو يرعد هادرا : « هل جننت ، يا وانغ

لاو ــ تسينغ ؟ لقــد بعتني هــذه الثلاثة « مو » لتدفع نفقات جنازة كنّتك ... كيف تجرؤ على لمس قمحي ؟ »

توقف العجوز وانغ عن عمله وغرز عينين منتفختين غاضبتين في مضطهده وزمجر قائلا : « قمحك « انت » ؟.. انه ليس قمحك ! » وتابع حصاد السنابل !

تفاقمت غضبة سونغ كوي ــ تانغ ، فرفع عصاه ليضرب بهـــا الشيخ المريض . وارتعش الطفلان الفلاحان مثل حملين مذعورين ، لكن وين ــ تاي صاح في صوت مسرور : « انظري ! جدي سيضربهم مرة اخرى! لسوف ينزل بهم علقة ساخنة !»

حملقت تاو ــ شينغ بانشداه في وين ــ تاي ، ونسيت جميــع التعليمات الصادرة اليها بالحفاظ على صلات طيبة مع أسرة سونغ ، واندفعت مباشرة الى الملاك . اختطفت العصا منه والغضب يحرقها ، وسألت في صوت مرتعش : « فيمَ تضربه ؟ » .

ولاريبة أن تصرف تاو ــ شينغ العزوم ووجهها الشاحب فاجئا سونغ كوي ــ تانغ ، فقد خفض يده وحدّق فيها وكأنها امرأة غريبة . ثم انفجر في ضحكة عاصفة ساخرة .

قال في نبرة خشنة : « حسنا ، حسنا ! ماذا اصابك ؟ ما علاقتك بهذا الموضوع ؟ أتحسبين ان الماء اكثف من الدم ، وان الاحسان يبدأ مع الغرباء ؟ »

كان ثمــة نور مفترس جشع في عينيه الفائرتين .

صعق الشيخ وانغ وحفيداه دهشة ، كما ان وين ــ تاي انشده رعباً . نظرت تاو ــ شينغ الى الملاك نظرة جانبية ، وقالت في هدوء : « الا ترى مبلغ عوزهم ، ياسيد سونغ ؟ يالمثل هذا البؤس ! أفلن تسمح لهم بأن يأخذوا قليلا من القمح ينقذون به حياتهم ؟ »

اختطف العصا منها وهدّد العجوز وانغ بها ، وهو يزمجر : «أسمح لهم أن يأخذوا قمحي « أنا » ؟.. كلا ، وحق السماء ! أنت تجــرؤ على حصاد قمح بعته لي ! لاريبة انك فقدت عقلك ! » .

وثبت تاو ــ شينغ الــى الامام لتحمي الشيخ بجسدها : « لاتضربه!» واكملت لاهثة : « لاينبغي ان تتنمّر على الفقراء على هذا الغرار ! »

كان سونغ على استعداد للانقضاض على تاو – شينغ في غضبة عنيفة حينما صرف الشيخ وانغ أنظاره بأن تهاوى على ركبتيه وشرع يبكي في صوت مرتجف لكن ثاقب : « أيتها السماء ! أيتها السماء ! ارحمينا ! أنظري هذه الحياة التي نعيشها ، نحن الفقراء ! هذا الملاّك الاسود القلب يدّعي انني بعته ارضي مقابل ثلاثين يوانا ادفعها نفقات جنازة كنّتي . ولكنه فرض عليّ فائدة مرتفعة بحيث لم احصل على أكثر من عشرين يواناً . وانا بعته « موين » اثنين وليس ثلاثة . فهذه الثلاثة « مو » هي كل ماتملك لقوت يومنا . أيتها السماء ! ارحمينا ! رجل عجوز وولدان صغيران – ماذا في مقدورنا ان نفعل ؟.. »

ظلّ يصيح وينشج في حين التصق الصبي والفتاة به وهما يرسلان عبرات ساخنة .

وارسلت تاو – شينغ عبراتها على الرغم منها .

شده الملاّك طوال برهة ، وحينما التفت وجد حشداً من الناس أحاط بهم .

بصق في وجوههم : « تفو ! لقد ذهب الفقر بعقله ! هذا ابتزاز . انت لا تستطيع ان تخدعني على هذا الغرار ، يا وانغ لاو – تسينغ ! أعد اليّ القمح الذي أخذت من حقولي ! » .

رمى تاو – شينغ بنظرة تفيض حقدا وضرب الارض بعصاه ، ومشى مبتعدا .

كان الفلاحون على وشك ان يمدوا يد المساعدة للشيخ وانغ كيما ينهض على قدميه حينما وصل سونغ يو – بين ، لطيفا دمثا مثله أبدا ، وتظاهر انه يختلف عن أبيه الاختلاف كله . أسرع يساعد الشيخ وانغ على النهوض ، وهو يعتذر : « لاتبال ، ايها العم وانغ ! أنت تعرف مزاج والدي . لايغضبنّك ذلك ! ان لم يكن لديك شيء من الحبوب فلسوف آمر احد الخدم ان ينقل اليك مكيالين من حبوبنا». ثم استدار الى تاو – شينغ مبتسما : « كيف ، يا آنسة شانغ . ماكنت أعرف أنك تدخلت في الموضوع ! والدي رجل عجوز . ولانستطيع ان نأخذ أفعاله على محمل الجدّ . حسنا ، الظلمة تنتشر . فلنرجع ادراجنا الآن. هؤلاء الناس الطيبون سيرغبون في متابعة أعمالهم في برودة المساء» .

لم ترجع تاو ـ شينغ برفقة سونغ يو ـ بين رغم أن النزاع قد انتهى. كانت عند حلول الغسق واقفة تحت شجرة خرنوب ، تستعيد في ذاكرتها احداث بعيد ظهيرة ذلك النهار في تعاسة عميقة . ان تهورها وعدم قدرتها على ضبط نفسها قد يجعلان من المستحيل عليها أن تبقى في هذا المكان . لقد خذلت العمة لي ، وخذلت الحزب .. ماذا ينبغي عليها أن تفعل الآن ؟ لقد اصطدمت في نزاع مع الملاّك العجوز في ذروة فشلها في اكتساب صداقة شينغ تيه ـ فو. ومع ذلك كدّرتها رؤية وانغ لاو ـ تسينغ وحفيديه . ان حياتهم على هذه الارض اشبه بالجحيم ! هل جميع الفلاحين الصينيين تُرى على شفير العوز والفاقة ؟.. لم ترجع ادراجها حتى ساعة متأخرة . اضطجعت في فراشها وفكرها أسير دوامة رهيبة، وبقيت مستيقظة الليل بطوله .

غريب ان نقول انه لم ينجم شيء عن التحدي الذي أثارته تاو ـ شينغ . ان أحدا في أسرة سونغ لم يأت له على ذكر . وحينما التقت بالملاّك العجوز مرّ بكل بساطة وأومأ لها برأسه ايماءة توبيخ ، في حين ظلّ سونغ يو ـ بين ودوداً كعهده أبدا ـ بل أبدى تجاهها مزيدا من الاحترام . لم تستطع فهم موقف الاسرة ، الا أنها عزته في النهاية الى المساعي الحميدة التي بذلها سونغ يو ـ بين ، فشرعت تفكر فيه بمزيد من الاحترام . لم يكن شريرا على ما كان يجول في فكرها ، بل كان يملك ضميرا ويصرف اهتمامه الى الدرس والتثقف . ومهما تكن افكاره خيالية او وهمية فهو أفضل من ابيه ، هذا الاب الذي كان اهتمامه الوحيد منصرفا الى امتصاص آخر قطرة دم من الفلاحين البؤساء .

في اليوم التالي لمؤازرة تاو ـ شينغ للشيخ وانغ التقى بها هسو مان ـ تون ونصح لها ان تكون أكثر حذرا وألا تفضح نفسها مرة اخرى. ولما كانت قد ادركت خطأها فقد شرعت تتصرف بمزيد من الاحتراس. وطوال ايام متوالية لم تكن تفعل اكثر من اعطاء الدروس ونسخ المخطوطات، ولا تترك لنفسها فرصة للقيام بجولة برفقة وين ـ تاي الا في النّدرى . وهذا ما كان يتيح لها فرصا قصيرة للقاء هسو و شينغ تيه ـ فو . وذات مرة صدف ان التقت بهذا الاخير في باحة جانبية . ترددت في مبادرته الحديث في حين تجاهل هو وجودها . أثارها ذلك منه ، وحمل معه

كثيرا من الانفعالات المتضاربة ، والخجل ، وتوبيخ النفس ، مثلما حمل معه نقمة ذاتية . وبالاضافة الى ذلك فهي لم تكن تستطيع ان تعرف من تعابير وجهه الكئيبة ما اذا كان لايبرح حاقدا عليها أم لا .

كانت صداقتها مع العمة شين تزداد يوما بعد يوم في هذه الاثناء . وغدت الآن واثقة ان تلك المرأة العجوز لاتخونها أو تقف في صف أسرة سونغ . وهكذا طفقت تاو ــ شينغ تحاول ان تمرّر اليها في العشايا بعض الافكار المبسّطة عن النضال الطبقي . ولم تكن العمة شين قادرة على استيعاب جميع التعابير النظرية التي تستخدمها تاو ــ شينغ . ورغم ذلك لجأت الى القول اكثر من مرة : « انا أعرف انك فتاة طيبة القلب ــ فتاة رائعة قلبها حنون » .

* * *

١٢

كان اقتراب اوان حصاد القمح يعني عملا اضافيا لأسرة الملاك سونغ بكامل أفرادها ، اذ كانت الاسرة تملك الفي « مـو » من الارض . كـان السيدان وبقية الرجال ينطلقون الى الحقول في بكور الصباح ويرجعون في ساعة متأخرة من الليل . ونادرا ماكانوا يتواجدون في البيت بحيث توقف نشاط تاو ـ شينغ في أعمال النسخ .

كان ذهنها مشغولا على الدوام بقضية نضال الفلاحين الذي سينفجر سريعا . وكانت تعرف ان هـذا النضال العادل سيتم بقيادة الحزب ، الا انها لا تملك غير فكرة مبهمة عن الشكل الذي سيتخذه النضال الثوري في الريف . ترجَّت ان تتعلَّم شيئا عن طريق هسو مان ـ تون ، غير انه كان في هاتيك الايام منهمكا في عمل متواصل . أخيرا ، وبعد عدة تجوالات في الباحات الجانبية ، التقته في فترة لم يكن هنالك انسان سواه . أصلح من وضع المنشفة البيضاء المربوطة حول رأسه ، وسأل وهـو يبتسم : « أمشغولة أنت ، يا آنسة شانغ ؟ »

أخبرتها نظرته الموبخة انه لم ينسَ تهورها الاخير . كان ندمهـا ممتزجا برضى ذاتي لاريب فيه ، فردَّت عليه في لطف وهي تحـدجه بنظرة حييَّة : « أعرف أنني ارتكبت خطأ في ذلك النهار . . . الا ان ذلك لم يؤثر على علاقاتي مع أسرة سونغ . والآن ، كيف سيبدأ نضال الحصاد؟ انني في ظلمة دامسة . وانت تعرف مقدار ما أنا عليه من قلق » .

هز هسو رأسه مبتسما : « لا فائدة من ان تهتزي قلقا . ليس امامك غير الانتظار . ومهما حدث ، فاحذري أن تظهري مختلفة عن باقي الناس ، ولاتنسي عملك الرئيسي » .

وعلى الرغم من انه لم يقل شيئا محددا عـن النضال المقبل ، الا

أنها استشعرت ، من تلك النظرة الهادفة في عينيه ، ان العاصفة على وشك الانفجار .

كانت حقول أسرة سونغ الفسيحة المترامية تشبه بحرا من الذهب حينما تروح نسائم الريح تحرك سنابل القمح تحت أشعة الشمس المحرقة. وكان سونغ كوي ـ تانغ ، المنيع ضد الشمس ، يُشاهَد كل يوم تقريبا يقوم بجولته في الحقول برفقة حرّاسه ، يطلق شتائمه اذا ما فقدت بعض حبات القمح ، منزلا ضربا وحشيا مبرحا بأي فلاح جائع يضبطه وهو يسرق ولو مقدارا صغيرا .

كان الملاّك العجوز قد ارسل عمالا زراعيين الى القرى الملأى بالحقول لتعزيز الحاصدين الموجودين فيها . في الماضي كان يستأجر عمالا مؤقتين بأجور زهيدة ، اما اليوم فان الرجال الذين يعيشون في الجوار يطلبون اربعة يوانات يوميا ، ويرفضون العمل بيوانين اثنين لايعرض سواهما . وكان القمح ينضج بسرعة ، ولسوف يتعفن في الحقول ان لم يحصد عاجلا ، ولذلك اصدر امره الى هسو مان ـ تون وبعض الرجال الآخرين بالانطلاق والبحث عن عمال . وكان القلق قد جعل من الرجل العجوز اكثر حبا بالمشاكسة منه قبلا : فهو على الدوام يضرب الارض بعصاه . وكان ولده ، إما بتأثير منه أو عن وعي بالاحوال الحرجة ، قد شارك في اعمال الاشراف على الفلاحين . ارتدى قبعة من القش ، وراح يلحق بوالده هنا وهنالك الى ان لفحت الشمس وجهه السمين الاشقر واختفت الابتسامة من شفتيه .

ذات ليلة مظلمة خلال هذه الفترة ، حين كان هسو مان ـ تون والآخرون غائبين ، ارتفعت في فضاء الساحة ضجة أجراس تدق . فدبت الفوضى بين سكان الدار نتيجة ذلك الانذار المستعجل القصير. فأسرعت تاو ـ شينغ ، وكانت قد تأهبت للاستلقاء في فراشها ، تستفسر عن الامر. فأجابها حارس شرع يتسلّق السلّم الموضوع في باحتها للوصول الى الجدار العالي في الساحة الرئيسية قائلا : « انهم يسرقون المحصول ! »

ضرب قلب تاو ـ شينغ بعنف ، واضطرت ان تكبح جماح نفسها كيلا تصيح وتضحك بصوت عال . اخيرا انفجر النضال الذي يقوده الحزب ! وسيحصل فلاحون من امثال وانغ لاو ـ تسينغ وحفيديه على

وجبات صغيرة من الطعام . ومع ذلك ، وعلى الرغم من سعادتها الغامرة ، فهي تجهل تماما كيف سيبدأ الفلاحون أخذ القمح الذي هو قمحهم حقا . وفيما هي منتصبة هنالك يسيطر عليها ارتباك وحشي مر بجوارها سونغ يو ـ بين ووالده والوكيل المسؤول عن أعمال القصر ودزينة من الرجال المسلحين يسرعون خطواتهم . تسلقوا الجدار العالي، واشكالهم السوداء لا تكاد تبين الا بصعوبة تحت ضوء النجوم ، ولكن تاو ـ شينغ كانت تستطيع ان تلمحهم في غموض وهم يوجهون بنادقهم صوب أهداف معينة في الخارج .

توقف قرع الاجراس ، وسادت السكينة كل شيء ، وجنح الحراس فوق السطح الى السكون بدورهم . لم يكن هنالك اطلاق نيران ، ولم يكن هنالك أصوات صياح . ووقفت تاو ـ شينغ وعدد آخر من الخدم تحت الافريز وقد حبسن أنفاسهن في ترقب قلق . وبدا الزمن وكأنه جمد عن الحركة طوال ثانية واحدة .

حاولت تاو ـ شينغ أن تخمّن من اعمال الرجال المتواجدين على السطح كيف كان النضال دائرا ، غير أن الحراس شرعوا يتركون بنادقهم واحدا بعد الآخر ، في حين راح عدد منهم يشعل اللفائف ويدخنها . أخذت تراقب الاضواء الحمراء الصغيرة المنطلقة من رؤوس لفائفهم في نفاد صبر ، وعزمت على الوصول اليهم لتشاهد مايجري هنالك، فهمست في أذن العمة شين الواقفة الى جانبها : « عمتاه ، فلنصعد الى هنالك ونشاهد ما يجري ! » .

تنهدت الخادم العجوز : « السيد سونغ العجوز لايسمح للنساء بالذهاب الى هناك . حسنا ، أنت ترين الامور كيف تجري ـ للفقراء عذاباتهم ، وللاغنياء مصاعبهم أيضا » . ودلفت وخادمتان أخريان الى الداخل ، وبقيت تاو ـ شينغ وحدها . ولما كان الباب الجانبي مفتوحا الآن ، فقد ومضت في ذهنها خطة للصعود الى السطح . ركضت الى غرفة نوم سونغ يو ـ بين في الساحة الثانية ، وهتفت من النافذة عندما لمحت نورا يتسلل منها : « أنائمة انت ، يا سيدة سونغ ؟ »

استوضح صوت قلق : « من هناك ؟ »

ـ شانغ هسيو ـ لان !

فتح الباب قليلا وكشف عن السيدة سونغ تحمل حزمة صغيرة ملفوفة بحرير مطرز . كان وجهها يشبه الرماد وصوتها يرتجف وهي تستفسر : « ماذا يحدث ؟ أثمة خطر هنالك ؟ »

هزت تاو ـ شينغ رأسها : « كلا . جئت أسألك عن هذا كله » .

ـ ماذا يمكن أن يكون غير ان الرعاع يسرقون قمحنا ! ويخاف السيد العجوز ان يندفعوا الى هنا ويباشروا اعمال النهب . ولذلك صعد ورجاله الى السطح .

امسكت تاو ـ شينغ بذراع السيدة سونغ النحيلة : « هل نستطيع ان نصعد الى فوق ونشاهد مايحدث ؟ » .

فانكمشت قائلة : « أنا لا أستطيع ذلك ! ينبغي عليّ أن أفصل بعض الاشياء في حال حدوث ... »

وأضافت ، عندما أصرّت تاو ـ شينغ : « حسنا ، اصعدي وحدك . فأنت لاتخافين من السيد سونغ على اية حال » .

تسلحت تاو ـ شينغ بهذا الاذن وركضت الى السلّم فتسلقته بهدوء وصعدت الى السطح ، وقد نسيت من جراء حماستها أن الملاّك ورجاله موجودين هنالك .

كان المشهد عجيبا. آلاف الاضواء ، الشبيهة بالنجوم المتلألئة في صفحة السماء ، تتراقص في الحقول البعيدة . وفي قلب هذه البقع الضوئية تتحرك اعداد لا حصر لها من الاشكال السوداء ـ انها ليست ارواح أو حباحب تتراقص في النسيم ، ولكنها فلاحون يقاتلون بقوة في سبيل حقوقهم . اخرجها الفرح عن طورها ، وتاقت الى ان تطلق صيحة تقول : « آه ، يا حزبنا ، لشدّ ما أنت عظيم ! » .

خفق قلبها بقوة ، وتضرّج وجهها ، وفهمت ماكان يجري . الحزب يقود الفلاحين لنقل المحصول الذي أنضجوه الى بيوتهم ، بحيث يتمكن الفقراء من تذوق طعم الارغفة الساخنة التي لايتمتع بها غير الاغنياء وحدهم .

انفرجت أساريرها وجنحت الى هدوء، وراحت تخطو مقتربة حينما تصدّى لها أحدهم . انه سونغ يو ـ بين .

لم يتلعثم صوتها الهادىء حين قالت : « أنا شانغ هسيو ـ لان ! أتستطيع ان تخبرني ماذا يجري ، ياسيد سونغ ؟ كنت قلقة ، وسألت

السيدة سونغ ، ولكنها لم تكن تعرف . أمرتني أن أصعد الى هنا واستجلي الامر » .

وضع سونغ يو – بين مسدسه الموزر ، وأخذ نفسا عميقا : « أوه، انه لاشيء . ناس يحصدون قمحنا . ألست خائفة ، يا آنسة شانغ ؟ لم لاترجعين الى فراشك ؟ ».

– كلاّ ، أنا لم أشعر بالخوف من قبل – كانوا ينادونني غلاميّة . أصحيح أنهم يحصدون قمحكم من غير أذن منكم ؟ مامعنى هذا ؟

استند سونغ الى فتحة في الجدار ، وحدّق في الحارسين المتشحين بالسواد الى جانبه ، وهزّ رأسه : « حتى الدودة تصاب بدوار ... ان والدي أحيانا يذهب بعيدا جدا .. »

فقاطعه خوار غاضب ، وأجفل الجميع عند سماعهم صوت سونغ كوي – تانغ يهدر : « أذهب بعيدا جدا ، أليس كذلك ؟ أيها الجرو العاق ! انت الانسان الوحيد الذي أفسد هؤلاء الشياطين ! »

لقد أتيحت الفرصة اخيرا للملاّك العجوز ان ينفّس عن غضبته : « المدين ينبغي أن يوفي دينه من ماله ، والمجرم بحياته – هذه هي القاعدة منذ الزمن السحيق في القدم . أي انسان يحرث أرضي يجب أن يدفع لي اجرا عنها ، وأي انسان مدين لي بنقود ينبغي ان يسدّدها . فهل هذا ذهاب الى بعيد جدا ؟ أفلا يفعل جميع الملاّك الآخرين مثلما افعل أنا؟ أنت تأذن للآخرين أن يتكسبوا على حسابي من وراء ظهري ، أيها الاحمق ! لكن ايمنعهم هذا من أن يسرقوك أنت الآخر في نهاية المطاف ؟.. انظر هنالك ! » واشار بيد مرتعدة ناحية الحقول في الغرب ، وزمجر: « هنالك ! هنالك ! انهم ينقلون قمحي بالعربات .. ويحملونه بعيدا !»

أبدا من قبل لم تستشفّ تاو – شينغ مثل هذا الحقد في صوته.

تطلعت هي وسونغ الى حيث أشار الملاك العجوز ، فشاهدا الآفا من الاخيلة تتحرك نشيطة وسط الاضواء المتراقصة . كان الفلاحون المنظّمون جيدا يحصدون القمح ويكدسونه على العربات ويحملون ثمار انتصارهم بعيـدا .

شعرت تاو – شينغ بفرح وفخار لا يوصفان ، في حين كان وجه سونغ يو – بين أبيض ، وعيناه تومضان رعبا . نقل بصره من والده اليها،

وردّ في صوت واهن : « لا تلمني . فالحمر وراءهم . ماذا أستطيع أن أفعل ؟ » .

ـ الحمر ! ...

انه يعرف اذن دور الحزب الشيوعي في هذا العمل ! تصورت تاو ـ شينغ انه اكثر أكاديمية من أن يكون لديه أي فهم سياسي .

اطلق الرجل العجوز رصاصة على الجدار من مسدسه المنتهي بشرابة حمراء والذي يحمله طوال سنوات معدودات ، وقاطعه قائلا : « انت ، أيها الاحمق المسكين ، أنت ! لقد درست الحقوق للاشيء ! فكّر في مقدار المبالغ التي أنفقت عليك لأتركك في الكلية ! ورغم ذلك فأنت تسمح للحمر أن يُنزلوا بك الأذيَّة تحت بصرك وسمعك .. يا للابن الذي ربَّيتُ ، مجرد احمق لانفع فيه ! »

كانت توبيخات الملاّك القارصة مفاجأة بالنسبة الى تاو ـ شينغ حيث وقفت هنالك على السطح في الظلمة . لقد مضى عليها ، في واقع الامر ، شهر كامل وهي في بيت سونغ دون ان تستوعب معنى لارسالها اليه ، ومدى أهمية اقامتها صلات طيبة مع سكّانه في سبيل ان تمرّر الى هسو مان ـ تون أي شيء تسمعه . وجعل هذا الاشتباك بين الاب والابن ، في ملء هذا الصراع ، تاو ـ شينغ تتأكد انها ، هي ايضا ، أمام النضال الطبقي ، ليس كمتفرج بل كمقاتل نشيط . وفيما هي تتطلع حواليها في دهشة صبيانية راحت تلقي اهتماما زائدا الى مايقال . لكن ، ما أسرع ان انتهى الشجار . سأل الملاّك العجوز ولده في نبرة رجل الاعمال : « هل أغلقت غرف المخازن بالاقفال ؟ بأفضل الاقفال الانكليزية الاصلية ؟ » ..

ـ أجل . لا تقلق .

تحركت تاو ـ شينغ عدة خطوات لالقاء نظرة على الحقول كمن يستغرقها ذلك المشهد .

زمجر الملاّك العجوز في صوت خشن : « يا للسماوات ! انهم أكثر شرا من قطّاع الطرق ! »

ونادى على رئيس حرسه : « هو ! أولئك الرعاع يسرقون قمحي

الآن ، لكن سرعان ماقد يندفعون الى البيت ... انتبه ! ليس هنالك ضرورة لأن تكون مؤدبا ـ ان هم جاؤوا افتح النار عليهم ! »
واسامَ نظره الى تاو ـ شينغ ، وعصف : « آنسة شانغ ، لقد استخدمناك مربية وليس حارسا . ماذا تفعلين هنا على السطح ؟ولماذا انت لست في غرفتك ؟ »
وقبل ان تتمكن تاو ـ شينغ من الجواب هبَّ سونغ يو ـ بين الى نجدتها : « ليست الآنسة شانغ غريبة عنا ، يا ابتاه . ان صعودها الى هنا دلالة على اهتمامها بأسرتنا » .
عبس العجوز وكأنه يحتجُ قائلا: «أنت تقف الى جانبها على الدوام» .
وجلس منهك القوى على حجر قريب .
كانت الليلة جميلة باردة ، والنجوم المتناثرة تتلألأ في جوانب السماء بصورة فاتنة . استندت تاو ـ شينغ الى فجوة في الجدار وبدت بريئة طاهرة مثل فتاة صغيرة . وفيما هي تشاهد الحقول الغربية حيث تجمهر غالبية الرجال والاضواء فقد بدت ظاهريا مستغرقة في رؤية ذلك المشهد ، أما باطنيا فكانت تغلي اثارة وهياجا . حاولت عبثا أن تلقي نظرة خاطفة على الوجوه المتضوئة للفلاحين الذين طال اضطهادهم ، وودت لو تطير من قفصها وتشارك الرجال الذين يعملون مناجلهم في الحقول . تطلعت حواليها وقد أغضبتها فكرة انها لن تستطيع مغادرة بيت أسرة سونغ . كان الملاك العجوز قد ذهب تاركا ولده يحدق مهموما في الحقول القائمة الى الغرب .
خيَّم صمت عميق ، فلا كلب ينبح ، في حين رمت تاو ـ شينغ أبصارها الى الضوء المعتم ناحية الشرق . استندت الى الجدار وتثاءبت منهكة القوى . وعلى حين بغتة ، انطلقت زمجرة غاضبة جعلت الحراس المتواجدين على السطح يتناثرون في جميع الاتجاهات . التفتت تاو ـ شينغ فشاهدت الملاك العجوز مادّاً ذراعيه المرتجفتين ، وهو يصيح : « ضاع كل شيء ! قمحي كله .. عشرات الالوف من « الكاتي » ـ ضاعت كلها ! »
كان يهتز بقسوة بحيث راح صوته الاجش يرتعش ايضا .
كانت تستطيع أن ترى من خلال ضوء الصباح الشاحب ان الاضواء المتلألئة قد اختفت . وظهرت الحقول المنتشرة جرداء واسعة اشبه ما

تكون بمارد يستغرق في نوم عميق بَعَيْد عمل مرهق . ولم يبق أثر للقمح والحاصدين .

– ضاعت ... هذه هي النهاية !

وتلاشى صوت الرجل العجوز . كان سونغ يو – بين ورجال الحرس الذين تجمعوا لمساعدته يحدقون في وجهه الشاحب المليء بالاخاديد . وارتمى بين ذراعي ولده ، وهو يطلق صيحة مرعبة : « ياقمحي ! ».

ركع سونغ يو – بين واحتضن رأس ابيه ، وهو يصيح : « أبتاه! انهض !.. استيقظ !.. »

وسرعان ماشرع ينوح : « ابتاه ! ابنك العاق سيثأر لك ! أقسم على ذلك ! » .

– يثأر ؟

ارتعشت تاو – شينغ ونظرت الى سونغ يو – بين عاجزة عن تصديق أذنيها . وحينما سمعته يكرّر قسمه السفاح ارتعشت ركبتاها وكأنها ارتكبت شخصيا جريمة ما . قفلت ادراجها مسرعة الى غرفتها، وطوحت نفسها على الكانغ ، وغطّت رأسها باللحاف .

١٣

لزم الملاك العجوز فراشه في اليوم التالي ، واصدر سونغ يو ـ بين أمره الى شينغ تيه ـ فو ان ينقله الى المدينة للعمل على تنفيذ الثأر . كان شينغ السائق الوحيد الموجود . ولم يكن قد بعث به مع الآخرين لأنه يبدو مثل الاحمق . وحينما سمع الملاك العجوز ان ولده ذهب يطلب مساعدة حكومة الاقليم تجدّدت حيويته وبدأ التحسن يدبّ اليه . وكانت تاو ـ شينغ قلقة ضائعة النهى،تتساءل: « ما هو شكل الثأر الذي سينفذون ؟ لقد أخفى الفلاحون القمح دون ان يُلقى القبض على أحد منهم ـ لقد تمّ تنفيذ العملية كلها بصورة رائعة. ماذا تستطيع أسرة سونغ أن تفعل اذا لم يكن رجلاها واثقَين مَنْ أخذ قمحهما ». كانت خائفة على الفلاحين وتكره نفسها لأنها تشك في هسو مان ـ تون ولأنها فكرت أن سونغ يو ـ بين لم يكن يشبه والده ، بل كان لطيفا مطبوعا على حب الخير الا أن أسرته تحول بينه وبين ذلك. لكم كانت سخيفة طائشة ! لقد غاب سونغ يو ـ بين ثلاثة ايام ، وظلت هي طوال ليلتين تستلقي على فراشها يجافيها النوم تأسى بشدة على مواطن الضعف فيها . تأكد لها ان مستواها السياسي اكثر انخفاضا من مستوى هسو مان ـ تون وشينغ تيه ـ فو وآخرين كثيرين .وكانت تشعر انه ليس من المستحيل ايضا أن يعتقل وانغ لاو ـ تسينغ ، فماذا ترى يصيب حفيديه بعد ذلك ؟ كانت قد صحبت بُعيْد حصاد القمح وين ـ تاي في جولة في الحقول ، واسعدها كثيرا أن ترى أن جميع السنابل الذهبية قد حُصدت . وعلى حين فجأة لمحت «النمر الصغير» يقترب منها حاملا قفصا من الحطب على ظهره ويحيّيها مبتسما . ولما شاهد وين ـ تاي ينطلق لصيد اليعاسيب ، تناول رغيفا ابيض كبيرا من قفصه ودسَّه بين يديها . لم ينبس بكلمة واحدة ، لكن النظرة

المنتشية في عينيه جعلت دمها يغلي . بلى ، ينبغي عليها ، بدلا من ان تشعر بالتشويش ، ان تناضل حتى النهاية في سبيل اطفال مثل هـذا الطفل . اتخذت هذا القرار ، وارغمت نفسها ، رغم قلقها ، ان تزيد صلاتها مع اسرة سونغ ارتباطا . كانت تنطلق للاستفسار عن الرجـل العجوز ومساعدة السيدة سونغ بالبحث عن الاطباء وتحضير الادويـة العشبية . وزادت صداقتها مع العمة شين الودود متانة . ومن سوء الحظ ان هسو مان ـ تون أرسل مرة اخرى مع بقية الرجال لحصاد القمح في منطقة نائية ، واضطرت تاو ـ شينغ ان تنتظر أوبته بصبـر نافد . وبعيد ظهيرة اليوم الرابع الذي أعقب عملية الفلاحين رجع سونغ يو ـ بين في عربة شينغ تيه ـ فو ، فأسرعت تاو ـ شينغ ، على الرغم من قلقها الشديد ، الى غرفته في جرأة لتحيته على النحو المألوف.

ـ شكرا جزيلا ، يا آنسة شانغ ، على عنايتك الطيبة بوالدي خلال فترة غيابي . أنا ممتن كثيرا ..

كان وجهه السمين يحمل آثار الشمس والريح . وابتسامته أنيسة عذبة مثلها دائما . أتراه ذهب الى المدينة للاثار لوالده ؟ خطر لتاو ـ شينغ أنه لم يفعل شيئا من ذلك على الاطلاق .

طرحت عليه سؤالها بصورة عرضية قدر المستطاع : « هل ذهبت الى المدينة بسبب من موضوع القمح وحده ، ياسيد سونغ ؟ » .

نفث دخان لفافته ورمى نظرة خاطفة على زوجته وابنته قبل أن يحوّل بصره الى تاو ـ شينغ ويتنهد : « ماذا كان في طوقي أن اعمل اكثر من سفرة تهدىء من روع الرجل العجوز ؟ حسنا ، ماحدث قد حدث . ليس وحده القمح مايبعث على الاهتمام . فالفلاحون مضطهدون بقسـوة حقا » .

لمّا خُدعت تاو ـ شينغ مرة فهي لم تعد تؤمن بمثل هذا الحديث العفوي ، ولكنها تظاهرت بذلك قائلة : « أنا لم ألمس مخطوطاتك طوال عدة ايام ، ياسيد سونغ . فهل استمر أعمل فيها الآونة وقد رجعت أدراجك ؟ » .

نهض على قدميه وأومأ برأسه في حركة مؤدبة : « أجل ، ارجوك. هل حدث شيء ههنا ؟ كيف يتصـرف الفلاحون ؟ هل حالهم افضـل منهـا الآن ؟ » .

ذكّرها حديثه بالرغيف الابيض الطري الذي دسّه «النمر الابيض» بين يديها . وخاطبت نفسها قائلة : « أفضل ؟ كيف يمكن ان تكون حالهم افضل قبل أن يتم تدمير الطبقة التي انحدرت منها ؟ » .

ولكنها ردّت عليه بقولها : « أخشى انني لا اعرف . فأنا لم اخرج من البيت كثيرا هذه الايام القليلة » .

هزّ سونغ يو ـ بين رأسه في لطف ، ثم رافقها الى غرفة مطالعته، وأعطاها بعض المخطوطات وتركها وخرج . فجلست تعمل في صبر طوال ساعتين .

خرجت بعد العشاء مؤملة أن تعثر على هسو مان ـ تون وتخبره بالاحداث الاخيرة أو ان تفهم شيئا من شينغ تيه ـ فو عن نشاطات السيد سونغ الاخيرة . عثرت على شينغ بالقرب من البئر يسقي الحيوانات بدلا من هسو الذي لم يرجع أدراجه بعد . أثار استغرابها ان موقفه منها تبدّل كثيرا . كان ثمة شيء من القلق عوضا عن الحقد في عينيه البرّاقتين اللتين ثبتهما عليها في ضوء الغسق . استرقّ النظر حواليه عدة مرات كمن يود ان يقول شيئا ، ثم توقف عن شدّ المرفاع ...

فهمت تاو ـ شينغ . نادت باسم وين ـ تاي وكأنها تبحث عنه ، ثم اسرعت ناحية البئر وهمست قائلة : « ماذا هنالك ، ياعماه ؟ » .

أومأ شينغ تيه ـ فو برأسه وتطلّع حواليه . شدّ المرفاع مرة أخرى ، واعلن من دون تفكير : « اهربي بسرعة ، ياحبيبة ! ان سونغ يو ـ بين يضمر لك شرا ، فقد حصل على قائمة سوداء مدوّن اسمك فيها ، مثلما حصل على صورتك أيضا . هو يقول انك من الحمر . ينبغي أن تسرعي ! اهربي هذه الليلة ! » .

مسّ اهتمامه الحقيقي بها شغاف قلبها ، غافلة عن الخطر المحدق بها ، فمشت اليه وامسكت بذراعه . نظرت في ثبات الى وجهه ، واستفسرت وقد حبست انفاسها : « أفلم تعد حاقدا عليّ ، ياعماه ؟ » .

دفعها عنه قائلا : « لاتضيعي الوقت بالكلام ! انقذي نفسك أولا ! »

آبت تاو ـ شينغ الى غرفتها تأخذ قليلا من الراحة . لم يكن ثمة لديها شيء من الوقت تستغرب فيه تبدل شينغ تيه ـ فو الودي .

تساءلت ، وقد آمنت فيه ايمانا مطلقا : « ماذا تراني سأفعل ؟ اهرب على الفور ؟ كلا ، هذا يورّط اشخاصا آخرين ايضا . أنا لا استطيع التخلي عن المهمة الموكولة اليّ . فماذا أفعل ؟ » .

كان الظلام مخيما ، فاضطجعت على الكانغ مبلبلة الفكر الى ان ومض في ذهنها : « اذا كان سونغ يو ـ بين يعرف من انا ، فلا بدّ انه اكتشف اسماء بعض الآخرين ايضا . أفلم يقل شينغ تيه ـ فو ان هنالك قائمة سوداء ؟ آه لو استطيع الحصول عليها وتسليمها الى الحزب ! » .

جعلتها تلك الفكرة تضطرب ووضعت حدا لمخاوفها . وأطربتها مثلما اطربها يوما ان تلصق منشورات لو شيا ـ شوان . كادت أن تنطلق خارجة والغبطة تفعم جوانحها حينما دارت على نفسها وارتمت على الكانغ مرة أخرى وابتسامة عابرة من السخرية بنفسها ترتسم على شفتيها . لن تمر الامور بسهولة هذه المرة . ان لديها فكرة عن المكان الذي ستبحث فيه !

اضطجعت تفكر في الاسلوب الذي ستعثر فيه على القائمةالسوداء، رافضة كل فكرة جديدة لا تكون عملية تمرّ في رأسها . هل تطلب الى هسياو ـ سو ان تسرقها لها ؟ كلا ، هذا لن يفيد . أو تطلب العون من العمة شين ؟ قدلاتجرؤ المرأة العجوز على القيام بمثل هذا العمل الخطير ... وفيما هي تقدح زناد فكرها رفع أحدهم ستارة الباب ودلف داخلا . انها العمة شين .

سألت في صوت مخفوض : « أفلم تنامي بعد ؟ لِمَ لَمْ تشعلي الضوء ؟ » .

واشعلت عود كبريت واضاءت القنديل .

جلست تاو ـ شينغ وتطلعت الى العمة شين ، وفتحت فمها غير عارفة ماذا تقول . وسألت بعد فترة : « لماذا رجعت باكرا هذا النهار ، ياعمتاه ؟ اين هما السيد والسيدة سونغ ؟ » .

ـ أوه . ذهبا لرؤية العجوز السيد سونغ . السماء وحدها تعرف فيم تأخرا كثيرا هنالك . ان هسياو ـ سو تطرّز ، و وين ـ تاي يلعب

في احدى الغرف . فـانتهزتها فرصة وجئت أراك . لماذا تأكلين قليلا من الارز في هذه الايام ؟ أتشعرين بانحراف في صحتك ؟ » .

ومضت فكرة في ذهن تاو ــ شينغ . انها واثقة من أن القائمـة السوداء موجودة في غرفة نوم السيدة سونغ . وثمة فرصة لم تشأ ان تفلت منهـا .

قالت :« عمتاه ، ثمة ذباب ههنا . فماذا لو اشعلت بعض دخان الذباب من أجلي ؟ ثمة ما أريد قوله لهسياو ــ سـو . سأعود خـلال لحظات » . وانطلقت خارجة من الغرفة .

وقفت خارج غرفة الملاك الشاب ، ونادت عدة مـرات دون ان تتلقى جوابا . فدلفت اليها مباشرة . كانت الغـرفة خاوية . انهـا تضطرب الآن قلقا اكثر منها يوم عملت على إلصاق المنشورات . وبدا لها مصباح زيت البارافين المعتم مثل عين كبيرة مثبتة عليها في حقـد ، وانعكاساته على الخزانة الحمراء وعلى الأثاث الخشبي تبدو براقة متلألئة مثل الاضواء الكشافة . كانت ركبتاها ترتجفان ، ولكنها تشجعت عندما فكرت انها تقاتل في سبيل الحقيقة ، وفي سبيل سعادة المضطهدين. أحست بالهدوء خلال لحظات ، ولما تأكد لها أن احدا لايمر في الجـوار رفعت فتيلة القنديل وبدأت بحثها . كان على المنضدة بعض الوثائق التي ما أن نشرتها حتى تبين لها انها عبارة عن صكوك دين وسندات تمليك ورهون عقارية . اعادتها الى مكانها وقد ارتعشت ارتعاشة مقت ، ثم فتحت أحد الدروج .. وتملكها الخوف وقد سمعت خطوات في الخارج مالبثت أن دخلت بعدها العمة شين الى الغرفة .

وقفت تاو ــ شينغ هادئة قدر استطاعتها الى جانب باب غرفـة النوم ، لكن تطفلها غير المأذون بدخول الغرفة أثار شكوك المرأة العجوز التي حدجتها بنظرها من رأسها الى قدميها وقالت في صـوت قلـق : « ما الامر ، يا صغيرتي ؟.. لماذا ؟.. »

لم تكمل جملتها ، لكن ماقصدت اليه كان واضحا . امسـكت تاو ــ شينغ بمعطف المرأة العجوز وقالت ، بعد ان لم تجد لنفسها غير هذا المخرج : « عمتاه ، ان سونغ يو ــ بين يريد قتلي ! فهل تساعدينني؟»

ــ ماذا ؟ يريد ان يقتلك؟

أمسكت العمة شين بذراع تاو ــ شينغ وشحب وجهها . وقبل ان تتمكن الفتاة من شرح قصتها جذبتها خارجا ، وهي تقول : « فلنتحدث عن ذلك في غرفتك » .

رجعتا الى غرفة تاو ــ شينغ ، لاهثتين وكأنهما تفران من مأزق رهيب ، وشرعت تاو ــ شينغ تروي قصتها للخادم العجوز : « بُعَيد ظهيرة هذا النهار حينما رجع السيد سونغ دخلت لتحيته . كانت هنالك صورة على المنضدة . خمّني صورة مَنْ هي ، ياعمتاه ! كانت صورتي! وكانت هنالك رقعة من الورق الى جانبها مدوّن فيها اسمي . واليك حقيقة ذلك : انه ينتوي أن يصمني انني شيوعية ! » .

ــ يصمك انك شيوعية ؟ ياللرجل !.. لكن ، كيف سمح لك برؤيتها ؟..

ــ لست ادري . عندما دخلت لم تكن السيدة سونغ موجودة ، وكان هو مستغرقا في القراءة فلم يلحظني . لمحت الورقة والصورة قبل أن يلتفت اليّ . وقد رجعت الآونة في محاولة للعثور على تلك الورقة ليزيد اطمئناني . ان كان الاسم المدوّن فيها هو اسمي حقا .. كيف يستطيع ان يفعل بي مثل هذا الشيء المخيف ، ياعمتاه ؟ » .

احتفظت العمة شين بصمتها ، وقد حنت رأسها ، وجمدت ذراعاها على جانبيها . رفعت رأسها بعد لحظات الى تاو ــ شينغ الجالسة الى جانبها ، وقالت : « سأقول لك شيئا ، ياصغيرتي . لقد اكتشفتِ ، ألم تكتشفي ، انني كنت اتجسس عليك أول قدومك الى هنا ؟ فعلت ذلك بناء على اوامر من السيد سونغ وزوجته . كانت تخشى ان يغازلك زوجها ، كما طلب هو اليّ ان أكتشف أي نوع من الفتيات أنت ، وماذا تفعلين عندما تكونين وحيدة في غرفتك . وكفّت السيدة عن القلق عندما أخبرتها أنك فتاة شريفة . اما هو فلم يكف عن ذلك ! قد يبدو مقبولا ومحترما ، ولكن مايفعله خارج هذا المنزل لايحمل شيئا من الاحترام. وحينما يغتصب فتاة فهو يُلقي بها على قارعة الطريق . انه يملك مالا، كما تعرفين ، كما انه انسان داهية . ولذلك يجهل والده وزوجته مايضمر بين جوانبه . لابدّ انه غازلك لأنه يديم سؤالي عنك . وهذا هو يقصد تدميرك ، ما ؟.. » .

وتوقفت عن الكلام واستغرقت في التفكير . ثم مسَّت وجنة تاو ـ شينغ الباردة الناعمة ، وهي تضحك : « لابدّ انه فقد السيطرة على نفسه لانك لم تستجيبي لإغراءاته ... أو ربما كنتِ على خطأ . لربما أخطأت عيناك ماشاهدتا ؟ » .

كانت تاو ـ شينغ تروّي النظر في الامر وهي ترهف اليها السمع. وقالت في صوت مخفوض : « يستحيل ذلك ، ياعمتاه . لكنه اذا شاء أن يؤذيني حقا فأنت الوحيدة التي تستطيع أن تساعدني . أنت لن تريني أساق الى الموت دون أن ترفعي اصبعا لمساعدتي ، اليس كذلك ؟ يقولون ان الكيومنتانغ يعدمون جميع الشيوعيين بدون استثناء ! » .

فوعدتها العمة شين : « حسنا ، أخبريني ماهو شكل تلك الورقة .. وسأحاول العثور عليها من اجلك » .

كانت تاو ـ شينغ تتوقع مثل هذا العرض من المساعدة تبديه مثل تلك الخادم العجوز : العمة شين . فرمت بصرها الى وجهها اللطيف المصعوق رعبا وحدثت نفسها قائلة : « انها ، بعد كل شيء ، واحدة من عالم المعذبين ! » .

رجعت العمة شين بعد ربع ساعة تحمل صورة تاو ـ شينغ وقطعة من الورق تحمل أسماء « الحمر » المشتبه فيهم . كان في القائمة اكثر من اثني عشر اسما ، لم تكن تاو ـ شينغ تعرف منهم غير شيانغ هوا وهسو مان ـ تون واسمها .

اختلقت لنفسها عذرا على الفور ، فقالت : « عمتاه ، هذه الورقة ملأى باتهامات ملفّقة . ينبغي ان اقرأها مليا بحيث أتمكن من الدفاع عن نفسي اذا ساقوني الى المحاكمة . أتمانعين في حراستي قليلا؟ سوف أعيدها اليك خلال لحظات » .

ترجتها العجوز قائلة : « دعيني أعيدها الى مكانها الآن قبل ان يكتشفوا ذلك ! سوف ينتهي مصيري اذا عرفوا مافعلت ! » .

تجاهلت تاو ـ شينغ احتجاجها ، وتناولت قلما وورقة ونسخت في لحظات جميع الاسماء المدوّنة في تلك الورقة . وأعادت قراءتها ، ثم ناولت الورقة الاصلية الى العجوز وقد ارتاح فؤادها . لم تتحرك العجوز

من الغرفة على الفور ، بل وضعت احدى يديها على ذراع تاو ــ شينغ ، وذرفت عبراتها وكأن الفتاة تساق الى حتفها حقا .

ــ أواثقة انت ؟ هل يريد ذلك النذل ان يقتلك ؟ اؤمن الآونة بما قلت لي من ان جميع الملاكين شياطين ...

هزت تاو ــ شينغ رأسها دون ان تقول شيئا . مسحت المرأة الاخرى عينيها ، واسرعت خارجة .

بعيد هذه الحادثة المثيرة للاعصاب جلست تاو ــ شينغ تروّي النظر في خطوتها المقبلة . القائمة في يدها ، ولكنها لاتملك مايكفي من وقت لدراستها . من الاهمية بمكان ان تسلمها الى الحزب حالا . لقد اخبرها هسو مان ــ تون انها ان لم تستطع العثور عليه فينبغي ان تذهب الى السيد وانغ . كان تحذير شينغ تيه ــ فو لها لايبرح يرنُّ فيأذنيها، وبدأت تستوعب مدى الخطر الحقيقي المحدق بها . رمت بصرها الى غرفة العمة شين المقابلة لغرفتها ، وشعرت بالاسف لانها ستترك مثل هذه الصديقة الطيبة . ولكنها لم تكن تستطيع أن تشرح السببالحقيقي لهروبها . رجعت العمة شين لتطمئن تاو ــ شينغ ، ثم أوت الى غرفتها فأعطت الفتاة فرصة جمع حوائجها . كان باب الساحة الرئيسية الجانبي مغلقا ، فخطت على رؤوس اصابعها لترى ما اذا كان الشاطىء مأمونا ، ثم اتخذت طريقها الى كوخ هسو حيث كان شينغ يقيم،ونادته بصوت خافت .

خرج الفلاح العجوز وهمس في الظلمة : « أفلم ترحلي بعد ؟ اهربي الآن قبل جولة الحراسة الثانية ! »

ــ أنا ذاهبة ، ياعماه . لكم أنا مدينة لك ! ان سونغ يو ــ بين يملك صورتي ... أتستطيع أن تخبرني ، رجاء ، عن أفضل السبلالى قرية تاشين ؟ ينبغي عليَّ العثور على شخص هناك .

راح يستحثها ، بدلا من ان يرشدها الى الطريق : « عجّلي ! أهنالك ماتريدين حمله ؟ فلننطلق ! » .

طفت عليها الفرحة : « أتعني انك ستذهب معي ؟ انتظر برهة اذن ريثما احمل معي شيئا » .

رجعت الى غرفتها ، وحملت حزمة صغيرة ودست القائمة

السوداء في جيب داخلي . ثم مضت الى باب غرفة العمة شين ، ولكن كل شيء كان ساكنا فيها . احزنها التفكير في انها قد لاترى مرة اخرى هذه المرأة العجوز الوحيدة التي كانت على صلة طيبة بها طوال شهر من الزمن ، والتي اسدتها خدمة لاتنسى . لم يكن هنالك وقت للتسكع فانزلقت خارجة وفتحت الباب الامامي . وهنالك فوجئت بالعمةشين.

أمسكت العجوز بيدها كمن وعى كل شيء ، وهمست : « هل ستهربين ؟ لِمَ لَمْ تخبريني ؟ اذهبي سريعا طالما انهم يغطون في النوم ».

طوّحت تاو ــ شينغ ذراعيها حول كتفي العجوز ، فبللت عبراتها مئزرها كله .

١٤

اجتازت تاو ــ شينغ وشينغ تيه ــ فو الباحة الجانبية واتخذا طريقهما خارج رقعة الارض المسوّرة عن طريق بوابة صغيرة . أسرعا خطواتهما في حذر بالغ يجتازان الحقول على مسافة خمسة « لي » الى أن وصلا الى آثار عربة نقل حيث توقفت تاو ــ شينغ عن السير ، وقالت : « ارجع الآن ، ياعماه . أستطيع أن أجد طريقي وحدي » .

وبدلا من أن يرد الرجل العجوز عليها تابع طريقه قدما في خطوات نشيطة وهو يشدّ هامعه . وبعدماساعدها على اجتياز بركة ماء فسيحة، شرح قائلا : «أنا ذاهب معك . كيف أستطيعبقاء مع أسرة سونغ الآن؟» .

بدأت تاو ــ شينغ تفهم . لما كان قد حذرها بالخطر المحدق بها فلم يبق أمامه غير أن يهرب هو الآخر . اقتربت منه أكثر وأكثر ، فلم تعد تزعجها رائحة عرقه العفنة .

ــ كيف أستطيع أن أشكرك ، يا عماه ؟ لقد كنت بالغ اللطف معي!

كان متبلد الاحساس ، مثله أبدا . أجاب : « ليس هذا أسلوبا في الحديث ! » . نفذ توبيخه الموجز البطيء الى فؤادها مباشرة .

تابعا مسيرهما في صمت عبر حقول هادئة . في تلك الظلمة المخملية كان نسيم بارد يلاطف أوراق نبات السرغوم الرطب ، والحور المخشخش، والنهر المتلألىء ، ووجه تاو ــ شينغ الجميل المتضرّج اثارة . كانت ليلة من ليالي الصيف الفاتنة حين تروح النجوم تتضوأ وجموع الجنادب والجداجد والزيزان والضفادع ترسل أنغامها العذبةبين العشب الاخضر، وعلى الاشجار ، وعلى طول ضفاف البحيرة . كانت الحقول الوسيعة المترامية على مدّ البصر في هدوئها النعسان أجمل منها خلال النهار . وكانت الغلال الخضراء ، والنهر المخرخر ، والطريق العمومية المتعرجة الى المنتأى البعيد تحت افريز السماء السوداء ، والورود والنباتات

البرية تنشر عبيرها ، والهواء الندي المسكر ، وفضلا عن ذلك الصفة الاسطورية للنضال الثوري ــ هذه الامور كلها تجعل تلك الليلة اخاذة بالنسبة الى تاو ــ شينغ . استعادت نفسها القديمة سريعا غافلة عن الخطر . أخذت نفسا عميقا من الهواء الندي . وكادت ان تنادي شينغ تيه ــ فو قائلة : « أليست الليلة جميلة ، ياعماه ! أليست الحياة رائعة ! » ، لكن زجرتها ذكرى الفترة التي هربت فيها الى بيتايهو قبل ثلاث سنوات . يومئذ غلبتها الاحاسيس المماثلة لدى رؤيتها البحر اول مرة ، وجعلتها تخاطب الحمال موضحة : « أوه ، أنظر ! أليس جميلا !» . وجاءها جوابه يحمل بين طياته مغزى خاصا : « ماهو الجميل فيه ؟ ان لم نصطد منه سمكا او نحصل منه على مايقيت ، فليس لمنظره أية أهمية على الاطلاق » . كانت غارقة في بحر من التفكير ، فنظرت الى يد الفلاح العجوز المهلهل الثياب الذي يعرج الى جانبها ، ووبخت نفسها قائلة « رجعية بورجوازية صغيرة نموذجية ! أفلن تتخلصي ابدا من هذه الآراء وتصيري صحيحة العقل مثل العمال والفلاحين ؟.. » كان مزاجها قد تبدل الآن ، فراحت تغذ الخطا ، وتعمل فكرها في قضايا أكثر الحاحا وضرورة . هل ينجحان في العثور على السيد وانغ ؟ هل يستطيعان تحذير اولئك الذين اندرجت أسماؤهم في القائمة في الوقت المناسب ؟ وماذا عنها هي ؟.. نسيت كل شيء عن جمال تلك الليلة ، وركزت افكارها على مواكبة رفيقها في خطواته .

كان شينغ تيه ــ فو ينطلق امامها دون ان ينطق بحرف . وما ان قطعا مسافة اثني عشر « لي » حتى قطعت تاو ــ شينغ حبل الصمت مستفسرة : « عماه ، كيف أتيح لك أن تعرف ان سونغ يو ــ بين حصل على صورتي وينتوي اثارة المتاعب ؟ » .

اجابها شينغ تيه ــ فو بعيد عدة خطوات : « حملته بادىء الامر الى حكومة شينتسي الاقليمية ، ثم الى مركز قيادة الكيومنتانغ . وهنالك امرني ان انقله الى حكومة تينغهسيين الاقليمية ومركز قيادة الكيومنتانغ . وبعد ذلك ذهب الى المدرسة الابتدائية الواقعة خارج البوابة الشرقية.. »

رددت تاو ــ شينغ في دهشة : « الى المدرسة الابتدائية ! »

ــ أجل . هنالك رجع بصحبته رجل سمين يدعى يو الى مركز

قيادة الكيومنتانغ . سمعتهما يتحدثان في العربة . كان يو يقول لسونغ انه لابدَّ ان تكوني لين تاو ـ شينغ التي علمت مرة في مدرستهم . وحينما سمعتُ اسمك ..

التفت ينعم النظر فيها كمن يريد التأكد من هويتها قبل أن يسترسل قائلا : « أصغيت في انتباه الى ما قالاه بعد ذلك . اول الامر لم يصدق سونغ كلام يو الى أن اطلعه هذا الاخير على صورتك . انحنيت اسأل عن عود كبريت ورأيت الصورة بوضوح . لقد كنتِ انت من دون ريب .. »

على حين فجأة شدَّها عن الطريق للاختباء في الحقل الرطب بين الفلال . راح قلبها يخفق في عنف : « أثمة من هو قادم ؟ » .

رفع شينغ تيه ـ فو يده يُسكتها . مدَّ عنقه مرهفا سمعه مثل صياد موسمي ، واومأ برأسه . ثم دفعها ارضا في لطف لكن في قوة . نظرت الى وجهه اللطيف المفعم قلقا ، ونفذت أمره ، متسائلة: « يسمونه شينغ الاحمق . ياله من ذكي قدير ! » .

في اليوم الاول واليوم الخامس عشر
كانت بوابة المعبد مفتوحة على مصراعيها !
وكان العفريتان رأس الثور ووجه الحصان
واقفين هنالك على مرمى البصر !..

كان الرجل الذي سمعت خطواته الرشيقة تقترب منهما ينشد ابيات هذه الاغنية الشعبية . وأنهض شينغ تيه ـ فو تاو ـ شينغ على قدميها ورجع معها الى الطريق فجأة مثلما شدَّها عنها ، وصاح في جذل: « مان ـ تون ، ايها الملعون ! » .

افعمت الغبطة جوانح هسو مان ـ تون لهذا اللقاء المفاجيء بحيث أمسك بكل من يدي تاو ـ شينغ وشينغ تيه ـ فو : « ماذا ، أحدث أمر مغلوط ؟ ما معنى هذا ؟ ما كان يخطر لي أن الامور ستنضج سريعا ؟ »

روت له تاو ـ شينغ في اختصار ماحدث ، ثم ناولته قائمة الاسماء. قالت : « ماكنت لأحصل عليها لولا العمة شين » .

قرأ هسو الاسماء ، وقال ملاحظا : « لقد توقعنا حدوث أمر قذر حينما انطلق ذلك النذل سونغ يو ـ بين الى المدينة ، ولكنه لم يخطر لنا

في بال انه سيحصل على هذه القائمة بسرعة بمعونة الرجعيين في كلا الاقليمين . كنت عائدا لأتأكد من انكما على خير مايرام . لكن هذان انتما هنا . فلنذهب سوية لرؤية السيد وانغ » .

سألته تاو ــ شينغ في اضطراب : « هل جئت من عنده اذن ؟ » .

اومأ هسو برأسه ، مبتسما في دهاء : « اجل ! واحد اصدقائك هناك ، وقد سألني عنك » .

استوضحت ، سعيدة لكن خائفة بصورة غريبة : « من هو ؟ » .

استدارهسو ، وانطلق سائرا : « فلنتحدث على الطريق » .

اتجهوا غربا ناحية قرية تاشين . كان الرجلان يخطوان بسرعةبحيث لم تكن تاو ــ شينغ تلحق بهما الا في صعوبة ، وقد انبهرت أنفاسها بحيث لم تستطع ان تطرح سؤالها من جديد . سألت نفسها : « أتراه شيانغ هوا ؟ او ربما كان لو شيا شوان ؟ قد يكون أفرج عنه من السجن وجاء الى هنا لقيادة العمل الحزبي المحلي .. » وهبت أمامها مرة اخرى صورة لو شيا ــ شوان النشيطة القوية . كانت تتذكره دائما عندما تقع في أزمة ، وفيما هي تتذكره الآونة امتلأ قلبها ألما واشتياقا لايخالطهما شيء من السرور .

* * *

وصلوا الى منزل السيد وانغ في ساعات الصباح الاولى . انه منزل فلاح ميسور من الطبقة الوسطى ، الا أن الاسرة كلها ، من الجد حتى الاحفاد ، كانت من المعاضدين المخلصين للحزب الشيوعي . كان هنالك ضوء خافت في المنزل الصغير يأتي من الباحة الخلفية . وهنالك رأت تاو ــ شينغ ، لدهشتها ، شيانغ هوا والعمة لي ورجلين غريبين خمّنت انهما من الجماعة .

أمسكت تاو ــ شينغ بيدي المرأة العجوز ، لكن عينيها تسمّرتا على شيانغ هوا وحده . لم يكن قد مرّ على فراقهما أكثر من شهرين ، غير ان هذه المدة بدت اطول كثيرا لان النضال شدهما الى بعضيهما كثيرا . كانت فرحة تاو ــ شينغ أعظم من أن تسمح لها بالكلام ، فخاطبها شيانغ هوا مبتسما : « انت سعيدة الحظ ! فقد هربت من خطر حقيقي مرة أخرى ! » .

اشارت الى شينغ تيه ــ فو ، الجالس في صمت على دكة يدخّن، وقالت : « هو والعمة شين ، وهي خادم عجوز في بيت سونغ ، أنقــذا حياتي . أفليس غريبا كيف نلتقي على الدوام بإنســان لطيــف يحــوّل حظك التعيس الى حظ سعيد ؟ » .

انفجر الحاضرون جميعا ضاحكين ، حتى السيد وانغ الذي يحتفظ بوقاره علــى الدوام لم يستطع أن يمنــع نفسه عن الضحك . وقــال هسو مان ــ تون : « هذه هي القائمة السوداء . الوضع خطير . فهــل نناقش ماينبغي علينا ان نفعل ؟ » .

تطلع شيانــغ هوا حوله متفكــرا ، وقال : « صحيــح . الوضــع خطير . غير ان الثوريين يتوقعون ذلك في ظلال الرعب الابيض . اعتقد أن بقيتنا يأخذون هذه القضية بعين الاعتبار في الوقت الراهن . فلنحلّ اولا قضية هذين الاثنين ، العجوز والفتاة» . واشار الى شينغ تيه ــ فو وتاو ــ شينغ : « يستحيل عليها ان تبقى هنا . أنا في صف عودتهــا الى بيبينغ . اما بالنسبة الى العم شينغ فلسوف نعثر له على عمل في مكان آخــر » .

لم يقل شينغ تيــه ــ فو شيئا ، غير ان تاو ــ شينغ استوضحت في انشداه : « اعود الى بيبينغ ؟ » .

اجابها شيانغ هوا في حزم : « اجل . انت تعودين الى بيبينغ . يسهل عليك نوعا ما ان تعملي هنالك في الخفاء . تذكري هذا القول : التصق بالتلال الخضر فلا ينقصك الوقود على الاطلاق » .

اعتصمت تاو ــ شينغ بالصمت فترة وقد خابت آمالها قليلا ، ثم رفعت رأسها وقالت : « ارجوك ان تبقيني هنا ! اريد أن أناضل في الريف الى جانبك » .

لم يفه احدهم بحرف ، غير ان العمة لي ربتت على يدها وقالت في لطف : « نحن في زاوية مُحكَمة الآن ، يا صغيرتي . يحسن بــك أن تذهبي الى بيبينغ مثلما يقول شيانغ هوا » .

تطلعت في الوجوه الهادئة قوية العزيمة المحدقة بها ، وامعنت في التفكير ثم هزت رأسها موافقة .

أسرع شيانغ هوا اليها على الفور وهمس : « حينما تصلين الــى

بيبينغ زوري هسو هيو . هنالك رسالة يجب ان تعطى لها . واذا فشلت في العثور عليها فاتلفيها .. » ولجأ الى التفكير برهة قصيرة قبل ان يتابع قوله : « يخيل الي انك حققت تقدما سريعا خلال هذين الشهرين. وقد فعلت حسنا بحصولك على هذه القائمة . تابعي بذل جهودك . تذكري أن هنالك اختبارات كثيرة وصعوبات كثيرة تجتازينها قبل ان تصيري ثورية حقيقية » .

اضاءت وجه تاو – شينغ ابتسامة لطيفة يتعذر كبحها وهي تسمع هذا التشجيع وتلك النصيحة . غير ان سعادتها سرعان ما تلاشت وحل محلها الاهتمام بشيانغ هوا . سألت في جزع : « اكنت تقيم في هذه الارجاء طوال الوقت منذ افتراقنا ؟ » .

فأومأ براسه مبتسما .

استوضحت في لهفة : « وماذا ستفعل « أنت » ؟ ».

– لايقلقنك امري ، ايتها الآنسة المربية . فالرفيق شيانغ يعرف كيف يعنى بنفسه !

أضحكت ملاحظته الآخرين مرة اخرى .

طلع الفجر ، وكانت عربة السيد وانغ التي يجرها بغل على أهبة الاستعداد ، وفيما هو يعطي السائق بعض التعليمات المتعلقة باصطحاب تاو – شينغ الى شينفستين للحاق بالقطار ، كانت هي تقف تحت شجرة خرنوب في الباحة تتحدث الى شينغ تيه – فو الذي يأخذ اهبته للرحيل .

أعلنت قائلة : « عماه ، سوف لن أنساك . سأذهب الآن ولست أعرف متى يتاح لنا ان نلتقي مرة اخرى ، لكنه ينبغي أن أريح فكري واسألك من جديد : أما برحت تكرهني ؟ » .

أفرغ شينغ تيه – فو غليونه ، وتخايلت ابتسامة واهنة على صفحة وجهه الاسمر المليء بالاخاديد وهو يرد عليها قائلا : « انت لست ابنة لين بو – تانغ الآن ، أنت فتاة نذرت نفسها للثورة . فكيف يمكن ان أكرهك ؟ ان أنا كرهتك سابقا – ولاتغضبي – فالحزب الشيوعي هو الذي جعل الامور تسير في منحاها الطبيعي » .

اغبطت كلماته فؤادها على الرغم من انها تعرف أن موقفه منها قد تبدّل كثيرا .

تابع يقول : « قد لاتعرفين ان أهل والدتك ينحدرون من قريتي . ...سرفهم مثلما اعرف والدها . فكيف لا أفعل ما استطيع ان أفعل من أجلك ؟ » .

ضحكت وقالت : « انت من طينة طيبة حقا ، ياعماه ! كنت مخطئة في حقك . أفلن تخبرني اين هي هيي - ني الآن ؟ وكيف حالها ؟ » .

اختفت ابتسامة السرور عن وجه الشيخ وقست ملامحه . حدّق اليها في انشداه ، وسقط غليونه من بين يديه .

اسرعت تاو - شينغ فمدت ذراعها الى الرجل العجوز المرتجف ، وقد وجدت نفسها ترتجف هي الأخرى : « كيف ، ياعماه ، ماذا أصابك ؟ »

لم يعطها جوابا . أبانت اشعة الفجر الاولى أن وجهه المضنى غدا أبيض شبحي الشكل ، وتدحرجت دمعتان كبيرتان على وجنتيه . قبض عليها من يدها ، واهتزّ مرتعشا : « لقد انتهت هيي - ني ، يا حبيبة ! قتلتها حماتها منذ زمن بعيد ... »

تشبثت بذراعه ، وانفجرت باكية : « كلا !... يا لهيي - ني المسكينة !.. »

ان رؤيا صديقة طفولتها الجميلة الذكية مسّت شغاف فؤادها الآونة أكثر من أي وقت آخر . مسحت عبراتها ، وجعلت تواسي شينغ تيه - فو قدر استطاعتها : « عماه ، لايشقْ عليك ذلك كثيرا . حينما ... حينما تنصلح الامور ، لابدّ ان تأتي وتقيم معي » .

وهزّتها موجة من نشيج ، ولكنها أحسّت انها في حاجة الى معرفة شيء آخر : « واين هي العمة شينغ ؟ » .

التوى وجه العجوز ألما ويأسا . جفّف عينيه ، واجابها من بين أسنانه المنقبضة : « ماتت ! حينما كنت أشتغل في الحقول اغتصبها والدك . وهي ... شنقت نفسها ! »

لم تعرف تاو - شينغ ماذا تقول . مرّت دقائق عديدة ، وسمعت في دوامة انبهارها صوت هسو مان - تون : «حان أوان رحيل المربية !» وشعرت، في غموض ، بعيني شيانغ هوا المتلهفتين مثبتتين عليها وكأنهما

تستحثانها على الرحيل بسرعة ، والا تفلت زمام مشاعرها . امسكت العمة لي بذراعها تساعدها في ركوب العربة ، في حين وضع السيد وانغ حزمة من النقود الورقية في يدها . وعت هذه الامور كلها ، ولكنها بقيت عاجزة عن ان تنطق بكلمة واحدة . كان الالم الذي تستشعره يهزها هزا ، ولم تكن تستطيع الافصاح عن الخجل والندم والاسف العميق الذي يعتصر قلبها . وكان ثاني شيء عرفته هو انها ركبت العربة .. وأسدلت ستارتها .. وقرقع السائق بسوطه وصاح يستحث البغل ... وتندت عيناها بالعبرات . وارتسم أمامها ، والعربة تتحرك منطلقة ، وجه هيي ـ ني الباسم المحبوب ، وملامح أمها اللطيفة الودود ، ووجه شينغ تيه ـ فو المحني الطافح حزنا . « سوّي الامور معه بشأن الأخطاء المرتكبة . . » ان كلمات هسو مان ـ تون تأخذ معنى مختلفا الآونة .

ـ طبيعي أنك تكرهني ، ياعماه .. كيف يمكنك أن تتغلب على ذلك؟ آه ، لين بو ـ تانغ ، وسونغ يو ـ بين ، وسونغ كوي ـ تانغ ، و يو ـ تيين ... ينبغي أن نخلص العالم من مصاصي الدماء وقتلة الرجال من أمثالكم !

واطلقت العنان لمشاعرها اخيرا ، غير ان أحدا لم يسمعها تبكي .

١٥

أحلك فترة من الليل ، قبيل انبلاج الفجر مباشرة ، وقطار بيبينغ ـ هانكوو السريع المزمجر ينطلق بأقصى سرعته فوق سهل الصين الشمالية الفسيح . وكان ركاب عربة الدرجة الثالثة المعتمة مستسلمين للنـوم جميعا وقد تكوّموا في أماكن ضيقة فيما عدا تاو ـ شينغ التي جلست في زاوية مظلمة ، مغلقة العينين ، غارقة في بحر من التفكير . كانت تفتح عينيها بين حين وحين لترى ما اذا كان هنالك من يراقبها. وما أسرع أن يعاود ذهنها استغراقه في افكار مظلمة .

مدّت بصرها من النافذة الى الريف الفسيح الاسود ، وبدت لها النجمات المتلألئة في الافق تتخذ تدريجيا شكل رؤوس صغيرة متعددة. فتذكرت تلاميذ المدرسة الشجعان الاذكياء في تينفهسيين وتجاربها العديدة المثيرة خلال اقامتها في بيت سونغ يو ـ بين .. أين تراه ذهب شينغ تيه ـ فو ، هذا الذي أثار اعجابها كثيرا ؟ أمّلت الا يكون وانغ لاو ـ تسينغ وحفيداه قد تعرضوا للاضطهاد . وعلى الرغم من انها لم تجتمع بالرجل العجوز غير مرة واحدة الا أن ورطته تركت فيها تأثيراً لا يمكن محوه . ورأت أيضا بعيني خيالها هيي ـ ني التعيسة وأمها بالاضافة الى والدتها هي، هسيو ـ ني ... أطلقت تنهيدة عميقة على الرغم منها وهي تراقب الحقول الداكنة تمرّ بها مسرعة. مدّت يدها الى جيبها تتحسّس الرسالة التي طلب اليها شيانغ هوا ايصالها الى هسو هيو ، وسرحت في تفكيرها: « ماذا ان لم أعثر عليها ؟ .. » وانعطفت من افكارها التعيسة الى دراسة قضايا أكثر عملية : « مـن تراني أزور في بيبينغ قبل كل شيء ؟ أيـن يمكن أن أقيم ؟ صعب جدا ان ازور هسياو ـ ين بعدما حدث ، وشيانغ هوا قال انه لاينبغي ان اذهب الى هسو هيو مباشرة . انه على حق ! لكن ، ماذا يحدث لو التقيت هو مينغ ـ آن ؟ .. » كان وجه هو البغيض

قد سيطر عليها منذ ركوبها القطار . ان رحلتها هذه تختلف كثيرا عن رحلتها الاولى من بيتايهو الى بيبينغ . البوليس السري سيجدّ في أعقابها الآن على الدوام، ولكنه ينبغي عليها ان تسافر الى بيبينغ مهما كان مقدار الخطر المحدق بها كيما تتصل بهسو هيو ... وانغلق حاجباها الثقيلان وهي جالسة تمعن في التفكير .

قعقع القطار وجلجل . ونامت أخيرا وقد غلبها اجهاد الايام الاربعة الاخيرة وتوترها .

وصل القطار الى بيبينغ بعيد ظهيرة ذلك النهار ، فحملت متاعها البسيط ، وخرجت من العربة ، وانخرطت في الحشد الصاخب . لم تكد تخطو عدة خطوات حتى ناداها صوت مصرصر : « لين الصغيرة ، لين تاو ـ شينغ ! » واحاطت بكتفيها في اللحظة ذاتها ذراعان عاطرتان. كانت امرأة مهندمة متبرجة تضع قرطا لؤلؤيا في أذنيها تعانقها وتومىء لها في ابتسامة ودودة : « حسنا ، يا لين الصغيرة ، أفلا تعرفينني ؟ »

ذهلت تاو ـ شينغ : « أوه ، هذه انت ، يابيي لي ـ بينغ ! لم اعرفك الا بصعوبة » .

تضرجت وجنتا بيي لي ـ بينغ : « لاتكوني حمقاء ! الأنني هندمت ثيابي ؟ عرفتك لحظة وقعت عيناي عليك ، ومن مسافة بعيدة » . ورجّعت بصرها في تاو ـ شينغ صعودا وهبوطا وهي تشدّها معها : « كنت أودّع أحد اصدقائي . حسنا ، تصوري أن أراك ههنا ! احيانا، كما تعرفين ، لا استطيع ان اكفّ عن التفكير في الاصدقاء القدامى . كان ثمة شيء رومانطيقي في حياتنا في هاتيك الايام ... وبالمناسبة ، يا لين الصغيرة ، انا لم أسألك من اين جئت او ماذا كنت تفعلين طوال هذا الوقت » .

نظرت تاو ـ شينغ في فضول الى صديقتها القديمة التي صبغت شفتيها بلون قرمزي غامق، وزججت حاجبيها المقوسين بصورة متأنقة. كان العطر يفوح من ثوبها الشفاف الخفيف ، وقرطا أذنيها يتأرجحان على خديها المرشوشين بالذرور . هذه المغناج اللعوب ليست بيي لي ـ بينغ ايام دراستها . وشعرت تاو ـ شينغ بالقلق من رفقتها بحيث راحت تجيب عن اسئلتها اجابات ساهية شاردة .

ـ ماذا كنت أفعل ؟ كنت أعلّم في مدرسة ابتدائية في الريف .
رفعت بيي لي ـ بينغ حاجبيها المقوّسين في انشداه : « تعلّمين في الريف ؟ أفليس هذا العمل قاسيا بصورة مرعبة ؟ ماذا حلّ برجلك العجوز يو يونغ ـ تسي ؟ ».

ـ افترقنا منذ زمن طويل .

ـ تمزحين ؟ هذا افضل . لم أكن أؤمل منه خيرا .

انطلقتا تتحدثان خلال سيرهما ، وسرعان ماخرجتا من المحطة . كانت تاو ـ شينغ على وشك أن تودّع صديقتها حينما تشبثت بيي لي بينغ بذراعها قائلة : « يا لين الصغيرة ، نحن لم نرَ بعضنا منذ سنوات ، ولابدّ أن نثرثر طويلا . ائذني لي ان ادعوك الى الغداء ! انت لم تأكلي شيئا في القطار ، أليس كذلك ؟

لم تشأ تاو ـ شينغ ان تناديها بالاخت بيي ، ولم تعرف كيف تخاطبها ، فأجابت : « أوه ، كلا .. لست جائعة ، وورائي عمل ينبغي أن انجزه . سأحضر لرؤيتك في وقت آخر » .

قالت بيي لي ـ بينغ ، وهي تصفعها متعابثة : « أوه ، أبداً ، لن تفعلي ! اذا كنت انفصلت عن رجلك العجوز ، ففيمَ تجعلين من نفسك محافظة رجعية ؟ » . وما اسرع ان نادت على عربتي ريكشا ، ودفعت تاو ـ شينغ الى احداهما رغم اعتراضاتها ، وركبت هي في الاخرى ، وامرت السائقين أن ينقلاهما الى شيبهينغ ، وهو أكبر مطعم على الطراز الغربي في بيبينغ .

طلبت بيي لي ـ بينغ غداء وجلستا تتحدثان وهما تأكلان . عرفت تاو ـ شينغ ان صديقة دراستها القديمة انضمت الى ستوديو شنغهاي للافلام السينمائية ، ومثّلت في فيلمين ، ومن ثم غدت خليلة المدير . كانت تعيش في بحبوحة ، ولكنها تشعر بين حين وآخر بالنفور من مثل هذا الوجود وتفكّر في حياتها القديمة واصدقائها القدامى .

سألت تاو ـ شينغ : « كيف هي أحوال يو يي ـ مين و وانغ شيين ـ فو الآن ؟ » .

ابتسمت بيي لي ـ بينغ : « يو يي ـ مين ! لا يمكن أن تتصوري كم صار مزعجا ! يشبه ذبابة ضخمة تطنّ حواليّ طوال الوقت .

ان رحلت الى شنغهاي يلحق بي اليها . أو سافرت الى نانكينغ أجده في اعقابي . وما ان يرشف قطرة او قطرتين حتى يمطرني أشعارا عن الحب ، والحقد ، والروح ، والعبرات ... لكم يبعث ذلك على السخرية ! وهو يقطن في عليئة ، ويأتي الي يقترض نقودا كلما أعوزته الحاجة . أنا أشعر بالأسف من أجله على الرغم من أنه مصدر إزعاج رهيب . أما وانغ شيين ـ فو ، حسناً ، فقد غدا موظفا حكوميا ، يشعر بأهميته الفائقة وبرضاه عن نفسه . الفوضوي الذي كان يريد الخلاص من الحكومة صار الآونة أداتها المطيعة ـ موظفا كبيرا ! التقيته مرة في نانكينغ وقد شبك ذراعه بذراع سيدة عصرية ، ولكنه تجاهلني، فلم أكلف نفسي عناء تحيته . ولم يبق غير هسو نينغ . اتعرفين أنهم اعتقلوه وزجوا به في السجن ؟يا إلهي ! حينما ذهبت لرؤيته في ذلك اليوم وجدته يرتدي زي المجرمين وقد قصوا له شعره ـ ذلك الفتى الانيق ـ كان يجب ان تشاهدي ماذا فعلوا به » . وابتسمت في وجه تاو ـ شينغ ابتسامة ساحرة واضافت : « يا لين الصغيرة ، اتعرفين أنني كنت مغرمة به مرة ؟ حتى الآن ما زلت أحتفظ في قلبي بمكان صغير له ، وتاو ـ مانغ كان شديد الغيرة أيضا . يحزنني أن أيامنا القديمة انتهت . وبالمناسبة ، ماذا حلّ بلو شيا ـ شوان ؟ لا بدّ أنكما تحبان بعضكما الآن ؟ » .

تضرّجت وجنتا تاو ـ شينغ . ذكريات عزيزة ومشاعر مكتومة وثبت الآن الى الحياة بعد ملحوظة بيي لي ـ بينغ العرضية . أجابت في لطف : « لقد مضى الآن اكثر من سنة كاملة على اعتقاله .. »

ـ ماذا ، اعتقلوه هو الآخر ؟ لشدّ ما « انا » آسفة ! هؤلاء الثوريون ....

لم تكمل جملتها على الرغم من دهشتها، ولكنها التفتت تنادي النادل باللغة الانكليزية : « بوي ! قدحان من الكاكاو ! ».

ربتت على شفتيها المصبوغتين بأحمر الشفاه بمنديل شفاف ، وابتسمت ابتسامة ماكرة : « أخبريني ، يا لين الصغيرة ، هل أنت متزوجة ؟ » .

ـ كلا .

ـ هل لك عشيق ؟
ـ كـلا .
على الرغم من ان بعض مشاعر تاو ـ شينغ الماضية تجاه بيـي لي ـ بينغ استحوذت عليها الآن خلال الحديث، ولكنها شعرت بالضيق من ان تتصرف بصورة طبيعية وودية في حضرتها .
ربتت بيي لي ـ بينغ على كتفها واطلقـت خرخرة ضـاحكة ، وقالت : « يا لين الصغيرة ، ما أشدّ غرابتك ! أنا لا استطيع بقاء من دون رجـل ولو يوما واحدا .. دعيني أجـد لـك زوجاً طيباً بحيث تستطيعين الاستمتاع بالحياة قليلا » .
ابتسمت تاو ـ شينغ ولم تردّ عليها . شـربت قـدح الكاكاو ووقفت تبغي الذهاب ، لكن بيي لي ـ بينغ شدّتها واقعدتها : « أيتها الصغيرة الحمقاء ! لا تتاح لنا غالبا فرصة أن ترى كلّ منـا الأخرى ، ولسوف ارحل الى شنغهاي في غضون يوم أو يومين . لم لاتجيئين معي الى البيت وتستمتعين قليلا ؟ وفي الغداة نذهب لرؤية هسو نينغ .. ليس هنالك حبيب ينتظرك ، ففيم تستعجلين ؟ »
سألت تاو ـ شينغ بصورة اتفاقية : «اين تعيشين هذه الايام؟ » .
ـ في فندق لي تونغ . وزوجي ليس معي . فلنذهب الى البيـت ونثرثر قليلا .
ـ كلا ، شكرا لك . يستعجلني عمل مع أحد اقربائي . سـأزورك في يوم آخـر .
حملت تاو ـ شينغ حقيبتها بعد هذا الرفض الوطيد ، ونهضت تبغي الذهـاب .
ـ كلا ، لن ادعك تذهبين !
اختطفت بيي لي ـ بينغ حقيبتها من يدها ، وقبضت على ذراعها، وخرجت بها من المطعم . نادت على سائقي ريكشا دون ان تستفسر عن الاجر ، وارغمت تاو ـ شينغ على ركوب احداهما . وحينما انطلقتـا ضحكت من استياء صديقتها وهتفت قائلة : « يا لين الصغيرة ، كنـا صديقتين في السرّاء والضرّاء ، وفي الماضي كنا اشبه بشقيقتين ... افما عدت تثقين بي ؟ فلتنفرج أساريرك ! تعالي معـي وأنا أعـدك ان أهيىء لك وقتا طيباً » .

لم ترد تاو ـ شينغ عليها . استحثها حافز غضوب على الوثوب من عربة الريكشا . على اية حال ، فان بيي لي ـ بينغ كانت مرة عضوة في الحركة وتعرف عددا كبيرا من رفاقها الثوريين ، وفضلا عن ذلك فهي لطيفة وكريمة . هدأ غضبها حينما طافت هذه الافكار في ذهنها .

كانت بيي لي ـ بينغ تملك شقة فاخرة في الدور الاول من فندق لي تونغ ، واحست تاو ـ شينغ ، وهي تجلس على المتكأ الجلدي الانيق البارد ، شيئا من الامتعاض . راحت تسأل نفسها : « انه أشبه بحلم . كيف يمكنني أن أحضر الى مثل هذا البيت ؟ » حينما هتفت بها صديقتها من الحمام : « هيا ، يا لين الصغيرة ! تعالي هندمي نفسك قليلا ! »

هبّت تاو ـ شينغ على قدميها ، وأجابت : « كلا ، سأخرج قليلا . واعود بعد لحظات » .

ترجتها بيي لي ـ بينغ ، وقد ركضت تسدّ عليها الطريق : « انتظري قليلا ! » .

كانت قد خلعت على جسدها ثوبا من الحرير الابيض الفتّان . دفعت تاو ـ شينغ واعادتها الى المتكأ ، وقرصت وجنتها برقة ، وقالت عابثة : « لاتكوني حمقاء ، يا لين الصغيرة ! لن أدعك تذهبين » . وحدجتها بنظرها مرة اخرى من فرعها الى قدميها ، واضافت : « تستطيعين بمثل وجهك هذا ان تأسري فؤاد اي رجل . ورغم ذلك تفضلين أن تتزمتي ! انت تعشقين الثورة على ما يخال لي ، والا ففيمَ تعيشين مثل هذه الحياة القاسية ؟ »

اعترضت تاو ـ شينغ في عجلة : « لا تتحامقي ! لقد انفصلت منذ زمن بعيد عن اولئك الثوريين . كلّ ما أفكر فيه الآن هو كيف احصل على مايقوم بأودي .. وورائي عمل مستعجل ينبغي أن أنجزه . أرجو ان تعذريني فترة من الوقت » . ونهضت عن مقعدها مرة اخرى .

ومرة اخرى وقفت بيي لي ـ بينغ حائلا في وجهها ، وأعلنت وهي تبتسم : « هذه أنت حمقاء من جديد! لن تخدعيني بأكاذيبك الصبيانية . لقد رأيت امورا كثيرة في هذا العالم ، وأنا لست غبية . في مثل عمرك كنت مفعمة مثلك حماسة فيما يتعلق بالثورة البروليتارية . اية مثقفة بورجوازية صغيرة لم تحلم ان تصير ثوروية ؟ وبينما الزمن يمرّ بدأت

اواجه الحقائق . مما لاريبة فيه ان الشيوعية ليست شيئا رديئا ، ولكنها مبهمة غامضة جدا كفكرة وبعيدة جدا كهدف . متى يمكن ان يتحقق المجتمع الشيوعي ؟ متى يمكن أن تنتصر الثورة ؟ وفضلا عن هذا ، فأنت دائما عرضة لخطر الاعتقال والموت ! واذا حالفك الحظ فهربت من ذلك، فان من واجبك أن ترضخي لنظام حديدي وان تطيعي القيادة من دون أي تردد أو اعتراض . لهذا السبب تخلّيت عن ذلك كله » .

تنهدت بيي لي ــ بينغ في لطف ، وأضافت بعد لحظة صمت : « ماهي الحياة ، على اية حال ؟ اريد ان اعرف ذلك ! لم لانتمتع بها عندما يكون ذلك في مقدورنا ؟ لقد كففت عن إضاعة الوقت في بناء قصور في الهواء ، ولم يبق عندي شيء من الطموحات . عزمت على أن أمتّع نفسي وأنا فتيّة بَعْد . أوه، يالين الصغيرة، في مقدوري أن أقول لك من الطريقة التي تلبسين بها ثيابك ، من تصرفك ومن حديثك ، انك مازلت رهينة تلك الرُقية .. وانا أشعر بالاسف من اجلك ، اشعر به حقا ! »

وطوّحت ذراعيها حول تاو ــ شينغ وهمست في غيرة : « يا لين الصغيرة ، على الرغم من انني لست ثورية الآن ، فأنا لست ضدّ الثورة. وانصح لك بكل بساطة أن تعثري على زوج طيب وانت في بكور شبابك، وأن تستمتعي بما تهب لك الحياة من اطايب وملذات . ماذا يفيدك ذلك الهرج والمرج ؟ انه لن يوصلك الى غاية مرسومة ! حسنا ، أما برحت نصيحتي ترنْ في أذنيك ؟ لسوف تتأكدين ذات يوم أنني على حق » .

بذلت تاو ــ شينغ جهدها للاصغاء في صبر ، في حين راحت بيي لي ــ بينغ تتحدث عن فلسفتها في الحياة . كان حديثها يبدو مألوفا ، وسرعان ما تذكرت فجأة أن شين وي ــ جو ، وهي صديقة طيبة من أصدقاء دراستها في المدرسة المتوسطة ، قدمت لها نصيحة مماثلة قبل عدة سنوات . والفارق بين النصيحتين ان شين وي ــ جو تزوجت دون ان تنضمّ الى الثورة ، في حين ان بيي لي ــ بينغ انسحبت منها لتغدو خليلة رجل ثري .

ما اسخف واحقر أن يتصور المرء أن الزواج هو الطريق الوحيدة المفتوحة أمام المرأة الصينية ! وهدأت تاو ــ شينغ ثائرة نفسها ، وقالت بنبرة جدية : « لي بينغ ، جميل منك أن تفكري فيّ . انا لا أؤمن ،

بالتالي ، أن السعادة لا تكون حقا الا بوجود زوج . ترى ، أيعوض الرخاء المادي عن الخواء الروحي ؟ أتمنى ان تنبذي عنك فكرة الاعتماد على شخص آخر للوصول الى السعادة ، وأن تتعلمي كيف تقفين على قدميك . لمَ لا تقومين بعمل نافع بأن تمثلي في فيلم لائق ؟ » .

ان تاو ــ شينغ لاكثر خبرة الآن منها يوم تجادلت وشين وي ــ جوي ، وفي مقدورها أن تحتفظ برباطة جأشها وأن تستخدم عقلها في اخلاص وبراعـة .

لم تضع بيي لي ــ بينغ الماكرة وقتا في تبديل نبرة حديثها عندما رأت أن تاو ــ شينغ تتحدث بصورة جدية ، فقالت : « حسنا ، يا لين الصغيرة ، أنا أتفق معك في الراي . الافلام الصينية في هذه الايـام تحذو جميعها حذو أفلام هوليود ، ولذلك فان أكثرها تافة اباحي . لطالما حلمت بتمثيل فيلم تقدمي أو الاشتراك في مسرحية هادفة . وما يرثى له أن المسرحيات الجيدة نادرة جدا ! » وصعدت تنهيدة عميقة وكـأن اهتمامها بأمور الدنيا يرتبط ارتباطا وثيقا بعـدم وجـود سيناريوهات جيدة .

خيم صمت قصير استفسرت تاو ــ شينغ بعده ، وقد تأكدلديها انها لن تستطيع هروبا ، عن أخبار هسو نينغ ، فقد فقدت كل اتصال لها بهذا « الأخ » السابق بعد اعتقالها .

قالت بيي لي ــ بينغ ، وهي تمسح على يد صديقتها : « هسونينغ؟ انه فتى طيب . ولكنه ، مثلك ، لا يثق بي على الاطلاق . حينمـا ذهبت لرؤيته ذلك النهار خلعت على نفسي ، عن قصد ، ثوبا قطنياً بسيطا أزرق اللون . ولكنه . . . كيف أقول ذلك ؟ لقد تبدل . أنا لاالومه ، هذاالمسكين . استخبر عنك . لربما أنتما الاثنان . . . » ورمت تاو ــ شينغ بنظرةلطيفة ولم تكمل جملتهـا .

حركت تاو ــ شينغ يدها وكأنها تود صفعها ، وأجابت ضاحكة : « أنت عريقة في صنع الزيجات . أفلا تستطيعين التفكير في غير ذلك؟ » .

في تلك اللحظة فتح الباب ودلفت منه امرأة صغيرة وثلاثة رجال يلبسون جميعا الزي الغربي ، أهبت بيي لي ــ بينغ تاو ــ شينغ على قدميها وقدمتها بطريقة طبيعية هينـة : « اختي الصغرى . الا ترون اننـا نبـدو متشابهتين ؟ » .

ضحك اثنان من الزوار ، في حين تمتم الثالث ببعض كلمات لم تسمعها تاو ـ شيغ . خاطبت نفسها قائلة في رعب : « ماذا لو ان ذلك النذل هو مينغ ـ آن دخل الى هنا ! » . هزت رأسها للضيوف في شيء من الاكراه ، وحملت أشياءها الى غرفةالحمام لتستحم وتبدل ثيابها قبل أن تجد سبيلا الى الفرار . كانت تشعر بحرارة ولزوجة بعد رحلتها، كما أن رطوبة الايام الاخيرة الشديدة أثرت عليها . أنهت حمامها وأخذت تهندم نفسها في غرفة النوم حينما دخلت بيي لي ـ بينغ مسرعة وهي تقول : « ياالين الصغيرة ، فلنذهب ! سآخذك معي ...

ـ شكرا ، يؤسفني أنني لا أستطيع ذلك . لقد أدركني الوقت ، ويجب أن أذهب .

ـ لايمكن أن تخيبي أملي على هذا الفرار ! لن أتركك تهربين.. تذوقي لذة الحياة وهي متاحة لك ! لا تكوني حمقاء !

أمسكت بيي لي ـ بينغ بذراع تاو ـ شينغ بطريقة ودية ، وأضافت: « الا تعرفين أن العمل الثوري يتطلب كثيرا من الخبرات الاجتماعية أيضا؟ ان كنت تكرهين البورجوازية ، فينبغي أن تشاهدي كيف يعيش أفرادها حقا . وثمة فرصة متاحة لك الليلة في فندق بكين . فلنذهب ! » .

قطبت تاو ـ شينغ : « كلا ، يالي ـ بينغ ، لست أستطيع . أنا لا أرقص ، فلا تلحي علي » .

ـ وما أهمية الامر ان كنت لا ترقصين ؟تستطيعين مراقبة الآخرين. أنت ترين أن رفاقي ينتظرون . أحدهم هو مدير مصرف ين يبه . والمرأة الصغيرة زوجته . والآخران هما سكرتير الحكومة المحلية ورئيس تحرير احدى الصحف . وهم أناس أصحاب نفوذ وينتظرونك . لم لا تذهبين معنا وتقضين وقتاً طيباً ؟ ما هي فائدة انفرادك بنفسك على الدوام ؟ » .

عجزت تاو ـشينغ عن أن تسيطر على نفسها أكثر مما فعلت ، فتضرجت وجنتاها وبدأ صوتها يرتعش بالغضب: «ماذا تظنين أنك تفعلين، يابيي لي ـ بينغ ؟ أنا لا أقبل أن تصدر الي الاوامر على هذا الفرار! » .

كانت الخبرة قد علمت بيي لي ـ بينغ كيف تكون حصيفة . لم يبدُ عليها شيء من الامتعاض ، بل ضغطت خدها الناعم الزهري على خد تاو ـ شينغ وهمست في صوت متملق : « لا تغضبي ! لأنني أحبك

كثيراً لا أستطيع أن أذهب من دونك . لم لا نذهب ، ونبقى هنالك فترة من وقت ، ثم نعود مبكرتين ؟ » . ولفت ذراعها حول تاو ــ شينغ وخرجت بها من الغرفة . كانت الفتاة ساخطة ، ولكنها لم تشأ أن تثير شجاراً امام الغرباء ، فتركت نفسها تساق الى سيارة فورد براقة .

عندما وصلت بيي لي – بينغ الى صالة الرقص في فندق بكين قدّمت ، مرة أخرى ، أصدقاءها الأربعة الى تاو ــ شينغ . وقامت ترقص مع السيد بان سكرتير الحكومة المحلية . وقام مدير البنك يراقص زوجته ،وبقيت تاو ــ شينغ ورئيس التحرير جالسين الى مائدة الشاي.

كانت مصابيح زرقاء فخمة تنتهي بشرابات حريرية رائعة تتدلى من السقف المرتفع في الصالة الفخمة ، وتسبغ مع الأرض اللماعة والستائر المخملية الزرقاء على القاعة منظرا يشبه الاحلام. وشرعت فرقة الجاز تعزف ألحانها ، فانزلقت نساء يرتدين ثياباً ثرية ويتزين بمجوهرات ثقيلة بين ذراعي مراقصيهن تحت الاضواء الخافتة . وملأت الفضاء أغنيات عاطفية وموسيقى مؤخرة النبرة وروائح عطر مختلفة . ورغم أن تاو ــ شينغ منحدرة من أسرة ملاكين الا أنه لم يسبق لها أن شاهدت مثل هذا العرض . حدّقت في بهرجة النساء وأحذيتهن ذات الكعوب العالية ، وأظافر اقدامهن المصقولة بصورة غريبة . ولم تستطع ان تضبط امتعاضها الا بصعوبة،وما اسرع أن ومضت أمام عينيها ، على حين فجأة، صورة وانغ لاو ــ تسينغ وحفيديه الساغبين .

أرجعها الى واقعها صوت رئيس التحرير لينغ جو ــ تساي الجالس الى جانبها : « آنسة لين ، ارشفي قليلا من الليموناده ! » .

استدارت تاو ــ شينغ تراقب الراقصين : « كلا ، شكرا لك. لست أرغب في شيء منها في الوقت الراهن » .

ــ أرجو الا تسرفي في اتباع قواعد السلوك الصارمة ، يا آنسة لين ... الرقص عمل يقبض النفس ، وأنا لم اتعلم كيف أستمتع به ... ماذا تحبين أن تشربي ؟ لكم أنا سعيد لاني تعرفت بك ولانه أتيحت لي فرصة التحدث معك ! » .

اضطرت تاو ــ شينغ ان تستدير لتواجهه ، فرأته رجلا في حدود الثلاثين من العمر ، جميلا ، أشقر البشرة ، سترته الغربية الطراز من

صنف ممتاز ، ويرتدي ربطة عنق ملونة زهرية اللون . كان يخلع على نفسه طلعة حييّة . ولم يتح لها فرصة للجواب ، بل استتلى يقول ، وقد اصطنع الكبرياء واخفض نبرة صوته : « أنا والآنسة بيي صديقان قديمان . وهي تخبرني أنك فتاة تقدمية . بلى . البلاد تتدهور من دون ريب ، لكن ماذا عسانا نستطيع أن نفعل ؟ ولما كانت الاوضاع على ما هي عليه ، فيما لنضالنا في سبيل لقمة العيش بحيث لا نستطيع ، نحن رجال القلم ، أن نجد منها مخرجاً . . . » .

لم تكن تاو – شينغ تعيره سمعا . كانت غارقة في أفكارها عن « النمر الصغير » وأسرة شينغ تيه – فو . همست في نفسها : « عالمان مختلفان الاختلاف كله ! » .

توقفت الموسيقى . رجعت بيي لي – بينغ مسرعة ووجنتاها متضرجتان من جراء الرقص ، وقالت متضاحكة : « أرى أنكما تستمتعان بحديث عذب » . والتفتت الى تاو – شينغ ، وأضافت : « السيد لينغ رجل صاحب شعور . لقد فقد زوجته منذ فترة قريبة ويحتاج الى قليل من العزاء . . . حسنا ، لن أزعجكما بعد الآن . تابعا حديثكما الطيب ! » . ألقت ابتسامة دهاء ناحية لينغ جو – تساي ، وأسرعت مبتعدة مرة أخرى .

عندها بدأت تاو – شينغ تستوعب لماذا كانت بيي لي – بينغ ، هذه التي اختارت طريقا مغايرة لطريقها ، تبدو دافئة وتبدي اهتماما لا نظير له .

كانت تحاول أن تقدم تاو – شينغ الى لينغ لتدخل السرور الى قلبه ! وفي لمحة خاطفة تلاشت كل الاحاسيس اللطيفة التي شعرت بها نحو بيي لي – بينغ .

امتلأت جوانحها بالأسف أول الامر ، ثم شعرت بالسخط والغضب . وفيما هي تراقب صديقتها القديمة تغازل المصرفي ، وتعابث السكرتير ، وتلتفت بين حين وآخر لتلقي نظرات عامرة بالدهاء ناحية لينغ جو – تساي وناحيتها ، فقد شرعت تسائل نفسها : « أيمكن أن تكون هذه الفتاة هي التي ذرفت الدموع مع تسوي هسيو – يو على مصير بيتهما في الشمال الشرقي ! . . . » . وبينما راحت الموسيقى البهيجة تعزف من جديد

استعادت في ذهنها الصورة الحية لجموع التلاميذ اللاجئين الذين تجمعوا في غرفة بيي لي – بينغ ليلة رأس السنة قبل سنتين اثنتين .

كانت بيي لي – بينغ وأصدقاؤها يرقصون ، فمدّ لهـا لينغ جو – تساي في خنوع قدحا من الكوكا كولا بيـديه الشاحبتين العليلتين . تجاهلته ورجلت شعرها الى الوراء ، وقالت : « أرجو أن تعذرني . ينبغي ان أخرج بضع لحظات » .

* * *

١٦

عندما غادرت تاو – شينغ فندق بكين كانت النجوم تتضوأ في صفحة السماء الزرقاء الغائمة ، ونسيم بارد منعش يهب . بدا لها العالم فجأة أوسع منه قبلا ، وصفا ذهنها . راحت تعب الهواء المنعش النقي ، وتتطلع الى النجمات المتلألئة البراقة متسائلة : « الوقت متأخر ، والساعة الثانية تقريبا ، فالى أين أذهب ؟ » .

انعطفت سريعا في زقاق متفرع عن شارع هسياكو نغفو كيما تضلل أية ملاحقة ممكنة لها ، وانطلقت شمالا طوال فترة من زمن أشبه بسجين هارب ، ثم باطأت من خطواتها تفكر في خطوتها التالية .

– أين يمكنني أن أذهب في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

أدارت خطواتها في غير وعي منها ناحية شارع بيهووين القريب من جامعة بكين حيث أقامت مرة طوال عدة سنوات محاطة بمجموعة طيبة من الاصدقاء ، وحيث ... وتذكرت على حين فجأة وانغ هسياو – ين التي كانت عيناها اللطيفتان الحنونان تحملان لها الورد والشوق . «بلى ، سأذهب اليها ، أكانت تكرهني أم لا ، لكنني لا أظن أنها تكرهني بسبب من عمتها . يجب أن أذهب وأراها ! » . عقدت عزمها ، وأسرعت من خطواتها ، وانتظارها السار يطرد عنها تعب الايام القليلة الماضية المتراكم . .

انطلقت عبر شوارع مألوفة لديها ، خالية من الناس ، الى ان وجدت نفسها ، دون أن تعرف كيف ، أمام نزل كانت تقيم فيه مع يو يونغ – تسي . هنالك وقفت رغما عن ارادتها . كانت البوابة السوداء المزدوجة مغلقة ، فحدقت فيها متسائلة : « الا يزال يقيم هنا ، ياترى ؟ ... » وطغى عليها شعور غريب وهي واقفة تطيل النظر الى الباب البسيط ... ثم استجمعت اطراف ارادتها وسارت مبتعدة ، موبخة نفسها في شيء من الازدراء على امعانها النظر في الماضي الميت البعيد في مثل تلك الساعة من الليل .

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحا حينما بلغت نزل الفتيات في جامعة بكين . قرعت على البوابة ، وضغطت على الجرس ، وانتظرت لاهثة الانفاس في الشارع الخاوي . ضغطت على الجرس عدة مرات الى ان سألها رجل عجوز في بطء من خلال شقٍّ في الباب : « ماذا تريدين في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ » .

ــ أريد رؤية وانغ هسياو ــ ين ! الا تفتح البوابة من فضلك ؟

رنَّ صوتها خشناً من جراء الاجهاد ، وتمنت أن يفتح لها الباب على الفور كي تطوّح نفسها فوق أحد الأسرّة ، سواء كان سرير هسياو ــ ين أو أي سرير آخر ، وتستغرق في نوم عميق ! غير أن البواب العجوز أجابها في بطء : « غير مسموح للزوار بالدخول في هذا الوقت . لاأستطيع ان أفتح البوابة حتى الساعة الخامسة والنصف صباحا . هذه هي القاعدة . تعالي بعد انبلاج النهار » .

ــ ولكن لديَّ عملا عاجلا معها . أرجوك ، دعني ادخل !

ــ لا استطيع ذلك ، ياآنسة . القواعد هي القواعد .

وانسحب مبتعداً ، وأغلق الباب في عنف .

استندت تاو ــ شينغ في ضنى على البوابة الخشبية الحمراء المتداعية وأسامت بصرها الى السماء المظلمة الساكنة : « لا أستطيع أن أقف هنا حتى انبلاج النهار . هل أذهب الى فندق ؟ كلا . هل ابحث عن هسو هيو ؟ هذا لايفيدني أيضا . سيبزغ الفجر عما قريب ، ويحسن أن أقوم بجولة وأعود الى هنا عندما يطلُّ الصباح » .

جرَّت قدميها ، واتجهت على مهلة ناحية الغرب . لم تعرف للراحة او النوم سبيلا خلال اليومين الماضيين . ولما انتهى الآونة النضال المرير وصار في الامكان أن تسترخي وتستريح ، جعلتها هذه الجولة المتوحدة التي لاهدف لها تشعر بمزيد من الوسن والانهاك . هامت على وجهها على طول الشوارع المألوفة لديها الى أن بلغت الخندق المائي المحيط بالقصر الامبراطوري ، فانحنت على حاجز شرفته تحدّق في كسل في المياه المتلألئة مثل حراشف السمك . وزحف في صدرها شعور عميق من الوحدة .

وبخّت نفسها بمرارة على ضعفها والسماح لبيي لي ــ بينغ أن

تجرها معها لاضاعة الوقت مع أولئك الطفيليين الاجتماعيين . كيف يمكن أن تعاشر مثل أولئك الناس وتضيع الوقت معهم وهي تحمل رسالة الى هسو هيو في جيبها ؟ لربما لم تكن الرسالة على قدر كبير من الاهمية ، الا أنها سُلِّمت اليها من قبل عضو في الحزب . رفعت بصرها الى برج فوق جدار «المدينة المحرَّمة» يشمخ مثل حيوان ضخم يجثم القرفصاء في ملء الضباب الرمادي ، فخيِّل اليها فجأة ان يدين شاحبتين تمتدان صوبها ، فبصقت في قرف عندما خطر في بالها لينغ جو - تساي . سرَّحت شعرها الى الخلف ، وتمتمت : « دعني وشأني ، أيها الكريه الملعون!» وأراحت رأسها على الحاجز وأغفت من شدة الضنى.

عندما استيقظت كان الافق الشرقي شاحبا من جراء ضوء النهار الجديد . تنفست الصعداء ، وركضت راجعة في انشراح ، وبلغت نزل الفتاة والساعة تعلن الرابعة . كانت السماء عبارة عن رقعة رمادية فسيحة الجنبات . خشيت أن يقرع الباب من جديد ، فجلست على درجته تأخذ قسطا من الراحة ، وكادت أن تستسلم للاغفاء مرة اخرى حينما بلغت أذنيها صرخة خافتة تشبه قطرات المطر : « أماه ! أماه.. »

أجفلت من غفوتها وحسبت أنها تحلم . فركت عينيها ، وتناهى اليها الصوت الخافت مرة اخرى ينادي : « أماه ! أريد امي !. » وتبع ذلك نشيج خافت .

فتحت عينيها مستيقظة ، وعرفت أنها لاتحلم ، فالصوت الخافت يأتي من مكان قريب منها . وثبت على قدميها باحثة فوجدت طفلين متراكمين معا على البسطة الحجرية الباردة لأحد المحلات الواقعة على الطرف الآخر من الطريق ، وحينما انحنت تلقي نظرة متفحصة كشف لها ضوء الفجر عن طفلين كبيرهما في حوالي الثامنة من عمره وصغيرهما في الخامسة او السادسة . كان وجهاهما المخدَّدان بالأوساخ نحيلين مهزولين وجسداهما عريانين تماما . بدا اثناهما وكأنهما يغطان في النوم ، الا ان الصغير ظلَّ يبكي مناديا على أمه ، وفمه الصغير نصف مفتوح ، والدموع تبلل رموش عينيه .

نفضت تاو - شينغ النعاس عن عينيها على الفور . من أين جاء هذان الولدان ، وأين هي أمهما ؟ كان الوقت صيفا ، غير أن الليالي كانت

لاتبرح عامرة بالبرد ، وكانت هي ترتجف على الرغم من الثياب التي ترتديها . وكان الطفلان المتشردان المسكينان يضطجعان عاريين على الدرجات الحجرية الباردة . وغلبها الانفعال ، فانحنت الى الامام تلمس وجهيهما وظهريهما فأذعرها ان تجد أن صغيرهما يلتهب بحمى شديدة! ودّت ان توقظهما وتستفسرهما ، لكن عملها هذا لايؤدي بها الى نتيجة. ورجعت بها أفكارها الى فندق بكين الذي هربت منه منذ فترة قصيرة: ذلك البناء الفخم بأبهته الملوكية وستائره المخملية الزرقاء ، والسيدات المتزينات بالجواهر والسادة الاطهار ... هزت رأسها هزة أسى ، وأخرجت خمسة يوانات ـ هي كل ماتملك من مال ـ ووضعت في لطف يوانين منها تحت رأسي الصغيرين قبل أن تهرع عائدة لتقرع بوابةالنزل.

استيقظت هسياو ـ ين من نومها وفتحت عينيها لتبصر تاو ـ شينغ الى جانب سريرها . جلست فاترة الهمة وقالت : « أهذه انت !... حسنا ، اجلسي » .

تجمّدت تاو ـ شينغ من هذا اللقاء البارد لكن المؤدب . كانت تتوقع حفلة صغيرة من الاحتداد العاطفي وليس هذا النوع من التصرّف. انتصبت جامدة الاطراف ، محدّقة في صديقتها ، وأعلنت بعد صمت مرتبك : « هسياو ـ ين ، أغاضبة انت بسبب من عمتك ؟ لكم كنت قليلة الخبرة ، وأنا حقا لم أقصد أن ... »

قاطعتها هسياو ـ ين ، وهي تتثاءب وتتمطى وتشعل الضوء ، وتلبس نظارتها : « أنا لاأعرف ماذا تقصدين ، يا لين تاو ـ شينغ . مؤكد أنك تعرفين هذا القول : لاتضرب الكلب اذا كنت تريد أن تصاحب صاحبه » .

جلست على مقعد لا ظهر له الى جانب السرير وتطلعت عبر النافذة، في حين جلست تاو ـ شينغ الى منضدة قريبة . واعتصمت الفتاتان بالصمت .

ـ هسياو ـ ين ، انت كريمة ، وينبغي أن تفهمي ان ماحدث لم يكن هجوما شخصيا ...

واستتلت تقول بعد صمت قصير : « كانت عمتك طيبة جدا معي، ولكن لها نظرة رجعية حقا .. »

قاطعتها هسياو ـ ين قائلة في صوت مرتجف وقد هبّت على قدميها وانعقد حاجباها المقوسان الكثيفان بتقطيبة غاضبة : « لا تزيدي حرفا . فقد روت لي عمتي جميع التفاصيل . وكان ذلك صدمة كبيرة بالنسبة الي . لاعجب انهم يقولون ان الناس من امثالكم لا يعرفون الرحمة ولا يملكون شيئا من الشعور . هل يجب على الثوري أن يدير ظهره لأسرته واصدقائه ؟ » .

ظلت تاو ـ شينغ طوال دقيقتين أو ثلاث دقائق تحدّق بثبات في وجه هسياو ـ ين المتضرّج وعينيها المدورتين المجروحتين . ثم نهضت على قدميها ، يرعشها الضنى ، ونبرت في اسى : « هسياو ـ ين ، أنا آسفة على ماحدث ، ولكنني عاجزة عن ايضاحه الآن ... يحسن بي ان اذهب . وداعا ! » .

خطت متماهلة صوب الباب ، شاحبة الوجه ، تتضوأ عيناها بالعبرات .

خفق قلب هسياو ـ ين وهي تلاحقها بأنظارها . وما ان بلغت صديقتها نهاية الممشى حتى وثبت وراءها مندفعة صوبها والدموع في مقلتيها ، وأمسكت بها من ذراعها . لهثت قائلة : « لاتغضبي ، ياتاو ـ شينغ ! عودي ! » .

توقفت تاو ـ شينغ ، واستدارت ، وعجزت عن حبس دموعها عندما وقعت عيناها على وجه هسياو ـ ين المضطرب .

ـ هنالك أمور أعجز عن فهمها ، يا تاو ـ شينغ ... ارجوك أن تغفري لي ! عودي ، عودي وسوف نبحث الامر في هدوء .

تبعت تاو ـ شينغ صديقتها الى الغرفة وطوّحت نفسها على السرير الحديدي الصغير واضطجعت هامدة لاحراك فيها .

جلست هسياو ـ ين على طرف السرير الى جانبها ، وامسكت بيدها مثلما تمسك اخت بيد أختها . كانت ابتسامة وداد مرتسمة على صفحة وجهها رغم أن العبرات تتدحرج على وجنتيها .

ـ متى رجعت الى بيبينغ ، وكيف رجعت ؟ واين امضيت ليلة البارحة ؟

مسحت بيدها على جبهة تاو ـ شينغ ولحظت في رعب عينيها

الغائرتين وانهاكها الشديد الذي يجعلها تبدو وكأنها غائبة الوعي عما يحيط بها : « ماذا أصابك ؟ امريضة انت ؟ » .

هزت تاو – شينغ رأسها من حيث اضطجعت مغلقة العينين ، واجابت مبتسمة : « ليس بي شيء . لايعدو الامر انني لم اعرف النوم يومين كاملين ، أيمكنني أن أغفو اغفاءة هانئة على سريرك ؟ »

– من دون ريب . سنتحدث بعدما تستيقظين .

كانت هسياو – ين تنزلق خارجة لتغسل وجهها حينما نادتها تاو – شينغ في صوت يهزه القلق : « أوه ، رويدك برهة ، هل هسو هيو في الجامعة الآن ؟ أريد ان أراها » .

استراحت عينا هسياو – ين المدورتان البراقتان عليها في شيء من الدهاء : « هسو هيو ؟.. قالت ان امها مريضة ورجعت الى بيتها فجأة دون أن تؤدي الامتحانات النهائية . لكن بعض الذين سيتخرجون أخبروني قصة اخرى . قد تكون رحلت للقيام بعمل ثوري » .

نهضت تاو – شينغ فجأة ووثبت عن السرير وقد نسيت تعبها كله : « كيف يمكنني ان اعثر عليها اذن ؟» .

دفعتها هسياو – ين الى الوراء ، واستوضحت في دهشة لطيفة : « فيمَ العجلة ؟ لسوف تعود » .

اضطجعت تاو – شينغ على السرير ، وجعلت تحدّق في هسياو–ين بعينين متسعتين ، وغمغمت كما لو كانت تحلم : « بلى ، لسوف تعود.. لسوف تفعل . أعرف أنني سأعثر عليها » .

انغلقت عيناها ، ورأت هسياو – ين انها استسلمت للنوم نتيجة الارهاق . كانت لاتبرح تغمغم انها يجب أن تعثر على هسو هيو . ألقت هسياو – ين نظرة فاحصة على صديقتها ، وخاطبت نفسها قائلة : « انها ، من دون ريب ، تملك شجاعة ايمانها » .

❋ ❋ ❋

لم تنهض بيي لي – بينغ من نومها وتتناول طعام فطورها حتى الظهر ، حيث تكاسلت بعد ذلك على الكنبة ، تتصفح مجلة من مجلات الازياء . وحينما رفعت رأسها اسخطتها رؤية حقيبة في احدى زوايا غرفتها . رمت السيد بان السكرتير العام للحكومة المحلية الجالس الى

جانبها بنظرة مفنناج ، وأوضحت قائلة : « بعض الناس لم يتعلموا كيف يعترفون بالجميل ! لقد قدّمتها الى لينغ جو ـ تساي من قبيل الاحسان والشفقة ، ولكن كارل ماركس خلب لبّها الى ابعد الحدود ، واعتقد انها تحسب السيد لينغ أهلا للازدراء . أنظر كيف خذلتني بهروبها الليلة الماضية ! ان وقع بصري عليها مرة اخرى فلن أسكت لها ! » .

قال السكرتير العام بصورة عرضية ، وهو يتحسس حافة نظارته باصبعه : « لست أعرف عمن تتحدثين » .

ـ عن تلك الجروة التي كانت هنا الليلة الماضية ، من دون ريب ! عرفتها في الجامعة ، ولم تكن سيئة يومذاك . وفضلا عن ذلك ، فهي جميلة . وباعتبار ان زوجة السيد لينغ توفيت ، فقد خطر لي أن اقدمها له ـ انت تعرف تماما أننا في حاجة الى مساعدته في قضية تلك الصفقة . ولكنها ذهبت ثم قامت بلعبة قذرة في حقي ...

واخذت نفسا عميقا ورمت حبيبها بابتسامة ماكرة : « تحتاج الى مختلف الاصناف والاشكال عندماتريد أن تبني عالما ! بعض الناس يتملقون الثورة ، ولكنني أجد ان كثيرين آخرين يعملون في غيرة وحماسة، فلا يخشون الصعاب ، ولا خسران رؤوسهم . واعترف ان ذلك فوق طاقتي ! » .

أشعل السيد بان لفافة وضمّ قدمي لي ـ بينغ ، وطرف بعينيه ناحية السقف الاخضر الباهت ، وهو يستفسر بذات النبرة العرضية : « تقولين إن صديقتك ثوروية ؟ كيف تعرفين ذلك؟ ان لم يرق جو ـ تساي في عينيها ، فأنا لا الومها على هروبها منه ! » .

هبت لي ـ بينغ على قدميها ، وأشارت بأصبعها المطلي ظفره الى ارنبة أنفها ، واحتجت بعنف قائلة : « تحسب انني لست خبيرة ؟ انا افهمها حق الفهم ! أحرق عينيّ ان لم يكن رفضها عروض صداقتي بسبب من انخلاب لبها بالحزب الشيوعي !.. »

قطع حديثها دخول خادم وانحناؤه انحناءة خفيفة : « سيدتي ، هنالك طالبة في الخارج جاءت تطلب شيئا . انها تحمل رسالة اليك » .

امرته لي ـ بينغ بايماءة ملول من رأسها ، وقد خطر لها ان تاو ـ شينغ جاءت سعيا وراء حقيبتها : « هاتها ! » .

اعطاها الرسالة . فتحتها في وهن والقت بنفسها على الكنبة ، وبدات تقـرا :

عزيزتي لي — بينغ ،

لاريب انك غاضبة عليّ . ولكنني أخشى انني لـم احتمل الدور الذي أسندتيه اليّ ، ولذلك لذت بالفرار . أتراك حقا منجذبة الى هذه الحياة الرخية المتفسخة ؟ في اعتقادي ان مثل هذا الاسلوب في الحياة لايمكن الا ان يضعف إرادتك ويقودك الى الانحطاط . لي — بينغ ، لقد كانت لك مرة نظرة تقدمية، وقدمت لي العون بنصيحةاسديتيها اليّ . فلم تحتفظـين برفقة هذه الزمرة السيئة وتسيرين علىهذا الممر الخطير ؟ طبيعي انه ينبغي عليك ان تعيشي حيـاة اكثر معنى . . .

لم تكمل قراءة الرسالة ، بل مزّقتها مزقا صـغيرة ، ونبـرت : « ياللهراء ! تعلمت قليلا من النفاق البروليتاري وتحسب نفسها رائعة! فلتذهبنّ الى الجحيم ! جميعنا نستطيع أن نطلق شعارات جوفاء ، أليس كذلك ؟ » .

— اعذريني ، ياسيدتي ، ولكن الفتاة تنتظر اشياءها .

قال الخادم الذي سمّر الى السجادة ،بعدما رأى مافعلته لي-بينغ بالرسالة واصغى الى انفجارتها الغاضبة . فزاد كلامه الطين بلّة . هزت اصبعها ناحية حقيبة تاو — شينغ ، وقد كدّرها ان يكون هنالك شهود على حدة مزاجها ، وزمجرت مرعدة : « ماذا تنتظر ، أيها الأحمق ؟ احمل هذا الشيء القذر اليها ! » .

كان الخادم على معرفة طيبة بنزوات الزبائن الاثرياء المترددة حينما يفشلون في حبوّهم وراء منصب او منفعة ، او تخيب آمالهم في الحب ، فهم يضربون المنضدة بقبضاتهم ويشتمون الموظفين . أمـا عندما يبسم لهم الحظ وتحوطهم السعادة ، فما عليك الا ان تنحني أمامهم في خنوع ، وتساعد السيدات على ارتداء معاطفهن ، او تقدم لهن الورود ، وعندها يمكنك أن تثق بالحصول على هبة مجزيةمقدارها ثمانية او عشرة يوانات . لم يكن الخادم يبغي ان يعرّض نفسه للخطر ،

فالتقط حقيبة تاو – شينغ وانسحب في صمت . اعطى الحقيبة الى هسياو – ين وهو يبتسم ، وكانت تنتظره خارجا ، وقال يسألها : « هل جئت من قبل السيدة الصغيرة التي كانت هنا الليلة الماضية. كنت اتساءل فيمَ تحتجز السيدة بيي ، على الرغم من جميع علاقاتها وصلاتها الثرية ، احدى الطالبات وتسألها ان تقيم معها هنا ... لاتخبري صديقتك ، ولكن السيدة بيي تعكّر مزاجها حينما استلمت تلك الرسالة ... حسنا ، ان الطيور على اشكالها تقع . يحسن ان تهرب بجلدها من هذا الحشد – فلا فائدة ترجى من مصاحبة الاغنياء.. »

قطعت هسياو – ين ثرثرة الخادم قائلة : « هذا حسن . لقد انتهى كل شيء يربط بينهما الآن . وداعا ! » . ووضعت الحقيبة في عربة الريكشا ، واتخذت مقعدها ، مسرورة متضايقة في الوقت ذاته.

في هذه الفترة كان السكرتير العام بان يخاطب لي – بينغ قائلا وهو يبتسم : « ياعزيزتي ، يجب ان اقوم بمخابرة هاتفية » . وخرج الى فجوة معتمة في المشى حيث كان ثمة جهاز هاتف ، وطلب رقما، وقال متعجلا في صوت خافت : « اهذا العجوز هو ؟ اسرع ، والا فاتك القطار . طالبة من جامعة بكين غادرت فندق لي تونغ لتو"ها . انطلق وراءها ، عجّل ! ارسل من يتعقبها على الفور ... كلا ، ليس تلك الفتاة ، ولكنها ستقودك الى اخرى تدعى لين تاو – شينغ ... نعم !.. ماهذا ؟ » أمال السيد رأسه جانبا وقوّس حاجبيه : « لاتخبرني انك كنت تبحث عنها !.. هذه الفترة كلها ؟ يا للحظ ، ايها الفتى العجوز ! ينبغي ان تدعوني الى وليمة مقابل ذلك ... بيي لي – بينغ؟ لاتتساخف ! انني احصل على قليل من المتعة معها . انها ليست سيئة. وهي تعرف كيف تكون فاتنة ... تعال لنشرب قدحين من الشمبانيا حينما يسنح لك الوقت . حسنا ، لقد سوّيت الامور اذن . وداعا! »

وضع المسماع ، وتثاءب ، وتمطى متكاسلا ، ثمّ سوّى عباءته الحريرية الزرقاء قبل ان يعود ادراجه الى منزله المؤقت – غرفة لي – بينغ . لم يجدها هناك ، فأشعل لفافة ، واخرج قارورة صغيرة من الهيرويين من حقيبته الصغيرة ، ودس قليلا منها في لفافته ،وراح يعب" منها في شره . ثم خفض رمشيه المنتفخين ، وصاح متهللا وهو يهز رأسه راضيا عن نفسه : « لقد واتاني الحظ اخيرا .. وكل شيء يسير في صفي ! » .

١٧

جعلت تاو ـ شينغ اقامتها في نزل صغير في شونغلاو هو تونغ قرب جامعة بكين كيما تنتظر هسو هيو وتكتشف مكان وجود شيانغ هوا . كانت تشعر انها غير قادرة على أن تعيش من دون رفاق مثلهم ، وقد امتلأت الآن ثقة انها ما أسرع ان تعثر عليهم عاجلا أم آجلا . كانت تقضي النهار في القراءة والدرس ، ونادرا ماتجازف فتخرج الى العتبة . أما حينما يخيّم الليل فهي تخرج في نزهة برفقة هسياو ـ ين التي تسكن قريبا منها . وكانت هسياو ـ ين ، في الحياة اليومية ، أكثر احتراسا بينهما فتروح تسأل على الدوام قبل خروجهما في صوت يشوبه القلق: «ينبغي أن تاخذي حذرك دائما من ذلك النذل الكيومنتانغي!» مشيرة بذلك الى هو مينغ ـ آن .

ولم تكن تاو ـ شينغ تبالي بتحذيراتها ، فتقول مبتسمة : « لاتقلقي . الظلمة اكثف من ان تسمح لأحد ان يتعرف عليّ » .

كانت الطريق من شاتان الى القصر الامبراطوري مخططة عن جانبيها بصفوف من شجر الخرنوب الكثيف الذي تطلق زهراته في الليل عطرا مسكرا ينعش الفؤاد . وكانت الفتاتان تدرجان في هدوء بين هذه الاشجار الى حاجز الخندق المائي الذي يلتفّ حول « المدينة المحرّمة » ، أحيانا تحدّقان في القصر الملكي تحت أشعة القمر الفضية ، وفي الالوان الشرقية الثرية للسطوح العالية بقرميدها الاصفر الصقيل وابراجها المهيبة الشبيهة بصور ضخمة لآلهة قديمة تنهض في فخار ، لكن في غموض ، في ملء سماء الليل المنتشرة فوق الخندق . وكان اعجابهما الصامت بذلك المشهد يثير في صدريهما احساسا عميقا لايتبدل تفجّره أفكارهما عن الحضارة الصينية القديمة وميراثها الفني العظيم . وغالبا ماكانتا تستسلمان للصمت فترة طويلة غارقتين في بحران من التفكير .

في مثل هذه اللحظات كانت حموّة غيرتهما تجرفهما أحيانا فتروحان تتحدثان في حماسة عن الماضي وعن الحاضر ، فتتكلم تاو – شينغ في اغلب الاحيان عن الثورة وعن النضال الطبقي ، اما هسياو – ين التي تسير الى جانبها فتجد كل عذر ممكن لاغلاق هذا الموضوع .

وتقول تاو – شينغ موبّخة بعدما تفشل في حثّ صديقتها على السير على الطرق ذاتها وتبنّي وجهة نظرها بالذات : « يا لك من رجعية متخلفة ! » . وكانت هسياو – ين ، على الرغم من حبها لتاو – شينغ وتقديرها العميق لصداقتهما بحيث اغتفرت لها الاذية التي الحقتها بعمتها ، ترفض ان تقع تحت تأثير معتقدات صديقتها ووجهات نظرها. ونتيجة لذلك فهي تجد ان امثال هذه المحاضرات كريهة تبعث على النقمة.

وذات مرة ، وهما تتحادثان قريبا من الخندق ، جعلت تاو – شينغ تتكلم عن شيانغ هوا : « أنت تعرفين ، يا هسياو – ين ، ان شيانغ هوا الذي عرفته في تينغهسيين ثوروي نموذجي . لقد شرح لي ثورة اوكتوبر التي حدثت في الاتحاد السوفييتي ، وحركة السوفييتات في الصين ، ومهمة الحزب الشيوعي الثلاثية ، أي اقامة حكومة سوفييتية، وتقوية الجيش الاحمر ، وقيادة الحركة الجماهيرية في المنطقة البيضاء.. واخبرني ، ايضا ، ان القضية الرئيسية للثورة الصينية هي قضية الارض ... والآن اذن ، لاضرورة ان تشمخي بأنفك الى السماء ! الم تسمعي ماقلت لك ؟ » .

– أنا لا أعرف عماذا تتحدثين . اولا الاتحاد السوفييتي ، وثانيا الحكومة السوفييتية . وكلاهما بعيد ناء – لاعلاقة لهما بنا على الاطلاق!

وابتسمت هسياو – ين ابتسامة ودودة واصلحت من وضع خصلة من شعر تاو – شينغ بعثرتها الريح : « لم لانتحدث في موضوعات اكثر عملية ؟ هل رأيت يو يونغ–تسي بعد ان افترقت عنه ؟

استوضحت تاو – شينغ في ابتسامة خجول ، وهي ترمي حصاة في الخندق : « فيم نتحدث عنه ؟ انا لم اخبرك – ذهبت لرؤيته البارحة . كنت تركت معه دفترا صغيرا عن طريق الخطأ . والبارحة، حين لم يكن لديّ ما أعمل ، قررت أن أذهب اليه واسترده منه . اخذت عنوانه من صديقه كو الذي التقيته في الطريق مؤخرا . ويو يونغ–تسي،

كما تعلمين ، يعمل امينا اول «لمكتبة بكين» الآن ، وقد استأجر منـزلا صغيرا محترما . وما ان دخلت اليه ... »

جعلتها نظرة هسياو ــ ين المشدوهة تلتقط انفاسها قبل أنتكمل حديثها متبرمة عابثة : « خمّني فقط ماحدث ! خرج الى الباحة وحملق فيّ كما لو كنت غريبة عنه ، ثم اطلق ضحكة باردة ــ ضحكة مخيفة. قال : هذه انت اذن ! هل رجعت لأن الثورة نجحت ؟ وفي تلك اللحظة لمحت امرأة شابة . امسك بذراعها وعرّفنا ببعضنا بأسلوب ينفث حقدا. قال : هذه عروسي . يا لي مينغ ـ لان ، تعرّفي بالثورويه لين... هرعت هاربة قبل ان يكمل عبارته يتأكلني الغضب دون أن أسأله عن دفتري. أفليس هو حقير خسيس ! خطر لي انه لايزال يفتقدني . لم تك لديّ اية فكرة عن انه عديم القلب تماما ! » . وضحكت على الرغم من غضبها.

هزت هسياو ــ ين راسها في وقار : « ايتها الفتاة الطائشة ، انت تبحثين عن المتاعب دائما ! ما الذي دفعك للذهاب الى بيته ؟ غالبا ماكنت التقي به يسير مزهوا بنفسه ، لكنني لم اكن ألتفت اليه . انه أنانـي الى درجة بعيدة » .

ــ بلى ، انه أناني معتد بنفسه . لاريبة أنه شقّ طريقـه بمعونة هو شيه ، وبواسطته حصل على وظيفة جيدة . وقد راح هو شيـه يتباهى قائلا ، بعد رؤيته بو يي : « ناداني ياسيدي وناديته ياصاحـب الجلالة » . ان كان يو يونغ ـ تسي قد رأى بو يي ، فلا بدّ أنه يتباهى قائلا : « فليعش صاحب الجلالة الامبراطورية ! »... تفو ، هذه حقارة الحقارات ! » واسترسلت ضحكة تاو ــ شينغ من جديد . كانت تشبه ، وشعرها الاسود الناعم تتلاعب به الريح ، صبيا عابثا .

قالت هسياو ــ ين : «حسنا ، دعينا من هذا . سرعان ماستعاودين الحديث عن النضال الطبقي مرة اخرى ، وافضّل الا تفعلي ذلك . لقد زرت أمكنة كثيرة ، فلم لاتخبريني شيئا عن الاشياء التيرأيتأنها تبعث على الاهتمام ؟ » .

ــ الاشياء التي تبعث على الاهتمام ؟ لست اعرف من أين ابدأ .

ومع ذلك فقد بدأت تاو ــ شينغ تتحدث عن طفولتها وعن الفترة التيذهبت فيها مع رابّتها الى كوبييكو لجمع الايجارات . ورغم مرور

عدة سنوات على ذلك ، فان بعض تلك التجارب الاولية كانت قد انحفرت في ذاكرتها بصورة لاتمحّي . وكان لدى والدها ورابئتها في أغلب الاوقات مستأجرون لايستطيعون دفع ايجارهم فيشنقون انفسهم بروافد بيوتهم الخشبية أو يضربون بالسياط . وقد أرغما الارملة سون على الوثوب الى النهر . وجدها لأمها أغرق نفسه في نهر بايهو ..

— كفي عن هذا ...

وغرق صوت تاو — شينغ ، وازدادت ملامحها جهمة وهي تسترجع ذكريات ماضيها : « دعيني أخبرك عن صديقة طفولتي هيي — ني . أتعرفين انني ابدا لن انسى تلك الصديقة المسكينة التي كانت لي ... »

شرعت تروي قصة هيي — ني ... وتصف تعلق كل منهما بالاخرى ، وذكاء هيي — ني وحصافتها ، ودماثة تيه — فو ووالدة هيي — ني على الرغم من انهم يعيشون جميعا عيشة الكفاف ، وغالبا مايجهلون من اين يحصلون على طعام غدهم ... تكلمت اول الامر في نبرات مقهورة وعيناها تراقبان المياه المتألقة في الخندق . لكن سرعان ما اطلقت العنان لعواطفها فرفعت صوتها محدّقة في هسياو — ين في تصميم . أصغت الاخرى في رباطة جأش هادئة باديء الامر ، مستندة الى حاجز الخندق بما طبعت عليه من جدّ وحرص . ولما بلغت في القصة الى حين حمل شينغ تيه — فو ابنته هيي — ني الى التلة استدارت هسياو — ين فجأة تمسح عبراتها . وعندما أدارت رأسها من جديد كانت عيناها حمراوين : « لم اسمع من قبل مثل هذه القصة المؤلمة ! »

كان فؤاد تاو — شينغ يحترق الما . وانطلقت أفكارها ، رغما عنها ، سابحة الى والدتها التي ساء مصيرها ، والى والدة هيي — ني التي جرّها لين بو — تانغ الى الانتحار . وشانغ تيه — فو و وانغ لاو — تسينغ وحفيداه — هؤلاء الفلاحين المضطهدين برزوا امام عينيها جميعا .

اعلنت وفؤادها مثقل حزنا : « وهنالك قصة اخرى ، اكثر غما ، لم اروها لمخلوق بعد . قصة أمي أنا » .

وصفت مصير هسيو — ني ومصير والدة هيي — ني قائلة في الختام : « هسياو — ين ، صحيح انني نشأت في طبقة مستثمرة ، لكن ما ان

وعيت كيف اضطُهدتُ واضطهِدَتْ والدتي بقسوة من قبل ملاك اقطاعي والسبب في ذلك كله ، ما أن رأيت بأمّ عينيَّ الحزن والبؤس المطبوعين على وجه شينغ تيه ـ فو ، حتى بدأت أحقد لا على هذين اللذين يسميان أبويّ ـ لين بو ـ تانغ و هسو فينغ ـ ينغ فحسب ـ بل على الطبقات المستثمِرة كلها . لقد رأيت بنفسي جرائم هذه الطبقات ووضاعتها وبشاعتها . وحينما ألتقي الآن شخصا من الطبقة الحاكمة أتذكر أمي و هيي ـ ني » .

وتوقفت عن الحديث تأخذ نفسا ، وقبضت على يد صديقتها بقوة ، ثم تابعت تقول في صوت مرتعش : « هسياو ـ ين ، افتحي عينيك على مايجري حولنا ! عندما تشاهدين البؤس الذي يطغى على العالم والمصائب المخزية التي تواجهها بلادنا ، فكيف تستطيعين أن تنظري اليها فقط ويداك مطويتان ؟ » .

رفعت هسياو ـ ين رأسها في بطء لتطيل التحديق في تاو ـ شينغ . في ظلال الليل كانت عينا صديقتها الكبيرتان أشبه بكرتين من نار يتّقد فيهما لهيب يكاد أن يحرق من يتطلع اليه .

قالت هسياو ـ ين في بطء ولطف : « أجل ، يا تاو ـ شينغ ، انت على حق ! لقد حملت معك الى بيتي هذا النهار ، للمرة الاولى ، وجود عالم آخر يختلف عن عالمنا » . كان يختلط في صوتها الخافت غم واشفاق . واسترسلت تقول بعد فترة : « هل تسمين لي عددا من الكتب اطالعها ؟ ماذا ينبغي ان اقرأ اولا ؟ في غرفتي جميع تلك الكتب الخاصة بك ، ومع ذلك ـ وغريب ان اقول هذا ـ لم أكلّف نفسي عناء فتح واحد منها ! » .

كان هذا ابعد من توقعات تاو ـ شينغ الحرون . كانت على الغالب تحاول أن تقنع صديقتها بنظرياتها الثورية كيما ترفع مستوى معرفتها السياسية ، لكن هسياو ـ ين المحافظة الواثقة من نفسها لم تكن تعيرها غير أذن صمّاء . وهذا الآن ذكر هيي ـ ني ووالدتها التعيسة قد بدّل هسياو ـ ين وجعلها ترغب في الانطلاق على ذات طريق صديقتها . اشرق وجه تاو ـ شينغ المضطرب سعادة فيما هي تردد في اغتباط وصراحة : « تستطيعين ان تبدئي بكتاب « كيف تدرس العلوم الاجتماعية

الجديدة » انه اول كتاب قرأته ولايزال موجودا في غرفتك . وحاولي بعد ذلك قراءة كتاب شو شيو ـ باي « **الى اين تسير الصين ؟** »، وكتاب « **الدولة والثورة** » ، و « **اليسارية ، مرض الشيوعية الطفولي** » ، و « **موجز الاقتصاد السياسي** » . ثمة مجموعة كبيرة من الكتب . أعرف انه كلما قرأتِ كتابا رغبت في قراءة كتب اخرى ! » .

ـ حسنا ، بمعونتك أنا واثقة انني سأصير تقدمية جيدة .

ـ حسنا ، ذلك ليس عملا سهلا على الاطلاق ، يا هسياو ـ ين . ثمة طريق طويلة نسيرها بين الدراسة النظرية الى الانطلاق على طريق الثورة ـ والصيرورة ثوريين حقيقيين .. خذيني مثلا .. »

قاطعتها هسياو ـ ين ضاحكة : « يا إلهي ، لقد غدوت أستاذتي حقا ! لم أجتز بعد عتبة المدرسة ، وهذه انت تبدأين محاضرتي! » . وضحكت تاو ـ شينغ بدورها . خلال ايام صداقتهما الطويلة لم يتح لهما من قبل ابدا أن تتعاطفا الى هذه الحدود .

في طريق عودتهما اشارت تاو ـ شينغ الى شاب يسرع الخطى تحت اضواء الشارع ، وهمست لصديقتها : « أنظري ، ياهسياو ـ ين! اتحسبينه شيوعيا ؟ » .

رمت هسياو ـ ين الشاب بنظرة وضحكت في عذوبة : « احسب انك مخلوبة اللب . على أي اساس تقولين انه شيوعي؟ » .

ـ تستطيعين القول انه شريف ، قوي العزيمة ، وجادّ ..أؤمن ان الشيوعيين قد يختلفون في المظهر والمزاج ، لكن تربط بينهم صفات مشتركة عديدة . الشاب الذي مرّ بنا لتوّه يبدو أكثر جدية من الناس العاديين » .

فانفجرت هسياو ـ ين في عاصفة رنانة من الضحك : « منذ متى غدوت عالمة من علماء الفراسة ؟ » .

احتجت تاو ـ شينغ في وقار ، وقد تجعّد جبينها مرة أخرى: « هذا صحيح ! أنا لا أمزح ! لقد فقدت في هذه الايام جميع اتصالاتي برفاقي الثورويين بحيث لا استطيع العثور على واحد منهم . وانا قلقة للعثور عليهم بحيث لا أحلم الا بهم . وحيثما مررت بانسان في الطريق

اروح اتساءل ما اذا كان عضوا في الحزب ... ماذا ينبغي عليّ ان افعل ، يا هسياو ــ ين ؟ الحياة مشكلة ايضا » .

ــ لا يقلقنك ذلك . حاولي ان تعثري على عمل . تستطيعين الاعتماد عليّ الى ان تحصلي على عمل . ما لا استطيع ان افهمه عن الثورة هو كيف تكونين انت أحيانا على اتصال بالآخرين واحيانا أخرى تفقدين مثل هذا الاتصال ... »

وخافتت من صوتها . وتطلعت حواليها في حذر : « هـل أنـت شيوعيـة ؟ » .

جاءها الجواب في صوت اكثر خفوتا ، ليس لأنها كانت خائفـة بل لأن السؤال آلمها : « كلا . لو كنت شيوعية اعتقد انّي سأكون اسعد انسان على وجه الارض . لكن ... لكنني لست شيوعية ... »

واستدارت هسياو ــ ين تنظر الى وجهها العامر بالقلق : «لسوف تكونين ! بلى ، لسوف تكونين في يوم من الايام ! واثقة أنا من ذلك » .

وبينما هما تقتربان من نزل تاو ــ شينغ لمحت رجلا يلبس قبعـة من اللباد يقف عند المدخل ويرمي أبصاره بجمود صوب الناحية التـي يسيران عليها . اجفلت ، وتذكرت الرسالة التي أعطاها اياها شيانغ هوا ، والتي لم تحرقها بل هي تحملها معها ، واثقة انها لابدّ ان تجد هسـو هيو ذات يوم . واذ بدا لها ان الامور قد تسير في وجهة خاطئة الآن اختطفت المغلف المهلهل من جيبها وكوّرته في يدها ودفعته في فمها على اهبة الاستعداد لابتلاعه عندما تدعو الحاجة .

سألتها هسياو ــ ين مشدوهة : « ماذا تفعلين ؟ » .

فكان جوابها الوحيد ايماءة تحذير .

حينما بلغت الفتاتان النزل برز لهما عدد من رجال الدرك المسلحين . وصعّد رجل في منتصف العمر ، يبدو انه الضابط المسؤول ، نظـره في تاو ــ شينغ صعودا وهبوطا طوال لحظة وقد عقد حاجبيه قبل ان يسألها في صوت خشن: «أانت هي لين تاو ــ شينغ ؟ تعالي معنا، اذن!» .

ابتلعت تاو ــ شينغ الرسالة في بلعة واحدة . ثم استدارت الى هسياو ــ ين في هدوء ، وخاطبتها قائلة ، وهي تومىء برأسها : «ارجعي الى الجامعة وثابري على دراستك بنشاط ! وداعا ! »

والتفتت الى الضابط وسألت في استخفاف : « هل نذهب ؟ »

ـ هيا تحركي !

وقفت سيارة سوداء امامهم ، فدفعها اربعة من رجال الدرك اليها.

عندما اشتغل المحرك لم تستطع الا ان تنظر الى الوراء ، الى الرصيف الذي وقفت هسياو ـ ين عليه مشدوهة ، والضوء العاتم الذي يلقيه مصباح الشارع يبرز مقدار امتقاع وجهها .

دفعوها الى السيارة في خشونة ، وسرعان ما انغلق الباب عليها.

ـ تاو ـ شينغ ! تاو ـ شينغ !

تحركت السيارة ، فلحقت بها الصيحات المكروبة البعيدة التي تطلقها هسياو ـ ين ، وهي تركض وراء السيارة .

احتفظت تاو ـ شينغ بهدوئها ، فجلست ساكنة لاتعرف الخوف، كما لو كانت تنتظر حدوث هذا الامر منذ زمن بعيد .

* * *

١٨

في بكور تلك العشية كانت السحب قد سبحت عاليا في السماء الشاحبة الزرقاء فوق برج « المدينة المحرمة » الشاهق الجميل ، والمياه الرمادية السوداء في الخندق قد تضوأت مثل حراشف سمكة، فيما الفتاتان تتبادلان الحديث وتذرفان العبرات الى جانب الحاجز الحجري الذي يحدق بالخندق المائي ..

ـ لقد حملت الي هذا النهار ، للمرة الاولى ، وجود عالم يختلف عن عالمنا .

ان أحداث تلك العشية تبدو الآن بعيدة شبيهة بحلم . لحظات معدودات مرّت منذ أن كانت هي وهسياو ـ ين تتحدثان في حرية ، وتسموان ببصرهما الى مستقبل رائع لا حدود له ، وتناقشان كيف تدرسان السياسة وتنطلقان قدما . ومع ذلك ، حينما فتحت تاو ـ شينغ عينيها المتعبتين ، وجدت نفسها في زنزانة مظلمة رطبة . لقد انقطعت الآونة تماما عن عالم الرجال ، فاقشعرّ جسدها فيما أحلامها عن المستقبل تتلاشى متبددة ، وتتركها تواجه واقع حاضرها المخيف . ولا ريبة أن جزاري الكيومنتانغ سيجرونها ، حالا ، الى غرفة الاستجواب ، ويعذبونها ويعدمونها ـ بلى ! مرة أخرى وثبت الى ذهنها فكرة الموت.

وفيما هي رابضة وحدها على الارض الرطبة في الزنزانة المظلمة استعادت في ذهنها قصيدة شيوشين(١) التي كتبتها قبل أن تلقى مصيرها الاخير بشجاعة فائقة : « رياح الخريف وأمطار الخريف تحزنان قلبي ! » . وفكرت في لو شيا ـ شوان بابتسامتها الغيور المتألقة ، وفي شيانغ هوا وهسو هيو . وأرغمها تذكرها بطلها لو أشيا ـ شوان

---

(١) امرأة ثوروية اعدمت لقيادتها النضال ضد حكام أسرة شينغ .

على ان تغمض عينيها وتهمهم مبتسمة : « يا رفيق ، اعتقد أن مصيرك سرعان ماسيكون مصيري! » . كانت واثقة انه وهب حياته في سبيل القضـــية .

الموت ! لقد حلمت منذ أن كانت طفلة صغيرة بَعْدُ أن تمـوت ميتة بطولية . وهذا الزمن الآن يقترب من ذلك .

أضاعت نفسها في بحران من الذكريات الحلوة . وطالما أن الموت قد يأتي في اية ساعة فلسوف تصرف آخر لحظات حياتها تطيل التفكير في الافراح والآلام والاحداث المشهودة التي مرت في حياتها القصيرة . تلاشى رعب اعتقالها الاول ووحدته ، فأتاح لها أن تتأمل في مزيد من الهدوء روعة النضال الذي قد تتخلى عنه .

أدير القفل في المفتاح وانفتح الباب ، وتسلّل ضوء بطارية داخل الزنزانة ، وامتدت يد عريضة قبضت عليها وشدّتها خارج أســداف الظلمة : « تعالي اخرجي ! »

كان هنالك رجل شاحب ذرّف به العمر يرتدي ثيابا غربية يجلس خلف دكة في غرفة صغيرة . وكان حارسان مسلحان يقفان في احــدى الزوايا ، وكاتب ينحني على منضدة متأهبا لتدوين الملحوظات .

وقفت تاو ـ شينغ منتصبة أمام الدكة ، وقد أدارت وجهها جانبا .

راح الرجل المرتدي ثيابا غربية يتكلم بصوت أجش وفي بطء كما لو كان نصف يقظان : « هل انت لين تاو ـ شينغ ؟ كم هو عمرك ؟ »

أطبق صمت طويل ، فقد انتصبت تاو ـ شينغ صامتة لا حراك بها ، وادارت رأسها جانبا .

ـ لِمَ لا تتكلّمين ؟ ؟ اننا نطرح عليك بعض الاسئلة . الا تعرفين انك مجــرمة ؟

احتد الصوت الناعس في حين فقد المتحدث الصبر .

قالت ، دون ان تتحرك : «انا لست مجرمة ! انتم هم المجرمون!»

طاخ ! ضرب الدكة بقبضة يده وحملق فيها ، وهو يخور : «كفي عن وقاحتك ، أيتها الخليعة الشريرة ! نحن نعرف بما لايقبل الشك انك شيوعية . اعترفي بذلك ! متى انضممت الى الحزب الشيوعي ؟

من هو قائدك ؟ الى اي فرع من فروع الحزب تنتمين ؟ أن قلت لنا الحقيقة وابديت ندامتك فلسوف أطلق سراحك » .

استدارت تاو ـ شينغ على مهلة ، وقد رفعت ذقنها ، لتنظر باستقامة الى شفتي الرجل النحيلتين الملتويتين . كان وجهه الطويل الشاحب ، والبريق الثعلبي في عينيه ، وشفتاه الجافتان السوداوان تذكرها ، بطريقة غريبة ، بمضطهدها الوحشي هو مينغ ـ آن . وكما أن جميع الشيوعيين يتمتعون بمزايا رائعة لاريب فيها ، كذلك فان جميع رجال الشرطة السريين والفاشيين يتمتعون بصفات منفرّة متشابهة.

ـ رغبتي الوحيدة هي ان أكون شيوعية ! ويؤسفني انني لم أصل الى هذا المستوى !

كان صوتها خافتا ، لكن كل كلمة نطقت بها كانت صافية واضحة.

ـ ماهي فائدة المراوغة ؟ لقد اعتقلناك نتيجة اثبات دامغ . أنت لست شيوعية فحسب ، ولكنك قمت بعمل على شيء من الاهمية . فانفضي لنا الحقيقة !

ضرب مستجوبها الدكة بقبضته مرة اخرى كما لو كان يعوّض عن نقص قابلية تأثير مظهره الفاسق الكريه على الناس .

ـ لقد أخبرتك منذ لحظات .

واستدارت تاو ـ شينغ من جديد ، وأسامت نظرها الى خيالها المرتسم على الجدار الاشهب ، واسترسلت : « أريد الانضمام الى الحزب الشيوعي ، ولكنهم لم يقبلوني حتى الآن » .

كان من نتيجة ذلك ان ازداد الضرب على المنضدة . نتف «القاضي» الساخط شعره ووثب واقفا على قدميه : « أيتها الجروة ! يا لعنادك ومكرك ! ان لم تخبريني الحقيقة فسأرميك بالرصاص ! اتعرفين ذلك؟»

ـ أجل ، أعرفه ، وأنا على استعداد له .

وانخفت صوتها أكثر فأكثر ، وتلاشت قواها بأسرها .

ـ آها !..

وقبل أن يستطيع ذلك الخليع النحيل الشفتين أن يزيد حرفا جديدا دلف الى الغرفة من باب جانبي رجل مهزول آخر يرتدي بزة غربية. لوّح بيده الى تاو ـ شينغ على سبيل التحية ، وضيّق فرجة عينيه ،

وقال وهو يضحك ضحكة باردة : « حسنا ، يا آنسة لين ، أتذكرينني؟».
ــ أنت ، أيها الشيطان !

تراجعت تاو ــ شينغ عدة خطوات ، وقد اشمأزت نفسها من رؤية هو مينغ ــ آن . نفضت عنها اعياءها ، وجعل قلبها يخفق بشـدة . وامتلأت غضبا ، وكراهية ، وخوفا من اهاناته . وسيطرت عليها رعشة لم تستطع لها صداً .

ــ لم يخطر لك اننا سنلتقي من جديد ، اليس كذلك ؟

وقف هو مينغ ــ آن قبالتها ، وراح يلتهمها بعينين مفترستين ، وكشَّر عن أسنانه في ابتسامة وقحة. وكانت أنفاسه تعبق برائحة البراندي.

ــ كما يقول المثل ، فالقرد لايستطيع أن يثب عن يد بوذا . ماذا كنت تفعلين حتى الآن ، أيتها الشيطانة الشيوعية الصغيرة ؟ أفلم يحن الوقت بعد كيما تنحنين أمام مبادىء شعبنا الثلاثة العظيمة ؟(١)

صاحت تاو ــ شينغ ، وهي تدفع عنها ذلك الهزيل السكّير : «أبتعد عني ، يارائحة الدم . لاتقترب مني ! »

ضرب الرجل المهزول طويلا ، وبشدة ، على دكته بحيث طار قدح الشاي عنها وتحطّم على الارض . وجال في خاطر هو مينغ ــ آن ان من غير اللائق به أن يثور في وجود الحارسـين وزميله من مركـز قيادة الكيومنتانغ المحلي . فرمق تاو ــ شينغ في صمت طوال لحظات وقد نفخ صدره ورفع رأسه ، وابتسامة ساخرة تلعب على صفحة وجهه قبل أن يعلن قائلا : « يا آنسة لين تاو ــ شينغ ! أرجو أن تخبريني كم رأسـاً تحملين يمكن أن تخسريها ؟ ماهي الفائدة التي قدمها لك الحزب الشيوعي بحيث تبقين متشبثة بولائك له وترفضين الاعلان عن ندامتك ؟ أريـد أن انقذك ــ وهذه كانت رغبتي دائما ــ ولكنها المرة الثانية التي تقفين فيها بين يديَّ . ما لم . . . »

وهسّ التهديد من بين أسنانه المنقبضة : « مالم تعلني ندامتكــ و ــ تعترفي بجرائمك ، فأنت ــ ستندمين على ذلك ! حتى أن روح كارل ماركس نفسها لن تقوى على انقاذك! » .

---

(١) المبادىء الثلاثة التي اعتنقها صن يات ــ صن دون أن يمارسها الكيومنتانغ على الاطلاق : مبدأ الوطنية ، ومبدأ حقوق الشعب ، ومبدا اسباب معيشة الشعب .

واغتنم الرجل النحيل الجالس وراء الدكة الفرصة للتدخل قائلا: « بين أيدينا تقرير كامل عن نشاطاتك ، في تينغهسيين وكل مكان آخر. عجلي الآن ، اعترفي بجميع صلاتك بالحزب . واخبرينا عن اسم أحد الشيوعيين الآخرين ، وسوف نطلق سراحك على الفور » .

ارسلت هذه الجملة قشعريرة أخرى في جسد تاو ـ شينغ . « تينغهسيين ؟ كيف تراهم اكتشفوا ماذا فعلت في تينغهسيين ؟ » أحرقها الغضب ، فما لبثت أن وجهت ، على غير انتظار ، صفعة رنانة الى وجنة هو مينغ ـ آن النحيلة ، وهي تصيح : « هيا اعدمني ! أنا على استعداد! »

طاخ ! طاخ ! طاخ ! صفعت يد هو السمجة وجهها الشاحب. عصف قائلا ، وهو يمسح وجنته : « كيف تجرؤين ! العين بالعين والسن بالسن ـ هذا ماتبشرون به على الدوام انتم الحمر . لسوف أنزل بك ماتستحقين من عقاب ! انتما هناك ، خذاها من هنا ! » . وأطلق نظرة نارية الى الحارسين الواقفين عند الباب ، واضاف ملوّحا بذراعه : « عذباها ـ لا توفراها ! » .

وجدت تاو ـ شينغ نفسها ، كما لو في كابوس ، تُجَرّ الى غرفة فسيحة كئيبة ، تناثرت على جدرانها وأرضها أدوات تعذيب لم يسبق لها أن شاهدت مثلها من قبل أبدا . وكان هنالك رجلان شرسان طويلان قويا العضلات يرتديان السواد يراقبانها بعيون مثل عيون الصقور ، على أهبة الاستعداد للوقوف حائلا دون أية محاولة للهرب . . وقفت هنالك ، ممزقة ، منهكة الاطراف ، غير شاعرة ان الوقت تأخر كثيرا . هذه هي الساعة من الليل التي تنام فيها الامهات نوما هانئا واولادهن على أذرعهن ويهمس فيها العشاق الشبان في آذان بعضهم بعضا برقة وعذوبة . أما هي ؟ . . تساءلت ما اذا كانت هسياو ـ ين لجأت الى النوم أم لا . واين هم جميع رفاقها الثوريين الرائعين ـ لو شيا ـ شوان ، وشيانغ هوا ، وهسو نينغ ، ولو تا ـ فانغ ، وهسو هيو ، وهسو مان ـ تون ، والعمة المخلصة لي ؟ ان أحدا منهم ، أو أحدا من تلاميذها الأعزاء ، لايعرف طاعون العذاب الذي تتعرض له .

انتصبت هنالك صامتة ، وقد أغلقت عينيها . قرقع الجلادان الضخمان بأدوات التعذيب بين أيديهما ، متجاهلين استسلامها للخوف ،

وجأرا بوحشيـــة : « ينبغي ان يكون المرء بطلا حقيقيا كيما يتحمل ادواتنا او جرعة من الفلفل ! » .

ــ وليس هذا أسوأ مافي الامر ! في مقدورنا ان نجعل لحمها يئـــز وينز قطرات بيضاء من الشحم بقضباننا الحديدية المحمرّة ! ان كان الخنزير يشوى ، فان اللحم البشري يمكن ان يُشوى أيضا ... » .

ــ أنت قلتَ . ان كانت هذه الفتاة تعرف صالحها ، فلتعترف طالما ان هنالك فرصة تهرب بها من الاذى . « فالبطل الحقيقـي لايبحث عن المصاعب » .

وقفت تاو ــ شينغ هنالك بعينين مغلقتين ، صامتة وكأنها مستغرقة في النوم . ماذا يمكنها ان تقول ؟ عضت على شفتيها ، وطفقت تفكر : « اثبتي الآونة ! اطحني أسنانك واحتملي العذاب مثل شيوعيةمخلصة!» .

ــ وهكذا فأنت تريدين القتال ؟

نفد صبر الجلادين ، فشرعا يعذبانها ...

تحملت أقسى أنواع التعذيب في جلد صابر . شُدّت قضبــان حديدية على ظهر ركبتيها ، واخذت محتويات غلاية كاملة من ماء الفلفل تُصبُّ في انفها قطرة بعد الاخرى ... وراحت هي تعضّ شفتيها الى ان نفر الدم منهما . فقدت الوعي ثم استردته لتفقده من جديد ، لكنها لم تطلق من فمها حرفا واحدا . وحين الصقوا قضيبا حديديا ملتهبــا على فخذها أطلقت صرخة واحدة وفقدت الوعي نهائيا .

كان الفجر ينبلج . راح ضوء الصباح الشاحب الضئيل يتسلّل عبر النافذة العالية في غرفة التعذيب الباردة . مسح الجلادانالضخمان قطرات العرق عن وجهيهما وهما ينظران الى تاو ــ شينغ ، المتكوّمة على الارض فاقدة الوعي ، ووجهها الحي وجسدها متخثران دما أسود .

جأر أحد السجانين قائلا : « شجاعة هي هذه الفتاة ! ماذا في الحزب الشيوعي مما يجعل الرجال والنساء العاديين يتصرفون على هذا الغرار ؟ انهم مستعدون للتضحية بأرواحهم في سبيل الشيوعية . فما هو الشيء الاكثر قيمة من الحياة ؟ أريد أن أعرف ! » .

عطس السجّان الآخر عطسة صارخة . وبعدما مســح بيده الدماء المتبعثرة عن الدكة ، أشار بيده على حين فجأة اشارة ذات مغزى عند

عنقه تدل على ضربه ، وجعر بصوت أجش: « ليس هنالك مانستطيع أن نفعل سوى هذا ! ينبغي أن نطيع اوامر الجنراليسمو شيانغ : أقتلوا ألف انسان بريء ولا تفلتوا شيوعيا واحدا . اجل ، اقتلوا ، اقتلوا ، اقتلوهم جميعا ! ابيدوهم جميعا – أولئك الحمر الملاعين! »

انتصب واقفا وقفة استعداد عند ذكر الجنراليسمو ، ووجه ضربة قوية الى تاو – شينغ ، وانفجر في ضحكة مجنونة لاحدود لها .

* * *

١٩

مرت ثلاثة أيام .

استردت تاو ـ شينغ وعيها وألم رهيب يعتصرها في فكيه . وفيما هي تفتح عينيها قليلا وتئن متأوهة ومضت في ذهنها المشوش مجموعة من مشاهد ضبابية غريبة .

ـ أما برحت على قيد الحياة ؟ . .

طرحت على نفسها هذا السؤال ، وغابت عن الوعي .

حينما استردت وعيها من جديد حاولت جاهدة أن تتذكر ماحدث لها . ألقت نظرة حواليها فتأكدت أنها اعتقلت وعذبت وهـي الآن في زنزانة السجن .

في هذه البرهة صافح سمعها صوت حنون ناعم : « لقد استرددت وعيك أخيرا ! كنت قلقة جدا عليك ! » .

ادارت تاو ـ شينغ راسها في بطء ناحية الصوت . فأتاح لهـا الضوء الخافت المنسرب من خلال قضبان الزنزانة العفنة رؤيـة امرأة رقيقة البنية شاحبة الطلعة مستلقية على سرير من الالواح الخشبية الى جانبهـا .

جمّعت ماتبقى لها من قوة ، وسألت في صوت لاتكاد تلتقطه الأذن: « أما زلت على قيد الحياة ؟ انت . . . » .

استدارت المرأة الاخرى ناحية النافذة ، ونادت بدلا من ان تردّ على سؤالها : « أيتها السجانة ! ايتها السجانة ! تعالي الى هنـا ! ان الجريحة الملقاة في زنزانتنا عادت الى رشدها ! » ثم استدارت مرة اخرى ناحية تاو ـ شينغ وهمست مشجعة : « اريدهم أن يأتوا ويعاينـوا جروحك . ينبغي ان نبذل جهدنا كيما نبقى على قيد الحياة » .

كانت عينا تاو ـ شينغ مثبتتين على ذلك الوجه الشاحب المعبّر

عن شعور دافىء . وقد رات الآونة ان زميلتها امراة جميلة في أواخر العشرين من عمرها ، وجهها شاحب لكنه صقيل مثل المرمر ، وعينيها الكبيرتين السوداوين تتلألئان مثل جوهرتين في زنزانة مظلمة .

ـ كيف ، انها تشبه إلاهة اغريقية ! ..

ومضت هذه الفكرة المتناقضة في ذهن تاو ـ شينغ . همست تخاطبها بعد جهد عظيم ، وقد غلبها الضعف والألم فمنعاها عن الحركة: « شكرا لك ! لكن لاتطلبي طبيبا ، فقد انتهيت .... » .

في تلك اللحظة فتحت السجانة الباب ودخلت ، يتبعها طبيب طويل الشعر اشبه بالمساجين . وفيما هو يرفع ثياب تاو ـ شينغ الممزقة الملطخة بالدماء أصابها الاغماء من جديد من جرّاء آلامها المبرحة.

عندما استعادت وعيها كانت زميلتها السجينة لاتبرح تراقبها في قلق وحنان من حيث جلست على سريرها ، وطبيب السجن منتصبا أمامها وحقيبته الطبية الصغيرة في يده . تفحص تاو ـ شينغ وخاطب المرأة الاخرى قائلا : « ينبغي الا يغمى عليها مرة أخرى . لاتقلقي. ان لها بنية ممتازة .. » ثم ابتسم في وجه تاو ـ شينغ ، واضاف :«أمروني ان ابريء جروحك ، وسأفعل مافي وسعي . ليس هناك عظام مكسورة. وينبغي أن تتحسن صحتك سريعا ».

بعيد عدة ساعات ، حينما تناولت تاو ـ شينغ قليلا من جريش الارز ، دبّت الحياة في جسدها على الرغم من الألم المحرق الرهيب الذي يستحوذ عليها . لم تصرخ ، بل صبرت عليه متجالدة ، وعيناهـا تتطلعان الى ملامح السجينة الاخرى الجميلة ، بحيث لم تستطع أن تمنع نفسها عن التساؤل : « من تراها تكون ؟ شيوعية ؟ »

ـ حسنا ، لقد مرت أسوأ فترة الآن ! مزيد آخر من الطعام سينعشك ويعيد اليك صحتك . أنا واثقة من ذلك .

وابتسمت لها المرأة الشابة الاخرى التي عرفت ان اسمها شينغ شين : « عندما تشعرين انك صرت أحسن ينبغي أن تروي لي كيف اعتقلوك وماذا يجري في الخارج من احداث . الحياة كئيبة هنا عندما تجهلين ماذا يحدث هنالك . لكنني لن أطلب اليك أن تحدثيني الآن . ذلك يكون طيشا وتهورا لا حدّ لهما . سننتظر يومين او ثلاثة ريثما تستعيدين صحتك ».

كانت هنالك طالبة تدعى يو شو ـ هسيو في الزنزانة ذاتها تعرضت لعذاب مرير ، وكانت شينغ شين تخاطبها في اغلب الاوقات مثلما تخاطب تاو ـ شينغ . كانت تبدو عليلة ، فهي تضطجع على سريرها الخشبي البارد عاجزة عن الحراك، تبدي بهما اهتماما بكلماتها ونظراتها. وكان صوتها الناعم يتردد بين آن وآن : « أرجوك أن تقتربي مني ، أيتها السجانة ! فهما تريدان قليلا من مياه الشرب » .

ـ تعالي الى هنا ، أيتها السجانة ، ارجوك ! تعالي الى هنا !

وتقول حالما تدلف السجانة ليو الى الزنزانة : « أيتها السجانة ! ألن تحضري لهذه الفتاة شيئا تأكله بعدذلك العذاب المرير الذي تعرضت له؟»

واذا كان الطعام ليس أكثر من كعكة عفنة وحساء فاسد فيه بعض أوراق الخضار الصفراء السابحة على سطحه فهي تحتج مقطبة الوجه: « كيف تستطيع أن تبلعه ؟ أحضري لها شيئا افضل ـ فنحن لن ننساك في المستقبل ! »

وغريب أن نقول ان السجانة النحيلة بدت على اهبة الاستعداد للاعتذار وتقديم عديد من الخدمات التي يطلبنها منها في طواعية مطلقة ، رغم المخاطرة وامكانية اكتشاف ذلك من قبل السجانات والحراس الآخرين.

كان للطالبة التي لايتجاوز عمرها الخامسة أو السادسة عشرة وجه جميل بيضوي الشكل ذكي الملامح . ولم تكن جروحها خطيرة بحيث تمنعها عن مغادرة فراشها والتجول في الزنزانة . لكنها تظل طوال النهار مستلقية دون ان تنطق بحرف واحد ، تبكي في ذعر ، وغالبا ماتسمعها تاو ـ شينغ في الليل تصرخ في نومها : « أماه ! أماه ! لكم أنا خائفة !..»

لم تكن قد افترقت عن أمها من قبل ، فتروح صرخاتها ترن في الظلمة الكثيفة .

كانت شينغ شين لاتبرح صاحية ، فاقتربت من الفتاة وأمسكت لها يدها وهمهمت : « أتتألمين ؟.. لاشيء خطير ؟.. فيم تبكين اذن ؟ اعتقد أن شوقك الى البيت يعذبك ، أليس كذلك ؟ حسنا ، لا تستسلمي مرة اخرى ، ياعزيزتي . فلا فائدة من ذلك ! »

وصمتت تأخذ لنفسها نفسا عميقا،واسترسلت تقول عندما انقطعت شو ـ هسيو عن النشيج : « يوم كنت في الخامسة عشرة بعد ، اعتقلوني

في شنغهاي . ارتعبت وبكيت نهارا وليلا . لكنني كلما بكيت كلما كـان الرجعيون يضربونني ويعذبونني بمزيد من الوحشية . واخيرا اعتزمت الا ابكي على الاطلاق . حذوت حذو النساء اللواتـي يكبرنني سنا في الزنزانة ، واللواتي كـن يصمدن للعذابات ويتحدثن عنها.أولئك الوحوش لايضربون غير الضعفاء . وماذا يخطر لك في بال ؟ ما ان ابديت عـدم خوفي منهم حتى امتنعوا عن ضربي ... »

وضحكت ضحكة لطيفة شاركتها فيها تاو ــ شينغ وشو ــ هسيو.

احتجت الفتاة في صوت متلعثم : « لكن ، يا شينغ شين ، ياعزيزتي، انني ابكي بسبب من الظلم في ذلك » .

فبذلت شينغ شين جهدا كبيرا في سبيل تعزيتها ، على الرغم من انبهار انفاسها وشعورها بالضعف . قالت في رقة وحنان : « شو ــ هسيو! اتحسبين انك الفتاة الوحيدة التي يعاملونها بصورة ظالمة ؟ اوه ، كلا ! ليس هنالك مكان للناس الشرفاء في عالم الطغاة . في هذا المجتمع ينجح الخبثاء الشريرون،في حين يتعرض الناس المحتشمون للتجربة والاضطهاد. هذه هي العادة هذه الايام ــ العادة المألوفة ! » .

هدأت الفتاة وكفّت عن البكاء بعد ان شجعها هذا الكلام وفتـح عينيها لترى الامور بشكلها الصحيح .

شعرت تاو ــ شينغ بانجذاب فوري الى شينغ شين ، فأصغـت اليها في دهشة مفعمة سرورا .

كان من الطبيعي ان المراة الاكبر سنا ، التي كانت في السجن منذ مدة طويلة ، تعرف كيف تصرّف الامور . والامر الذي ادهش تاو ــ شينغ وحيّرها هو حماسة السجانة ليو في اطاعة اوامرها . وهذا ماجعلهـا تتساءل : من تراها شينغ شين تكون ؟

سألت شينغ شين في رقة في الليلة التالية بعـدما قام الحـراس بجولتهم التفتيشية : « ماذا تفعلين ، وفيم اعتقلوك ؟» .

أجابت تاو ــ شينغ في صوت واهن : « لست اعرف فيم اعتقلوني. انا طالبة اضطررت أن انقطع عن دراستي . وانا أؤمن بالشيوعية والحزب الشيوعي ... لربما كان هذا سببا في اعتقالي . أنا لست عضـوة في الحزب ، ولكنني انوي وهب نفسي للحزب وقضيته الانسانية . انـا

أؤمن أن الوقت قد أزف ، وكل ما أفكر فيه الآن هو كيف اهيىء نفسي للحظة الاخيـرة » .

أصغت شينغ شين اليها في انتباه ، وزاد وجهها وقارا . مـرّت فترة من الوقت قبل ان ترفع راسها وتنظر الى تاو ـ شينغ في عينيهـا مباشرة عبر ضوء المصباح العاتم .

ـ لاينبغي أن يخطر في بالك ان اعتقالك يعني نهاية كل شيء ، أو ان الموت سيتلوه من دون ريب . ذلك غير صحيح ! حيثما يجدالشيوعي نفسـه ، حتى ولو في السجن ، فينبغي عليه ، وفي استطاعته ، ان يتابـع العمل في سبيل الثورة . يجب أن نعمل حتى اللحظة الاخيرة ، حتى آخر نفس فينا . نحن نريد ان نحيا كيما نرى صيننا شيوعية ، وان نستقبل ذلك اليوم بالمسرات . . . »

ونقلت بصرها مـن تاو ـ شينغ الى شو ـ هسـيو وعيناها السوداوان تشعان سعادة وهي توالي توقعاتها البراقة عـن الشـيوعية ومستقبل الصين المشرق عندما تغدو بلادا حرة مستقلة زاهرة تتساوى مع الامم الاخرى .

أصغت تاو ـ شينغ ونظرت اليها في دهشة ، وقد عقدت لسانهـا تانك العينان الفاتنتان الكبيرتان المشعتان ذكاء . تأكد لديها أن شينغ شين ثوروية ، فتحركت عواطفها مـن جراء ذلك التشـجيع والنقد المخلصين . وامتلأ قلبها دفئاً وسعادة وكأنها طارت الى الحرية . ما أعظم حظها بحصولها على ثوروية وفيـة متحمسة الى جانبها : ان الرفيقة التي طال شوقها اليها وبحثها عنها قد زوّدها العدو بها حينما لم تكـن تتوقع ذلك على الاطلاق .

بعيد ثلاثة ايام ، بعد وقعة طعام العشاء وجولة التفتيش الاولى ، بدأت شينغ شين تحدث الفتاتين الاخريين مجددا . كانت تحب ان‌تتكلم وتتكلم كمن لايستطيع الامتناع عن‌الكلام قبل ان‌تقاسمهما جميع‌معلوماتهما .

ـ فلأخبركما شيئا عن حياة السجن ، ياعزيزتيّ . حدث هذا قبيل اربع سنوات في سجن سووشو . . .

قالت تاو ـ شينغ : « بالمناسبة ، أين نحن الآن ؟ هذا شيء لاأزال أجهلـه » . .

ـ هذا قسم من سجن سري يقع تحت مركز قيادة الشرطة العسكرية . أن فرقة الشرطة العسكرية الثالثة ومركز قيادة الكيومنتانغ المحلي غالبا مايتخاصمان ، ولكنهما أحيانا يتعاونان .

وتابعت شينغ شين تقول بعدما أجابت تاو ـ شينغ عن سؤالها: « حينما كنت في سجن سوو شو أمضيت دورة من ثلاث سنوات في دراسة الماركسية ـ اللينينية وتعلمت أمورا كثيرة لاحصر لها ».

استفسرت شو ـ هسيو في انشداه : « كيف أمضيت دورة مثل هذه وانت في أعماق السجن ؟ » .

أجابت شينغ شين بعد شيء من جهد : « تلك كانت معجزة » .

انغلقت عيناها ، وبدا أن تعبا مضنيا طغى عليها : « في كل صباح ، حينما تصفر الصافرة البخارية لأحد المعامل القريبة ، ينهض حوالي الفي معتقل سياسي ـ نساء ورجالا ـ ان لم نشر الى عدد من المؤيدين المحكومين بتهم اخرى . وبعد الانتهاء من التمرينات الرياضية ، وهي التحرك في ذات المكان ، تقتعد أسرتنا للدراسة . كان عدد منا محكوما بالاعدام ، وعدد آخر بالسجن المؤبد ، وآخرون بالسجن خمسة عشر أو عشرة او ثمانية اعوام . لكن احدا منا لم يكن راغبا في اضاعة الوقت هدرا . كنا ننغمس ، جميعا ، في الدراسة عن وعي ورغبة . بعضنا درس اللغة الانكليزية ، وبعضنا الآخر اللغة الروسية ، او اليابانية ، او الالمانية. ومما لاريبة فيه ان النظرية السياسية كانت دورة لم يتغيب عنها سجين واحد . وتعلمت انا الالمانية ومن ثم علمتها للآخرين » .

ـ يا للغرابة ! ماذا كانت فائدة تعلم لغة اجنبية من قبل انسان محكوم بالموت ؟

طرحت شو ـ هسيو هذا السؤال وقد فتحت عينيها بصورة متشككة . كانت احوالها قد تحسنت كثيرا بعد معرفتها برفيقتيها السجينتين .

رفعت شينغ شين رأسها . فظهر وجهها ، تحت ضوء المصباح العاتم ، نقيا جميلا على الرغم من شحوبه ، فذكّر تاو ـ شينغ بتمثال من المرمر ، وجعلها تتساءل : « آه ، لو كان في مقدوري أن انحت مثل هذا الجمال ! »

كادت ان تنطق ببعض الكلمات حينما أومأت شينغ شين لها أن تلزم الصمت ، في حين راحت أصداء خطوات الحارس الثقيلة ترن على طول الممر الخارجي .

تابعت المرأة الاكبر سنا حينما خفتت ضجة وقع الاقدام : « اذن، فأنت تظنين انهم اناس غريبون ، ياشو هسيو ؟ انهم ليسوا اناسا غريبين على الاطلاق . هم ليسوا اناسا عاديين ، كما ترين ، بل هم شيوعيون أو مؤمنون بالشيوعية . كل من يؤمن بالشيوعية ويريد ان يناضل في سبيل الحق وفي سبيل سعادة الغالبية العظمى من البشرية لايتردد في وهب حياته للقضية . وتصبح حياته الفردية عندئذ عظيمة مثلها مثل حياة المئات ، أو حتى حياة البشرية . أفلا تفهمين ، ياعزيزتي ، ان ذلك يعتبر خلوداً حقيقيا ؟ لقد رايت أكثر من شيوعي قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه يقضي آخر لحظاته في السجن يعمل حتى النهاية في فرح وابتهاج — لان مثل هؤلاء الناس خالدون لايموتون ! »

أصغت تاو — شينغ في لهفة ، وهي تعبء كل كلمة على حدة ، وتشعر بالدماء تتدفق في أوردتها الى أن تخدرت اهتياجا . لم يخطر لها انها ستلتقي ببولشفية وفية في مكان مثل هذا المكان ، ثوروية متمرسة تذكرها بلو شيا — شوان ، وشيانغ هوا ، وأبطال آخرين تحلم بهم . وعلى الرغم من ان شينغ شين كانت مريضة تهدها الاوجاع بعد عذابات وحشية ، فقد بقيت هاشة جريئة ، غيورة على تكريس جميع ماتبقى لها من قوى لمساعدة وارشاد تاو — شينغ وشو — هسيو .

— خطأ أن تفكري في الموت قبل ان تأخذي نصيبك في النضال!

تذكرت تاو — شينغ كلمات لو شيا — شوان التي قالها منذ زمن بعيد . انها حقا لم تكف عن اشتياقها الساذج للاستشهاد ، ولكنها تأكدت الآن أن ذلك ليس أكثر من دلالة على ضعف وبيل يصدر عن انسانة تنقصها شجاعة القتال حتى النهاية ، فتروح تحلم بالموت كبطلة. هذا ليس أكثر من جبن !.. التفتت تحدق في شينغ شين ، وقد استبد بها خجل لايوصف .

كانت شو — هسيو قد تغلبت الآونة على حنينها البيتي وخوفها الرهيب من المصاعب ، وشرعت تجنح الى الهدوء والرزانة . وبين وقت



وآخر ، بعدما تختلس النظر من الباب لتتأكد ان أحدا من الحراس لايقف قريبا ، تنسرق من مكانها لتجلس على حافة سرير تاو ـ شينغ وتصغي، مفتوحة العينين ، الى أقاصيص شينغ شين الاسطورية تقريبا عن النضالات في السجن .

في الليلة الرابعة روت لهما شينغ شين جزءا آخر من حديثها .

ابتسمت ، وقد اغلقت عينيها من جديد : « وقد بدأنا نوزع عدة صحف ومجلات في السجن ! خلال اقامتي هناك أصدرنا نشرتين أو ثلاث نشرات بالاضافة الى نشرات اخبارية صغيرة لتبادل المعلومات . كان بعضنا يكتب موضوعا ، وبعضنا الآخر يقوم بعمل التحرير ، وبعض آخر يقوم بأعمال النسخ . وكنت واحدة من الناسخات . لم أكن أستطيع العمل خلال النهار ، أما في الليل فقد كانت الاخريات يتناوبن اعمال الحراسة بينما تحمل بعضهن عددا من اللحف فوق رأسي . وتحت هذه « الخيمة » ، على ضوء مصباح صغير من زيت الفاصولياء او ضوء نور كشاف ، كنت اضطجع على الارض وانسخ المخطوطات بالحبر ... »

قالت السجانة ليو صارمة الوجه في لطف من خلال ثقب الباب : « اسمع كلاما كثيرا في هذه الزنزانة ! يحسن بكن أن تلذن بالصمت . ان سمعكن الحراس فلسوف تقعن في مصاعب كثيرة !» .

فردت شينغ شين في لطف : « انت امرأة طيبة تودين مساعدتنا على الدوام . اسمحي لنا أن نتحدث قليلا . أنت تعرفين الزمن العصيب الذي نقضيه نحن السجينات هنا . وجميعنا يقتلنا الحنين الى البيت ».

ولما لم تعطي السجانة جوابا فقد روت شينغ شين للفتاتين ، وهي تبتسم : « لقد انحدرت من أسرة فقيرة وهي تعطف علينا ... ولكنني لا استطيع الاستمرار في سرد قصتي على أية حال . فأنا متعبة بعد ذلك التعذيب ، وقلبي ينبض بصورة سيئة هذه الليلة ... » توقفت عن الكلام لتأخذ نفسا ، وبدا أنها أغفت . لاذت الفتاتان بالصمت كيلا تزعجاها. وبعد استراحة قصيرة مدت شينغ شين يدها للامساك بيد شو ـ هسيو من جديد ، وقالت في لطف : « انني أريد ان اعيش بقدر ماتريدين أنت ذلك ، ياعزيزتي . ان لي أما وأبا ، وشقيقا وشقيقة ، بالاضافة الى عدد كبير من الاصدقاء والرفاق ... وانا احبهم جميعا . نكم اتمنى لو اطير

من هذا السجن العفن لامتع نفسي معهم في الهواء الطلق واشعة الشمس البراقة ! » .

سألت شو ـ هسيو على استحياء : « هل أنت متزوجة ؟ لابد أن يكون زوجك رجلا على جانب كبير من الوسامة » .

أضاء وجه شينغ شين ، وقالت : « زوجي ؟ بلى ، انت على حق . انه طويل العود ، وسيم الملامح ، موسيقي ، محب للفنون ، وكاتب لابأس بمهارته . فيّاض الحيوية على الدوام . درسنا معا في الاتحاد السوفييتي . وكنا نحب بعضنا كثيرا » .

قاطعتها تاو ـ شينغ : « وأين هو الآن ؟ ان اتيحت لي الفرصة فانا احب أن التقي به » .

ـ أين هو الآن ؟ أوه ، انه بعيد جدا . مضت اربع سنوات منذ رأيته آخر مرة . لكن ، فلنكف عن الحديث عنه الآن ، ياعزيزتي . أريد ان اخبركما عن رجل آخر التقيته في السجن . أتحبان ذلك ؟ أنا عاجزة عن الاستسلام للنوم الآن ، والحراس يهملون واجبهم في القيام بجولاتهم التفتيشية في مثل هذه الساعة من الليل ، ولذلك يسعدني كثيرا ان احدثكما اذا لم تكونا ناعستين .

أفرغت كامل حيويتها في قصتها ، متحدثة الى صديقتيها السجينتين الفتيتين في ساعة متأخرة من الليل ، متوقفة بين حين وحين تلتقط أنفاسها أو تأخذ قسطا من راحة . وكانت الكلمات تتدفق متوالية بعضها فوق بعض من جراء حماستها .

ـ كان لي وي شابا مقتدرا ذكيا راغبا في التغلب على الصعوبات لايعرف التعب في دروسه . انضم الى الحزب الشيوعي قبل الثورة الكبرى في ١٩٢٤ ـ ١٩٢٧ . ارسله الحزب الى الاتحاد السوفييتي للدراسة . وهناك التقى الفتاة التي اتخذها زوجا له ـ لقد كانا رفيقين . وفي عام ١٩٢٨ ، في السنة التي أعقبت فشل الثورة الكبرى ، رجعا معا الى الصين . وباشر عمله الحزبي السري في شنغهاي في حين غدت هي عاملة في معمل قطن شنغهاي . وكان مركز قيادة الحزب ، حيث يعيش لي وي ، معتبرا مسكنا لرجل من الاثرياء . وكان يبعث على التسلية كلما أرادت امرأته ان تراه . كانت ترتدي دائما في العمل قميصا وسروالا ، ولكنه

ينبغي عليها أن ترتدي ثوبا عصريا قبل أن تتمكن من زيارة ذلك البيت. ولما لم يكن لديها وقت في أغلب الاحيان تذهب خلاله الى مكان آخر تبدل فيه ثيابها ، فقد كانت تحمل صرة صغيرة تحت ذراعها لابدال ثيابها بسرعة في احد الازقة الضيقة قرب مركز القيادة » .

ــ ياللروعة ! لكم يثير الارتباك مرور شخص ما في هذه الاثناء ــ خاصة اذا كان رجلا !

كانت دهشة شو ــ هسيو واهتمامها بما تسمع يبعث على المجون .

واحتجت تاو ــ شينغ : « اوه ، يا شو ــ هسيو ، لاتقاطعيها ! انا واثقة انها احبت زوجها كثيرا بحيث كانت تفعل اي شيء لرؤيته ».

واستحثت شينغ شين قائلة : « اخبرينا ماذا حدث لهما ! ».

ابتسمت شينغ شين ، وقالت : « الا صبرا ، ياعزيزتي ! اتركاني افكر ... بلى ، اليكما ماحدث .. في عام ١٩٣٠ تم اعتقالهما واحدا بعد الآخر ، وارسلا الى سجن سووشو . كان العدو ، وقد عرف ان لي وي عضوا حزبيا بارزا له صلات كثيرة ، قد أطال التفكير في القاء القبض عليه. وحاول رجال هذا العدو بمختلف وسائل التهديد والاغراء انتزاع اسراره منه ، ولكنه على الرغم من دهائهم كله ، وعلى الرغم من جميع اساليب التعذيب الوحشية ، بقي قويا صلبا . كان يعرف ان زوجته تقيم في السجن ذاته ، ورغبة منه في عدم توريطها سيطر على مشاعره وادعى انه لايعرفها . ولم يكتف باثارة نضال حرون بنفسه ، بل قاد نضال رفاقه في السجن أيضا . وحينما علم رجال العدو بنشاطاته جنوا غضبا. لجأوا الى مكيدة قذرة فنقلوه الى شنغهاي ، حيث البسوه بدلة غربية انيقة ، واجلسوه في سيارة ، وارغموه على مرافقتهم حيثما كانوا يذهبون لاعتقال أعضاء حزبيين آخرين. كانوا يحاولون جرّه خارج السيارة حينما يصلون الى وجهتهم ، ولكنه كان يستلقي في السيارة ويرفض ان يتزحزح من مكانه . وكانوا يضربونه بوحشية ، ولكنه لم يكن يتحرك ، بل يروح يصيح في الحشد الفضولي الذي يتجمهر حوله قائلا : « انا سجين! لقد البسوني هذه الثياب الغريبة واجلسوني في سيارة فاخرة ، ولكن جسدي بأسره مغطى بجروح مؤلمة ، ولن اخرج من هذه السيارة مهما فعلوا بي. ان عملاء الكيومنتانغ هؤلاء اشبه بالذئاب ! » .

« واضطر رجال الشرطة السرية الخائبون أن يرجعوه الى سووشو. لدى عودته الى السجن خاطب رفاقه قائلا : « لن يتركني العدو أعيش طويلا . سرعان ماسينبغي علي أن أفارقكم الى الابد » . وغلب على الآخرين حزن مرير ، أما هو فاستمر يدرس ويعمل ويقوم بتمريناته الصباحية في سعادة غامرة مثله ابدا. كان يدقق كثيرا حول موضوع النظافة الشخصية، فما ان يعثر على قليل من الماء حتى يغتسل . كان طويلا ووسيما ، له عينان كبيرتان وشعر أسود فاحم . وكان له لسان مُقنع ، وحيثما يذهب فهو يقوم بأعمال الدعاوة ، حتى لقد وقع تحت سلطان تأثيره عدد من حراس السجن . وكان أحيانا يغني في صوت صارخ نقي . وقد جعلت شخصيته الرائعة أولئك السجانين الذين يملكون شيئا من ضمير يكفون عن معاملة المساجين بوحشية .

« أخيرا حلّ اليوم الذي يجب أن يموت فيه . عندما جاء الحراس يقتادونه نفض الغبار عن ثيابه ، وخاطب الرجال في الزنزانة في هدوء كعادته : « ايها الرفاق ، يجب أن أغادركم الآن ! قاتلوا — لاتستسلموا!. نحن نعرف ان الشيوعية ستنتصر في النهاية ». وعندباب الزنزانة صافحهم واحدا واحدا ، وهو يقول : « اتمنى لكم النصر جميعا ! » ومشى بعد ذلك رافع الراس الى ساحة الاعدام ... راح رفاقه يتابعونه بأنظارهم من وراء القضبان في حزن ، وكل واحد منهم يشعر كأن سكينا حادة تنغرز في فؤاده . ثم ارتفع نشيد الاممية صافيا مرتفع الرنة — لكم كان يغني في صوت يحرّك المشاعر ! ثم نادى بأعلى صوته : « عاش الحزب الشيوعي الصيني ! » وغرقت صيحته في بحر من طلقات الرصاص ... وعلى الفور شرع جميع المساجين ، بما فيهم المساجين العاديين وزوجه من دون ريب ، ينشدون نشيد الاممية في انفعال . واطلق اكثرهم لعبراتهم عنانهـا ... »

كان صوت شينغ شين اجش النبرة . مما لاريبة فيه انها كانت تتكلم من خلال عبراتها .

بكت تاو — شينغ وهي تلاطف وجه شينغ شين في الظلمة وتمسح العبرات الهاطلة على خديها : « أوه ، لاتكملي ، يا أختاه ! فأنا أفهم ! ».

واستثير فضول شو — هسيو ، فاستوضحت : « ايتها الاخت

شينغ ، ماذا حل بزوجة لي وي ؟ أفلم ينفطر قلبها عندما مات ؟ » .

فتدخلت تاو ـ شينغ في لطف ، خائفة من اثارة مشاعر شين أكثر: « الزمي الهدوء ، يا شو ـ هسيو ! أفلا تفهمين ؟ » .

احتجت شو ـ هسيو : « ماذا تقصدين ؟ أنا لا افهم ! »

أجابت شينغ شين بو قار بعد فترة من صمت في صوت لاتكاد الاذن تلتقطه : « ألم تفهمي بعد ، ياعزيزتي ؟ ان تاو ـ شينغ اكثر منك خبرة بعد كل شيء ... كان لي وي زوجي ! وقد افترقنا منذ اربع سنوات » .

غرقت الزنزانة في صمت عميق عميق . وبدا أن السجينات الثلاث استسلمن للنوم ، لكن سرعان ما انقطع حبل الصمت على حين فجأة بعاصفة من البكاء ـ كانت شو ـ هسيو تنشج بعنف مثلما كانت تاو ـ شينغ تنشج حينما ألقوا بها في الزنزانة اول مرة . لكنها لم تكن تبكي ، هذه المرة ، من شوقها الى امها .

تلعثمت من خلال نشيجها : « أيتها الاخت العزيزة شينغ ! لكم انا ممتنة لك ! لقد علمتيني ماهية الحياة حقا، ومامعنى الصدق والحقيقة! »

واندفع حارس يحمل بندقية على كتفه . انه واحد من أشرس السجانين . ضرب على الباب الحديدي بعقب بندقيته ، وصب عاصفة من الشتائم : « أيتها العاهرات ! هل تردن اثارة ثورة ؟ ماذا تقصدن من هذه العربدة في مثل هذه الساعة من الليل ؟ هل ترغبن في الموت ؟ »

وحينما خفتت حدة صوته اخذت تاو ـ شينغ يد شو ـ هسيو في يدها وقالت : « أتفهمين ، يا شو ـ هسيو ؟ نحن غير سجينتين . نحن نأخذ دروسا في جامعة الماركسية ـ اللينينية ! »

٢٠

لم يغتمض لتاو ـ شينغ جفن في تلك الليلة بسبب من آلامها المبرحة. تهيجت الحروق المتقيحة في ساقيها ، وأوجعتها كل عظمة من عظامها . استلقت تروّي النظر في القصة التي روتها لها شينغ شين ، وفي الكلمات المشجعة التي سردتها على مسمعيها . ان لي وي ، البلشفية الصادقة، ناضلت بعناد حتى النهاية . العدو لم يستجوبها بعد ، ولكنها تأكدت من انه ينبغي عليها ان تستعد لقتاله في المحكمة . لم تعد تفكر في الموت . « يجب أن نناضل في سبيل العيش ، في سبيل أن نعيش الى ان تتحقق الشيوعية في الصين ». كانت قصة شينغ شين الهاما قويا بالنسبة اليها، قصة أفرحتها وأحزنتها في وقت واحد .

ـ ألم تنامي بعد ، يا تاو ـ شينغ ؟

الساعة تجاوزت منتصف الليل ، وضوء القمر ينسرق من خلال النافذة الصغيرة في الزنزانة ، وشينغ شين تدرك من صدى تنفسات تاو ـ شينغ غير المنتظمة انها لم تنم بعد .

ـ كنت أتساءل ماذا أجيب اذا راح الرجعيون يستجوبونني من جديد . أسديني نصيحتك ، يا أختاه ! فأنا قليلة الخبرة في هذا المضمار.

ـ هل يملكون دليلا ضدك ؟ هل لك اية علاقة خاصة بأعضاء الحزب؟ ان أنت وثقت بي فلا تخفي عليّ شيئا .

أجابت تاو ـ شينغ في صراحة مطلقة وقد وثقت ثقة عمياء بهذه الثورية العريقة : «كلا ، ليست لي اية علاقات مع اعضاء الحزب ، وهم لايملكون أي دليل ضدي » .

ـ هذا رائع يا تاو ـ شينغ . سأبذل مافي وسعي بالنسبة اليك طالما أنا على قيد الحياة . يبدو أنهم لايعيرونك و شو ـ هسيو كثير اهتمام ، ولا بدّ ان يطلقوا سراحكما في يوم من الايام . ولهذا يجب ان

تصرّي على انك لست عضوة في الحزب ، وانك لست اكثر من فتاة عادية لاعمل لها . اذا عذبوك اطحني أسنانك وتجلّدي ... ولكنني لا اعتقد انهم سيعذبونك مرة أخرى ، اذا اخذنا بعين الإعتبار الاذى الذي الحقوه بك آخر مرة . مايبعث على الاهتمام هو ألا نستسلم للعدو ــ يجب ان نقاتل حتى آخر لحظات النهاية . ويجب أن تكوني واثقة تماما ان النصر النهائي سيكون من نصيبنا . أنت توّاقة الى الانضمام للحزب ، أليس كذلك ؟ ان فعلت ما أقول لك تصيرين شيوعية ممتازة ومقاتلة في الصفوف الاولى في سبيل السلام وسعادة البشرية » .

نطقت شينغ شين بهذه الكلمات كلها من دون أي توقف ،غير أن نوبة من السعال زلزلت كيانها بسبب من ضعفها فمنعتها عن الاستطراد.

قالت تاو ــ شينغ في صوت مرتعد ، وهي تمسك باليد النحيلة بين يديها : « لن أنسى ابدا هذه الليلة وتشجيعك ايانا . لسوف أتخذك قدوة ، وسأتعلم كيف أكون شيوعية واقاتل حتى آخر نفس في حياتي . بلى ، سوف اعمل طاقة جهدي في سبيل ذلك اليوم المجيد حينما أغدو عضوة في الحزب ، واذا استشهدت فأنا اريد أن يقبلني الحزب بعد موتي ... »

شدت شينغ شين على يديها بقوة في الظلام ، وأعلنت : « يارفيقتي العزيزة ، ما أعظم سروري ! »

تأثرت تاو ــ شينغ بصداقتها المخلصة النبيلة ، وأحست بالدموع تتدفق على وجنتيها .

ــ تاو ــ شينغ ، هنالك شيء أريد أن أقوله لك ...

وتوقفت شينغ شين عن الكلام فترة قبل ان تسترسل في صوت هادىء مثله ابدا : « منذ يوم استجوابي الاخير عرفت انهم لن يدعوني أعيش طويلا ... مؤمنون هُم أن اللجنة المركزية أرسلتني الى هنا .. ولذلك فأنا مستعدة ... »

شعرت تاو ــ شينغ بقلبها يتوقف عن الخفقان في مثل خطف البصر . قبضت على يد شينغ شين بشدة ، وسألت في قلق : « ماذا تقصدين ، يا أختاه ؟ »

وصاحت شو ــ هسيو في رعب بعدما هبت من غفوتها وسمعت آخر كلمات شينغ شين : « أيتها الاخت شينغ ! ماهذا الذي تقولين ؟ ».

فجاء جوابها الحَذِر : « كيف ، لاشــيء . كنت و تاو ــ شينغ نثرثر بسبب عجزنا عن النوم . وبالمناسبة ، يا تاوــشينغ، فيمَ تحملين هذا الاسم الغريب ؟ انه أشبه باسم راهبة » .

فمسحت تاو ــ شينغ عبراتها خلسة : « كان والدي بوذيا انتوى مرة أن يصير راهبا ، ولكنه لم يستطع الانفصال عن محظيته .. فخلــع عليّ هذا الاسم(١) » .

ضحكت شو ــ هسيو ، وقالت : « اوه ، اسمحا لي أن أقــول لكما هذا ! حلمت بأمي من جديد » .

وتابعت مهمهمة في اقتناع وكأنها لاتبرح تحلم : «ورايت شقيقيّ الصغيرين ايضا . حينما خرجت من السجن وذهبت الى البيت تجمهر الجميع حواليّ مغتبطين ... »

استدارت شينغ شين ناحية تاو ــ شينغ الجالسة عن يسارها لتمسح عبراتها ، ومن ثم سوّت اللحاف على شو ــ هسيو عن يمينها. ولما انتهت من ذلك همست في هدوء : « تأخر الوقت الآن . فلنحــاول جميعنا ان ننام قليلا . اخشى ان يقع شيء من المتاعــب اذا ســمع الحارس حديثنا » .

في صباح اليوم التالي حضر الحراس لاقتياد شينغ شــين الى المحاكمة . قالت ، وهي لاتبرح مستلقية في فراشها : « لحظة واحدة ! اتركوني أسرّح شعري أولا ! »

وبعدما سرّحت شعرها الحريري الطويل في عناية صحبوها معهم .

أعادوها بعد دقائق قليلة . استلقت دون حراك فترة من الوقت عاجزة عن النطق من شدة ارهاقها . وما ان استردت وعيها قليلا حتى استفسرتها الفتاتان في اهتمام بالغ : « ماذا قالوا لك،يا اختاه ؟ وكيف تسير قضيتك ؟ » .

ــ حسنا ، لم يحدث شيء كثير . سألوني فحسب عما اذا كنت تحسّنت . وقالوا ان لم أتحسّن فقد يرسلونني الى مكان آخر .

---

(١) تاو ــ شينغ تترجم حرفيا بمعنى « الصفاء المقدس » .

هذا الجواب الذي أرضى شو ــ هسيو أثار قلق تاو ــ شينغ . ولكنه صعب عليها أن تترجم مخاوفها في كلمات .

قضت شينغ شين الصباح بطوله تعلّم الفتاتين أغنية كان السجناء في شنغهاي و هانغشوو و سوو شو يغنونها منذ عام ١٩٣٠ . أنشدت في صوت اجش :

أيها السجناء ، ياسجناء الازمنة ،
نحن لم نرتكب إثما !
اختطفونا من ساح المعركة ،
من بين صفوف النضال الطبقي ؛
نحن لسنا سجناء ، بل مأسورون ،
في عروقهم لايبرح الدم الحار يغلي
بالرغم من جميع اشكال التعذيب الوحشي .
القضبان الحديدية ، واسوار السجن العالية
لايمكن ان تسرق منا حريتنا ،
ليس من روحنا الثورية !

★

أيها السجناء ، ياسجناء الازمنة !
كثيرون ماتوا في سبيل القضية !
أما الاحياء فما برحوا يقاتلون ؛
أطعمة السجن المتعفنة وحشراته
قد تهزل لحمنا ،
ولكنها لاتستطيع أن تسلبنا شجاعتنا !

★

أيها السجناء ، يا سجناء الازمنة !
الفشل هو أمُ النجاح ،
والنصر الاخير حليفنا !
نحن نقوّي أنفسنا ونصلّبها
للاستمرار في القتال بشجاعة !
وسوف يأتي ذلك اليوم

الذي فيه تتبع الرايات الحمراء قرص الشمس
الى جميع أطراف المعمورة !

كانت الاغنية طويلة ، وشينغ شين متعبة مهدودة القوى بحيث لم تستطع أن تحفظهما غير المقطعين الاول والاخير منها . وهكذا أمضى ثلاثتهن صباحا سعيدا مع بعضهن .

سرعان ما استغرقن ذلك المساء في نوم عميق نتيجة تعبهن المنهك. أفاقت تاو - شينغ على يد تهزّها بلطف ، وسمعت صوت شينغ شين يهمس لها : « أيتها الرفيقة لين تاو - شينغ ، هنالك شيء أريد أن أطلعك عليه . قد لا أبقى على قيد الحياة حتى نهار الغد ... اذا أتيحت الفرصة ذات يوم ، فأرجو ان توصلي هذه الرسالة مني الى الحزب . اسمي الحقيقي هو لين هونغ . نقلت الى هنا من شنغهاي في تشرين الاول الماضي . ومن سوء الحظ أن أحد الخونة المرتدّين وشى بي فتمّ اعتقالي بعيد مباشرتي عملي بوقت قصير . وضميري نقيّ على الرغم من ذلك . لم أخذل الحزب ، بل ناضلت حتى آخر خطوة من الطريق ... وآمل أن يوسّع الحزب جيشنا الاحمر أضعافا مضاعفة ويقوّي قيادته في سبيل مقاومة اليابان . أنا أعرف ان النصر النهائي سيكون حليفنا . أما بالنسبة اليك ، أيتها الرفيقة العزيزة ، فأريدك أن تناضلي حتى اللحظة الاخيرة ، وان تبذلي جهدك كيما تصبحي بلشفية مخلصة ... » شعّت عينا لين هونغ الجميلتان في الزنزانة المعتمة ببريق متألق بحيث بدا انها لاتتحدث عن موتها بل عن سعادة غامرة ، عن مستقبل مبهج يفتن الالباب . تمهّلت تسترد أنفاسها ، وأغلقت عينيها تستريح قليلا ، ثم حملقت في غيرة في وجه تاو - شينغ وهي تسأل : « هل تعدينني أنك ستوصلين رسالتي الى الحزب ؟ »

أومأت تاو - شينغ برأسها بنشاط وقد أعجزتها دموعها عن الكلام، ومدّت يدها تمسك أصابع لين هونغ البيضاء . تطلعت طويلا بشغف الى ذلك الوجه اللطيف الذي يبدو منحوتا من مرمر ... وبدا لها أن فؤادها توقف عن الخفقان . ووجدت انه من المستحيل ان تؤمن أن أنسانا مفعما بالحيوية والنشاط يمكن ان يموت .

قبل ان تلجأ الى النوم في تلك الليلة خلعت لين هونغ سترةصوفية محبوكة لونها زهري واعطتها الى تاو ـ شينغ : « أنت لست قوية، يا تاو ـ شينغ . أرجوك أن ترتديها » .

وسحبت من جانب مخدتها مشطا جذابا من البلاستيك من صنع شنغهاي ، وخاطبت شو ـ هسو وهي تبتسم : « أتحبين هذا المشط ، ياعزيزتي ؟ أريدك أنتأخذيه على سبيل التذكار » .

استشعرت شو ـ هسو ، في الوقت ذاته ، أن ثمة شيئا خاطئا فانخرطت و تاو ـ شينغ في البكاء . كانت الليلة عاتمة ثقيلة الوطأة كما لو كان ثمة عاصفة على وشك ان تهب في بطء مؤلم .

في حوالي منتصف الليل فتح الباب الحديدي . ورفعت لين هونغ على باب خشبي ، وفيما هم يحملونها بعيدا مدت يديها الى صديقتيها ، ولما لم تستطع وصولا اليهما صاحت في صوت يستفز شجاعتهما : « وداعا ، ياعزيزتي ! اعنيا بنفسيكما جيدا ! » .

لم تكد لين هونغ تحمل بعيدا عن زنزانة المصابين حتى انفجرت عاصفة من الصياح فبلغت سقف السجن المظلم :

ـ فليسقط رجعيو الكيومنتانغ !

ـ عاش الحزب الشيوعي الصيني !

ـ الشيوعية لايمكن ان تقهر !

ـ ايها الرفاق ، اثأروا لنا !

كانت لين هونغ تقود مظاهرة هذه الشعارات ، وسرعان ما شاركها الآخرون فيها ، مزيدا ومزيدا ، الى أن هب مئات من المساجين يطلقون عقائرهم بالصياح . كانت صيحاتهم المتقدة التي لاتعرف الخوف تردد أصداءها حتى السماء .

استلقت تاو ـ شينغ على سريرها ، ضامة السترة الصوفية الزهراء الى صدرها ، وشاركت في ترديد الشعارات بجميع ما تبقى فيها من قوة ، على الرغم من ان صوتها لم يكن يصل الى الآذان من جراء الضعف .

لم تشارك شو ـ هسيو في الصياح . وثبت عن سريرها مثل أم خطفوا ولدها منها ، مندفعة وراء لين هونغ المحمولة بعيدا .

– أيتها الاخت شينغ ! أيتها الاخت شينغ ! لاتتركينا !..يجب الا تموتي ! فأنت لا تستحقين الموت !

ضربت يد قاسية رأسها بالجدار ، وأصابتها رفسة على معدتها فأفقدتها الوعي . واستحمّ وجهها بالعبرات .

لم يتردّد أي صدى لاطلاق نار في تلك الليلة . فقد بعث شيانغ كاي شيك كلب حراسته شيانغ هسياو – هسيين ، آمر فرقة الشرطة العسكرية الثالثة الى بيبينغ ، ومنذ ذلك الحين صار عدد كبير من الشيوعيين والمناضلين الشبان يُعتقلون ويعدمون يوميا . وقتلت اعداد كثيرة أخرى بصورة سرية . في تلك الليلة دفنت لين هونغ وعشرة آخرون من الثوريين المخلصين أحياء في باطن الارض .

* * *

تلمست تاو – شينغ و شو – هسيو ، وقد بقيتا الآن وحيدتين في الزنزانة الباردة ، طريقهما في الظل تمسكان يدي بعضيهما ، وتشبكان أصابعهما الملتفة مع بعضها ، وتكنكنان على بعضيهما مثل طفلتين يتيمتي الام .

– تاو – شينغ ، لم يبق ههنا سوانا . ولم يبق لي سواك الآن ، ياعزيزتي تاو – شينغ .

احتضنت شو – هسيو تاو – شينغ وانهارت ، وبكت على لين هونغ وعلى فشلها في فهم الحياة من قبل . كانت تحسّ بالخجل من جهلها الماضي رغم أن عمرها لايتجاوز ستة عشر عاما .

راحت تاو – شينغ ، والعبرات في عينيها ، تمسح على شعر الفتاة الصغرى وهما مضطجعتان في الظلمة : « شو – هسيو ، يا عزيزتي ، لاتنهاري على هذا الفرار !.. تذكري هذه الليلة ! اياك أن تنسي هذه الليلة ! اياك أن تنسي موت الاخت شينغ شين ! » .

بعد موت شينغ شين انتقلت مهمة العناية بشو – هسيو الى تاو – شينغ بصورة طبيعية،فشرعت تعلمها وترعاها رعاية أم ورفيقة معا. وراحت صحة تاو – شينغ تتدهور .

كانت تضطجع النهار بطوله ، نصف واعية ، على سريرها الرطب

القذر . بعيد موت لين هونغ أضناها فقر الدم والطعام السيء وقروح جروحها . ومن حسن حظها ان السجانة كانت على شيء من العطف بحيث راحت تحمل اليها عصائبية أو حساء البيض بين وقت وآخر ، وتصطحب طبيب السجن للعناية بها . ونجحت السجانة مع العناية الدافئة الحنون التي بذلتها شو ــ هسيو في اعادة الحياة الى جسدها.

مرت خمسة أيام على موت لين هونغ ، وهذه سجينة مريضةأخرى تحمل الى الزنزانة . انها امرأة سمينة البنية شاحبة البشرة مدورة الوجه في حدود الثلاثين من العمر ، لها عضلات مترهلة وصوت حاد النبرة . ما أن استلقت على سريرها حتى شرعت تخاطب شو ــ هسيو بنبرة صداقة ، فيما راحت هذه الاخيرة تراقبها في فضول : « انت لم تتجاوزي مرحلة المراهقة بعد ، ياعزيزتي . تصوري أن يسجنوا فتاة صغيرة مثلك !.. »

فتحت تاو ــ شينغ عينيها قليلا فلمحت شو ــ هسيو ترد في حماسة : « انا في السادسة عشرة . فيمَ جاؤوا بك الى هنا ، ايتها الاخت الكبيرة ؟ » .

ــ بسبب من عملي الثوري . وانت ؟ هل انت شيوعية ؟

والتفتت تطرح السؤال ذاته على تاو ــ شينغ في ذات نبرةالصداقة.

ساورت الشكوك تاو ــ شينغ . فهذه المرأة لاتلوح عليها سيماء الثورية . ومع ذلك فلا يمكن أن ينقلوا الى تلك الزنزانة سجينة عادية. هزت رأسها في وهن دون ان تجيب ، فأسرعت شو ــ هسيو تجيب عنها: « تاو ــ شينغ هذه تعرّضت لتعذيب وحشي . منذ عدة ايام كانت لدينا هنا انسانة رائعة ــ شينغ شين ــ ولكنهم أعدموها . واضطربت تاو ــ شينغ كثيرا بحيث ازدادت ضعفا ونحولا ... »

كادت الفتاة ان تسترسل في الكلام نظرا لبراءتها ، ولكن تاو ــ شينغ سعلت وهمهمت : « شو ــ هسيو ، هلاّ حملت اليّ قليلا من الماء ، أرجوك ؟ » .

توقفت الفتاة عن الكلام ، ووثبت على قدميها هابطة عن سريرها تصب لها قليلا من الماء من جرة خزفية مطليّة . وحين انحنت تاو ــ شينغ على قدح الماء ضغطت على اصابع صديقتها ورمتها بنظرة تحذير . تضرّجت وجنتا شو ــ هسيو ، وأومأت أنها فهمت .

تابعت القادمة الجديدة طرح اسئلتها على شو ـ هسيو باعتبار انها صغيرة عديمة الحنكة .

ـ هذه الزنزانة ليست سيئة ، ياعزيزتي . انها حسنة وهادئة!

اشعلت لفافة وطوّحت راسها الى الخلف تراقب الدخان يتأفعى منطلقا صوب السقف المظلم المنخفض . ثم أخبرت شو ـ هسيو ، وهي تبتسم : « لقد جئت من عنبر النساء في النهاية الشرقية لمجموعة هذه الابنية . لم أحتمل الاستمرار في الجوع . أتعرفين انهنَّ نظّمن اضرابا عن الطعام خلال الايام الثلاثة الماضية ؟ » .

شدهت تاو ـ شينغ لهذه الانباء ، فلم تتمالك نفسها عن ان تسأل: « اضراب عن الطعام ؟ اين ؟.. أوه ، من دون ريب ، لقد سمعنا به ! كيف يمكن ان يكنَّ حمقاوات على هذا الفرار ؟ » .

اغتبطت المرأة من جواب تاو ـ شينغ ، فاستدارت ناحيتها : «انت على حق ، انهن حمقاوات تماما ! حتى اللواتي لسن من « الحمر » حذون حذو الشيوعيات . انهن يثرن اضطرابا للاحتجاج ضد اعتقالات الكيومنتانغ السرية ، والاعدامات السرية ، والفشل في مقاومة اليابان ، وخيانة البلاد ، وكل مايتبع ذلك ... المكان هنا أكثر هدوءا . حسنا، فليثرن الاضطراب اذا رغبن في ذلك » . والتفتت نحو شو ـ هسيو ، وسألت : « هل ارسلت احداهن لك رسالة ، ياعزيزتي ؟ سمعت أن ثلاثة أو اربعة آلاف سجين بدأوا اضرابا عن الطعام سوية بعد تبادل رسائل سرية » .

تفاقمت شكوك تاو ـ شينغ الآن بصورة كاملة . ولكن شو ـ هسيو أجابت، قبل ان يتاح لتاو ـ شينغ ان تقرر كيف ترد على ذلك السؤال: « هكذا الامر اذن ! كنت سأسألك من الذي اقترح البدء بالاضراب. ليس هنالك من ارسل الينا رسائل . وأتساءل لماذا لم يفعلوا . ذلك سيء جدا ! » .

ـ أيتها الفتاة الحمقاء ! الحمر لايسمحون لك بمعرفة ذلك لانهم لايثقون بك ! ولذلك سيتاح لنا أن نأكل ملء بطوننا طوال عدة ايام . لقد جعلوني أصوم لانني كنت في الزنزانة ذاتها ، غير انني لم احتمل ذلك.

لقد ارغم الجوع هذه العميلة السرية التي ادعت انها سجينة على كشف هويتها الحقيقية .

تبدلت ملامح شو ـ هسيو فجأة . ثبّتت عينين غاضبتين على الجاسوسة المغرورة ، وبصقت عليها : « ياللخجل ! يا للوضاعة وللقرف ! لكنّ قدومك الى هنا لن يساعدك لاننا سنشارك في الاضراب ايضا !».
وانخبلت المرأة .
راقبت تاو ـ شينغ وجه شو ـ هسيو الحسّاس الساخط ، وابتسمت ابتسامة واهية ، وقامت بعد صمت قصير تخاطب الجاسوسة « شكرا لك لانك سردت علينا قصة الاضراب . لولاك انت لكنا خذلنا الآخرين جميعا ! »
واستدارت تخاطب شو ـ هسيو في صوت رنان وكأنها تصدر اليها أمرا : « يجب الا ننتظر طويلا ، ياعزيزتي . من الآن فصاعدا سنرفض اي طعام ! » .
أومأت شو ـ هسيو برأسها ، وتدحرجت العبرات على خديها وهي تجيب في نعومة : « سأفعل جميع ماتقولين ، يا تاو ـ شينغ . الآن ، بعد ان قتلت الاخت شينغ ، سأتبع تعليماتك ...أتوافقين ؟»
حدّقت الجاسوسة فيهما في ارتياب ، وارهفت اذنيها تتسمّع ماتقولان وهي تراقب جميع حركاتهما . وما أسرع أن احرقت لفافتها اصابعها الناعمة ، فرمتها وقد اطلقت صيحة متألمة . ضحكت ضحكة موبخة ، وقالت في مرارة وعيناها عالقتان بالسقف : « ماكنت أجيء الى هنا لو لم تخبرني السجانة أنكما حساستان وترفضان المشاركة في الاضراب . وهذه انا أجد الآن انكما من «الحمر» أيضا ! وكنت قد عزمت على اخبار المسؤولين باطلاق سراحكما !.. يالخزي تلك السجانة الكاذبة ! »
والحقيقة ان السجانة ليو التي وقعت تحت تأثير لين هونغ شعرت بالخوف من ان تشارك تاو ـ شينغ و شو ـ هسيو في الاضراب عن الطعام بسبب من ضعفهما ، فحبست عنهما الاخبار عامدة ، في حين اخبرت سلطات السجن انهما تعارضان الاضراب . وظلت تحمل اليهما الطعام ، طعاما جيدا ايضا ، كلما اتيح لها ذلك . ولما كانت الفتاتان ملازمتين سريريهما ، فقد كانتا تجهلان كل مايحدث في الخارج .
كفّت تاو ـ شينغ و شو ـ هسيو عن الكلام ، لكنه ما ان جيء بالغداء حتى اضطجعتا على سريريهما دون ان تأكلا شيئًا . بذلت

الجاسوسة محاولة اخرى لاغرائهما على الاكل . حسبت ان في مستطاعها السيطرة عليهما بسهولة بسبب من هزالهما ، الامر الذي جعلها تكشف لهما عن لونها الحقيقي منذ البداية . كان الطعام الذي تأتي السجانة به يسيل اللعاب ، فيه نقانق وأرز منضج بالبخار ويخنة لذيذة المذاق . غير أن الفتاتين لم تعيراه التفاتا . قعدت الجاسوسة تأكل بشره وتبتسم لشو ـ هسيو متملقة : « عمرك لايتجاوز السادسة عشرة ، ياعزيزتي . ففيم هذه الحماقة ؟ ان عرفت أمك أنك تجوعين فيا للاسف الذي ستشعر به ! انظري الى هذه ! تعالي وكلي قليلا ، وحينما تنتهين ارسلك الى البيت » .

تطلعت شو ـ هسيو الى تاو ـ شينغ التي جابهت نظرتها في ثبات ، ودون ان تقول شيئا . ولما وجدت المرأة أنها اجتمعت بند لها ، ملأت بطنها ، وشدت اللحاف فوق راسها ، ونامت . وحينما احضرت السجانة ليو العشاء استحثت الفتاتين على الطعام ، فرفضتا بصورة مؤدبة . والتهمت الجاسوسة مائدة عامرة ونامت مرة أخرى ، وأخذت تشخر بصوت عال لم يتح لتاو ـ شينغ أية فرصة للراحة . وفي حوالي منتصف الليل بدأت تسعل في لطف ، فرفعت شو ـ هسيو راسها وسألت : « أما زلت مستيقظة ، يا تاو ـ شينغ ؟ أتشعرين بالجوع ؟ » .

أجابت تاو ـ شينغ في صوت مرتعش : « كلا ، يا شو ـ هسيو ! لكنه ليس سهلا ان يبقى المرء من دون طعام ، ياعزيزتي . اتظنين ان في مقدورك مقاومة ذلك ؟ »

مرت عدة لحظات قبل ان ترد شو ـ هسيو عليها : « اعتقد أن ذلك في مقدوري . كلما بلغت مرحلة صعبة الآن يبدو لي أنني أشاهد الاخت شينغ تقف امامي . لاتقلقي علي ، يا تاو ـ شينغ . فحالتي ليست سيئة مثل حالتك . حالتك هي التي تثير قلقي » .

كانت دماء تاو ـ شينغ تغلي ، ووجنتاها متضرجتين اثارة ، وهي تقول في لطف : « أنا في أحسن حال . انا مازلت فتية وفي طريقي الى الابلال . انت تعرفين ، يا شو ـ هسيو ، أنك ستنتصرين من دون ريب ! لسنا وحيدتين ـ فهنالك مئات من المساجين ينفذون الاضراب . انه نضال عظيم حقا ! مهما كان شيانغ هسياو ـ هسيين وحشنا ، فهو لايجرؤ أن يجيعنا جميعا حتى الموت » .

— سأعمل بتعليماتك ، يا تاو — شينغ ، مهما عملتِ . ولن أبالي حتى ولو قتلني الجوع .

حبست شو — هسيو نشيجها ، فهي لاتريد أن تعرف تاو — شينغ انها تبكي .

رنّ صوت الجاسوسة القوي فأجفلهما : « يا للصغيرة الحمقاء ! فيمَ يختار المرء ان يقتله الجوع ؟ » . كانت تدّعي النوم ، فهبت الآن تحاول اغراء شو — هسيو : « يقولون : الحكيم من يصغي الى النصيحة . أنت فتاة صغيرة بعد . ففيم تموتين في سبيل الشيوعيين ؟ فكري في أبيك وأمك ! أليس لك حبيب ؟ تخيلي العشاق الصغار في المتنزهات الآن يضحكون ويثرثرون سوية . أفلا تشعرين بالغيرة منهم ؟ » .

خيّم الصمت . واختارت الفتاتان ان تتجاهلا مثل هذه العروض الدنيئة . كانت الزنزانة الصغيرة المظلمة عامرة بالعفونة والرطوبة . كفت شو — هسيو عن البكاء ، وطحنت أسنانها وهي تشد بيديها على معدتها ، يعذبها الجوع . واغراها الغضب ان تصب جام ثورتها على الجاسوسة .

بعيد ظهيرة اليوم التالي نهضت الجاسوسة بعد ان تأكد لها أنها لن تحقق نصرا ، ونفضت الغبار عن ثيابها ، وخرجت من الزنزانة وهي ترشق نظرة وداع شريرة ناحية الفتاتين اللتين أعجزهما الضنى عن الحراك . ولم تمض لحظات قليلة حتى استدعيت شو — هسيو للاستجواب . واعادوها مغطاة بالدم ، وقد سحق وجهها بوحشية ، وانفلت شعرها عند عنقها ، ومنعها الارهاق من البكاء . رماها الحراس على السرير الخشبي القاسي كما لو كانت جثة لاحياة فيها .

حينما وقعت انظار تاو — شينغ القلقة عليها ، عجلت تقول : « لم أقل لهم شيئا ، يا تاو — شينغ ! انا لست أكثر من فتاة عادية جاهلة ! فكيف لي أن اعرف من بدأ ذلك كله ؟.. انا لم أستسلم . لسوف أستمر في الصيام مع الآخرين جميعا » . لم تذرف دمعة واحدة ، ولكنها فقدت وعيها من جديد .

ترقرقت الدموع على وجنتي تاو — شينغ : ياللعزيزة شو—هسيو! يمكن للصين أن تفخر بفتيات من أمثالك !

انقضى يوم آخر ، وتبعه يوم ثان ويوم ثالث . والفتاتان تستلقيان

وقد تخدر جسداهما من الجوع والجروح المؤلمة . كانت السجانة ليو قد تقلت لعدم نقل الحقيقة الى رؤسائها ، فغدت زنزانة النساء الجريحات كئيبة رطبة ساكنة أشبه بالقبر . وكلما استردت الفتاتان وعيهما ، وفتحتا عينيهما ، فهما تتبادلان نظرات دافئة حنونة . مدّت شو ـ هسيو يدا مرتعشة هزيلة ناحية تاو ـ شينغ وارتجفت شفتاها الشاحبتان ، وهي تغمغم : « آماه ! انت اشبه بأم بالنسبة اليّ !.. »

كانت تاو ـ شينغ عزيزة عليها مثل شينغ شين أو مثل أمها . ان عيني تاو ـ شينغ اللطيفتين العامرتين حبا وتشجيعها الذي يشابه تشجيع شينغ شين قد اغدق على شو ـ هسيو القوة المنيعة للثورة ، قوة تملأ قلوب الرجال بالدفء وتستفزّهم للقيام بالاعمال النبيلة .

في اليوم الرابع ـ وهو اليوم السابع من ايام الاضراب عن الطعام ـ استفاقت تاو ـ شينغ من غيبوبتها على شيء ضرب وجهها بلطف . اجفلت ، ووضعت يدها بصورة غريزية على وجنتها . كانت كتلة صغيرة من الورق قد تدحرجت على فراشها . فتحتها ، وقرأت الرسالة التالية المدونة بالقلم الرصاص :

« جميع زملائكما المساجين غمرتهم السعادة حينما عرفوا انكما شاركتما في النضال حينما أضربتما عن الطعام . اننا ننهي الاضراب هذا النهار . فقد استجابت السلطات لبعض مطاليبنا . نامل ان تعاودا الطعام كالمعتاد ، وان تعنيا بصحتيكما . لاتأكلا كثيرا في اول وقعة . وسنبقى على اتصال بكما » .

انهضت تاو ـ شينغ زميلتها شو ـ هسيو ، واعطتها الرسالة. وما أن قرأتها الفتاة حتى بدأت يداها النحيلتان ترتعشان : « أهـذا صحيح ، يا تاو ـ شينغ ؟ فلنبدأنّ ذلك بمقدار قليل ، مارأيك ؟ » .

ضحكت تاو ـ شينغ ، على الرغم من انها لم تعد الآونة اكثر من شبح هزيل : « لكن يجب أن نتأكد من انها ليست خدعة . فالعدو قد يفعل اي شيء . يحسن ان ننتظر ونرى .. » .

حانت ساعة العشاء بعد مرور ساعتين اثنتين . وكانت قرقعة أواني الطعام وشتائم الحجّاب والحراس تسمع في الممشى خارج الزنزانة.

ـ فليذهبوا الى الجحيم ! اذا شاؤوا أن يجوعوا فلم لايفعلون من هذا الجوع عملا منتظما؟ لم بدأوا يأكلون مرة اخرى ـ ويطلبون «الكونجه» ايضا ! انهم يخدعوننا ، هؤلاء الحثالة !

حينما سألت السجانة الجديدة بخشونة ما اذا كانتا ترغبان في تناول طعام العشاء أجابتها تاو ـ شينغ مباشرة : « اننا نريد طعاما مثل الآخرين جميعا . أعطيني شيئا من « الكونجه(١) » ، عجلي ! » .

في الوحدة قوة لاحدود لها . ولما عرفت تاو ـ شينغ أنها وشو ـ هسيو لم تعودا بمفردهما وليستا عاجزتين في نضالهما ، فقد شعرتا انهما جزء من جماعة كبيرة غير منظورة . وعلى الرغم من ان قضبانا حديدية تفصلهما عن الآخرين ، فقد كانتا بقلبيهما أشد ارتباطا من اي شيء آخر. صحيح انهما باستلقائهما في تلك الزنزانة المظلمة المنفردة لاتستطيعان رؤية الافراد الذين يشكلون الجماعية ؛ لكنهُ بدا لهما ان أذرعة دافئة لا حصر لها تلتفُ حولهما ، وخدودا ملتهبة لاحصر لها تلتصق بخديهما . انهما كتلة واحدة مع السجناء الآخرين الشجعان الذين يتحدّون الموت . وفعلت الرسالة التي القيت في زنزانتهما فعل جرعة عجائبية تجدّد القوى التي خسرتاها بالمرض والتعذيب . بعد التهامهما وقعة من «الكونجه» سمتْ روحاهما وانتعشتا . في تلك العشية تسللت شو ـ هسيو الى سرير تاو ـ شينغ واضطجعت الى جانبها لتهمس لها : « تاو ـ شينغ ، أتعرفين ماذا ؟ لقد فهمت لتوّي المعنى الكامل لنضالنا . قبيل هذا النهار لم أحلم أن هنالك عددا كبيرا من الناس ههنا شجعان مثل الاخت شينغ! »

ابتسمت تاو ـ شينغ ، ووجهها هادىء تغمره السعادة . مسحت بيدها على شعر شو ـ هسيو الناعم مقلّدة شينغ شين بصورة لا واعية ، واجابت في حماسة وحنان : « لكم انا اليوم سعيدة ، يا شو ـ هسيو! اشعر انني قمت بخطوة اخرى في ميدان الفهم والادراك : ان العدو لايستطيع أن يفصل بيننا بعد الآن ـ لسوف نكون دائما جزءا من العائلة الثورية » .

---

(١) نوع من الشوربة .

٢١

فشلت تاو ـ شينغ خلال عودتها الى بيبينغ في العثور على هسو هيو التي غادرت الجامعة للقيام بعمل اتصالي مؤقت بناء على تعليمات لجنة الحزب المحلية . ولم تعلم هسو هيو باعتقال تاو ـ شينغ الا حين عودتها بعيد العطلة الصيفية ، وعندها حاولت ، وقد عجزت عن زيارتها في السجن ، الحصول على معلومات عنها بصورةغير مباشرة . رجعت الى نزلها عند الغسق ذات يوم ، ولم تكد تقترب من الباب حتى سمعت صوتا يناديها : « آنسة هسو هيو ! » . توقفت ، وتطلعت حواليها ، فلم تلمح احدا في الجوار ، فيما عدا رجلا يكشفه ضوء المصباح العاتم مستلقيا تحت شجرة باسقة بجانب البوابة . خطت ناحيته . كان يبدو مثل أحد العمال الذين يصنعون كرات الفحم ، ثيابه مهلهلة ، وشعره اشعث،ملوّث الوجه واليدين بهباب الفحم . نهض لدى اقترابهامنه وعالنها في صوت أجش قائلا : « آنسة هسو ، حملت اليك رسالة من البيت » .

هتفت هسو هيو في صوت مخفوت ، وهي تتطلع في قلق الى المارة حواليها : « كيف ، هذا انت ، أيها العجوز لي ! اتبعني الى هذا الزقاق امامنا ! » .

قال شيانغ هوا حينما بلغا باب مخزن للفحم : « هذا مكان ملائم للحديث » .

وتابع يقول ، وهو ينظر اليها نظرات ثابتة : « وصلت ظهرا من الريف في القطار . ولست أملك نقودا أشتري بها طعاما ،كما لا أملك ثيابا أبدل بها ثيابي . هل تحملين نقودا ؟ » .

قالت هسو هيو ، وهي تناوله جميع ماتملك من نقود في جيبها ، فيما أحد المارة يخطو قربهما : « خذ ! هذا كل ما أنا مدينة به ثمنا لكرات فحمك ! »

ولم يكد عابر السبيل يبتعد عنهما حتى استأنفت حديثها : «مضت مدة طويلة لم اسمع منك اخبارا . ماذا كنت تفعل ؟ »

ـ اساعد في النضال في الريف . حسنا ، نحن لا نستطيع أن نتحدث حديثا جديا ههنا . يجب أن ارحل . سأحضر لرؤيتك في غضون يوم أو يومين » .

وخطا خطوتين او ثلاث خطوات قبل ان يستدير ويستوضحها : « كيف تسير الامور ؟ لم يصلني شيء من الاخبار منذ مدة طويلة » .

ـ بدأ الحزب حركة واسعة في شمالي الصين لتسليح الشعب . وأسس رابطة للدفاع المسلح عن الوطن ووضع شعار « قاتلوا للدفاع عن شمالي الصين » ...»

اخبرته هسو هيو بهذه المعلومات في صوت مخفوض ، ثم توقفت تسترد انفاسها وتتطلع حواليها : « فلنتحدث أثناء سيرنا .. حسنا ، أكثر من ثلاثة آلاف انسان ، بما فيهم سونغ شينغ ـ لينغ وهو هسيانغ ـ نينغ ، وقعّوا ودعموا « البرنامج الاساسي لمقاومة الشعب الصيني ضد اليابان » . لابدّ أنك قرات عن هذا ، أليس كذلك ؟ أوه، هل عرفت أن لين تاو ـ شينغ اعتقلت ؟ » واظلم وجهها وهي تقول ذلك .

توقف شيانغ هوا يحدّق فيها برهة . قال : « لقد اعتقلت اذن ؟ هل أوصلتك رسالتي ؟ » .

ـ كلا . هل كانت ذات اهمية ؟

ـ لقد كتبتها بالشيفرة خشية ان يقع مالاتحمد عقباه .

واسترسل بعد وقفة قصيرة : « ينبغي أن أودعك والتف ههنا بالضبط . سأجيء واتحدث معك حديثا طيبا في احد هذه الايام » .

واستدار عائدا من حيث جاءا .

بعد فترة قصيرة من افتراق شيانغ هوا وتاو ـ شينغ في قرية تاشين ارسلته لجنة الحزب في مقاطعة هوبيي الى بيبينغ . ولما كان لايملك مالا او طعاما طوال فترة فقد عجز عن شراء بطاقة يركب بواسطتها الى بيبينغ ، ولكنه تدبر امره واختبأ في احدى عربات الفحم . ونتيجة لذلك غطاه هباب الفحم من رأسه حتى قدميه بما في ذلك داخل أذنيه . ولم يكن ليلتفت الى ذلك لو استطاع الوصول الى وجهته دون اية ورطة،

لكنه ما ان وقف القطار في باو تينغ حتى عثر عليه حراس السكة الحديدية . كان يمكن ان تسير الامور كلها سيرا حسنا لو استطاع ان يعرض عليهم بعض المال كرشوة ، غير انه كان معدما ، يتضوّر من الجوع منذ يومين كاملين. فاقتاده الحراس بتهمة اللصوصية وضربوه قبل ان يطلقوا سراحه . ان يضرب ويبصق عليه لايعنيان شيئا كثيرا بالنسبة الى شيانغ هوا الذي ما أكثر ماكان يتعرّض ، خلال عمله في تانغشان قبيل عدة سنوات ، لمثل هذه العقوبة لسرقته سفرات مجانية في القطار عندما لايكون يحمل ثمن بطاقة الركوب . وكان يعرف انه عندما يتضح انه لايمكن ان يتحصّل منه شيء فلا بد أن يطلق سراحه ، فلا يستطيع الا أن يدسّ بنفسه في القطار التالي الذي يمرّ به . كان واحدا من أولئك الرجال الذين لا يتوانون عن الوصول الى هدفهم مهما تكن الصعوبات والمعيقات في طريقهم .

تدبّر أمره بعد الضرب الذي انزلوه به فركب قطارا آخر في محطة صغيرة بعد باو تونغ ، وترجّل منه منهك القوى في ضاحية بيبينغ الغربية عند ظهيرة ذلك النهار ، واضطجع في الحقول يأخذ قسطا من الراحة. وحينما نهض وتبين له مقدار قذارته اتخذ طريقه الى خندق مائي مهجور يحيط بسور المدينة وروى ظمأه قبل ان يحاول غسل وجهه . لم يستطع التخلص من الاوساخ رغم محاولاته العديدة لان جسده بأسره وثيابه الرثة كلها تشرّبت هباب الفحم ، فجعلت تزيد من وساخة يديه ووجهه كلما حاول غسلها . ابتسم ابتسامة حزينة وتخلى عن محاولاته ، ثم شد حزامه على بطنه ، واتخذ سبيله الى المدينة . ان يومين من الجوع أضنياه كثيرا بحيث راح يجرّ نفسه مثل رجل مريض . وشرع يهمهم أنشودة مما يغنيه بائعو كرات الفحم المتجولون : « أرملة فتية تبكي على ضريح زوجها » . وبعد ان بحث عبثا عن اثنين من رفاقه سار الى جامعة بكين للعثور على هسو هيو . ونظرا لهيئته الزرية فقد خطر له انه من غير المستحسن ان يسأل عنها عند البوابة ، فاستلقى على الارض تحت شجرة قريبة من المنزل وجعل ينتظر عودتها .

مرّت ثلاثة ايام فلم يبق شيانغ هوا بائع كرات فحمية قذر الثياب والطلعة . ارتدى بزة نظيفة مزرّرة عند ربطة العنق ، ووضع على راسه

قبعة من قش بناما ، وراح يخطو على مهل تحت الشمس الملتهبة لرؤية هسو هيو ، حيث جرت معه مصادفة لم يكن يتوقعها على الاطلاق .

ـ حسنا ، أيها العجوز شيانغ ! انا لم ارك منذ أمد طويل !

التفت فرأى رجلا في منتصف العمر ، قصير البنية ، كبير الرأس، يرتدي معطفا طويلا من اللباد .

ابتسم شيانغ هوا وصافح اليد التي امتدت له : « أيها العجوز مينغ ! انت ! »

انه مينغ تا ـ هوان الذي كان قائد فصيلة حينما خدم شيانغ هوا في جيش شمال شاهار المناهض لليابان . كان مينغ تا ـ هوان يعمل موظفا في مخزن قبل ان ينضم الى المتطوعين الشماليين الشرقيين المناهضين لليابان ، ومن ثم ينتقل الى جيش شمال شاهار . وهذا هو الآن يطوق شيانغ هوا بذراعه في وداد : « لقاء رائع ، ياصديقي ! لكم خطرت في بالي في اكثر الاحيان ! » .

ولما كان مينغ يرتدي ثياب عامل مهلهلة ويبتسم في ود ، فقد بادره شيانغ هوا مستفسرا : « حسنا ، ايها العجوز مينغ ، ماذا كنت تفعل خلال السنة او السنتين المنصرمتين ؟ »

ـ سأخبرك ، فقد كنت كثير الاهتياج حقا !

واقترب من شيانغ ليهمس في أذنه : « لقد كان من وفير حظي اني فقدت صلاتي بالحزب ، كنت اهيم متجولا في تيينتسين وبيبينغ وهذه الارجاء التقط أي عمل يتاح لي واسعى جهدي للاتصال بجماعتنا ـ لكن من دون جدوى ! وهذا انا الآن يسعدني الحظ بلقائك . تعال معي الى بيتي ، فهنالك كثير من الاحاديث نثرثرها » .

ولما تردد شيانغ هوا خاطبه مينغ في حماسة : « آه ، يالتلك الايام الرائعة ! لم يتطلب جيشنا المتحالف وقتا طويلا لاستعادة مدن مثل باو شينغ وتولون ، وكويوان وشانغبي ، أو ليهزم اليابانيين مثلما هزم الخونة من امثال وانغ بينغ و لي شو ـ هسين . لكن ابن الكلبة شيانغ كاي ـ شيك ... طبيعي انك تعرف كيف استعاد حزبنا قوته من جديد ... » وغمز بعينيه الصغيرتين مبتسما ابتسامة راضية : « يجب أن أعثر على الحزب ـ فهل تقدمني اليه ؟ من يقوم بأعمال الاتصال الآن ؟ » .

ان تجربة شيانغ هوا العريقة في الاقاليم البيضاء جعلته يأخذ حذره على الفور أمام هذا الشاب الذي التقاه في الطريق مصادفة ، والذي لم يسمع عنه منذ عدة سنوات . اغتصب ابتسامة ، وهزّ رأسه في عدم مبالاة : « لقد غسلت يديّ منذ زمن طويل من هذه الامور كلها، وفقدت اتصالي بجميع الذين كنا نعرفهم . لقد رجعت لتوّي من الريف وأنا ابحث عن عمل » .

رفرف على وجه مينغ تا ـ هوان ظلّ ملحوظ من خيبة الامل، ولم تمض برهة حتى تجعدت شفتاه عن ابتسامة ، وما أن حاول شيانغ ان يودّعه حتى أمسك به من ذراعه . قال في نبرة عاجلة : « كلا ! انا لا أصدقك ! مستحيل !.. لكن ، لا اهمية لهذا الامر . نحن لانجتمع بالاصدقاء القدامى كل يوم ، فلم لاتأتي معي الى منزلي نثرثر قليلا ؟» ودفع شيانغ هوا في الشارع ناحية الجنوب .

لم يكن ثمة خيار امام شيانغ هوا ، فأذعن على مضض . تحدثا في الطريق احاديث شتى عن الاصدقاء الخلاّن . كان مينغ جلفا غير مثقف ، ولكنك تستشف من حديثه أنه تقدمي ، يطلق الشتائم ضد المجتمع المتعفن ، وقد ترجى صديقه أن يمدّ له يد المساعدة للمشاركة في صفوف الثورة . وكان شيانغ هوا يتملص من هذا الطلب حينما اقتربت منهما امرأة صبية متبهرجة ترتدي عباءة زهرية تخطف الابصار، يتماوج شعرها مع نسمات الريح وقد صبغت شفتيها بلون أحمر فاقع . تطلع شيانغ هوا اليها وأهنف قائلا : « أنظر اليها ! في الوقت الذي يشجع فيه الجنراليسمو شيانغ حركة الحياة الجديدة تجد بعض السيدات الصبايا مابرحن يرتدين ثيابا فاضحة . هل سمعت أن رئيس البلدية يوان ذهب الى حدّ وقوفه عند بوابة حديقة شونغشان لاعتقال أية امرأة تسير عارية الذراعين ؟ نكتة حلوة ، أليس كذلك ؟ » .

أهنف مينغ تا ـ هوان ولعق شفتيه وهو يحملق في مؤخرة عنق المرأة الصبية الابيض وذراعيها العاريين الناعمين . وتراقصت ابتسامة ساخرة باهتة على وجه شيانغ هوا .

فيما هما يثرثران ويتابعان طريقهما وصلا الى شارع كونفان شمالي شيين مين . وعند بوابة مكتب الامن العام توقف مينغ تا ـ هوان

وحدّق بقسوة ونظرة ذات مغزى في شيانغ هوا الذي دفعه بيده قليلا ، وهو يسأل : « لماذا وقفت هنا ، أيها العجوز مينغ ؟ لاتقل لي انك تعيش في هذا المكان ! » .

ــ كلا ، لست أنا ، بل انت ! لقد وصلت الى بيتك الآن !

وقف مينغ تا ــ هوان في طريق صديقه ، وتبدّل وجهه وقد ارتسمت على صفحته ابتسامة انتصار حمقاء ، وقال : « لاتجعلنا تحوم حول الموضوع ، ايها العجوز شيانغ . فأنا اعمل مع الشرطة السرية ! » .

اظلمت الامور في وجه شيانغ هوا الذي اتضح له أن مخاوفه الاكثر سوءا غدت حقيقية . كان لايبرح مسيطرا على نفسه ، فربّت على كتف مينغ بطريقة متشككة ، واحتجّ في دماثة : « دعك من هذا ! انت تحب المزاح دائما ، ولكنه لاينبغي عليك أن تتحامق على صديق قديم مثلي . فلنبحث عن مكان للحديث خارج شيين مين . ألم تخبري أن لديك أشياء كثيرة تريد أعلامي بها ؟ » لقد بدّل نبرة صوته ، مثله مثل شينغ .

تردد الخائن المرتد لحظة ، وقد اربكته اعتبارات « الموقف » ورغبته الملحة في أن يكتسب شهرة بالانتصار على هذا الشيوعي ، ثم اومأ الى الحراس عند بوابة المكتب . فاندفع اليه اربعة منهم في ثياب مدنية للاحاطة بشيانغ هوا ، في حين اختال تا ــ هوان الى داخل المكتب وهو يؤرجح رأسه الكبير . وسرعان ماخرج من جديد يمشي منتفشا في بزة جديدة من الفبردين وقبعة من القش تنحدر على رأسه بصورة خليعة .

كشّر في وجه شيانغ هوا قائلا : « فلنذهب ! سنعمل كما قلتَ ونبحث عن مكان نثرثر فيه » .

مشيا جنبا الى جنب في اتجاه المدينة الجنوبية خارج شيين مين ، ورجال الشرطة السرية الاربعة يتبعانهما اثنين اثنين .

ضرب مينغ على صدره ، وهو يختال منتفخا ، ولفافته في فمه : « حسنا ، أيها العجوز شيانغ ، أنت لاتستطيع ان تقول انني اتخلى عن اصدقائي القدامى . حينما أساعد رجلا فأنا أجعل من مساعدتي له عملا كاملا . وأنا أريد ان تنضم الى وحدتنا . مارأيك ؟ » .

لوى راسه جانبا ، وكشر تكشيرة عريضة : « فضلاً عن الراتب الجيد ــ مائة يوانا أو أكثر شهريا ــ فأنت تستطيع الدخول الى أي مسرح ، أو مسبح ، او باص او ماخور دون ان تدفع شيئا على الاطلاق. لقد راقت في عينيك تلك العاهرة التي رايناها قبل قليل ، أليس كذلك؟ حسنا ، هنالك كثيرات مثلها في منازل الدعارة . ولاتحتاج ، حيثما ذهبت ، الى أكثر من ان تهزّ راسك ، وتضع يديك على خاصرتيك، وتزمّ شفتيك ، ولن يجرؤ انسان عندها أن يرفع في وجهك اصبعا ! ».
وأتى ببرهان على مايقول وقد اكتسى وجهه تقطيبة حقيرة « لكم كنت أحمق عندما انضممت الى المتطوعين ضد اليابان وجيش التحالف المناهض لليابان كيما أقاسي عذابات الجحيم طوال ثلاث سنوات كاملات! شكرا للسماء أن حظي انقلب الآن وسارت الامور رخاء بالنسبة اليّ. حلّ قضية واحدة او اعتقلْ شيوعيا وتتمرّغ في الدولارات الفضية ، أنت الآخر ! وهكذا ، مارايك في هذا العرض الذي أقدمه لك ؟ » .
أصغى اليه شيانغ هوا في انتباه ، وتروّى قليلا قبل أن يهز راسه ويردّ عليه مبتسما : « أخشى انني آخر انسان أصلح لمثل هذا العمل. ان لك صفات خاصة بهذا العمل ، ايها العجوز مينغ ، ولكنني رضعت كثيرا من حليب اللطف الانساني . وينبغي أن أعثر على طريق آخر أحصل منه على كفايتي من الطعام ! » .
ورفع مينغ اصبعه وهزّ رأسه الكبير مرة أخرى : « لماذا ، هذا هو أنسب عمل يمكن ان تحصل عليه من وجهة نظري . دعني أسجّل اسمك ! » .
فردد شيانغ هوا مبتسما : « كلا ، شكرا . كما قلت لك فأنا آخر انسان يصلح لمثل هذا العمل » .
رماه مينغ بنظرة غامضة وقطّب وجهه . كانا قد بلغا مطعما خارج شيين مين ، فتوقف شيانغ هوا ، وقال : « الوقت ظهر . اقبل دعوتي على الغداء » .
ــ حسنا . الانسان المحترم لايرفض دعوة تسنح له الى طعام وشراب .

وصعد مينغ وراء شيانغ هوا على سلّم المطعم يتبعهما أثنان من الحراس ، بينما بقي الآخران عند الباب .

استمر مينغ تا ـ هوان ، أثناء الشراب ، يستحث شيانغ هوا على الانضمام الى الشرطة السرية ، وحماقته تصوّر له أن الاغراء الممزوج بالوعيد قد يستميل الثوري ويجعله ينقلب خائنا مثلما وقع له :« ألا تعشق رنين الدولارات الفضية ، أيها العجوز شيانغ ؟ كفاك اضطرابا ! ان كنت أنا أحميك تستطيع أن تحقق ترقيات سريعة بحيث تصير ثريا. صدق أو لاتصدق ، فقد غدوت رقيبا ! » .

تفحص شيانغ هوا ، وابتسامة تتخايل على وجهه ، عيني مينغ الصغيرتين المدورتين المحمرتين نتيجة الانغماس في الملذات : « لم تكن على شيء من هذه الطيبة الجمة يوم كنت تعمل للثورة ، أيها العجوز مينغ ، وهذا أنت الآن ترسم لنفسك صورة رائعة وانت تعمل ضد الثورة . اذا انت غمّست يديك في الدم طويلا ، فلاريب أنك ستحمل رتبة رقيب أول . يؤسفني جدا أنني لا أصلح لمثل هذا العمل » .

كان شيانغ هوا ، خلال تناوله الطعام والشراب وتبادل النكات، يختلس النظر حواليه بحثا عن طريقة يحرّر نفسه بها . وكان من الواضح أنه سينقل الى السجن فيما اذا رفض اقتراح مينغ . وستعقب اعتقاله نتائج خطيرة لان العدو يلاحقه منذ زمن طويل . وكانت الطريقة الوحيدة للنجاة هي الهرب . ولكنه لم يكد يصل الى الطابق الثاني حتى تأكد له ان هروبه مستحيل . وما أن انتهى الطعام حتى دفع الفاتورة واقترح على مينغ الذي راح يهبط وراءه على السلّم : « أيها العجوز مينغ ، لما كنا لم نلتق الا منذ فترة قصيرة ، وكانت هنالك امور كثيرة نناقشها ، فما رأيك في مشاهدة فيلم سينمائي ؟ ان صالة شين كوانغ لابأس بها . فلنذهب اليها » .

فكر مينغ قليلا وقد أمال رأسه جانبا ، ثم أومأ موافقا ، ولكنه صحب شيانغ هوا الى صالة تا كوان لو بدلاً من صالة شين كوانغ ، حيث يتواجد عدد من مرؤوسيه يمكن ان يراقبوا سجينه ويمنعوه من الفرار .

جلس مينغ تا ـ هوان في صالة السينما الى جانب شيانغ هوا ، في حين جلس الحراس الاربعة في أمكنة مجاورة .

لم يلتفت شيانغ هوا الى الفيلم الا قليلا ، فقد صرف اهتمامه الى مراقبة مرافقه ومحاولة التفكير في وسيلة يهرب بها في الظلمة . وحينما عجّت الشاشة بفتيات خليعات عاريات السيقان يؤرجحن أوراكهن خلال رقصهن ، في حين شرع الرجال والنساء في الصالة يتعانقون ويقبلون بعضهم بعضا على انغام الموسيقى الصاخبة ، تبين له ان مينغ يتثاءب ويسيل لعابه . ليس هنالك دقيقة واحدة يضيّعها .

وقف شيانغ هوا في هدوء ووضع قبعته على المقعد ... وما أسرع أن قبضت يدأن قصيرتان وسمينتان على ذراعه ، في حين صاح مينغ في ذعر : « الى اين أنت ذاهب ؟ ».

اجاب شيانغ هوا ، وهو يتجه صوب الباب على مهلة : « أشتري علبة لفائف » .

ـ كلا ، كلا !يمكن ان يشتريها شخص آخر . نحن نعرف أنك احمر . لاتحاول ان تهرب !

وشدّد مينغ قبضته ، ونادى على مرؤوسيه ليحرسوا سجينه في مزيد من الحذر .

جلس شيانغ هوا مرة اخرى ، دون ان يثبط ذلك من همّته . طالما ان الفرار مستحيل هنا ، فلا بدّ أن يفكر في طريقة اخرى .

احاطه رجال الشرطة السريون الاربعة سريعا قبل مغادرة صالة السينما ، واقتادوه ومينغ صوب الباب مباشرة . وحينما خرجوا الى الشارع وتفرّق الناس حدجه مينغ بنظره وقال في اختصار :« لقد أضعنا مايكفي من الوقت ! لسوف تذهب الآونة معي الى المكتب ! »

حدّق فيه شيانغ هوا ساخطا وأجاب : « كيف يمكن ، أيها العجوز مينغ ، ان تفعل ذلك بصديق قديم مثلي ؟ دعني أفكر في الموضوع مرة أخرى » .

فأرعد مينغ ، وهو ينفخ صدره : « كلا ! ليس لدي مزيد من الوقت أضيّعة . تعال معي الى المكتب » .

فأومأ شينغ برأسه : « حسنا . لكنّ هناك منة أريد ان أسألك اياها . قبيل مغادرتي البيت نشطت بعض العصابات في هذه المنطقة بحيث اضطررت ، في سبيل حماية اموالي ، أن أودع مائتين من الدولارات الفضية لدى احد الاصدقاء في بيبينغ . وقدانطلقتاليه

هذا الصباح من المحطة لاسترداد المبلغ ، ولما لم اجده تركت له ملحوظة تشير الى انني سأمر بداره بعيد الظهر . يجب ان أذهب واسترد المبلغ. كيف أستطيع ان أباشر عملي من دون نقود بين يديّ ؟ » .

تخدرت راحتا مينغ تا ـ هوان لدى ذكر النقود ، وما اسرع ان أبدى موافقته على الفور . نادى على ست عربات ريكشا ، وحشـر ضحيته المقبلة بين الحراس الاربعة ، وامر سائقي العربات بالانطلاق الى العنوان الذي ذكره شيانغ هوا ـ زقاق صغير داخل هوانـغ مـين .

حينما اقتربوا من باب رثّ ترجّل شيانغ هوا ، ودنـا مقتربا من مينغ ، وهمس له : « خطر لي ، ايها العجوز مينغ ، أنكم اذا دخلتم جميعا ورائي ، فان صديقي وانغ يو ـ تيه سيعتقد انني ورّطت نفسي في بعض المتاعب فيرفض أن يدفع لي . فماذا تعتقد انه يجب أن نفعل ؟ » .

مطّ مينغ شفتيه ومدّ ذراعه السمينة : « اذهب بمفردك اذن . « فالراهب قد يهرب لكن ديره لايهرب » . ولا تطل غيابك ! »

وقف رجال الشرطة السريون يراقبون المكان أكثر من نصف ساعة، من دون أن تظهـر اية دلالة عن شيانغ هوا ، ومن ثم اندفعوا الـى الساحة وقد عيل صبرهم . فوجدوا ، والرعب يستبدّ بهم . ان المكان ليس منزلا على الاطلاق . وماهو غير ممر صغير يوصل الى طرف الشارع الآخر الذي هرب ضحيتهم منه . ضرب مينغ تا ـ هوان الارض بقدمه وقد عصف به الغضب . وشتم رجاله وشعر كأن شخصا آخر يلكمه على اذنيـه .

كان من عادة شيانغ هوا ، حيثما ذهب ، أن يحتاط للعثور على مخرج يهرب منه بحيث يدرس اوصاف المنطقة التي يتواجد فيها بصورة جيدة . ولما فشلت جميع الخطط التي خطرت له في الفرار من قبضة رجال الشرطة السريين ومض في ذهنه ذلك الممر الضيِّق .

أسرع شيانغ هوا ، وقد انقذ نفسه من ذلك الطـوق ، لرؤيـة هسو هيو على ماسبق أن رسم .

جلس تحت الضوء الكهربائي في غرفتها الصغيرة النظيفة في النزل، وشرب قليلا من الماء ، وقال لها مبتسما : « حسـنا ، ياهسو هيو ، لم اكن اتوقع على الاطلاق ان اراك مختبئة ههنا في أمان » .

ـ بلى ، هذا المكان آمن فكأنني جالسة على عرش . ولكن براعتي ترجع الى شيء من الدهاء ...

صبت له هسو هيو، ضاحكة، قدحا آخر من الماء . ثم أغلقت النافذة، وجلست الى جانبه على مقعد لاظهر له : « أرى أنك اكتسبت مزيدا من الخبرة ، يا لي مينغ ـ يو » . وكانت في ابتسامتها ملامح حزن: « الرعب الابيض يتضاعف كل يوم . أتعرف ان لو شيا ـ شوان نقل الى نانكينغ بعد اعتقاله ؟ واخاف أن يكونوا قتلوه . لقد اعتقل عدد كبير من الرفاق الآخرين ايضا ، بينهم تقدميون مثل لين تاو ـ شينغ التي تتعاطف مع الثورة . بلى ... أنت تعرف ماذا حدث لشين يو ؟ لقد حكموا باعدامه واشكّ في أن استطيع رؤيته مرة اخرى ... » . وحنت راسها ، وعيناها تسبحان في موج من العبرات .

كان شين يو ، حبيب هسيو يو ، من اصدقاء لي مينغ ـ يو القدامى ، المعروف الآن باسم شيانغ هوا ، والذي عمل معه في الحركة العمالية في شنغهاي ؛ ومن هذه المعرفة نجمت رابطة الصداقة بينه وبين هسو هيو . وما أن سمع شيانغ هوا هذه الاخبار ، وكان يجلس وظهره الى الضوء ، حتى رفع راسه يحدّق في صورة مونتسكيو المعلقة على الجدار المدهون بلون أصفر شاحب . ومرّ زمن طويل قبل أن يقول في بطء : « أعرف ماهية شعورك ، يا هسو هيو ، ولن يفيدك شيء مما يمكن أن أقول . لقد خسرنا اعداداً كثيرة من الرفاق خلال السنتين الاخيرتين ، فضلا عن اولئك الذين قتلوا في السنوات الاولى منذ مذبحة الثاني عشر من نيسان ! ومهما بلغت الهزائم والصعوبات التي عانيناها منها ، فاننا ننسى أحزاننا عندما نفكر في النصر الذي لابدّ ان يكون حليفنا . أفلا تشعرين مثل شعوري ؟ » .

ـ بلى ، أيها العجوز لي ، انت على حق !

تغلبت على حزنها الخاطف فرجّلت شعرها الى الوراء وتطلعت اليه بعينيها البراقتين الباسمتين : « كان ينبغي أن أسأل عن احوالك طوال هذه الفترة بدلا من ارهاقك بهذه الاخبار . اخبرني كيف قضيت أوقاتك في تينغهسيين . أفلم أكن مصيبة عندما قلت لك إنك تستطيع أن تثق في لين تاو ـ شينغ ؟ »

قال ، وهو يقلّب دفاتر محاضراتها على المنضدة : « فلنبحث مشاكلك أولا ، يا هسيو هيو . فأنت لن تبقي في هذا المكان — يريد الحزب ان ينقلك الى مكان آخر . أتستطيعين ترك عملك هنا ؟ » .

حملقت هسو هيو فيه مشدوهة ، وكان لايبرح منحنيا على دفاتر محاضراتها : « أنت لا تقصد ذلك ، أيها العجوز لي ؟ هل سأترك الجامعة؟ »

وضع شيانغ هوا الدفاتر ، وقوّم جذعه ، وهو يبتسم : « أجل ، انت مطلوبة للقيام بعمل اداري . . انا لم أخبرك إنني في لجنة مقاطعة المدينة الشرقية الآن . أرسلني الحزب لأنبئك أنك تستطيعين القيام بالترتيبات الضرورية . ولسوف تذهبين ليلة الغداة لرؤية الاخت الكبيرة ليو يي — فينغ » .

— ولكنني سأتخرج في غضون سنة واحدة . . .

وارتسمت على وجهها امارات الرعب والقلق .

ردّ شيانغ هوا على نظرتها في رقة لكن في وقار . ان نظرة واحدة قد تكون أكثر بلاغة من آلاف الكلمات القوية . ولما لمحت هسو هيو تعابير وجهه انصبغ وجهها بلون قرمزي .

أجابت في صوت واضح قوي : « طبيعي أنني سأذهب الى حيثما يبعث الحزب بي . لقد ترددت قليلا لان فرع حزبنا في جامعة بكين ليس قويا على ماكان عليه سابقا ، وأنا أخشى أن يزيد ذهابي الامور سوءا . لقد تلاحمنا مع طلاب عصبة « السي‌سي » بسبب المدرسة الليلية المجانية التي افتتحتها جامعة بكين ومنظمات أخرى عديدة . انه نضال عنيف معقّد » .

وروت له أخبار بعض المشاجرات التي تعرّض لها الطلاب .

أصغى اليها مليا ، ثم مسح وجهه المتعرّق بمنديل وسخ ، وقال : « لاترددي أو تروّي النظر في منافع هذه الجماعة المستقلة . سيأتي احدهم ليتولى عملك بعد رحيلك . فلنعتبر هذا الامر منتهيا اذن ، أليس كذلك ؟ وطالما أننا أنهينا حديثنا عن العمل ، فلنثرثر قليلا . الجو حار هنا — فلم لانقوم بنزهة ؟ »

كانت الطريق المعبّدة جيدا الموصلة الى منتزه بيهاي واحدة من أكثر الطرق هدوءا وجمالا في بيبينغ ، ولكن المتنزهين على اقدامهم فيها قلة ، وتفصل بينهم مسافات شاسعة ، على الرغم من ان اشجار الخرنوب

المبعثرة وجدران القصر الاحمر السوداء المحيطة بهضبة كوال تجعل المكان بقعة هادئة محببة خلال الليل . سار شيانغ هوا وهسو هيو جنباً الى جنب تحت مصابيح الشارع المعتمة يتحدثان في أصوات مخفوتة. وكان شيانغ هوا صديقا عطوفا يراعي مشاعر الآخرين ، فجعلا يتناقشان في تجاربهما الاخيرة ويتبادلان أخبار اصدقائهما . وتطرق حديثهما الى عمل شيانغ هوا في تينغهسيين ، حينما التفت اليها فجأة يستوضحها: « وبالمناسبة ، هل تعرفين تاي يو ؟ » .

ــ أجل، اعرفه . ماذا بشأنه ؟

ــ ان لي شكوكي المريبة عنه ... انني استخلص ما استطيع استخلاصه من مصادر مختلفة لأرفع عنه تقريرا الى الحزب . هذا ماكان مدونا في الرسالة التي طلبت الى تاو ــ شينغ أن توصلها اليك عندما قدمت الى بيبينغ . وأملت ان تحذّري الحزب منه هنا . حسنا ، أنا واثق ان تاو ــ شينغ لن تسمح أن تقع تلك الرسالة بين يدي العدوّ .

ــ هل أخبرت الحزب عما تعرفه عن ذلك الفتى ؟

ــ فعلت ذلك من دون ريب . ليس هنالك من هو اكثر حقارة من مرتد خائن . لقد اصطدمت بواحد من هؤلاء منذ فترة في الشارع، ولم اتخلص منه الا بشقّ النفس .

نظرت هسو هيو الى وجه شيانغ هوا الهادىء مشدوهة ، وابتسمت ، وقالت : « من الخطورة اذن ان تعمل هنا في بيبينغ ! فثمة خونة مرتدون يبحثون عنك في الشوارع ، بينما في السجن ... أخبرني، ماهو رأيك في لين تاو ــ شينغ ؟.. »

وجّهت هسو هيو الحديث الى تاو ــ شينغ لانها كانت قلقة ــ رغم أنها لم تكن راغبة في أن تقول ذلك بكلمات كثيرة ــ من ان الفتاة قد لاتكون قادرة على الصمود في وجه تعذيب العدو الوحشي لها .

لم يجبها شيانغ هوا على الفور ، وفيما هو يخطو قدما تحت الضوء العاتم استطاعت ان ترى الملامح المرتسمة على وجهه . مرّت عدة دقائق قبل أن يجيب في هدوء ورقة : « لا اظن انها ستخبر عنا . كان انطباعي عنها انها ليست متعاطفة مع الثورة فحسب ، بل على استعدادٍ للعمل في سبيلها بحماسة منقطعة النظير ... »

وحدّث هسو هيو في اختصار عن عمل تاو ــ شينغ كمربية في

منزل احدى عائلات الملاكين وجهودها في الحصول على قائمة سونغ يو - بين السوداء . ثم بدل وجهة الحديث مرة اخرى : « هسو هيو ، يجب أن تذهبي لرؤية الاخت الكبيرة ليو عشية الفداة ، أما الآونة ، فينبغي أن نستفيد قدر المستطاع من كل ثانية تمرّ . أما فيما يتعلق بشرح سبب سفرك لسلطات الجامعة فأنا واثق أنك ستتدبرينه بصورة جيدة » .

اومأت هسو هيو براسها ، وارتعش صوتها انفعالا وهي تجيبه: « لاتقلق ، أيها العجوز شيانغ . سوف أطيع الحزب طاعة عمياء . اهنالك شيء آخر ؟ لقد حان اوان عودتي » .

- لا ، هذا كل شيء . تذكري فقط ان تأخذي حذرك ! اعطي عملك في الجامعة الى رفيق آخر تثقين به لانك لن تعودي الى هنا قبل مرور زمن طويل . وثمة شيء آخر : اطلبي الى هسياو - ين أن تحاول الحصول على معلومات عن تاو - شينغ من حين الى آخر . ماريك في ان نسأل والد هسياو - ين ان يكفل تاو - شينغ؟

- حسنا ، انها فكرة رائعة ! سأذهب لرؤية هسياو - ين . وداعاً !

كانا قد وصلا دون ان يشعرا الى هضبة كاول التي تنهض، مهجورة صافية ، مثل سنام احد الجمال في وجه السماء المضببة . اشترى شيانغ هوا بعدما فارقته هسو هيو علبة كبريت من كشك صغير، ثم استدار يراقب هيئتها النحيلة الرشيقة الى ان ابتلعتها الظلمة الداكنة. مشى وحيدا ، ورفع عينيه الى المقصورة الكبيرة المقامة على قمة الهضبة، وما اسرع ان لمح صورة وجه تاو - شينغ اللطيف المتوهج. وانقبض حاجباه الاسودان الثقيلان في توق لايمكن تفسيره . وفيما هو يطيل النظر الى المقصورة ومضت في ذهنه ، بمزيد من الوضوح ، صورة فتاة جميلة مشبوبة العاطفة .

* * *

٢٢

مرت سنة اخرى .

كانت وانغ هسياو – ين ، في غرفتها الصغيرة النظيفة في نـزل الفتيات في جامعة بكين ، تراوح وتغادي في عصبية . اخذت نسخة من « موجز علم الاقتصاد » ، ولما لم يكن مزاجها صافيا للقراءة وضعتـه جانبا ووقفت تنظر الى نفسها في المرآة . كان وجهها الهادىء الشاحب عادة متضرجا ، وحاجباها يرتعشان اهتياجا ، وهي تشعر بقلبها ينبض بسرعة بصورة جلية .

– سرعان ماسيصل الى هنا الآن !..

شعرت بهبة من السعادة حينما خطرت في بالها رؤية تاي يو . انها المرة الاولى التي تشعر فيها بالحب ، وهذا الحب لم يلهبها بمثاليات الشباب او فرحة الحياة ، ولكن بدا كما لو كان وسّع ايمانها بالثـورة والقضية التي نذرت لها نفسها . كانت هسياو – ين تعرف عن الثورة أقل مما تعرف تاو – شينغ ، ولكنها كانت واثقة من شيء واحد ألا وهو أن المجتمع القديم الشرير ينبغي أن يتهدّم ، وان الشعب ينبغي أن يهبّ للنضال في سبيل ولادة مجتمع جديد سعيد يسوده العدل . ولذلك ما ان التقت بتاي يو اول مرة في غرفة أحد الطلاب واصغت الى الاتهام المرير الذي يطلقه ذلك الشاب المثابر عن الجرائم الوحشية التي يرتكبها رجعيو الكيومنتانغ حتى طغى عليها تأثير ودود . واجتمعت به مرتين بعد ذلك في أمكنة اخرى ، وتعمّقت معرفتهما تدريجيا . نصح لها بقراءة بعض الكتب ، وساعدها في شرح محتوياتها . كان قارئا واسع المعرفة حقا ، قادرا على تلاوة مقاطع كاملة مـن « رأس المـال » والمؤلفـات الكلاسيكية الماركسية الاخرى بصورة تثير دهشة كثيرين من الطـلاب واعجابهم . كان ذلك الشاب ، بالنسبة الى هسياو – ين المحبة للدراسة، ثوريـا ومثقفا في آن واحد ، واخذ اعجابها به يتحول الى حـب على مـرّ الايـام .

وراح تاي يو يكثر من زياراته . وكان في كل مرة يأتي الى منزلها يقرع على الباب ثلاث مرات قبل أن يدخل بصورة مؤدبة غير فضولية.

سألها ذات يوم ، وهو يجلس ويركز نظارته لينظر اليها : « الى أين وصلت في قراءتك « رأس المال » ؟ » .

بدأ خداها يحترقان لدى رؤيتها له ، وقلبها يخفق مهتاجا عندما راحت تتكلم . بذلت جهدها للحفاظ على هدوئها ، وأجابت دون أن تجرؤ على النظر اليه : « وصلت الى الفصل ٥١ : علاقات التوزيع وعلاقات الانتاج . وما اسرع أن انتهي منه ، غير أنني لم أفهمه » .

ــ هذا رائع ! هذا هو الموقف الذي يجب أن يقفه الماركسي . تقولين إنك وصلت الى الفصل ٥١ ؟ الا يقول هذا الفصل ما يلي ؟ » رفع عينيه الى الاعلى وكأنه مستغرق في التفكير ، وراح يتلو : « ومن جهة أخرى ، فان التحليل العلمي لأسلوب الانتاج الراسمالي يثبت العكس، اي انه أسلوب انتاج من نوع فريد له اوصاف مميزة تاريخية محددة، اي انه ، مثل اي أسلوب محدد آخر من الانتاج ، يفترض سلفا مستوى معينا من القوى الانتاجية الاجتماعية واشكالها التطورية مثل ... » وهنا توقف عن التلاوة يعترف لهسياو ــ ين وهو يبتسم : « بقية هذا المقطع تهرب مني. ان لي ذاكرة سيئة » .

ــ أوه ، يالك من قارىء ممتاز ! ويالذاكرتك الرائعة !

وانحنى رأس هسياو ــ ين في خجل ، واهتزّ صوتها باعجاب بالغ.

وشيئا بعد شيء وجدا انه من العسير عليهما ان يستمرا في احاديث على ذلك الغرار . ما أن كان تاي يو يحضر حتى يقتعد كرسيا ويروح يطيل النظر اليها في صمت . كانت هسياو ــ ين واثقة أنها تحبه ، لكن شعورا قويا من احترام الذات يمنعها من ان تكون البادئة في الافصاح عن شعورها .

وهكذا كانا يقعدان وجها لوجه دون ان يتفوّه احدهما بكلمة واحدة طوال فترة من الوقت ، ومن ثم يلتقط تاي يو قبعته ويذهب . استندت ذات يوم الى الباب تراقبه ، وهمهمت بينها وبين نفسها ، والعبرات تغسل عينيها : يبدو انه مال اليّ ، لكن لماذا لا يفصح عن ذلك بطريقة ما؟»

بدأت هسياو ــ ين ، وغصّات الحب توجعها ، تخسر من وزنها ..

كانت تستلقي احيانا في سريرها وتخاطب نفسها : « يجب أن أستجمع شجاعتي وأخبره ان هنالك قلبا يموج بحبه ! فاذا لم يكن يهواني فينبغي أن أكف عن التفكير فيه » . وكان الحياء يغلبها في حضوره فتعجز عن الكلام .

والواقع ان تاي يو لم يعالن هسياو ـ ين بحبه لأن رؤساءه لم يأذنوا له بعد بذلك .

ارتأى ذات ليلة ان يطرق هذا الموضوع مع عشيقته . فكّر في الامر قليلا ، ووكز تلك المرأة الهزيلة التي تخطت سنوات الشباب ، والتي كانت مستلقية الى جانبه على السرير المزدوج ، وهمس يقول : « استيقظي ، يا فينغ ـ شوان ! ثمة شيء أريد أن أحدثك عنه » .

فتحت وانغ فينغ ـ شوان ، العميلة التي ساعدت هو مينغ ـ آن مرة على اغراء تاي يو بالاستسلام ، عينيها الناعستين ، وطوّحت ذراعيها حـول عنقـه ، وخرخرت في لطف : « ماذا هنالك ، أيها العجوز تاي؟ دعني أنم بين ذراعيك فترة اخرى ! »

ـ كلا ، ينبغي أن أذهب .

وعوضا عن أن يأتي أية حركة أضاف يقول بعد تردد قصير : « اردت ان اخبرك ان فتاة في جامعة بكين احبتني . انا لم اتودّد اليها بعد . كنت انتظر لأسألك النصح . . . فماذا ترين انه يجب عليّ أن أفعل ؟ » .

أشعلت وانغ فينغ ـ شوان لفافة وهي لاتبرح مستلقية في فراشها ، ونفخت دخانها مغتاظة ، وقالت ببرودة وقد ثبتت نظرها على السقف : « وهكذا فأنت لم ترَ اشياء كثيرة منها بعد ؟ عجل وتودّد اليها ! هيا اخطفها بسرعة ! » والتفتت ترميه بنظرة تدلّ على الحب والترقب : « صحيح انه لم تعد هنالك أعداد كبيرة من الحمر في جامعة بكين الآن ، ولكنه ليست هنالك اعداد كبيرة من الطلاب الى جانبنا أيضا ـ فالاغلبية الكبرى فيهم منصرفة الى الدراسة فحسب . فهل هـذه الفتاة مغرمة بالكتب كالآخرين ؟ ان كانت مغرمة بالكتب فافعل الحب معها مباشرة ، لكن حذار أن تخلب لبك وتأسر قلبك ! » ورمته بنظرة ثاقبة ، وطوّحت ذراعيها حول عنقه ، وسألت : « هل تحبها ؟ »

ـ كلا ! . . .

هزّ تاي يو رأسه ، دون ان يكشف عن شعوره الحقيقي بالنسبة الى هسياو — ين أو حقيقة أنها فتاة تقدمية . وكانت المرأة ، على اية حال ، لبيبة بما فيه الكفاية بحيث وصلت الى تخمين ثاقب ، فحذّرته قائلة وهي ترميه بنظرة حادة : « الحب ، حقا ! أنت لاتستأهل أن تكون محبوبا ! أنت لاتفقه معنى الحب ولاتملك الحق في ذلك ! »

ارتدى تاي يو ثيابه ، وقد سيطر عليه رعب هائل منعه عن أن يردّ كيدها ، ودلف خارجا وهو يحمل حزمة من الاوراق تحت ابطه .

رجع تلك العشية الى غرفة هسياو — ين . تضرّجت وجنتاها كثيرا لانها لم تره منذ أسبوعين ، وتدحرجت العبرات على وجنتيها ، فاستدارت في سرعة تخفي عنه عواطفها .

وقف تاي يو ومشى اليها على مهلة في شيء من الخجل حيث كانت تستند على حافة النافذة . وضع يده على كتفها ، وقال في لطف : « هسياو — ين ، يا رفيقتي العزيزة ! انا ... انا ... احبك ! » .

وخلع نظارته وطبع قبلات ملتهبة على وجهها الابيض البارد .

طفت في جوانح هسياو — ين سعادة غامرة فكأنها تعيش في أجواء حالمة . اسامت بصرها الى الرجل الذي أحبته منذ بعيد زمن . بدا لها ان ثمة عبرات في عينيه الناتئتين أيضا . لكن ، لكم يلوح عليه الضنى والمرض! سألته ، وقد أخافها مظهره : « مابالك ؟ أمريض أنت ؟ » . وقادته الى سريرها ، واضجعته ، وصبت له قدحا من الشاي ، ثم قعدت على مقعد لاظهر له الى جانبه تراقبه وترعاه في حنان وصمت .

استلقى تاي يو زمنا ، كما لو كان منتشيا ، ثم فتح عينيه وقال في ابتسامة اعتذار : « هسياو — ين ، ما ابهاك ! ما ألطفك وأحلاك ! منذ ان رايتك اول مرة لم يعد في مقدوري أن انساك — نقية أنت مثل مريم العذراء . لابدّ لمن يراك أن يشعر بخفقان في قلبه ويحنّ الى ان يطهّر روحه الآثمة » . وتناول يدها وقبّلها مرارا وتكرارا بشفتين جافتين ملتهبتين .

همهمت هسياو — ين ، وهي تشدّ يديها وتريح خدها على خده: « كلا . منذ ان لمحتك أول مرة ، يا شون — تساي ، انا .. ايضا .. لكنك تفضلني كثيرا . انا لم اشعر بمثل هذا الشعور تجاه أي انسان في الوجود ، فيما عدا تاو — شينغ . انت اشبه بالشمس بالنسبة اليّ » .

اجاب تاي يو ، المعروف باسم شينغ شون ـ تساي ، في صوت اجش بطيء وهو يضمّ هسياو ـ ين اليه : « لاتجعليني مثاليا ـ فأنا لست كذلك . هسياو ـ ين ، يا أعز عزيزة ! لأجلك ينبغي أن اسمو بنفسي واكون رجلا ... أحبيني ، ياحبيبتي ! أحبيني دائما ! ».

* * *

حدث ذلك قبل اسبوع . والآن ، بعد أسبوع من الانتظار المنفعل، ستلتقي بتاي يو من جديد .

سرّحت شعرها أمام المرآة ، وتطلعت الى وجنتيها المتضرجتين ، وابتسمت . كانت تشعر وكأن حبيبها يقف الى جانبها ، فأخذت تتفحص الغرفة النظيفة المرتبة التي تفعمها جرة من الياسمين برائحتها الزكية. ابتسمت مرة أخرى وهي تفتح درجا وتخرج منه حقيبة أنيقةمن صندوق أحمر مطعّم باللك هو هدية من عمتها في آخر عيد ميلاد لها . لم تكن تستعمل أدوات التجميل ، الامر الذي جعلها تخبئها في أحد الدروج منذ ذلك الحين . وهذا شيء اليوم يجعلها تستخرجها ، وتفتحها ، وتذرّ الذرور على وجهها . وحينما لمحت انعكاس صورتها في المرآة ـ تورّدَ خديها الزهري الذي يلوح اكثر جمالا من اي وقت مضى ـ أسرعت فمسحت الذرور بمنديلها في خجل . كانت فتاة بسيطة عاداتها ، تنكبُّ جاهدة على دروسها ولا تهدر وقتها على زخرفة نفسها . وهذه هي الآن ، خجلى من تبديد وقتها ، تسرع فتبتعد عن منضدة الزينة وتتناول كتابا عن طاولتها .

دقت الساعة الثالثة قبل ان تسمع هسياو ـ ين ، هذه التي راحت بين حين وحين ترفع عينيها القلقتين عن كتابها وتمدهما الى النافذة ، احدى شقيقتيها الاصغر منها تناديها من الباحة : « ثمة من يريد رؤيتك ، يا أختاه ! ». رمت كتابها جانبا ، واهرعت خارجة. كان شينغ شون ـ تساي أكثر اناقة وتبرجا اليوم منه في أي وقت آخر . حلق ذقنه ، وارتدى بزة على الطراز الغربي من نسيج صوفي أزرق برزت منها ياقة قميصه الابيض كالثلج . خطر لهسياو ـ ين انه في الثلاثين من عمره أو ماشابه ، أما اليوم فلا يلوح عليه انه تخطى الخامسة والعشرين .

كانت هذه إول زيارة يقوم بها تاي يو الى منزلها . قال بعد نظرة متفحصة : « هذا يبعث على الانشراح ، يا هسياو ـ ين . هل أهلك في سعة ؟ » .

قدمت له بعض المرطبات ، وجلست الى جانبه ، واجابت : « اوه ، ابدا ! ان راتب والدي لايكفينا ، كما أن الحكومة لاتدفع لموظفيها بانتظام أيضا . نموت سغبا اذا رحنا نعتمد تماما على دخل والدي ، غير أن لي عما ثريا هو مدير مصرف يمدنا بالمساعدة في أغلب الاحيان ــ ولذلك تسير أمورنا سيرا حسنا » . واضافت بعد ان شملته بنظرة متفحصة: « تبدو اليوم أحسن حالا . انت لم تمرض مرة أخرى ، أليس كذلك؟ لماذا ترفض دائما ان تخبرني أين تعيش ؟ أنت تعرف مبلغ شوقي الى زيارتك في أحد الايام » .

امسك تاي يو بذراع هسياو ــ ين ، وقد اغتم وجهه من جديد: « ياعزيزتي ، ان طبيعة عملي لاتسمح لي بذلك . يجب أن تعذريني... كيف كانت أحوالكم جميعا هذا الاسبوع ؟ » .

ــ في أحسن حال ، فيما عدا أني افتقدتك كثيرا !

اخذها بين ذراعيه . وما أن استردت وعيها قليلا من عناقه حتى سوت شعرها ونظرت اليه في حنان ، وسألت : « أتدري انهم سيطلقون سراح تاو ــ شينغ سريعا ؟ ذلك النذل هو مينغ ــ آن غادر بيبينغ . وعلى أية حال ، فان تاو ــ شينغ ليست شيوعية . وتدبر والدي الامر بأن جذب بعض الخيوط ، وهنالك احتمال كبير في أن يخلواسبيلها. وحالما أعرف تماما أنها خرجت من السجن فسأزورها في بيتها . شون ــ تساي ، هنالك شيء كنت أريد أن أسألك اياه ، ولكن الشجاعة لم تؤاتني . قالت تاو ــ شينغ انك قمت بزيارتها في تينغهسيين . وبدا انها لم تسر كثيرا من تلك الزيارة . وأخبرتني انك قدمت لهم نصيحة سيئة ــ فأنت في الحقيقة من اقترح الثورة ضد عمتي ! »

اشعل تاي يو لفافة ، ورشف قليلا من الشاي قبل أن يجيب في نغمة متماهلة : « لقد أخطأت فهمي تماما ! فقد حذرتها مثلما حذرت شابا يدعى شاو الا يذهبا الى حد التطرف او يرتكبا اخطاء يسارية . نصيحتي كانت أن يطردا معلمة رجعية تدعى وو ، وأن يتمسكا بعمتك.

السماء وحدها تعرف كيف اختلط الامر عليهما على هذا الفرار . وأنا لم أبق هنالك اكثر من ساعتين اثنتين ».

أطلقت هسياو ـ ين تنهيدة ارتياح عميقة ، وقالت وهي تبتسم ابتسامة ثقة واعتذار : « هكذا الامر اذن ! اعذرني ! لابدَّ أنني فهمت الامر منها خطأ. لسوف تغتبط كثيرا ، يا شون-تساي ، حينما تخرج وتجد أن الحب ربط بين قلبينا . فقد أسر الحب تاو ـ شينغ مرةمن قبل . وانا أكبرها سنا ، ولكن لم يكن لي حبيب ، واعتادت ان تضحك مني لانني كنت متزمتة » .

نتأت عينا تاي يو وهو يختلس اليها نظرة جانبية ويسأل مبتسما: « سوف يتاح لك الآن أن تخبريها في فخار انك حصلت على حبيب سرعان مايغدو لك زوجا ـ صحيح ؟ »

فردت عليه هسياو ـ ين بلكزة لطيفة ، وأدارت راسها جانبا وقد احمارّ وجهها: «لست أرغب في الزواج الآن . ليس قبل انأتخرج».

ـ طبعا ، طبعا ، فأنا لا أرغمك ، يا عزيزتي ...

بعيد ذهاب تاي يو دخلت هسياو ـ ين لتناول طعام العشاء والسعادة تشرق على وجهها . كان الصمت من عادتها ، ولكنها غدت ثرثارة فجأة ، تغيظ أختيها الصغيرتين وتمازحهما . أدهش هذا التبدل السيدة وانغ ، فابتسمت لزوجها وقالت تخاطبه : « أتعلم ، يا هونغ ـ بين ، أن ابنتنا هسياو ـ ين حصلت على حبيب ؟ »

تطلع البروفسور وانغ من ابنته الكبرى التي تملكها الخجل الى ابنتيه الصغراوين ، وانفجر ضاحكا : « أوه ، بلى ، لدي جواسيس يرفعون اليَّ التقارير منذ زمن طويل ! أنا لا أعارض في ذلك ، لا أعارض على الأطلاق ! لقد بلغت هسياو ـ ين الثانية والعشرين الآن . وحان الوقت ليكون لها حبيب ، لكن ... » ووضع في فمه لقمة أخرى وبلعها قبل ان يتابع ، وهو يهز رأسه : « ولكنه يجب أن يكون شريفا ومثقفا. مارأيك ، ياهسياو ـ ين ؟ أي صنف من الرجال هو ؟ » .

حنت هسياو ـ ين راسها لحظات فوق قصعة الارز قبل أن تجيب قائلة : « انه على مايرام . وهو مثقف وتقدمي . كما أنه صريح ومستقيم ايضا ... »

ـ أجل ، أنا اعرف . لقد تبدلت أفكار هسياو ـ ين خلال السنة

الماضية تبدلا كبيرا . وباعتبارها حوارية لكارل ماركس فقد مارست تأثيرا كبيرا علي أنا أيضا . وأعتقد ان ذلك الشاب الفتى هو . . . حسن، حظا طيبا لك ! الامور تجري في مجراها المقدر المحتوم : الكيومنتانغ تعفن كثيرا ، فلا عجب ان تعم النقمة بين الناس . . . » وربتت على رأس لينغ ــ ين ابنته الصغرى ، وضحك ملء جوارحه من جديد ، وأومأ لنفسه بهزة من رأسه : « طالما انك سعيدة ، ياهسياو ــ ين ، فأنا سعيد مثلك . لكنه ينبغي أن تحذري جيدا ! » وهز رأسه : « لايستطيع الابوان الا ان يقلقا على اولادهما حتى حين لاتدعو الحاجة الى القلق » .

احمارّت هسياو ــ ين وابياضّت وهي ترنو في امتنان قلبي الى والديها اللطيفين المحبين ، ومن بعد الى شقيقتيها العابثتين اللتين تحاولان التظاهر بالفزع في حضورها .

قالت على الفور في صوت مخفوض : « أرجو الا تقلقوا جميعا . . . فهو شخص رائع . . . » ورفعت بصرها عاليا واضافت في نبرة غير واثقة، غير عارفة ماهية الجواب الذي ستحصل عليه : « ابتاه ، أنت تعرف أن تاو ــ شينغ سيطلق سراحها قريبا . وليس لديها مكان تأوي اليه . فهل أستطيع ان اطلب اليها الاقامة معنا ؟»

اختفت الابتسامة المرتسمة على وجه البروفسور وانغ ، في حين رمقته زوجته بنظرة قلقة .

أشعل لفافة نفخ دخانها وهو يمعن النظر قليلا ، قبل ان يقول : « انها فتاة طيبة ، لكن ــ صبيانية نوعا ما . . . ورغم ذلك ، فاننا نستطيع أن نفعل ما سأقترح . أنا أعتقد أنهم سيطلقون سراحها فورا بعدما طلبت الى عمك ان يتوسط لها لدى صديقه في الحكومة المحلية . فلتأتي الى هنا . يبدو أن الشبان في هذه الايام لايمكن حبسهم وراء جدران غرف دراستهم بعد الآن » . وتوقف عن الكلام عاجزا عن الاستمرار فيه لعدم ثقة في النفس .

أرغمت ملامح القلق الخطيرة التي ارتسمت على صفحة وجهه وهو يستند على ظهر كرسيه هسياو ــ ين على الضحك رغماعن ارادتها .

ربتت على كتف والدها ، وابتسمت : « أبتاه ! مرّ زمن أردتني فيه أن ادفن نفسي في الكتب واطرح السياسة جانبا . فما قولك الآن في مقالة الدكتور هوشيه التي تتحدث عن انقاذ البلاد عن طريق الدراسة؟»

حملق البروفسور وانغ فيها طوال برهة كما لو كانت غريبة عنه. ثم ضرب المنضدة بقبضة يده ، وصاح في عنف : « كل شيء يتطـور ويتبدّل . ليس ثمة شيء في هذا الوجود يمكن أن يكون جامدا . وهذا ينطبق على أفكارنا ايضا ! » .

كانت السيدة وانغ تجلس الى جانب زوجها تحبك صدرية خضراء لابنتها الصغرى . فرفعت نظرها الى هسياو ـ ين وقالت مبتسمة : « ربما كنت لاتعرفين ، ياهسياو ـ ين . ولكن والدك شرع مؤخرا يقرأ الفلسفة كل ليلة طوال ساعتين قبل أن يلجأ الى النوم . **أنتي ـ دوهرنغ**، **والمادية الديالكتيكية** ، **وبؤس الفلسفة** ... هذه الكتب تثقل على راسي، ولكنه يبدو أنها جعلت منه مهتديا » .

ابتسمت هسياو ـ ين لوالدها ، فظهرت غمازتان عميقتان على وجهها البيضوي الجميل .

* * *

٢٣

بتوقيع اتفاقية هو-اوميزو عام ١٩٣٥ سلّمت حكومة الكيومنتانغ جميع حقوق سيادتها في شمالي الصين الى الامبرياليين اليابانيين . وبعيد انسحاب القوات الصينية من هوبيي أغلق مكتب الكيومنتانغ في بيبينغ وارتحل هو مينغ - آن جنوبا . ونتيجة لذلك أطلق سراح تاو - شينغ و يو شو - هسيو بالكفالة في تموز ١٩٣٥ لعدم كفاية الادلة ضدهما بعد أن بقيتا سجينتين أكثر من سنة كاملة .

خرجت شو - هسيو من السجن أولا ، ولكنها لم تحتمل فكرة فراقها عن تاو - شينغ . خلال جولتهما التنفسية في الباحة قبيل اطلاق سراحها أسرعت الى صديقتها وقالت والعبرات تخنقها : « لن أتمكن من رؤيتك كثيرا بعيد خروجي من هنا ! » .

ربتت تاو - شينغ على كتفها مبتسمة ، وأجابت : « أيتها الصغيرة الحمقاء ! فكّري كم افتقدتِ أمك . الآونة تستطيعين الرجوع الى البيت والبقاء معها من جديد - يالسعادتكما ! »

وضغطت الفتاة شفتيها باحكام : « ولكنني سأفتقدك كثيرا . أحبك أنت والاخت شينغ بمقدار حبّي أمي . لن أنساكما . وهبت لي أمي الحياة ، أما أنتما - والحزب - فقد وهبتم لي شيئا أعيش من أجله » .

مسّ حديث الفتاة الصريح الدافىء شغاف قلب تاو - شينغ التي قبضت على يدها وتطلعت في عينيها في وداد وحب .

- طالما أننا نمشي على الطريق ذاتها فسنبقى معا . الا ترين ، يا شو - هسيو ، أنه اذا كانت لنا مثل عليا واحدة نكون قد ارتبطنا معا بأواصر قضيتنا المشتركة مهما فرّقت بيننا البحار والبراري ؟

أومأت الاخرى موافقة وقد أضاء وجهها اللطيف الناعم . اراحت

رأسها على كتف تاو ـ شينغ وقالت في حماسة : « العنيدون والمتنمرون يحسبون ان اعتقالنا يضطرنا الى التزام الصمت . يا له من رجاء ! لقد أرسلوني الى معهد للماركسية ـ اللينينية هنا ! شكرا لهم أنني وجدت الحقيقة ! » وتطلعت حواليها في حذر ، ولما لم تجد احدا استرسلت تقول في نبرة متعجلة : « سأبدأ على الفور حال خروجي من هنا . سأجيء واعثر عليك وتكونين مرشدي ، أليس كذلك ؟ » .

أومأت تاو ـ شينغ برأسها وحررت نفسها من عناقها وهي تبتسم .

بعيد عشرة أيام أطلق سراح تاو ـ شينغ أيضا ، وجاءت وانغ هسياو ـ ين تصطحبها الى منزلها .

كان وقت الغداء ، والسيدة وانغ منصرفة الى عملها في المطهى مرتدية ازارا أبيض اللون . قادت هسياو ـ ين صديقتها الى غرفة الطعام مباشرة حيث البروفسور وانغ ينتظرهما . وحينما وقع بصره على تاو ـ شينغ رفع قدحا مملوءا بالخمرة حتى حافته ، وأعلن : « أهلا! اهلا بالمناضلة العائدة من جبهة النضال الطبقي ! » وقدم القدح الى تاو ـ شينغ وهو يبتسم ، وأضاف: «نخب انتصارك وانتصارا صدقائك!»

ـ شكرا جزيلا ، ياعماه !

ورشفت تاو ـ شينغ من قدحها رشفة ، في حين أفرغ البروفسور قدحه . ثم التفت والابتسامة على وجهه الى هسياو ـ ين وابنتيه الصغيرتين ، قائلا : « اجلسن ، جميعا . هسويه ـ ين ولينغ ـ ين ، لماذا لم ترحبا بالصديقة المثلى لشقيقتكما ؟.. قد تكون اغضبت عمتكما، ولكننا نرحب بها ههنا » .

ـ اهلا بك ، أيتها الاخت لين !

ثبتت الفتاتان الصغيرتان عينين فضوليتين صدوقتين على وجه تاو ـ شينغ الشاحب ووقفتا الى جانب مقعدها يغلب عليهما الحياء بعد أن مرت فترة طويلة من الزمن لم تشاهداها خلالها .

قالت تاو ـ شينغ: « لكم أنا ممتنة ،ياعماه، كريم مساعدتك» . ولكن البروفسور قطع حديث شكرها على الفور . قطب جبينه والكأس في يده وقد نفد صبره لتحرير نفسه من العبء الذي يئيد عليه . قال : «كلا، أنا من ينبغي ان يكون ممتنا . فقد علمت ابنتي شيئا كثيرا ، وهي بدورها علمتني أنا . أقول لك ، يا تاو ـ شينغ ، أنها جعلتني أساير الاحداث

طوال الاشهر الستة الاخيرة أو اكثر من ذلك . لقد فتحت عينيّ على الاحوال الراهنة حينما كانت تمدني بتحليلاتها ووجهات نظرها ــ وأؤكد لك أني لا أقول غير الصدق ! ان حكومة الكيومنتانغ تنطلق من سيىء الى أسوأ . وسياستها في « تسوية المصاعب الداخليه قبل طرد الغزاة » تقلصت الى حد تسليم الشمال الشرقي اولا ومن بعد شمالي الصين . انها تجرّ بلدنا العظيم الى الدمار ... » . ومسح نظارته ، وحركها امام بناته عدة حركات سريعة تفيض اهتياجا ، ثم هتف وهو يهز رأسه: « هل نسمح لجزيرة صغيرة من الارض أن تهزأ ببلدنا العريق بحضارته التي تمتد الى خمسة قرون ؟ كلا ! انا اعاضد نضالكم ــ على الرغم من أن كلمة « نضال » كانت تصيبني بوجع في الرأس في الايام الماضية ! » وانفجر ضاحكا .

قالت السيدة وانغ ، وقد انزلقت الى الغرفة فيما زوجها يعبّر عن وجهات نظره السياسية : « يا بروفسوري العزيز ، هذا ليس وقت المحاضرات » . وامسكت بتاو ــ شينغ من يدها . وقالت بنبرة امومية : « لكم هزلت بنيتك،يا عزيزتي ! أنظروا ماذا فعلوا بفتاةحلوة! » ومسحت الدموع التي ترقرقت في عينيها ، وقالت في لطف مخاطبة زوجها : « أنا واثقة أن الفتاتين تعرفان قدر ما تعرف انت . تفضلوا وكلوا جميعا ! لاريبة أن تاو ــ شينغ جائعة بعد طعام السجن السيىء، ولذلك طهوت اليوم بعض الاطعمة الخاصة الفنية بالفيتامينين « أ » و « ب » . هيا ، باشروا طعامكم ! » .

أثار ذلك عاصفة عامة من الضحك ، وجعل الجميع يثرثرون سعداء خلال تناول الطعام . اغتبطت تاوـشينغ لرؤيتها مقدار تبدل هسياوـين ومقدار السعادة والآراء التقدمية التي طفت على أسرة صديقتها .

كان مذاق الاطعمة الثرية فاخرا بعد اشهر من طعام السجن ، وانطربت من الجوّ الذي يسود الاسرة ، ومن الحرية التي عثرت عليها مجددا ، ومن طموحها الى العمل في سبيل الثورة من جديد . غير أن هذا التبدل الفجائي جعلها اشبه ماتكون بمن يشعر بالدوار والارتباك مثلما شعرت يوم اعتقالها قبل مضيّ اكثر من عام . بدا لها ذلك كله وكأنه حلم من الاحلام .

بعيد انتهاء الطعام اقتادت هسياو ــ ين صديقتها تاو ــ شينغ

الى غرفتها . كانت شمس بعيد الظهيرة تشع على أصيص الياسمين الابيض الموضوع على حافة النافذة ، وتغمر الغرفة الصغيرة النظيفة بالدفء والسكينة . أمسكت الفتاتان بيدي بعضيهما الآن في سكون فترة من الوقت وقد أصبحتا وحيدتين عاجزتين عن النطق . وقالت تاو-شينغ اخيرا : « هسياو – ين ، أفلم تركضي وراء السيارة في هاتيك الليلة التي اعتقلوني فيها ؟ لكم خطرت تلك الليلة في بالي وانا في السجن، مثلما خطر في باليذلك الحديثالقلبي الذيتبادلناه.انه حقا عربونصداقتنا».

فأجابت هسياو-ين في صوت هادىء ، وقد حنت راسها : «بلى لم أستطع الا أن اركض وراء السيارة . كنت منفعلة قلقا ، أتوق الى اللحاق بها واختطافك من بين ايديهم ... بكيت الليلة بطولها ، كما تعرفين . ولكن ذلك اليوم عرّفني على الطبيعة الحقيقية لهذا المجتمع الفاسد ، وعلى التفسخ الحقيقي للكيومنتانغ . أول مرة جعل ذلك الحيوان هو مينغ – آن يلاحقك فيها اعتبرت الامر شخصيا بينكما ، الا أن تلك التجربة الرهيبة الاخيرة التي شاهدت علمتني درسا وفتحت لي عينيّ » . ورفعت وجها مشرقا بالسعادة على الرغم من العبرات المتدفقة على وجنتيه . مسحت عبراتها ، ومسحت على يد تاو – شينغ النحيلة ، وتابعت تقول : « كنت أتذكر في اغلب الاوقات كيف كنت تستشهدين بهذه السطور من قصيدة كلاسيكية : ليست هنالك نيران يمكن ان تحرقها كلية ، فان رياح الربيع تهبّ وتعيدها الى الحياة من جديد . هذا صحيح . حينما اعتقلوك عرفت أنه ينبغي عليّ أن آخذ مكانك وأتابع عملك . واذا اعتقلوني فان هنالك كثيرين سيأخذون مكاني ويقاتلون . بلى . ليست هنالك نيران يمكن أن تحرقها كليّة . ابدا !»

استلقت تاو – شينغ على السرير منهكة القوى ، وأجابت وعيناها عالقتان بصديقتها : « عرفت من رسائلك انك غدوت اكثر نشاطا وأنك قمت بعمل عظيم حقا ، وان لديك الآن هدفا محددا في دراستك . لكم يسعدني ذلك ! » .

واغتبطت هسياو – ين من تفهم صديقتها ومديحها اياها : « هل تأكدت من ذلك ؟ ومع هذا فأنت لاتعرفين التفاصيل كاملة . فيالجامعة رحت أتقرّب كثيرا من الناس الذين خيّل اليّ انهم من الشيوعيين أو

اعضاء في عصبة الشبيبة ، مثلهم مثل جميع التقدميين الآخرين ايضا . شاركت في جميع نشاطاتهم وغدوت فعّالة!» واسترسلت تقول بعدفترة من صمت : « هل تذكرين لي هوي ــ ينغ ؟ لقد تأسّفت عليك مرة وخذلتنا . وهذه هي الآونة تريد ان تصبح شاعرة وتقضي معظم اوقاتها في قراءة شكسبير . انها حسناء الجامعة الآن ــ احدى فتيات المجتمع الجميلات . وهي تزهو بنفسها وتفخر كثيرا ! » .

كانت هسياو ــ ين جالسة على حافة السرير ويد صديقتها بين يديها . وقالت تاو ــ شينغ مبتسمة ، بعدما أصغت في اهتمام :«انها طبيعة البورجوازية الصغيرة أن تتذبذب . وقضية لي هوي ــ ينغ ليست القضية الوحيدة بحال من الاحوال ... وبالمناسبة ، يا هسياو ــ ين ، هل لديك اية أخبار عن اصدقائي لو شيا-شوان ، ولو تا ــ فانغ، وشيانغ هوا ، وهسو نينغ ، وهسو هيو ؟ لقد اتخذت لي صديقات جديدات في السجن . ولكنني لا استطيع ان أنسى اصدقائي القدامى» .

ــ لم اسمع شيئا عن لو شيا ــ شوان أو لو تا ــ فانغ . هسو نينغ في السجن الاول . ومن غريب القول أن امه سمعت عني وزارتني مرة . وهسو هيو لم ترجع بعد . ومع ذلك فقد جاءهم احدهم ...

وغمزت بعينها فجأة،وبدت أصفر واكثر مرحا مما كانت تاو-شينغ تعرفها . لكزت صديقتها ، واكملت تقول في ضحكة لطيفة : « زارني أحدهم في النزل مرتين ، وفي المرتين كان الوقت عشية . قال لي أنه يدعى لي ، وسألني عنك . واشتبهت انه شيانغ هوا الذي ذكرتيه لي مرة . كان يلوح عليه الاهتمام بك كثيرا » .

اجابت تاو ــ شينغ ، وقد شدهت قليلا : « اشكّ في ذلك . ماذا يمكن ان يفعل شيانغ هوا في بيبينغ ؟.. انت تعرفين ، يا هسياو ــ ين، ان اروع ماحدث معي كان اجتماعي بلو شيا ــ شوان و شيانغ هوا ولين هونغ ، هذه التي تعرفت عليها أثناء وجودي في السجن ، ولكن التفكير فيهم يؤلمني كثيرا . لقد قتلت لين هونغ ، ولربما قتل لو شيا ــ شوان أيضا ... حسنا ، فلنأمل أن يكون شيانغ هوا هنا في بيبينغ . هل تعرفين كيف يمكن العثور عليه ؟ » .

هزّت هسياو ــ ين رأسها ، وحدّقت في صديقتها ، وقالت في صوت مكبوت : « كلا . سمعت عن لين هونغ- أفلم تكن تطلق على نفسها اسم شينغ شين ؟» .

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ أخبرتني يو شو ـ هسيو . جاءت لرؤيتي يوم أخلوا سبيلها، وحدثتني طوال ساعات عن حياتها وعن نضالها في السجن . واخبرتني عن مدى التأثير الذي تركتت انت و لين هونغ عليها .

واغمضت هسياو ـ ين عينيها ، وتنهدت : « حين اغلق عينيّ يخيل اليّ انني ارى تلك المراة الجميلة ثابتة العزيمة » .

غطت تاو ـ شينغ عينيها بيديها وهي مستلقية ، وقالت بتمهل واستغراق في التفكير : « امراة مثلها لايمكن أن تموت . لسوف تعيش ابدا ... » .

في هذه اللحظة اندفعت شو ـ هسيو داخلة الى الغرفة . وما أن لمحت تاو ـ شينغ حتى ركضت اليها تعانقها وتبكي في فرح : « لكم انا مسرورة لاطلاق سراحك ، يا تاو ـ شينغ ! لم تأذن لي أمي بالذهاب الى السجن للاجتماع بك ، ولكنني كنت اعرف انك ستجيئين الى هنا، فتدبّرت أمر خروجي من البيت وقدمت الى هنا مباشرة . اوه ، اليس هذا رائعا ! الآونة نستطيع ان نناضل معا ضد ذلك الوحش شيانغ كاي ـ شيك ! » .

وفيما كانت هسياو ـ ين واقفة تراقب تلك الفتاة العاطفية الجميلة ادهشها انشراح شو ـ هسيو وتصميمها على الانطلاق على الطريق القويمة بعد التعذيب الوحشي الذي لاتحتمله فتاة صغيرة مثلها . وتغرغرت عيناها بدموع التأثر .

جلست تاو ـ شينغ في فراشها لتمسك بالفتاة من كتفيها النحيلين وتنظر في وجهها . قالت : « أعتقد ان وزنك أزداد قليلا ، ياصغيرتي . ماذا كانت تطبخ امك لك من طعام جيد ؟ »

فتجهّمت شو ـ هسيو : « لاشيء ! امي راحت تعنّفني ، وكذلك ابي . تعرفين انني اعتقلت بتهمة غير صحيحة . حسنا ، قالا ان ذلك الاعتقال افادني كثيرا لاهمالي وحملي كتابا غلافه أحمر الى مكتبة بكين . ليست لديهما اية فكرة عن اني دخلت الى السجن كمشبوهة وخرجت منه ثورية حقيقية ! وقد حذّراني اني اذا تعرضت للاعتقال من جديد فقد أفقد راسي . ولهذا فهما يراقبانني مراقبة صارمة ولايسمحان لي

بمغادرة المنزل . واخفيا عني جميع كتبي الباحثة في النظرية الثورية. والدي جبان وطبيعي أن تحذو أمي حذوه ، فتروح تصلي لبوذا كيما يحفظني ويصونني . فأين هو الوقت الكافي الذي يسمح لها بطبخ اطعمة جيدة ؟ » .

هذه الكلمات المسلّية اغرقت تاو – شينغ وهسياو – ين في الضحك ، ولكن شو – هسيو لم تشاركهما فيه . لكزت كلا منهما ، وعبست ، وصاحت : « فيمَ تضحكان ؟ انا جادة وقد جئت أطلب نصيحتكما . أريد الانضمام الى الجيش الاحمر او العمل في معمل بحيث اغدو بروليتارية حقيقية . ومهما يحدث من أمر فأنا لا أريد البقاء في البيت بعد الآن » .

وامسكت تاو – شينغ يد الفتاة في يدها : « حسنا ، ياعزيزتي، لاتضطربي كثيرا ! لسوف نساعدك ، لكنه ينبغي أن تتذرعي بالصبر . لاترتكبي عملا طائشا تكسرين به قلب والديك . الثورة ليست شيئا ندور ونثرثر عنه . الانضمام الى الجيش الاحمر أو العمل في مصنع يوجب عليك أولا الاتصال بالحزب – نحن لانستطيع أن نتّبع نزواتنا فحسب » .

بدات شو–هسيو تجنح الى الهدوء بعد هذا الحديث . رفعت راسها واستوضحت بعينين متسعتين : «هل أنت على اتصال بالحزب؟»

– كلا . فقد افرجوا عني صباح هذا اليوم .

– أرجو ان تخبريني حالما تكونين على اتصال به .

واندفعت الفتاة خارجة من جديد ، مرغمة على فراق تاو – شينغ بعد هذه الزيارة القصيرة كيلا تغضب والديها .

تحدثت تاو – شينغ و هسياو – ين وهما مضطجعتان في السرير في تلك الليلة ، فقد كان لدى كل منهما اسئلة كثيرة تريد أن ترويها للاخرى .

– هسياو – ين ، هل عرفت الحب خلال السنة الماضية او قبلها؟ لسوف تعرفينه ذات يوم !

فجاءها الجواب الهادىء : « أجل ، عرفته . وانت تعرفينه ايضا. ولكنني لم اتخذ قرارا نهائيا بشأنه بعد ».

ـ من يكون ؟ اهو شخص أعرفه ؟
ـ أجل ، شينغ شون ـ تساي ، أو تاي يو .
ـ تاي يو ؟..

وتوقف قلب تاو ـ شينغ عن الخفقان ، ولكنها لم تستطع أن تخبر صديقتها بشكوكها . واسترسلت تقول بعد فترة طويلة من التردد: « تاي يو ؟ حسنا ، تهاني ! كيف التقيتما ؟ »

أجابت هسياو ـ ين في انتعاش : « في غرفة فانغ شو ـ لينغ في الجامعة . هو وهي من مقاطعة واحدة ،وبعدماالتقينا عدة مرات هنالك غدونا صديقين ... انه قادر على تلاوة مقاطع كاملة من « رأس المال » عن ظهر قلب » .

ـ أتعرفين كل شيء عن ماضيه ؟

ردت هسياو ـ ين في قلق ، وقد استشعرت الاستهجان الضمني في سؤال صديقتها : « كلا ، ليس بعد ... لكنني سأعرف المزيد عنه». وحاولت تجنب الخوض في هذا الحديث الباعث على الغيظ،فسألت فجأة : « وماذا عنك انت ، يا تاو ـ شينغ ؟ أفليس لديك حبيب؟ ».

ابتسمت تاو ـ شينغ وقالت : « كلا . الرجال الوحيدون الذين التقيت بهم في السجن هم السجانون » .

فأصرّت هسياو ـ ين في لطف ، وكأنها نسيت القلق الذي أثارته صديقتها قبل قليل : « لكن، بشرفك ، أفليس هنالك من تحبين ؟ ».

لم تعطها من جواب . وبعد أن اعتصمت كل منهما بالصمت فترة، شرعت تاو ـ شينغ تقول في بطء وكأن ثمة شيئا في حلقها يحول بينها وبين الكلام ، وكل حرف يسبب لها غصة من الالم : « انت لاتفهمين، يا هسياو ـ ين .. لقد وهبت قلبي ، ولن أبدّل فيه شيئا . ولن أبالي مهما طال الزمن الذي سأنتظره فيه » .

ـ من يكون ؟ أخبريني ! انت لم تشيري الى شيء من ذلك قبلا! كانت الدهشة والاثارة تفعمان صوتها .

وثبت تاو ـ شينغ من السرير وأشعلت الضوء ، ومزقت هدب قميصها ، وأخرجت ورقة رقيقة مطوية، فتحتها وأعطتها الى هسياو ـ ين: « لاتضحكي . هذه سطور كتبتها في السجن . انها قصيدة عنه .

اخذت هسياو ـ ين تقرؤها موزّعة بين الذهول والخوف . فكشفت لها السطور المتلاصقة عن آلام الحنين المبرّحة في فؤاد صديقتها :

انت ومضة من نور
تخترق حجب الليلة العاصفة السوداء ؛
شجاع أبدا ،
جليل أبدا !
عاليا فوقك يضيء طريقي في الحياة .
أنا مجرد قطرة من مطر تهطل بأمرٍ منك .
الى أين تنطلق ، يا نوريَ المقدام ؟
وأين أنت الآن ؟

★

نحــن بَعْد لم تعرّي قلبينا ،
ولم نتوصل الى تفهمِ صموت ،
ولكنني بك أؤمن ،
ولسوف دائما أؤمن
ان أعجوبة لابدّ أن تقع !
أبواب الزنزانة الحديدية انفلقت ،
وفي الحديقة خارجا ، ياصديقي ،
على مرجة شبيهة بمخمل أخضر ،
هذا أنت تبتسم لي ،
هذا أنت تعالنني في صوت ناعم
عن أفعالك الجسورة ومعاركك البطولية القاسية .
ما اطيب حظّي !
سوف لن نفترق مرة أخرى !
لكن ، ياصديقي العزيز ،
اين انت الآن ؟
وهل نلتقي مرة اخرى في هذا الوجود ؟

★

آه ، ياصديقي ،
اين انت الآن ؟
اين انت الآن ؟
أتعلم ، تـــراكَ ،
أن فتاة في انتعاشة الربيـــع
تنتظرك في شوق ؟
الحب العميق والاخلاص في قلبها كامنان ،
ولسوف تبقى في انتظارك الى الابد .

غرقت تاو ـ شينغ الى جانب المنضدة وقد دفنت راسها بـين ذراعيها . وحينما انتهت هسياو ـ ين من القراءة شعّ وجهها وتندّت عيناها بالدموع . أسرعت الى صديقتها وقالت في لطف : « تاو ـ شينغ، انا افهمك الآن ـ وافهم آلامك وآمالك ... وانا واثقة الآن انه سيجيء يوم نكسر فيه جميع ابواب السجون ، ويكون فيه الخلان قادرين عـلى فتح مغاليق صدورهم في الحدائق الجميلة ... هذا اليوم لابدّ أن يجيء ! » .

فردت تاو ـ شينغ بثبات ، وقد رفعت راسها : « مؤكـد انـه سيجيء ! » .

* * *

٢٤

كانت تاو ـ شينغ منتصبة بجوار النافذة مثبتة عينيهـا عـلى أصيص الياسمين الموضوع على حافتها . وكان القلق ينهشها . ان شانغ هوا ـ ينغ قد اخبرها قبيل اطلاق سراحها بقليل ، وكان على اتصال دائم معها في السجن ، أن ثمة شخصا سيزورها بعيد خروجها مباشرة. وهذان يومان مرا دون أن يأتي انسان . من تراه سيكون واسطةجديدة للاتصال الحزبي ؟.. كانت قد بقيت في المنزل في حين خرجت هسياو ـ ين الى محاضرة ، وذلك كيلا تفوتها الزيارة المرتقبة .

في حوالي الساعة العاشرة جاء شيانغ هوا . فهرولت تستقبله في اندهاش وسرور ، وامسكت بيده وقد تراقصت على ملامحها ابتسامة: « كيف ، العجوز شيانغ ! سنتان مرتا منذ آخر لقاء لنا ! » .

ـ أجل .أكثر من سنة بطولها . خرجت ِ مؤخرا على ماتناهى الي ّ.

كان شيانغ هوا يبدو مثل موظف حكومي بعباءته الحريرية الزرقاء وحذائه الجلدي الاسود . وكان شعره مشعثا قليلا ، ولكن عينيـه اللطيفتين موثوقتان جريئتان مثلهما ابدا .

ـ حدثت أمور كثيرة منذ افتراقنا في شينسي ...

نظرت اليه بعينين متراقصتين ، عاجزة عن معرفة ماذا تقول له. كان يبتسم هو الآخر ، فقال حينما لحظ شحوبها ونحولها المتزايدين : « تاو ـ شينغ ، تلوحين أكثر طولا » .

فانفجرت ضاحكة : « يا للهراء ! أما زلت أطول وأنا في هذا العمر ؟ لربما كان لنقص وزني سبب في ذلك ... اجلس ، أيها العجوز شيانغ . ولنثرثر قليلا » .

ـ أخشى أنني في عجلة من امري . ليس لديّ غير دقائق معدودات. وبالمناسبة ، هل تستطيعين كتابة تقرير عن نفسك هذا النهار ؟

وارتسمت الدهشة في عيني تاو ـ شينغ : « لماذا ؟ »

ـ الم يحدثك شانغ هوا ـ ينغ عن ذلك ؟ لسوف يتحقق حلمك، يا تاو ـ شينغ ، لانك أثبت في السجن جدارة . وقد اتخذ قرار بشأن قبولك في الحزب » . وأشرق وجه شيانغ هوا الاحمر العريض .

وقفت تاو ـ شينغ وقد تسمَّرت قدماها في الارض ، والسعادة تفيض في جوانحها . تضرّجت وجنتاها حمرة ، وحملقت بعينين مدورتين، عاجزة عن الكلام .

ساءلت نفسها : « أصحيح هذا ؟ هل سيتحقق الحلم الذي داعبني طوال هذه السنوات ؟ هل سأتعرّف على السعادة العظمى السائدة على هذه الارض ؟... » تبللت عيناها بالدموع وهي تبتسم له في خجل . وارتعشت شفتاها وكأنها تريد أن تقول شيئا ، فأعجزها لسانها عن النطق.

اضاف شيانغ هوا في صوت خفيض : « اذكري الحقائق المجردة في تقريرك . لاتخفي شيئا عن الحزب » .

ـ طبيعي اني لن افعل ! استطيع أن اكون صادقة الصدق كله مع الحـزب !

تحدثت تاو ـ شينغ في نعومة وبتمهّل ، وهي تحاول السيطرة على طغيـان تهللها .

وابتسمت له ، واضافت : « لقد كنت انت اذن الانسان الذي اخبرني شانغ هوا ـ ينغ انه سيأتي لرؤيتي ! مؤكد اننا لسنا في حاجـة الى تعارف ، أيها العجوز شيانغ ؟ »

ـ كلا ، ذلك اجراء حزبي لابدّ منه .

كان صوته باردا يشبه صوت رجال الاعمال ، فمن عادته ان يكون متحفظا ، وكانت تلوح عليه السكينة والفظاظة رغم سعادته وحقيقة أن لقاءه غير المنتظر بتاو ـ شينغ أثار كوامن مشاعره حقا . ذهب بعـد لحظات قصيرة . وحدها النظرة العاطفية التي استدار ليلقيها عليها حيث وقفت عند البوابة تودّعه فضحت شعوره الدافىء وصداقتـه الحنون اللتين لم يفصح عنهما قبلا .

نادته ، وهي تركض وراءه بحيث توقف عن السير : « لحظـة واحدة ! ايمكن ان تخبرني اي نوع من الرجال هو تاي يو ؟ » .

ـ تاي يو ؟ ما رأيك أنت فيه ؟

ـ لم أستطع أن أتبين ما اذا كان يختلف عنكم جميعا .

وتابعت تقول عندما لم يعطها جوابا : « أتعرف أنه وهسياو ـ ين غارقان في الحب ؟ »

ـ كلا ، لاعلم لي بذلك . في هذه الحال ...

وتوقف قليلا قبل أن يسترسل : « يحسن بك أن تغادري منزل هسياو ـ ين في أقرب فرصة مستطاعة . ولنجعل لقاءنا في حديقة بيهاي غدا ونبحث في جميع الامور ، لكن كفي عن الثقة في هسياو ـ ين بعد الآن » .

أجفلت تاو ـ شينغ ، ولكنها أومأت برأسها ولم تنطق بحرف .

جاء اليوم العظيم أخيرا .

الوقت بعد ظهيرة يوم صيفي . وحجاب كثيف من الغبار معلّق فوق الشوارع الملفوحة يغلّف المدينة بأسرها ـ الابنية الشهباء ، وحركة المرور الشهباء ، والمارة الشهب ـ بسديم كثيف خانق . وبدت بيبينغ مدينة قديمة تبعث على الملل بصورة لانهاية لها . وغصون خضر تندفع الى الاعلى ناحية السماء الزرقاء تبرز حاشية فتية ، لكن كل شيء آخر يحمل طابع الاختلاط ، والعجز ، والسبات في المدينة القديمة .

كانت تاو ـ شينغ تسارع خطواتها برشاقة ، وقلبها يتراقص بفرح غامر لم تعرف له قبل مثيلا ، فرح مشبع بالرعب . تبسّمت شاردة الذهن ، وأفكارها مبلبلة ، لشاب مر بها ، وتيقّنت بعد لحظة انه غريب بالنسبة اليها فاحمرّ خداها .

وصلت أخيرا الى زقاق هادىء حيث وجدت منزلا قديما رثا دلّوها عليه . أخبرها شيانغ هوا أن تتفحص الباب ، وتنفست الصعداء عندما وجدت صليبين غير مستويين مرسومين بالحوّار في احدى الزوايا في القمة . ابتسمت على الرغم من شدة ضربات قلبها . قرعت في لطف ، وسألت في عذوبة : « هل السيدة وانغ موجودة ؟ »

فتح الباب على الفور من قبل فتاة نحيلة ترتدي عباءة ملوّنة ، وأخذت بيد تاو ـ شينغ ، وهمست : « وهكذا فقد جئت ! أهلا بك ! »

شدهت تاو ـ شينغ وقد عرفت فيها هسو هيو الذكية المقتدرة التي طال بحثها عنها . غير أن ظهور هسو هيو في هذا المكان زادها حيرة وبلبلة .

ـ ادخلي ، ارجوك ، يا تاو ـ شينغ . الاخت الكبيرة ليو تنتظرك .

رمت هسو هيو نظرة محترسة ذات اليمين وذات اليسار لتتأكد من أن احدا لايقف في الجوار ، واغلقت البوابة ، ودلفت الفتاتان الى الداخل.

انه بيت مبني على الطراز القديم يضم ادوات مستعملة مكدّسة في زوايا باحته الصغيرة . واشارت هسو هيو الى غرفة كان شيانغهوا و ليو يي ـ فينغ ينتظران تاو ـ شينغ فيها . اتجهت مباشرة ناحية المرأة النحيلة الهادئة ، وأمسكت بيدها ، وهتفت في اهتياج : « الاخت الكبيرة ليو !.. لقد التقينا من قبل ... كنت العمة لي يومذاك ، أليس كذلك ؟ »

ـ أيتها الرفيقة لين ، لقد قرات القيادة تقريرك عن نفسك وبحثت فيه بعناية . اليوم ستنضمين الى الحزب بصورة رسمية .

كانت تتحدث بصوت وقور لكنْ غيّور ، وابتسمت وهي تضغط على يد الفتاة .

جعل قلب تاو ـ شينغ يخفق بشدة . ثبتت عينيها على وجه ليو يي ـ فينغ اللطيف ، وعجزت عن النطق من جراء اهتياجها . ولما لم يتفوّه أحد من الآخرين بحرف فقد خيّم الصمتُ على الغرفة الصغيرة الظليلة .

ـ عمتاه ! على اعتبار ان لدينا ضيوفا ، لمَ لانهيىء شيئا من الزلابية للعشاء ؟

نادت هسو هيو بهذه الكلمات من الخارج ، وقد اقلقها الصمت المخيّم عليهم . دسّت رأسها في الغرفة ، وزمت شفتيها ، فما كان من شيانغ هوا ، وقد اغتنم هذه الفرصة ، الا ان حطّم الصمت بأن قعقع بأحجار الدومينو الموضوعة على المنضدة . رفعت تاو ـ شينغ رأسها فرأته يرنو اليها . ولمحت في عينيه الهادئتين الشريفتين ، للمرة الاولى، آمالا سامية وسعادة غامرة . أثّر فيها ذلك كثيرا ، فأسامت نظرها الى اللوحات الطبيعية المعلقة على الجدار الاسود ، وازداد وجهها وقارا ، وتنفسها سرعة . وفي مثل خطف البصر تلاشت اللوحات وظهر بدلا منها علم أحمر كبير يحمل المطرقة والمنجل ، علم ملهم لمّاع .

ـ من الآن فصاعدا سأهب حياتي ، من دون قيد أو شرط ، للحزب، وللقضية الاكثر سموآ والاكثر نبلا في العالم ...

كان صوتها اكثر من أن يكون همسا ، وكان عليها أن تكف فجأة لان الدموع راحت تتدفق على وجنتيها ... تلك هي دموع الفرح لانها تختبر اللحظة الاكثر سعادة في حياتها الآن ، اذ أن أمنيتها أن تغدو شيوعية ستتحقق أخيرا . كانت عارفة أنها لم تعد فردا وحيدا ، ولكنها واحدة من حملة لواء الشيوعية ، ومناضلة غير هيابة في طليعة من سيحررون البلاد والشعب ، عارفة أنها ستنضم الى ألوف وألوف من أصدقائها ، وأنها ستنذر نفسها لتحقيق الحرية والسعادة للملايين.

كان الغسق يرخي سدوله ، والغرفة المعتمة هادئة .

ازداد هدوء تاو ــ شينغ شيئا بعد شيء . وحينما لمحت دموع الفرح في عيون مرافقيها عجزت عن كبح ابتسامتها . وقبل أن تفتح فمها للكلام تناولت ليو يي ــ فينغ يدها وقالت في هدوء : « تهاني ! أنا واثقة أن حزبنا وجد فيك رفيقة جيدة ، يا تاو ــ شينغ . حزبنا لايمكن ان يفنى ــ فحينما يهوي مناضل يهب مناضل آخر ويأخذ مكانه».

خطا شيانغ هوا ، وكان صامتا طوال الوقت ، ناحية تاو ــ شينغ وهز يدها ، قائلا : « تهاني القلبية ، أيتها الرفيقة لين ! عظيمة هي قضيتنا ، وطريقنا طويلة ينبغي أن نسير عليها . اما فيما يتعلق بكفالتك لعضوية الحزب فأرجو أن تقضي حياتك في سبيل مجد اسمك العظيم كشيوعية » . وشد على يدها بقوة قبل أن يخلي سبيلها في حين دخلت هسو هيو . كانت قد وقفت للمراقبة وهي تهيىء العشاء في الباحة ، وأصابعها مطلية بالطحين ، ولكنها صافحت تاو ــ شينغ وهنأتها بابتسامة . وكانت عيناها الثاقبتان النافذتان دافئتين لطيفتين .

شعت عينا تاو ــ شينغ وهي تصافح كلا بدوره مصافحة حازمة. كان وجهها لا يبرح متضرجا ، وقلبها خفاقا ، ولكنها حملت نفسها مزيدا من العزيمة والرصانة .

وما أسرع أن رحلت ليو يي ــ فينغ وهسو هيو ، وتركتا شيانغ هوا يتحدث مع تاو ــ شينغ .

قال ، مسددا حديثه الى الهدف مباشرة ، وهو يجلس الى جانب المنضدة : « هل كل شيء واضح عن الحال الراهنة ؟ لا أعتقد انك حصلت على كثير من الانباء وانت في السجن » .

ـ كلا ، فقد كنت بعيدة عنها ، أيها العجوز شيانغ . فهل لك أن تعرّفني بها حتى اللحظة الراهنة ؟ انني أصرف اهتماما زائدا الى السياسة الآن » . وتذكرت كيف امتحنها مرة حول الاحداث الجارية في تينفهسيين ، فاختلست نظرة خبيثة اليه وابتسمت .

اغرق شيانغ هوا في التفكير لحظات قبل أن يقول : « الكيومنتانغ فرض رقابة صارمة . ويجب علينا ان نعتمد على المصادر السوفييتية أو اية مصادر اجنبية أخرى للحصول على معلومات عن مناطق السوفييتات ، وتعليمات من اللجنة المركزية وأنباء عن الكومنترن . ان **شيوكيوشيهباو** ، التي تنشر في باريس ، ممتازة ومصدر اعلامي جيد . هل وقعت عيناك عليها ؟ » .

ـ أجل . لكن ليس دائما . الا خبرني عن التطورات الاخيرة ، الن تفعل ؟

شرع شيانغ هوا يختصر الوضع السياسي لها : « حسنا ، ان العدوان الياباني المسلّح وسياسة الاستسلام التي يتبعها الكيومنتانغ أوقعتا البلاد في خطر حقيقي متزايد . في أيار ١٩٣٥ ، وبحجة أن الحكومة الصينية انتهكت حرمة اتفاقية تانغكو بمدّها يد العون للمتطوعين الشماليين الشرقيين المناوئين لليابان الداخلين عنوة الى المنطقة المجردة ، فقد عمد جيش كوانتونغ الياباني الى تقديم طلبات غير منطقية الى هو بينغ ـ شين مكتب بيبينغ للجنة الشؤون العسكرية . ووافقت السلطات الصينية الرجعية على هذه الطلبات وأنهت اتفاقية هو ـ أوميزو ، وباعت شمالي الصين ، الامر الذي شجّع اليابانيين على طلب انسحاب القوات العاملة تحت قيادة الجنرالين يو هسويه ـ شونغ و سونغ شيه ـ يوان من هوبيي . وأمرت هذه القوات بالتوجه جنوبا لاعتراض طريق الجيش الاحمر . ومن ثم طلبت اليابان نقل حكومة مقاطعة هوبيي من تينفهسيين ، فانتقلت الى باوتونغ . وبعد ذلك ألحّ الفزاة على تعطيل الصحف والمجلات التي نادت بالمقاومة ضد اليابان ، وجميع الصحف التي نشرت مقالات ضد اليابان تمّ منعها . مثلا مجلة « الحياة الجديدة » كانت قد نشرت مقالة بعنوان « ثرثرة حول الاباطرة » قال اليابانيون انها اهانة موجهة الى الميكادو . فاعتقلوا رئيس تحريرها . وجعل اصرار الفزاة على أن الشعب الصيني يجب أن يتعلم كيف يكون عبدا شيانغ كاي ـ شيك

يبدأ بحرق الكتب ودفن المثقفين أحياء مثلما فعل اول امبراطور في الصين .. وقامت مسلسلات كاملة من الاعتقالات ، واغتيال الطلاب الوطنيين ، والمثقفين ، وأساتذة الجامعات ، والصحفيين . وغالت اتفاقية هو ـ اوميزو كثيرا فاشترطت اغلاق مكاتب الكيومنتانغ ، ونتيجة لذلك انتقلت المكاتب الموجودة في بيبينغ و هوبيي صوب الجنوب في فوضى شاملة . حتى ذلك الجزار المشهور شيانغ هسياو ـ هسيين الذي أبدى « شجاعة » لانظير لها في اغتيال الشيوعيين هرب مرعوبا من هذا العدو . وجعلت سياسة الكيومنتانغ الداعية الى « عدم المقاومة » الخونة يتبجحون بخصوص « الصداقة الصينية ـ اليابانية » و «التعاون الصيني الياباني » و « المساعدة الصينية اليابانية المتبادلة في الميدان الاقتصادي » و « آسيا الشاملة » . والآن ، بعد خسارة الشمال الشرقي ، يغدو شمالي الصين بأسره مهددا بخطر الاحتلال . والشعب الصيني لايمكن ان يحتمل ذلك بعد الآن . وأنت تسمعين في طول البلاد وعرضها صيحة تنادي : « أطردوا العدو ! أنقذوا البلاد ! » . والحقيقة أن الجيش الاحمر الصيني في طريقه الآن شمالاً لمقاومة المعتدين. خرج منذ حوالي سبعة شهور في مسيرته الطويلة بقيادة ماوتسي ـ تونغ، ووصل الى شيشوان عن طريق كيانفسي وهونان وكويشوو وكوانفسي. وحاولت قوات الكيومنتانغ البالغ عددها مليون جندي افناء القوات الثورية عن طريق تطويقها أو تعقبها ، ولكنها فشلت فشلا ذريعا .. واحتل الجيش الاحمر تسونيي في كويشوو . وهزم قوات الكيومنتانغ عند سونغكان في زوشوان ، وهكذا أدب الذعر في افئدة اثرياء شونغكينغ فنقلوا أموالهم الى شنغهاي خوفا عليها . الثورة تمشي قدما بسرعة مذهلة ... »

استفسرت تاو ـ شينغ ، وكانت تصغي في اثارة متوترة : «أتعتقد ان جيشنا الاحمر سيشق طريقه سراعا الى شمالي الصين ، أيها العجوز شيانغ ؟ مؤكد انه لن يطول الوقت الآن قبل أن يندمج السوفييت والمناطق البيضاء وينتشر المنجل والمطرقة فوق البلاد بأسرها ؟ الا توافقني على هذا ؟ » .

ابتسم شيانغ هوا . ولكن عينيه اللطيفتين كانتا مغتمتين وهو يجيب في مهابة ويتطلع في وجه تاو ـ شينغ الطفولي المتورد :«الاحداث

تتحرك سراعا . ولا مجال هنالك للشك في ان النصر النهائي سيكون حليفنا . والاشياء العصيبة الآن هي التوقيت ، والشروط التي نعمل فيها ، وقيادة الحزب الصحيحة . قال ستالين مرة : « ان اعداء الثورة الصينية ـ الداخليين والخارجيين ـ كثيرون جدا واقوياء جدا ».ومن الرومانطيقية ، يا تاو ـ شينغ ، ان يفكر المرء أن النصر سيكون سهلا وسريعا » .

زادت حمرة تاو ـ شينغ .انهاتذكر أن شيانغ هوا ، خلال أحاديثهما في تينغهسيين ، قد كبح جماحها فجأة . فقالت : « انت على حق . انا أعرف ان قضيتنا عظيمة ، ولكن الطريق الى النصر ليست سهلة ولا مستقيمة . ففضلا عن العدو الطبقي في البلاد هنالك عدو آخر فيخارجها ـ الامبرياليون اليابانيون . وهكذا تواجه بلادنا خطرين اثنين . صدقني أنني تهيأت لجميع هذه الصعوبات ... ومهما يكن الامر ، فأنا أحيانا لا استطيع الا أن أحلم . وأشتاق كثيرا لرؤية يوم النصر!» حدّقت اليه والعبرات في عينيها : « أنا لم اخبرك عن الرفيقة لين هونغ التي التقيت بها في السجن ... » واعادت على مسمعه في حماسة رسالة لين هونغ الى الحزب .

أثاره قلبها الدافىء ، ومثلها العليا السامية ، وحديثها عن لين هونغ ، فحدق وقد استغرقه التفكير عبر النافذة طوال فترة . قال ، وقد استدار اليها في هدوء : « تاو ـ شينغ ، فيك شيء رائع جدا . وليس هنالك من لايستطيع أن تؤثر فيه حماستك .. أستطيع أن أرى مقدار العون الذي قدّمته لين هونغ لك ، ويخجلني أنني لم أستطع ان اقدم لك غير القليل القليل » .

فاحتجت قائلة : « كيف تقول هذا ؟ لقد نظرت اليك دائما باعتبارك استاذي وأخي الاكبر .ولقد كنت ممتنة على الدوام لارشاداتك . انت انسان عملي ممتاز ـ حتى ان لو شيا ـ شوان نفسه لايمكن انيقارن بك في هذا المجال ... » وتضرّجت وجنتاها لدى ذكرها هذا الاسم .

لم يكن شيانغ هوا ينتبه الى مثل هذه التفاصيل . ترك البحث في هذا الموضوع جانبا ، وشرع يشرح لها ماذا ينبغي على عضو الحزب الجديد أن يعرف ، وختم حديثه قائلا : « سوف تقومين بعمل مكتبي ، يا تاو ـ شينغ . هل تحبين ذلك ؟ »

فعجلت تستوضح : « وماذا يتضمن هذا العمل ؟ »
ـ مساعدة الاخت الكبيرة ليو في توزيع المنشورات وعمل الاتصال.
ـ حسنا ! متى أبدأ ؟
ـ غدا . ينبغي أن تكوني متأهبة ، تذكري هذا ، لاسيما ان العمل صعب وعلى شيء كثير من البلادة .
وتذكر شيئا آخر ، فأضاف : « ومن الآن فصاعدا يجب ان يكون لك اسم آخـر لان اسمك الحالي موجود في ملفات سجن بيبينغ . ولا تخبري وانغ هسياو ـ ين عما تفعلين . تظاهري بالتراجع ... انـت تفهمين لماذا ، أليس كذلك ؟
هزّت تاو ـ شينغ رأسها ، مدركة أن لتاي يو علاقـة بذلـك ، فأمسكت عن سؤال شيانغ هوا طالما أنه لم يشرح لها شيئا من الامر .
سألها بعد ذلك عن زيارة تاي يو الى تينغهسيين ، وحينما روت له القصة بكاملها طلب اليها ان تكتب تقريرا مفصلا عن تعاملها مع تاي يو وتسلمه اياه في غضون يومين اثنين . ومن ثم غادر الاثنان المنزل معا .
رجعت تاو ـ شينغ الى منزل هسياو ـ ين فوجدت انها لم تعد اليه بَعْدُ . رتبت أشياءها واشعلت الضوء وجلست تقرأ بعض الصحف والمجلات . استغرقت في قراءتها تماما حينما ربتت أحدهم على كتفها : « تاو ـ شينغ ! فيم تلوح الغبطة على وجهك ؟ » .
كانت هسياو ـ ين قد تسللت الى البيت في هدوء حاملة كتبها، ورات صديقتها ترفع اليها راسها مبتسمة ، غافلة عن وجودها كله .
هبت تاو ـ شينغ على قدميها ترتب أوراقها : « أوه ، لقدرجعت، يا هسياو ـ ين ! » .
تطلعت من فوق كتفها وهي تطلق ابتسامة خبيثة ، وسألت :« هل سيأتي تاي يو هذه العشية ؟ لا أحب أن أقف في طريقكما » .
ـ لاتكوني بلهاء ! بلى ، سيأتي الى هنا . وكأنك يمكن ان تقفي في طريقنا ! أريدكما أن تتعرفا على بعضيكما » .
واخذت هسياو ـ ين يد تاو ـ شينغ ونظرة استغاثة مرتسمة على وجهها الصريح : « أريدك أن تساعديني في اكتشاف كل شيء عنه. ولكنني أثق فيه ـ انا واثقة أنه رجل طيب » .
في تلك اللحظة ذاتها دلف تاي يو داخلا . صافح تاو ـ شينغ،

وقال في صوت أجشّ : « وهكذا أطلق سراحك ، يا تاو – شينغ . اسمحي لي أن أهنئك ! لسوف يكون في مقدورك أن تساعدي هسياو – ين . . . » وتطلع الى هسياو – ين الواقفة الى جانبه وابتسامة مغتصبة ترتسم على وجهه النحيل .

جلسوا في الفرفة الصغيرة النظيفة التي أشرقت أكثر حينما أشعلت هسياو – ين فيها ضوءاً آخر .

– لاتنطق بمثل هذا الكلام الذي يبعث على الضيق ، يا تاي يو! أنا لست في حال يمكن أن تساعد هسياو – ين في شيء – فقد تخلّفت كثيرا . ان سنة وأكثر من حياة السجن جعلتني مشوّشة لانفع يرجى مني .

واستندت الى الجدار ، وغضّنت عينيها وهي تنظر اليهما في ابتسامة خبيثة ، وكأنها صورة لفتاة عابثة فارغة الرأس .

غير أن صديقتها الساذجة فضحتها بعدما توجهت الى تاي يو مبتسمة ، وهي تسأل : « الا تعتقد أن تاو – شينغ تبدّلت كثيرا منذ خروجها من السجن ؟ لقد كنت أراقبها في اهتمام ولحظت فيها تبدلا . اعتادت ان تكون عطوفة لكن صبيانية ، سطحية ، ودونكيشوتية . أما الآن فقد تبدلت كليّة . وبينما كانت تتحدث دائما عن مثلها العليا ، وآمالها ، وصعوبات حياتها ، غدت طوال هذه الايام القليلة الماضية لاتتحدث الا عن العمل في سبيل الثورة والناس الآخرين . انها لاتتحدث عن نفسها ولا كلمة واحدة ، ما لم أطرح عليها سؤالا . . . »

غمزت بعينها ، وابتسمت في وجه تاو – شينغ ابتسامة غامضة ، وأكملت : « انها لم تعد تتحدث عن نفسها الآن . فقد جنحت الى صمت عميق ، ألا ترى ذلك ؟ طبيعي أنها عطوف مثلها ابدا ، غير ان دفأها مخبوء في قوة جديدة . انه أشبه بحيوية مولد كهربائي لاينبغي ان تضيع أو تهدر عبثا » .

قاطعتها تاو – شينغ ضاحكة : « أوه ، الزمي الهدوء ، ياهسياو – ين ! فأنت تخترعين هذه الامور كلها ! ان كل شيء يظهر لي الآن عقيما لاجدوى منه . وحينما أراك تبدين نشاطا بالسياسة فأنا أحاول أن أفعل مثلك لأدخل السرور الى قلبك ، ياعزيزتي » . وحنت رأسها : « ماأسعدني وأنا أبدّد وقتي . ولست أبغي التفكير في قضايا خطيرة بعد اليوم » .

حدقت اليها هسياو – ين مشدوهة . اربكتها ردة تاو–شينغ، فعزمت على الا تصر على هذا الحديث في الوقت الراهن .

في هذه الاثناء كان تاي يو جالسا مكتئبا ، يهزّ رأسه ، أو يغتصب ابتسامة بين وقت وآخر وهو يدخن لفافة بعد لفافة. ولحظت تاو–شينغ برودته ولكنها لم تستطع أن تعلّق عليها . التفتت اليه هسياو – ين معنفة ، وسألته : « ماذا أصابك ، يا تاي يو ؟ » .

نظرت اليه طوال لحظات وابتسمت : « أتساءل فيمَ غدوت كمن خرج عن طوره ؟ أحيانا لايكفُّ لسانك عن الكلام ، واحيانا أخرى تلتزم الصمت والعبوس وكأن شيئا ما يطوف في خلدك . . . » لم تشأ أن تضيف اشياء أخرى خشية من ان تجرح شعوره .

– أوه ، ليس هنالك من شيء . أنتن الفتيات مفرطات في حساسيتكنَّ .

وادار عينيه الناتئتين ناحية تاو – شينغ كمن ينتظر موافقتها على ذلك قبل أن يرفع نظره الى هسياو – ين : « هسياو –ين ، ان كنت حقا تهتمين بصديقتك ، فقدمي لها مساعدة مادية . انظري الى ثيابها ! » .

– آه ، لو لم تذكرني لنسيت ذلك ! يخطر في بالي ان أسأل والدتي ان تعطيني قليلا من المال ، ولكنني لا أحب ذلك . فأبواي لايوفران الا القليل القليل . واليوم حصلت على خمسة عشر يوانا ، وهذا مبلغ قليل ولكنه أفضل من لاشيء . خذيه ، يا تاو – شينغ ، واشتري بعض ما تحتاجين اليه .

وتناولت النقود من جيبها ووضعتها على المنضدة .

ابتسمت تاو – شينغ : « شكرا ، يا هسياو – ين . انا لا أملك دانقا في الحقيقة ، وهذا الثوب قد بلي وانا في حاجة الى ثوب جديد » .

استدارت هسياو – ين صوب تاي يو وعلى وجهها ملامح الانتصار: « ارايت ؟ افليس هذا دليلا على انها تبدّلت . في الايام الماضية أبدا لم تكن – او نادرا جدا – تقبل نقودا . لا بل رفضت مرة ان تقبل خمسة «تو» من الارز . . أما الآن ، في سبيل قضيتنا المشتركة ، فهي على استعداد أن تقبل « تو » واحدا عند الضرورة » .

فأهنف تاي يو ضاحكا : « أجل . انت على حق . لقد صارت اكثر عزيمة ... »

ــ لاتتحدث مثل احمق ، يا تاي يو ! انت تجهل أنني استرددت حريتي مؤخرا فقط . واذا استمررت في مثل هذا الحديث فسرعان ما سأعود الى السجن .

فحملق تاي ــ يو و هسياو ــ ين فيها في انذهال تام .

* * *

٢٥

« أماه » ـ حينما أناديها أماه أشعر بذات شعور الدفء والقوة اللذين كنت أشعر بهما عندما أفكر في لين هونغ ، هذه التي لن انساها ماحييت . ومع ذلك فهي في الثالثة والثلاثين ، لاتكبرني كثيرا .

انها نحيلة شاحبة ورقيقة ، انحنى ظهرها رغم انها لاتبرح في ريعان الشباب ـ وذلك نتيجة للسجن الطويل والتعذيب المتواصل . وقد حصلت على أكثر من نصيبها من المأساة . زوجها وهب حياته للثورة ، وابنها فقد ، وليس لها أقرباء . ومع ذلك فأنت حينما تنظر اليها لاتستطيع الا أن تدهشك عيناها الساكنتان المبتهجتان . نادرا ما كانت تتكلم عن نفسها ، وغالبا ماكانت تعمل في صمت مطلق . في الظاهر كنا أماً وابنتها نكتسب لقمة عيشنا من عملنا كغسالتين ، وفي الحقيقة كانت عضوا في اللجنة الحزبية في المقاطعة وكنت أنا عاملة اتصال . وحينما كانت تسلمني وثيقة هامة وعاجلة فقد كانت تجمدني بعينيها اللطيفتين الثابتتين ، وتعطيني تعليماتها الامومية الهادئة : « هسيو ـ لان ، خذي هذا القميص الى السيد وانغ . احذري عليه ! » وكلما كانت تعطيني مثل هذه المهمة الموثوقة فأنا اشعر بفيض من حيوية لاتوصف ، وتلوح نظرتها اللطيفة الثابتة وكأنها تشعل النيران في قلبي . وتراقبني وانا أخرج من بوابتنا المتداعية في حين أروح أؤكد لها في صميم جوانحي : « يا أمي العزيزة ، تستطيعين أن تثقي أني سأؤدي هذا العمل ! »

وهذه بعض الانطباعات التي جعلت تاو ـ شينغ تدونها على شكل مذكرات ثم تمزقها خلال عملها السري مع ليو يي ـ فينغ . كانت تحس ، بوحي من ذات السعادة والاثارة اللتين حملتهما اليها لين هونغ ، برغبة جارفة في أن تدون أحاسيسها على الورق .

عملنا شاق ومضبوط ـ فهنالك اشياء كثيرة يجب انجازها وليس هنالك غيرنا نحن الاثنتين لتنفيذها . عملي هو

النسخ،وتسليم الرسائل، والفسيل والرتق ـ وهذا الأخير بسبب اننا في حاجة الى نقود . واحيانا ينبغي عليّ أن أعمل أربعا وعشرين ساعة متواصلة دون ان يدخل جوفي غير قليل من خبز الذرة طوال النهار ، وغالبا ما اشعر بالدوار عند انتصاف الليل ، ولكن أمي تجلس الى جانبي دائما . عيناها اللطيفتان الهادئتان وخطوط وجهها الحلوة ـ فقد شاخت قبيل وقتها ـ تجعلني أنسى الجوع والضنى وأعمل بحيوية مستفيضة . وحينما أعمل خلال الليل فهي تقعد بجانبي تؤنسني . وأنسخ أنا بينما تروح هي تقرأ . وبعيد انتصاف الليل تنتصب على قدميها والابتسامة تعلو شفتيها كيماتصبّ لي قدحا من الماء الغالي أو ربما تأكل قليلا من الكعك معي . تكسر أقل من نصف كعكة لنفسها،وتصرّ عليَّ أن ألتهم بقيتها .

بلى ، ما أكثر ماكانت تعاني من الجوع ، ولكنها تدأب على أن آكل أنا كفايتي . آخر مرة ، وقد أخافني وجهها الهزيل المتعب ، شربتُ الماء وأعطيتها الطعام .

قلت : « أنا لست جائعة ، يا أماه . انت لم تصيبي كثيرا من طعام خلال النهار . كلي هذا ! »

فأجابت : « كلا ، أنت لاتزالين شابة ويجب ان تعني بصحتك . أنا مسؤولة عنك تجاه الحزب » .

هذه الام العزيزة التي حصلت عليها شخصية خلاّبة!

أمي لاتراقب رفاهيتي الجسدية فحسب بل تعلمني بأسلوب اكثر عمقا وتفصيلا . حينما بدأت أعمل في لجنة حزب المقاطعة لم يكن ذلك العمل يسعدني كثيرا ، على الرغم من انني وعدت شيانغ هوا أن أبذل جهدي . كنت على الدوام حالمة وغالبا ما حلمت بحياة في الجيش الاحمر او في أعنف المعارك شدة ـ حياة رومانطيقية من العاصفة والمطر والخطر . لم أكن أستسلم لعمل تافه بسهولة،خاصة بعد هذه السنوات الطويلة كلها . ولذلك ما أن بعثوا بي الى هنا للقيام بعمل روتيني من اعمال النسخ ، وتأدية المأموريات ، والغسل والرتق حتى شعرت بامتعاض داخلي . لم اتفوّه بحرف ،

لكنّ أمي سرعان ماخمّنت ذلك ، وهكذا علمتني في احدى الليالي – وهي ليلة لا انساها – درسا رائعا . بينما هو ، ذلك الصديق الذي سيحيا دائما بين طيات فؤادي ، كان مثالا يقتدى بنضاله الذي لايعرف الخوف وموته البطولي. الآونة فقط تأكدت كم كنت أحبه بعمق طوال هذه السنوات. فاذا كان لايبرح على قيد الحياة ، أن كانت حياته الغالية لم يختطفها جزارو الكيومنتانغ الاشرار ، فلسوف أكون أسعد امرأة على وجه الارض !.. لكن آمالي تبعثرت الآن . لقد فقدت ، مثلي مثل أمي التعيسة ، الرجل الذي احب ... لا أستطيع ، وانا اكتب هذه السطور ، أن احبس عبراتي . واذا عرفت في أي ضريح هو على جبل الزهر المطر(١) ، فلسوف أذهب الى نانكينغ واقسم هنالك أن أثأر له ...

ذات ليلة من ليالي الخريف كانت ريح باردة تخشخش الورق الممزق على النوافذ ، وقمر يعتلي قبة السماء يرسل من خلال الشقوق أشعته الفضية الباردة على وجهي ليو يي – فينغ وتاو – شينغ المورّدين. كانت ليلة جميلة لكن متوحدة ، وقد أوتا الى فراشيهما دون أن يغمض لهما جفن . تبادلتا حديثا هامسا عن عملهما ، ثم تطرقتا الى موضوعات اكثر شخصية .

ادارت ليو يي – فينغ رأسها صوب تاو – شينغ ، وقالت : « هسيو – لان ، ثمة شيء وحيد لم تخبريني به – أهنالك انسان تهتمين به بصورة شخصية ؟ » كانت تاو – شينغ قد اتخذت لنفسها اسم شانغ هسيو – لان منذ بداية العمل هنا .

بعد صمت قصير اجابت الفتاة التي اعتادت ان تكون على الدوام صادقة وصريحة :« هنالك أحد وليس هنالك احد ... انا لا احب أن افكّر فيه ، يا أماه » .

– ماذا تقصدين ؟ من يكون ؟

---

(١) كان هذا الجبل يستخدم ارضا لتنفيذ الاعدام حيث قتل رجعيو الكيومنتانغ اكثر من مائة الف من المناضلين . وبعيد التحرير جُعل الجبل حديقة تذكارية على شرف ضحايا الثورة .

جلست تاو ـ شينغ ، ورمت معطفا على كتفيها ، ونهضت عن الفراش . وراحت ليو يي ـ فينغ ، في صمت ، تدرس تقاطيع وجهها الفتيّ الجميل التي تبدو مغلّفة بالحزن تحت أشعة ضوء القمر . جلست على حافة فراش المرأة العجوز ، واخذت يديها الناعمتين ، واعترفت لها في صوت مرتعش : « سوف تدهشين ، يا أماه ، عندما تسمعين أنه لو ... لو شيا ـ شوان . كنت انتظره ... »

غير ان ليو يي ـ فينغ لم تظهر شيئا من الانشداه . اجابت في هدوء : « انه لو اذن . بلى ، هو واحد من النخبة . متى همتما غراما ببعضكما ؟ » .

ـ نحن لم نفعل ذلك . ليس ظاهرا على اية حال ، رغم انني أعرف في قلبي انه يحبني . ولذلك كنت أنتظره طوال هذه السنوات » .

والتمعت عينا تاو ـ شينغ بالعبرات في الغرفة التي ينيرها ضوء القمر . حنت راسها وضغطت على يد ليو يي ـ فينغ بشدة ، وترجت قائلة : « اخبريني فيما اذا كان لايبرح على قيد الحياة . هل وصلتك اية انباء عنه ؟ » .

هزّت ليو يي ـ فينغ راسها على المخدة ، متسائلة ما اذا كان يحسن أن تنقل اليها الاخبار المفجعة أم لا . لم تكن ترغب في أن تحطم أحلام تاو ـ شينغ عن السعادة ، أو تحطّم قلبها الصادق . واسترسلت الفتاة تقول قبل ان تتوصل ليو الى قرار : « لم يسبق لي ، يا أماه ، ان اخبرت أحدا عن أحاسيسي الباطنية . والحقيقة انني لم اجتمع بانسان يستأهل الحب والاحترام اكثر منه . وأول مرة رايته خيّل الي أننا أشبه مانكون بصديقين قديمين ... » وتضرّج وجهها ، وارتعش صوتها عاطفة ، في حين أخذت ليو يي ـ فينغ تمسح على يديها وتصغي في صمت : « كنت تعيسة حينها مع يو يونغ ـ تسي . آه ، لو لم أجتمع به أولا ! وحينما أخبرني باعتقال لو شيا ـ شوان عرفت مقدار اهتمامي العميق ... »

واستندت تاو ـ شينغ الى السرير وجنحت الى الصمت ، وقد تأبت نفسها ان تطلق العنان الآن للاحاسيس التي حبستها طوال ثلاث سنوات .

اعتصمت ليو يي ـ فينغ بالصمت هي الاخرى . كان ثمة مجرى هوائي يتسلل من النافذة ، فانتصبت جالسة تشد تاو ـ شينغ الى جانبها تحت اللحاف . قالت : « يافتاتي ، لايجب عليَّ أن احبس الحقيقة بعد الآن . فقد استشهد في سبيل قضيتنا ... »

ـ أستشهد في سبيل قضيتنا ؟

رددت تاو ـ شينغ هذه الكلمات بصورة آلية . ثم غطت راسها باللحاف وصمتت . لبست ليو يي ـ فينغ معطفها ، واشعلت الضوء وتناولت نسخة من « مجموعة الروائع الكلاسيكية الصينية » من سلة قديمة من اغصان الصفصاف ، وفتحت الكتاب الملوث الذي حال لونه ، ومزقت صفحتين أو ثلاث صفحات من اوراقه المزدوجة واخرجت من بينها عدة صفحات من ورق مصفر خشن . رجعت الى تاو ـ شينغ ، واستلقت دون حراك وكأنها استغرقت في النوم ، وسحبت اللحاف فوقها ، وهمست : «لا تأخذي الامور على مأخذ السوء ، يا هسيو ـ لان! هذه رسالة كتبها لك ... اغفري لي لأني لم أعطيك اياها في وقت أبكر» .

اجفلت تاو ـ شينغ وحدّقت أمامها والشك يساورها : « كتب لي رسالة ؟ » .

قالت ليو يي ـ فينغ في بطء : « أجل . تلقيتها في أواخر شهر ايلول عن طريق أحد الاصدقاء ، وقد طلب اليَّ أن اعطيها لك حينما اشاء . كنت يومها في السجن بعد . ويحتمل أن يكون لو قد قُتل في هذه الاثناء . ما أعطيتها لك فور اطلاق سراحك لأنه لم تك لديَّ أية فكرة عن ماهيته لديك ، كما لم أشأ أن اراك حزينة . فاحتفظت بها » .

حملت الصفحات المكتوبة بالقلم الرصاص بين يديها في وقار ، ووضعتها في حرص بين يدي تاو ـ شينغ .

امسكت تاو ـ شينغ رسالتها بأصابع مرتجفة . كانت ترتجف بكليّتها . وأعمت الدموع عينيها ، وراحت تسّاقط على الورق . وتمالكت أعصابها أخيرا ، وشرعت تقرأ :

« ان انت قرأت سطوري هذه فلسوف تصبحين رفيقتي الطيبة . خلال السنوات الماضية ، في مختلف انواع السجون الرهيبة ، رحت اتطلّع الى اليوم الذي تصيرين فيه مناضلة في سبيل الطبقة الاكثر تقدما في العالم ، يارفيقتي ، واحدة

من الذين سينفذون ثورتنا . في كل يوم يريق الشيوعيون دماءهم ويهبون حياتهم لتعجيل ساعة النصر ... رفيقتي العزيزة ، تاو ــ شينغ العزيزة ، قد يحين دوري سريعا ــ المصادفة وحدها انقذت حياتي من الموت في بيبينغ . ولكنني الآن عشت وناضلت عدة أشهر اخرى ، وهذا ما أعتبره سروراً عظيما بالنسبة الي . وها أنا انتظر الآونة بضمير مرتاح ساعتي الاخيرة . اليوم الاكثر بهاء في حياتي سيكون اليوم الذي أموت فيه في سبيل قضية الشيوعية ، في سبيل السلام والسعادة بالنسبة الى بلادي والى البشرية جمعاء . ويحتمل انه في الوقت الذي تقرأين فيه هذه السطور أكون أنا في ساحة الاعدام فوق جبل « الزهر الممطر » . ولكنني حينما اذكر أن رفاقنا كثيرون ، وانهم سيتابعون النضال عندما نسقط نحن ، وانك ستكونين بين تلك الصفوف ،وان النصر النهائي سيكون حليفنا ــ فأنا أشعر اذن بفخار وفرح عظيمين .

تلقيت بعض الاخبار منك واستلمت رسالتك . ويؤسفني اننا لن نستطيع ان نعمل معا مرة أخرى . في هذه الساعة الاخيرة يطيب لي أن اعرّي فؤادي امامك . لكن لا ، يفضل أن ... تبــأ لأولئك الجزارين الذين سرقونا سعادتنا ،مثلما سرقوها كثيرين غيرنا ! عزيزتي تاو ــ شينغ ، انطلقي قدما وبشجاعة مثلما عرفتك وقدر ما تستطيعين ! شـدّدي عزيمتك وكوني شجاعة لتثأري لنا ! لاتكفي عن النضال في سبيل قضية الشيوعية ! من جماع قلبه يتمنى لك صديقك المخلص كل سعادة ...

بعد قراءتها الرسالة ، اول وآخر رسالة لها من لو شيا ــ شوان، حبست تاو ــ شينغ دموعها في مآقيها . وسرعان ماتملكها هدوءغريب، فوقفت هنالك مثل تمثال رخامي ابيض جميل . على الرغم من انه لم يعد في عداد الإحياء ، فهي لم تنتظره عبثا كما لم تذرف دموعها سدى حينما كانت تفكر فيه . لقد اثبت انه جدير بأن يطلق عليه هذا الاسم المجيد : شيوعي . لم يحتج حبه الى صياغة في كلمات ، كما انه لم ينسها

حتى آخر لحظات حياته . وشعرت في ملء عذابها بدفء وعزاء عميقين سيدومان بمقدار ما تدوم ذكراه الخالدة .

في مساء اليوم التالي ، قبل أن تلجأ الى فراشها ، جلست على حافة سريرها وقد حنت رأسها الغارق في التفكير ، عاجزة عن كبح العبرات المترقرقة على خديها . أبداً لم تعرف الحب الحقيقي ، وهي لاتحتمل ذكرى كابوس حياتها العقيمة مع يو يونغ – تسي . وانها لمأساة حقا أنه حينما كبرت بما فيه الكفاية بحيث تستوعب معنى الحياة ، حينما التقت رجلا جديرا بحبها وعلى استعداد ان تسخو عليه بتلك الاحاسيس القلبية التي لاتملكها غير امرأة خاب رجاؤها في حبها ، جرى اعتقال لو شيا – شوان ! قبل ان تفتح له مغاليق قلبها اختطفه الرجعيون منها . وبعيد اعتقاله ، حينما كانت الفرصة تسنح لها او يحوطها الخطر وتتناوشها المصاعب ، كان تفكيرها فيه يملؤها قوة وشجاعة لاحدود لهما . لكن الأيام والشهور توالت . ومرّ عام كامل، وتبعه عام آخر وعام ثالث ... وأخيرا هذه هي يقال لها : « استشهد في سبيل قضيتنا » . أعدم في جبل « الزهر الممطر » ! احترق قلبها تفجعا وغضبا لهذه الضربة الوحشية . يجب أن تثأر للوشيا – شوان ، ان تثأر للآلاف من الآخرين الذين ضحوا بحياتهم في سبيل الثورة ، وان تثأر لسعادتها التي ضاعت . وقفت فجأة ، وقبضت على يد ليو يي–فينغ الواقفة الى جانبها ، وحدقت في المرأة التي تكبرها سنا بعينين حمراوين منتفختين ، وصاحت : « أماه ، دعيني أذهب الى المنطقة السوفييتية! اريد ان أحمل السلاح ... انا لا أستطيع احتمال هذه الحياة الهادئة هنا!»

جلست ليو يي – فينغ على السرير ، ولم تعطها جوابا . كان العذاب مرتسما على وجهها الشاحب الجامد .

– هسيو – لان ، هذه رسالة أخرى يحسن ان تقرئيها . لقد عانيت أنا مرة مثل ماتعانين انت الآن .

واخرجت من جيب داخلي رقعة اخرى من ورق حال لونه .

– رسالة اخرى ؟

اخذت تاو – شينغ رقعة الورق الملطخة المجعدة . رمت ناحية صديقتها نظرة لا ارادية ، وبدات تقرأ في صمت :

٢٧ آذار ، ١٩٢٨

عزيزتي ،

نُطق بالحكم الذي كنت اتوقّع ، وهــذه رســالتي الاخيرة اليك . لاتحزني كثيرا .تذكري أن وقتك قد حان وأن لديك مسؤوليات ثقيلة . إعني عناية جيدة بالطفــل وبنفسك ايضا بحيث تتمكنين من ان تثأري لي !

هذا النهار لم يقرِّر مصيري ـ كنت اترقب ذلك منذ طويل زمن . انها عودتي الاخيرة الى البيت ـ موت مجيد . صدقيني ، لست متضايقا بل أنا فخور الفخر كله وسعيد السعادة كلها لانني قاتلت حتى اللحظة الاخيرة في سبيل قضية الثورة البروليتارية . ياعزيزتي ، انت رفيقة وفيــة تستطيع ان تصمد للمحن . فلنفترق عن بعض في سرورإذن.

شيء واحد يقلقني : مزاجك العنيد واندفاعك المتهوّر ... النصر لايمكن احرازه في ليلة واحدة ـ فلا تزال امامنا طريق طويلة حافلة بالصعوبات . فاندمجي بين الجماهيرفي حماسة واعملي بشدة . حذار من ان تقترفي عملاً طائشــا بسبب من موتي !

اذا كان الطفل سيرهقك فاعثري على من يتبنّاه . لاتسمحي للطفل أن يقف حجر عثرة في سبيلك . ومن اجل خاطري ، هل تطلقين على ابننا الوحيد اسم نيين ـ لين؟(١) .

آخر حديثي اليك : ناضلي حتى النهايــة ! شــدّي عزيمتك كيما تصيرين مناضلة بلشفية ابية ! وكوني شجاعة بحيث تكملين مهمتي التي لم تنته !

وين ـ لين

تشاركت المرأتان ، اللتان تشابه قدراهما ، في أحزانهما هاتيــك الليلة . قالت ليو يي ـ فينغ بعدما مسحت الدموع عن وجنتيها : «لم تكفّ رسالة زوجي الاخيرة عن تدفاق الالهام في نفسي . فمنذ استشهاده، يا هسيو ـ لان ، منذ أن قرأت رسالته لأول مرة ، طرأ عليّ تبدّل عظيم . ورغم أنني امرأة عاملة فقد اعتدت ان أكون غير عملية ، مهملة ،

---

(١) « اذكروا لين » .

طائشة ، غالبا ماتلعب بي الاهواء الانانية ، ولكنني منذ ذلك الوقت بدأت بصورة تدريجية أغدو اكثر عملية وثباتا وأنجز عملي بشكل أقرب الى الكمال . وقد حفظت هذه الرسالة خلال الازمنة الاكثر خطورة باعتبارها نفيرا قويا في مسيرة تقدمنا وباعثا لايني يذكرني » . وقفت وأطفأت النور . شعّ ضوء القمر من خلال ورق النافذة الممزق فيما هي تمسك يد تاو ـ شينغ وعيناها تومضان ببريق غريب ، رغم ان صوتها كان حلوا خافتا : « هسيو ـ لان ، لقد قاسيتُ كثيرا ـ وأحيانا وجدت انه يصعب ان احتمل ... قتل زوجي اولا . وما أكثر ماسمعت أن رفيقا طيبا كنت اجتمع به في اللقاءات او اتحدث اليه منذ أيام قليلة قد نفذ به حكم الاعدام . أما ولدي ـ ولدنا الوحيد الذي اختار له زوجي اسم نيين ـ لين ـ فقد كان في عهدة أسرة عمالية في شنغهاي اضطرت خلال الرعب الابيض الى الارتحال ، فلم اعد أعثرعلى ولدي. ارتديت لبوس امرأة فلاحة تحمل سلة لبيع الخضار ، ورحت أذرع الشارع الذي كانت الاسرة تعيش فيه ذهابا وايابا ، ابحث عن نيين ـ لين، غير ان ولدنا الوحيد كان قد اختفى دون ان يترك أثرا ... »

توقعت تاو ـ شينغ أن تنهار ، غير أن ليو يي ـ فينغ تحدثت في هدوء وكأنها تصف متاعب انسانة اخرى . ومع ذلك ارتجفت شفتاها قليلا ، والتمعت عيناها بالعبرات . وبدا أنها كانت تريد ان تقول أشياء اخرى ، لكن الكلمات خذلتها . وجنحت الى الصمت مبتسمة ابتسامة ساخرة .

كانت تاو ـ شينغ تتعلق بالمرأة التي تكبرها سنا طوال الوقت ، فمنذ نبأ موت لو شيا ـ شوان في الليلة الماضية لم تعد تكفّ عن الارتعاش . وفيما هي تراقب وجه صديقتها الناحل ، سألت وقد غصت بريقها : « كيف تدبرت أمورك خلال هذه الفترة كلها ، يا أماه ؟ لقد مرت سبع سنوات على وفاة والدي » .

استعادت ليو يي ـ فينغ هدوءها ، وقالت في بطء « اعتقلوني بعد موته . وبصر نيين ـ لين النور في السجن . عذبوني بوحشية خلال فترة سجني التي امتدت ثلاث سنوات ، وكسروا عددا من اضلاعي . وعندما اطلقوا سراحي كنت عبارة عن حطام جسدي . لربما تعتقدين أنني في الخمسين من عمري ، اليس كذلك ، يا هسيو ـ لان ؟ في الحقيقة

اني لا أتجاوز الثالثة والثلاثين » . وابتسمت ابتسامة مبهمة على حين فجأة : « أنا لست عجوزا ، ولكنني فقدت كل فرصة لي في حياة بيتية سعيدة . اتمنى لك كل سعادة ، يا هسيو — لان !.. » واسترسلت تقول في مزيد من الوقار والحماسة : « أريد ان أسديك نصيحة أسدانيها زوجي . اعملي بثبات وفق مايمليه عليك ضميرك . واذهبي حيثمايحتاج اليك الحزب أكثر . انت لاتحتاجين الى مسدس لقتال العدو . بل تستطيعين قتاله بريشتك ، بأفكارك — حتى ان لوح الغسيل هو سلاح في أيدينا » .

كانت تاو-شينغ قد ازدادت هدوءا ووقارا : « لاتقلقي . يا أماه! فقد ساعدتني رسالة والدي على الفهم ... واعدك أن اتعلم منك، والا اكف عن التعلم منكم ، أيها المضرسون » .

* * *

تحكي رواية «أنشودة الشباب» قصة طلاب جامعة بكين الوطنيين منذ زمن الاحتلال الياباني للشمال الشرقي عام ١٩٣١ وانتفاضة الحركة الطلابية عام ١٩٣٥ عشية حرب المقاومة ضد اليابان. وتكشف لنا عن نضال الشبان المثقفين بقيادة الحزب الشيوعي الصيني وانتفاضتهم الشجاعة ضد الاعتداء الإمبريالي الياباني وسياسة الكومنتانغ الاستسلامية.

إن التجارب التي مرت بها بطلة الرواية لين تاو-تشينغ ترسم الطريق التي سار عليها كثيرون من الشبان المثقفين الذين كانوا ضحية للخوف وخيبة الأمل، ثم نفضوا عنهم اليأس بعد أن نضجت تجاربهم خلال مرحلة النضال الثوري.

بيعت من هذه الرواية ملايين النسخ، وتداولها الشبان في كل مكان. وهذه أول ترجمة لها إلى اللغة العربية.

الناشر

النشر والتوزيع في الاقطار العربية

دار دمشق
بيروت: شارع سوريا ـ بناية صمدي وصالحة ص.ب ٨٧٢٧
دمشق: شارع بورسعيد هاتف ١١١٠٢٢ ـ ١١١٠٤٨

١٨ ل.ل